التفسير الأثري الجامع

الجزء الثالث

سورة البقرة ـ الآية ٤٧ - ٢١٨

محمد هادي معرفة

التفسير الأثري الجامع

الجزء الثالث

سورة البقرة ـ الآية ٤٧-١١٨

محمد هادي معرفة

مؤسسة التمهيد

الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
قم المقدسة. شارع انقلاب. فرع ١٨. رقم ٤٩
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥٣١٩٥٥

التفسير الأثري الجامع

الجزء الثالث

العلّامة محمدهادي معرفة

الطبعة الأولى
١٣٨٧ هـ ش، ١٤٢٩ هـ ق، ٢٠٠٨ م
الكمّية: ٣٠٠٠ نسخة
مطبعة ستاره

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع:
منشورات ذوي القربى: قم المقدسة، شارع إرم،
بناية القدس التجارية
هاتف: ٠٠٩٨/٢٥١/٧٧٤٤٦٦٣
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥١٧٧٤٨

سعر الدورة: ٣٥٠٠٠ تومان

ISBN: 978-600-5079-04-3 (Vol.3)

ISBN: 978-600-5079-08-1 (Vol.SET)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

فهرس مواضيع الكتاب

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ... وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ ١٣

«وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً» ١٦

«وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» ١٩

«وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» ٢١

«وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» ٢٣

ملحوظة ٢٤

كلام في الشفاعة حسب المستفاد من الكتاب والسنّة ٢٦

تعريف بالشفاعة ٢٨

شرائط مشروعيّة الشفاعة ٢٩

آيات الشفاعة ٣٢

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴿٤٩﴾ ٤٥

«وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» ٤٦

«يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» ٤٧

«وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ» ٥١

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴿٥٠﴾ ٥٣

قصّة الخروج ٥٤

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥١ ـ ٥٢﴾ ٦٩
«ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ» ٧١
قصّة العجل والسامريّ ٧٩
مواضع الاختلاف بين القرآن والتوراة بشأن العجل ٨٠
نظرة في قولة السامريّ ٨١
ماكانت صفة العجل؟ ٨٢
مَن هُو السامريّ؟ ٨٣
«ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ» ٨٥
كلام في «لعلّ» حيث جاء في القرآن ٨٥
«تَشْكُرُونَ» ٨٧
كلام عن حقيقة الشكر ومراحله الثلاث: علم وحال وعمل ٩٤

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ٩٩

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا ﴿٥٤﴾ ١٠١
حديث توبة بني إسرائيل! وقتل أنفسهم! ١٠١
تحقيق لطيف ١١١

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٥ ـ ٥٦﴾ ١١٧
هل يصحّ التكليف بعد الرجعة؟ ١٢٧
وقفة عند مسألة الرؤية ١٣٠

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿٥٧﴾ ١٣٧

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ... بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴿٥٨ ـ ٥٩﴾ ١٥٣

كلام في تأويل الحطّة ١٧٣

«فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» ١٨٢

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ... وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿٦٠﴾ ١٨٧

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴿٦١﴾ ١٩٦

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴿٦٢﴾ .. ٢١١

نكتة ظريفة ٢١٤

هل لغير المؤمن نصيب في الآخرة؟ ٢١٥

ملحوظة ٢١٩

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتيناكُم... لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴿٦٣ ـ ٦٤﴾ ٢٣٥

حادث نتوق الجبل ٢٣٥

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ... وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴿٦٥ ـ ٦٦﴾ ... ٢٤٨

كلام عن المسوخ ٢٦٢

ماذا تهدينا ملامح التعبير؟ ٢٦٥

غريبة ٢٧٠

ملحوظة ٢٧٠

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً... وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٦٧ ـ ٧٣﴾ ... ٢٧١

التشديد في التكليف عقوبةً ٢٩٦

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴿٧٤﴾ ٣٠٠

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ... أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٥ـ٧٧﴾ ٣٠٣

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ... أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٨ـ٨٢﴾ ... ٣١٣

من هو الأمّيّ؟ ٣١٨

«فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ» ٣١٩

ما هو الويل؟ ٣٢٠

«وَ قالوا لَنْ تَمَسَّنَا النّار» ٣٢٢

«بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ٣٢٥

مسألة الخلود في النار ٣٢٩

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ... وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٣ـ٨٦﴾ ٣٣١

وَلَقَدْ آتَينا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ... فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧ـ٨٨﴾ ٣٤٤

«وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» ٣٤٦

الروح في المصطلح القرآني ٣٤٨

روح القُدُس ٣٥٥

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ» ٣٦٢

«بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ» ٣٦٦

القلوب أوعية فخيرها أوعاها ٣٦٧

القلب في المصطلح القرآني ٣٧٢

وَ لَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٩ـ٩٣﴾ ٣٧٥

«وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ» ٣٧٨

«وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ» ٣٧٨
«بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ» ٣٨٤
«فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ» ٣٨٩
«فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ» ٣٩٣
«وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» ٣٩٥
«ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ» ٣٩٥
«وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ» ٣٩٥
«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» ٣٩٥
«وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» ٣٩٦

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴿٩٤ ـ ٩٦﴾ . ٣٩٨

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ... كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٩٧ ـ ١٠١﴾ ٤٠٨
غرائب آثار بشأن جبريل وميكال ٤١٧
«وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ» ٤٢٨
«أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» ٤٢٨
عهد النبيّ عند مهاجره إلى المدينة ٤٢٩
«وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ» .. ٤٣٣

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿١٠٢ ـ ١٠٥﴾ ٤٣٤
كلام عن الإذن منه تعالى ٤٣٦
«وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ» ٤٣٦
«وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» ٤٤١

غرائب وعجائب عن هاروت وماروت ومدينة بابل البائدة! ٤٤٣

الآثار بشأن البلاد ٤٤٣

الآثار بشأن مدينة بابل ٤٤٥

مدينة بابل بين الأسطورة والواقع ٤٤٦

هاروت و ماروت ٤٤٩

الآثار بشأن كوكبة الزهرة ٤٥٦

كلام عن عصمة الملائكة ٤٦٥

وقفة عند مسألة السحر ٤٦٦

«وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» . ٤٦٨

«وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» ٤٧٠

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ٤٧١

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ» ٤٧٩

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ... وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ﴿١٠٦ ـ ١٠٧﴾ . ٤٨١

كلام عن النسخ في القرآن ٤٨٦

١ ـ نسخ الحكم والتلاوة معاً ٤٨٨

٢ ـ نسخ التلاوة دون الحكم ٤٩١

مزعومة نسخ التلاوة ٤٩٥

مسألة الإنساء ٥٠٢

٣ ـ نسخ الحكم دون التلاوة ٥٠٤

ملحوظة ٥١١

روايات العرضة الأخيرة للقرآن ٥٢٤

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُـئِلَ مُوسَىٰ... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١٠٨ ـ ١١٠﴾....... ٥٢٦
«أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ» ٥٢٧
«وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ» ٥٢٩
«وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً» ٥٢٩

وَ قَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ... فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١١١ ـ ١١٣﴾....... ٥٣٢

وَ مَنْ أَظْـلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَـٰئِكَ﴿١١٤﴾........ ٥٣٦

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿١١٥﴾ ٥٤١
ملحوظة ٥٤٣
حادث تحويل القبلة إلى البيت العتيق ٥٤٤
ملحوظة ٥٤٦
القبلة هي جهة الكعبة وسمتها........ ٥٤٩
الكعبة من تخوم الأرض إلى عنان السماء ٥٥١
الصلاة لأربع جهات عند اشتباه القبلة ٥٥١
إذا صلّى ظانّاً ثمّ تبيّن الخلاف ٥٥٢
الصلاة على الراحلة........ ٥٥٣
صلاة المتطوّع على الراحلة أو ماشياً ٥٥٤
الصلاة في جوف الكعبة ٥٥٧
الصلاة على ظهر الكعبة ٥٥٧
قبلة الدعاء والمسألة في غير الصلاة ٥٥٩
أين وجه الله؟........ ٥٥٩

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ... قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴿١١٦ ـ ١١٨﴾ . ٥٦١
«وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» ٥٦٢
«قَانِتُونَ» ٥٦٥
«بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» ٥٦٧
«وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» ٥٦٨
وقفة عند مسألة الإرادة ٥٦٩
إرادة تكوينيّة وإرادة تشريعيّة ٥٧٣
«وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ» ٥٧٥

قال تعالى:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

تأكيد وتكرار لما سبق من التذكير.

والتفضيل المنوّه عنه في الآية بشأن بني إسرائيل، تفضيل موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم. فأمّا بعد ما عتوا عن أمر ربّهم وعصوا أنبياءهم وجحدوا نعم الله عليهم ونبذوا العهود والمواثيق، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلّة والمسكنة، وقضى عليهم بالبعثرة والتشريد وحقّ عليهم الوعيد. ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[1]. نعم وفي نفس الوقت تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله عليهم وعهده إليهم، وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان وإلى عهد الله، شكراً على تفضيله لآبائهم. ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الّذي يناله المؤمنون.

هذا، ومع الإطماع في الفضل والنعمة، تحذير من اليوم الّذي ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾؛ حيث التبعة هناك فرديّة والحساب شخصيّ، وكلّ نفس مسؤولة عن ذاتها ولا تُغني نفسٌ عن نفسٍ شيئاً.

وهذا هو المبدأ الإسلامي الحنيف، مبدأ التبعة الفرديّة القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان ذاته، وعلى العدل المطلق من الله! وهو أقوم المبادئ الّتي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره. وكلاهما عامل قويّ من عوامل التربية، فوق أنّه قيمة إنسانيّة تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام.

وهكذا ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ إذ لا تنفع يومئذ شفاعة من لم يُقدّم إيماناً

---

(١) الإسراء ١٧: ٨.

وعملاً صالحاً؛ كما لاتؤخذ فدية منه لإعفائه عمّا ارتكبه من كفر وآثام. ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ حيث لاناصر لهم يعصمهم من أمر الله، وينجيهم من سخطه.

وجاء التعبير هنا بالجمع، مع الالتفات من الخطاب إلى صيغة الغيبة، إيذاناً بأنّه مبدأ كلّي ينال المخاطبين وغيرهم من الناس أجمعين.

ويشهد لإرادة هذا العموم:

[١٦٨٣/٢] ما رواه العيّاشي بإسناده عن أبي داوود عمّن سمع رسول الله ﷺ يقول: «أنا عبد الله، اسمي أحمد. وأنا عبد الله، اسمي إسرائيل. فما أمره فقد أمرني وما عناه فقد عناني»[١].

يعني ﷺ أنّ ما ورد بشأن إسرائيل وذرّيّته، من فضيلة ونعم فضّلهم الله بها، فهو إنّما ورد باعتبار أنّه عبدٌ لله ـ حيث ذلك هو مفاد لفظة إسرائيل العبريّة ـ و بذلك يعمّ كلّ عبد صالح أخلص العبوديّة لله، فيشمله وذرّيّته الطيّبة ذلك الإنعام والإفضال.

وأنا ـ بسمتي عبدٌ لله: إسرائيل ـ كنت الأحرى بهذا الشمول.

قال العلّامة المجلسي: لعلّ المعنى أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢] في الباطن (أي الفحوى العامّ المستفاد من لحن الآية) هم آل محمّد ﷺ لأنّ إسرائيل، معناه: عبد الله.

وأنا ابن عبد الله[٣]. وأنا عبد الله لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[٤].

فكلّ خطاب حَسَن يتوجّه إلى بني إسرائيل في الظاهر، فهو يتوجّه إليّ وإلى أهل بيتي في الباطن[٥].

قلت: وإلى ذلك ينظر ما ورد بأنّ المراد ـ في مفهوم الآية العامّ ـ هم آل محمّد ﷺ:

[١٦٨٤/٢] فقد روى العيّاشي بإسناده إلى محمّد بن عليّ عن أبي عبد الله ؑ قال: «سألته عن قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؟ قال: هي خاصّة بآل محمّد»[٦].

---

(١) العيّاشي ١: ٦٢ ـ ٦٣ / ٤٥؛ البحار ٢٤: ٣٩٧ / ١١٩. (٢) البقرة ٢: ٤٧.

(٣) زيادة لفظة «ابن» لعلّها من اختلاف النسخ في رواية الحديث.

(٤) الإسراء ١٧: ١. (٥) البحار ٢٤: ٣٩٧ ـ ٣٩٨، بيان تحت رقم ١١٩.

(٦) العيّاشي ١: ٦٢ / ٤٤؛ البحار ٢٤: ٣٩٧.

[١٦٨٥/٢] وروى بإسناده إلى هارون بن محمّد الحلبي قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله: ﴿يَابَنِيَ إِسْرَائِيلَ﴾؟ قال: هم نحن خاصّة!»[١].

[١٦٨٦/٢] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطّاب أنّه كان إذا تلا: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: مضى القوم وإنّما يعني به أنتم![٢]

[١٦٨٧/٢] وأخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: أيادي الله عليكم وأيّامه[٣].

[١٦٨٨/٢] وأخرج عبدبن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: نعمة الله التي أنعم على بني إسرائيل فيما سمّي وفيما سوى ذلك؛ فجّر لهم الحجر وأنزل عليهم المنّ والسلوى وأنجاهم من عبوديّة آل فرعون![٤].

[١٦٨٩/٢] وقال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: لفظ العالمين عامّ ومعناه خاصّ، وإنّما فضّلهم على عالمي زمانهم بأشياء خصّهم بها مثل المنّ والسلوى والحجر الّذي انفجر منه اثنتا عشرة عيناً[٥].

[١٦٩٠/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: فُضّلوا على العالم الّذي كانوا فيه، ولكلّ زمان عالم[٦].

[١٦٩١/٢] وأخرج عبدبن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: على من هم بين ظهرانيه[٧].

---

(١) العيّاشي ١: ٦٢ / ٤٣.

(٢) الدرّ ١: ١٦٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٤ / ٤٩٦.

(٣) الدرّ ١: ١٦٥؛ الطبري ٤: ٢٢٩ / ٩٠٦٩، سورة المائدة، الآية ٢٠ و ٨: ٢٤٢ / ١٥٦٠٤، سورة إبراهيم، الآية ٦، بلفظ «أيادي الله عندكم وأيّامه»؛ البخاري ٥: ٢١٩، كتاب التفسير، سورة إبراهيم، بلفظ: «أيادي الله عندكم وأيّامه».

(٤) الدرّ ١: ١٦٥؛ الطبري ١: ٣٥٦ / ٦٧١.

(٥) القمي ١: ٤٦.

(٦) الدرّ ١: ١٦٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٨ / ٤٧، بلفظ: قال: فُضّلوا على عالم ذلك الزمان؛ الطبري ١: ٣٧٧ / ٧٢٧، بلفظ: قال: فضّلهم على عالَم ذلك الزّمان؛ ابن كثير ١: ٩٢ نقلاً عن أبي العالية ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد؛ مجمع البيان ١: ١٩٨، عن ابن عبّاس بلفظ: قال ابن عبّاس: أراد به عالمي أهل زمانهم.

(٧) الدرّ ١: ١٦٥؛ الطبري ١: ٣٧٨ / ٧٢٩.

[١٦٩٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أُعطوا من المُلك والرسل والكتب، على من كان في ذلك الزمان، فإنّ لكلّ زمان عالَماً[١].

[١٦٩٣/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: عالم أهل ذلك الزمان. وقرأ قول الله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢] قال: هذه لمن أطاعه واتّبع أمره، وقد كان فيهم القردة وهم أبغض خلقه إليه، وقال لهذه الأمّة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣]. قال: هذه لمن أطاع الله واتّبع أمره واجتنب محارمه[٤].

[١٦٩٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني اليهود بالمدينة ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أجدادكم. والنعمة «عليهم» حين أنجاهم من آل فرعون فأهلك عدوّهم، والخير الّذي أنزل عليهم في أرض التيه، وأعطاهم التوراة. ثمّ قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي ذلك الزمان يعني أجدادهم من غير بني إسرائيل[٥].

[١٦٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، قال: حدّثنا ابن علية، وحدّثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبدالرزّاق، قال: أخبرنا معمر جميعاً، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنّكُمْ وَفّيْتُمْ سَبْعِين أُمّة» قال يعقوب في حديثه: «أنتم آخرها». وقال الحسن: «أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾

[١٦٩٦/٢] أخرج الحاكم وصحّحه عن مجاهد عن ابن عبّاس قال: قرأتُ على أُبيّ بن كعب:

---

(١) الدرّ ١: ١٦٥؛ الطبري ١: ٣٧٨ / ٧٢٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٤ / ٤٩٧؛ ابن كثير ١: ٩٢، وزاد: وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد؛ التبيان ١: ٢٠٩، رواه ما بمعناه عن أبي العالية وغيره.

(٢) الدخان ٤٤: ٣٢.

(٣) آل عمران ٣: ١١٠.

(٤) الطبري ١: ٣٧٨ / ٧٣٠.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٦) الطبري ١: ٣٧٨ / ٧٣١؛ ابن ماجة ٢: ١٤٣٣ / ٤٢٨٨، باب ٣٤؛ الترمذي ٤: ٢٩٤ / ٤٠٨٧، أبواب تفسير القرآن، سورة آل عمران؛ مسند أحمد ٥: ٥.

﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شيئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ قال أُبي: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿لا تَجزي﴾ بالتاء، ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ بالتاء ﴿وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ بالياء[1].

[١٦٩٧/٢] وأخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن الأعمش قال: في قراءتنا قبل الخمسين من البقرة مكان ﴿وَ لَا تُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: لا يُوخذ[2].

* * *

قال أبو جعفر: وتأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾: واتّقوا يوماً لاتجزي فيه نفس عن نفس شيئاً. وجائز أيضاً أن يكون تأويله: واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً، كما قال الراجز:

قَدْ صَبَّحَتْ صَبَّحَها السّلامُ[3] بِكَبِدٍ خالَطَها سَنَامُ
فِي ساعَةٍ يُحَبُّها الطعامُ

وهو يعني: يُحَبُّ فيها الطعام، فحذفت الهاء الراجعة على «اليوم»، إذ فيه اجتزاء بما ظهر من قوله: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ﴾ الدالّ على المحذوف منه عمّا حُذف، إذكان معلوماً معناه.

وقد زعم قوم من أهل العربيّة أنّه لايجوز أن يكون المحذوف في هذا الموضع إلّا الهاء. وقال آخرون: لايجوز أن يكون المحذوف إلّا «فيه». وقد دلّلنا فيما مضى على جواز حذف كلّ ما دلّ الظاهر عليه.

وأمّا المعنى في قوله: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ فإنّه تحذير من الله تعالى عباده الّذين خاطبهم بهذه الآية، عقوبته أن تحلّ بهم يوم القيامة، وهو اليوم الّذي لاتجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

وأمّا تأويل قوله: ﴿لا تَجزي نَفْسٌ﴾ فإنّه يعني: لا تغني. كما:

[١٦٩٨/٢] قال السُدّي في قوله: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ﴾ قال: أمّا تجزي: فتغني.

---

(١) الحاكم ٢: ٢٣٣؛ كتاب التفسير، سورة البقرة؛ الدرّ ١: ١٦٥ ـ ١٦٦ و(ط: مركز هجر) ١: ٣٦٣.

(٢) الدرّ ١: ١٦٦؛ المصاحف للسجستاني: ٥٧.

(٣) صبّحت: سقتهم الصبوح. وهو ما يشرب صباحاً من خمر أو لبن.

قال أبو جعفر: وأصل الجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض، يقال: جزيته قرضَه ودينَه أجزيه جزاء، بمعنى: قضيته دينه، ومن ذلك قيل: جزى الله فلاناً عنّي خيراً أو شرّاً، بمعنى: أثابه عنّي وقضاه عنّي ما لزمني له بفعله الذي سلف منه إليّ. وقد قال قوم من أهل العلم بلغة العرب: يقال: أجزيت عنه كذا: إذا أعنته عليه، وجزيت عنك فلاناً: إذا كافأته. وقال آخرون منهم: بل جزيت عنك: قضيت عنك، وأجزيت: كفيت. وقال آخرون منهم: بل هما بمعنى واحد، يقال: جزت عنك شاة وأجزت، وجزى عنك درهم وأجزى، ولا تَجْزي عنك شاة ولا تُجْزي[1] بمعنى واحد، إلّا أنهم ذكروا أنّ جزت عنك ولاتَجزي عنك من لغة أهل الحجاز، وأنّ أجزأ وتُجزئ من لغة غيرهم. وزعموا أنّ تميماً خاصّة من بين قبائل العرب تقول: أجزأت عنك شاة، وهي تُجزئ عنك. وزعم آخرون أنّ جَزَى بلا همز: قضى، وأجزأ بالهمز: كافأ. فمعنى الكلام إذاً: واتقوا يوماً لا تقضي نفس عن نفس شيئاً ولاتغني عنها غِنىً.

فإن قال لنا قائل: وما معنى: لا تقضي نفس عن نفس، ولا تغني عنها غنى؟ قيل: هو أنّ أحدنا اليوم ربما قضى عن ولده أو والده أو ذي الصداقة والقرابة دينه؛ وأمّا في الآخرة فإنّه فيما أتتنا به الأخبار عنها يسرّ الرجل أن يبرد له على ولده أو والده حقّ[2]، وذلك أنّ قضاء الحقوق في القيامة من الحسنات والسيئات. كما:

[١٦٩٩/٢] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً كانت عنده لأخيه مظلمة في عِرض أو مالٍ فاستحلّه قبل أن يؤخذ وَلَيْسَ ثمّ دِينارٌ ولا دِرهَمٌ، فإنْ كانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَناتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَناتٌ حَمّلُوه عَلَيْهِ مِنْ سَيئاتِهِم»[3].

[١٧٠٠/٢] وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «لايموتّن أحدكم وعليه دين، فإنّه ليس هناك دينار ولادرهم، إنّما يقتسمون هنالك الحسنات والسيّئات» وأشار رسول الله ﷺ بيده يميناً وشمالاً.

---

(١) تجزي الأولى مفتوحة التاء، والثانية مضمومة. أو بالعكس.

(٢) يقال: بَرَد الحقُّ عليه أو له، إذا ثبت.

(٣) الترمذي ٤: ٣٦ـ٣٧ / ٢٥٣٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قال أبو جعفر: فذلك معنى قوله جلّ ثناؤه: ﴿لا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ يعني أنّها لاتقضي عنها شيئاً لزمها لغيرها؛ لأنّ القضاء هنالك من الحسنات والسيّئات على ما وصفنا. وكيف يقضي عن غيره ما لزمه من كان يسرّه أن يثبت له على ولده أو والده حقّ، فيأخذه منه ولا يُتجافى له عنه؟[1]

وقد زعم بعض نحويّي البصرة أنّ معنى قوله: ﴿لا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾: لا تجزي منها أن تكون مكانها. وهذا قول يخالفه ظاهر القرآن وذلك أنّه غير معقول في كلام العرب أن يقول القائل: ما أغنيتَ عنّي شيئاً، بمعنى: ما أغنيتَ منّي أن تكون مكاني، بل إذا أرادوا الخبر عن شيء أنّه لايجزي من شيء، قالوا: لايجزي هذا من هذا، ولا يستجيزون أن يقولوا: لايجزي هذا من هذا شيئاً. فلو كان تأويل قوله: ﴿لا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ ما قاله هذا القائل، لقال: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ كما يقال: لاتجزي نفس من نفس، ولم يقل: «لاتجزي نفس من نفس شيئاً». وفي صحّة التنزيل بقوله: «لاتجزي نفس عن نفس شيئاً» أوضح الدلالة على صحّة ما قلنا، وفساد قول هذا القائل![2].

[١٧٠١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿لا تَجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ قال: لاتغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً[3].

[١٧٠٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجزي نَفْسٌ﴾ يقول: لاتُغني نفس كافرة ﴿عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ من المنفعة في الآخرة. ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ يعني: من هذه النفس الكافرة[4].

قوله تعالى: ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾

قال أبو جعفر: والشفاعة مصدر من قول الرجل: شفع لي فلان إلى فلان شفاعة، وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنّما قيل للشفيع شفيع وشافع، لأنّه ثنّى المستشفع به، فصار له شَفْعاً. فكان ذو

---

(١) تجافى له عن الشيء: أعرض عنه ولم يلازمه بطلبه، وتجاوز له عنه.

(٢) الطبري ١: ٣٧٩ ـ ٣٨١، بتلخيص.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٠٤ / ٤٩٩، عن السدّيّ عن أبي مالك؛ الدرّ ١: ١٦٦.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٠٣.

الحاجة قبل استشفاعه به في حاجته فرداً، فصار صاحبه له فيها شافعاً، وطلبُه فيه وفي حاجته شفاعة؛ ولذلك سمّي الشفيع في الدار وفي الأرض شفيعاً لمصير البائع به شَفْعاً[١].

فتأويل الآية إذاً: واتّقوا يوماً لاتقضي نفس عن نفس حقّاً لزمها لله ـ جلّ ثناؤه ـ ولا لغيره، ولايقبل الله منها شفاعة شافع، فيترك لها ما لزمها من حقّ! وقيل: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنّهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحبّاؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا! فأخبرهم الله ـ جلّ وعزّ ـ أنّ نفساً لاتجزي عن نفس شيئاً في القيامة، ولايُقبل منها شفاعة أحد فيها، حتّى يُستوفى لكلّ ذي حقّ منها حقّه. كما:

[١٧٠٣/٢] روى ابن عفّان: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الجمّاء ـ وهي الّتي لاقرن لها ـ لتقتصّ من القرناء يوم القيامة، كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾[٢] الآية[٣].

فآيسهم الله ـ جلّ ذكره ـ ممّا كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله، مع تكذيبهم بما عرفوا من الحقّ وخلافهم أمر الله في اتّباع محمّد ﷺ وما جاءهم به من عنده، بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلّهم، وأخبرهم أنّه غير نافعهم عنده إلّا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعل ما سنّ فيهم من ذلك إماماً لكلّ من كان على مثل منهاجهم، لئلّا يطمع ذو إلحاد في رحمة الله!

قال أبو جعفر: وهذه الآية وإن كان مخرجها عامّاً في التلاوة، فإنّ المراد بها خاصّ في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ:

[١٧٠٤/٢] أنّه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[٤].

[١٧٠٥/٢] وأنّه قال: «ليس من نبيّ إلّا وقد أُعطي دعوةً، وإنّي خبأت دعوتي شفاعةً لأُمّتي، وهي

---

(١) الطبري ١: ٣٨١. (٢) الأنبياء ٢١: ٤٧.

(٣) مسند أحمد ١: ٧٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٥٢؛ كنزالعمال ١٤: ٣٧٣ / ٣٨٩٨٦. ولكنّ فيه نكارة، إذ كيف يُقتصّ من بهيمة لاتشعر بالعدوان؟! ومن ثمّ فهو مرفوض على أصول الحكمة.

(٤) مسند أحمد ٣: ٢١٣؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤١ / ٤٣١٠، عن جابر؛ وأبو داوود ٢: ٤٢١ / ٤٧٣٩، عن أنس بن مالك؛ الترمذي ٤: ٤٥ / ٢٥٥٢ عن أنس و ٢٥٥٣ عن جابر.

نائلةٌ إن شاء الله منهم من لايشرك بالله شيئاً»(١).

فقد تبيّن بذلك أنّ الله ـ جل ثناؤه ـ قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبيّنا محمّد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأنّ قوله: ﴿وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ إنّما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وليس هذا من مواضع الإطالة في القول في الشفاعة والوعد والوعيد، فنستقصي الحِجاجَ في ذلك، وسنأتي على ما فيه الكفاية في مواضعه إن شاء الله تعالى(٢).

وسوف في نهاية تفسير الآية نتعرّض لمسألة الشفاعة والنظر في أطرافها بما يتناسب وضرورة البحث هنا، نظراً لشبهات أُثيرت حولها من الأجانب وبعض المنتحلين للإسلام بصورة شكليّة، فيتصوّرون من مسألة الشفاعة ما تعارفته أوساطهم العامّيّة من المحاباة في الدين والمداهنة مع الآثمين.

كلّا، إنّها ابتغاء الوسيلة إليه ـ سبحانه ـ شَفْعا لما يقدّمه العبد التائب إلى الله من حسنات وتوبة واستغفار.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(٣).

هذه هي الشفاعة المقبولة المأذون فيها، فلا ييأس عبد تائب آئب إلى الله لتشمله رحمة الله الواسعة.. ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾(٤). وسوف توافيك بقيّة الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾

قال أبو جعفر: والعدل في كلام العرب بفتح العين: الفدية. كما:

[١٧٠٦/٢] عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: يعني فداء.

[١٧٠٧/٢] وعن السُدّي قال: أمّا عَدْل فيعدلها من العِدْل، يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تُقبل منها.

---

(١) مسند أحمد ٤: ٤١٦؛ أبويعلى ٤: ٢١٥، كنزالعمّال ١٤: ٣٩١ / ٣٩٠٤٦، كلّهم بتفاوت.

(٢) الطبري ١: ٣٧٩ ـ ٣٨٣. (٣) النساء ٤: ٦٤.

(٤) يوسف ١٢: ٨٧.

[١٧٠٨/٢] وعن قتادة قال: لو جاءت بكلّ شيء لم يقبل منها.

[١٧٠٩/٢] وعن ابن عبّاس قال: بَدَل، والبدل: الفدية.

[١٧١٠/٢] وعن ابن زيد قال: لو أنّ لها ملء الأرض ذهباً لم يقبل منها فداء. قال: ولو جاءت بكلّ شيء لم يقبل منها.

[١٧١١/٢] وعن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من أهل الشام أحسن عليه الثناء، قال: قيل يا رسول الله ما العدل؟ قال: «العَدْلُ: الفِدْيَةُ».

قال أبوجعفر: وإنّما قيل للفدية من الشيء والبدل منه عدل، لمعادلته إيّاه، وهو من غير جنسه، ومصيره له مثلاً من وجه الجزاء، لا من وجه المشابهة في الصورة والخلقة. كما قال ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾(١) بمعنى: وإن تَفْدِ كلّ فدية لا يؤخذ منها. يقال: هذا عَدْله وعَدِيله. وأمّا العِدْل بكسر العين، فهو مثل الحِمْل المحمول على الظهر، يقال: عندي غلام عِدْل غلامك، وشاة عِدْل شاتك بكسر العين، إذا كان غلام يعدل غلاماً، وشاة تعدل شاة، وكذلك في كلّ مثل للشيء من جنسه، فإذا أُريد أنّ عنده قيمته من غير جنسه فُتحت العين فقيل: عندي عَدْل شاتك من الدراهم. وقد ذُكر عن بعض العرب: أنّه يكسر العين من العِدْل الذي هو بمعنى الفدية، لمعادلة ما عادله من جهة الجزاء، وذلك لتقارب معنى العَدْل والعِدْل عندهم، فأمّا واحد الأعدال فلم يسمع فيه إلّا عِدْل بكسر العين(٢).

[١٧١٢/٢] وروى العيّاشي بإسناده إلى إبراهيم بن فضيل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «العَدْل، في قول أبي جعفر عليه السلام: الفداء»(٣).

[١٧١٣/٢] وهكذا روي عن أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «لا يؤخذ منها عَدْل، لا يقبل منها فداء مكانه يُمات ويترك هو فداء»(٤).

[١٧١٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أميّة بن يزيد القرشي قال: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما العَدْل

(١) الأنعام ٦: ٧٠.

(٢) الطبري ١: ٣٨٣ ـ ٣٨٤، بتصرّف وتخليص.

(٣) العيّاشي ١: ٧٦ / ٨٦؛ نورالثقلين ١: ٧٧ / ١٨٩. البحار ٨: ٦١ / ٨٤.

(٤) تفسير الإمام: ٢٤١ / ١١٩؛ البرهان ١: ٢١٢ / ٤.

يا رسول الله؟ قال: الفدية»[١].

[١٧١٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني فداء كفعل أهل الدنيا بعضهم من بعض[٢].

قوله تعالى: ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

قال أبو جعفر: وتأويل قوله: ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني أنّهم يومئذٍ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية؛ فقد بطلت هنالك المحاباة واضمحلّت الرُّشا والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى العَدْل الجبّار الذي لا ينفع لديه الشُفَعاء والنُصَراء، فيجزي بالسيّئة مثلها وبالحسنة أضعافها. وذلك نظير قوله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[٣].

[١٧١٦/٢] وكان ابن عبّاس يقول في معنى قوله: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾[٤]: مالكم لا تمانعون منّا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم!

وقد قال بعضهم في معنى قوله: ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: وليس لهم من الله يومئذٍ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم. وقد قيل: ولا هم ينصرون بالطلب فيهم والشفاعة والفدية.

قال أبو جعفر: والقول الأوّل أولى بتأويل الآية، لما وصفنا من أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ إنّما أعلم المخاطبين بهذه الآية أنّ يوم القيامة يوم لا فدية لمن استحقّ من خلقه عقوبته، ولا شفاعة فيه، ولا ناصر له. وذلك قد كان لهم في الدنيا، فأخبر أنّ ذلك يوم القيامة معدوم لا سبيل لهم إليه[٥].

[١٧١٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يمنعون من العذاب[٦].

[١٧١٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قال: يوم القيامة[٧].

---

(١) معاني الأخبار: ٢٦٥ / ٢؛ البحار ٢٧: ٦٦.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٠٣.
(٣) الصافات ٣٧: ٢٤ ـ ٢٦.
(٤) الصافات ٣٧: ٢٥.
(٥) الطبري ١: ٣٨٤.
(٦) تفسير مقاتل ١: ١٠٣.
(٧) ابن أبي حاتم ١: ١٠٥ / ٥٠٤.

ملحوظة

وهناك وردت أحاديث بشأن الصرف والعدل الواردين في الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ.

[١٧١٩/٢] قال: «من أحدث حَدَثاً أو آوى مُحدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لايُقبل منه عدل ولا صرف يوم القيامة![١]

فقيل: يا رسول الله، ما الحدث؟ قال: من قَتَلَ نفساً بغير نفس، أو مَثَّلَ مُثْلَةً بغير قود، أو ابتدع بدعة بغير سنّة، أو انتهب نهبة ذات شرف!

فقيل: ما العَدْل، يا رسول الله؟ قال: الفدية.. وقيل: ما الصرف، يا رسول الله؟ قال: التوبة».

رواه أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين ابن بابويه الصدوق عن أبي نصر محمّد بن أحمد بن تميم السرخسي الفقيه بسرخس، قال: حدّثنا أبو لُبيد محمدبن إدريس الشامي، قال: حدّثنا إسحاق بن إسرائيل، قال: حدّثنا سيف بن هارون البرجمي عن عمروبن قيس الملائي عن أميّة بن يزيد القرشي، قال: قال رسول الله.. وساق الحديث[٢].

[١٧٢٠/٢] وهكذا روى عبدالرزّاق الصنعاني عن الثوري عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن الإمام أميرالمؤمنين ؑ قال: «المدينة حرام مابين عير إلى ثور، من أحدث فيها أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لايقبل منه صرف ولا عدل.

قال: ومن تولّى قوماً بغير إذن مواليهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

قال: وذمّة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم. فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لايُقبل منه عدل ولا صرف.

قال: الصرف والعدل: التطوّع والفريضة»[٣].

---

(١) راجع: البحار ٧٦: ٢٧٤ ـ ٢٧٦، باب ١٠٤، من أحدث حدثاً.

(٢) معاني الأخبار: ٢٦٥ / ٢، باب معنى قول النبيّ: من أحدث حدثاً.

(٣) المصنّف لعبدالرزّاق ٩: ٢٦٣ / ١٧١٥٣، باب ١٨ (حرمة المدينة). عير وثور: جبلان في طرفي المدينة.

[١٧٢١/٢] وروى عن ابن جُرَيج قال: حدّثنا الإمام جعفربن محمّد عن أبيه عن جدّه عليه السلام: «من آوى مُحدثاً لم يقبل منه يوم القيامة صرف ولاعدل. ومن تولّى غير مواليه فقد كفر بما أُنزل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم».

قال ابن جُريج: قلت لجعفر: من آوى محدثاً، الّذي يقتل؟ قال: نعم(١).

[١٧٢٢/٢] وروي عن مَعْمَر عن قتادة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال معمر: وقال جعفربن محمّد: قيل: «يا رسول الله: ما المحدث؟ قال: من جَلَد بغير حدٍّ أو قتل بغير حقّ»(٢).

[١٧٢٣/٢] وروى عن ابن جريج عن عبدالكريم أبي أميّة عن حميدبن عبدالرحمان بن عوف أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، أو تولّى مولى قوم بغير إذنهم، فعليه لعنة الله، لاصرف عنها ولاعدل».

قال ابن عوف: وما الحدث يا رسول الله؟ قال: «من انتهب نهبة يرفع لها الناس أبصارهم، أو مثّل بغير حدّ أو سنّ سنّة لم تكن».

قال ابن جريج: قلت: لعبدالكريم: قوله: من أحدث فيها؟ قال: مكّة الحرام! وزاد آخرون عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أو قتل بغير حقّ(٣).

* * *

[١٧٢٤/٢] وهكذا روى العيّاشي بالإسناد إلى أسباط الزطّي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الصرف: النافلة والعدل: الفريضة»(٤).

[١٧٢٥/٢] وبالإسناد إلى يعقوب الأحمر عن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً قال: العدل: الفريضة(٥).

---

(١) المصدر ١٠: ٢٠٧/ ١٨٨٤٧، باب ١٩١، (النهبة ومن آوى محدثاً).

(٢) المصدر: ٢٠٧/ ١٨٨٤٨، باب ١٩١.

(٣) المصدر: ٢٠٦ ـ ٢٠٧/ ١٨٨٤٦، باب ١٩١.

(٤) العيّاشي ١: ٧٦/ ٨٧؛ البحار ٨: ٦١/ ٨٥، باب ٢١.

(٥) نورالثقلين ١: ٧٧؛ العيّاشي ١: ٧٦/ ٨٥؛ البحار ٨: ٦١/ ٨٣، باب ٢١.

[١٧٢٦/٢] وقال الشيخ أبوجعفر الطوسي: قال أبومسلم: الصرف: التوبة، والعدل: الفداء[١].

[١٧٢٧/٢] وقال أبو عليّ الطبرسيّ: وأمّا ما جاء في الحديث: لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، فاختلف في معناه؛ قال الحسن: الصرف: العمل، والعدل: الفدية. وقال الأصمعي: الصرف: التطوّع، والعدل: الفريضة. وقال أبوعبيدة: الصرف: الحيلة، والعدل: الفدية. وقال الكلبي: الصرف: الفدية والعدل: رجل مكانه![٢].

[١٧٢٨/٢] وذكر الحافظ ابن كثير ـ تعقيباً على المرويّ عن عليّ عليه السلام في تفسير الصرف والعدل بالتطوّع والفريضة ـ[٣]: وهكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن عُمير بن هانئ[٤].

ثمّ قال: وهذا القول غريب هاهنا. والقول الأوّل (تفسير العَدْل بالفداء) أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه! وهو ما رواه ابن جرير آنفاً عن رجل من أهل الشام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العدل الفدية»[٥].

كلام في الشفاعة

حسب المستفاد من الكتاب والسنّة

الشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الردف، أي مواكبة شيء لشيء واجتماعهما معاً في سبيل البلوغ إلى الهدف المطلوب.

والاستشفاع في مصطلح أصحاب الشرائع، هي محاولة إرداف العمل أو الدعاء، لما يوجب سرعة في الاستجابة والقبول لديه تعالى. وبعبارةٍ: هي ابتغاء الوسيلة إليه تعالى منضمّةً إلى العمل الصالح يُقدّمه، أو الدعاء وطلب الحاجة يرجو القبول والاستجابة.

---

(١) التبيان ١: ٢١٧.

(٢) مجمع البيان ١: ٢٠٢.

(٣) ابن كثير ١: ٩٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٥ / ٥٠٢.

(٤) ابن كثير ١: ٩٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٥ / ٥٠٣، بلفظ: «لافريضة ولا نافلة».

(٥) ابن كثير ١: ٩٣.

فالشفاعة لاتكون إلّا حيث يرى العبد من عمله قاصراً فيرجو إكماله بتلك المقارنة المباركة. الأمر الّذي حثّ عليه الكتاب والسنّة الشريفة، بتأكيد بالغ.

والسرّ في هذا الحثّ البليغ، أنّ العبد بما أنّه محدود أرضيّ، قد يقصر أو يتقاصر في تجميع همه نحو بلوغ الكمال عبر الآفات، فكان من مقام لطفه تعالى أن يُمدّه بمساعدات تأخذ بيده وتجعله بحيث يتسارع نحو مطلوبه وبلوغ إربه.

فهناك أزمان شريفة ـ كالأسحار ـ تجعل من الدعاء والاستغفار في أوقاتها أسرع إجابة وأقرب للقبول. ﴿وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

وهكذا الأمكنة الشريفة تساعد على سرعة الإجابة والقبول، كالمساجد وفناء الكعبة وكلّ مشعر من مشاعر الله، جاء الدعاء فيها والإنابة والاستغفار مندوباً إليه في الشريعة المقدّسة. ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾[2].

وإذا كانت الأزمنة الشريفة والأمكنة الشريفة ذوات أثر في تسريع الإجابة وبلوغ الآمال في الدعاء والإنابة، فأين أنت من إنسان شريف ـ وهو أشرف مخلوق ـ أن يكون ردف دعائه لدعاء العبد المستنيب ذا أثر في الإجابة والقبول؟!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[3].

وهذه هي الشفاعة تجعل من ردف الدعاء بزمان شريف أو مكان شريف أو إنسان شريف، أسرع إجابة وأقرب للقبول.

تلك هي الشفاعة في هذه الحياة الدنيا، وعلى غرارها الشفاعة في الآخرة، تجعل من شفاعة الرسول وسائر الأولياء المقرّبين، ما يوجب كمال العبد فيما قدّمه من أعمال وحسنات، قد تقصر عن درجة القبول لولا شفاعة الشافعين.

---

(١) الذاريات ٥١: ١٨.

(٢) البقرة ٢: ١٩٨.

(٣) النساء ٤: ٦٤.

وقد صحّ عن الرسول ﷺ أنّه خبأ شفاعته للمذنبين من أمّته،[١] أي شفاعته الكبرى الشاملة. ادّخرها للأمّة لذلك اليوم الرهيب. الأمر الذي وعده الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[٢]. اتّفقت الروايات عن الأئمّة على أنّها الشفاعة[٣].

والروايات بهذا الشأن كثيرة جدّاً كثرة تفوق حدّ التواتر، وقبل أن نخوض البحث ينبغي تحديد مسألة الشفاعة ـ المقبولة شرعيّاً ـ فلا يعلوها كدر الأوهام.

تعريف بالشفاعة

الشفاعة ـ كما نبّهنا عليه ـ هي مقارنة عمل أو دعاء بما يوجب كماله المستدعي لسرعة الإجابة أو القبول. فلولا أنّ المستشفع يقدّم بعمل صالح أو يقوم بابتهال ضارع إلى الله، ويجعله مقترناً بزمان شريف أو مكان شريف أو بدعاء إنسان شريف، لم تتصادق هناك شفاعة ولا استشفاع.

فالذي يرجو شفاعة الأولياء في غفران ذنوبه، من غير أن يمهّد لذلك أسبابه ولا شرائطه المؤاتية له، لاتصدق بشأنه الشفاعة ولا هو مستشفع البتّة. وإنّما هو يهدف عبثاً ولم يرم مرماه.

* * *

وعليه فلا موضع للإشكال بأنّ مسألة الشفاعة ممّا يبعث أهل الذنوب على التجرّي بارتكاب المزيد من الآثام، رجاء أن تشملهم الشفاعة الموعود بها.. وما هذا إلّا إغراء بالمعاصي.

غير أنّ هذا الإشكال غير وارد، بعد اختصاص الشفاعة بالآئبين التائبين والمستغفرين بالأسحار، وقد ندموا على ما فرط منهم من ذنوب وآثام كانوا ألمّوا بها إلماماً، وعلى خلاف دئوبهم على الطاعة والاستسلام لله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) حديث متّفق عليه. قال الطبرسي: تلقّته الأمّة بالقبول. مجمع البيان ١: ٢٠١. وذكرته عامّة الصحاح. راجع: مسند أحمد ١: ٢٨١.

(٢) الضحى ٩٣: ٥.

(٣) راجع: تفسير الآلوسي ٣٠: ١٦٠.

(٤) آل عمران ٣: ١٣٥.

فهؤلاء التائبون النادمون على ما فرط منهم العازمون على أن لا يعودوا لمثله. هؤلاء تنفعهم شفاعة الشافعين. لا الّذين هم صفر اليد، قد خسروا أنفسهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً، وكانوا يصرّون على الحنث العظيم. فهؤلاء لا موضع للشفاعة بشأنهم، إذ لم يمهّدوا لها السبيل.

إنّ مسألة الشفاعة نظير الوعد بقبول التوبة والمغفرة توجب خلق الرجاء في نفوس العباد فلا ييأسوا عن شمول رحمته تعالى، وليكونوا دائماً على رجاء رأفة ربّهم الكريم. ولكن على شرط أن يدنوا منه خطوة فيدنو منهم خطوات وهو أقرب إليهم من حبل الوريد. فلا تجذبهم حبائل الشيطان فينسحبوا خاسرين. ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[1]. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

إذن فالوعد بالشفاعة نظير الوعد بالمغفرة الشاملة، استعطاف بالعباد، ليردعوا وينتهوا عن جهالات فرطت منهم، فلا يعودوا لما نهوا عنه. ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾[3]. وهذا على عكس ما زعمه المعترض من إيجاب التجرئة والإغراء.

شرائط مشروعيّة الشفاعة

لمشروعيّة الشفاعة شرائط يجب توفّرها في كلٍّ من الشفيع والمستشفع ومورد الشفاعة.

أمّا الشفيع فيجب أن يكون منصوصاً عليه ومأذوناً من قِبَله تعالى. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[4]. ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْداً﴾[5].

وبذلك تفترق الشفاعة المشروعة من غير المشروعة، بفقد هذا الأخير دليل اعتبارها.

وفي ذلك ردّ على المشركين في الاستشفاع بما لا حجّة لهم فيه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

---

(١) يوسف ١٢: ٨٧.
(٢) العنكبوت ٢٩: ٢٣.
(٣) المائدة ٥: ٩٥.
(٤) يونس ١٠: ٣.
(٥) مريم ١٩: ٨٧.

الأرض﴾[١]. ﴿إنْ هِيَ إلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[٢].

ومن ثمّ كان الاستشفاع بمقام الرسالة مستنداً إلى برهان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[٣]. إلى غيرها من آيات وروايات تواترت بشأن الصالحين من عباد الله المكرمين.

وأمّا المستشفع فيجب أن يتوفّر فيه شرائط التائب النصوح، إذ سبيل الاستشفاع سبيل التوبة والإنابة، منضمّاً إليه ابتغاء الوسيلة الناجعة. فاعتبار الشرائط فيه آكد. ومن ثمّ يجب أن يكون متندّماً على ما فرط منه في جنب الله. وقد تدارك ما فرّط فيه أو أفرط، وأصلح ما أفسد، ليكون قد مهّد سبيل الإنابة والاستغفار.

وأمّا محلّ الشفاعة، فهو كلّ عمل خير أُريد به وجه الله. فلا شفاعة في باطل. قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾[٤].

وعلى هذا التفصيل جاءت الآيات الكريمة وتواترت الروايات عن النبيّ الأكرم ﷺ وعترته الطيّبين.

* * *

قال العلّامة ـ قدّس الله روحه ـ في شرحه على التجريد: اتّفقت العلماء على ثبوت الشفاعة للنبيّ ﷺ. وعليه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[٥] قيل: إنّه الشفاعة، واختلفوا فقالت الوعيديّة: إنّها عبارة عن طلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقّين للثواب، وذهبت التفضّليّة إلى أنّ الشفاعة للفسّاق من هذه الأُمّة في إسقاط عقابهم، وهو الحقّ.

وأبطل المصنّف الأوّل بأنّ الشّفاعة لو كانت في زيادة المنافع لا غير لكنّا شافعين في النبيّ ﷺ، حيث نطلب له من الله تعالى علوّ الدرجات، والتالي باطل قطعاً لأنّ الشافع أعلى من المشفوع فيه، فالمقدّم مثله.

---

(١) يونس ١٠: ١٨.
(٢) النجم ٥٣: ٢٣.
(٣) النساء ٤: ٦٤.
(٤) النساء ٤: ٨٥.
(٥) الإسراء ١٧: ٧٩.

وقد استدلّوا بوجوه: الأوّل قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[١]. نفى الله تعالى قبول الشفاعة عن الظالمين، والفاسق ظالم. والجواب: أنّه تعالى نفى الشفيع المطاع، ونحن نقول به، لأنّه ليس في الآخرة شفيع يطاع، لأنّ المطاع فوق المطيع، والله تعالى فوق كلّ موجود ولا أحد فوقه، ولا يلزم من نفي الشفيع المطاع نفي الشفيع المجاب، سلّمنا لكن لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بالظالمين هنا الكفّار جمعاً بين الأدلّة؟

الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢] ولو شفع ﷺ في الفاسق لكان ناصراً له.

الثالث قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[٣] ﴿يَوْماً لَّا تَجزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾[٤] ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٥].

والجواب عن هذه الآيات كلّها: أنّها مختصّة بالكفّار جمعاً بين الأدلّة.

الرابع قوله تعالى: ﴿وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[٦] نفى شفاعة الملائكة من غير المرضيّ لله تعالى، والفاسق غير مرضيّ.

والجواب: لانسلّم أنّ الفاسق غير مرضيّ، بل هو مرضيٌّ لله تعالى في إيمانه.

وقال المحقّق الطوسيّ رحمه الله: والحقّ صدق الشفاعة فيهما، أي لزيادة المنافع، وإسقاط المضارّ، وثبوت الثاني له ﷺ بقوله: ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي[٧].

* * *

وقال النوويّ في شرحه على صحيح مسلم: قال القاضي عياض: مذهب أهل السنّة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات، وبخبر الصادق، وقد جاءت الآثار الّتي بلغت بمجموعها التواتر بصحّة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنّة عليها، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، وتعلّقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين

---

(١) غافر ٤٠: ١٨.
(٢) البقرة ٢: ٢٧٠، آل عمران ٣: ١٩٢، المائدة ٥: ٧٢.
(٣) البقرة ٢: ١٢٣.
(٤) البقرة ٢: ١٢٣.
(٥) المدّثر ٧٤: ٤٨.
(٦) الأنبياء ٢١: ٢٨.
(٧) شرح التجريد، المسألة العاشرة: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ (ط: بمباى).

في النار، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[١] وأمثاله وهي في الكفّار، وأمّا تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل، وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم، وإخراج من استوجب النار.

لكنّ الشفاعة خمسة أقسام: أوّلها مختصّة بنبيّنا محمّد ﷺ وهو الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب.

الثانية: في إدخال قوم الجنّة بغير حساب، وهذه أيضاً وردت لنبيّنا ﷺ.

الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبيّنا ﷺ ومن يشاء الله.

الرابعة: فيمن دخل النّار من المؤمنين، وقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبيّنا ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثمّ يخرج الله تعالى كلّ من قال: لا إله إلّا الله كما جاء في الحديث: لايبقى فيها إلّا الكافرون.

الخامسة: الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنّة لأهلها، وهذه لاينكرها المعتزلة ولاينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأُولى[٢].

آيات الشفاعة

منها المصرّحة بلفظ الشفاعة ـ على مختلف تصاريفها ـ وهي الأكثر. ومنها ما نوّهت عنها محضاً.

ومن هذا الأخير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[٣]. والمقام المحمود الموعود بها هو مقام الشفاعة تشرّف به نبيّنا العظيم ﷺ في ذلك اليوم الرهيب.

---

(١) المدّثر ٧٤: ٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٣: ٣٥ ـ ٣٦. وراجع صحيح مسلم أيضاً ١: ١١٧، باب إثبات الشفاعة، وكتاب الشفا، القاضي عياض ١: ١٧٦ ـ ١٨٤. (ط: تركيا سنة ١٣٢٤ هـ ق) وشرحه لملّا علي القاري ١: ٢٦٢ ـ ٢٧١. (ط: تركيا ـ المطبعة العامرة ١٢٨٥ هـ.ق) سنه.

(٣) الإسراء ١٧: ٧٩.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ. يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

أي لاتغني شفاعتهم شيئاً كما في قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى بشأن استغفار الرسول للتائبين المستغفرين: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[3]. وكذا استغفار الملائكة للمؤمنين: ﴿وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]. ﴿وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[5]. واستغفار النبيّ للمؤمنين عامّة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[6]. ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾[7]. وكذلك استغفار يعقوب لبنيه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[8]. كلّ ذلك من الشفاعة المقبولة.

وهكذا قوله: ﴿وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[9]. ترجو الشفاعة كما في الحديث عن الباقر عليه السلام[10].

أمّا المصرّحة بلفظ الشفاعة، فمنها النافية وأن لا شفاعة هناك:

كقوله تعالى: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْماً لَّا تجزي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[11].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[12].

وقوله: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[13].

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[14].

وقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾[15]. ﴿وَ لَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾[16]. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ

---

(١) الدخان ٤٤: ٤٠ـ٤٢.
(٢) البقرة ٢: ١٢٣.
(٣) النساء ٤: ٦٤.
(٤) غافر ٤٠: ٧.
(٥) الشورى ٤٢: ٥.
(٦) آل عمران: ١٥٩.
(٧) النور ٢٤: ٦٢.
(٨) يوسف ١٢: ٩٧ـ٩٨.
(٩) الجاثية ٤٥: ٢٨.
(١٠) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٤.
(١١) البقرة ٢: ٤٨.
(١٢) البقرة ٢: ١٢٣.
(١٣) البقرة ٢: ٢٥٤.
(١٤) الأنعام ٦: ٩٤.
(١٥) الشعراء ٢٦: ١٠٠.
(١٦) الروم ٣٠: ١٣.

وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[١]. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٢]. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[٣].

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ﴾[٤].

ومنها النافية لشفاعة من سواه تعالى، كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[٥]. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[٦]. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ. قُلْ لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[٧].

ومنها المشترطة بإذنه تعالى ورضاه، كقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً﴾[٨]. ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[٩]. ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[١٠]. ﴿وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾[١١]. ﴿وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[١٢]. ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[١٣]. ﴿وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١٤]. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[١٥]. ﴿مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[١٦].

* * *

أمّا الروايات فقد استفاضت وربما بلغت حدّ التواتر، نذكر منها:

[١٧٢٩/٢] ما رواه الصدوق بإسناده إلى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبيّ دعوة قد دعا بها وقد سأل سؤلاً، وقد أخبأت دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة»[١٧].

---

(١) غافر ٤٠: ١٨.

(٢) المدثّر ٧٤: ٤٨.

(٣) الأعراف ٧: ٥٣.

(٤) يس ٣٦: ٢٣.

(٥) الأنعام ٦: ٥١.

(٦) الأنعام ٦: ٧٠.

(٧) الزمر ٣٩: ٤٣ ـ ٤٤.

(٨) مريم ١٩: ٨٧.

(٩) طه ٢٠: ١٠٩.

(١٠) سبأ ٣٤: ٢٣.

(١١) الزخرف ٤٣: ٨٦.

(١٢) النجم ٥٣: ٢٦.

(١٣) البقرة ٢: ٢٥٥.

(١٤) الأنبياء ٢١: ٢٨.

(١٥) يونس ١٠: ٣.

(١٦) السجدة ٣٢: ٤.

(١٧) الخصال: ٢٩ / ١٠٣؛ البحار ٨: ٣٤ / ١، باب ٢١.

[١٧٣٠/٢] وبالإسناد إلى جعفربن محمّد، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاثة يشفعون إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فيشفّعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»[١].

[١٧٣١/٢] وبالإسناد إلى الحسين بن خالد، عن الرضا، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. ثمّ قال صلى الله عليه وآله: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل». قال الحسين بن خالد: «فقلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله فما معنى قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾؟ قال: لايشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه»[٢].

[١٧٣٢/٢] وبالإسناد إلى جابربن عبدالله الأنصاريّ، عن عليّ بن أبي طالب قال: «قالت فاطمة لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟ قال: يا فاطمة عند باب الجنّة ومعي لواء الحمد وأنا الشفيع لأُمّتي إلى ربيّ؛ قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الحوض وأنا أسقي أُمّتي؛ قالت: يا أبتاه إن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربّ سلّم أُمّتي؛ قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني وأنا عند الميزان أقول: ربّ سلّم أُمّتي؛ قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على شفير جهنّم أمنع شررها ولهبها عن أُمّتي؛ فاستبشرت فاطمة بذلك؛ صلوات الله عليها»[٣].

[١٧٣٣/٢] وبالإسناد إلى القلانسيّ، عن الصادق جعفربن محمّد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أُمّتي فيشفّعني الله فيهم، والله لاتشفّعت فيمن آذى ذرّيّتي»[٤].

[١٧٣٤/٢] وروى الطوسي في خبر أبي ذرّ وسلمان قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أعطاني مسألة فأخّرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أُمّتي يوم القيامة ففعل ذلك»؛ الخبر[٥].

---

(١) الخصال: ١٥٦ / ١٩٧؛ البحار ٨: ٣٤ / ٢، باب ٢١.

(٢) العيون ٢: ١٢٤ ـ ١٢٥ / ٣٥، باب ٩؛ الأمالي للصدوق: ٥٦ / ١١ ـ ٤، المجلس الثاني؛ البحار ٨: ٣٤ / ٤، باب ٢١.

(٣) الأمالي للصدوق: ٣٤٩ ـ ٣٥٠ / ٤٢٢ ـ ١٤، المجلس ٤٦؛ البحار ٨: ٣٥ / ٦، باب ٢١.

(٤) الأمالي للصدوق: ٣٧٠ / ٤٦٢ ـ ٣، المجلس ٤٩؛ البحار ٨: ٣٧ / ١٢، باب ٢١.

(٥) الأمالي للطوسي: ٥٦ ـ ٥٧ / ٨١ ـ ٥٠ المجلس ٢؛ البحار ٨: ٣٧ / ١٤، باب ٢١.

[١٧٣٥/٢] وروى الصدوق بإسناده عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطها أحدٌ قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب، وأُحلّ لي المغنم، وأُعطيت جوامع الكلم، وأُعطيت الشفاعة»[١].

[١٧٣٦/٢] وروى عليّ بن إبراهيم بإسناده عن أبي العبّاس المكبّر قال: دخل مولى لامرأة عليّ بن الحسين ـ صلوات الله عليهما ـ على أبي جعفر عليه السلام يقال له: أبو أيمن، فقال: يا أبا جعفر تغرّون الناس وتقولون: شفاعة محمّد شفاعة محمّد! فغضب أبوجعفر عليه السلام حتّى تربّد وجهه[٢]، ثمّ قال: «ويحك يا أبا أيمن أغرّك أن عُفّ بطنك وفرجك؟ أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمّد ﷺ ويلك فهل يشفع إلّا لمن وجبت[٣] له النار؟ ثمّ قال: ما أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو محتاج إلى شفاعة محمّد ﷺ يوم القيامة. ثمّ قال: وإنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإنّ المؤمن ليشفع حتّى لخادمه، ويقول: يا ربّ حقّ خدمتي كان يقيني الحرّ والبرد»[٤].

[١٧٣٧/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن توالاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أُجيبت دعوتك، وشفّعت في شيعتك. ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولّاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه؛ وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إلّه إلّا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت»[٥] أي لم يكن معانداً للحقّ ومعادياً لرسول الله في ذرّيّته.

[١٧٣٨/٢] وروى الطوسي عن محمّدبن إبراهيم بن كثير قال: دخلنا على أبي نواس الحسن بن

---

(١) الخصال: ٢٩٢ / ٥٦؛ البحار ٨: ٣٨ / ١٧، باب ٢١. (٢) أي تغيّر لونه.

(٣) ثبتت له النار لسوء عمله. (٤) القميّ ٢: ٢٠٢؛ البحار ٨: ٣٨ / ١٦، باب ٢١.

(٥) الخصال: ٤٠٧ ـ ٤٠٨ / ٦؛ البحار ٨: ٣٩ / ١٩، باب ٢١.

هاني نعوده في مرضه الّذي مات فيه فقال له عيسى بن موسى الهاشميّ: يا أبا عليّ أنت في آخر يوم من أيّام الدنيا، وأوّل يوم من الآخرة، وبينك وبين الله هنات فتب إلى الله عزّوجلّ: قال أبو نواس: سنّدوني؛ فلمّا استوى جالساً قال: إيّايّ تخوّفني بالله؟ وقد حدّثني حمّاد بن سلمة، عن ثابت البنانيّ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبيّ شفاعة وأنا خبأت شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي يوم القيامة، أفترى لاأكون منهم؟!»[(١)].

[١٧٣٩/٢] وروى الصدوق في خبر الأعمش، عن الصادق عليه السلام: «أصحاب الحدود مسلمون لا مؤمنون ولاكافرون. فإنّ الله تبارك وتعالى لايدخل النار مؤمناً وقد وعده الجنّة، ولايخرج من النار كافراً وقد أوعده النار والخلود فيها، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء. فأصحاب الحدود فسّاق لامؤمنون ولاكافرون، ولا يخلّدون في النار ويخرجون منها يوماً، والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين إذا ارتضى الله عزّ وجلّ دينهم؛ الخبر»[(٢)].

[١٧٤٠/٢] وفيما كتب الرضا عليه السلام للمأمون من محض الإيمان: «ومذنبوا أهل التوحيد يدخلون النار ويخرجون منها، والشفاعة جائزة لهم»[(٣)].

[١٧٤١/٢] وروى البرقي بإسناده عن عليّ بن أبي حمزة قال: قال رجل لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ لنا جاراً من الخوارج يقول: إنّ محمّداً يوم القيامة همّه نفسه فكيف يشفع؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ما أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو يحتاج إلى شفاعة محمّد ﷺ يوم القيامة»[(٤)].

[١٧٤٢/٢] وعن مفضّل أو غيره، عن أبي عبدالله عليه السلام «في قول الله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قال: الشافعون الأئمّة، والصديق من المؤمنين»[(٥)].

[١٧٤٣/٢] وعن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إنّ لرسول الله ﷺ شفاعة في اُمّته»[(٦)].

---

(١) الأمالي للطوسي: ٣٨٠ / ٨١٥ ـ ٦٦، المجلس ١٣؛ البحار ٨: ٤٠ / ٢١، باب ٢١.

(٢) الخصال: ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ٩؛ البحار ٨: ٤٠ / ٢٢، باب ٢١.

(٣) العيون ٢: ١٣٣ / ١، باب ٣٥؛ البحار ٨: ٤٠ / ٢٣، باب ٢١.

(٤) المحاسن ١: ١٨٤ / ١٨٦، باب ٤٤؛ البحار ٨: ٤٢ / ٣١، باب ٢١.

(٥) المصدر ١: ١٨٤ / ١٨٧، باب ٤٥؛ البحار ٨: ٤٢ / ٣٢، باب ٢١.

(٦) المصدر ١: ١٨٤ / ١٨٨، باب ٤٥؛ البحار ٨: ٤٢ / ٣٣، باب ٢١.

[١٧٤٤/٢] وعن عليّ الخدمي قال: قال أبو عبدالله ﷺ: «إنّ الجار ليشفع لجاره والحميم لحميمه، ولو أنّ الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين شفعوا في ناصب ما شفّعوا»(١).

[١٧٤٥/٢] وروى ابن شهر آشوب في المناقب بالإسناد إلى فردوس الديلمي عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «الشفعاء خمسة: القرآن والرحم، والأمانة، ونبيّكم، وأهل بيت نبيّكم»(٢).

[١٧٤٦/٢] وفي تفسير وكيع: قال ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يعني: ولسوف يشفّعك يا محمّد يوم القيامة في جميع أهل بيتك فتدخلهم كلّهم الجنّة ترضى بذلك عن ربّك(٣).

[١٧٤٧/٢] وعن الباقر ﷺ «في قوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الآية، قال: ذاك النبيّ ﷺ وعليٌّ، ويقوم على كوم قد علا الخلائق فيشفع ثمّ يقول: يا عليّ اشفع؛ فيشفع الرجل في القبيلة، ويشفع الرجل لأهل البيت، ويشفع الرجل للرجلين على قدر عمله فذلك المقام المحمود»(٤).

[١٧٤٨/٢] وعن أبي عبدالله ﷺ «في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: شفاعة النبيّ ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ شفاعة عليّ ﷺ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ شفاعة الأئمّة ﷺ»(٥).

[١٧٤٩/٢] وعن النبيّ ﷺ قال: «إنّي لأشفع يوم القيامة فأُشفّع، ويشفع عليّ فيشفّع، ويشفع أهل بيتي فيشفّعون»(٦).

[١٧٥٠/٢] وروى العيّاشي عن عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبدالله ﷺ عن المؤمن: هل له شفاعة؟ قال: نعم، فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمّد ﷺ يومئذ؟ قال: «نعم، إنّ للمؤمنين خطايا وذنوباً، وما من أحد إلّا يحتاج إلى شفاعة محمّد يومئذ. قال: وسأله رجل عن قول رسول الله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» قال: نعم. قال: يأخذ حلقة باب الجنّة فيفتحها فيخرّ ساجداً، فيقول الله: ارفع رأسك اشفع تُشفَّع، اطلب تُعطَ، فيرفع رأسه ثمّ يخرّ ساجداً فيقول الله:

---

(١) المصدر ١: ١٨٤ / ١٩٠، باب ٤٥؛ البحار ٨: ٤٢ / ٣٥، باب ٢١.

(٢) المناقب ٢: ١٤؛ البحار ٨: ٤٣ / ٣٩، باب ٢١.

(٣) المصدر؛ البحار ٨: ٤٣ / ٤٠، باب ٢١.

(٤) المصدر؛ البحار ٨: ٤٣ / ٤١، باب ٢١.

(٥) المصدر: ١٥؛ البحار ٨: ٤٣ / ٤٢، باب ٢١.

(٦) المصدر؛ البحار ٨: ٤٣ / ٤٣، باب ٢١.

ارفع رأسك اشفع تُشفَّع واطلب تُعطَ، ثمّ يرفع رأسه فيشفع فيشفَّع ويطلب فيُعطى»(١).

[١٧٥١/٢] وروى الكليني بإسناده عن حفص المؤذّن، عن أبي عبدالله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال: «واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»(٢).

[١٧٥٢/٢] وروى الصدوق بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد فإذا وقفا بين يدي الله عزّ وجلّ قيل للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم»(٣).

[١٧٥٣/٢] وروي عن بشر بن شريح البصري قال: «قلت لمحمّد بن عليّ عليه السلام: أيّة آية في كتاب الله أرجى؟ قال: ما يقول فيها قومك؟ قال: قلت: يقولون ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ قال: لكنّا أهل البيت لانقول ذلك، قال: قلت: فأيّ شيء تقولون فيها؟ قال: نقول ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الشفاعة، والله الشفاعة والله الشفاعة»(٤).

* * *

[١٧٥٤/٢] وأخرج ابن ماجة بإسناده عن ابن عفّان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشهداء»(٥).

[١٧٥٥/٢] وأخرج البخاري بإسناده عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لكلّ نبيّ دعوة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي: شفاعة لأمّتي في الآخرة»(٦).

---

(١) العيّاشيّ ٢: ٣٣٧ / ١٥٠؛ البحار ٨: ٤٨ / ٥١، باب ٢١. (٢) الكافي ٨: ١١ / ١؛ البحار ٨: ٥٣ / ٦١، باب ٢١.

(٣) العلل ٢: ٣٩٤ / ١١، باب ١٣١؛ البحار ٨: ٥٦ / ٦٦، باب ٢١.

(٤) تفسير فرات الكوفي: ٥٧٠ ـ ٥٧١ / ٧٣٤ ـ ٦؛ البحار ٨: ٥٧ / ٧٢، باب ٢١.

(٥) ابن ماجة ٢: ١٤٤٣ / ٤٣١٣؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٠١ / ٣٩٠٧٢.

(٦) البخاري ٧: ١٤٥ و ٨: ١٩٢ ـ ١٩٣؛ مسند أحمد ٢: ٢٧٥، وفيه: «لكلّ نبيّ دعوة مستجابة وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة»؛ الدارمي ٢: ٣٢٨، باختلاف يسير؛ مسلم ١: ١٣٠ و ١٣١؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٠ / ٤٣٠٧، باب ٣٧ (ذكرالشفاعة) وزاد: «فهي نائلة من مات منهم لايشرك بالله شيئاً»؛ الترمذي ٥: ٢٣٨ / ٣٦٧٢، باب ١٢، قال: هذا حديث حسن صحيح؛ كنزالعمّال ١٤: ٣٩١ / ٣٩٠٤٧ و ٣٩٠٤٨ و ٣٩٠٤٩.

[١٧٥٦/٢] وأخرج عن معتمر قال: سمعت أبي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «كلّ نبيّ سأل سؤالاً أو قال لكلّ نبيّ دعوة قد دعا بها فاستجيب، فجعلت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة»(١).

[١٧٥٧/٢] وأخرج أحمد عن محمّد بن زياد قال سمعت أبا هريرة يحدّث أنّ نبيّ الله ﷺ قال: «لكلّ نبي دعوة دعا بها في أمّته فيستجاب له، وإنّي أريد إن شاء الله أن أؤخّر دعوتي: شفاعة لأمّتي يوم القيامة»(٢).

[١٧٥٨/٢] وأخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّل الناس يشفع في الجنّة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»(٣).

[١٧٥٩/٢] وأخرج عن عبدالله بن فرّوخ قال: حدّثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من ينشقّ عنه القبر، وأوّل شافع وأوّل مشفّع»(٤).

[١٧٦٠/٢] وأخرج أحمد عن داوود الأودي عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾(٥) قال: هو المقام الذي أشفع لأمّتي فيه»(٦).

[١٧٦١/٢] وأخرج أبو داوود عن أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»(٧).

---

(١) البخاري ٧: ١٤٥؛ مسند أحمد ٣: ١٣٤ و ٢١٨؛ مسلم ١: ١٣٢؛ كنزالعمّال ١٤: ٣٩٩ / ٣٩٠٦١.

(٢) مسند أحمد ٢: ٤٠٩؛ البخاري ٧: ١٤٥، كتاب الدعوات، و ٨: ١٩٣، كتاب التوحيد؛ مسلم ١: ١٣٠ و ١٣١؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٠ / ٤٣٠٧، باب ٣٧، بلفظ: «عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: لكلّ نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كلّ نبيّ دعوته، وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي فهي نائلة من مات منهم لايشرك بالله شيئاً»؛ الترمذي ٥: ٢٣٨ / ٣٦٧٢، باب ١٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) مسلم ١: ١٣٠؛ أبويعلى ٧: ٤٦ـ٤٧ / ٣٩٥٩؛ كنزالعمّال ١١: ٤١٩ / ٣١٩٦٧.

(٤) مسلم ٧: ٥٩؛ مسند أحمد ٢: ٥٤٠، وفيه: «وأوّل من تنشقّ عنه الأرض»؛ أبو داوود ٢: ٤٠٧ / ٤٦٧٣، باب ١٤، بنحو ما رواه أحمد؛ كنزالعمّال ١١: ٤٠٤ / ٣١٨٨١.

(٥) الإسراء ١٧: ٧٩.

(٦) مسند أحمد ٢: ٤٤١؛ الطبري ٩: ١٨٢ / ١٧٠٧٠.

(٧) أبو داوود ٢: ٤٢١ / ٤٧٣٩؛ مسند أحمد ٣: ٢١٣؛ الحاكم ١: ٦٩ عن أنس بطرق وعن جابر أيضاً بطرق؛ أبو يعلى ٦: ٤٠ / ٣٢٨٤؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٧٨.

[١٧٦٢/٢] وأخرج أحمد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً: بُعثت إلى الأحمر والأسود، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب شهراً، وأُعطيت الشفاعة، وليس من نبيّ إلّا وقد سأل شفاعة وإنّي أخبأت شفاعتي، ثمّ جعلتها لمن مات من أمّتي لم يشرك بالله شيئاً»(١).

[١٧٦٣/٢] وأخرج عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ قال: الشفاعة»(٢).

[١٧٦٤/٢] وأخرج مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليّ، فإنّه من صلّى عَلَيَّ صلاةً، صلّى الله عليه بها عشراً، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنّة لاتنبغي إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»(٣).

[١٧٦٥/٢] وأخرج ابن ماجة عن عثمان بن حنيف، أنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادع الله لي أن يعافيني! فقال: «إن شئت أخّرتُ لك وهو خير، وإن شئتَ دعوتُ» فقال: ادعه! فأمره أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه، ويصلّي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بمحمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد! إنّي قد توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه لتُقْضَى، اللّهمّ! فشفّعه فيّ»(٤).

[١٧٦٦/٢] وأخرج أحمد عن عمارة بن خزيمة يحدّث عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً ضرير

---

(١) مسند أحمد ٤: ٤١٦؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٥٨، قال الهيثمي: «رواه أحمد متصلاً ومرسلاً والطبراني ورجاله رجال الصحيح»؛ كنزالعمّال ١١: ٤٣٩ / ٣٢٠٦٥.

(٢) مسند أحمد ٢: ٤٤٤؛ الترمذي ٤: ٣٦٥ / ٥١٤٥، كتاب التفسير، سورة الإسراء، وقال: هذا حديث حسن؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٤٣٣ / ١٠٧، كتاب الفضائل، باب ١.

(٣) مسلم ٢: ٤؛ مسند أحمد ٢: ١٦٨؛ أبو داوود ١: ١٢٨ / ٥٢٣، باب ٣٦؛ الترمذي ٥: ٢٤٧ / ٣٦٩٤، باب ٢٢، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ النسائي ١: ٥١٠ / ١٦٤٢؛ كنزالعمّال ٧: ٧٠٠ / ٢٠٩٩٨.

(٤) ابن ماجة ١: ٤٤١ / ١٣٨٥؛ الترمذي ٥: ٢٢٩ / ٣٦٤٩، باب ٧، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ كنزالعمّال ٢: ١٨١ / ٣٦٤٠، و ٦: ٥٢١ / ١٦٨١٦؛ الحاكم ١: ٣١٣.

البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت لك وإن شئت أخّرت ذاك، فهو خيرا». فقال: ادعه، فأمره أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه، فصلّى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد إنّي توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه فتُقْضَى لي، اللّهمّ شفّعه فيّ»(١).

[١٧٦٧/٢] وأخرج عن رويفع بن ثابت الأنصاري أنّ رسول الله ﷺ قال: «من صلّى على محمّد وقال: اللّهم أنزله المقعد المقرَّب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي»(٢).

[١٧٦٨/٢] وأخرج عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: من قال ـ حين يسمع النداء ـ: «اللّهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً، الّذي أنت وعدته» إلّا حلّت له الشفاعة يوم القيامة(٣).

[١٧٦٩/٢] وأخرج الحاكم عن عبدالله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام ربّ إنّي منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفّعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فيُشَفَّعان».

قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم(٤).

[١٧٧٠/٢] وأخرج أحمد أيضاً عن عبدالله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي ربّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفّعني فيه، ويقول

---

(١) مسند أحمد ٤: ١٣٨؛ البحار ١٨: ١٣ / ٣٢؛ الخرائج والجرائح ١: ٥٥ / ٨٨؛ الحاكم ١: ٣١٣ و ٥١٩. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و ١: ٥٢٦، وفيه: «اللّهمّ شفّعه فيّ وشفّعني في نفسي»؛ النسائي ٦: ١٦٩ / ١٠٤٩٥.

(٢) مسند أحمد ٤: ١٠٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٦٣، قال الهيثمي: رواه البزّار والطبراني في الأوسط والكبير وأسانيدهم حسنة؛ مسند البزّار ٦: ٢٩٩ / ٢٣١٥؛ الأوسط ٣: ٣٢١ / ٣٢٨٥؛ الكبير ٥: ٢٥ ـ ٢٦ / ٤٤٨٠؛ كنزالعمّال ١: ٤٩٦ / ٢١٨٨.

(٣) مسند أحمد ٣: ٣٥٤؛ ابن ماجة ١: ٢٣٩ / ٧٢٢، باب ٤؛ أبو داوود ١: ١٢٩ / ٥٢٩، باب ٣٨؛ الترمذي ١: ١٣٦ / ٢١١، باب ١٥٧، قال أبو عيسى: حديث جابر حديث صحيح حسن.

(٤) الحاكم ١: ٥٥٤؛ مسند أحمد ٢: ١٧٤؛ مجمع الزوائد ٣: ١٨١، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال الطبراني رجال الصحيح؛ كنزالعمّال ٨: ٤٤٤ ـ ٤٤٥ / ٢٣٥٧٥.

القرآن منعته النوم بالليل فشفّعني فيه. قال فيُشَفَّعان»(١).

[١٧٧١/٢] وأخرج ابن ماجة عن عبدالله بن قيس، قال: كنت عند أبي بردة ذات ليلة، فدخل علينا الحرث بن أُقَيش. فحدّثنا الحرث ليلتئذ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ من أمّتي من يدخل الجنّة بشفاعته أكثر من مضر. وإنّ من أمّتي من يعظم للنار حتّى يكون أحد زواياها»(٢).

[١٧٧٢/٢] وأخرج أحمد أيضاً عن عبدالله بن قيس قال سمعت الحرث بن أقيش يحدّث أن أبا بردة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ من أمّتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإنّ من أمّتي لمن يعظم للنار حتّى يكون ركناً من أركانها»(٣).

[١٧٧٣/٢] وأخرج الترمذي عن أبي قلّابة عن عبدالله بن يزيد ـ رضيع كان لعائشة ـ عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «لا يموت أحد من المسلمين فيصلّي عليه أمّة من المسلمين يبلغوا أن يكونوا مائة فيشفعوا له إلّا شُفّعوا فيه».

قال أبو عيسى: حديث عائشة حديث حسن صحيح. وقد أوقفه بعضهم ولم يرفعه(٤).

[١٧٧٤/٢] وأخرج النسائي عن أبي بكّار الحكم بن فروخ قال: صلّى بنا أبو المليح على جنازة فظنّنا أنّه قد كبّر، فأقبل علينا بوجهه فقال: أقيموا صفوفكم ولتُحسن شفاعتكم. قال أبو المليح: حدّثني عبدالله بن سليط عن ميمونة زوج النبيّ ﷺ قالت: أخبرني النبيّ ﷺ قال: «ما من ميّت يصلّي عليه أمّة من الناس إلّا شفّعوا فيه، فسألت أبا المليح عن الأمّة قال: أربعون»(٥).

[١٧٧٥/٢] وأخرج مسلم عن أبي قلّابة عن عبدالله بن يزيد ـ رضيع عائشة ـ عن عائشة عن

---

(١) مسند أحمد ٢: ١٧٤؛ الحاكم ١: ٥٥٤، بتفاوت؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٨١، باب شفاعة الأعمال، قال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن؛ كنزالعمّال ٨: ٤٤٤ ـ ٤٤٥ / ٢٣٥٧٥.

(٢) ابن ماجة ٢: ١٤٤٦ / ٤٣٢٣؛ مسند أحمد ٥: ٣١٢ ـ ٣١٣ بتفاوت؛ الحاكم ١: ٧١ بتفاوت، و ٤: ٥٩٣ بتفاوت؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٤٢٣ / ٦٤، باب ١، كتاب الفضائل.

(٣) مسند أحمد ٤: ٢١٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٨١، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) الترمذي ٢: ٢٤٧ / ١٠٣٤؛ مسند أحمد ٦: ٣٢؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٣: ٢٠٣ / ١، باب ١١٣؛ النسائي ١: ٦٤٤ / ٢١١٩؛ أبو يعلى ٧: ٣٦٣ ـ ٣٦٤ / ٤٣٩٨؛ كنزالعمّال ١٥: ٥٨١ / ٤٢٢٧٠.

(٥) النسائي ١: ٦٤٥ / ٢١٢٠؛ مسند أحمد ٦: ٣٣١؛ مجمع الزوائد ٣: ٣٦؛ الكبير ٢٤: ١٩ / ٣٩.

النبيّ ﷺ قال: «ما من ميّت يصلّي عليه أمّة من المسلمين يبلغون مائة كلّهم يشفعون له إلّا شُفّعوا فيه. قال فحدّثت به شعيب بن الجحاب فقال: حدّثني به أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ»(١).

[١٧٧٦/٢] وأخرج ابن ماجة عن كريب مولى عبدالله بن عبّاس، قال: هلك ابن لعبدالله بن عبّاس فقال لي: يا كُريب! قم فانظر هل اجتمع لابني أحد؟ فقلت: نعم. فقال: ويحك! كم تراهم؟ أربعين؟ قلت: لا. بل هم أكثر. قال: فاخرجوا بابني. فأشهد، لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من أربعين من مؤمن يشفعون لمؤمن إلّا شفّعهم الله»(٢).

[١٧٧٧/٢] وأخرج مسلم أيضاً عن كريب مولى ابن عبّاس عن عبدالله بن عبّاس أنّه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس؟ قال: فخرجت فإذا ناسٌ قد اجتمعوا له فاخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم. قال: أخرجوه، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً، إلّا شفّعهم الله فيه»(٣).

[١٧٧٨/٢] وأخرج الصدوق بالإسناد إلى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلّا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون، والجذام، والبرص، فإذا بلغ الخمسين ليّن الله عليه الحساب، فإذا بلغ الستّين رزقه الله الإنابة إليه بما يحبّ، فإذا بلغ السبعين أحبّه الله وأحبّه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته وتجاوز عن سيّئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وسمّي أسير الله في أرضه وشُفّع في أهل بيته»(٤).

---

(١) مسلم ٣: ٥٢ ـ ٥٣؛ النسائي ١: ٢١١٨/٦٤٤؛ الأوسط ٦: ١٤٤ ـ ٦٠٣٩/١٤٥.

(٢) ابن ماجة ١: ١٤٨٩/٤٧٧.

(٣) مسلم ٣: ٥٣؛ مسند أحمد ١: ٢٧٧ ـ ٢٧٨؛ ابن حبّان ٧: ٣٠٨٢/٣٥٢؛ الأوسط ٨: ٣٦٨ ـ ٨٨٩٨/٣٦٩؛ كنزالعمّال ١٥: ٤٢٢٧٢/٥٨٢، باختصار.

(٤) الخصال: ٥٤٧ ـ ٢٨/٥٤٨؛ كنزالعمّال ١٥: ٧٦٢ ـ ٤٣٠٠٢/٧٦٣.

قال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

وهنا يمضي القرآن يعدّد آلاء الله على بني إسرائيل، وكيف استقبلوا هذه الآلاء بالكفران والجحود وحادوا عن الطريق السويّ الذي رسمته الشريعة على يد أنبيائهم العظام.

وفي مقدّمة هذه النعم الجسام كانت نجاتهم من آل فرعون، كانوا يسومونهم سوء العذاب.

إنّه يحاول تذكيرهم وإعادة خيالهم ومشاعرهم عن صورة الكرب الذي انتابهم في بدء تاريخهم، باعتبار أنّ الحاضرين أبناء أولئكم الغابرين، ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشهد العذاب.

يذكّرهم اليوم الّذي فتح الله عليهم وأنجاهم من بؤس كان قد أغدق بهم، لايجدون مخرجاً منه، لولا أن منّ الله عليهم ببعث موسى وهارون ونجاتهم من فرعون وهامان وجنودهما العتاة الطغاة.

يقول لهم: اذكر اليوم الذي نجّاكم فيه من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم ذلاً: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه خسفاً: أذلّه[1] ثمّ يذكر لون هذا العذاب الأسوأ، هو تذبيح الذكور ـ مبالغة في الذبح أي الإكثار فيه ـ واستحياء الإناث حيث فيه تضعيفُ ساعد الرجال من جهة، ومن أخرى اضطرارهم السماح بإشغالهنّ في صالح الأكابر من آل فرعون.

* * *

وقبل أن يعرض المشهد يذكّر بأنّ تلك المحنة التي قاسها آباؤهم من قبلُ، كان فيها بلاء من

---

(١) قال الزمخشري: من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم:

إذَا مَا المَلْكُ سَامَ الناس خسفاً   أبَيْنا أن يَقِرَّ الخسفُ فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنّه بمعنى: يبغونكم «سوء العذاب» ويريدونكم عليه. والعذاب كلّه سيّء، والمراد: أشدّه وأفظعه. (الكشّاف ١: ١٣٧ ـ ١٣٨).

ربّهم عظيم (فخيم من حيث النتائج والآثار)، ليلقي في حسّهم وفي حسّ الآخرين ممّن يصادف شدّة في حياته، أنّ إصابة العباد بالمحن والشدائد، هي امتحان واختبار وحسن بلاء، وأنّ الّذي يستيقظ لهذه الحقيقة ينتفع من الشدّة ويعتبر بالبلاء ويكتسب من ورائهما خبرة وحنكة، وقدرة روحيّة فائقة، تجعله رجل الخوض في معارك الحياة، ليخرج منها ظافراً شهماً وفي طمأنينة وسلام.

نعم، إنّ الألم في الحياة لايذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنّه يمرّ بفترة امتحان وأحسن الانتفاع بها. والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصوّر النزيه وحين تدّخر ما في التجربة المؤلمة من زادٍ للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زادٍ للآخرة باحتسابها عند الله وبالتضرّع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثمّ هذا التعقيب اللطيف: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. لأنّه لطفٌ منه تعالى بالنسبة لعباده فخيمٌ جسيمٌ.

* * *

وإذ فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشهد العذاب: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل. أمّا هنا فهو مجرّد تذكير لقوم يعرفون القصّة، سواء من القرآن المكّي أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة. إنّما يذكّرهم بها في صورة مشهد ليستعيدوا تصوّرها ويتأثّروا بهذا التصوّر، وكأنّهم هم الّذين كانوا ينظرون إلى فَرَق البحر ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام وغَرَق فرعون وجنوده، كلّ ذلك بمرأى منهم ومشهد ليعتبروا، فليعتبروا والفرصة متاحة!

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

[١٧٧٩/٢] أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق: كان اسم فرعون الوليد بن مصعب بن الريّان![1].

(١) الطبري ١: ٣٨٥ / ٧٤٤؛ القرطبي ١: ٣٨٣، عن وهب.

[١٧٨٠/٢] وعنه أيضاً قال: كان فرعون يُعذّب بني إسرائيل فيجعلهم خَدَماً وخَوَلاً[١] وصنّفهم في أعماله، فصنفٌ يبنون وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله فعليه الجزية، فسامهم ـ كما قال الله عزّ وجلّ ـ: ﴿سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾[٢].

[١٧٨١/٢] وقال وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذوو القوّة ينحتون السواري من الجبال حتّى قرحت أعناقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة والطين يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللَّبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجّارون وحدّادون، والضعفة منهم يُضرب عليهم الخراج، جزية (ضريبة) يؤدّونها كلّ يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدّي ضريبته غُلّت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتّان وينسجن[٣].

[١٧٨٢/٢] وأخرج ابن جرير عن أسباط عن السُدّي قال: جعلهم في الأعمال القذرة وجعل يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم[٤].

قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾

[١٧٨٣/٢] قال عليّ بن إبراهيم في الآية: إنّ فرعون لمّا بلغه أنّ بني إسرائيل يقولون: يولد فينا رجل يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده، كان يقتل أولادهم الذكور ويدع الإناث[٥].

[١٧٨٤/٢] وروي عن أبي محمّد العسكري ﷺ قال: «قال الله: واذكروا يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أنجينا أسلافكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم الّذين كانوا يدنون إليه بقرابته وبدينه ومذهبه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعذّبونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ شدّة العذاب، كانوا يحمّلونه عليكم. قال: وكان من عذابهم الشديد أنّه كان فرعون يكلّفهم عمل البناء والطين، ويخاف أن يهربوا عن العمل، فأمر بتقييدهم، فكانوا ينقلون ذلك الطين على السلالم إلى السطوح، فربما سقط الواحد منهم فمات أو زمن

---

(١) الخَوَل: العبيد والإماء.

(٢) الطبري ١: ٣٨٧ / ٧٤٥؛ القرطبي ١: ٣٨٤، بخلاف في اللفظ ومع عدم ذكر الراوي.

(٣) البغوي ١: ١١٣.

(٤) الطبري ١: ٣٨٧ / ٧٤٦.

(٥) القمي ١: ٤٦ ـ ٤٧؛ البحار ١٣: ١٠٦ / ١، باب ٤.

ولا يحفلون بهم.... ﴿يُذَبِّحُونَ أبنَاءَكم﴾، وذلك لمّا قيل لفرعون: إنّه يولد في بني إسرائيل مولود يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فأمر بذبح أبنائهم، فكانت الواحدة منهنّ تصانع القوابل عن نفسها لئلّا تنمّ عليها ويتمّ حملها حتّى تلقي ولدها في صحراء أو غار جبل أو مكان غامض.... ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يبقونهنّ ويتخذونهنّ إماء»[١].

[١٧٨٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ ذكّرهم النعم ليوحّدوه فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ يعني أنقذناكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أهل مصر ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾ يعني يعذّبونكم شدّة العذاب يعني ذبح الأبناء واستحياء النساء. لأنّ فرعون أمر بذبح البنين في حجور أمّهاتهم. ثمّ بيّن العذاب فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ في حجور أمّهاتهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني قتل البنين وترك البنات، قتل منهم فرعون ثمانية عشر طفلاً مخافة أن يكون فيهم مولود يكون هلاكه في سببه[٢].

[١٧٨٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: قالت الكهنة لفرعون: إنّه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك! فجعل فرعون على كلّ ألف امرأة مائة رجل، وعلى كلّ مائة عشراً، وعلى كلّ عشر رجلاً، فقال: انظروا كلّ امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها ذكراً فاذبحوه، وإن كانت أنثى فخلّوا عنها، وذلك قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...﴾ الآية[٣].

[١٧٨٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية، قال: إنّ فرعون ملكهم أربعمائة سنة، فقال له الكهنة: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه. فبعث في أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاماً أُتي به فرعون فقتله ويستحيي الجواري[٤].

[١٧٨٨/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في الآية، قال: إنّ فرعون ملكهم أربعمائة سنة، وإنّه أتاه آت فقال: إنّه سينشأ في مصر غلام من بني إسرائيل فيظهر عليك ويكون هلاكك على يديه. فبعث في مصر نساء. فذكر نحو ذلك[٥].

---

(١) البرهان ١: ٢١٣ ـ ٢١٥ / ١؛ تفسير الإمام: ٢٤٢ ـ ٢٤٤ / ١٢٠؛ البحار ١٣: ٤٧ / ١٦، باب ٢.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٠٣. وفي بعض النسخ: ثمانية عشر ألف طفل.

(٣) الدرّ ١: ١٦٦؛ الطبري ١: ٣٨٨ / ٧٤٨.

(٤) الدرّ ١: ١٦٦؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٥ ـ ١٠٦ / ٥٠٥؛ الطبري ١: ٣٨٨ / ٧٤٩.

(٥) الطبري ١: ٣٨٨ / ٣٨٩ / ٧٥٠.

[١٧٨٩/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي، قال: كان من شأن فرعون أنّه رأى في منامه أنّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة(١) والعافة(٢) والقافة(٣) والحازَة(٤). فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر. فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلّا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلّا تركت. وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الّذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة! فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم؛ فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: تجبّر في الأرض، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾، يعني بني إسرائيل، حين جعلهم في الأعمال القذرة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٥). فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلّا ذُبح فلا يكبر الصغير. وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم. فدخل رؤوس القبط على فرعون، فكلّموه فقالوا: إنّ هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار، فلو أنّك كنت تبقي من أولادهم! فأمر أن يُذبحوا سنة ويُتركوا سنة. فلمّا كان في السنة التي لا يذبحون فيها وُلد هارون، فترك؛ فلمّا كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى(٦).

[١٧٩٠/٢] وأخرج عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله أن يجعل في ذرّيته أنبياء وملوكاً(٧) وائتمروا، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث

---

(١) الكهنة: جمع كاهن، وهو الّذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان.

(٢) العافة: جمع عائف، وهو الذي يتعاطى العيافة، وهو نوع من كهانة الجاهلية تتمثّل بزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها.

(٣) القافة: جمع قائف، وهو الّذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه. وليست من السحر والكهانة.

(٤) الحازة: جمع حاز، والحازي هو الذي ينظر في النجوم وأحكامها بظنّه وتقديره.

(٥) القصص ٢٨: ٤.

(٦) الطبري ١: ٣٨٩ / ٧٥١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٦ / ٥٠٦.

(٧) حديث غريب! كيف عرف فرعون وذووه بشأن وعد الله لإبراهيم خليله والأنبياء من ذرّيته؟!

رجالاً معهم الشِّفار[١]، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلّا ذبحوه، ففعلوا. فلمّا رأوا أنّ الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأنّ الصغار يُذبَحون، قال: توشكون أن تُفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كلّ مولود ذكر فتقلّ أبناؤهم ودعوا عاماً. فحملت أمّ موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية أمّه، حتّى إذا كان القابل حملت بموسى[٢].

[١٧٩١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق، قال: ذُكر لي أنّه لمّا تقارب زمان موسى أتى منجّمو فرعون وحُزّاؤه[٣] إليه، فقالوا له: تعلَّم[٤] أنّا نجد في علمنا أنّ مولوداً من بني إسرائيل قد أظلّك زمانُه الذي يولد فيه، يَسلبك ملكَك ويَغلبك على سلطانك ويُخرجك من أرضك ويبدّل دينك! فلمّا قالوا له ذلك أمر بقتل كلّ مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان، وأمر بالنساء يستحيين. فجمع القوابل من نساء مملكته فقال لهنّ: لا يسقطن على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلّا قتلتُنّه. فكنّ يفعلن ذلك، وكان يَذْبح مَنْ فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحبالى فيعذّبن حتّى يطرحن ما في بطونهنّ![٥].

[١٧٩٢/٢] وعن مجاهد قال: لقد ذُكر أنّه كان ليأمر بالقصب فيشقّ حتّى يجعل أمثال الشِّفار، ثمّ يُصَفُّ بعضه إلى بعض، ثمّ يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل فيوقَفْنَ عليه فيحزّ أقدامهنّ حتّى أنّ المرأة منهنّ لتمصَعُ[٦] بولدها فيقع من بين رجليها، فتظلّ تطؤه تتّقي به حدّ القصب عن رجلها لما بلغ من جُهدها. حتّى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل، وإنّهم خَوَلُك وعُمّالك! فأمر أن يُقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً. فولد هارون في السنة التي يُستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون[٧].

---

(١) جمع شفرة: سكّين عظيم عريض.

(٢) الطبري ١: ٣٨٨ / ٧٤٨؛ النسائي ٦: ٣٩٦ ـ ٣٩٧ / ١١٣٢٦، كتاب التفسير، سورة طه؛ ابن عساكر ٦١: ٨١ ـ ٨٢ / ١٧٧٤١ موسى بن عمران).

(٣) الحُزَّاء: الذين ينظرون في النجوم أو الجوارح فيتكهّنون.

(٤) أي تفهّم واعرف ذلك جيّداً.

(٥) الطبري ١: ٣٨٩ ـ ٣٩٠ / ٧٥٢.

(٦) مصعت المرأة بالولد: رمت به.

(٧) الطبري ١: ٣٩٠ / ٧٥٣؛ الدرّ ٦: ٣٩١ ـ ٣٩٢، (سورة القصص ٢٨: ٤).

[١٧٩٣/٢] وقال وهب: بلغني أنّه ذبح في طلب موسى ﷺ تسعين ألف وليد، قال...: ثمّ أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوسُ القبط على فرعون وقالوا: إنّ الموت قد وقع في بني إسرائيل، فتذبح صغارهم ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يُذبحوا سنة ويُتركوا سنة فولد هارون في السنة التي لايذبحون فيها وولد موسى في السنة التي يُذبحون فيها[١].

[١٧٩٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُريج قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ قال: يسترقّون نساءكم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

قال أبو جعفر: يعني: وفي الّذي فعلنا بكم من إنجائنا إيّاكم ممّا كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء من ربكم عظيم. قال: ويعني بقوله: بلاء: نعمة، كما:

[١٧٩٥/٢] قال ابن عبّاس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة[٣].

[١٧٩٦/٢] وقال السُدّي: أمّا البلاء فالنعمة.

[١٧٩٧/٢] وقال مجاهد: نعمة من ربّكم عظيمة.

وهكذا روى أبو حذيفة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله.

[١٧٩٨/٢] وقال ابن جُرَيج: نعمة عظيمة.

قال أبو جعفر: وأصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثمّ يستعمل في الخير والشرّ، لأنّ الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشرّ.

كما قال ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٤].

يقول: اختبرناهم وكما قال ـ جلّ ذكره ـ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٥].

قال: ثمّ تسمّي العرب الخير بلاءً والشرّ بلاءً، غير أنّ الأكثر في الشرّ أن يقال: بلوته أبلوه بلاء.

---

(١) البغوي ١: ١١٣ ـ ١١٤. (٢) الطبري ١: ٣٩٠ / ٧٥٤.

(٣) وأخرجه ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عبّاس ١: ١٠٦ / ٥٠٧.

(٤) الأعراف ٧: ١٦٨. (٥) الأنبياء ٢١: ٣٥.

وفي الخير: أَبليتُه أَبليه إبلاءً وبلاءً.

ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللّغتين، لأنّه أراد: أنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده[١].

[١٧٩٩/٢] وهكذا روي عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «أي في ذلك الإنجاء الذي أنجاكم منه ربّكم بلاء، أي نعمة من ربّكم، عظيم أي كبير»[٢].

[١٨٠٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ يعني: فيما يخبركم من قتل الأبناء وترك البنات. ﴿بَلَاءٌ﴾ يعني: نقمة. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٣].

وذكر الثعلبي: أنّ البلاء تنصرف على وجهين: النعماء والنقماء[٤].

---

(١) الطبري ١: ٣٩١-٣٩٢ / ٧٥٥-٧٥٨.

(٢) تفسير الإمام: ٢٤٣ / ١٢٠؛ البحار ١٣: ٤٧، باب ٢؛ البرهان ١: ٢١٤.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٠٣.

(٤) الثعلبي ١: ١٩٢.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

[١٨٠١/٢] قال قتادة: هو بحر من وراء مصر يقال له: إساف[١].

ونصّت التوراة أنّ البحر الذي جاوزه بنو إسرائيل هو بحر سُوف[٢].

وفي قاموس الكتاب المقدّس[٣]: أنّه «القُلزم».

وهكذا جاء في دعاء شبّور المعروف بدعاء السماة: «ويوم فرقت لبني إسرائيل البحر، وفي المنبجسات التي صنعت بها العجائب في بحر سُوف». قال العلّامة المجلسي ـ في شرح الدعاء ـ: سمّاه الهروي في الغريبين «إساف». قال: وهو الذي غرق فيه فرعون. قال المجلسي: وهذا البحر هو بحر القُلزم[٤].

والقُلزم: هو البحر الأحمر الواقع على شرقيّ مصر حائلاً بين البلاد المصريّة ووادي سيناء، وبطبيعة الحال كان معترضاً طريق بني إسرائيل نازحين من أرض مصر قاصدين بلاد القدس شرقاً.

وقد اشتبه على البعض حيث زعمه أنّه نهر النيل، والنهر لايسمّى بحراً، ولا موضع لاعتراض طريق بني إسرائيل نحو القدس! وقد شرحنا ذلك بتفصيل في كتابنا «شبهات وردود». وذكرنا الموضع الذي عَبَر موسى وقومه البحر: «فم الحيروث» مضيق قرب نهاية خليج السويس[٥].

[١٨٠٢/٢] وروى عليّ بن إبراهيم في قصّة حنين: ثمّ رفع رسول الله ﷺ يده فقال: «اللّهمّ لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان»، فنزل عليه جبرئيل فقال: يا رسول الله، دعوت بما دعاه به موسى حين فلق الله له البحر ونجّاه من فرعون[٦].

---

(١) البغوي ١: ١١٦؛ القرطبي ١٣: ٢٨٩، سورة النمل ٢٧: ٤٠؛ مجمع البيان ٧: ٤٤٠، لم يذكر الراوي.

(٢) سفر الخروج، أصحاح: ١٣ / ١٨ و ١٥ / ٥.

(٣) لجيمس هاكس: ٤٩٦.

(٤) البحار ٨٧: ١١٢.

(٥) «شبهات وردود» (الجزء السابع من التمهيد: ٧٧ ـ ٧٩).

(٦) نور الثقلين ١: ٨٠؛ القمّي ١: ٢٨٧، سورة التوبة؛ البحار ٢١: ١/١٥٠، باب ٢٨.

قصّة الخروج

١ ـ نزوح بني إسرائيل من أرض مصر.

٢ ـ وعبورهم البحر قاصدين أرض القدس.

جاء في سِفر الخروج: أنّ فرعون اضطرّ ـ بعد مداولات ومناوشات ـ إلى إطلاق سراح بني إسرائيل، لِما أصاب القبطيّين من الجدب والبلاء. لكنّه فور ما أُطلق سراحهم ندم على ذلك، فأخذ هو وجنوده يعقّبونهم ليردّوهم إلى الذلّ والعبوديّة الأُولى، غير أنّ بني إسرائيل أسرعوا في الخروج والهروب من سلطان فرعون، وكاد فرعون أن يدركهم وهم على ضفّة البحر الأحمر. فلمّا رأى بنو إسرائيل فرعون وجنوده ذُعِروا وفَزِعوا إلى موسى. فأوحى الله إليه: أنّهم ناجون، وأنّ فرعون وجنوده سوف يغرقون. فحال بينهم وبين فرعون أن يصل إليهم.

فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر ويشقّه شقّتين ففعل، فأجرى الله بريح شرقيّة شديدة كلّ الليل وجعل البحر طريقاً يابسة، وانشقّ الماء. فمشى بنو إسرائيل على اليابسة في وسط البحر، والماء كالسور عن يمينهم وعن يسارهم، وعبروا إلى الضِفّة الأخرى. ورآهم فرعون ـ وقد قارب البحر ـ رآهم يسيرون وسط البحر على اليابسة. فهمّ في أثرهم، فلمّا توسّط اليمّ وعبر بنو إسرائيل جميعاً، انطبق الماء على فرعون ومن كان معه من جنود فأُغرقوا جميعاً[1].

ونصّت التوراة: أنّ البحر الذي جاوزه بنو إسرائيل هو بحر سُوف ـ على ما تقدّم ـ والموضع الذي عبروا منه كان عند فم الحيروث[2].

ولعلّ ما جاء في عبارة دعاء السماة: «وفي جبل حوريث»[3] إشارة إلى ذلك، وهو المضيق الواقع قرب نهاية خليج السويس. وهو لايتجاوز بضع كيلومترات[4].

وهذا الّذي جاء في التوراة، يتصادق مع نصّ القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ

---

(١) سفر الخروج، أصحاح: ١٠ ـ ١٤. (٢) المصدر: ١٤ / ٩.

(٣) البحار ٨٧: ١١٢.

(٤) راجع: خارطة قناة السويس، تصل البحر الأحمر بالمتوسّط تجتاز عدة بحيرات طبيعيّة أهمّها بحيرة المنزلة، بحيرة التمساح، البحيرات المرّة. ولعلّها كانت متصلة ذلك العهد، ويترجّح أنّ موسى وقومه أخذوا من أحد هذه المضائق طريقهم للعبور.

مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي انشقّ البحر فلقتين عظيمتين. والفِرْق: القسم من الشيء. الفِلق من الشيء المنفلق. الموجة. والطود: الجبل العظيم.

ويتبيّن من ذلك أنّ البحر تموّج تموّجاً رهيباً بحيث تبدّى قعر البحر على أثر اعتلاء الموج. وهذا لاينافي كونه خارقاً للعادة، على أثر معجزة ظهرت على يد موسى عليه السلام ولو كان بسبب هبوب الرياح العاصفة الشديدة، كما جاءت في التوراة. إذ لم يعهد أنّ الريح ـ مهما بلغت شدّتها ـ أن تعمل مثل هذا العمل في الخليج مرّة أخرى ولا سابقة لها أيضاً.

قال الأُستاذ عبد الوّهاب: المعجزة حاصلة حتّى مع فرض هبوب الرياح، لأنّه لم يعهد أن عملت الريح ذلك في كلّ الدهر ـ سواء قبل الحادثة أو بعدها ـ سوى حين عبور بني إسرائيل فقط. وكفى به معجزة خارقة[٢].

ويذكر المفسّرون ـ هنا ـ تبعاً لروايات غريبة الأسناد: أنّ البحر انفلق عن اثني عشر طريقاً على عدد أسباط إسرائيل، وحصل في طرفي كلّ طريق كوى ينظر بعضهم إلى بعض فلا يستوحشوا.

لكن لا شاهد لذلك في نصّ القرآن ولا ضرورة تدعو إليه. والروايات مع ضعف أسنادها غريبة المفاد، على ما سنذكرها.

كما ذكروا أنّ فرعون توقّف عن تقحّم البحر، لولا أن جبرائيل ركب فرساً أُنثى وديقاً ـ المهيّجة للفحل ـ وتقدّم فرس فرعون ليجذبه إلى الاقتحام وراءه.. فانجذب فرعون وجنوده ودخلوا البحر فكان ماكان. كلّ ذلك من أقاصيص القصّاصين لا أساس له معقولاً. وإليك من هذه الآثار هي غريبة الأسناد غريبة المفاد.

* * *

أمّا اليوم الذي انفلق البحر فيه لموسى وبني إسرائيل فقيل: كان يوم عاشوراء!!

---

(١) الشعراء ٢٦: ٦١ ـ ٦٦.

(٢) راجع: قصص القرآن لعبدالوهّاب النجّار: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

[١٨٠٣/٢] أخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء»(١).

قال ابن كثير: وهذا ضعيف، فإنّ زيداً العميّ ـ راوي الحديث ـ فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشي ـ المرويّ عنه ـ أضعف منه(٢).

قلت: بل وفيه غرابة: هل كانت اليهود تعرف عاشوراء ـ اليوم العاشر من شهر محرّم الحرام العربي ـ وهل كانت تعهد ما لهذا اليوم من مكانة مزعومة! لم تعرف إلّا على عهد سطو أميّة على بضعة آل الرسول!!

[١٨٠٤/٢] وأغرب منه ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي عن ابن عبّاس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء! فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟ قالوا: هذا يوم صالحٌ نجّى الله فيه بني إسرائيل من عدوّهم، فصامه موسى. فقال رسول الله ﷺ: نحن أحقّ بموسى منكم، فصامه وأمر بصومه»(٣).

وجه الغرابة: أنّ مثل نبيّ الإسلام لايجهل سنن من قبله من الأنبياء. ثمّ لاينبغي لمثله أن يتّبع قولة يهوديّة لااعتبار بها، أو أن يأمر بمتابعتهم!

[١٨٠٥/٢] وذكر الثعلبي: أنّه لمّا دنا هلاك فرعون أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ موسى أن يسري ببني إسرائيل، وأمرهم أن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله ـ عزّ وجلّ ـ كلّ ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم وأخرج من بني إسرائيل كلّ ولد زنا منهم إلى القبط حتّى رجع كلّ واحد منهم إلى أبيه، وألقى الله ـ عزّ وجلّ ـ على القبط الموت فمات كلّ بكر، فاشتغلوا بدفنهم عن طلبهم حتّى طلعت الشمس وخرج موسى ﷺ في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يتعدّون ابن العشرين أصغرهم، ولا ابن الستّين أكبرهم، سوى الذرّيّة. فلمّا أرادوا السير ضُرب عليهم التّيه فلم يدروا أين

---

(١) أبو يعلى ٧: ١٣٣ / ٤٠٩٤؛ الدرّ ١: ١٦٧؛ مجمع الزوائد ٣: ١٨٨، كتاب الصيام. كنزالعمّال ٨: ٥٧٢ / ٢٤٢٣٥.

(٢) ابن كثير ١: ٩٥.

(٣) الدرّ ١: ١٦٧؛ مسند أحمد ١: ٢٩١؛ البخاري ٢: ٢٥١، وفيه: فأنا أحقّ بموسى، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء؛ مسلم ٣: ١٤٩؛ النسائي ٢: ١٥٦ ـ ١٥٧ / ٢٨٣٤ و ٢٨٣٥، كتاب الصيام، باب صيام يوم عاشوراء؛ البيهقي ٤: ٢٨٦، كتاب الصيام، باب فضل يوم عاشوراء وفيه: «فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله....». ابن كثير ١: ٩٥ وفيه: «أنا أحقّ».

يذهبون، فدعا موسى ﷺ مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك. فقالوا: إنّ يوسف ﷺ لمّا حضرته الوفاة أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتّى يخرجوه معهم؛ فلذلك انسدّ علينا الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا.

فقام موسى يُنادي: أنشد الله كلّ من يعلم أين موضع قبر يوسف إلّا أخبرني به، ومن لم يعلم فصمّت أذناه عن قولي. فكان يمرّ بين الرّجلين ينادي فلا يسمعان صوته حتّى سمعتهُ عجوز لهم فقالت: أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطيني كلّما سألتك، فأبى عليها وقال: حتّى أسأل ربّي، فأمره الله ـعزّ وجلّ ـ بإيتاء سؤلها، فقالت: إنّي عجوز كبيرة لا أستطيع المشي فاحملني وأخرجني من مصر، هذا في الدُّنيا، وأمّا في الآخرة فأسألك أن لا تنزل بغرفة من الجنّة إلّا نزلتها معك، قال: نعم، قالت: إنّه في جوف الماء في النيل، فادعُ الله حتّى يحبس عنه الماء. فدعا الله فحبس عنه الماء، ودعا أن يؤخّر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف، فحفر موسى ذلك الموضع واستخرجه في صندوق من المرمر فحمله حتّى دفنه بالشام، ففتح لهم الطريق[1].

[١٨٠٦/٢] وذكر البغوي: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، قيل: معناه فرقنا لكم البحر، وقيل: فرقنا البحر بدخولكم إيّاه، وسُمّيَ البحر بحراً لاتّساعه، ومنه قيل للفرس: بحر إذا اتّسع في جريه.

وذلك أنّه لمّا دَنَا هلاك فرعون أمر الله تعالى موسى ﷺ أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلاً فأمر موسى قومه أن يسرجوا[2] في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله تعالى كلّ ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم وكلّ ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط، حتّى رجع كلّ إلى أبيه، وألقى الله الموت على القبط فمات كلّ بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم حتّى أصبحوا، حتّى طلعت الشمس وخرج موسى ﷺ في ستّمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يَعُدّون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستّين لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة، وعن ابن مسعود قال: كان أصحاب موسى ستّمائة ألف وسبعين ألفاً.

وعن عمرو بن ميمون قال: كانوا ستّمائة ألف، فلمّا أرادوا السير ضُرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إنّ يوسف ﷺ لمّا حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لايخرجوا من مصر حتّى يُخرجوه معهم فلذلك انسدّ علينا

(١) الثعلبي ١: ١٩٢.

(٢) أي أمرهم أن يضيئوا السراج.

الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادي: أنشد الله كلَّ من يعلم أين موضع قبر يوسفﷺ إلّا أخبرني به، ومن لم يعلم به فصمّت أذناه عن سماع قولي، وكان يمرّ بين الرجلين ينادي فلا يسمعان صوته، حتّى سمعته عجوز لهم فقالت: أرأيت إن دللتك على قبره أتعطيني كلّ ما سألتك؟ فأبى عليها وقال حتّى أسأل ربّي، فأمره الله تعالى بإيتائها سؤالها، فقالت: إنّي عجوز كبيرة لا أستطيع المشي فاحملني وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من الجنّة إلّا نزلتها معك، قال: نعم، قالت: إنّه في جوف الماء في النيل، فادع الله تعالى حتّى يحسر عنه الماء، فدعا الله تعالى فحسر عنه الماء، ودعا الله أن يؤخّر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسفﷺ فحفر موسىﷺ ذلك الموضع واستخرجه في صندوق من مَرْمَرٍ وحمله حتّى دفنه بالشام، فَفُتِحَ لهم الطريق فساروا وموسىﷺ على ساقتهم[(١)] وهرون على مقدّمتهم، ونَذِر[(٢)] بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لايخرجوا في طلب بني إسرائيل حتّى تصيح الديكة فوالله ما صاح ديك تلك الليلة فخرج فرعون في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدّمة عسكره هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، وكان فيهم سبعون ألفاً من دُهم الخيل سوى سائر الشيات[(٣)].[(٤)]

[١٨٠٧/٢] وأخرج الحاكم بإسناده عن أبي بردة عن أبيه أبي موسى وصحّحه! عن رسول الله ﷺ في حديثه عن عجوز بني إسرائيل، قال: «إنّ موسى أراد أن يسير ببني إسرائيل فأضلّ عن الطريق. فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدّثك أنّ يوسف أخذ علينا مواثيق الله أن لانخرج من مصر حتّى ننقل عظامه معنا! قال: وأيّكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ماندري إلّا عجوز بني إسرائيل، فأرسل إليها فقال: دلّيني على قبر يوسف، فقالت: حتّى أكون معك في الجنّة! فأجابها على ذلك، فأتت بحيرةً فقالت انضبوا هذا الماء!! فلمّا نضبوه[(٥)] قالت احفروا هاهنا، فلمّا حفروا إذا عظام يوسف، فلمّا أقلّوها من الأرض، فإذا الطريق مثل ضوء النهار».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه (أي البخاري ومسلم)[(٦)].

---

(١) ساقة الجيش: مؤخّره. (٢) أي أعلم.

(٣) الشيات جمع الشية: وهي كلّ لون يخالف معظم لون الفرس.

(٤) البغوي ١: ١١٤ ـ ١١٥. (٥) يقال: نضب عنه البحر أي نُزح ماؤه ونشف.

(٦) الحاكم ٢: ٥٧١ ـ ٥٧٢.

قلت: ولعلّه لوهنه لم يخرجاه.

[١٨٠٨/٢] وأخرج أيضاً بإسناده إلى عبدالله بن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً، وكان أهله حين أرسل إليهم وهم بمصر ثلاثمأة وتسعين إنساناً، رجالهم أنبياء! ونساؤهم صدّيقات! والله ما خرجوا مع موسى حتّى بلغوا ستّمأة ألف وسبعين ألفاً.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١].

قلت: والوهن فيه أبين!

[١٨٠٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قال: إي والله لفرق بهم البحر حتّى صار طريقاً يبساً يمشون فيه فأنجاهم وأغرق آل فرعون عدوّهم، نعماً من الله يُعرّفهم بها لكيما يشكروا ويعرفوا حقّه[٢].

[١٨١٠/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن السدّي: لمّا أتى موسى البحر كنّاه أبا خالد[٣] وضربه فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم، فدخلت بنو إسرائيل، وكان في البحر اثنا عشر طريقاً في كلّ طريق سبط[٤].

[١٨١١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿فَاذْكُرُوا﴾ فضله عليكم حين أنجاكم من آل فرعون ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ وذلك أنّه فرق البحر يميناً وشمالاً كالجبلين المتقابلين كلّ واحد منهما على الآخر، وبينهما كوّى من طريق إلى طريق، ينظر كلّ سبط إلى الآخر، ليكون آنس لهم ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أهل مصر يعني القبط ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. يعني: أجدادُهم يعلمون أنّ ذلك حقّ وكان ذلك من النعم[٥].

[١٨١٢/٢] وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير، أنّ هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوّة فسيخبرني عمّا أسألهم عنه. قال: وكتب إليه يسأله عن المجرّة، وعن القوس، وعن البقعة التي لم تصبها الشمس إلّا ساعة واحدة؟ قال: فلمّا أتى معاوية

(١) المصدر: ٥٧٢.

(٢) الدرّ ١: ١٦٧، أخرجه الدرّ عن عبدبن حميد عن قتادة؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٧ / ٥٠٩.

(٣) سيأتي تفصيل هذه القصّة في حديث السدّي بنفس الإسناد.

(٤) الطبري ١: ٣٩٣ / ٧٥٩.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠٣ ـ ١٠٤.

الكتابُ والرسول قال: إنّ هذا شيء ما كنت آبه له[(١)] أن أسأل عنه إلى يومي هذا، من لهذا؟ قالوا: ابن عبّاس. فطوى معاوية كتاب هرقل وبعثه إلى ابن عبّاس، فكتب إليه: إنّ القوس أمان لأهل الأرض من الغَرَق، والمجرّة باب السماء الذي تشقّ منه، وأمّا البقعة التي لم تصبها الشمس إلّا ساعة من نهار، فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل[(٢)].

[١٨١٣/٢] وأخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب القرظي، عن عبدالله بن شدّاد بن الهاد، قال: لقد ذُكر لي أنّه خرج فرعون في طلب موسى على سبعين ألفاً من دُهم[(٣)] الخيل سوى ما في جنده من شُهْب[(٤)] الخيل؛ وخرج موسى، حتّى إذا قابله البحر ولم يكن له عنه منصرف، طلع فرعون في جنده من خلفهم، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ﴾ موسى: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[(٥)] أي للنجاة، وقد وعدني ذلك ولا خلف لوعده[(٦)].

[١٨١٤/٢] وعن ابن إسحاق، قال: أوحى الله إلى البحر فيما ذُكر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضاً فرقاً من الله وانتظار أمره، فأوحى الله ـ جلّ وعزّ ـ إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[(٧)] فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[(٨)] أي كالجبل على يبس من الأرض. يقول الله لموسى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾[(٩)] فلمّا استقرّ له البحر على طريق قائمة يبس سلك فيه موسى ببني إسرائيل، وأتبعه فرعون بجنوده[(١٠)].

[١٨١٥/٢] وعن محمّد بن كعب القرظي، عن عبدالله بن شدّاد بن الهاد الليثي، قال: حُدّثت أنّه لمّا

---

(١) أَبَهَ له: تفطّن. آبَهُ: مخفّف أأْبَهُ أي أتفطّنُ له.

(٢) الدرّ ١: ١٦٧؛ الكبير ١٠: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ / ١٠٥٩١؛ الحلية ١: ٣٢٠؛ مجمع الزوائد ٩: ٢٧٧ ـ ٢٧٨؛ الثعلبي ١: ١٩٣، بلفظ: قال سعيد بن جبير: أرسل معاوية إلى ابن عبّاس فسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلّا مرّة واحدة؟ فكتب إليه: إنّه المكان الذي انفلق منه البحر لبني إسرائيل.

(٣) الدُهم: جمع أدهم، وهو من الخيل الأسود.

(٤) الشُهب: جمع أشهب، وهو من الخيل المختلط بياضه بالسواد، وكانت في الأصل: «من ماشية الخيل».

(٥) الشعراء ٢٦: ٦١ ـ ٦٢.

(٦) الطبري ١: ٣٩٣ / ٧٦٠.

(٧) الشعراء ٢٦: ٦٣.

(٨) الشعراء ٢٦: ٦٣.

(٩) طه ٢٠: ٧٧.

(١٠) الطبري ١: ٣٩٣ ـ ٣٩٤ / ٧٦١؛ تاريخ الطبري ١: ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

دخل بنو إسرائيل البحر، فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل حتّى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصانُ أن ينفذه؛ فعرض له جبريل على فرس أُنثى وَدِيق[١]، فقرّبها منه فشمّها الفحل، فلمّا شمّها قدَّمها[٢]، فتقدّم معها الحصان وعليه فرعون، فلمّا رأى جندُ فرعون فرعونَ قد دخل دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتّبعون فرعون، وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم، يقول: الحقوا بصاحبكم. حتّى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى وليس خلفه أحد، طُبّق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله ـ عزّ وجلّ ـ وقدرته ما رأى وعرف ذلّته وخذلته نفسه: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣].[٤]

[١٨١٦/٢] وعن عمرو بن ميمون الأودي في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: لمّا خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتّبعوهم حتّى يصيح الديك. قال: فوالله ما صاح ليلتئذٍ ديك حتّى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت، ثمّ قال: لا أفرغ من كبدها حتّى يجتمع إليّ ستّمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتّى اجتمع إليه ستّمائة ألف من القبط. ثمّ سار، فلمّا أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمرك ربّك يا موسى؟ قال: أمامك! يشير إلى البحر. فأقحم يوشك فرسه في البحر حتّى بلغ الغمر، فذهب به ثمّ رجع، فقال: أين أمرك ربّك يا موسى؟ فوالله ما كَذبت ولا كُذبت! ففعل ذلك ثلاث مرّات، ثمّ أوحى الله ـ جلّ ثناؤه ـ إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٥]. يقول: مثل جبل. قال: ثمّ سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتّى إذا تتامّوا[٦] فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال معمر: قال قتادة: كان مع موسى ستّمائة

(١) فرس وديق: مريدة للفحل تشتهيه.

(٢) قدّمها: زجرها.

(٣) يونس ١٠: ٩٠.

(٤) الطبري ١: ٣٩٤ / ٧٦٢؛ تاريخ الطبري ١: ٢٩٦؛ البغوي ١: ١١٥.

(٥) الشعراء ٢٦: ٦٣.

(٦) تتامّ القوم: اجتمع كلّهم.

ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان[1].

قلت: لاشكّ أن الأرقام مبالغ فيها كثيراً. وسيوافيك بعض الكلام فيه.

[١٨١٧/٢] وبإسناده عن ابن عبّاس، قال: أوحى الله -جلّ وعزّ- إلى موسى أن ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾[2] قال: فسرى موسى ببني إسرائيل ليلاً، فأتبعهم فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث وكان موسى في ستمائة ألف، فلمّا عاينهم فرعون قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[3]. فسرى موسى ببني إسرائيل حتّى هجموا على البحر، فالتفتوا فإذا هم برَهْج[4] دوابّ فرعون فقالوا: يا موسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[5] هذا البحر أمامنا، وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه. ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[6]. قال: فأوحى الله -جلّ ثناؤه- إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[7] وأوحى إلى البحر: أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك. قال: فبات البحر له أفكل -يعني له رعدة- لايدري من أيّ جوانبه يضربه، قال: فقال يوشع لموسى: بماذا أُمرت؟ قال: أُمرت أن أضرب البحر. قال: فاضربه! قال: فضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، كلّ طريق كالطود العظيم، فكان لكلّ سبط منهم طريق يأخذون فيه. فلمّا أخذوا في الطريق، قال بعضهم لبعض: ما لنا لا نرى أصحابنا؟ قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنّهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتّى نراهم -قال سفيان، قال عمّار الدهني:- قال موسى: اللهمّ أعنّي على أخلاقهم السيّئة! قال: فأوحى الله إليه: أن قل بعصاك[8] هكذا -وأومأ إبراهيم بن بشّار بيده يديرها على البحر- قال: فضرب موسى بعصاه على الحيطان[9] هكذا، فصار فيها كُوًى ينظر بعضهم إلى بعض، قال سفيان: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عبّاس: فساروا حتّى خرجوا من البحر،

---

(١) الطبري ١: ٣٩٤-٣٩٥ / ٧٦٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٩-٢٧٠ / ٥٢؛ ابن كثير ١: ٩٤-٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٦-١٠٧ / ٥٠٨؛ القرطبي ١: ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) الدخان ٤٤: ٢٣.

(٣) الشعراء ٢٦: ٥٤-٥٦.

(٤) الرهج: الغبار.

(٥) الأعراف ٧: ١٢٩.

(٦) الأعراف ٧: ١٢٩.

(٧) الشعراء ٢٦: ٦٣.

(٨) قل بعصاك: أي أشر بعصاك.

(٩) أي حيطان البحر.

فلمّا جاز آخر قوم موسى، هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذَنُوب حصان[١]. فلمّا هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثّل له جبريل على فرس أُنثى وَدِيق[٢]. فلمّا رآها الحصان تقحّم خلفها، وقيل لموسى: اترك البحر رَهْواً ـ قال: طرقاً على حاله ـ[٣] قال: ودخل فرعون وقومه في البحر، فلمّا دخل آخر قوم فرعون وجاز آخر قوم موسى أطبق البحر على فرعون وقومه فأُغرقوا[٤].

[١٨١٨/٢] وعن السدّي: أنّ الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل، فقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾[٥] فخرج موسى وهارون في قومهما، وأُلقي على القبط الموت فمات كلّ بكر رجل. فأصبحوا يدفنونهم، فشُغلوا عن طلبهم حتّى طلعت الشمس، فذلك حين يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾[٦] فكان موسى على ساقة[٧] بني إسرائيل، وكان هارون أمامهم يقدُمُهم. فقال المؤمن[٨] لموسى: يا نبيّ الله، أين أُمرت؟ قال: البحر. فأراد أن يقتحم، فمنعه موسى. وخرج موسى في ستّمائة ألف وعشرين ألف مقاتل، لا يعدّون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستّين لكبره، وإنّما عدوّا ما بين ذلك سوى الذريّة. وتبعهم فرعون وعلى مقدّمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذيانة[٩]، يعني الأنثى؛ وذلك حين يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[١٠] يعني بني إسرائيل. فتقدم هارون، فضرب البحر، فأبى البحر أن ينفتح، وقال: من هذا الجبّار الذي يضربني؟ حتّى أتاه موسى، فكنّاه أبا خالد وضربه

---

(١) الأدهم: الأسود. والذنوب: الوافر الذنب الطويلة. والحصان: يريد به الفحل.

(٢) الوَدِيق: المريدة للفحل تشتهيه.

(٣) الرهو: السعة من الطريق. أي اترك البحر على حاله متّسعاً فيه الطريق ليقتحمه فرعون وجنوده أجمعون.

(٤) الطبري ١: ٣٩٥ ـ ٣٩٦ / ٧٦٤؛ مجمع البيان ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٨، ذكره مختصراً باختلافٍ يسير في الألفاظ؛ التبيان ١: ٢٣٠ ـ ٢٣١، باختلاف يسير.

(٥) الدخان ٤٤: ٢٣.

(٦) الشعراء ٢٦: ٦٠.

(٧) أي في مؤخّرهم يحافظ عليهم من ورائهم.

(٨) وهو يوشع على ما مرّ في الحديث السابق.

(٩) ماذيانة: معرّب ماديانه بالدال المهملة ـ كلمة فارسيّة ـ تعني الأنثى من الخيل.

(١٠) الشعراء ٢٦: ٥٣ ـ ٥٤.

فانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[1] يقول: كالجبل العظيم. فدخلت بنو إسرائيل. وكان في البحر اثنا عشر طريقاً، في كلّ طريق سبط، وكانت الطرق انفلقت بجدران، فقال كلّ سبط: قد قتل أصحابنا! فلمّا رأى ذلك موسى، دعا الله، فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيقان[2]. فنظر آخرهم إلى أوّلهم، حتّى خرجوا جميعاً. ثمّ دنا فرعون وأصحابه، فلمّا نظر فرعون إلى البحر منفلقاً، قال: ألا ترون البحر فرق منّي قد انفتح لي حتّى أُدرك أعدائي فأقتلهم؟ فذلك حين يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾[3] يقول: قرّبنا ثمّ الآخرين؛ يعني آل فرعون. فلمّا قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذيانة، فشامّ[4] الحصان ريح الماذيانة، فاقتحم في أثرها، حتّى إذا همّ أوّلهم أن يخرج ودخل آخرهم، أُمر البحر أن يأخذهم، فالتطم[5] عليهم[6].

[١٨١٩/٢] وعن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: لمّا أخذ عليهم فرعون الأرض إلى البحر قال لهم فرعون: قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين. فلمّا رآهم أصحاب موسى، قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[7] فقال موسى للبحر: ألست تعلم أنّي رسول الله؟ قال: بلى. قال: وتعلم أنّ هؤلاء عباد من عباد الله أمرني أن آتي بهم؟ قال: بلى. قال: أتعلم أنّ هذا عدوّ الله؟ قال: بلى. قال: فانفرق لي طريقاً ولمن معي. قال: يا موسى، إنّما أنا عبد مملوك ليس لي أمر إلّا أن يأمرني الله تعالى! فأوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفرق، وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ﴾[8] وقرأ قوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾[9] سهلاً ليس فيه تعدّ[10]. فانفرق اثنتي عشرة فرقة، فسلك كلّ سبط في طريق. قال: فقالوا لفرعون: إنّهم قد دخلوا البحر. قال: ادخلوا عليهم، قال: وجبريل في آخر بني إسرائيل يقول لهم: ليلحق آخركم أوّلكم. وفي أوّل آل فرعون، يقول لهم:

(١) الشعراء ٢٦: ٦٣.
(٢) الطيقان: جمع طاق، وهو عقد البناء.
(٣) الشعراء ٢٦: ٦٤.
(٤) شامّ: تشمّم.
(٥) التطم عليهم: أطبق عليهم.
(٦) الطبري ١: ٣٩٦ ـ ٣٩٧ / ٧٦٥.
(٧) الشعراء ٢٦: ٦١ ـ ٦٢.
(٨) طه ٢٠: ٧٧.
(٩) الدخان ٤٤: ٢٤.
(١٠) أي إضرار بأحد.

رويداً يلحق آخركم أوّلكم. فجعل كلّ سبط في البحر يقولون للسبط الّذين دخلوا قبلهم: قد هلكوا. فلمّا دخل ذلك قلوبهم، أوحى الله جلّ وعزّ إلى البحر، فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلى هؤلاء، حتّى إذا خرج آخر هؤلاء ودخل آخر هؤلاء أمر الله البحر فأطبق على هؤلاء(١).

[١٨٢٠/٢] وروى الراوندي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ فرعون بنى سبع مدائن، فتحصّن فيها من موسى. فلمّا أمره الله أن يأتي فرعون جاءه ودخل المدينة. فلمّا رأته الأُسود بصبصبت بأذنابها، ولم يأت مدينة إلّا انفتح له بابها حتّى انتهى إلى التي هو فيها، فقعد على الباب وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه، فلمّا خرج الإذن، قال له موسى ـ صلوات الله عليه ـ: إنّي رسول ربّ العالمين إليك. فلم يلتفت، فضرب بعصاه الباب، فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلّا انفتح فدخل عليه، فقال: أنا رسول ربّ العالمين. فقال: ائتني بآية! فألقى عصاه وكان له شعبتان، فوقعت إحدى الشعبتين في الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبّة، فنظر فرعون إلى جوفها وهي تلهب ناراً، وأهوت إليه فأخذت فرعون، وصاح يا موسى خذها، ولم يبق أحد من جلساء فرعون إلّا هرب، فلمّا أخذ موسى العصا ورجعت إلى فرعون نَفَسُه هَمَّ بتصديقه، فقام إليه هامان وقال: بينا أنت إله تُعْبَد إذ أنت تابع لعبد؛ اجتمع الملأ وقالوا: هذا ساحر عليم، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم، فلمّا ألقوا حبالهم وعصيّهم ألقى موسى عصاه فالتقمتها كلّها، وكان في السحرة اثنان وسبعون شيخاً خرّوا سُجّداً. ثمّ قالوا لفرعون ما هذا سحر، لو كان سحراً لبقيت حبالنا وعصينا. ثمّ خرج موسى ـ صلوات الله عليه ـ ببني إسرائيل يريد أن يقطع بهم البحر، فأنجى الله موسى ومن معه وغرق فرعون ومن معه، فلمّا صار موسى في البحر اتّبعه فرعون وجنوده، فتهيب فرعون أن يدخل البحر، فمثّل جبرئيل على ماديانة وكان فرعون على فحل، فلمّا رأى قوم فرعون الماديانة اتّبعوها، فدخلوا البحر فغُرقوا، وأمر الله البحر فلفظ فرعون ميتا حتّى لا يظن أنّه غائب وهو حيّ. ثمّ إنّ الله تعالى أمر موسى أن يرجع ببني إسرائيل إلى الشام، فلمّا قطع البحر بهم مرّ على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلّها كما لهم آلهه؟ قال: إنّكم قوم تجهلون. ثمّ ورث بنو إسرائيل ديارهم وأموالهم، فكان الرجل يدور على دور كثيرة ويدور على النساء»(٢).

---

(١) الطبري ١: ٣٩٧/ ٧٦٦.

(٢) قصص الأنبياء ـ الراوندي: ١٥٨ ـ ١٥٩/ ١٦٨.

قلت: حديث غريب وفيه بعض المناكير.

[١٨٢١/٢] وجاء فيما ذكره الجزائري: فأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ فخرج موسى ببني إسرائيل ليقطع بهم البحر، وجمع فرعون أصحابه ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وحشر الناس وقد تقدّم مقدمته في ستّمائة ألف وركب هو في ألف وألف وخرج، كما حكى الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فلمّا قرب موسى من البحر وقرب فرعون من موسى قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] ـ أي سينجيني ـ فدنا موسى من البحر فقال له: انفرق، فقال له البحر: استكبرت يا موسى أن تقول لي: انفرق ولم أعص الله طرفة عين وقد كان فيكم العاصي. فقال له موسى: فاحذر أن تعصي، وقد علمت أنّ آدم أُخرج من الجنّة بمعصيته، وإنّما لُعن إبليس بمعصيته! قال البحر: عظيم ربّي مطاع أمره. فقام يوشع بن نون فقال لموسى: يا رسول الله ما أمرك ربّك؟ فقال: بعبور البحر، فاقتحم فرسه الماء، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه، فكان كلّ فرق كالطود العظيم فضرب له في البحر اثنى عشر طريقاً فأخذ كلّ سبط في طريق، فكان قد ارتفع الماء وبقيت الأرض يابسة طلعت فيها الشمس ويبست ودخل موسى البحر وكان أصحابه اثنى عشر سبطاً، فضرب الله لهم في البحر اثني عشر طريقاً، فأخذ كلّ سبط في طريق وكان الماء قد ارتفع على رؤوسهم مثل الجبال فجزعت الفرقة التي كانت مع موسى في طريقه فقالوا: يا موسى أين إخواننا؟ فقال لهم: معكم في البحر، فلم يصدّقوه، فأمر الله البحر فصار طرقات حتّى كان ينظر بعضهم إلى بعض ويتحدّثون وأقبل فرعون بجنوده فلمّا انتهى إلى البحر قال لأصحابه: ألا تعلمون أنّ ربّكم الأعلى قد فرج لكم البحر؟ فلم يجسر أحد أن يدخل البحر وامتنعت الخيل منه لهول الماء، فتقدّم فرعون فقال له منجمّه: لاتدخل البحر وعارضه، فلم يقبل منه وأقبل إلى فرس حصان فامتنع الفرس أن يدخل الماء، فعطف عليه جبرئيل ﷺ وهو على ماديانة فتقدّمته ودخل فنظر إلى الرمكة[2] فطلبها ودخل البحر واقتحم أصحابه خلفه، فلمّا دخلوا كلّهم حتّى كان آخر من دخل من أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى، أمر الرياح فضربت البحر بعضه ببعض، فأقبل الماء يقع عليه مثل الجبال فقال فرعون عند ذلك: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) الشعراء ٢٦: ٥٢ ـ ٦٢.

(٢) الرمكة: البرذونة تتّخذ للنسل.

فأخذ جبرئيل كفّاً من حماة (طين أسود) فوضعها في فيه ثمّ قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[1]. وذلك أنّ قوم فرعون ذهبوا أجمعين في البحر وهووا من البحر إلى النار. وأمّا فرعون فنبذه الله وحده وألقاه بالساحل، لينظروا إليه وليعرفوه وليكون لمن خلفه آية ولئلا يشكّ أحد في هلاكه وأنّهم كانوا اتّخذوه ربّاً. فأراهم الله إيّاه جيفة ملقاة بالساحل، ليكون لمن خلفه عبرة[2].

وهذا حديث أغرب وأشبه بقصص القصّاصين!

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. قال الثعلبي إلى مصارعهم[3].

وقال الفرّاء: قد كانوا في شُغل من أن ينظروا، مستورين بما اكتنفهم من البحر أن يروا فرعون وغرقه، ولكنّه في الكلام كقولك: قد ضُرِبْتَ وأهلُك ينظرون، فما أتوك ولا أغاثوك؛ يقول: فهم قريبٌ بمرأىً ومسمع.

ومثله في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[4]. وليس هاهنا رؤية إنّما هو علم. فرأيتُ، يكون على مذهبين: رؤية العلم ورؤية العين؛ كما تقول: رأيتُ فرعونَ أعتى الخلق وأخبثه، ولم تره، إنّما هو: بلغك؛ ففي هذا بيان[5].

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وهذا الذي ذكره الفرّاء محتمل مليح، غير أنّه مخالف لقول المفسّرين كلّهم، فإنّهم لايختلفون أنّ أصحاب موسى رأوا انفراق البحر والتطام أمواجه بآل فرعون حتّى غرقوا، فلا وجه للعدول عن الظاهر مع احتماله. ولأنّهم إذا عاينوا ذلك كان أشدّ في قيام الحجّة، وأعظم في ظهور الآية[6].

وقال أبو جعفر الطبري: ويعني بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي تنظرون إلى فَرْقِ الله لكم البحر وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجّاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه في الّذي أراكم من طاعة البحر

---

(١) يونس ١٠: ٩٠ـ ٩٢.
(٢) قصص الأنبياء ـ الجزائري: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٣) الثعلبي ١: ١٩٤.
(٤) الفرقان ٢٥: ٤٥.
(٥) معاني القرآن للفرّاء ١: ٣٦.
(٦) التبيان ١: ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

إيّاه من مصيره رُكاماً فِلَقاً[١] كهيئة الأطواد الشامخة غير زائل عن حدّه، انقياداً لأمر الله وإذعـاناً لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك؛ يوقفهم بذلك ـ جلّ ذكره ـ على موضع حججه عليهم، ويذكّرهم آلاءه عند أوائلهم، ويحذّرهم في تكذيبهم نبيّنا محمّداً ﷺ أن يحلّ بهم ما حلّ بفرعون وآله في تكذيبهم موسى عليه السلام.

قال: وقد زعم بعض أهل العربيّة (يعني به الفرّاء) أنّ معنى قوله: ﴿وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ كمعنى قول القائل: «ضُربتَ وأهلُك ينظرون، فما أتوك ولا أعانوك» بمعنى: وهم قريبٌ بمرأى ومسمع، وكقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّـلَّ﴾[٢] وليس هناك رؤية، إنّما هو علم.

قال: والذي دعاه إلى هذا التأويل أنّه وجّه قوله: ﴿وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: أي وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون. فقال: قد كانوا في شغل من أن ينظروا، ممّا اكتنفهم من البحر، إلى فرعون وغرقه.

وليس التأويل الذي تأوّله تأويل الكلام، إنّما التأويل: وأنتم تنظرون إلى فِرَق الله البحر لكم على ما قد وصفنا آنفاً، والتطام أمواج البحر بآل فرعون في الموضع الذي صيّر لكم في البحر طريقاً يبساً، وذلك كان ـ لا شكّ ـ نظر عيان لا نظر علم كما ظنّه قائل هذا القول الذي حكينا قوله[٣].

وذكر الشيخ وجهاً آخر ـ عن الزجّاج ـ قال: معناه: وأنتم بإزائهم. كما يقول القـائل: دور آل فلان تنظر إلى دور آل فلان، أي هي بإزائها، لأنّها لاتبصر. قال الطبرسي: أي هي بإزائها وبحيث لو كان مكانها مايَنْظُر، لأمكنه النظر إليها. قال: وهو قول الزجّاج[٤].

[١٨٢٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن عبّاس قال: فلمّا جاوز أصحاب موسى عليه السلام البحر، قالوا: إنّا نخاف أن لايكون فرعون غرق، ولانؤمن بهلاكه، فدعا ربّه تبارك وتعالى فأخرجه لهم ببدنه حتّى يستيقنوا[٥].

---

(١) الركام: المجتمع بعضه فوق بعض. والفِلَق جمع فِلْقة، وهي الشقّ.

(٢) الفرقان ٢٥: ٤٥.

(٣) الطبري ١: ١١٤.

(٤) مجمع البيان ١: ١٠٧؛ التبيان ١: ٢٣٠.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٠٧ / ٥١٠.

قال تعالى:

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِن بَعدِ ذٰلكَ لَعَلَّكُم تَشكرون (٥٢)

قرأ أبو جعفر وابو عمرو ويعقوب: «وعدنا» بغير ألف في جميع القرآن، وقرأ الباقون: «واعدنا» بالألف وهي قراءة ابن مسعود(١).

[١٨٢٣/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ يعني الميعاد ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يعني ثلاثين من ذي القعدة وعشر ليال من ذي الحجّة فكان الميعاد الجبل ليُعْطَى التوراة(٢).

[١٨٢٤/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال: ذا القعدة وعشراً من ذي الحجّة، وذلك حين خلّف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح، فقرّبه الربّ نجيّاً وكلّمه وسمع صرير القلم(٣)، وبلغنا أنّه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتّى هبط من الطور(٤).(٥).

[١٨٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق، قال: وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه، ونجّاه وقومه، ثلاثين ليلة، ثمّ أتمّها بعشر، فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة، تلقّاه ربّه فيها بما شاء. واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال: إنّي متعجّل إلى ربّي فاخلفني في قومي ولا تتّبع سبيل المفسدين! فخرج موسى إلى ربّه متعجّلاً للقائه شوقاً إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل ومعه السامريّ يسير بهم على أثر موسى ليُلحقهم به(٦).

---

(١) الثعلبي ١: ١٩٤.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٠٤.

(٣) ذكرنا أنّ التوراة هي أحكام الشريعة نزلت على موسى فكتبها في الألواح التي كانت معه.. ولم يعلم معنى «صرير القلم» قلم من؟

(٤) هذا أيضاً عجيب ولعلّه من غرائب القصّاصين.

(٥) الدرّ ١: ١٦٧ ـ ١٦٨؛ الطبري ١: ٤٠٠ ـ ٤٠١ / ٧٦٩؛ قال: و عن الربيع نحوه؛ التبيان ١: ٢٣٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٧ / ٥١١.

(٦) الطبري ١: ٤٠١ / ٧٧٠.

[١٨٢٦/٢] وعن السدّي، قال: انطلق موسى واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة وأتمّها الله بعشر[١].

هل كانت المواعدة على أربعين أم على ثلاثين؟

جاء في سورة البقرة (٥١): ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

وفي سورة الأعراف (١٤٢): ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

[١٨٢٧/٢] روى العيّاشي بالإسناد إلى محمّدبن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة، ثمّ بدا لله فزاد عشراً. فتمّ ميقات ربّه، الأوّل والآخر، أربعين ليلة»[٢].

يبدو من هذا الحديث أنّ هناك كانت مواعدتان، أولاهما: ثلاثون ليلة وهي التي أبداها الله لموسى في بدء الأمر لغرض الحضور لديه في الميقات. ولم يظهر من القرآن أنّ موسى أخبر قومه بهذه المدّة أي الثلاثين ليلة.

والمواعدة الأُخرى كانت بعد إتمام الثلاثين، ولم يكن نبّأ الله موسى بها من قبل. بل بعد ذلك لدى الحاجة إلى البيان. وتأخير البيان إلى وقت الحاجة إليه، أمر جائز في التكليف، كما قرّره علماء الأصول. إذ قد تكون الحكمة في هذا التأخير، اختبار المكلّف بالتوطين على الاصطبار.

وهذا معنى قوله عليه السلام: «ثمّ بدا لله فزاد عشراً» أي بدت حكمته تعالى في زيادة العشر على الثلاثين، الأمر الذي كان خافياً على موسى من قبل، فأظهره الله له عند الحاجة إليه.

قال سيّدنا العلّامة الطباطبائي: «وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ المواعدة وأخذ أصلها ثلاثين ليلة، ثمّ أتمّها بعشر ليال أُخر، ثمّ ذكر الفذلكة وهي أربعون. وأمّا الذي ذكره في موضع آخر (سورة البقرة: ٥١): ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فهو المجموع المتحصّل من المواعدتين.. وبالجملة: يعود المعنى إلى أنّه تعالى وعده ثلاثين ليلة للميقات، ثمّ وعده عشراً آخر لإتمام ذلك، فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة»[٣].

---

(١) المصدر / ٧٧١.

(٢) العيّاشي ١: ٦٣/ ٤٦؛ البحار ١٣: ٢٢٦ ـ ٢٢٧/ ٢٧، باب ٧.

(٣) الميزان ٨: ٢٤٧.

وقال ـ في تفسير سورة البقرة ـ: «عدّ المواعدة أربعين إمّا للتغليب أو لأنّه كانت العشرة الأخيرة بمواعدة أخرى، فالأربعون مجموع المواعدتين، كما وردت به الرواية. وذكر الرواية على ما أسلفنا»(١).

ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي عن أبي علي الجبّائي وأبي بكر بن إخشاذ ـ واسمه أحمد بن عليّ ـ: أنّ هذه المواعدة (أربعين ليلة) هنا في سورة البقرة، هي التي جاءت في سورة الأعراف ﴿ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾.

قال: ومن الناس من قال: هي غيرها.

قال الشيخ: والأوّل أظهر.. وإنّما ذكر الثلاثين وأتمّها بعشر، والأربعون قد تكمل بعشرين وعشرين! لأنّ الثلاثين أراد بها ذا القعدة أو ذا الحجّة، فذكر هذا العدد لمكان الشهر، ثمّ ذكر ما يتمّ به العدد أربعين ليلة(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾

[١٨٢٨/٢] قال مقاتل بن سليمان: وكان موسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل بمصر «فقال لهم»: إذا خرجنا منها أتيناكم من الله ـ عزّ وجلّ ـ بكتاب يبيّن لكم فيه ما تأتون وما تتّقون. فلمّا فارقهم موسى مع السبعين واستخلف هارون أخاه عليهم اتّخذوا العجل، فذلك قوله ـ سبحانه ـ ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يقول من بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وذلك أنّ موسى قطع البحر يوم العاشر من المحرّم فقال بنو إسرائيل: وعدتنا يا موسى أن تأتينا بكتاب من ربّنا إلى شهر فأتنا بما وعدتنا. فانطلق موسى وأخبرهم أنّه يرجع إلى أربعين يوماً عن أمر ربّه ـ عزّ وجلّ ـ فلمّا سار موسى فدنا من الجبل، أمر السبعين أن يقيموا في أصل الجبل وصعد موسى الجبل فكلّم ربّه ـ تبارك اسمه ـ وأخذ الألواح فيها التوراة. فلمّا مضى عشرون يوماً قالوا: أخلفنا موسى العهد فعدّوا عشرين يوماً وعشرين ليلة، فقالوا: هذا أربعون يوماً، فاتّخذوا العجل. فأخبر الله ـ عزّ وجلّ ـ موسى بذلك على الجبل، فقال موسى «لربّه»: من صنع لهم العجل؟ قال: السامريّ صنعه لهم، قال موسى لربّه:

(١) المصدر ١: ١٩٠ و ١٩١.
(٢) التبيان ١: ٢٣٨.

فمن نفخ فيه الروح؟ قال الربّ ـ عزّ وجلّ ـ: أنا، فقال موسى: يا ربّ، السامري صنع لهم العجل فأضلّهم، وصنعتَ فيه الخُوار، فأنت فتنت قومي[١]. فمن ثمّ قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ يعني الّذين خلّفهم مع هارون سوى السبعين، حين أمرهم بعبادة العجل، فلمّا نزل موسى من الجبل إلى السبعين أخبرهم بما كان ولم يخبرهم بأمر العجل، فقال السبعون لموسى: نحن أصحابك جئنا معك، ولم نخالفك في أمر، ولنا عليك حقّ، فأرنا الله جهرةً ـ يعني معاينة ـ كما رأيته فقال موسى: والله ما رأيتُه، ولقد أردته على ذلك فأبى وتجلّى للجبل فجعله دكّاً. يعني فصار دكّاً وكان أشدّ منّي وأقوى. فقالوا: إنّا لا نؤمن بك ولا نقبل ما جئت به حتّى تُريناه معاينة! فلمّا قالوا ذلك أخذتهم الصاعقة، يعني الموت عقوبة. فذلك قوله ـ سبحانه ـ ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني الموت نظيرها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً﴾ يعني ميتاً وكقوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يعني فمات ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يعني السبعين[٢].

[١٨٢٩/٢] وقال عليّ بن إبراهيم القمّي: إنّ موسى ﷺ لمّا وعده الله أن ينزل عليه التوراة والألواح إلى ثلاثين يوماً، أخبر بني إسرائيل بذلك وذهب إلى الميقات وخلّف هارون على قومه، فلمّا جاءت الثلاثون يوماً ولم يرجع موسى إليهم غضبوا وأرادوا أن يقتلوا هارون؛ قالوا: إنّ موسى كذبنا وهرب منّا، فجاءهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم: إنّ موسى قد هرب منكم ولا يرجع إليكم أبداً فاجمعوا إليّ حُليّكم حتّى أتّخذ لكم إلّهاً تعبدونه، وكان للسامريّ يوم أُغرق فرعون وأصحابه على مقدّمة موسى وهو من خيار من اختصّه موسى، فنظر إلى جبرئيل ﷺ وهو على مركوب في صورة رَمَكة[٣] فكانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحرّك موضع حافرها، فجعل السامريّ يأخذ التراب من تحت حافر رَمَكة جبرئيل ﷺ وكان يتحرّك فصرّه في صرّة وحفظه وكان يفتخر به على بني إسرائيل، فلمّا اتّخذ إبليس لهم العجل قال للسامريّ: هات التراب الذي عندك، فأتاه به، فألقاه إبليس في جوف العجل، فتحرّك وخار ونبت له الوبر والشعر فسجد بنو إسرائيل للعجل وكان عدد من سجد له سبعين ألفاً.

---

(١) هذا حديث خرافة، وليس من أدب الأنبياء أن يواجهوا الربّ تعالى بهكذا سخائف تتناسب وعقليّة القصّاصين الأغبياء.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) الرَمَكة ـ محرّكةً ـ أنثى الخيل (البرذونة) تتّخذ للنسل.

فقال لهم هارون ـ كما حكى الله ـ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[1]. فهمّوا بهارون حتّى هرب من بينهم وبقوا في ذلك حتّى تمّ ميقات موسى أربعين ليلة. فلمّا كان يوم عشرة من ذي الحجّة أنزل الله عليه الألواح فيها التوراة[2] وما يحتاجون إليه من أحكام السير والقصص[3]. ثمّ أوحى الله إلى موسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[4]. وعبدوا العجل وله خُوار! فقال موسى: يا ربّ، العجلُ من السامريّ، فالخوار ممّن؟ فقال: منّي يا موسى، إنّي لمّا رأيتهم قد ولّوا عنّي إلى العجل أحببت أن أزيدهم فتنة[5]![6]

هذا حديث غريب. ذكره القمّي في تفسير سورة طه.

وله حديث أغرب ذكره هنا:

[١٨٣٠/٢] قال: وأمّا قوله ﴿وَ إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الآية، فإنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أوحى إلى موسى ﷺ إنّي أنزل عليكم التوراة وفيها الأحكام التي يُحتاج إليها، إلى أربعين يوماً، وهو ذوالقعدة وعشرة من ذي الحجّة، فقال موسى ﷺ لأصحابه: إنّ الله قد وعدني أن يُنزل عليّ التوراة والألواح إلى ثلاثين يوماً. وقد أمره الله أن لايقول لهم إلى أربعين يوماً فتضيق صدورهم[7].

حديث غريب كيف يواري نبيّ الله بالخبر عن الله، وإذ ليس فيه حكمة بل فيه إغراء بالجهل والمزيد من الغواية!

[١٨٣١/٢] وفي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: أنّ موسى بن عمران كان يقول لبني

---

(١) طه ٢٠: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) من الثابت: أنّ الألواح لم تنزل من السماء، وإنّما كان موسى قد أخذ معه الألواح ليكتب فيها ما يوحى إليه ربّه من أحكام الشريعة.

(٣) ليست السير و القصص الواردة في العهد القديم من وحي السماء، إنّما هي ثبت تواريخ سجّلتها يراعة الكتّاب طول عهد حياة إسرائيل.

(٤) طه ٢٠: ٨٥.

(٥) حاشا الربّ تعالى أن يغشّ عباده بفعل ما يوجب إضلالهم والمزيد من غوايتهم. وهذا غير الإضلال بمعنى الخذلان الذي هو تركهم وما يعمهون. نعم، هي فرية أشبه بخرافات القصّاصين كما مرّ عليك في حديث مقاتل.

(٦) القمّي ٢: ٦٢ في تفسير سورة طه.

(٧) المصدر ١: ٤٧.

إسرائيل: إذا فرّج الله عنكم وأهلك أعداءكم أتيتكم بكتاب من ربّكم يشتمل على أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره وأمثاله. فلمّا فرّج الله عنهم أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يأتي للميعاد ويصوم ثلاثين يوماً عند أصل الجبل، وظنّ موسى أنّه بعد ذلك يعطيه الكتاب، فصام موسى ثلاثين يوماً، فلمّا كان في آخر الأيّام استاك قبل الفطر، فأوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إليه: يا موسى أما علمت أنّ خُلُوف[1] فم الصائم أطيب عندي من رائحة المسك؟ صم عشراً آخر ولا تستك عند الإفطار، ففعل ذلك موسى عليه السلام، وكان وعد الله أن يعطيه الكتاب بعد أربعين ليلة، فأعطاه إيّاه. فجاء السامريّ، فشبّه على مستضعفي بني إسرائيل وقال: وعدكم موسى أن يرجع إليكم بعد أربعين ليلة، وهذه عشرون ليلة وعشرون يوماً تمّت أربعون، أخطأ موسى ربّه وقد أتاكم ربّكم أراد أن يريكم أنّه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه، وأنّه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه، فأظهر لهم العجل الذي كان عمله، فقالوا له: كيف يكون العجل إلهاً؟ قال لهم: إنّما هذا العجل مكلّمكم منه ربّكم كما كلّم موسى من الشجرة، فالإله في العجل كما كان في الشجرة، فضلّوا بذلك وأضلّوا.

فقال موسى عليه السلام: يا أيّها العجل أكان فيك ربّنا كما يزعم هؤلاء؟ فنطق العجل وقال: عزّ ربّنا عن أن يكون العجل حاوياً له أو شيء من الشجر والأمكنة عليه مشتملاً ولا له حاوياً لا والله يا موسى، ولكن السامريّ نصب عجلاً مؤخّره إلى الحائط وحفر في الجانب الآخر في الأرض وأجلس فيه بعض مردته، فهو الذي وضع فاه على دبره وتكلّم لمّا قال: ﴿هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَـهُ موسى﴾[2].[3].

وهذا الحديث يزيد في غرابته نكارة محتواه: كيف يكون الاستياك ـ وهو عمل مندوب إليه ـ مستكرهاً يوجب عتاب فاعله واستحقاق التشديد عليه بالتكليف.

ثمّ فيه إغراء بالجهلة أن لا يستاكوا عند الإفطار، حيث قوله: «أما علمت أنّ خُلُوف فم الصائم أطيب؟!» فقد كان موسى يعلم ذلك لكنّه تناساه!!. اللّهمّ ان هذا إلّا اختلاق!

[١٨٣٢/٢] وهكذا ما رواه ابن جرير عن السدّي: لمّا أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ـ يعني من أرض مصر ـ أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا وأمرهم أن يستعيروا الحليّ من القبط! فلمّا نجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى

---

(١) خُلُوف فم الصائم: رائحته الكريهة.
(٢) طه ٢٠: ٨٨.
(٣) تفسير الإمام: ٢٤٧ ـ ٢٥٢ / ١٢٢.

يذهب به إلى الله، فأقبل على فرس فرآه السامريّ، فأنكره، وقال: إنّه فرس الحياة(!) فقال حين رآه: إنّ لهذا لشأناً. فأخذ من تربة الحافر حافر الفرس. فانطلق موسى، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، وأتمّها الله بعشر. فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل! إنّ الغنيمة لا تحلّ لكم، وإنّ حليّ القبط إنّما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً، واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلّها أخذتموها! وإلّا كان شيئاً لم تأكلوه. فجمعوا ذلك الحليّ في تلك الحفرة، وجاء السامريّ بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحليّ عجلاً جسداً له خوار. وعدّت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدّوا الليلة يوماً واليوم يوماً، فلمّا كان تمام العشرين خرج لهم العجل؛ فلمّا رأوه قال لهم السامريّ: ﴿هَذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ موسى فَنَسِيَ﴾[1] يقول: ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه. وكان يخور ويمشي! فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾[2] يقول: إنّما ابتليتم به ـ يقول: بالعجل ـ وإنّ ربّكم الرحمان. فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلى إلٰهه يكلّمه، فلمّا كلّمه قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[3] فأخبره خبرهم. قال موسى: يا ربّ هذا السامريّ أمرهم أن يتّخذوا العجل، أرأيت الروح من نفخها فيه؟ قال الربّ: أنا. قال: ربّ أنت إذن أضللتهم(!!)[4].

[١٨٣٣/٢] وعن ابن عبّاس، قال: لمّا هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب حصان؛ فلمّا هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثّل له جبريل على فرس أنثى وديق، فلمّا رآها الحصان تقحّم خلفها. قال: وعرف السامريّ جبريل، لأنّ أمّه حين خافت أن يذبح، خلّفته في غار، وأطبقت عليه، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبناً، وفي الأخرى عسلاً، وفي الأخرى سمناً. فلم يزل يغذوه حتّى نشأ، فلمّا عاينه في البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ من تحت الحافر قبضة. قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرأها: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول». قال أبو سعيد، قال عكرمة، عن ابن عبّاس:

---

(١) طه ٢٠: ٨٨. (٢) طه ٢٠: ٩٠.
(٣) طه ٢٠: ٨٣ـ٨٥. (٤) الطبري ١: ٤٠٢ـ٤٠٣ / ٧٧٣؛ البغوي ١: ١١٧.

وأُلقي في رُوع[1] السامريّ أنّك لاتلقيها على شيء فتقول كن كذا وكذا إلّا كان. فلم تزل القبضة معه في يده حتّى جاوز البحر. فلمّا جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾[2] ومضى موسى لموعد ربّه. قال: وكان مع بني إسرائيل حليّ من حليّ آل فرعون قد تعوّروه[3]، فكأنّهم تأثّموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله. فلمّا جمعوه، قال السامريّ بالقبضة[4] التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه ـ وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا ـ وقال: كن عجلاً جسداً له خوار! فصار عجلاً جسداً له خوار. وكان يدخل الريح في دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت، فقال: هذا إلهكم وإلهُ موسى. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[5].[6]

[١٨٣٤/٢] وعن ابن إسحاق، قال: كان فيما ذكر لي أنّ موسى قال لبني إسرائيل فيما أمره الله عزّ وجلّ به: استعيروا منهم ـ يعني من آل فرعون ـ الأمتعة والحليّ والثياب، فإنّي منفّلكم[7] أموالهم مع هلاكهم. فلمّا أذن فرعون في الناس، كان ممّا يحرّض به على بني إسرائيل أن قال ـ حين سار ـ: ولم يرضوا أن يخرجوا بأنفسهم حتّى ذهبوا بأموالكم معهم.[8]

[١٨٣٥/٢] وقال الحسن: صار العجل لحماً ودماً. وقال غيره: لا يجوز ذلك لأنّه من معجزات الأنبياء. ومن وافق الحسن قال: إنّ القبضة من أثر الملك كان الله قد أجرى العادة بأنّها إذا طرحت على أيّ صورة كانت حييت، فليس ذلك بمعجزة، إذ سبيل السامريّ فيه سبيل غيره.

ومن لم يجز انقلابه حيّاً، تأوّل الخوار على أنّ السامريّ صاغ عجلاً، وجعل فيه خروقاً يدخلها الريح، فيخرج منها صوت كالخوار، ودعاهم إلى عبادته فأجابوه وعبدوه، عن أبي عليّ الجبّائي[9].

[١٨٣٦/٢] وقال قتادة: كان السامريّ من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة[10]! ورأى موضع

---

(١) الرُوع: القلب والعقل.
(٢) الأعراف ٧: ١٤٣.
(٣) تعوّروه: أخذوه عارية.
(٤) قال بالقبضة: أي أشار.
(٥) طه ٢٠: ٩٠ ـ ٩١.
(٦) الطبري ١: ٤٠١ ـ ٤٠٢ / ٧٧٢.
(٧) نفّله الشيء: جعله نفلاً، أي غنيمة مستباحة.
(٨) الطبري ١: ٤٠٣ / ٧٧٤.
(٩) مجمع البيان ١: ٢١٣؛ التبيان ١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(١٠) معرّب شمرون حسبما يأتي الكلام عنه.

قدم الفرس تخضرُّ من ذلك، وكان منافقاً أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فلمّا رأى جبريل على ذلك الفرس، فقال: إنّ لهذا لشأناً وأخذ قبضة من تربة حافر فَرس جبريل ﷺ، قال عكرمة: ألقي في روعه أنّه إذا ألقي في شيء غيره حُيي، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليّاً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعلّة عرس لهم فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحِليّ في أيدي بني إسرائيل، فلمّا فصل موسى قال هارون لبني إسرائيل: إنّ الحِليّ التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لاتحلّ لكم فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتّى يرجع موسى، فيرى فيها رأيه[1].

[١٨٣٧/٢] وعن ابن عبّاس، قال: كان السامريّ رجلاً من أهل باجَرْما[2]، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حبّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلمّا فُصِّل هارون في بني إسرائيل وفَصَل موسى إلى ربّه، قال لهم هارون: أنتم قد حُمّلتم أوزاراً من زينة القوم ـ آل فرعون ـ وأمتعة وحليّاً، فتطهّروا منها، فإنّها نجس. وأوقد لهم ناراً، فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها! قالوا: نعم. فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة وذلك الحليّ، فيقذفون به فيها، حتّى إذا تكسر الحليّ فيها، وكان قد رأى السامريّ أثر فرس جبريل وأخذ تراباً من أثر حافره، ثمّ أقبل إلى النار فقال لهارون: يا نبيّ الله ألقي ما في يدي؟ قال: نعم. ولا يظنّ هارون إلّا أنّه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الحليّ والأمتعة. فقذفه فيها فقال: كن عجلاً جسداً له خوار! فكان! للبلاء والفتنة. فقال: ﴿هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَـهُ موسى﴾[3] فعكفوا عليه، وأحبّوه حبّاً لم يحبّوا مثله شيئاً قطّ. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَنَسِيَ﴾[4] أي ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامريّ. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾[5] وكان اسم السامريّ موسى بن ظفر![6] وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل. فلمّا رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[7] فأقام هارون فيمن معه

---

(١) البغوي ١: ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) قرية من أعمال البليخ قرب الرقّة من أرض الجزيرة شمالي العراق. وأين هذه من وادي سيناء؟!

(٣) طه ٢٠: ٨٨.

(٤) طه ٢٠: ٨٨.

(٥) طه ٢٠: ٨٩.

(٦) قيل: كان اسمه ميخا. مجمع البيان ١: ١٠٩ (ط إسلامية).

(٧) طه ٢٠: ٩٠ ـ ٩١.

من المسلمين ممّن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل. وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول لـه موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[١]. وكان له هائباً مطيعاً[٢].

قلت: لعلّك تجد من هذا التهافت والتناقض دليلاً على الاختلاق، فحسبك!

[١٨٣٨/٢] وعن مجاهد في قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال: العجل حَسِيل[٣] البقرة. قال: حليّ استعاروه من آل فرعون، فقال لهم هارون: أخرجوه فتطهّروا منه وأحرقوه! وكان السامريّ قد أخذ قبضة من أثر فرس جبريل، فطرحه فيه فانسبك، وكان له كالجوف تهوي فيه الرياح[٤].

[١٨٣٩/٢] وعن ابن زيد: لمّا أنجى الله ـ عزّ وجلّ ـ بني إسرائيل من فرعون، وأغرق فرعون ومن معه، قال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥] قال: لمّا خرج موسى وأمر هارونَ بما أمره به، وخرج موسى متعجّلاً مسروراً إلى الله. قد عرف موسى أنّ المرء إذا نجح في حاجة سيّده كان يسرّه أن يتعجّل إليه. قال: وكان حين خرجوا استعاروا حليّاً وثياباً من آل فرعون، فقال لهم هارون: إنّ هذه الثياب والحليّ لاتحلّ لكم، فاجمعوا ناراً، فألقوه فيها فأحرقوه! قال: فجمعوا ناراً. قال: وكان السامريّ قد نظر إلى أثر دابّة جبريل، وكان جبريل على فرس أنثى، وكان السامريّ في قوم موسى. قال: فنظر إلى أثره فقبض منه قبضة، فيبست عليها يده؛ فلمّا ألقى قوم موسى الحليّ في النار، وألقى السامريّ معهم القبضة، صوّر الله ـ جلّ و عزّ ـ ذلك لهم عجلاً ذهباً، فدخلته الريح، فكان له خوارٌ، فقالوا: ما هذا؟ فقال: السامريّ الخبيث: ﴿هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَـهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾... الآية، إلى قوله: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[٦] قال: حتّى إذا أتى موسى الموعد، قال الله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ فقرأ حتّى بلغ: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾[٧].[٨]

---

(١) طه ٢٠: ٩٤.

(٢) الطبري ١: ٤٠٣ ـ ٤٠٤ / ٧٧٥؛ مجمع البيان ١: ٢١٣، بتفاوت إلى قوله: فدخل في بني إسرائيل؛ التبيان ١: ٢٣٧، بتفاوت، إلى قوله: يقول الله عزّ وجلّ ﴿فنسي﴾.

(٣) حسيل البقرة: ولدها.

(٤) الطبري ١: ٤٠٥ / ٧٧٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٨ / ٥١٣ و ٥٢٤. وفيه: «العجل حسيل البقرة ـ ولد البقرة ـ».

(٥) الأعراف ٧: ١٤٢.

(٦) طه ٢٠: ٨٨ ـ ٩١.

(٧) طه ٢٠: ٨٤ ـ ٨٦.

(٨) الطبري ١: ٤٠٤ ـ ٤٠٥ / ٧٧٦.

قصّة العجل والسامريّ

ما جاء بشأن العجل والسامريّ أكثره خرافة إسرائيليّة نحتتها عقول هزيلة جاهلة بمواضع رسالات الله الصافية النقيّة.

ويكفيك أن تجد نصّ العهد القديم يخالف نصّ القرآن الكريم في كثير من مواقف إسرائيليّة المتعنّتة، ومنها قصّة العجل الذي اتّخذوه إلّهاً من دون الله، فور أن فارقهم نبيّ الله موسى عليه السلام لبضعة أيّام، ذلك النبيّ الذي أعاد عليهم شخصيّتهم الكريمة وأنجاهم من ذلك الكرب العظيم.

انظر إلى التوراة تنسب صنع العجل إلى هارون، خليفة موسى في الدعوة إلى الله ونبذ الأنداد.

جاء في سفر الخروج: أنّ موسى عليه السلام لمّا أبطأ على بني إسرائيل طلبوا من هارون أن يصنع لهم آلهة، فأجابهم هارون إلى ذلك، وأخذ أقراط الذهب، وصنع منها عجلاً مسبوكاً، وقال: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصْعَدَتْكَ من أرض مصر. فأَصْعَدوا محرّقاتٍ وقدّموا ذبائح، وأكلوا وشربوا وقاموا باللعب حول العجل.

وأخبر الربّ موسىٰ أنّ الشعب قد أفسد، فقد صنعوا عجلاً وسجدوا له... فحمي غضب الربّ وأراد أن يُهلكهم لولا أنّ موسىٰ تشفّع لهم. وكان عند ما اقترب إلى المحلّة أبصر العجل والرقص، فحمي غضبه وطرح اللوحين من يديه وكسرهما، ثمّ أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار، وطحنه وذرّاه على الماء وسقاه بني إسرائيل.

وقال لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتّىٰ جلبت عليه خطيئة عظيمة؟! فاعتذر أنّهم افتقدوك فصنعتُ لهم العجل.(١)

ونقرأ في سورة طه:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَـهُ موسى فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً. وَلَقَدْ قَالَ

(١) سفر الخروج، أصحاح ٣٢ / ١ ـ ٢٤.

لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى. قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[(١)].

مواضع الاختلاف بين القرآن والتوراة بشأن العجل

١ ـ ذكرت التوراة: أنّ الّذي صنع العجل هو هارون أخو موسى ﷺ.

وجاء في سورة طه: أنّه السّامري في ثلاثة مواضع.[(٢)] وأنّ هارون أراد منعهم من ذلك فلم يستطع: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[(٣)].

٢ ـ وذكرت: أنّ موسىٰ لمّا حمي غضبه طرح اللوحين من يديه وكسرهما.

وجاء في القرآن: أنّه ألقى الألواح[(٤)] ـ لكنّها لم تتكسّر ـ ومن ثَمّ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[(٥)].

٣ ـ وذكرت: أنّ موسىٰ أخذ العجل وأحرقه وطحنه وذرّاه في ماءٍ وسقاه بني إسرائيل.

وجاء في القرآن: أنّه حرّقه ونسفه في اليمّ نسفاً[(٦)].

٤ ـ وجاء في القرآن: أنّهم اتّخذوا ﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾[(٧)] لكنّه لايكلّمهم ولا يرجع إليهم قولاً[(٨)].

وقد سكتت التوراة عن ذلك.

---

(١) طه ٢٠: ٨٣ـ٩٧.

(٢) طه ٢٠: ٨٥ و٨٧ و ٩٥.

(٣) الأعراف ٧: ١٥٠.

(٤) الأعراف ٧: ١٥٤.

(٥) الأعراف ٧: ١٥٤.

(٦) طه ٢٠: ٩٧.

(٧) الأعراف ٧: ١٤٨؛ طه ٢٠: ٨٨.

(٨) الأعراف ٧: ١٤٨؛ طه ٢٠: ٨٩.

٥ ـ وجاء في القرآن قولة السامريّ: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[١].

وسكتت التوراة عن ذلك.

نظرة في قولة السامريّ

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[٢].

زعمت الحشويّة من أهل الحديث أنّ السامريّ هذا كان قد ولد أيّام فرعون، وكانت اُمّه قد خافت عليه فخلّفته في غارٍ وأطبقت عليه بالحجارة. فوكّل الله جبرائيل أن يأتيه فيغذوه بأصابعه بواحدة لبناً وبأخرى عسلاً وبثالثة سمناً، فلم يزل يكفله جبرائيل حتّىٰ نشأ وشبّ، وأصبح يعرف جبرائيل بسماته.

ثمّ إنّ فرعون وأصحابه لمّا هجموا البحر ورأىٰ بني إسرائيل أحجم فرسه عن الدخول وعند ذلك تمثّل جبرائيل راكباً فرساً اُنثى في مقدمة فرعون وأصحابه، فلمّا رآها فرسُ فرعون اقتحم البحر وراءها...

وعند ذلك كان السامريّ قد عرف جبرائيل، ورأى أنّ فرسه كلّما وضع حافره على تراب حصلت فيه رجفة وحركة وحياة. فألقي في روعه: أنّ من أثر حافر فرس جبرائيل أن لايقذف في شيء إلّا حصلت له الحياة، ولذلك قبض قبضة من أثر حافر فرسه وضمّها عنده.

ولمّا أبطأ موسىٰ في الميقات دعا بني إسرائيل أن يأتوا بحليّهم ليصنع لهم آلهة، فصاغها عِجلاً وألقىٰ من تلك القبضة فيه، فأصبح ذا حياة يخور كما يخور البقر، وقال: هذا إلٰهكم وإلٰهُ موسى، وأضلّهم عن الطريق.

هكذا روى الطبري بأسانيده والسيوطي وغيرهما من أرباب النقل في التفسير[٣] وزادوا في الطين بلّة أنّهم قالوا: إنّ موسى سأل ربّه فقال: يا ربّ، من أخار العجل؟ فقال الله: أنا، قال موسى: فمن أحياه؟ قال الله: أنا وأردتُ فتنتهم، فقال موسىٰ: يا ربّ، فأنت إذن أضللتهم، إن هي إلّا

---

(١) طه ٢٠: ٩٦.
(٢) طه ٢٠: ٩٦.

(٣) راجع: الطبري ١: ٤٠٠ ـ ٤٠٥، الدرّ ٥: ٥٩٢؛ القمّي ٢: ٦٢؛ ابن كثير ٣: ١٧٢.

فتنتك[1]. وهذا عند ما قال الله تعالى لموسىٰ: ﴿وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[2].

قال أبو مسلم الأصفهاني: ليس في القرآن تصريح بهذا الّذي ذكره المفسّرون، فهاهنا وجهٌ آخر، وهو: أن يكون المراد بالرسول هو موسىﷺ، وبأثره سنّته ورسمه الّذي أمر به. فقد يقال: فلان يقْفوا إثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه. والتقدير: أنّ موسىﷺ لمّا أقبل على السامريّ باللوم والسؤال عن الّذي دعاه إلى إضلال القوم قال السامريّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي عرفت أنّ الّذي أنتم عليه ليس بحقّ، وقد كُنت قبضت قبضةً من أثرك أيّها الرسول، أي شيئاً من سنّتك ودينك، فقذفته أي طرحته... وإنّما أورد بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له: ما يقول الأمير في كذا، وبماذا يأمر الأمير... وأمّا دعاؤه موسىﷺ رسولاً مع جحده وكفره فعلى مثل ما حكى الله عن المشركين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[3] وإن كانوا لم يؤمنوا بإنزال الذكر عليه.

والإمام الرازي رجّح هذا القول وأيّده بوجوه. قال: إنّ هذا القول الّذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلّا مخالفة المفسّرين، ولكنّه أقرب إلى التحقيق[4].

وهكذا الشيخ المراغي، قال: إنّ موسىٰ لمّا أقبل على السامريّ باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الّذي دعاه إلى إضلال القوم ردّ عليه بأنّه كان استنّ بسنّته، واقتفى أثره وتبع دينه، ثمّ استبان له أنّ ذلك هو الضلال بعينه، وأنّه ليس من الحقّ في شيء، فطرحه وراءه ظهريّاً وسار على النهج الّذي رأىٰ[5].

ما كانت صفة العجل؟

جاء في تفسير ابن كثير وغيره: أنّ السامريّ أُلقي في روعه أنّه لا ينبذ التراب الذي أخذ من تحت حافر فرس جبرائيل على شيء ويقول له كن كذا إلّا كان كما أراد، ومن ثمّ لمّا أخذ حُليّ القوم وألقاها في النار قذف من تلك القبضة عليها وقال: كن عِجلاً، فصار عِجلاً ذا لحمٍ وعظمٍ ودمٍ، وجعل

---

(١) راجع: الدرّ ٥: ٥٩٢.
(٢) طه ٢٠: ٨٥.
(٣) الحجر ١٥: ٦.
(٤) التفسير الكبير ٢٢: ١١١.
(٥) تفسير المراغي ٦: ١٤٥.

يخور كما يخور ولد البقر [١].

وقال بعضهم: إنّه جعل مؤخّرة العِجل على حائط فيه ثقب، وأقعد هناك مَن يتكلّم مع القوم ليظنّوا أنّ العِجل هُو الّذي يتكلّم معهم [٢].

كلّ ذلك مخالف لصريح القرآن، حيث إنّه عبّر بالجسد وصفاً للعِجل ﴿عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾ [٣]. وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [٤]. وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [٥].

على أنّ الروايات بهذا الشأن ـ في المسائل الثلاث ـ على ما وردت في التفاسير المعتمدة على النقل والأثر كلّها متضاربة ومتعارضة بعضها مع البعض، فضلاً عن مخالفة أكثرها لفهم العقل الرشيد، ومن ثمّ فالإعراض عنها أجدر.

نعم، يبدو أنّ السامريّ كان صاحب صنعة وصياغة الحليّ، فسبك لهم من حليّهم صنماً بصورة عِجل، وقال لهم: ﴿هَذَا إِلَـهُكُم وَإِلَـهُ موسى﴾. فعبّأ فيه مسامات ومنافذ للهواء، بحيث يحدث من ذلك صوت الخوار، وهو صوت البقر. وهذا أمرٌ بسيط، ربما تصنع أمثال ذلك للعبة الصبيان اليوم وقبل اليوم، وليس من الأمر العجيب.

مَن هُو السامريّ؟

ربّما تشكّك بعض الكتّاب المسيحيّين [٦] في «السامريّ» نسبةً إلى السامرة بلدة كانت في أرض فلسطين بناها «عُمري» رابع ملوك بني إسرائيل المتأخّر عن عهد نبيّ الله موسى ﷺ بخمسة قرون! فكيف يكون معاصراً له وقد صنع العِجل كما جاء في القرآن؟

جاء في سفر الملوك: وفي السنة ٣١ لآسا مَلِك يهوذا مَلَك عُمري على إسرائيل ١٢ سنة، مَلَك في ترصة ٦ سنين، واشترىٰ جبل السّامرة من شامر بوزنتين من الفضّة وبنى على الجبل ودعا اسم

(١) راجع: ابن كثير ٣: ١٢٢؛ والدرّ ٥: ٥٩٣؛ وتفسير البيضاوي ٤: ٢٩؛ والقمي، ٢: ٦٢؛ والطبري ١٦: ١٤٩و ١: ٢٢٣؛ والميزان ١٤: ٢١١.

(٢) راجع: تفسير الإمام: ٢٥١ والبحار ١٣: ٢٣١.

(٣) طه ٢٠: ٨٨.

(٤) طه ٢٠: ٨٩.

(٥) الأعراف ٧: ١٤٨.

(٦) مصادر الإسلام لتسدال: ٣٧ فما بعد؛ وآراء المستشرقين حول القرآن ١: ٣٥٢.

المدينة الّتي بناها باسم شامر صاحب الجبل: السامرة.

وكان ذلك بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر بنحو من ثلاث وعشرين وخمسمائة عام[1].

لكن السامريّ لفظة معرّبة وليست على أصالتها العبريّة، والشين العبريّة تبدّل سيناً في العربيّة كما في «موسىٰ» معرّب «موشى» العبريّة، و«اليسع» معرّب «اليشوع»[2]. وكما في «السامرة» نسبةً إلى اسم صاحب الجبل «شامر».

أمّا السامريّ ـ في القرآن ـ فليس منسوباً إلى بلدة السامرة هذه، وإنّما هي نسبة إلى «شمرون» بلدة كانت عامرة على عهد نبيّ الله موسىٰ ووصيّه يوشع بن نون. والنسبة إليها شمروني عُرّبت إلى سامري، ويجمع على شمرونيم (سامريّين). وقد فتحها يوشع وجعلها في سبط «زبولون» كما جاء في سفر اليشوع[3] وكان الملك عليها حين افتتحها يوشع «مرأون»[4].

هذا ما حقّقه العلّامة الحجّة البلاغي[5].

والسين والشين كانا يتبادلان في العبريّة أيضاً. كان سبط يهوذا ينطقون بالشين وسبط افرايم بالسين في مثل «اليسوع» و«اليشوع»[6].

قال الأُستاذ عبدالوهّاب النجّار: ويغلب أن تكون «الشين» في العبريّة «سيناً» في العربيّة، كما كان ينطق بها أيضاً سبط افرايم بن يوسف. وقد كان رجال سبط يهوذا يختبرون الرجل ليعرف أنّه من سبط يهوذا أو افرايمي، فيأمروه أن ينطق بـ«شبولت» (سنبلة) فإذا قال «سبولت» عرف أنّه افرايمي.

واحتمل في السامريّ نسبةً إلى شامر أو سامر بمعنى «حارس»[7]. ونطقها في العبريّة «شومير» مأخوذ من «شمر» أي حرس. فقد جاء في سفر التكوين: فقال الربّ لقابيل: أين هابيل

(١) قاموس الكتاب المقدّس: ٤٥٩. وراجع: سفر الملوك، أصحاح: ١٦ / ٢٤.

(٢) قاموس الكتاب المقدس: ٩٥١.

(٣) راجع: سفر اليشوع، أصحاح: ١١ / ١، و ١٢ / ٢٠، و ١٩ / ١٥.

(٤) المصدر: ١٢ / ٢٠.

(٥) راجع: كتابه «الهدىٰ إلى دين المصطفىٰ» ١: ١٠٣.

(٦) قاموس الكتاب المقدّس: ٩٥١.

(٧) ذكر جيمز هاكس في قاموس الكتاب المقدّس: ٥٣٠، أنّ أحد معنيي «شمرون»: كشيكچى (نگهبان) يعني الحارس.

أخوك؟ فأجاب: لاأعلم. وعقّبه بقوله: هَشومير أحي أنو أخي؟ يعني: أحارس أنا لأخي؟[١] وما ذكره الحجّة البلاغي أقرب في النظر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

[١٨٤٠/٢] عن الرّماني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أصل العفو الترك ومنه قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: ترك. فالعفو: ترك العقوبة[٢].

[١٨٤١/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ قال: يعني من بعد ما اتّخذتم العجل[٣].

[١٨٤٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عون بن عبدالله في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ قال: إنّ «لعلّ» من الله واجب[٤].

[١٨٤٣/٢] وعن سعيد بن جبير في قول الله عزّوجلّ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي[٥].

[١٨٤٤/٢] وعن أبي مالك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: كي[٦].

كلام في «لعلّ» حيث جاء في القرآن

جاء استعمال «لعلّ» في كلامه تعالى في القرآن في أكثر من مائة وعشرين موضعاً، فياتُرى ماذا يكون مفادُها؟

«لعلّ» كلمة وضعت للترجّي ـ على ما ذكره اللغويّون ـ والترجّي عبارة عن انتظارٍ لتحقّق المترجَّى، حيث يُرجَى وقوعه ولكن من غير يقين، الأمر الذي لايمكن تصوّره بشأنه تعالى، الّذي لايعزب عن علمه شيء، وهو عالم بالأشياء قبل وقوعها أزلاً!

---

(١) قصص الأنبياء للنجّار: ٢٢٤. وراجع: سفر التكوين، أصحاح: ٤.

(٢) مجمع البيان ١: ٢١٣.

(٣) الدرّ ١: ١٦٩؛ الطبري ١: ٤٠٥ / ٧٧٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٨ / ٥١٥، وعن الربيع بن أنس.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٠٨ / ٥١٦. (٥) المصدر: ١٠٩ / ٥٢٣.

(٦) المصدر: ١٠٨ / ٥١٧.

قلت: المستفاد من «لعلّ» بالنظر إلى مواقع استعمالها في اللغة وفي القرآن بالذات، أنّها تتوسط بين أمرين يكون المقدَّم منهما سبباً اقتضائيّاً لوقوع التالي، وليس علّة تامّة. وهذا لا يختلف فيما إذا كان المُستَعْمِل عالماً بالوقوع أو راجياً له.

فقولك: أسلم لعلّك تفلح، يفيد أنّ الإسلام سبب للفلاح أي أرضيّة صالحة لحصول الفلاح، لولا المانع وسائر العراقيل، لا أنّه السبب الحتم والعلّة التامّة للفلاح.

وهذا لا يفترق بين أن يكون القائل بهذا الكلام آحاد الناس أو العلماء أو الأنبياء، أو الله سبحانه وتعالى. إذ هذا الكلام إنّما أُلقي لبيان هذه العلاقة (السببيّة غير التامّة) بين المقدّم والتالي. ولا ربط له بشخصيّة قائله، سواء العالم بعواقب الأمور أم الجاهل بها.

وهكذا ورد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] دليلاً على أنّ الغاية من تبيين الآيات هداية الناس، وأنّه السبب المقتضي لهدايتهم إن استحبّوا الهدى على العمى، لا الذي أعرض وتولّى.

وقوله ﷺ: «قولوا: لا إلّه إلّا الله تفلحوا» بيان للسبب المقتضي للفلاح، وهو نبذ الشرك والأخذ بالتوحيد، لكن بشرط الاستقامة عليه حتّى النهاية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ. ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[2].

فقولهم: «لعلّ» للترجّي. أي تستعمل في مواضع يكون ترتّب التالي على المقدّم، ممّا يُتَرجّى ويُتَوقّع، لا بلحاظ حال المتكلّم، بل بلحاظ الموقعيّة الخاصّة للكلام.

وفي كثير من الروايات: أنّ «لعلّ» من الله واجبة:

[١٨٤٥/٢] روى ابن أبي حاتم بإسناده عن عون بن عبدالله. قال في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لعلّ من الله واجبة. وهكذا قال سفيان[3]. وهكذا غيرها من روايات.

والمراد: أنّ اقتضاء المقدّم للتالي ـ حيث وقع في كلامه تعالى ـ أمر حتم، حيث تواجدت سائر شرائطه. لأنّه منه تعالى وعد، والله لا يُخلف الميعاد.

* * *

(١) آل عمران ٣: ١٠٣. (٢) فصّلت ٤١: ٣٠.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١١٣.

والكلام في «عسى» أكثرياً ـ حيث جاءت في كلامه تعالى ـ هو الكلام في «لعلّ» جاءت لتبيّن أنّ المقدّم، من المقتضيات القريبة لحصول التالي. كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. حيث كانت للتوبة شرائط أُخر يجب توفّرها لتقع موقع القبول.

وقولهم: ومعناه الترجّي في المحبوب، والإشفاق في المكروه[2]، يريدون نفس المعنى الّذي ذكرناه، فحيث كان المقدّم أرضيّة صالحة لنبات شيء محبوب أو نبات شيء مكروه، جاز استعمال «عسى» فيه، دلالةً على هذا الاقتضاء والصلاحيّة، إن محبوباً أو مكروهاً.

وتأتي بقيّة الكلام ـ في عسى ـ عند الآية ٢١٦ من سورة البقرة، إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿تَشْكُرُونَ﴾

قال الثعلبي: اختلف العلماء في ماهيّة الشكر:

[١٨٤٦/٢] فقال ابن عبّاس: هو الطاعة بجميع الجوارح لربّ الخلائق في السرّ والعلانية.

[١٨٤٧/٢] وقال الحسن: شكر النعمة ذكرها؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3].

[١٨٤٨/٢] وقال الفُضيل بن عياض: شكر كلّ نعمة ألّا يُعصى الله بعد تلك النعمة.

[١٨٤٩/٢] وقال أبوبكر بن محمّدبن عمر الورّاق: حقيقة الشكر: معرفة المُنعم، وأن لا تعرف لنفسك في النعمة حظّاً بل تراها من الله ـ عزّ وجلّ ـ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[4].

[١٨٥٠/٢] ويدلّ عليه ما روى سيف بن ميمون عن الحسين: إنّ رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا ربّ كيف استطاع آدم أن يؤدّي شكر ما أُجريت عليه من نعمك؛ خلقته بيدك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنّتك؟ فأوحى الله إليه: إنّ آدم علم أنّ ذلك كلّه منّي ومن عندي، فذلك شكر»[5].

[١٨٥١/٢] وعن إسحاق بن نجيح الملطي عن عطاء الخراساني عن وهب بن منبّه قال: قال

(١) التوبة ٩: ١٠٢.
(٢) مغني اللبيب لابن هشام ١: ١٥١.
(٣) الضحى ٩٣: ١١.
(٤) النحل ١٧: ٥٣.
(٥) روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري: ٤٧٣، الشكر لله، ابن أبي الدنيا: ٧٠.

داوود ﷺ: «إلهي كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصِلُ إلى شكرك إلّا بنعمتك؟ فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه: ألست تعلم أنّ الّذي بك من النعم منّي؟ قال: بلى يا ربّ، قال: أرضى بذلك لك شكراً»(١).

[١٨٥٢/٢] وقال وهب: وكذلك قال موسى: «يا ربّ أنعمت عليّ بالنعم السوابغ وأمرتني بالشكر لك عليها، وإنّما شكري لكلّ نعمة منك عليّ! فقال الله: يا موسى تعلّمت العلم الذي لا يفوته علم، حسبي من عبدي أن يعلم أنّ ما به من نعمة فهو منّي ومن عندي».

قال الجنيد: حقيقة الشكر: العجز عن الشكر.

[١٨٥٣/٢] ورُوي ذلك عن داوود ﷺ «أنّه قال: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة».

وقال بعضهم: الشكر أن لا يرى النعمة البتّة بل يرى المنعم.

قال أبو عثمان الخيري: صدق الشكر، أن لا تمدح بلسانك غير المنعم.

قال أبو عبدالرحمان السلمي عن أبي بكر الرازي عن الشبلي: الشكر، التواضع تحت رؤية المنّة.

وقيل: الشكر خمسة أشياء: مجانبة السيّئات، والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة ربّ السماوات.

قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سُئل أبو الحسن علي بن عبدالرحيم القنّاد في الجامع بحضرة أبي بكر بن عبدوس وأنا حاضر: من أشكر الشاكرين؟ قال: الطاهر من الذنوب، يعدُّ نفسه من المذنبين، والمجتهد في النوافل بعداد الفرائض، يعدُّ نفسه من المقصّرين، والراضي بالقليل من الدُّنيا، يعدُّ نفسهُ من المفلسين، فهذا أشكر الشاكرين.

ونقل بكربن عبدالرحمان عن ذي النّور قال: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال(٢).

[١٨٥٤/٢] وقال الرّماني: الشكر هو الإظهار للنعمة(٣).

---

(١) الشكر لله: ٦٧/٥؛ الدرّ ٥: ٢٢٩.

(٢) الثعلبي ١: ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٣) التبيان ١: ٢٤٠.

[١٨٥٥/٢] وعن سفيان بن عُيينة: على كلّ مسلم أن يشكر ربّه ـ عزّ وجلّ ـ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

* * *

وإليك ما روى من أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام بشأن الشكر وأثره في زيادة النعماء. اقتصرنا على ما أورده ثقة الإسلام الكليني في الكافي الشريف:

[١٨٥٦/٢] روى بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطاعم الشّاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب؛ والمعافى الشّاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر؛ والمعطى الشّاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع»(٢).

[١٨٥٧/٢] وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخُزن عنه(٣) باب الزيادة»(٤).

قال العلّامة المجلسي ـ في الشرح ـ:

[١٨٥٨/٢] ومثله ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عليه باب الزيادة»(٥). قال: وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٦).(٧).

[١٨٥٩/٢] وبالإسناد إلى عبدالله بن إسحاق الجعفري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة: اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعماء(٨) إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغِيَر»(٩)(١٠).

[١٨٦٠/٢] وبالإسناد إلى يعقوب بن سالم، عن رجل، عن [أبي جعفر أو] أبي عبدالله عليهما السلام قال:

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٠٨ ـ ٥١٨.
(٢) الكافي ٢: ٩٤ / ١، باب الشكر.
(٣) أي زوي عنه ومنع.
(٤) الكافي ٢: ٩٤ / ٢، باب الشكر.
(٥) نهج البلاغة ٤: ١٠٢، الحكمة ٤٣٥.
(٦) إبراهيم ١٤: ٧.
(٧) مرآة العقول ٨: ١٤٧.
(٨) في بعض النسخ: «لا زوال من تعمائي».
(٩) بكسر الغين المعجمة وفتح الياء المثناة من تحت: اسم للتغيّر. وفي بعض النسخ «الغَبَر» بالباء الموحّدة أي المضيّ والزوال.
(١٠) الكافي ٢: ٩٤ / ٣.

«المعافى الشّاكر، له من الأجر ما للمبتلى الصّابر؛ والمعطى الشّاكر، له من الأجر كالمحروم القانع»[١].

[١٨٦١/٢] وبالإسناد إلى داود بن الحصين، عن فضل البقباق قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢] قال: «الّذي أنعم عليك بما فضّلك وأعطاك وأحسن إليك. ثمَّ قال: فحدّث بدينه وما أعطاه الله وما أنعم به عليه»[٣].

قوله: «فحدّث بدينه...» بصيغة الماضي. أيّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخذ في شكر نعمة ربّه فحدّث بدينه أي بشريعته التي بعثه الله بها.

[١٨٦٢/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾»[٤].

[١٨٦٣/٢] وبالإسناد إلى عبيدالله بن الوليد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ثلاث لا يضرُّ معهنَّ شيء: الدُّعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذَّنب، والشّكر عند النّعمة».

[١٨٦٤/٢] وبالإسناد إلى معاوية بن وهب، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أُعطي الشّكر أُعطي الزّيادة، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾»[٥].

[١٨٦٥/٢] وبالإسناد إلى إسحاق بن عمّار، عن رجلين من أصحابنا، سمعاه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد».

[١٨٦٦/٢] وبالإسناد إلى محمّد بن هشام، عن ميسر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشّكر قول الرّجل: الحمد لله ربّ العالمين».

[١٨٦٧/٢] وبالإسناد إلى ابن أبي عمير، عن عليّ بن عيينة، عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا

---

(١) المصدر / ٤.

(٢) الضحى ٩٣: ١١.

(٣) الكافي ٢: ٩٤ / ٥.

(٤) طه ٢٠: ١ و ٢.

(٥) إبراهيم ١٤: ٧.

عبدالله عليه السلام يقول: «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عزّ وجلّ عليها»[١].[٢]

[١٨٦٨/٢] وبالإسناد إلى سيف بن عميرة، عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «هل للشكر حدٌّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم. قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌّ أدّاه ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هذا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ﴾[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[٤] وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾»[٥].

[١٨٦٩/٢] وإلى معمر بن خلّاد قال: سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة».

[١٨٧٠/٢] وإلى صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: «ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت، فقال: الحمد لله، إلّا أدّى شكرها».

[١٨٧١/٢] وإلى إسماعيل بن أبي الحسن، عن رجل، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، فقد أدّى شكرها».

[١٨٧٢/٢] وإلى منصور بن يونس، عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ الرّجل منكم ليشرب الشّربة من الماء فيوجب الله له بها الجنّة. ثمّ قال: إنّه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي[٦] ثمّ يشرب فينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثمّ يعود فيشرب، ثمّ ينحّيه فيحمد الله ثمّ يعود فيشرب، ثمّ ينحّيه فيحمد الله، فيوجب الله عزّ وجلّ بها له الجنّة».

[١٨٧٣/٢] وإلى ابن أبي عمير، عن الحسن بن عطيّة، عن عمر بن يزيد قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّي سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقني مالاً فرزقني وإنّي سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً وسألته أن يرزقني داراً فرزقني وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً[٧]، فقال: أما ـ والله ـ مع

---

(١) في بعض النسخ «أن يحمد الله عزّ وجلّ عليها». (٢) الكافي ٢: ٩٥ / ٦ـ١١.

(٣) الزخرف ٤٣: ١٣. (٤) المؤمنون ٢٣: ٢٩.

(٥) الإسراء ١٧: ٨٠. (٦) التسمية أن يقول: بسم الله الرحمان الرحيم.

(٧) في القاموس: استدرجه: خدعه وأدناه كدرجه. واستدراجه تعالى العبد أنّه كلّما جدّد خطيئة جدّد له نعمة وأنساه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلاً قليلاً ولا يباغته والبغتة: الفجأة.

الحمد فلا».

[١٨٧٤/٢] وإلى حمّاد بن عثمان قال: «خرج أبو عبدالله عليه السلام من المسجد، وقد ضاعت دابّته، فقال: لئن ردَّها الله عليَّ لأشكرنَّ الله حقَّ شكره، قال: فمالبث أن أتي بها، فقال: الحمد لله، فقال له قائل: جعلت فداك أليس قلت: لأشكرنَّ الله حقَّ شكره؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: ألم تسمعني قلت: الحمد لله؟».

[١٨٧٥/٢] وإلى الحسن بن راشد، عن المثنّى الحنّاط، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمرٌ يسرّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمُّ به قال: الحمد لله على كلّ حال».

[١٨٧٦/٢] وإلى أبي أيّوب الخزّاز عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تقول ثلاث مرّات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تُسمعه: الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلاك به، ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً».

[١٨٧٧/٢] وإلى أبان بن عثمان، عن حفص الكناسي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما من عبد يرى مبتلى فيقول: «الحمد لله الّذي عدل عنّي ما ابتلاك به، وفضّلني عليك بالعافية، اللّهمّ عافني ممّا ابتليته به» إلّا لم يبتل بذلك البلاء[١].

[١٨٧٨/٢] وإلى خالد بن نجيح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا رأيت الرّجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك فقل: اللّهمّ إنّي لاأسخر ولا أفخر[٢] ولكن أحمدك على عظيم نعمائك عليَّ».

[١٨٧٩/٢] وإلى هارون بن الجهم، عن حفص بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم، فإنّ ذلك يحزنهم».

[١٨٨٠/٢] وإلى عبدالله بن مسكان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات فلمّا أن ركب قالوا: يا رسول الله إنّا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه؟ فقال: نعم استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشّرني ببشارات من الله عزَّ وجلَّ، فسجدت لله شكراً لكلّ بشرى سجدة».

---

(١) الكافي ٢: ٩٦ـ٩٧ / ١١ـ٢١.

(٢) يعني لا أسخر من هذا المبتلى بابتلائه بذلك ولا أفخر عليه.

[١٨٨١/٢] وإلى يونس بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله عزّ وجلّ فليضع خدّه على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خدَّه على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خدّه على قربوسه وإن لم يقدر فليضع خدَّه على كفّه[1] ثمّ ليحمد الله على ما أنعم الله عليه».

[١٨٨٢/٢] وإلى ابن أبي عمير، عن عليّ بن عطيّة عن هشام بن أحمر قال: «كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة إذ ثنّى رجله عن دابّته، فخرَّ ساجداً، فأطال وأطال، ثمّ رفع رأسه وركب دابّته فقلت: جعلت فداك قد أطلت السجود؟ فقال: إنّني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ فأحببت أن أشكر ربّي».

[١٨٨٣/٢] وإلى ابن أبي عمير، عن أبي عبدالله صاحب السابريّ فيما أعلم أو غيره، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حقّ شكري، فقال، ياربّ وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنَّ ذلك منّي»[2].

[١٨٨٤/٢] وإلى ابن أبي عمير، عن ابن رئاب، عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إذا أصبحت وأمسيت فقل عشر مرّات: «اللّهمّ ما أصبحت بي من نعمة أو عافية من دين أو دنيا فمنك وحدك لاشريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ ياربّ حتّى ترضى وبعد الرّضا» فإنّك إذا قلت ذلك كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك اللّيلة.

[١٨٨٥/٢] وإلى ابن أبي عمير، عن حفص بن البختري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان نوح عليه السلام يقول ذلك[3] إذا أصبح، فسمّي بذلك عبداً شكوراً، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صدق الله نجا».

[١٨٨٦/٢] وإلى عمّار الدّهني قال: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «إنّ الله يحبُّ كلّ قلب حزين ويحبُّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس».[4]

---

(١) في بعض النسخ: «فليضع كفّه على خدّه».

(٢) الكافي ٢: ٩٨ / ٢٢ـ٢٧.

(٣) يعني الدعاء المذكور في الحديث السابق.

(٤) الكافي ٢: ٩٩ / ٢٨ ـ ٣٠.

كلام عن حقيقة الشكر ومراحله الثلاث: علم وحال وعمل

ذكر الإمام أبو حامد الغزالي: أنّ الشكر ـ وهو من مقامات السالكين ـ ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو الأصل الذي يورث الحال. والحال يوجب العمل.

أمّا العلم فهو: معرفة النعمة من المنعم. والحال هو: الفرح والانبساط الحاصل للمنعم عليه بالإفضال عليه. والعمل هو القيام بما يوجب رضى المنعم فيزيده فضلاً. وهذا العمل يتعلّق بالقلب وبالجوارح وباللسان جميعاً، ولكلٍّ وظيفته في أداء الشكر.

فالأصل الأوّل ـ وهو معرفة الإحسان ـ إنّما يتمّ بمعرفة النعمة من وجوهها الثلاثة: معرفة عين النعمة، فلا تلتبس عليه نقمة حسبها نعمة جهلاً.

ومعرفة وجه كونها نعمة في حقّه بالذات، إذ قد يكون ما ظاهره نعمة ـ وبالنسبة إلى العموم ـ هي نقمة في واقعها بشأنه الخاصّ، كما في الاستدراج.

ومعرفة ذات المنعم وما عليه من كمال وجمال والباعث له على هذا الإنعام إذ قد يكون الإحسان إغفالاً للمُحسَن إليه لغرض الإذلال ـ كما في الممتنّ ـ أو الاستثمار أحياناً، نظير تعليف الدوابّ لغرض الاستدرار.

قال: كلّ هذه الأمور إنّما تجري في حقّ غيره تعالى، فأمّا في حقّ الله تعالى فلا يتمّ إلّا بأن يعرف أنّ النعم كلّها من الله وهو المنعم المفضل بالإحسان إلى عباده أجمعين. أمّا الوسائط فهم مسخّرون من جهته تعالى ومأمورون بأمره ويفعلون ما يؤمرون.

وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد، واقعة في الرتبة الثالثة من معارف الإيمان. إذ الرتبة الأُولى من معارف الإيمان هو التقديس، وهو تنزيهه تعالى عمّا لايناسب شأنه العظيم. وإذا عرف أن لا ذات مقدّسة سواه تعالى، فقد نال رتبة التوحيد وأن لامنزّه سواه، ثمّ يعلم أنّ كلّ ما في عالم الوجود فهو من ذلك الواحد الواجب الوجود. فالكلّ نعمة منه وفضل تفضّل به على العباد أجمعين. فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، وتنطوي على التقديس والتوحيد إلى جنب القدرة الكاملة والانفراد بالفعل دون من سواه.

ولعلّ هذا المعنى قَصَده الرسل الأعظمﷺ حيث قوله:

[١٨٨٧/٢] «من قال: سبحان الله فله عشر حسنات. ومن قال: لا إله إلّا الله فله عشرون حسنة.

ومن قال: الحمد لله فله ثلاثون حسنة»[١].

فالتسبيح تقديس. والتهليل توحيد. والتحميد شكر على كلّ النعماء. فقد جمع التقديس والتهليل إلى جنب التحميد. فجاء بأكمل الثناء.

فلا تظنّن أنّ هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب وآثارهما في العمل.

فسبحان الله كلمة تدلّ على التقديس وتنزيه ذاته المقدسة. ولا إلّه إلّا الله كلمة تدلّ على وحدانيّته تعالى. والحمد لله كلمة تدلّ على معرفة النعمة من الواحد الحقّ تعالى. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي أبواب الإيمان واليقين، والباعثة على الاستقامة في العمل والسلوك.

فإذ قد عرفت هذه الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحّداً وأتيت بالشكر الواجب لديه، وكنت بذلك شاكراً لأنعمه تعالى.

[١٨٨٨/٢] قال موسى عليه السلام في مناجاته: «إلّهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت، فكيف شكرك؟ فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: علم أنّ كلّ ذلك منّي ومن عندي، فكانت معرفته شكراً»[٢].

[١٨٨٩/٢] وعن الصادق عليه السلام: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، فقد أدّى شكرها»[٣].

[١٨٩٠/٢] وعنه عليه السلام قال: فيما أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى موسى عليه السلام: «يا موسى اشكرني حقّ شكري! فقال: يا ربّ وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شكر أشكرُك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟! قال: يا موسى، ألآن شكرتني، حين علمت أنّ ذلك منّي»[٤].

وقال الورّاق: حقيقة الشكر معرفة المنعم وأن لا تعرف لنفسك في النعمة حظّاً، بل تراه من الله ـ عزّ وجلّ ـ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[٥].

* * *

قال أبو حامد: وأمّا الأصل الثاني ـ وهي الحال المستمدّة من أصل المعرفة ـ فهو الفرح

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة ١: ٥١٢.

(٢) إحياء العلوم ٤: ٨٠؛ الثعلبي ١: ١٩٥؛ روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري: ٤٧٣؛ الشكر لله، ابن أبي الدنيا: ٧٠.

(٣) الكافي ٢: ٩٦ / ١٥.

(٤) المصدر: ٩٨ / ٢٧.

(٥) النحل ١٦: ٥٣. راجع: الثعلبي ١: ١٩٥.

والانبساط الحاصل للنفس بسبب النعمة التي أنعم الله عليه تفضّلاً وتكريماً لجانبه.. وليكن هذا الفرح والانبساط ناشئاً من جهة أنّه تعالى تكرّم عليه وخصّه بالعناية والإفضال، لا لمجرّد النعمة والإحسان عليه محضاً. إذ يكون ارتياح نفس المؤمن منبعثاً عن شعوره بتلك العناية الإلٰهيّة الخاصّة بعباده المخلصين وقد شملته وهذا هو الفوز العظيم.. أمّا الارتياح الحاصل من جهة ذات النعمة الموجبة لرفاه الحال، فهذا مشترك بين المؤمن وغيره، ولايدخل في باب الشكر، ما لم يكن ماسّاً بالذي أنعم عليه، ومقرّباً لديه.

ومن ثمّ قال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة[١].

وقال الخوّاص[٢]: شكر العامّة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصّة على واردات القلوب[٣]. وقال بعضهم: الشكر أن لايرى النعمة البتة بل يرى المنعم[٤].

والأصل الثالث، وهو العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، إنّما يتعلّق بالقلب وباللّسان وبالجوارح.

أمّا بالقلب فهو نيّة الخير وإضماره لكافّة الخلق، وأن لاينوي الشرّ لأحد من الخلائق إطلاقاً.

وأمّا باللّسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالّة عليه، ومنه التحدّث بنعمه تعالى عليه لا فخراً ومباهاة، بل تواضعاً واستكانة لله تعالى حيث فضله ورحمته على العباد، وأنّ عنايته شاملة، ﴿وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٥].

[١٨٩١/٢] قال الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٦] معناه: فحدّث بما أعطاك الله وفضّلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»[٧].

قال الطبرسي: التحدّث بنعمة الله شكر وتركه كفر[٨].

---

(١) إحياء العلوم ٤: ٨١.

(٢) بفتح الخاء وتشديد الواو: اسم لمن ينسج بالخوص ـ وهو سعف النخل ـ المراوح ونحوها. والمشهور بهذه النسبة سَلْم بن ميمون الخوّاص، من عُبّاد أهل الشام وقُرّائهم. (الأنساب للسمعاني ٢: ٤١١).

(٣) المصدر.

(٤) الثعلبي ١: ١٩٦.

(٥) إحياء العلوم ٤: ٨٢.

(٦) الضحى ٩٣: ١١.

(٧) مجمع البيان ١٠: ٥٠٧.

(٨) المصدر.

[١٨٩٢/٢] وقال الحسن: شكر النعمة ذكرها[١].

[١٨٩٣/٢] وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه، فتمّ كلامه، حتّى يؤمر له بالمزيد»[٢].

[١٨٩٤/٢] وقال: «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عليها»[٣].

[١٨٩٥/٢] وقال: «ما أنعم الله على عبد من نعمةٍ صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله، إلّا أدّى شكرها»[٤].

* * *

وأمّا بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقّي من الاستعانة بها على معصيته. حتّى أنّ شكر نعمة العين أن تستر كلّ عيب تراه لمسلم. وشكر الأذن أن تستر كلّ عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله بهذه الأعضاء.

[١٨٩٦/٢] قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «شكر النعمة اجتناب المحارم. وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله ربّ العالمين»[٥].

قال أبو حامد: وكذلك الشكر باللسان، إنّما هو لإظهار الرضى عن الله تعالى. وهو مأمور به.

[١٨٩٧/٢] فقد قال صلى الله عليه وآله لرجل: كيف أصبحت؟ قال: بخير. فأعاد صلى الله عليه وآله السؤال، حتّى قال في الثالثة: بخير، أحمد الله وأشكره! فقال صلى الله عليه وآله: «هذا الّذي أردت منك»[٦].

نعم من تمام الشكر استعمال النعمة في محابّه تعالى، دون ما يوجب سخطه، فإنّه كفران للنعمة. قال موسى عليه السلام ـ في مقام الشكر على نعمائه تعالى، والّتي أنعم الله عليه من قوّة في جسم وقدرة في عقل، فضلاً عن الحكمة والنبوّة وفصل الخطاب ـ قال شكراً على هذه الآلاء: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾[٧]. أي لن أجعل ما بوسعي وقدرتي، في متناول أهل الآثام.

---

(١) الثعلبي ١: ١٩٥.
(٢) الكافي ٢: ٩٥ / ٩.
(٣) المصدر / ١١.
(٤) المصدر / ١٤.
(٥) المصدر / ١٠.
(٦) إحياء العلوم ٤: ٨٢. والحديث أخرجه الطبراني في باب الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً.
(٧) القصص ٢٨: ١٧.

[١٨٩٨/٢] وقال ابن عبّاس: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لربّ الخلائق في السرّ والعلانية[١].

ومن ثمّ قيل: الشكر خمسة أشياء: مجانبة السيّئات. والمحافظة على الحسنات. ومخالفة الشهوات. وبذل الطاعات. ومراقبة ربّ السماوات[٢].

ومن الشكر العملي إظهار أثر النعمة بما يوجب ابتهاج الآخرين، كالإحسان إلى المعوزين والأخذ بيد المحتاجين، والبذل في سبيل الله بالمال والجاه والقدرة حسب الإمكان. فإنّها من آثار نِعَمِ الله على عبده، فيحبّ أن يراها عليه، وهو شكر عملي بلا شك.

[١٨٩٩/٢] قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا، في غير سرف ولا بخل، إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده»[٣].

---

(١) الثعلبي ١: ١٩٥.
(٢) المصدر: ١٩٦.
(٣) البحار ٧٠: ٢٠٧.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[١٩٠٠/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة: أنّ النبيّ ﷺ قال: نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لستّ مضين من رمضان[١].

[١٩٠١/٢] وأخرج عنه أيضاً قال: ﴿الْكِتَابَ﴾: التوراة[٢].

[١٩٠٢/٢] وقال مجاهد في قوله: ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: هو التوراة أيضاً ذكرها باسمين[٣].

[١٩٠٣/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: الكتاب هو الفرقان، فرّق بين الحقّ والباطل[٤].

[١٩٠٤/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: فرّق به بين الحقّ والباطل[٥].

[١٩٠٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيدبن جبير في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: علم الكتاب وتبيانه وحكمته[٦].

[١٩٠٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عبّاس قال: الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[٧]. (يعني القرآن).

---

(١) ابن أبي الحاتم ١: ١٠٨ / ٥١٨.

(٢) المصدر: ١٠٩ / ٥٢٠.

(٣) البغوي ١: ١١٧.

(٤) الدرّ ١: ١٦٩؛ الطبري ١: ٤٠٦ / ٧٨١ وبعده وفيه: «... فرقان بين الحقّ والباطل»؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٩ / ٥٢١، عن مجاهد والربيع بلفظ: «فرّق فيه بين الحقّ والباطل»؛ التبيان ١: ٢٤٢، بلفظ: «وروي عن ابن عبّاس وأبي العاليه ومجاهد: أنّ الفرقان الذي ذكره هو الكتاب الذي أتاه يفرّق فيه بين الحقّ والباطل».

(٥) الطبري ١: ٤٠٦ / ٧٨٠؛ التبيان ١: ٢٤٢، بلفظ: هو الكتاب الذي أتاه يفرّق بين الحقّ والباطل.

(٦) ابن أبي حاتم ١: ١٠٩ / ٥٢٢.

(٧) الدرّ ١: ١٦٨؛ الطبري ١: ٤٠٦ / ٧٨٢.

[١٩٠٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب، قال: سألته، يعني ابن زيد، عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ﴾ فقال: أمّا الفرقان الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[١] فذلك يوم بدر، يوم فرّق الله بين الحقّ والباطل، والقضاءُ الذي فرّق به بين الحقّ والباطل. قال: فكذلك أعطى الله موسى الفرقان، فرّق الله بينهم، وسلّمه الله وأنجاه. فرّق بينهم بالنصر، فكما جعل الله ذلك بين محمّد والمشركين، فكذلك جعله بين موسى وفرعون[٢].

[١٩٠٨/٢] وقال ابن عبّاس: أراد بالفرقان النصر على الأعداء. نصر الله عزّوجلّ موسى وأهلك فرعون وقومه. يدلّ عليه قوله عزّوجلّ: ﴿وَما أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٣] يوم بدر[٤].

[١٩٠٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني النصر حين فرّق بين الحقّ والباطل ونصر موسى وأهلك فرعون. نظيرها في الأنفال قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَما أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني يوم النصر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ فنصر الله ـ عزّ وجلّ ـ المؤمنين وهزم المشركين ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلالة بالتوراة يعني بالنور.[٥].

وقال أبو جعفر: وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية ما رُوي عن ابن عبّاس وأبي العالية ومجاهد، من أنّ الفرقان الذي ذكر الله أنّه آتاه موسى في هذا الموضع هو الكتاب الذي فرّق به بين الحقّ والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها. فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح، وفرّقنا بها بين الحقّ والباطل، فيكون الكتاب نعتاً للتوراة أقيم مقامها استغناءً به عن ذكر التوراة، ثمّ عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها[٦].

(١) الأنفال ٨: ٤١.

(٢) الطبري ١: ٤٠٦ـ٤٠٧ / ٧٨٣؛ التبيان ١: ٢٤٢، بلفظ: «وقال ابن زيد: الفرقان: النصر الّذي فرّق الله به بين موسى وفرعون؛ كما فرّق بين محمّد ﷺ، وبين المشركين، كما قال: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾».

(٣) الأنفال ٨: ٤١.

(٤) الثعلبي ١: ١٩٧.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠٧ـ١٠٨.

(٦) الطبري ١: ٤٠٦.

قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

[١٩١٠/٢] أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن الحسن في قوله: ﴿وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، وحين قال الله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾[١] قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾[٢].

[١٩١١/٢] وأخرج الطسّي عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؟ قال: خالقكم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول تُبّع[٣]:

شهدت على أحمدٍ أنّه رسول من الله باري النَّسَم[٤]

[١٩١٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ قال: خالقكم[٥].

حديث توبة بني إسرائيل! وقتل أنفسهم!

حديث طريف يحتوي ـ حسب رواياته ـ على غرائب وعجائب قد لا يرتضيها العقل الرشيد، فضلاً عن نكارتها أحياناً.

---

(١) الأعراف ٧: ١٤٩.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١٠٩ / ٥٢٥.

(٣) لعلّه تبيع بن عامر الحميري. هو من الطبقة العليا التي تلي الصحابة. كان رجلاً مرجّلاً. كان دليلاً للنبيّ ﷺ فعرض عليه الإسلام فلم يُسلم حتّى توفّي رسول الله. وأسلم مع أبي بكر وكان يقصّ عند أصحاب رسول الله. وكان ابن امرأة كعب وقد أخذ عنه كثيراً... (تهذيب التهذيب ١: ٥٠٨ / ٩٤٥).

(٤) الدرّ ١: ١٦٩. وراجع: الإتقان ٢: ٨٧.

(٥) الدرّ ١: ١٦٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٠ / ٥٢٦، وعن سعيدبن جبير والربيع بن أنس؛ الطبري ١: ٤١١ / ٧٩٥.

والأصل فيه ما جاء في سفر الخروج: «ولمّا اقترب موسى من المحلّة أبصر العجل والرقص، فغضب ورمى اللوحين فكسرهما، ثمّ أخذ العجل فأحرقه وطحنه وذرّاه على وجه الماء وسقاه بني إسرائيل! ولام موسى هارون فاعتذر إليه.

ولمّا رأى موسى ذلك، طلب من كان للربّ أن يأتيه، فأتاه بنو لاوي ـ من قبيل موسى وهارون، دون سائر الأسباط ـ فأمرهم أن يأخذوا سيوفهم ويمرّوا بالمحلّة باباً باباً، ويقتل كلّ رجل أخاه وصاحبه وقريبه، ففعلوا وقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل.. ثمّ صعد موسى الجبل وطلب لهم المغفرة من الله، فإذا لم يفعل فليمح موسى من كتابه. فأجابه الربّ إلى ذلك»[1].

وهذه القصّة على غرابتها سرت ـ بزيادة ومبالغة ـ في كتب التفسير والحديث، ومن غير أن يكون لها شاهد من الكتاب أو الأثر الصحيح.

هكذا ذكر الثعلبي القصّة مبالغاً فيها، قال: لمّا أمرهم موسى بالقتل، قالوا نصبر لأمر الله!! فجلسوا بالأفنية[2] محتبثين[3] مطرقين مهيّئين للقتل!!

وقيل لهم: من حلّ حبوته أو مدّ طرفه إلى قائله أو اتّقاه بيد أو رجل، فهو ملعون مردود توبته، وأصلت القومُ عليهم الخناجر[4] وكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره، فلم يمكنهم المضيّ لأمر الله، وقالوا لموسى كيف نفعل؟! فأرسل الله ضَبَابة[5] وسحابة سوداء لايُبصر بعضهم بعضاً، فجعلوا يقتلونهم حتّى المساء. فلمّا كثر القتلى دعا موسى وهارون وبكيا وجزعا وتضرّعا إلى الله وقالا: يا ربّ هلكت بنو إسرائيل، البقيّة البقيّة!

فكشف الله عنهم وأمرهم أن يكفّوا عن القتل. فتكشفت عن أُلوف من القتلى.. ويُروى أنّ عدد القتلى بلغ سبعين ألفاً، فاشتدّ ذلك على موسى، فأوحى الله إليه: أما يُرضيك أن أدخل القاتل

---

(١) سفر الخروج، أصحاح ٣٢: ٢٥ ـ ٢٩.

(٢) فناء الدار: الساحة أمام البيت.

(٣) الاحتباء: جلوس على الورك والقدمين، جامعاً للركبتين إلى الصدر، مع شدّ الساقين إلى الظهر بعمامة ونحوها.

(٤) أصلت السيف: جرّده من غمده وسلّه شاهراً به.

(٥) الضبابة: سحابة تغشي الأرض.

والمقتول الجنّة؟ وكان من قُتل منهم شهيداً، ومن بقي مكفَّراً عنه ذنوبُه! فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ففعلتم ما أُمرتم به فتاب عليكم وتجاوز عنكم.[١].

هذا ما لفّقه الثعلبي وأضرابه مستمدّين من نصّ التوراة، بزيادة وتوفير، فزادوا في الطين بلّة.

وهكذا جاء أبوجعفر الطبري قبله بهذه الأقاصيص من غير تريّث ولا اكتراث، قال: وكان الفعل الذي فعله بنو إسرائيل ما أوجب ارتدادهم، ومن ثمّ أمرهم موسى بالمراجعة والإنابة من ردّتهم بالتوبة إليه تعالى والتسليم لطاعته. فاستجاب القوم(!!) لما أمرهم به موسى. فجعل يروي في ذلك ما يُشبه رواية الثعلبي:

[١٩١٣/٢] منها ما أخرجه عن ابن عبّاس قال: أمر موسى قومه عن أمر ربّه أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الّذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الّذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضُهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا[٢] عن سبعين ألف قتيل، كلّ من قتل منهم كانت له توبة، وكلّ من بقي كانت له توبة[٣].

[١٩١٤/٢] وعن ابن إسحاق، قال: لمّا رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذرّاه في اليمّ؛ خرج إلى ربّه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثمّ بُعثوا. سأل موسى ربّه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلّا أن يقتلوا أنفسهم. قال: فبلغني أنّهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجلسوا بالأفنية وأصلت[٤] عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى وبَهش[٥] إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف[٦].

[١٩١٥/٢] وعن ابن زيد قال: لمّا رجع موسى إلى قومه، وكانوا سبعين رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربّكم، فقالوا: يا موسى أما من توبة؟ قال: بلى

(١) الثعلبي ١: ١٩٨؛ البغوي ١: ١١٨.

(٢) أجلوا: انكشفوا.

(٣) الطبري ١: ٤٨٠ / ٧٨٦.

(٤) أصلت السيف: جرده من غمده.

(٥) بهش إليه: ارتاح له وخفّ إليه.

(٦) الطبري ١: ٤١٠ / ٧٩٣؛ ابن كثير ١: ٩٦، وفيه: «فهش موسى فبكى».

﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية... فاخترطوا[١] السيوف والجِرَزة[٢] والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة، قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري، ويتنادون فيها: رحم الله عبداً صبر حتّى يبلغ الله رضاه. وقرأ قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾[٣]. قال: فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم. وقرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤].

[١٩١٦/٢] وعن السدّي، قال: لمّا رجع موسى إلى قومه ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ إلى قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[٥] فـ﴿ألقى﴾ موسى ﴿الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[٦] ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[٧] فترك هارون ومال إلى السامريّ، فـ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[٨]. ثمّ أخذه فذبحه، ثمّ حرّقه بالمبرد[٩]، ثمّ ذراه في اليمّ، فلم يبق بحر يجري يومئذ إلّا وقع فيه شيء منه. ثمّ قال لهم موسى: اشربوا منه! فشربوا، فمن كان يحبّه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[١٠]. فلمّا سقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١١] فأبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلّا بالحال التي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل، فقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فصفوا صفّين ثمّ

---

(١) اخترطوا: سلّوا.

(٢) الجرزة: جمع جِرْز، وهو عمود من حديد يقاتل به.

(٣) الدخان ٤٤: ٣٣.

(٤) الطبري ١: ٤١٠ ـ ٤١١ / ٧٩٤؛ ابن كثير ١: ٩٦، عن زيد بن أسلم.

(٥) طه ٢٠: ٨٦ ـ ٨٧.

(٦) الأعراف ٧: ١٥٠.

(٧) طه ٢٠: ٩٤.

(٨) طه ٢٠: ٩٥ ـ ٩٧.

(٩) حرّقه بالمبرد: برده.

(١٠) البقرة: ٢: ٩٣.

(١١) الأعراف ٧: ١٤٩.

اجتلدوا بالسيوف. فاجتلد الّذين عبدوه والّذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً، حتّى كثر القتلى حتّى كادوا أن يهلكوا حتّى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتّى دعا موسى وهارون: ربّنا هلكت بنو إسرائيل، ربّنا البقيّة البقيّة[١]! فأمرهم أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم. فكان من قتل شهيداً، ومن بقي كان مكفّراً عنه. فلذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

[١٩١٧/٢] وعن ابن جُريج، قال: قال لي عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: قام بعضهم إلى بعض يقتل بعضهم بعضاً، ما يتوقّى الرجل أخاه ولا أباه ولا ابنه ولا أحداً حتّى نزلت التوبة.

قال ابن جُريج، وقال ابن عبّاس: بلغ قتلاهم سبعين ألفاً، ثمّ رفع الله عزّوجلّ عنهم القتل، وتاب عليهم. قال ابن جُريج: قاموا صفّين، فاقتتلوا بينهم، فجعل الله القتل لمن قتل منهم شهادة، وكانت توبة لمن بقي. وكان قتل بعضهم بعضاً أنّ الله علم أنّ ناساً منهم علموا أنّ العجل باطل فلم يمنعهم أن ينكروا عليهم إلّا مخافة القتال، فلذلك أمر أن يقتل بعضهم بعضاً[٣].

[١٩١٨/٢] وعن القاسم بن أبي بزّة أنّه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً قالا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً لا يحنّ[٤] رجل على رجل قريب ولا بعيد، حتّى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فتكشّف عن سبعين ألف قتيل، وإنّ الله أوحى إلى موسى أن حسبي قد اكتفيت، فذلك حين ألوى بثوبه[٥].[٦].

[١٩١٩/٢] وعن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ الآية، قال: فصاروا صفّين، فجعل يقتل بعضُهم بعضاً، فبلغ القتلى ما شاء الله، ثمّ قيل لهم: قد تيب على القاتل والمقتول[٧].

---

(١) يدعوان ربّهما أن يبقي بقيّة منهم.

(٢) الطبري ١: ٤٠٨ ـ ٤٠٩ / ٧٨٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١١١ / ٥٣٣، من قوله: فاجتلد الّذين عبدوه والّذين لم يعبدوه.

(٣) الطبري ١: ٤١٠ / ٧٩٢.

(٤) حنّ عليه: عطف عليه.

(٥) ألوى بثوبه: أشار به يأمرهم بالكفّ عمّا هم فيه.

(٦) الطبري ١: ٤٠٨ / ٧٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٠ / ٥٢٨.

(٧) الطبري ١: ٤٠٩ / ٧٨٩.

[١٩٢٠/٢] وعن الزهري وقتادة في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال: قاموا صفَّين فقتل بعضهم بعضاً حتّى قيل لهم كفّوا. قال قتادة: كانت شهادة للمقتول وتوبة للحيّ[١].

[١٩٢١/٢] وعن عبدبن حميد عن مجاهد قال: كان أمر موسى قومه عن أمر ربّه أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر، فجعل الرجل يقتل أباه ويقتل ابنه فتاب الله عليهم[٢].

[١٩٢٢/٢] وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير عن الزهري قال: لمّا أُمرت بنو اسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه، حتّى إذا فتر بعضهم قالوا: يا نبي الله ادع لنا، وأخذوا بعضديه. فلم يزل أمرُهم على ذلك حتّى إذا قبل الله توبتهم، قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إلى موسى: ما يحزنك؟ أمّا من قُتل منكم فحيّ عندي يُرزق، وأمّا من بقي فقد قبلت توبته. فسرّ بذلك موسى وبنو إسرائيل[٣].

[١٩٢٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ـ والله لا يبالي من قتل ـ حتّى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي[٤].

[١٩٢٤/٢] وأخرج عن سعيدبن جبير عن ابن عبّاس قال: فقال الله تبارك وتعالى: إنّ توبتهم أن يقتل كلّ رجل منهم كلّ من لقي من والد أو ولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الّذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطّلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أُمروا به، فغفر الله للقاتل والمقتول[٥].

[١٩٢٥/٢] وعن الحسن: قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال أصابت بني إسرائيل ظلمة حندس فقتل

---

(١) المصدر / ٧٩١.

(٢) الدرّ ١: ١٦٦؛ الطبري ١: ٤٠٩ / ٧٨٨.

(٣) الدرّ ١: ١٦٩؛ الطبري ١: ٤٠٩ ـ ٤١٠ / ٧٩٠؛ ابن كثير ١: ٩٦؛ ابن عساكر ٦١: ١٥٩ ـ ١٦٠ / ٧٧٤١.

(٤) الدرّ ١: ١٦٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١١١ / ٥٣٢؛ ابن كثير ١: ٩٦، بمعناه؛ البغوي ١: ١١٨؛ كنزالعمّال ٢: ٤٦٧ / ٤٥١٢.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ١١٠ / ٥٢٧.

بعضهم بعضاً ثمّ انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك(١).

[١٩٢٦/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَـلَمْتُمْ أَنفُسَكُم...﴾ الآية. قال: أمر القوم بشديد من البلاء، فقاموا يتناحرون بالشفار، ويقتل بعضهم بعضاً، حتّى بلغ الله نقمته فيهم وعقوبته، فلمّا بلغ ذلك سقطت الشفار من أيديهم وأمسك عنهم القتل، فجعله الله للحيّ منهم توبة وللمقتول شهادة(٢).

[١٩٢٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان ـ بعد أن بعث الله الّذين أخذتهم الصاعقة ـ: ثمّ انصرفوا مع موسى راجعين فلمّا دنوا من المعسكر على ساحل البحر سمعوا اللغط حول العجل، فقالوا: هذا قتال في المحلّة، فقال موسى ﷺ ليس بقتال ولكنّه صوت الفتنة. فلمّا دخلوا المعسكر رأى موسى ماذا يصنعون حول العجل، فغضب وألقى الألواح فانكسر منها لوحان، فارتفع من اللوح بعض كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ فأمر بالسامريّ فأخرج من محلّة بني إسرائيل، ثمّ عمد إلى العجل فبرده بالمبرد وأحرقه بالنار ثمّ ذرّاه في البحر فذلك قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾(٣) فقال موسى: إنّكم ظلمتم ـ أي ضررتم ـ أنفسكم باتّخاذكم العجل إلهاً من دون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾. يعني خالقكم. وندم القوم على صنيعهم. فذلك قوله ـ سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ يعني أشركوا بالله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٤). فقالوا: كيف لنا بالتوبة يا موسى؟ قال: اقتلوا أنفسكم يعني يقتل بعضكم بعضاً كقوله سبحانه في النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾(٥) يقول: لايقتل بعضكم بعضكم. ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ يعني: ذلك القتل والتوبة خير لكم عند بارئكم، يعني عند خالقكم. قالوا: قد فعلنا. فلمّا أصبحوا أمر موسى ﷺ البقية الاثني عشر ألفاً الّذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوهم بالسيف والخناجر، فخرج كلّ بني أب على حدّه من منازلهم، فقعدوا بأفنية بيوتهم، فقال بعضهم لبعض: هؤلاء إخوانكم أتوكم

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١١٠ / ٥٣٠؛ ابن كثير ١: ٩٦. الحِندِس: الليل الشديد الظلمة.

(٢) الدرّ ١: ١٦٩؛ ابن كثير ١: ٩٦، بتفاوت؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٠ / ٥٢٩، بتفاوت.

(٣) طه ٢٠: ٩٧.

(٤) الأعراف ٧: ١٤٩.

(٥) النساء ٤: ٢٩.

شاهرين السيوف فاتّقوا الله واصبروا، فلعنة الله على رجل حلّ حبوته أو قام من مجلسه أو اتّقى بيد أو رجل أو حار إليهم طرفة عين[١]. قالوا: آمين. فقتلوهم من لدن طلوع الشمس إلى انتصاف النهار يوم الجمعة وأرسل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم الظلمة حتّى لا يعرف بعضهم بعضاً. فبلغت القتلى سبعين ألفاً. ثمّ أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ الرحمة فلم يحدّ فيهم السلاح، فأخبر الله ـ عزّ وجلّ ـ موسى عليه السلام أنّه قد نزلت الرحمة. فقال لهم: قد نزلت الرحمة ثمّ أمر موسى المنادي فنادى أن ارفعوا سيوفكم عن إخوانكم فجعل الله ـ عزّ وجلّ ـ القتلى شهداء، وتاب الله على الأحياء، وعفى عن الّذين صبروا للقتل فلم يقتلوا. فمن مات قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام على عبادة العجل دخل النار. ومن هرب من القتل لعنهم الله فضربت عليهم الذلّة والمسكنة. فذلك قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢]. وذلك ـ قوله سبحانه ـ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[٣].

فكان الرجل يأتي نادي قومه وهم جلوس فيقتل من العشرة ثلاثة ويدع البقية، ويقتل الخمسة من العشرين، ومن كتب عليهم الشهادة ويبقى الّذين لم يقض لهم أن يُقتلوا. فذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ فلم نهلككم جميعاً ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني بعد العجل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني لكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ ربّكم في هذه النعم، يعني العفو. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وذلك قوله ـ سبحانه ـ في الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾ يعني من بعد عبادة العجل ﴿وآمَنُوا﴾ يعني وصدّقوا بأنّ الله واحد لا شريك له ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] لذو تجاوز عنهم رحيم بهم عند التوبة[٥].

[١٩٢٨/٢] وقال قتادة: جعل عقوبة عبدة العجل القتل لأنّهم ارتدّوا. والكفر يبيح الدمّ[٦].

قلت: هذا ينافي ما سيأتي عن قتادة أنّه قرأ: «فأقيلوا أنفسكم» من الإقالة .أي استقيلوا العثرة

---

(١) حار إليه طرفه أي رجع ببصره إليه.

(٢) الأعراف ٧: ١٥٢.

(٣) الأعراف ٧: ١٦٧.

(٤) الأعراف ٧: ١٥٣.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٦) أبو الفتوح ١: ٢٩٤؛ الثعلبي ١: ١٩٨.

بالتوبة[١].

[١٩٢٩/٢] وقال الرّماني: لابدّ أن يكون في الأمر بالقتل لطف لهم ولغيرهم كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره[٢].

[١٩٣٠/٢] وقيل: معناه استسلموا للقتل فجعل استسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم على وجه التوسّع، عن ابن إسحاق، واختاره الجُبّائي[٣].

* * *

وهكذا سرت البليّة إلى تفاسير معزوّة إلى بعض أصحابنا الإماميّة، ممّا قد رفضنا مُسْبَقاً أن تكون أُمثال هذه التفاسير ذوات استناد صحيح، وهكذا لم يعتبرها علماؤنا ولم يعتمدوها سلفاً وخلفاً حتّى اليوم[٤].

من ذلك ما جاء في التفسير الموسوم بتفسير الإمام العسكري عليه السلام جاء فيه:

[١٩٣١/٢] قال الإمام: «قال الله عزّ وجلّ: واذكروا يا بني إسرائيل: ﴿وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ عبدة العجل ﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أضررتم بها ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي برأكم وصوّركم ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بقتل بعضكم بعضاً يقتل مَن لم يعبد العجل مَن عَبده ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك القتل خير لكم ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من أن تعيشوا في الدنيا وهو لم يغفر لكم، فتتمّ في الحياة الدنيا حياتكم ويكون إلى النار مصيركم، وإذا قتلتم وأنتم تائبون جعل الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك القتل كفّارة لكم، وجعل الجنّة منزلكم ومنقلبكم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم قبل استيفاء القتل لجماعتكم وقبل إتيانه على كافّتكم وأمهلكم للتوبة واستبقاكم للطاعة ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قال: وذلك أنّ موسى عليه السلام لمّا أبطل الله تعالى على يديه أمر العجل فأنطقه بالخبر عن تمويه السامريّ، وأمر موسى عليه السلام أن يقتل مَن لم يعبده من عبده، تبرّأ أكثرهم وقالوا: لم نعبده، فقال الله ـ عزّ

---

(١) الثعلبي ١: ١٩٨.

(٢) مجمع البيان ١: ٢١٩؛ التبيان ١: ٢٤٦.

(٣) مجمع البيان ١: ٢١٨؛ التبيان ١: ٢٤٦، قال في التبيان: ذكره ابن عبّاس وإسحاق واختاره أبو عليّ (الجُبّائي).

(٤) راجع: ما سجّلناه بهذا الصدد في كتابنا «صيانة القرآن من التحريف» (الجزء الثامن من التمهيد).

وجلّ ـ لموسى ﷺ: ابرد هذا العجل الذهب، بالحديد برداً، ثمّ ذرّه في البحر، فمن شرب ماءه اسودّت شفتاه وأنفه وبان ذنْبه، ففعل، فبان العابدون للعجل. وأمر الله تعالى اثني عشر ألفاً أن يخرجوا على الباقين شاهرين السيوف يقتلونهم، ونادى مناديه ألا لعن الله أحداً اتّقاهم بيد أو رجل ولعن الله من تأمّل المقتول لعلّه تبيّنه حميماً أو قريباً فيتوقّاه ويتعدّاه إلى الأجنبي، فاستسلم المقتولون، فقال القاتلون: نحن أعظم مصيبة منهم، نقتل بأيدينا آباءنا وأبناءنا وإخواننا وقراباتنا، ونحن لم نعبد، فقد ساوى بيننا وبينهم في المصيبة.

فأوحى الله تعالى إلى موسى، يا موسى إنّي إنّما امتحنتهم بذلك لأنّهم ما اعتزلوهم لما عبدوا العجل ولم يهجروهم ولم يعادوهم على ذلك»[(١)].

[١٩٣٢/٢] وفي التفسير المنسوب إلى عليّ بن إبراهيم: قال: إنّ موسى ﷺ لمّا خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل، قال لهم موسى: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، فقالوا: وكيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى: اغدوا كلّ واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكّين أو حديدة أو سيف، فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم متلثّمين لا يعرف أحد صاحبه، فاقتلوا بعضكم بعضاً. فاجتمع سبعون ألف رجل ممّن كانوا عبدوا العجل إلى بيت المقدس، فلمّا صلّى بهم موسى وصعد المنبر، أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتّى نزل جبرائيل، فقال: قل لهم يا موسى: ارفعوا القتل، فقد تاب الله عليكم، فقتل منهم عشرة آلاف وأنزل الله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[(٢)].

وفي هذين الحديثين زيادة غرابة من وجوه: جاء في الحديث الأوّل: أنّ الله أنطق العجل لموسى. وأنّ القوم شربوا من ماء البحر وفيه برادة العجل فافتضحوا..

وفي الحديث الثاني: أنّ موسى أمرهم أن يغدوا إلى بيت المقدس ليصعد هو المنبر. في حين أنّ موسى لم يدخل القدس.

وغير ذلك من غرائب قد يغفل عنها الكذوب!

---

(١) تفسير الإمام: ٢٥٤ / ١٢٤.

(٢) القمي ١: ٤٧.

تحقيق لطيف

ولأهل التحقيق هنا بيان لطيف:

قال الإمام أبو عبدالرحمان السُّلَميّ: أوّل قدم في العبوديّة التوبة وهو: إتلاف النفس وقتلها بترك الشهوات وقطعها عن المراد.. وقال الواسطي: كانت توبة بني إسرائيل إفناء أنفسهم، ولهذه الأمّة أشدّ، وهو إفناء أنفسهم مع مراداتها، وإبقاء رسوم الهياكل. وقال فارس: التوبة محو البشريّة وثبات الإلٓهيّة[١].

وقال الإمام القُشَيري: وقتل النفس في الحقيقة التبرّي عن حولها وقوّتها أو شهود شيء منها، وردّ دعواها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحقّ ـ سبحانه ـ بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار البشريّة عنها. فأمّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خَطَر له ولا عبرة به[٢].

قال القرطبي: قال أرباب الخواطر: ذلّلوها بالطاعات وكفّوها عن الشهوات[٣].

وذكر أبو حيّان الأندلسي: أنّ بعضهم قال: معنى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾: ذلّلوا أهواءكم.

قال أبو حيّان: وجاء التقتيل بمعنى التذليل، ومنه قول امرء القيس:

وَمـا ذَرَفَتْ عَـيْناكِ إلّا لِـتَضْربي ... بِسَهْمَيْكِ في أعشـارِ قـلبٍ مـقتَّلٍ

قال: فسّروه بالمذلّل[٤].

قال الزوزني: المقتَّل: المذلَّل غاية التذليل. والقتل في الكلام التذليل، ومنه قولهم: «قَتَلْتُ الشراب» إذا قَلَّلْتَ غَرْبَ سَوْرَته بالمزاج. ومنه قول الأخطل:

فقلتُ اقتلوها عنكم بمزاجـها ... وحُبَّ بها مقتولةً حـين تُـقْتَل

وقال حسّان:

إنّ الّـتي نـاولتني فـرَدَدْتُها ... قَتَلْتِ قَتَلْتِ، فهاتها لم تُقْتَل[٥]

---

(١) تفسير السلمي ١: ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) تفسير القشيري ١: ٩٢ تحقيق إبراهيم بسيوني (ط ٣).

(٣) القرطبي ١: ٤٠١.

(٤) البحر المحيط ١: ٢٠٤ و ٢٠٧.

(٥) شرح المعلّقات للزوزني: ١٦. غَرْبُ الشيء: حدّته.

وهكذا جاء في قراءة قتادة: «فأقيلوا أنفسكم» من الإقالة: أي استقيلوا العثرة بالتوبة[١]. أي امحوها بالتوبة. كما قال ابن الزبير بشأن مقتل عثمان: لاأستقيلها أبداً. أي لاأقيل هذه العثرة ولا أنساها[٢].

ولعلّه قراءة بالمعنى قصداً للتفسير، كما في قراءات معزوّة إلى ابن مسعود وكثير من السلف.

وفي شواذّ ابن خالويه: قرأ قتادة: «فاقتِلوا أنفسكم». قال: اقتال في غير هذا (الموضع) بمعنى احتكم، كما قال كعب:

«وما اقتالَ من حُكمٍ عَلَيَّ طبيبُ»[٣].

وعليه فالمعنى هنا: طلب الإقالة من عثرتها، المستدعي لشدّة النكير عليها وتعنيفها على ما فرط منها فلا تعود لمثلها أبداً.

* * *

هذا وقد صحّ التعبير بقتل النفس كناية عن كبح جموحها والحطّ من غلواء شهواتها، فلا تطغو ولا تتجاوز حدودها المضروبة لها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً. وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[٤].

قوله: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بترك هواها والتزام الطاعة محضاً.

[١٩٣٣/٢] قال الإمام الصادق ﷺ: «بالتسليم لوليّ الأمر والطاعة له محضاً»[٥] وهذا إشارة إلى ما في آية سابقة عليها: ﴿وَما أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٦].

---

(١) التعلبي ١: ١٩٨.

(٢) لسان العرب ١١: ٥٨٠.

(٣) شواذّ القراءات: ٦ / ٥.

(٤) النساء ٤: ٦٦ـ ٦٨.

(٥) الكافي ٨: ١٨٤ / ٢١٠.

(٦) النساء ٤: ٦٢ـ ٦٥.

فقتل النفس كناية عن التسليم المحض لأوامر الله، الأمر الذي يؤكّد عليه القرآن كثيراً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١).

وقوله: ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ أي الهجرة ممّا ألفوه من ملابسات الديار، إلى حيث كان الأفضل في سبيل الرشاد.

وهذا يدخل في باب مجاهدة النفس المعبَّر عنها بالجهاد الأكبر، كما في الحديث:

[١٩٣٤/٢] روى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى الإمام الصادق قال: «بعث النبيّ ﷺ سريّة، فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر! قيل: يا رسول الله! ما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس»(٢).

[١٩٣٥/٢] وقال ﷺ: «إنّ أفضل الجهاد من جاهد نفسه الّتي بين جنبيه»(٣).

[١٩٣٦/٢] وقال الصادق عليه السلام: «من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي، حرّم الله جسده على النار»(٤).

على أنّ من شرائط التوبة: الانخلاع عمّا كسبه من مشتهيات الآثام وما اقترفه من لذائذ الحرام.. فعليه أن يجاهد نفسه ويذهب بما فيها من أدران، وهذا هو قتل النفس وسَلَبها مقاليد الهوى.

نعم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥).

فشرط قبول التوبة هو القيام بإصلاح ما أفسدته المعصية.

[١٩٣٧/٢] قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الاستغفار درجة العلّيّين، وهو اسم واقع على ستّة معان: أوّلها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدّي إلى

(١) النساء ٤: ٦٢ ـ ٦٥.

(٢) الكافي ٥: ١٢ / ٣؛ الأمالي، الصدوق: ٥٥٣ / ٧٤٠، المجلس ٧١.

(٣) أمالي الصدوق: ٥٥٣ / ٧٤٠؛ معاني الأخبار: ١٦٠ / ١.

(٤) الفقيه ـ ٤: ٤٠٠ / ٥٨٦٠. (٥) الأنعام ٦: ٥٤.

المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس (نقيّاً صافياً) ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتّى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية»[١].

فعند ذلك يصحّ الاستغفار، وتكون التوبة توبة نصوح.

هذه البنود ولا سيّما الخامس والسادس، هي مجاهدة النفس وقتلها في سبيل هواها، لتخلص صافية ضاحية ومستبشرة عند الله.

[١٩٣٨/٢] قال رسول الله ﷺ: «من تاب ولم يُغيِّر خلقه ونيّته فليس بتائب»[٢]. والروايات بهذا الشأن كثيرة تؤكّد على مقابلة النفس فيما اشتهته من معاصي وآثام.

هذا فضلاً عن دلالة سياق الآية على أنّ المراد هي مجاهدة النفس ومقابلتها مقابلةً عنيفة، لكسر شوكتها وكبح غرورها، فلا تجرأ على معصية الله أبداً.

فقد جاء في آية سابقة عليها: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

ثمّ كرّر ذلك وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤].

فالعفو في الآية السابقة هو العفو في هذه الآية، لكن مع تفصيل لقبول التوبة: أوّلاً: الأوبة إلى الله بالتضرّع لديه والاستغفار.

ثانياً: بمقابلة النفس بالأخذ بنقيض مطلوبها... فقد كانوا أطلقوا سراحها من قبلُ ـ وكان ذلك في الواقع ظلماً لها ـ فالآن فيجب أن تقابل بالمثل وأن تكبح جموحها.

والتعبير بإماتة النفس كثير في آثار المعصومين ﷺ.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٩٨، الحكمة ٤١٧.

(٢) جامع الأخبار، السبزواري: ٢٢٧؛ البحار ٦: ٣٦ / ٥٢.

(٣) البقرة ٢: ٥١ ـ ٥٢.

(٤) البقرة ٢: ٥٤.

[١٩٣٩/٢] قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله: «فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه»(١).

[١٩٤٠/٢] وقال: «السالك الطريق إلى الله سبحانه، قد أحيا عقله وأمات نفسه»(٢).

[١٩٤١/٢] وقال: «أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة»(٣).

وهذا هو معنى قول الصادق عليه السلام فيما مرّ: «من ملك نفسه ـ لدى المشتهيات ـ حرّم الله جسده على النار»(٤).

فمن شرائط قبول التوبة هو الأخذ الشديد بزمام النفس دون جموحها أخذاً مع الأبد. وإذ قد فعل ذلك فقد قتل نفسه وجعل حدّاً دون هواها.

* * *

ودليل آخر على عدم إرادة القتل بمعنى إزهاق الروح، أن لا فائدة تعود إلى التائب لو أمر بقتل نفسه قتلاً حقيقةً، ولا موضع لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إذ لا خير لهم، أي لا مصلحة لهم في العاجل.. في حين أنّ المراد هنا هي خير الدنيا والآخرة.

وبذلك قال القاضي عبدالجبّار، قال: حقيقة القتل هي نقض البنية، ولايجوز أن يأمر الله بعبادةٍ إلّا إذا ترتّبت عليها مصلحة تعود إلى العباد في مستقبل حياتهم، وليس بعد القتل حال تكليف حتّى يكون القتل مصلحة فيه(٥).

على أنّ القتل عقوبة على الردّة ـ كما قيل ـ ولا عقوبة على النادم الآئب التائب إلى الله، ولاسيّما من قوم جاهلين. إذ لم يكن منهم ردّة، وإنّما زعموا في العجل تجلّيا لإلـهُ موسى، كما نصّ عليه القرآن: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ موسى﴾(٦). إذن فقد كانت جهالة، وقد تكرّرت منهم ذلك فيما

(١) نهج البلاغة ١: ٢١٥، الخطبة ١٠٩، و ٢: ٥٩ الخطبة ١٦٠.

(٢) المصدر، الخطبة ٢٢٠.

(٣) المصدر، الكتاب ٣١.

(٤) انظر: الفقيه ٤: ٢٥٤ / ٨٢١.

(٥) التفسير الكبير ٣: ٨١.

(٦) طه ٢٠: ٨٨.

بعد أيضاً، حيث طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثال إله: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[١]. فاكتفى بتجهيلهم ولم يعتبرهم مرتدّين عن عقائدهم وهم في بداية الأمر.

قال الأستاذ عبدالوهّاب النجّار: إنّ بني إسرائيل لم تكن أنفس أكثرهم مرتاضة بـالإيمان. وإنّهم كانوا ذوي جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ. والقوم عاشوا في مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريّين للعجل (أبيس). وكان للمصريّين عناية فائقة بعبادة هذا العجل، وكانت العجول المؤلّهة إذا ماتت حنَّطوها كما يحنَّط الآدمي بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها في مقبرة خاصّة، في جهة سقارة تسمّى «سرابيوم»[٢].

فقد كان إلف بني إسرائيل لعبادة العجلّ ـ وهم في مصر ـ قد سهّل لرجل ماكر (السامريّ) ليصنع لهم العجل ويقول لهم: هذا إلهكم وإلـهُ موسى! وما ذلك سوى انتهاز الفرصة لموضع جهالة القوم.

(١) الأعراف ٧: ١٣٨.
(٢) قصص الأنبياء: ٢١٨.

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

وهذا أيضاً موقف من مواقف بني إسرائيل التعنتيّة، يقابلون النعم بالعتوّ والكفران بدل أن يشكروها.

من ذلك موقف آبائهم إذا هم يطلبون أن يروا الله جهرةً، والّذين طلبوا هذا المستحيل هم السبعون الّذين اختارهم موسى لميقات ربّه، وإذا هم يرفضون الإيمان لموسى إلّا أن يروا الله عياناً. والقرآن يواجههم بهذا التجديف[1] الذي صدر من آبائهم، لينكشف تعنّتهم القديم الذي يشابه تعنّتهم الحاضر مع الرسول الكريم، فقد شابه الأبناء الآباءَ حذو النعل بالنعل.

نعم إنّ الدلائل والبيّنات وكذا النعم والآلاء كلّها لاتغيّر من تلك الطبيعة الجاسية[2] التي لا تؤمن إلّا بالمحسوس، والتي تظلّ مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلّا تحت وقع العذاب والتنكيل، ممّا يوحي بأنّ فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً، وليس أشدّ إفساداً للفطرة من الذلّ الذي ينشئه الطغيان الطويل، والّذي يحطّم فضائل النفس البشريّة، ويحلّل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاءٌ تحت سوط الجلّاد، وتمرّداً حين يرفع عنهم السوط، وتبطّراً حين يُتاح لها شيء من النعمة والقوّة. وهكذا كانت إسرائيل ـ وهكذا هي في كلّ حين.

قال سيّد قطب: ومن ثمّ يجدّفون هذا التجديف. ويتعنّتون هذا التعنّت:

﴿وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾...

ومن ثمّ يأخذهم الله جزاء هذا التجديف، وهم على سفح الجبل في الميقات: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

---

(١) التجديف: كفران النعم.

(٢) الصعبة القاسية.

ومرّة أُخرى تدركهم رحمة الله وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكّروا ويشكروا. ويذكّرهم هنا مواجهةً بهذه النعمة:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

[١٩٤٢/٢] قال عليّ بن إبراهيم ـ في تفسير الآية ـ: وهؤلاء هم السبعون الّذين اختارهم موسى ليسمعوا كلام الله. فلمّا سمعوا الكلام قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتّى نرى الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقة فاحترقوا، ثمّ أحياهم الله بعد ذلك وبعثهم أنبياء..[2] أي حاملين نبأ هذا الحادث إلى بني إسرائيل.

قال: فهذا دليل على [إمكان] الرجعة في أمّة محمّد ﷺ فإنّه ﷺ قال: لم يكن في بني إسرائيل شيءٌ إلّا وفي أمّتي مثلُه[3].

[١٩٤٣/٢] وهكذا روى أبو جعفر الطبري بالإسناد إلى السدّي: أنّ معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أي بعثناكم أنبياء.

قال: وتأويل الكلام على ما تأوّله السدّي: فأخذتكم الصاعقة، ثمّ أحييناكم من بعد موتكم وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إيّاكم من بعد موتكم، ثمّ بعثناكم أنبياء لعلّكم تشكرون.

قال: وزعم السدّي أنّ ذلك من المقدّم الذي معناه التأخير، والمؤخّر الذي معناه التقديم.

قال: والواجب على تأويل السدّي الذي حكيناه عنه أن يكون معنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تشكروني على تصييري إيّاكم أنبياء.

قال: وهذا تأويل يدلّ ظاهر التلاوة على خلافه، مع إجماع أهل التأويل على تخطئته[4].

[١٩٤٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام قال: «إنّهم السبعون الّذين اختارهم موسى وصاروا معه إلى الجبل، فقالوا له: إنّك قد رأيت الله فأرِناه كما رأيتَه! فقال موسى: إنّي لم أره! فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا عن

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٩٢ـ٩٣. (٢) القمّي ١: ٤٧.

(٣) راجع: إكمال الدين للصدوق ٢: ٥٧٦. والبحار ٢٨: ١٠ / ١٥. وسنتكلّم عن حديث الرجعة في مجال متناسب إن شاء الله. (٤) الطبري ١: ٤١٥ / ٨٠٤ـ٨٠٥.

آخرهم، وبقي موسى وحيداً، فقال: يا ربّ اخترتُ سبعين رجلاً من بني إسرائيل فجئتُ بهم وأرجعُ وحدي، فكيف يصدّقني قومي بما أخبرهم به؟! فلو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا؟! فأحياهم الله من بعد موتهم»[1].

وقال أبو جعفر الطبري: واذكروا أيضاً إذ قلتم يا موسى لن نصدّقك ولن نقرّ بما جئتنا به حتّى نرى الله جهرةً: عياناً، برفع الساتر بيننا وبينه وكشف الغطاء دوننا ودونه حتّى ننظر إليه بأبصارنا، كما تجهر الركيّة، وذلك إذا كان ماؤها قد غطّاه الطين، فنُفي ما قد غطّاه حتّى يظهر الماء ويصفو، يقال: منه: قد جهرت الركيّة، أجهرها جهراً وجهرةً. ولذلك قيل: قد جهر فلان بهذا الأمر مجاهرة وجهاراً، إذا أظهره لرأي العين وأعلنه، كما قال الفرزدق:

من اللائي يضلّ الإلف منه … مسيخاً من مخافته جهاراً[2]

[١٩٤٥/٢] وروى بالإسناد إلى ابن جريج، قال: قال ابن عبّاس: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية.

[١٩٤٦/٢] وعن عبدالله بن أبي جعفر، عن أبيه عن الربيع: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ يقول: عياناً.

[١٩٤٧/٢] وعن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: حتّى يَطْلَعَ إلينا.

[١٩٤٨/٢] وعن قتادة: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي عياناً.

فذكّرهم بذلك ـ جلّ ذكره ـ اختلاف آبائهم وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله ـ جلّ وعزّ ـ وعِبرَه ما تثلج بأقلّها الصدور[3]، وتطمئنّ بالتصديق معها النفوس؛ وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم. وهم مع ذلك مرّة يسألون نبيّهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله، ومرّة يعبدون العجل من دون الله، ومرّة يقولون: لا نصدّقك حتّى نرى الله جهرة، وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[4] ومرّة

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ١٤٤ / ١، باب ١٢؛ التوحيد: ٤٢٤ / ١، باب ٦٥؛ البحار ١٠: ٣٠٥ / ١، باب ١٩.

(٢) المسيخ: الممسوخ، المشوّه الخلق. ومن الطعام: ما لا طعم له. الأحمق... يعني: الأليف يضلّ منه حائراً مشوّش البال علانية.

(٣) يريد ما تثق به وتسكن إليه.

(٤) المائدة ٥: ٢٤.

يقال لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾[1] فيقولون: حنطة في شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاههم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيّهم ﷺ التي يكثر إحصاؤها. فأَعْلَم ربُّنا ـ تبارك وتعالى ذكره ـ الّذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الّذين كانوا بين ظهرانيّ مهاجر رسول الله ﷺ أنّهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمّداً ﷺ، وجحودهم نبوّته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره، كأسلافهم وآبائهم الّذين فصّل عليهم قصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرّة بعد أخرى، وتوثّبهم على نبيّهم موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تارة بعد أخرى، مع عظيم بلاء الله ـ جلّ وعزّ ـ عندهم وسبوغ آلائه عليهم.

قال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

اختلف أهل التأويل في صفة الصاعقة التي أخذتهم. فقال بعضهم بما:

[١٩٤٩/٢] روى عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قال: ماتوا.

[١٩٥٠/٢] وعن الربيع: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قال: سمعوا صوتاً فصعقوا. يقول: فماتوا.

وقال آخرون بما:

[١٩٥١/٢] عن أسباط، عن السدّي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والصاعقة: نار.

وقال آخرون بما:

[١٩٥٢/٢] روي عن ابن إسحاق، قال: أخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعاً.

وأصل الصاعقة: كلّ أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه حتّى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغُمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم، صوتاً كان ذلك، أو ناراً، أو زلزلة، أو رَجْفاً.

وممّا يدلّ على أنّه قد يكون مصعوقاً وهو حيّ غير ميّت، قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً﴾[2] يعني مغشيّاً عليه. ومنه قول جرير بن عطية:

---

(١) الأعراف ٧: ١٦١.

(٢) الأعراف ٧: ١٤٣.

وهل كان الفـرزدق غـير قـرد   أصابته الصواعق فـاستدارا[١]

فقد علم أنّ موسى لم يكن حين غُشي عليه وصعق ميّتاً؛ لأنّ الله ـ جلّ وعزّ ـ أخبر عنه أنّه لمّا أفاق قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[٢]. ولا شبّه جريرٌ الفرزدقَ وهو حيّ بالقرد ميّتاً، ولكن معنى ذلك ما وصفنا.

ويعني بقوله: ﴿وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يـقول: أخـذتكم الصاعقة عياناً جهاراً وأنتم تنظرون إليها[٣].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

يعني بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ ثمّ أحييناكم. وأصل البعث: إثارة الشيء من محلّه، ومنه قيل: بعث فلان راحلته: إذا أثارها من مبركها للسير، كما قال الشاعر:

فأبعثها وهـي صـنيع حـول   كرُكن الرعن ذعلبة وقاحا[٤]

والرعن: منقطع أنف الجبل، والذعلبة: الخفيفة، والوقاح، الشديدة الحافر أو الخفّ. ومن ذلك قيل: بعثت فلاناً لحاجتي: إذا أقمته من مكانه الذي هو فيه للتوجّه فيها.

ومن ذلك قيل ليوم القيامة: يوم البعث، لأنّه يوم يُثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب.

ويعني قوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما أوليتكم من نعمتي عليكم بإحيائي إيّاكم استبقاءً منّي لكم لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم بعد إحلالي العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربّكم.

وهذا القول على تأويل من تأوّل قوله قول ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ ثمّ أحييناكم.

---

(١) ديوانه (ص ٢٠٩) من قصيدة أوّلها:

ألا حيّ الديار بسـعد إنّـي   أُحب لحبّ فاطمة الديـارا

وبعد البيت الذي ذكره الطبري:

وكنت إذا حـللت بـدار قـوم   رحلت بخزية وتـركت عـارا

وقوله: «استدار» يعني تحوّل إنساناً بعد أن كان قرداً. (٢) الأعراف ٧: ١٤٣.

(٣) الطبري ١: ٤١٢ ـ ٤١٤.

(٤) أبعثها: يعني ناقته. وصنيع حول: يعني رعت حولاً حتّى سمنت.

وقال آخرون:

[١٩٥٣/٢] معنى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أي بعثناكم أنبياء. حدّثني بذلك موسى بن هارون بإسناده عن السدّي.

قال أبوجعفر: وتأويل الكلام على ما تأوّله السدّي: فأخذتكم الصاعقة، ثمّ أحييناكم من بعد موتكم، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إيّاكم من بعد موتكم، ثمّ بعثناكم أنبياء لعلّكم تشكرون. وزعم السدّي أنّ ذلك من المقدّم الذي معناه التأخير، والمؤخّر الذي معناه التقديم.

وهذا تأويل يدلّ ظاهر التلاوة على خلافه مع إجماع أهل التأويل على تخطئته. والواجب على تأويل السدّي الذي حكيناه عنه أن يكون معنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكروني على تصييري إيّاكم أنبياء[1].

[١٩٥٤/٢] وعن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ قال: أخذتهم الصاعقة، ثمّ بعثهم الله تعالى ليكملوا بقيّة آجالهم[2].

[١٩٥٥/٢] وعن الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قال: هم السبعون الّذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا. يقول: ماتوا. فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ فبعثوا من بعد موتهم؛ لأنّ موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقيّة آجالهم[3].

* * *

ولأبي جعفر الطبري هنا روايات لاتخلو من تشويش واضطراب في المتن نذكرها كمايلي:

[١٩٥٦/٢] روى بإسناده عن محمّدبن إسحاق، قال: لمّا رجع موسى إلى قومه، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامريّ ما قال، وحرّق العجل وذرّأه في اليمّ؛ اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخيّر فالخيّر، وقال: انطلقوا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فتوبوا إليه ممّا صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهّروا وطهّروا ثيابكم! فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربّه، وكان لا يأتيه إلّا بإذن منه وعلم. فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما

---

(١) تقدّم الحديثان. الطبري ١: ٤١٥.

(٢) الطبري ١: ٤١٨/ ٨٠٩.

(٣) المصدر.

أمرهم به وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلى ربّك لنسمع كلام ربّنا! فقال: أفعل. فلمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتّى تغشّى الجبل كلّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلّمه ربُّه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرب دونه الحجاب. ودنا القوم حتّى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً. فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلمّا فرغ من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾. ﴿فلمّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[1] وهي الصاعقة فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربّه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾[2] وقد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما تفعل السفهاء منّا؟ أي أنّ هذا لهم هلاك، اخترت منهم سبعين رجلاً، الخيّر فالخيّر ارجع إليهم، وليس معي منهم رجل واحد، فما الذي يصدّقوني به أو يأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[3]. فلم يزل موسى يناشد ربّه ـ عزّ وجلّ ـ ويطلب إليه، حتّى ردّ إليهم أرواحهم، فطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلّا أن يقتلوا أنفسهم[4].

[١٩٥٧/٢] وعن السدّي: لمّا تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثمّ ذهب بهم ليعتذروا. فلمّا أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ فإنّك قد كلّمته فأرناه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾[5]. فأوحى الله إلى موسى: إنّ هؤلاء السبعين ممّن اتخذ العجل، فذلك حين يقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً

(١) الأعراف ٧: ١٥ٵ. (٢) الأعراف ٧: ١٥٥.

(٣) الأعراف ٧: ١٥٦. (٤) الطبري ١: ٤١٦/٨٠٦.

(٥) الأعراف ٧: ١٥٥.

وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1] وذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾. ثمّ إنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ أحياهم، فقاموا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فقالوا: يا موسى أنت تدعو الله فلا تسأله شيئاً إلّا أعطاك، فادعه يجعلنا أنبياء! فدعا الله تعالى، فجعلهم أنبياء، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[2].

[١٩٥٨/٢] وعن ابن زيد، قال: قال لهم موسى لمّا رجع من عند ربّه بالألواح، قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إنّ هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمره الذي أمركم به، ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتّى نرى الله جهرة، حتّى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه! فماله لا يكلّمنا كما يكلّمك أنت يا موسى؟ فيقول: هذا كتابي فخذوه! وقرأ قول الله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فجاءت غضبة من الله ـ عزّ وجلّ ـ فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثمّ أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله! فقالوا: لا، فقال: أيّ شيء أصابكم؟ قالوا: أصابنا أنّا مِتنا ثمّ حُيينا. قال: خذوا كتاب الله! قالوا: لا. فبعث الله تعالى ملائكة، فنتقت الجبل فوقهم[3].

وهكذا روى ابن أبي حاتم مايقارب روايات أبي جعفر.

[١٩٥٩/٢] فروى بالإسناد إلى عبّاد بن إسحاق عن أبي الحُويرث عن ابن عبّاس أنّه قال في قول الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي علانية، أي حتّى نرى الله!

[١٩٦٠/٢] وعن قتادة في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً. قال أبو محمّد: وكذا فسّره الربيع بن أنس: عياناً.

[١٩٦١/٢] وعن محمّد بن شعيب بن شابور قال سمعت عدوة بن رُويم يقول: سأل بنو إسرائيل موسى فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخبرهم أنّهم لن يطيقوا ذلك، فأبوا، فسمعوا من كلام الله فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثمّ بعث هؤلاء وصعق هؤلاء..

(١) الأعراف ٧: ١٥٦.
(٢) الطبري ١: ٤١٦ـ٤١٧ / ٨٠٧.
(٣) المصدر: ٤١٧ / ٨٠٨.

قال: والسياق لمحمد(١).

[١٩٦٢/٢] وعن السدّي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا. فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فأوحى الله إلى موسى أنّ هؤلاء السبعين ممّن اتّخذوا العجل! ثمّ إنّ الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. قال: فذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾(٢).

[١٩٦٣/٢] وقال: في حديث عيسى بن يونس: ثمّ بُعث الّذين صُعقوا، وصعق الآخرون، ثمّ بُعثوا، فقال الله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

[١٩٦٤/٢] وبإسناده عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: أخذتهم الصاعقة أي ماتوا.

[١٩٦٥/٢] وعن الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قال: هم السبعون الّذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول ماتوا.

[١٩٦٦/٢] وعن السدّي: قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والصاعقة نار.

[١٩٦٧/٢] وعن ابن محيصن عن أبيه قال: رأيت مروان بن الحكم على منبر مكّة فسمعته يقول وهو يخطب: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والصاعقة من السماء، صيحة من السماء.

[١٩٦٨/٢] وعن محمّدبن شعيب بن شابور قال سمعت عروة بن رُويم يقول: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضكم وبعض ينظرون.

[١٩٦٩/٢] وعن قتادة: قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ثمّ بعثهم الله ليُكملوا بقيّة آجالهم.

[١٩٧٠/٢] وعن الربيع بن أنس: قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ فبعثوا من بعد موتهم؛ لأنّ

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١١١ / ٥٣٤ـ٥٣٦.

(٢) المصدر: ١١٣ / ٥٤٥.

موتهم ذلك كان عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليوفوا آجالهم[١].

* * *

وعلى غرارهما مشى الثعلبي في تفسيره للآيات، قال في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ الآية: وذلك أنّ الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار سبعين رجلاً من خيارهم، وقال لهم: صوموا وتطهّروا وطهّروا ثيابكم، ففعلوا ذلك، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربّه، فلمّا وصل ذلك الموضع قالوا: اطلب لنا نسمع كلام ربّنا، فقال: أفعل، فلمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشّى الجبل كلّه فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلّمه ربّه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتّى دخلوا في الغمام وخرّوا سجّداً، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، وأسمعهم الله تعالى: إنّي أنا الله لا إلـه إلّا أنا ذو بكّة[٢] أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري. فلمّا فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾: (معاينة. وذلك أنّ العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: جهرة، ليُعلم أنّ المراد منه العيان)[٣].

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وهي نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم جميعاً.

وقال وهب: أرسل الله عزّ وجلّ عليهم جنداً من السماء فلمّا سمعوا بحسّها ماتوا يوماً وليلة. والصاعقة: المهلكة. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ﴾ لن نصدّقك ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾.

قرأه العامّة بجزم الهاء، وقرأ ابن عبّاس: «جَهَرة» بفتح الهاء، وهما لغتان مثل زَهْرة وزَهَرة.

﴿جَهْرَةً﴾ أي معاينة بلا ساتر بيننا وبينه، وأصل الجهر من الكشف. قال الشاعر:

يُجهر أجواف المياه السُّدَّم[٤].

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قرأ عمر وعثمان وعليّ: «الصعقة» بغير ألف، وقرأ الباقون «الصاعقة» بالألف وهما لغتان.

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١١٢ / ٥٣٧ ـ ٥٤٤. وهكذا ورد في تفسير عبدالرزّاق: «ليكملوا بقيّة آجالهم» (١: ٢٧٠ / ٥٣).

(٢) أي ذو قوّة.

(٣) التكميل من البغوي ١: ١١٩.

(٤) والسُّدَّم: المندفن تحت الأرض.

﴿وَ أَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وذلك أنّهم لمّا هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرّع ويقول: يا ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ولو شئت أهلكتهم من قبل، ويا ربّي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّآ﴾ فلم يزل يناشد ربّه حتّى أحياهم الله تعالى جميعاً رجلاً بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لتستوفوا بقيّة آجالكم وأرزاقكم، وأصل البعث: إثارة الشيء من مكمنه يقال: بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث[1].

* * *

[١٩٧١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ أنعم الله عليهم فبعثهم وذلك أنّهم لمّا صعقوا قام موسى يبكي وظنّ أنّهم إنّما صعقوا بخطيئة أصحاب العجل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّا﴾ وقال: يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعتُ إليهم وقد أهلكتَ أحبارهم! فبعثهم الله ـ عزّ وجلّ ـ لما وَجِدَ موسى من أمرهم[2]. فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول لكي تشكروا ربّكم في هذه النعمة، فبُعثوا يوم ماتوا[3].

ثمّ يذكر حديث رجوع موسى مع السبعين إلى قومه ليجدهم قد اتّخذوا العجل وعتوا عن أمر ربّهم. وقد تقدّم ذلك، الأمر الذي يناقض ما أورده الطبري وابن أبي حاتم والثعلبي هنا من كون الخروج بالسبعين كان بعد وقعة العجل. ولعلّنا نعالج هذا الجانب في فصل قادم.

هل يصحّ التكليف بعد الرجعة؟

قد يستشكل التكليف بشأن من بعثه الله بعد موته، وعاين ما يُلجؤه إلى معرفته تعالى، إذ لا تكليف بعد كمال المعرفة!

قال الشيخ: وهل يجوز أن يردّ الله أحداً إلى التكليف بعد أن مات وعاين ما يضطرّه إلى معرفته بالله؟

---

(١) الثعلبي ١: ١١٩ ـ ٢٠٠.

(٢) أي حزن.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٠٥.

قال: في ذلك خلاف؛ قال أبو عليّ: لايجوز ذلك إلّا على من لم يضطرّه الله إلى معرفته. وقال بعضهم: يجوز التكليف في الحكمة، وإن اضطُرّ إلى المعرفة. قال: وقول أبي عليّ أقوى.

قال: وأعلّ الرمّانيّ[١] قول أبي عليّ الجبّائيّ، قال: لمّا كان الشكر على النعمة يجب في المشاهد، مع الضرورة إلى معرفة المنعم، كان الشكر للنعمة[٢] التي هي أجلّ من نعمة كلّ منعم في الشاهد أولى أن تجب مع الاضطرار إلى المعرفة[٣].

ووجه القول الأوّل: أنّ الغرض من الطاعات لمّا كان هي المعرفة، فلو حصلت ارتفع الغرض فارتفع التابع له. كما أنّ الغرض من الشرائع هو الاستصلاح في الأصول التي تجب في العقول، فلو ارتفع ذلك الغرض ـ أي حصل بالفعل ـ ارتفع وجوب العمل بالشرع[٤].

وعمدة هذا الوجه: أنّ الغرض من التكليف هي المعرفة وحصول الكمال العقلاني، فإذا حصلت الغاية، فلا موجب للتكليف.

وأجيب بأنّ الحكمة في التكليف هو التعالي في الكمال، ويتزايد بتزايد درجات الطاعة، ومن ثمّ كان أصحاب الكمال في المعرفة ـ كالإمام أميرالمؤمنين القائل:

[١٩٧٢/٢] «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» كانوا أشدّ اجتهاداً في الطاعة والعبادة! وإنّما وجدوا الله أهلاً للعبادة فعبدوه.

[١٩٧٣/٢] كما قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «ولكن وجدتُك أهلاً للعبادة فعبدتك»[٥]. بل هو القائل: «كيف أعبد ربّاً لم أره.»[٦].

كان عليه السلام على كمال المعرفة، ومع ذلك كان أشدّ الناس اجتهاداً في عبادة الله سبحانه وتعالى.

وأيضاً فإنّ العبادة أداء للشكر الواجب على جزيل الإفضال والإنعام. ولا نعمة أفضل من التكريم بكمال العرفان. وهذه هي عبادة الأحرار.

---

(١) أي رآه عليلاً غير مستقيم.

(٢) وهي نعمة الرجعة إلى الحياة ليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الآثام.

(٣) وجه الاستدلال: أنّ العمل بالتكليف شكر على النعماء. قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ ٣٤: ١٣).

(٤) التبيان ١: ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٥) البحار ٤١: ١٤.

(٦) نقلاً بالمعنى، البحار ٦٩: ٢٧٩.

[١٩٧٤/٢] كما قال عليّ عليه السلام: «وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[١].

* * *

وقد مال الإمام الرازي إلى رأي أبي عليّ الجبّائي وأنّه بعد العلم الضروري لاتكليف، فإذا كان المانع هو هذا، لم يمتنع في هؤلاء الّذين أماتهم بالصاعقة أن لايكون قد اضطرّهم إلى المعرفة، إذ كانوا في غفوة من ذلك، ويكون موتهم ثمّ الإحياء بمنزلة النوم أو الإغماء[٢].

وهكذا قال الشيخ في التبيان، قال ـ دعماً لمذهب أبي عليّ ـ: ولأبي عليّ أن يقول: لا نمنع من الوجوب، لكن لايجوز التكليف، لأنّ الغرض المعرفة ـ أي هي أصل ما وقع التكليف به للعباد ـ وقد حصلت.

قال: والذي أقوله: إنّ الّذي يُحيَى بعد الإماتة، إن كان لم يحصل له المعرفة الضروريّة ولم يُضطرّ إليها، فإنّه لايمتنع تكليفه، إذ ليس الإحياء بعد الإماتة ـ حينذاك ـ إلّا كالانتباه من النوم والإفاقة بعد الغشية، فإنّ ذلك لايوجب علم الاضطرار[٣].

وللشيخ تقريب آخر لجواز التكليف وعدم حصول المعرفة، قال: لأنّ العلم بأنّ الإحياء بعد الإماتة، هو من صنعه تعالى، لايحصل إلّا بعد التفكّر والتحقيق لمن كان من أهله. إذ طريق الاستدلال وقيام الحجّة الباهرة، حيث كانت من غوامض الدلائل وليست من كواشفها الواضحة لكلّ أحد. وعليه فليس مجرّد الإحياء بعد الإماتة ممّا يوجب العلم لمن أحياه الله، بأنّ ذلك من صنعه تعالى، فلايكون مضطرّاً إلى المعرفة ولايوجب بلوغ الكمال.

قال: فلذلك يصحّ تكليفه كما في المنتبه بعد المنام أو المفيق بعد الغشية[٤].

قلت: والأرجح في النظر: أنّ أمثال الآيات التي وقعت في مشاهد من بني إسرائيل والتي منها إحياء السبعين من خيارهم، إنّها لكانت كافية لتنبّه سائر الأمم الصاحية الواعية. لا لأمّة عاصية عاتية، قد أشرب في قلوبهم العجل سفهاً وحمقاً. فأين المعرفة وكمالها بشأنهم بالذات، والبون بعيد والمسافة شاسعة.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٥٣، الحكمة ٢٣٧.

(٢) التفسير الكبير ٣: ٨٦ ـ ٨٧.

(٣) التبيان ١: ٢٥٤.

(٤) المصدر.

وقفة عند مسألة الرؤية

لعلّنا في مجال آخر نبحث عن مسألة الرؤية بتفصيل، غير أنّا رأينا من المناسب أن نقف عند مسألة الرؤية هنا وقفة قصيرة، حيث فصّلنا الكلام عنها في كتابنا التمهيد(١)، وإليك طرفاً منه:

ذهب الإمام أبوالحسن الأشعري في كتابيه: اللمع والإبانة، إلى جواز رؤية الله ـ سبحانه ـ في الآخرة رؤيةً بالأبصار.

واستند في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢). قال: يعني رائية. إذ ليس يخلو النظر من وجوه ثلاثة، إمّا نظر الاعتبار كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(٣). أو نظر الانتظار كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾(٤). أو نظر الرؤية.

أمّا الأوّل فلايجوز، لأنّ الآخرة ليست بدار اعتبار.

وكذا الثاني، لأنّ النظر إذا ذكر مع الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه. ولأنّ نظر الانتظار لايقرن «إلى».

وتشبّث أيضاً بحديث موسى وسؤال الرؤية. إذ لايجوز أن يكون موسى ﷺ سأل ربّه المستحيل(٥).

وسبقه إلى ذلك أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي في رسالةٍ ردّ بها على الجهميّة، حشاها بأخبار زعمها صريحة في الدلالة على إثبات رؤية الله في الآخرة.

منها:

[١٩٧٥/٢] ما رواه عن شيخ بغدادي لايعرفه بالإسناد إلى أنس بن مالك قال: يتجلّى ربُّنا لأهل الجنّة في كلّ جمعة، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٦).

[١٩٧٦/٢] وبإسناد آخر فيه ضعف وجهالة عن جابر بن عبدالله الأنصاري يحكي ـ فيما زعم ـ حالة المسلمين يوم القيامة، قال: «ونحن على كوم إذ يأتينا ربّنا فيقول: ماذا تنتظرون؟ فنقول: ننتظر ربّنا! فيقول: ها أنا ربُّكم! فنقول: حتّى ننظر إليك! فيتجلّى لنا وهو يضحك، فنتبعه إلى الجنّة.

---

(١) الجزء الثالث: ٧٧ ـ ٩٧.

(٢) القيامة ٧٥: ٢٣.

(٣) الغاشية ٨٨: ١٧.

(٤) يس ٣٦: ٤٩.

(٥) راجع كتابيه الإبانة: ٢٥ واللمع: ٦١.

(٦) سورة ق ٥٠: ٣٥.

[١٩٧٧/٢] وروى عن أبي بكر ـ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] قال: الزيادة، النظر إلى وجه الله[2].

وتبعهما السلفيّون ابن تيميّة وأذنابه.

قال ابن كثير: وأفضل ما ينعم به أهل الجنّة وأعلاه هو النظر إلى وجهه الكريم، وقد روي في ذلك عن أبي بكر الصدّيق وحذيفة وابن عبّاس وسعيدبن المسيّب وعبدالرحمان بن أبي ليلى وعبدالرحمان بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامربن سعد وعطاء والضحّاك والحسن وقتادة والسدّي ومحمّد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة[3].

[١٩٧٨/٢] وقال الآلوسي ـ في تفسير الزيادة ـ: وهي النظر إلى وجه ربّهم الكريم. قال: وهو التفسير المأثور عن أبي بكر وعليّ ـ كرّم الله تعالى وجهه ـ وابن عبّاس وحذيفة وابن مسعود وأبي موسى الأشعري. وروي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ من طرق شتّى.

[١٩٧٩/٢] وقد أخرج الطيالسي وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبّان وأبو الشيخ والدار قطني وابن مردويه والبيهقي، عن صُهَيب: أنّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية فقال:... فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فلا شيء أحبّ ولا أقرّ لأعينهم من النظر إليه سبحانه[4].

* * *

وعارضهم أهل العدل والتنزيه بامتناع رؤية الله بالأبصار إطلاقاً، لا في هذه الحياة ولا في الآخرة، حيث استلزامها التحيّز والمقابلة والجهة والمكان، مضافاً إلى مخالفتها لصريح القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[6].

والتحيّز والمقابلة من لوازم الجسميّة المستدعية للتشبيه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

إنّ النظر إلى الشيء بالعين، عبارة عن إشعاع نوري يحيط بجسم المرئي الواقع في جهة مقابلة

(١) يونس ١٠: ٢٦.
(٢) راجع: رسالة الردّ على الجهميّة: ٤٥ ـ ٥٨.
(٣) راجع: تفسير ابن كثير ٢: ٤١٤.
(٤) راجع: روح المعاني ١١: ٩١.
(٥) الأنعام ٦: ١٠٣.
(٦) الشورى ٤٢: ١١.

عين الرائي، فتنطبع فيها صورته الخارجيّة.

هذه هي حقيقة الرؤية بالعين، المستدعية للتقابل مع الشيء المرئي تقابلاً بالتحيّز، كلٌّ في جهة. وهذا تجسيم يستدعي تشبيها بخلقه، تعالى الله عن ذلك.

وأجاب الأشعري عن آية الأبصار بأنّه من المحتمل أن يراد: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه في الآخرة. أو يراد: لا تدركه أبصار الكافرين المكذّبين[(١)].

قلت: لعلّ من الواضح البيّن أنّ شيخ الأشاعرة ارتكب تأويلاً باهتاً وحوّر وجه الآية إلى غير وجهها الوجيه، ومن غير ضرورة تدعوه إلى هذا الارتكاب الغريب، الّذي هو أشبه بالتفسير بالرأي المقيت!

يا تُرى، كيف يصرف إطلاق وجه الآية ويحوّلها إلى ما لا دلالة عليه، لا من العقل الرشيد ولا من النقل السديد!

ولعلّه استند إلى رواية مجهولة الإسناد حسبها مرفوعة إلى المعصوم، ممّا دعى بمثل الزمخشري أن يسخر منه ويصفها بالمرقوعة ـ بالقاف ـ أي المفتراة، لا تصدر إلّا عن رقيع[(٢)] قال: وزعمت المشبّهة والمجبّرة[(٣)] أنّ الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى.

[١٩٨٠/٢] وجاءت بحديث مرقوع: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نودوا: يا أهل الجنّة! فيكشف الحجاب فينظرون إليه. فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحبّ إليهم منه»[(٤)].

والحديث رواه مسلم وغيره بالإسناد إلى حمّاد بن سَلَمة عن ثابت البُنَاني عن عبدالرحمان بن أبي ليلى عن صُهَيب عن رسول الله ﷺ[(٥)].

---

(١) راجع: الإبانة: ٣٠.

(٢) راجع: روح المعاني للآلوسي ١١: ٩١. يقال: رَقُعَ رَقَاعَةً: حَمُق وكان قليل الحياء، فهو رقيع وأرقع.

(٣) قال الشيخ محمّد عليان: يريد أهل السنّة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة (هامش الكشّاف ٢: ٣٤٢).

(٤) الكشّاف ٢: ٣٤٢.

(٥) مسلم ١: ١١٢ باب إثبات رؤية المؤمنين ربّهم في الآخرة؛ مسند أحمد ٤: ٣٣٢ و ٦: ١٦؛ الترمذي ٥: ٢٨٦ تفسير سورة يونس؛ ابن ماجة ١: ٨١ باب فيما أنكرت الجهمية من المقدّمة.

غير أنّ هذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ قد وقع مورد نقاش أهل العلم، قال أبو عيسى الترمذي: هذا الحديث رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبدالرحمان بن أبي ليلى مقتصراً عليه. ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبي ﷺ[1].

وهكذا نرى أبا جعفر الطبري يروي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله، عن جماعة منهم أبوبكر وعامربن سعد وحذيفة وأبو موسى الأشعري وابن أبي ليلى. ويروي عن حمّاد عن ثابت عن عبدالرحمان بن أبي ليلى أنّه قال: الزيادة النظر إلى وجه ربّهم. وهكذا روى بالإسناد إلى سليمان بن المغيرة عن ثابت عن ابن أبي ليلى. قال: روي ذلك بعدّة طرق كلّها موقوفة على عبدالرحمان من غير رفعه إلى صهيب عن النبي ﷺ[2].

الأمر الذي جعل العلماء في ريب من رفع الحديث إلى النبيّ ﷺ ولا سيّما وثابت بن أسلم البُناني كان قد اختلط في الحديث، ومن ثمّ تركه أيّوب ولم يكتب عنه. وفي سؤالات أبي جعفر البغدادي لأحمدبن حنبل: سُئل أحمد عن ثابت وحميد أيّهما أثبت في أنس؟

فقال: قال يحيى بن سعيد القطّان: ثابت اختلط. وحميد أثبت منه. وفي الكامل لابن عديّ عن القطّان: كان أيّوب يدع ثابتاً البُنانيّ لايكتب عنه[3].

وأمّا حمّاد بن سَلَمة فقد اتّهم بكثرة الوضع عليه ولاسيّما ربيبه ابن أبي العوجاء كان يدسّ في كتبه. وقد اجتنب البخاري حديث حمّاد لذلك. قال الذهبي: حمّاد بن سلمة ثقة وكانت له أوهام، وتحايَدَه البخاري. وقال أبو الفضل بن طاهر: إنّ مسلماً أخرج أحاديث أقوام ترك البخاري أحاديثهم، منهم حمّادبن سَلَمة. وعن الأعمش قال: حدّثني حمّاد بحديث عن إبراهيم ـ وكان مرجئاً ـ وكان ـ أي حمّاد ـ غير ثقة. وقال الأعمش مرّة: حدّثنا حمّاد وما كنّا نصدّقه.

ولعلّ من أوهامه أحاديثه المنكرة في الصفات، ذكر بعضها الذهبيّ شواهد على نكارة أحاديثه. منها حديث تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله.

[١٩٨١/٢] ومنها حديثه عن ثابت عن أنس مرفوعاً ـ في قوله تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: أخرج طرف خنصره، وضرب على إبهامه، فساخ الجبل!

---

(١) الترمذي ٥: ٢٨٦ / ٣١٠٥.

(٢) راجع: الطبري ١١: ٧٤ـ ٧٥.

(٣) تهذيب التهذيب ٢: ٣؛ الكامل لابن عدي ٢: ٣٠٦.

قال: فقال حميد الطويل ـ خال حمّاد ـ لثابت: تحدّث بمثل هذا؟! قال حمّاد: فضرب ثابت في صدر حميد وقال: يقوله أنس ويقوله رسول الله، وأنا أكتمه؟

[١٩٨٢/٢] وروى حمّاد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عبّاس مرفوعاً: رأيتُ ربّي جَعْداً أمرد، عليه حلّة خضراء!

[١٩٨٣/٢] وأيضاً عنه: أنّ محمّداً رأى ربّه في صورة شابٍّ أمرد، دونه ستر من لؤلؤ قدميه أو رجليه في خضرة! وهكذا في ستّة أحاديث متماثلة.

قال الذهبي: فهذا من أنكر ما أتى به حمّاد بن سلمة(١).

قلت: وكم له من مناكير لعلّها ممّا دُسّ عليه أو التبس عليه مادام مثل ابن أبي العوجاء كان في أحضانه.

* * *

ومن ثمّ فلا تكاد تستغرب لو عرفت من البخاري تركه التحدّث عنه، ولا سيّما حديث الرؤية، وفسّر الزيادة ـ كما فسّرها مجاهد ـ بالمغفرة.

[١٩٨٤/٢] قال في تفسير سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: للذين أحسنوا الحسنى مثلها حسنى. وزيادةٌ: مغفرةٌ(٢).

قال الإمام الرازي: يجب أن تكون الزيادة من جنس المزيد عليه(٣). كما في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾(٤).

[١٩٨٥/٢] وكذا روي عن عليّ ـ عليه السلام ـ: زيادة في المثوبة.

فالزيادة هنا هي مضاعفة الحسنات وبقرينة ذيل الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾(٥). فهي نظيرة قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾(٦). والقرآن يفسّر بعضه بعضاً.

---

(١) راجع: ميزان الاعتدال ١: ٥٩٣ ـ ٥٩٤ / ٢٢٥١، وتهذيب التهذيب ٣: ١٣ ـ ١٤، والكامل لابن عديّ ٣: ٣٥.

(٢) البخاري ٥: ٢١١.

(٣) التفسير الكبير ١٧: ٧٨.

(٤) فاطر ٣٥: ٣٠.

(٥) يونس ١٠: ٢٧.

(٦) الأنعام ٦: ١٦٠.

والتفسير بزيادة المثوبة هو المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وعن كبار الصحابة والتابعين بأسانيد جياد[١].

* * *

وبعد فلعلّك أيّها القارئ النبيه عرفت السرّ في تهجين الزمخشري لحديث الرؤية ووصفه بالمرقوع، أي المرقَّع بترقيع أوصال مزاعمهم في التجسيم[٢]!

أمّا ما تشبّث به من الآية الكريمة وتشقيقه الوجوه الثلاثة، فلعلّه غفل عن وفرة اقتران نظر الانتظار والتوقّع بـ «إلى» كثيراً في الشعر وغيره وهذا هو المراد في الآية الكريمة، فإنّهم ينتظرون رحمته ويتوقّعونها فور حضورهم لديه سبحانه.

يقال: نظري إليك، أي رجائي منقطع عمّن سواك، متلهّف لبلوغ عنايتك. كما قال الشاعر:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحرُ دونك زدتني نعماً

وقال آخر:

إنّي إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغنيّ الموسر

ولم يقصدا سوى التوقّع والانتظار لنيل فضله، انتظاراً بكلّ الوجود، كما في الآية.

قال الزمخشري: سمعت سرويّة مستجدية بمكّة وقت الظهر، حين غلق الناس أبوابهم وأووا إلى مقائلهم، تقول: «عُيَيْنتي نُوَيْظرة إلى الله وإليكم»، تقصد راجية ومتوقّعة لإحسانهم إليها. وقال: قولهم: أنا أنظر إلى الله ثمّ إليك، معناه: أتوقّع فضل الله ثمّ فضلك[٣].

ومن ذلك أيضاً قول شاعرهم:

وجوه يوم بكر ناظرات إلى الرحمان تنتظر الفلاحا

قال الإمام الرازي: أثبت النظر المقرون بحرف «إلى» مع أنّ الرؤية ما كانت حاصلة[٤].

* * *

---

(١) راجع: التمهيد ٣: ٨٧.

(٢) يقال: هو صاحب ترقيع وتوصيل، لمن كان يزيد في حديثه ويأتي فيه برقعات.

(٣) الكشّاف ٤: ٦٦٢ وأساس البلاغة للزمخشري ٢: ٤٥٦.

(٤) التفسير الكبير ٣٠: ٢٧٧.

قال الأستاذ أحمد أمين: وقد كانت نظرة المعتزلة في توحيد الله نظرة في غاية السموّ والرفعة، فطبّقوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أبدع تطبيق وفصّلوه خير تفصيل وحاربوا الأنظار الوضعيّة من مثل أنظار المجسّمة الّذين جعلوا لله تعالى جسماً، له وجه ويدان وعينان. وغاية ما قاله أعقلهم[1]: أنّه جسم لا كالأجسام وله وجه لا كالوجوه ويد لا كالأيدي. وقالوا: بأنّ له جهة هي الفوقيّة، وأنّه يُرَى بالأبصار وأنّ له عرشاً يستوي عليه. إلى آخر ما قالوا ممّا ينطبق على الجسميّة.

قال: فأتى المعتزلة وسَمَوْا على هذه الأنظار، وفهموا من روح القرآن تجريد الله عن المادّيّة، فساروا في تفسيرها تفسيراً دقيقاً واسعاً، وأوّلوا ما يخالف هذا المبدأ. وسلسلوا عقائدهم تسلسلاً منطقيّاً؛ فإذا كان تعالى ليس مادّة، ولا مركّباً من مادّة، فليس له يدان ولا وجه ولا عينان، لأنّ ذلك يدلّ على جزء من كلّ. والله تعالى ليس كلاً مركّباً من أجزاء، وإلّا كان مادّة، وإذا كان كذلك فليست تدركه عيونُنا التي خُلقت وليس في قدرتها إلّا أن ترى ما هو مادّة وما هو في جهة.

قال: وعلى كلّ حال كان مسلك المعتزلة مسلكاً لابدّ منه، لأنّه أشبه بردّ فعل لحالة بعض العقائد في زمنهم. لقد قرّروا سلطان العقل وبالغوا فيه أمام من لا يُقرّ للعقل بسلطان، بل يقول: نقف عند النصّ. وهكذا قال المعتزلة بحرّيّة الإرادة وغلوا فيها أمام قوم سلبوا الإنسان إرادته، حتّى جعلوه كالريشة في مهبّ الريح أو كالخشبة في اليمّ.

قال: وفي رأيي أنّه لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم، لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحاليّ، وقد أعجزهم التسليم وشلّهم الجبر وقعد بهم التواكل[2].

---

(١) يريد بهم أصحاب البلكفة الأشعرية قالوا: إنّ الله يرى بلا كيف وله وجه بلا كيف وله يد بلا كيف. وهلمّ جرّاً. حاولوا بذلك التخلّص من الشنعة عليهم بالقول بالتجسيم.. راجع: التمهيد ٣: ٨١.

(٢) راجع: ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين المصري ٣: ٦٨ ـ ٧٠.

قال تعالى:

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَاظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ونعمة أخرى يذكّرهم بها ـ وإن كانوا لم يشكروها ـ وهي: رعايتهم في الصحراء الجرداء، حيث وقاهم هجيرها ويسّر لهم طعاماً شهيّاً لايجهدون فيه ولا يكدّون، وهم في مسيرهم إلى أريحا، موطنهم الأصل المنشود.

وتذكر الروايات أنّ الله ساق لهم الغمام يظلّلهم من الهاجرة والصحراء بغير مطر ولا سحب، جحيم تقذف لهبها وتفور.. لكنّها بالمطر والسحاب تصبح رخيّة نديّة ترتاح فيها الأبدان والأرواح.

وتذكر الروايات أيضاً أنّ الله سخّر لهم «المنّ»[1]. يجدونه على الأشجار كالعسل يقتاتون به. وسخّر لهم «السلوى» وهو طائر السُّماني يجدونه بوفرة قريب المنال. وبهذا توافر لهم الطعام الجيّد والمقام المريح، وأحلّت لهم هذه الطيّبات ولكن أتراهم شكروا واهتدوا! إنّ التعقيب الأخير في الآية يوحي بأنّهم ظلموا وجحدوا، وإن كانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلّا أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هذا ما توحيه الآية وتدعمه الروايات المعتمدة.. ولكن إلى جنبها روايات قد تشتمل على غرائب ترفضها العقول السليمة وإليك من مجموعتها:

قال أبو إسحاق الثعلبي: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ في التيه تقيكم حرّ الشمس، وذلك أنّهم كانوا في التّيه ولم يكن لهم كنّ يسترهم فشكوا ذلك إلى موسى، فأنزل الله عليهم غماماً أبيض رقيقاً

(١) قطرات مائيّة (ندى) تنعقد على أوراق أشواك صحرائيّة، شبه الصمغ، تحتوي على سُكّر وبعض الكحول ذات طعم ورائحة طيّبة. تستعمل في صنع الحلواء المعروفة ببلاد فارس (أصبهان و ضواحيها ولا سيّما خوانسار) تعرف بـ «گزانگبين». لها خواصّ دوائيّة ولا سيّما لمنع إسهال الأطفال. وفي حالتها الطبيعية تتكوّن عسلاً وتجفّ جفاف الصمغ، صالح للاقتيات والتفكّه به.

وليس بغمام المطر بل أرقّ وأطيب وأبرد ـ والغمام: ما يغمّ الشيء أي يستره ـ وأظلّهم فقالوا: هذا الظّل قد جعل لنا فأين الطعام، فأنزل الله عليهم المنّ.

واختلفوا فيه:

[١٩٨٦/٢] فقال مجاهد: وهو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد.

[١٩٨٧/٢] وقال الضحّاك[١]: هو الطرنجبين[٢].

[١٩٨٨/٢] وقال وهب: الخبز الرّقاق.

[١٩٨٩/٢] وقال السدّي: عسل كان يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه.

[١٩٩٠/٢] وقال عكرمة: شيء أنزله الله عليهم مثل الزّيت الغليظ، ويقال: هو الزنجبيل.

[١٩٩١/٢] وقال الزجاج: جملة المنّ ما يمنّ الله ممّا لا تعب فيه ولا نصب.

[١٩٩٢/٢] وروي عن النبي ﷺ: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين»[٣].

وكان ينزل عليهم هذا المنّ كلّ ليلة تقع على أشجارهم مثل الثلج، لكلّ إنسان منهم صاع كلّ ليلة قالوا: يا موسى، مللنا هذا المنّ بحلاوته، فادع لنا ربّك أن يُطعمنا اللحم، فدعا ـ عليه السلام ـ فأنزل الله عليهم السلوى.

واختلفوا فيه:

[١٩٩٣/٢] فقال ابن عبّاس وأكثر المفسرين: هو طائر يشبه السُّمانَى.

[١٩٩٤/٢] وقال أبو العالية ومقاتل: هو طير أحمر، بعث الله سحابة فمطرت ذلك الطير في عرض ميل وقدر طول رمح في السماء بعضه على بعض!

[١٩٩٥/٢] وقال عكرمة: طير يكون بالهند أكبر من عصفور.

---

(١) نسبه في زاد المسير (١ / ٧١): إلى ابن عبّاس ومقاتل، وذكر بقيّة الأقوال.

(٢) ويصح بالتاء (الترنجبين) راجع لسان العرب: ١٠ / ٩٦، وهو طلّ ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الشجر في بعض البلدان، وقيل: هو ندى شبيه العسل جامد متحبب ينزل من السماء، وقيل: يشبه الكمأة. ولعلّه ما يجنيه النحل من الشجر وهو ما يسمّى بـ«غبار الطلع» إلى صغارها على شكل حبوب صغيرة بأرجلها، وهو غير العسل وغير الهلام الملكي. والترنجبين معروف وهو نوع من الكزأنكبين (جَزْأَنْجَبِيْن) في الدرجة الثانية.

(٣) مسند أحمد: ١ / ١٨٧.

وقال المؤرّج[1]: هو العسل بلغة كنانة. قال شاعرهم[2]:

وقــاسَمَها بــالله جَــهْداً لأنــتم ألذُّ من السَّلْوى، إذا ما نَشُـورُها[3]

وكان يرسل عليهم المنّ والسلوى، فيأخذ كلّ واحد منه ما يكفيه يوماً وليلة، وإذا كـان يـوم الجمعة أخذ ما يكفيه ليومين لأنّه لم يكن ينزل إليهم يوم السبت، فذلك قوله: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ﴾ حلالات. ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدّخروا لغد. فخبّأوا لغد فقطع الله ـعزّ وجلّ ـذلك عنهم ودُوِّد وفَسَد ما ادّخروا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَ مَا ظَـلَمُونَا﴾ ضرّونا بالمعصية. ﴿وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَـهُمْ يَظْـلِمُونَ﴾ يصرّون باستيجابهم عذابي وقطع مادّة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا كلفة ولا مؤونة ولا مشقّة في الدنيا ولا تبعة ولا حساب في العقبى.

[١٩٩٦/٢] وروى خلّاس بن عمرو عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل، لم يَخْنَزْ طعامٌ ولم يَخْبُثْ لحمٌ، ولولا حوّاء، لم تخن أنثى زوجها»[4].[5]

* * *

وقال أبو جعفر الطبري: قوله تعالى: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ عطف على قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّـنْ بَـعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ فتأويل الآية: ثمّ بعثناكم من بعد موتكم، وظلّلنا عليكم الغمام، وعدّد عليهم سائر ما أنعم به عليهم، ﴿لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾. والغمام جمع غمامة كما السحاب جمع سحابة، والغمام هو ما غمّ السماء فألبسها من سحاب وقتام[6] وغير ذلك، ممّا يسترها عن أعين الناظرين، وكلّ مغطّى فإنّ العـرب تُسمّيه مغموماً. وقد قيل: إنّ الغمام التي ظلّلها الله على بني إسرائيل لم تكن سحاباً.

---

(١) نحويّ أخباري من أصحاب الخليل، له كتاب غريب القرآن. (معجم الأدباء ٥: ٥٣٦ / ٩٦٩).

(٢) هو خالدبن زهير، كما في اللسان.

(٣) أي نأخذها من خليّتها، يعني العسل. قرئ: نشوزها بالزاي ونشورها بالراء المهملة. وكلاهما بمعنى.

قال ابن سيده: والسَّلْوَى طائر أبيض مثل السُّماني، واحدته سلواةٌ. قال: والسلوى: العسل. وأنشد البيت لخالدبن زهير. قال الزجّاج: أخطأ خالد، إنّما السلوى طائر. قال الفارسي: السلوى: كلّ ما سلاك و [إنّما] قيل للعسل سلوى، لأنّه يُسليك بحلاوته وتأتّيه من غير مؤنة. قال ذلك ردّاً على الزجاج. راجع: المحكم لابن سيده ٨: ٦١١. والعين للخليل ٧: ٢٩٨. واللسان ١٤: ٣٩٦.

(٤) صحيح ابن حبّان ٩: ٤٧٧. قوله: لم يخنز طعام أي لم ينتن. قوله: لم يخبث لحم أي لم يفسد.

(٥) الثعلبي ١: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٦) القتام: الغُبار الأسود. الظلام.

[١٩٩٧/٢] فقد روى بالإسناد إلى ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب.

[١٩٩٨/٢] وأيضاً عنه عن مجاهد قوله: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، والغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة لم يكن إلّا لهم.

[١٩٩٩/٢] وأيضاً عن مجاهد في قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: وهو بمنزلة السحاب.

[٢٠٠٠/٢] وعن حجّاج عن ابن جُريج، قال: قال ابن عبّاس: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: هو غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله عزّ وجلّ فيه يوم القيامة في قوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾[١]، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عبّاس: وكان[٢] معهم في التيه.

وإذ كان معنى الغمام ما وصفنا ممّا غمّ السماء من شيء فغطّى وجهها عن الناظر إليها، فليس الذي ظلّله الله ـ عزّ وجلّ ـ على بني إسرائيل فوصفه بأنّه كان غماماً، بأولى بوصفه إيّاه بذلك أن يكون سحاباً منه بأن يكون غير ذلك، ممّا ألبس وجه السماء من شيء، وقد قيل: إنّه ما ابيضّ من السحاب[٣].

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾:

اختلف أهل التأويل في صفة المنّ. فقال بعضهم بما رواه:

[٢٠٠١/٢] ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: المنّ: صمغة.

[٢٠٠٢/٢] وعن معمر، عن قتادة يقول: كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج.

وقال آخرون: هو شراب. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٠٣/٢] فعن الربيع بن أنس، قال: المنّ: شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثمّ يشربونه.

---

(١) البقرة ٢: ٢١٠.

(٢) أي الغمام.

(٣) الطبري ١: ٤١٨ ـ ٤١٩، بتصرّف وتلخيص.

وقال آخرون: المنّ: عسل. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٠٤/٢] عن ابن زيد قال: المنّ: عسل كان ينزل لهم من السماء.

[٢٠٠٥/٢] وعن إسرائيل، عن جابر، عن عامر، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المنّ.

وقال آخرون: المنّ: خبز الرقاق. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٠٦/٢] روى إسماعيل بن عبدالكريم، عن عبدالصمد، قال: سمعت وهباً وسُئل ما المنّ؟ قال: خبز الرقاق، مثل الذرّة، ومثل النِّقْي[١].

وقال آخرون: المنّ: الترنجبين[٢]. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٠٧/٢] روى أسباط، عن السدّي قال: المنّ كان يسقط على شجر الترنجبين.

وقال آخرون: المنّ هو الذي يسقط على الشجر الذي تأكله الناس. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٠٨/٢] روى حجّاج، عن ابن جُريج، قال: قال ابن عبّاس: كان المنّ ينزل على شجرهم فيغدون عليه فيأكلون منه ما شاؤوا.

[٢٠٠٩/٢] وروى مجالد، عن عامر في قوله: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ قال: المنّ: الذي يقع على الشجر.

[٢٠١٠/٢] وروى عن الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿الْمَنَّ﴾ قال: المنّ: الذي يسقط من السماء على الشجر فتأكله الناس.

[٢٠١١/٢] وروى عن مجالد، عن عامر بن سعد بن وقّاص قال: المنّ: هذا الذي يقع على الشجر.

وقد قيل إنّ المنّ: هو الترنجبين.

وقال بعضهم: المنّ: هو الذي يسقط على الثمام[٣] والعُشَر[٤]، وهو حلو كالعسل، وإيّاه عنى

---

(١) النقي (بكسر النون وسكون القاف): مخّ العظم.

(٢) قال ابن سينا في القانون في الطبّ (١: ٤٤٣): الترنجبين: طلّ أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر.

(٣) الثُمام: نبت ضعيف لايطول. واحدته ثمامة.

(٤) العشر: شجر له صمغ وفيه حرّاق مثل القطن يقتدح به. (اللسان: مادة عشر). قال: وقال أبو حنيفة: العشر من العضاه وهو ←

الأعشى ميمون بن قيس بقوله:

لو أُطعِموا المنَّ والسلوى مكـانهم ما أبصر الناس طُعْماً فيهم نَجَعا(١)

[٢٠١٢/٢] وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين»(٢).

وقال بعضهم: المنّ: شراب حلو كانوا يطبخونه فيشربونه. وأمّا أميّة بن أبي الصلت فإنّه جعله في شعره عسلاً، فقال يصف أمرهم في التيه وما رزقوا فيه:

فـرأى الله أنّـهم بـمضيع لابـذي مـزرع ولامـثمورا(٣)
فـنساها عـليهم غـاديات ومرى مزنهم خلايا وخـورا(٤)
عسـلاً نـاطفاً ومـاءً فـراتاً وحـليباً ذا بـهجة مـمرورا(٥)

الممرور: الصافي من اللبن، فجعل المنّ الذي كان ينزل عليهم عسلاً نـاطفاً، والنـاطف: هـو القاطر(٦).

← من كبار الشجر وله صمغ حلو، وهو عريض الورق ينبت صعداً في السماء، وله سكّر يخرج من شعبه ومواضع زهره يقال له سكّر العشر، وفي سكّره شيء من مرارة، ويخرج له نُفّاخ كأنّها شقاشق الجمال التي تهدر فيها، وله نَوْرٌ مثل نور الدفلى مشرب مشرق حسن المنظر وله ثمر.

(١) ديوانه (ص ١٠٨). الطعم: ما أُكل من الطعام. ونجع الطعام في الإنسان: هنأ آكله وتبينت تنميته واستمرأه وصلح عليه.

(٢) هذا الحديث روي في الصحاح من حديث سعيد بن زيد وأبي سعيد الخُدري وجابربن عبدالله. رواه البخاري في تفسير سورة البقرة باب ٤، وفي تفسير سورة الأعراف باب ٢، والطبّ باب ٢٠. ومسلم في الأشربة ٦: ١٢٦، والترمذي في الطبّ باب ٢٢. وابن ماجه في الطبّ باب ٨. وأحمد في المسند (١: ١٨٧).

(٣) مضيع: بموضع ضياع وهوان وهلاك. ومزرع: مصدر ميمي من زرع، يعني ليس بذي زرع. ومثموراً: يقال: الثمير والثميرة: اللبن الذي ظهر زبده وتحبب.

(٤) نساها: أصلها نسأها مهموزة، ونسأ الدابة والإبل: زجرها وساقها. والغاديات: جمع غادية، وهي السحابة التي تنشأ غدوة. ومرى الناقة: مسح ضرعها لتدرّ. والمزن: جمع مزنة، وهي السحابة ذات الماء. وخلايا: جمع خلية، وهي الناقة التي خليت للحلب لكرمها وغزارة لبنها. والخور: إبل حمر إلى الغبرة رقيقات الجلود طوال الأوبار. والناطف: المتقطّر قليلاً قليلاً.

(٥) القرات: أشدّ الماء عذوبة. وممرور أي مهيّج.

(٦) الطبري ١: ٤١٩ ـ ٤٢١.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ السَّلْوَىٰ﴾: والسلوى اسم طائر يشبه السُّمانَى، واحده وجماعه بلفظ واحد، كذلك السمانَى لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قيل: إنّ واحدة السلوى سلواة. ذكر من قال ذلك:

[٢٠١٣/٢] روى أسباط، عن السدّي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبّاس، وعن مرّة الهَمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: السلوى: طير يُشبه السُّمانَى.

[٢٠١٤/٢] وعن السدّيّ أيضاً، قال: كان طيراً أكبر من السُّمانى.

[٢٠١٥/٢] وعن قتادة، قال: السلوى: طائر كانت تحشرها عليهم الريح الجنوب.

[٢٠١٦/٢] وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: السلوى: طائر.

[٢٠١٧/٢] وعنه أيضاً قال: السلوى: طير.

[٢٠١٨/٢] وروى عبدالصمد، قال: سمعت وهباً وسُئل: ما السلوى؟ فقال: طير سمين مثل الحمام.

[٢٠١٩/٢] وعن ابن زيد قال: السلوى: طير.

[٢٠٢٠/٢] وعن الربيع بن أنس قال: السلوى، كان طيراً يأتيهم مثل السُّمانَى.

[٢٠٢١/٢] وعن مجالد، عن عامر، قال: السلوى: السُّمانَى.

[٢٠٢٢/٢] وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس، قال: السلوى: هو السُّمانَى.

[٢٠٢٣/٢] وعن الضحّاك، قال: السُّمانَى هو السلوى.

[٢٠٢٤/٢] وأخرج عن السدّي: لمّا تاب الله على قوم موسى وأحيا السبعين الّذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم، أمرهم الله بالمسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس. فساروا حتّى إذا كانوا قريباً منها بعث موسى اثني عشر نقيباً. وكان من أمرهم وأمر الجبّارين، وأمر قوم موسى ما قد قصّ الله في كتابه، فقال قوم موسى لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[١] فغضب موسى، فدعا عليهم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٢]. فكانت عجلة

---

(١) المائدة ٥: ٢٤. ونصّها: «فاذهب».
(٢) المائدة ٥: ٢٥.

من موسى عجّلها فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[1]. فلمّا ضرب عليهم التيه ندم موسى! وأتاه قومه الّذين كانوا معه يطيعونه، فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى؟ فلمّا ندم أوحى الله إليه أنْ لا تأسَ على القَوْمِ الفاسقين؛ أي لاتحزن على القوم الّذين سمّيتهم فاسقين. فلم يحزن. فقالوا: يا موسى كيف لنا بماء هاهنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ، فكان يسقط على شجر الترنجبين، والسلوى: وهو طير يُشبه السماني، فكان يأتي أحدهم، فينظر إلى الطير إن كان سميناً ذبحه، وإلّا أرسله، فإذا سمن أتاه. فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كلّ سبط من عين، فقالوا: هذا الطعام والشراب، فأين الظلّ؟ فظلّل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظلّ فأين اللّباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرّق لهم ثوب، فذلك قوله: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾[2].

[٢٠٢٥/٢] عن ابن إسحاق، قال: لمّا تاب الله ـ عزّ وجلّ ـ على بني إسرائيل، وأمر موسى أن يرفع عنهم السيف من عبادة العجل، أمر موسى أن يسير بهم إلى الأرض المقدّسة، وقال: إنّني قد كتبتها لكم داراً وقراراً ومنزلاً، فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدوّ فإنّي ناصركم عليهم. فسار بهم موسى إلى الأرض المقدّسة بأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ حتّى إذا نزل التيه بين مصر والشام وهي أرض ليس فيها خَمَر[3] ولا ظلّ، دعا موسى ربّه حين آذاهم الحرّ، فظُلّل عليهم بالغمام، ودعا لهم بالرزق، فأنزل الله لهم المنّ والسلوى.

[٢٠٢٦/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس قوله: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: ظلّل عليهم الغمام في التيه: تاهوا في خمسة فراسخ أو ستّة، كلّما أصبحوا ساروا غادين، فأمسوا فإذا هم في مكانهم الّذي ارتحلوا منه، فكانوا كذلك حتّى مرّت أربعون سنة. قال: وهم في ذلك ينزل عليهم المنّ والسلوى ولا تبلى ثيابهم، ومعهم حجر من حجارة الطور يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه،

---

(١) المائدة ٥: ٢٦. (٢) البقرة ٢: ٦٠.

(٣) الخمر: كلّ ما سترك ما شجر أو بناء أو غيره.

فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

[٢٠٢٧/٢] وعن إسماعيل بن عبدالكريم، قال: حدّثني عبدالصمد، قال: سمعت وهباً يقول: إنّ بني إسرائيل لمّا حرّم الله عليهم أن يدخلوا الأرض المقدّسة أربعين سنة يتيهون في الأرض شكوا إلى موسى، فقالوا: ما نأكل؟ فقال: إنّ الله سيأتيكم بما تأكلون. قالوا: من أين لنا إلّا أن يُمطر علينا خبزاً؟ قال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ سينزل عليكم خبزاً مخبوزاً. فكان ينزل عليهم المنّ. ـ سُئل وهب: ما المنّ؟ قال: خبز الرقاق مثل الذرّة أو مثل النَّقْي[1] ـ قالوا: وما نأتدم، وهل بُدّ لنا من لحم؟ قال: فإنّ الله يأتيكم به. فقالوا. من أين لنا إلّا أن تأتينا به الريح؟ قال: فإنّ الريح تأتيكم به، وكانت الريح تأتيهم بالسلوى ـ فسُئل وهب: ما السلوى؟ قال: طير سمين مثل الحمام كانت تأتيهم فيأخذون منه من السبت إلى السبت ـ قالوا: فما نلبس؟ قال: لايخلق لأحد منكم ثوب أربعين سنة. قالوا: فما نحتذي؟ قال: لا ينقطع لأحدكم شسع[2] أربعين سنة، قالوا: فإنّ فينا أولاداً فما نكسوهم؟ قال: ثوب الصغير يشبّ معه. قالوا: فمن أين لنا الماء؟ قال: يأتيكم به الله. قالوا: فمن أين؟ إلّا أن يخرج لنا من الحجر. فأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ موسى أن يضرب بعصاه الحجر. قالوا: فبم نبصر؟ تغشّانا الظلمة. فضرب لهم عمود من نور في وسط عسكرهم أضاء عسكرهم كلّه، قالوا: فبم نستظل؟ فإنّ الشمس علينا شديدة قال: يُظلّكم الله بالغمام.

[٢٠٢٨/٢] وعن حجّاج، قال: قال ابن جُرَيج، قال: عبدالله بن عبّاس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخلق ولاتدرن[3]. قال: وقال ابن جُرَيج: إن أخذ الرجل من المنّ والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلّا أنّهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً[4].

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

وهذا ممّا استغني بدلالة ظاهره على ما تُرك منه، وذلك أنّ تأويل الآية: وظلّلنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى، وقلنا لكم: كلوا من طيّبات ما رزقناكم فتُرك ذكر قوله: «وقلنا لكم...» لما بيّنّا من دلالة الظاهر في الخطاب عليه.

---

(١) النَّقْي: مخّ العظم.

(٢) الشسع: أحد سيور النعل الذي يدخل بين الأصبعين.

(٣) تدرن: تلطّخ بالوسخ.

(٤) الطبري ١: ٤٢٢ ـ ٤٢٥.

وعنى ـ جلّ ذكره ـ بقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ كلوا من مشتهيات رزقنا الذي رزقناكموه. وقيل عنى بقوله: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من حلاله الذي أبحناه لكم، فجعلناه لكم رزقاً.

والأوّل من القولين أولى بالتأويل لأنّه وصف ما كان القوم فيه من هنيء العيش الذي أعطاهم، فوصف ذلك بالطيب الذي هو بمعنى اللذّة أحرى من وصفه بأنّه حلال مباح.

و«ما» التي مع «رزقناكم» بمعنى «الذي» كأنّه قيل: كلوا من طيّبات الرزق الذي رزقناكموه.

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

وهذا أيضاً من الذي استغني بدلالة ظاهره على ما تُرك منه. وذلك أنّ معنى الكلام: كلوا من طيّبات ما رزقناكم، فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربّهم ثمّ رسولنا إليهم، وما ظلمونا. فاكتفى بما ظهر عمّا تُرك. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقول: وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ويعني بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيّانا موضع مضرّة علينا ومنقصة لنا، ولكنّهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرّة عليها ومنقصة لها. كما:

[٢/٢٠٢٩] روى أبو روق، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قال: يضرّون.

وقد دلّلنا فيما مضى على أنّ أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه بما فيه الكفاية، فأغنى ذلك عن إعادته. وكذلك ربُّنا ـ جلّ ذكره ـ لا تضرّه معصية عاص، ولا يتحيّف خزائنه ظلمُ ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عدل عادل؛ بل نفسَه يظلم الظالم، وحظَّها يبخس العاصي، وإيّاها ينفع المطيع، وحظّها يصيب العادل[1].

* * *

وهكذا روى ابن أبي حاتم قريباً ممّا رواه ابن جرير:

قال في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾:

[٢/٢٠٣٠] روى القاسم بن أبي أيّوب عن سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس قال: ثمّ ظَلّل عليهم في

(١) الطبري ١: ٤٢٥ـ٤٢٦.

التيه بالغمام. قال أبو محمّد: وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبي مجلز والضحّاك والسُدّي نحو قول ابن عبّاس.

[٢٠٣١/٢] وعن يونس بن محمّد عن سفيان عن قتادة قوله: ﴿وَ ظَـلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: كان هذا في البرّيّة، ظلّل الغمام من الشمس. وروي عن الحسن نحو ذلك.

[٢٠٣٢/٢] وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَ ظَـلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلّا لهم.

[٢٠٣٣/٢] وعن ابن ثور عن ابن جريج: قوله: ﴿وَ ظَـلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال ابن جريج: قال آخرون: هو غمام أبرد من هذا وأطيب[١].

* * *

وقال في قوله: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾:

[٢٠٣٤/٢] روى عمرو بن حُريث عن سعيد بن زيد قال: «خرج إلينا النبيّ ﷺ وفي يده كمأة فقال: أتدرون ما هذا؟ هذا من المنّ الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين».

[٢٠٣٥/٢] وعن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس قال: كان المنُّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا.

[٢٠٣٦/٢] وعن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى﴾ قال: المنّ صمغة.

[٢٠٣٧/٢] وعن الحكم عن أبان عن عكرمة قال: المنّ شيء أنزله الله عليهم مثل الطلّ[٢]، شبه الرُبّ الغليظ.

[٢٠٣٨/٢] وعن أسباط عن السُدّي: قالوا يا موسى، فكيف لنا بما هاهنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ، فكان يسقط على شجرة الترنجبين.

[٢٠٣٩/٢] وعن سعيد بن بشير عن قتادة في قول الله: ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ قال: كان المنُّ يسقط عليهم في محلّتهم سقوط الثلج، أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١١٣ / ٥٤٧ ـ ٥٥٠.

(٢) الطلّ: الندى.

الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدّى ذلك فسد ولم يبق، حتّى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنّه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا لشيء يطلبه، وهذا كلّه في البرّيّة.

[٢٠٤٠/٢] وعن إسماعيل بن عبدالكريم، عن عبدالصمد بن معقل أنّه سمع وهب بن منبّه وسُئل: ما المنّ؟ قال: خبز الرقاق مثل الذرّة أو مثل النَّقْي.

[٢٠٤١/٢] وعن الربيع بن أنس قال: المنُّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، يمزجونه بالماء ثمّ يشربونه[1].

* * *

وقال في قوله: ﴿وَ السَّلْوَى﴾:

[٢٠٤٢/٢] روى قرّة بن خالد عن جهضم عن ابن عبّاس قال: السلوى هو السُّماني.

[٢٠٤٣/٢] وعن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس قال: السلوى طائر شبيه بالسُّمانىٰ، كانوا يأكلون منه.

[٢٠٤٤/٢] وعن عمرو بن دينار عن ابن منبّه قال: سألت بنو إسرائيل موسى اللَّحم فقال الله: لأطعمنَّهم من أقلّ لحم يُعلم في الأرض؛ فأرسل عليهم ريحاً فأذرت على مساكنهم السلوى وهو السُّمانىٰ، مثل ميل في ميل قيد رمح في السماء، فخبّأوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز، قال أبو محمّد: وروي عن مجاهد والشعبي والضحّاك والحسن وعِكرمة والربيع بن أنس نحو ممّا روى جهضم عن ابن عبّاس.

[٢٠٤٥/٢] وعن سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَ السَّلْوَى﴾ قال: كان السلوى من طير إلى الحمرة يحشرها عليهم الريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدّى فسد ولم يبق عنده، حتّى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنّه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.

[٢٠٤٦/٢] وعن عبدالصمد بن معقل أنّه سمع وهب بن منبّه وسُئل ما السلوى؟ قال طير سمين

---

(١) المصدر ١: ١١٤ ـ ١١٥ / ٥٥١ ـ ٥٥٨.

مثل الحمام فكان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت.

[٢٠٤٧/٢] وعن عكرمة: وأمّا السلوى فطير، كطير يكون باطنه أكبر من العصفور أو نحو ذلك.

وقال في قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

[٢٠٤٨/٢] روى أبو عامر الخزّاز عن الحسن في قول الله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أما إنّه لم يذكر أصفركم وأحمركم ولكنّه قال ينتهون إلى حلاله. وروى عن مقاتل بن حيّان نحو ذلك.

وفي قوله: ﴿وَ مَا ظَـلَمُونَا﴾:

[٢٠٤٩/٢] روى عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ مَا ظَـلَمُونَا﴾ قال: نحن أعزّ من أن نُظْلَم.

وفي قوله: ﴿وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْـلِمُونَ﴾:

[٢٠٥٠/٢] روى أبو روق عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْـلِمُونَ﴾ قال: يضرّون.

[٢٠٥١/٢] وعن موسى بن إسماعيل عن مبارك عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أحبّ إليه المدح من الله، ولا أكثر معاذير من الله، عذّب قوماً بذنوبهم، واعتذر إلى المؤمنين قال: ﴿وَ مَا ظَـلَمُونَا وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْـلِمُونَ﴾»[1].

[٢٠٥٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ ظَـلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وذلك أنّ موسى ﷺ قالت له بنو إسرائيل وهم في التيه: كيف لنا بالأبنية، وقد نزلنا في القفر، وخرجنا من العمران، من حرّ الشمس؟ فظلّل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم الغمام الأبيض يقيهم حرّ الشمس.

قال: ثمّ إنّهم سألوا موسى ﷺ الطعام فأنزل الله عليهم طعام الجنّة وهو ﴿الْمَنَّ وَ السَّلْوَى﴾: أمّا المنّ فهو الترنجبين، فكان ينزل بالليل على شجرهم أبيض كالثلج حلوٌ مثلُ العسل، فيغدون عليه لكلّ إنسان صاع لكلّ ليلة، فيغدون عليه فيأخذون ما يكفيهم ليومهم ذلك، لكلّ رجل صاع ولا يرفعون منه في غدٍ، ويأخذون يوم الجمعة ليومين، لأنّ السبت كان عندهم لايشخصون فيه ولايعملون. كان هذا لهم في التيه وتنبُت ثيابهم مع أولادهم فأمّا الرجال فكانت ثيابهم عليهم لاتبلى ولا تنخرق ولا تدنس.

(١) المصدر ١: ١١٥ـ١١٦ / ٥٥٩ـ٥٦٨.

قال وأمّا السلوى فهو الطير، وذلك أنّ بني إسرائيل سألوا موسى اللحم، وهم في التيه، فسأل موسى ربّه ـ عزّ وجلّ ـ فقال الله: لأطعمنّهم أقلّ الطير لحماً. فبعث الله ـ سبحانه ـ السماء فأمطرت لهم السلوى وهي السُّماني، وجمعتهم ريحُ الجنوب. وهي طير حُمْر تكون في طريق مصر، فأمطرت قدر ميل في عرض الأرض، وقدر رمح في السماء بعضه على بعض.

فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ يعني من حلال. كقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ يعني حلالاً طيّبا في غير مأثم وإذا وجدوا الماء فهو حرام، فمن ثمّ قال: طيّباً يعني حلالاً من ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من السلوى، ولاتطغوا فيه يعني لا تعصوا الله في الرزق فيما رزقكم ولا ترفعوا منه لغد، فرفعوا وقدّدوا مخافة أن ينفد، ولولم يفعلوا لدام لهم ذلك فقدّدوا منه ورفعوا، فدُوِّد وتغيّر ما قدّدوا منه وما رفعوا فعصوا ربّهم. فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني وما ضرّونا يعني ما نقصونا من ملكنا بمعصيتهم شيئاً حين رفعوا وقدّدوا منه في غد ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني أنفسهم يضرّون[1].

[٢٠٥٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة قال: كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج، والسلوى طير كانت تحشوها عليهم ريح الجنوب[2].

[٢٠٥٤/٢] وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: هو السحاب الأبيض الذي لا ماء فيه![3]

[٢٠٥٥/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ...﴾ الآية. قال: كان هذا في البرّيّة، ظُلّل عليهم الغمام من الشمس، وأطعمهم المنّ والسلوى حين برزوا إلى البرّيّة، فكان المنّ يسقط عليهم في محلّتهم سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فإن تعدّى فسد وما يبقى عنده، حتّى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده، لأنّه إذا كان يوم عيد لايُشْخَصُ فيه لأمر معيشة ولا لطلب شيء، وهذا كلّه في البرّيّة[4].

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) عبدالرزّاق ١: ٢٧١.

(٣) الدرّ ١: ١٧٠؛ التبيان ١: ٢٥٨، بلفظ: قيل هو ما ابيضّ من السحاب.

(٤) الدرّ ١: ١٧١؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٣ ـ ١١٤ / ٥٤٨ و ٥٥٦.

[٢٠٥٦/٢] وأخرج وكيع وعبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ولم يكن إلّا لهم(١).

[٢٠٥٧/٢] وروي عن الإمام الحسن العسكري ﷺ قال: «قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل إذ ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ لمّا كنتم في التيه يصيبكم حرّ الشمس ﴿وَ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الترنجبين كان يسقط على شجرهم فيتناولونه ﴿وَ السَّلْوَىٰ﴾ السماني طير أطيب طير لحماً يسترسل لهم فيصطادونه، قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ واشكروا نعمتي»(٢).

[٢٠٥٨/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال: قال النبي ﷺ: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين».

وأخرج أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة مثله.

وأخرج النسائي من حديث جابربن عبدالله وأبي سعيد الخدري وابن عبّاس مثله(٣).

[٢٠٥٩/٢] وهكذا روى ثقة الإسلام الكليني وأبو جعفر أحمدبن محمّدبن خالد البرقي بالإسناد إلى أبي عبدالله الصادق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المنّ، والمنّ من الجنّة، وماؤها

---

(١) الدرّ ١: ١٧٠؛ الطبري ١: ٤١٨ / بعد رقم ٨١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٣ / ٥٤٩؛ ابن كثير ١: ٩٨؛ التبيان ١: ٢٥٧ ـ ٢٥٨. عن ابن عبّاس ومجاهد. بلفظ: لم يكن بالسحاب ولكنّه الذي عني في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وهو الغمام الذي أتت فيه الملائكة يوم بدر ولم يكن لغيرهم.

(٢) تفسير الإمام: ٢٥٧ / ١٢٦؛ البحار ١٣: ١٨٢ / ١٩، باب ٦.

(٣) الدرّ ١: ١٧١؛ مسند أحمد ١: ١٨٧ ـ ١٨٨ عن سعيد بن زيد، و ٢: ٣٠١ عن أبي هريرة؛ البخاري ٥: ١٤٨، كتاب التفسير، سورة البقرة و ١٩٧، سورة الأعراف؛ مسلم ٦: ١٢٦، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها؛ الترمذي ٣: ٢٧١ / ٢١٤٧، أبواب الطبّ، باب ٢١، عن سعيدبن زيد و ٢٧٠ ـ ٢٧١ / ٢١٤٦، عن أبي هريرة؛ النسائي ٤: ١٥٦ ـ ١٥٧ / ٦٦٦٨ عن سعيد بن زيد و ٦٦٦٩ عن ابن عبّاس و ٦٦٧٣ عن أبي هريرة و ٦٦٧٤ عن جابر؛ ابن ماجة ٢: ١١٤٣ / ٣٤٥٤ كتاب الأشربة، باب ٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١١٤ / ٥٥١. بلفظ: «عن سعيد بن زيد قال: خرج إلينا النبي ﷺ وفي يده كمأة فقال: أتدرون ما هذا؟ هذا من المنّ الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين»؛ الطبري ١: ٤٢١، بلفظ: «تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (وذكر الحديث)؛ البغوي ١: ١١٩ / ٥٤؛ الثعلبي ١: ٢٠٠؛ ابن كثير ١: ٩٩ ذكره بطرق مختلفة.

شفاء للعين»[١].

[٢٠٦٠/٢] وروى الشيخ أبو جعفر الطوسي ـ بشأن كراهة النوم بعد صلاة الغداة ـ عن الصادق عليه السلام قال: «نومة الغداة مشومة تطرد الرزق وتصفرّ اللّون وتقبّحه وتغيّره. وهو نوم كلّ مشوم. إنّ الله تعالى يقسّم الأرزاق ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وإيّاكم وتلك النومة!

قال: وكان المنّ والسلوى ينزل على بني إسرائيل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه. وكان إذا انتبه فلا يرى نصيبه، احتاج إلى السؤال والطلب»[٢].

ورواه الطبرسي ملخّصاً[٣].

[٢٠٦١/٢] وروى أبو جعفر الصدوق بالإسناد إلى أبي الحسن الرضا عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكمأة من المنّ الذي نزل على بني إسرائيل، وهي شفاء للعين. والعَجْوة التي من البَرْنيّ من الجنّة، وهي شفاء من السمّ»[٤].

---

(١) الكافي ٦: ٣٧٠ / ٢، كتاب الأطعمة، باب الكمأة؛ المحاسن ٢: ٥٢٧ / ٧٦١، باب ١٠٨ (الكمأة)؛ البحار ٥٩: ١٥٢ / ٢٨، باب ٥٦.

(٢) تهذيب الأحكام ٢: ١٣٩ / ٥٤٠.

(٣) مجمع البيان ١: ٢٢٥.

(٤) عيون أخبار الرضا ٢: ٨٠ / ٣٤٩، باب ٣١؛ البحار ٦٣: ١٢٧ / ٦، باب ٣. والكمأة معروفة، تنبت تحت الأرض ـ في الربيع ـ لا ساق له ولا عرق كالبتاتة. يقال له: شحمة الأرض. لذيذة الطعم. والعجوة: ضرب من أجود تمر المدينة يضرب إلى السواد. قال ابن الأثير: وفي الحديث: «العجوة من الجنّة» ويقال: إنّه من غرس النبي صلى الله عليه وآله. والبَرْنيّ: ضرب من التمر أحمر مُشْرَب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة.

وبما أنّ العجوة والبرنيّ قريبان، جعل الإمام عليه السلام العجوة التي هي من نوع البرنيّ نازلاً من الجنّة وكان فيها الشفاء من السمّ.

روى ابن الشيخ بالإسناد إلى عامر بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من تصبّح بسبع تمرات من عجوة لم يضرّه ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر». (أمالي الطوسي، المجلس ١٤، الحديث ٢٤) وترتيب الأمالي ٦: ١٤٢ ـ ١٤٣ / ٢٧٨٨ ـ ٢.

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

هنا وقفةٌ أخرى مع بني إسرائيل من مواضعهم التعنّتيّة وملؤها الانحراف والعصيان والجحود، ونكران ما أنعم الله عليهم من كبير فضل وعناية.

يمضي السياق في مواجهتهم هذه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾

والقرية هذه هي مدينة «حَبرون»[1] وكانت عامرة: زاهية بثمارها ولا سيّما العنب والزيتون. وبصناعتها واشتهرت بصناعة الزجاج. وهي من أقدم مدن العالم، سكنها إبراهيم الخليل ﷺ وفيها مقبرته ومقبرة ذويه وعرفت باسم الخليل[2]، تقع على بعد ٢٠ ميلاً من القدس الشريف.

وكانت ذات أسوار وأبواب وحصون منيعة، تحرسها رجال أقوياء، منهم العمالقة أصحاب الأجسام الضخام.

والقرية اسم لمجموعة سكن مبنيّة بعضها إلى جنب البعض، من القَرْي وهو الجمع. وتطلق على صغار المدن وكبارها، كما أريد به هنا. بدليل قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي باب المدينة. وفي القرآن إطلاق القرية على مكّة وعلى مصر وعلى غيرهما من مدن عامرة وآهلة.

---

(١) حسبما استظهره ابن عاشور في التحرير والتنوير ١: ٤٩٦ و ٤٩٧. وسيأتي كلامه.

(٢) جاء في قاموس الكتاب المقدّس ص ٣١٠: تدعى اليوم بحبرون الخليل أو حبرون الزاهرة. على بعد ٢٠ ميلاً جنوبي أورشليم. و ١٠٠ ميل من الناصرة.

قلت: ولعلّ التسمية بحبرون ـ بناءً على اشتراك اللغتين العبريّة والعربيّة في أصول الكلمات ـ جاءت من قبل المعنى، حيث يقال: أحبرَتِ الأرضُ، كثُر نباتُها. وحَبَره: زيَّنه. وشَّاه.

قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف ٤٣: ٧٠) أي يفرحون يظهر عليهم حَبَارُ نعيمهم أي أثره المبتهج.

ويبدو أنّ القرية كانت قريبة[١] من مرتحلهم آنذاك، وهم في برّيّة «فاران» حيث نزلوا بمدينة «قادِش» مشرفين على أرض كنعان التي هي الأرض المقدّسة التي وعدها الله بني إسرائيل، منذ خرجوا من مصر، وقد مضت سنة وهم في غضون السنة الثانية من ترحالهم هذا.

وعند ذاك جاء الأمر من عنده تعالى لموسى عليه السلام: أن ابعث اثني عشر رجلاً يتجسّسون أرض كنعان ويدخلون أولى وأزهر مدينة منها: حبرون، الآهلة بالسكّان والعامرة بوفور النعم. فبعث موسى من كلّ قبيلة رجلاً يتجسّسون الأخبار[٢] وقال لهم: اصعدوا إلى الجبل، وانظروا الأرض ماهي وماسُكّانها و تأكّدوا من عَدَدهم وعُدّتهم، وكذلك انظروا في ثمرات الأرض وبركاتها.. فصعدوا إلى الجبل وأتوا إلى حبرون وجمعوا الأخبار ورجعوا بعد أربعين يوماً، يحملون أخباراً عن ثمرات الأرض وعوائدها، وشيئاً من قوّة رجالها ومناعة حصونها، الأمر الذي هابه القوم، لولا أنّ كالباً ويوشع أخذا يخفّفان من هولهم ويثبتان من عزيمتهم على الاستقامة، وأنّهم سوف يغلبونهم بحوله تعالى وقوّته. وقد وعدهم الله ذلك.

أمّا البقيّة (العشرة) فجعلوا يبالغون في تهويل القوم والحديث عن مقدرة رجال المدينة الجبّارة وفيهم العمالقة بنو العناق، ذوو الأجسام الضخام، كما أخذوا يُزهّدون القوم ويستقلّون من ثمرات الأرض وضحالة عوائدها، بما كاد يثبّط من عزيمة القوم وتخوير قواهم.

فتذمّر القوم وتندّموا عن مغادرة مصر ذات النعم الوفيرة، وأخذوا يتمرّدون عن أوامر موسى، فاحتار موسى في أمره وكاد يأخذه الغضب.

وهنا نزل العذاب المفاجئ[٣] بأولئك المثبّطين العشرة، فماتوا لفورهم، إذ كانوا قد بدّلوا القول، فبدلاً من أن يشجّعوا القوم ويرغّبوهم في القيام والجهاد، وأنّ الظفر حليفهم ماداموا على الإيمان،

---

(١) حيث الإشارة إليها بـ«هذه» المفيدة للقرب. وقد كان بينهم وبينها ما يقرب من ستّين ميلاً، حيث كانوا نزلوا في مدينة قادش من برّيّة فاران. وبرّيّة فاران تقع في شرقيّ وادي سيناء بين برّيّة شور وبرّيّة سين. ومدينة قادش تقع في منتهى برّيّة فاران نحو الأرض المقدّسة، بينها وبين أُولى مدينة عامرة من أرض كنعان المقدّسة مايقرب من ستّين ميلاً.

(٢) جاءت أساميهم في سفر العدد (١: ١٣): يوشع، كالب، شموع، شافاط، يجال، فلطي، جدى ئيل، جدى، عمي ئيل، ستور، نحبي، جاوئيل.

(٣) جاء في سفر العدد ١٤: ٣٦ ـ ٣٨: أهلكهم الوباء، وهو كلّ مرض متفشّ سريع الإهلاك.

كما لهم الحظّ الأوفر من خيرات البلد وبركاته، جعلوا يجبّنونهم ويزهّدونهم في أمر القيام.

وهكذا كانت عقوبة القوم في تزمّرهم وتمرّدهم أن تاهوا في برّيّة فاران أربعين سنة يتيهون في الأرض وهم على مشارف الأرض الموعودة[١].

وكما جاء في سورة المائدة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[٢].

* * *

هذا، وللمفسّرين في تعيين هذه القرية ـ التي أُمر بنو إسرائيل أن يدخلوها وهم على مشارف الأرض المقدّسة، والتي كانت عامرة وزاهرة حينذاك ـ أقوال وآراء:

فمن قائل: إنّها «أريحا»[٣] مدينة قديمة من بلاد فلسطين، بنيت منذ العصر الحجري وقد اتّخذها الكنعانيّون مساكنهم فيها منذ عهد بعيد.

وهذه المدينة واقعة في الشمال الشرقيّ من أُورشليم بمسافة ١٥ ميلاً وبينها وبين الأردن ٥ أميال.

وهي وإن كانت زاهية وعامرة حينذاك، غير أنّها تقع في الضفة المقابلة لمسيرة بني إسرائيل المتّجهة نحو القدس.

وقيل: هي إيلياء[٤]، اسم مدينة بيت المقدس. قيل: معناه بيت الله. وحكى الحفصي فيه القصر.

---

(١) راجع: سفر العدد: ١٣ ـ ١٤. وسفر التثنية ١: ١٩ ـ ٤٦ و ٢: ١ ـ ٢.

(٢) المائدة ٥: ٢١ ـ ٢٦.

(٣) برواية الطبري (١: ٤٢٦) عن أبي وهب عن عبدالرحمان بن زيد بن أسلم.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٠٩.

وفيه لغة ثالثة: إلياء.

قال الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن وُلاتها وقصرٌ بأعلى إيليا مشرَّف

قيل: إنّما سمّيت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن أرم بن سام بن نوح(١).

ومن ثمّ صرّح آخرون بأنّها القدس الشريف(٢). غير أنّها ليست بتلك المثابة التي جاء وصفها في التوراة: (تفيض لبناً وعسلا) وفي القرآن: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾.

وقيل: هي البلقاء، كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى، قصبتها عَمَّان وفيها قُرىً كثيرة ومزارع واسعة، وبجودة حنطتها يُضرب المثل.. قال ياقوت: ومن البلقاء: قرية الجبّارين التي أراد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾(٣).

والبلقاء ـ اليوم ـ محافظة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، قاعدتها مدينة السَّلط، مشهورة بالبساتين والكروم والحبوب يضرب المثل بجودة حنطتها.

وقيل: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، أي جميعاً. يعني: الهلال الخصيب، وهو حَدْس لا بأس به.

* * *

وبعد فإليك الآن سياق الآية تطابقاً مع الوصف المتقدّم:

﴿وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ حبرون المفاضة بالخير والبركات ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي اقتحموا المدينة بقوّة المَلِكِ الجبّار ولاتخافوا الجبّارين ﴿سجّداً﴾ أي حال كونكم خاضعين لله وشاكرين لأنعمه التي حباكم بها، وأظفركم على أعدائكم.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي استغفروا لذنوبكم وعمّا جرحتم من تمرّد وعصيان. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ما فرط منكم من آثام. ﴿وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ حيث الشكر يوجب ازدياد النعم.

والأمر بالسجود والاستغفار هنا يعني الابتهاج بنعم الله وفيض آلائه، فلا يروعنّهم سوى

---

(١) معجم البلدان ١: ٢٩٣.

(٢) رواه الثعلبي (١: ٢٠١) عن مجاهد.

(٣) معجم البلدان ١: ٤٨٩.

قدرة الله العزيز الجبّار، الأمر الذي كان يبعثهم على الجرأة والشجاعة والإقدام، وغير مهابين من أحد ولا خائفين من شيء.

هذا الأمر كان في بدء الأمر موجّهاً إلى العيون الاثني عشر الّذين بعثهم موسى لغرض الاستطلاع واستخبار الحال، ليعودوا بالبشائر والترغيب في المكافحة والنضال. الأمر الذي وفى به اثنان منهم وهما: يوشع وكالب. فجعلا يحرّضان القوم ويشجّعانهم على الجرءة والقيام.

أمّا العشرة الباقية فعاكسوا الدستور وجعلوا يجبّنون القوم ويثبّطونهم. وبدلاً من أن يذكروا وفور النعم وفيض بركاتها، جعلوا يزهّدونهم فيها باستقلالها والاستهانة بها.

كما أنّهم بدلاً من أن يذكروا الثغرات المؤاتية لإمكان الظفر على القوم، جعلوا يصفون من قوّة القوم وشكيمتهم، بما كاد يهول بني إسرائيل ويوجب إحجامهم عن القيام والإقدام.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾. أي بدلاً من أن يذكروا ما يثبّت عزيمة القوم، ذكروا ما يثبّطهم.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم العشرة المتخلّفة ﴿رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

والرِّجْزُ: العذاب. قال الخليل: وكلُّ عذاب أُنزل على قوم فهو رِجْزٌ[1].

قال أبو إسحاق: ومعنى الرِّجْز في القرآن هو العذابُ المُقَلْقِلُ، لشدّته، وله قَلْقَلَةٌ شديدة متتابعة[2]. أي البلاء النازل المورث للاضطراب المتتابع حتّى الهلاك. ومن ثمّ فسّروه بالوباء أو الطاعون من الأوبئة التي توجب اضطراباً متتابعاً، وتسريعاً إلى الهلاك.

وخُصَّ بالذين ظلموا ـ ولم يعمّ القوم ـ لأنّ الّذين بدّلوا القول هم العشرة المتخلّفة المثبّطة للقوم.

* * *

هذا وأمّا الروايات الواردة بشأن هذا الحادث الخطير، فأكثرها مشوّهة ومشوّشة إلى حدّ بعيد. ويبدو أنّها من مصطنعات اليهود وعاميّاتهم الشائعة، تسرّبت إلى التفسير والتاريخ[3]. وليس فيها

---

(١) العين ٦: ٦٦. (٢) لسان العرب ٥: ٣٥٢.

(٣) كما قال العلّامة ابن خلدون: كانت العرب يراجع أهل الكتاب قبلهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبعهم من حمير، ←

حديث مرفوع إلى النبيّ ﷺ سوى رواية واحدة رواها أبو هريرة ـ حسبما يأتي ـ ولعلّه رفعها ذهولاً، كما عُرف من دأبه كان أحياناً، ينسب إلى النبيّ ﷺ ما سمعه من كعب وغيره، وربما كان عن غفلة وذهول[1].

وبعد إليك ما ذكره كبار المفسّرين القدامى:

قال أبو جعفر الطبري:

والقرية التي أمرهم الله ـ جلّ ثناؤه ـ أن يدخلوها، فيأكلوا منها رغداً حيث شاؤوا فيما ذكر لنا: بيت المقدس. ذكر الرواية بذلك:

[٢٠٦٢/٢] روى عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قال: بيت المقدس.

[٢٠٦٣/٢] وروى أسباط، عن السدّي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أمّا القرية فقرية بيت المقدس.

[٢٠٦٤/٢] وروي عن الربيع: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ يعني بيت المقدس.

[٢٠٦٥/٢] وروى ابن وهب عن ابن زيد في قوله: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: هي أريحا، وهي قريبة من بيت المقدس[2].

وهكذا ذكر ابن أبي حاتم قال:

[٢٠٦٦/٢] روى معمر عن قتادة ﴿ادْخُلُوا هَاذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قال: بيت المقدس.

وروي عن الربيع بن أنس والسدّي نحو ذلك[3].

[٢٠٦٧/٢] وروى أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عبّاس، قال: هي أريحا وهي قرية الجبّارين وكان

← وهم يومئذ بادية مثلهم لايعرفون سوى العاميّات الشائعة وأكثرها خرافات وأساطير بائدة! قال: وتساهل المفسّرون فدبّجوا كتبهم بهذه المنقولات العاميّة يرويها أناس لا علم لهم ولا معرفة ولاتحقيق بمعرفة ماينقلونه، أمثال كعب الأحبار وعبدالله ابن سلام وتميم الداري وأشباههم. فمن ذلك جاءت البليّة في كتب التفسير والحديث. (المقدّمة: ٤٣٩ـ ٤٤٠).

(١) راجع ماكتبناه بهذا الشأن في «الجزء العاشر من التمهيد»: ١٠٤. وراجع أيضاً: الأضواء لأبي ريّة: ٢٠٢ـ٢٠٦.

(٢) الطبري ١: ٤٢٦.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١١٦؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧١ / ٥٦.

فيها قوم من بقيّة عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عناق. وقيل: هي بلقاء. وقال ابن كيسان: هي الشام.

[٢٠٦٨/٢] وقال الضحّاك: هي الرّملة والأردن وفلسطين وتدمر.

[٢٠٦٩/٢] وقال مجاهد: بيت المقدس.

[٢٠٧٠/٢] وقال مقاتل: إيلياء[١].

[٢٠٧١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: وهم يومئذٍ من وراء البحر[٢].

* * *

قال أبو جعفر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾: يعني بذلك: فكلوا من هذه القرية حيث شئتم عيشاً هنيّاً واسعاً بغير حساب. قال: وقد بيّنّا معنى الرغد فيما مضى من كتابنا، وذكرنا أقوال أهل التأويل فيه[٣].

[٢٠٧٢/٢] وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن مجاهد[٤] في قوله ﴿رَغَداً﴾ قال: لا حساب عليهم.

[٢٠٧٣/٢] وروى عن السدّي في قوله: ﴿رَغَداً﴾ قال: الهنيء[٥].

[٢٠٧٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان: يعني: ما شئتم وإذ شئتم وحيث شئتم.[٦]

[٢٠٧٥/٢] وقال أبو إسحاق الثعلبي: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾: موسَّعاً عليكم. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ يعني باباً من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب. ﴿سجّداً﴾ منحنين متواضعين. وأصل السجود الخضوع.

قال الشاعر:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً للحَوَافِر[٧]

وقال وهب: قيل لهم ادخلوا الباب، فاذا دخلتموه فاسجدوا شكراً لله عزّ وجلّ، وذلك أنّهم

(١) الثعلبي ١: ٢٠١.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٠٩.
(٣) الطبري ١: ٤٢٦.
(٤) تفسير مجاهد ١: ٧٦.
(٥) ابن أبي حاتم ١: ١١٧.
(٦) تفسير مقاتل ١: ١٠٩.
(٧) سيأتي شرح البيت عند ذكر كلام الطبري.

أذنبوا بإبائهم دخول أريحا، فلمّا فصلوا من التيه أحبّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يستنقذهم من الخطيئة.

[٢٠٧٦/٢] وفي قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال قتادة: حُطَّ عنّا خطايانا وهو أمرٌ بالاستغفار.

[٢٠٧٧/٢] وقال ابن عبّاس: يعني: لا إلـه إلّا الله؛ لأنّها تَحُطُّ الذنوب.

وهي رفعٌ على الحكاية في قول أبي عبيدة. وقال الزجاج: مسألتنا حطّة (أي رفع على كونه خبراً عن مبتدءٍ مقدّر).

﴿نغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وقرأ أهل المدينة بياء مضمومة وأهل الشام بتاء مضمومة. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ إحساناً وثواباً. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا﴾ أنفسهم بالمعصية، وقيل كفروا.

[٢٠٧٨/٢] وقال مجاهد: طؤطيء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم.

﴿قَوْلًا﴾ يعني وقالوا قولاً ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وذلك إنّهم أُمروا أن يقولوا ﴿حطّة﴾ فقالوا: حطانا سمقاثا. يعنون حنطة حمراء، استخفافاً بأمر الله.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَـلَمُوا رِجْزاً﴾ عذاباً ﴿مِّنَ السَّماءِ﴾ وذلك أنّ الله تعالى أرسل عليهم ظـلمة وطاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يلعبون ويخرجون من أمر الله عزّ وجلّ[١].

[٢٠٧٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ يعني باب إيلياء سجّداً فدخلوا متحرّفين على شقّ وجوههم[٢].

[٢٠٨٠/٢] وقال الحسن البصري: أُمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم[٣].

* * *

قال أبو جعفر الطبري: أما الباب الذي أُمروا أن يدخلوه، فإنّه قيل: هو باب الحطّة من بيت المقدس. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٨١/٢] روي عن مجاهد في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: باب الحطّة من باب إيلياء من

(١) الثعلبي ١: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١١٠.

(٣) ابن كثير ١: ١٠٢.

بيت المقدس.

[٢/٢٠٨٢] وعن السُّدّي في قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: أمّا الباب فباب من أبواب بيت المقدس.

[٢/٢٠٨٣] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: إنّه أحد أبواب بيت المقدس. وهو يدعى باب حطّة.

وأما قوله: ﴿سُجَّداً﴾ فإنّ ابن عبّاس كان يتأوّله بمعنى الرُّكَّع.

[٢/٢٠٨٤] روي عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: رُكّعاً من بابٍ صغير.

[٢/٢٠٨٥] وعن سعيد، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: أُمروا أن يدخلوا رُكَّعاً. وأصل السجود: الانحناء لمن سجد له معظّماً بذلك، فكلّ منحنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد ومنه قول الشاعر ـ وهو زيد الخيل[١] ـ:

بجمعٍ تضلّ البُلق في حجراته ترى الأُكم فيه سجّداً للحوافر[٢]

يعني بقوله: سجّداً: خاشعة خاضعة. ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

يراوح من صلوات المليـ ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا[٣]

فذلك تأويل ابن عبّاس قوله: ﴿سُجَّداً﴾ ركّعاً، لأنّ الراكع منحنٍ، وإن كان الساجد أشدّ انحناءً منه[٤].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾: فعلة، من قول القائل: حطّ الله عنك خطاياك فهو يحطّها حطّة، بمنزلة الردّة والحدّة والمدّة من رددتُ وحددتُ ومددتُ.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا.

[٢/٢٠٨٦] فقد روى عبدالرزّاق، عن معمر: في قوله ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال الحسن وقتادة: أي

(١) على ما صرّح به الطبري ذيل الآية ٧٤ البقرة (١: ٤٧٢).

(٢) البُلق: جمع أبلق وبلقاء، الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين. الحجرات: جمع حَجْرة، وهي الناحية. والأكم: جمع أَكَمة وهي تلّ يكون أشدّ ارتفاعاً ممّا حوله.

(٣) الجؤار: رفع الصوت بالدعاء مع تضرّع واستغاثة وجزع.

(٤) الطبري ١: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

احطط عنّا خطايانا.

[٢٠٨٧/٢] وروى ابن وهب عن ابن زيد: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: يحطّ الله بها عنكم ذنبكم وخطاياكم.

[٢٠٨٨/٢] وروى ابن جريج، عن ابن عبّاس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: يحطّ عنكم خطاياكم.

[٢٠٨٩/٢] وروى سعيدبن جبير، عن ابن عبّاس قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾: مغفرة.

[٢٠٩٠/٢] وروى أبو جعفر عن الربيع قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: يحطّ عنكم خطاياكم.

[٢٠٩١/٢] وروى حجّاج، عن ابن جريج، قال: قال لي عطاء في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: سمعنا أنّه يحطّ عنهم خطاياهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: قولوا: لا إله إلّا الله. كأنّهم وجّهوا تأويله: قولوا الذي يحطّ عنكم خطاياكم، وهو قول لا إلـه إلّا الله. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٩٢/٢] روى المثنّى وسعدبن عبدالله بن عبدالحكم المصري، قالا: أخبرنا حفص بن عمرو عن الحكم بن أبان عن عكرمة، قال: قولوا: لا إلـه إلّا الله[(١)].

[٢٠٩٣/٢] وهكذا أخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عِكرمة عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: قولوا: لا إلـه إلّا الله[(٢)].

وقال آخرون بمثل معنى قول عكرمة، إلّا أنّهم جعلوا القول الّذي أُمروا بقيله الاستغفار. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٩٤/٢] روى سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: أُمروا أن يستغفروا.

وقال آخرون نظير قول عكرمة، إلّا أنّهم قالوا القول الذي أُمروا أن يقولوه هو أن يقولوا هـذا الأمر حقّ كما قيل لكم. ذكر من قال ذلك:

[٢٠٩٥/٢] روى الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: قولوا هذا الأمر حقّ كما قيل لكم.

---

(١) الطبري ١: ٤٢٧ـ٤٢٨.

(٢) الدرّ ١: ١٧٣؛ الأسماء والصفات: ١٧٢، باب: ما جاء في فضل الكلمة الباقيه في عقب إبراهيم ﷺ وهي كـلمة التـقوى ودعوة الحقّ لا إلـه إلّا الله.

قال أبو جعفر. واختلف أهل العربيّة في المعنى الذي من أجله رفعت الحطّة. فقال بعض نحويّي البصرة: رفعت الحطّة بمعنى قولوا ليكن منكم حطّة لذنوبنا، كما تقول للرجل: سَمْعُك.

وقال آخرون منهم: هي كلمة أمرهم الله أن يقولوها مرفوعة، وفرض عليهم قيلها كذلك.

وقال بعض نحويّي الكوفيين: رفعت الحطّة بضمير «هذه». كأنّه قال: وقولوا هذه حطّة.

وقال آخرون منهم: هي مرفوعة بضمير معناه الخبر، كأنّه قال: قولوا ما هو حطّة، فتكون حطّة حينئذٍ خبراً لـ «ما».

والذي هو أقرب عندي في ذلك إلى الصواب وأشبه بظاهر الكتاب، أن يكون رفع حطّة بنيّة خَبَرِ محذوفٍ[1] قد دلّ عليه ظاهر التلاوة، وهو: دخولُنا البابَ سجَّداً حطّةٌ، فكفى من تكريره بهذا اللفظ ما دلّ عليه الظاهر من التنزيل، وهو قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ كما قال ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾[2] يعني موعظتنا إيّاهم معذرة إلى ربّكم. فكذلك عندي تأويل قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يعني بذلك: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ... وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا﴾ دخولنا ذلك سجّداً ﴿حِطَّةٌ﴾ لذنوبنا، وهذا القول على نحو تأويل الربيع بن أنس وابن جريج وابن زيد الذي ذكرناه آنفاً.

وأمّا على تأويل قول عكرمة، فإنّ الواجب أن تكون القراءة بالنصب في «حطّة» لأنّ القوم إن كانوا أُمروا أن يقولوا: لا إلـه إلّا الله، أو أن يقولوا: نستغفر الله، فقد قيل لهم: قولوا هذا القول، فـ «قولوا» واقع حينئذٍ على الحطّة، لأنّ الحطّة على قول عكرمة هي قول لا إلـه إلّا الله، وإذ كانت هي قول لا إلـه إلّا الله، فالقول عليها واقع، كما لو أمر رجل رجلاً بقول الخير، فقال له: «قل خيراً» نصباً، ولم يكن صواباً أن يقول له: «قل خير» إلّا على استكراه شديد.

وفي إجماع القرّاء على رفع «حطّة» بيان واضح على خلاف الذي قاله عكرمة من التأويل في

---

(١) أي خبراً عن مبتدءٍ محذوف.

(٢) الأعراف ٧: ١٦٤. وقراءتنا في مصاحفنا «معذرةً» بالنصب. وأراد الطبري هنا «معذرةٌ» بالرفع. وقد قال في تفسير الآية ١٦٤ من سورة الأعراف: قرأ ذلك عامّة قرّاء الحجاز والكوفة والبصرة «معذرةٌ» بالرفع وقرأ ذلك بعض أهل الكوفة «معذرةً» نصباً.

قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾. وكذلك الواجب على التأويل الذي رويناه عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أن تكون القراءة في «حطّة» نصباً، لأنّ من شأن العرب إذا وضعوا المصادر مواضع الأفعال وحذفوا الأفعال أن ينصبوا المصادر، كما قال الشاعر:

أُبيدوا بأيدي عصبة وسيوفهم   على أمهات الهام ضرباً شآميا(١)

وكقول القائل للرجل: سمعاً وطاعة، بمعنى: أسمع سمعاً وأُطيع طاعة، وكما قال جلّ ثناؤه: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾(٢) بمعنى: نعوذ بالله(٣).

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿نغْفِرْ لَكُمْ﴾:

يعني بقوله: ﴿نغْفِرْ لَكُمْ﴾ نتغمّد لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها. وأصل الغفر: التغطية والستر، فكلّ ساتر شيئاً فهو غافره. ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التي تُتَّخذ جُنَّة للرأس «مِغفر» لأنّها تغطّي الرأس وتُجِنُّه، ومنه غمد السيف، وهو ما يغمده فيواريه؛ ولذلك قيل لزئبر(٤) الثوب «غَفَر»، لتغطيته العورة، وحؤوله بين الناظر والنظر إليها. ومنه قول أوس بن حجر:

فلا أعتب ابن العمّ إن كان جاهلاً   وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا(٥)

يعني بقوله: وأغفر عنه الجهل: أستر عليه جهله بحلمي عنه.

وقوله تعالى: ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ والخطايا جمع خطيّة بغير همز، كما في المطايا جمع مطيّة، والحشايا جمع حشيّة. وإنّما ترك جمع الخطايا بالهمز، لأنّ ترك الهمز في خطيئة أكثر من الهمز، فجمع على خطايا، على أنّ واحدتها غير مهموزة. ولو كانت الخطايا مجموعة على خطيئة بالهمز لقيل خطائي

(١) البيت للفرزدق في ديوانه، وروايته عنده: «أناخوا بأيدي طاعة وسيوفهم». أناخوا: ذلّوا وانقادوا. وأيدي طاعة: أهل طاعة. والشآمي: من الشوم أي ضربة بؤس وشوم. (٢) يوسف ١٢: ٢٣ و ٧٩.

(٣) الطبري ١: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٤) زئبر الثوب: هو ما يعلو الثوب الجديد من مائه كالذي يعلو القطيفة والخزّ. ويسمّونه درز الثوب أيضاً.

(٥) أجهل: بمعنى جاهل، كما قالوا أوحد بمعنى واحد وأميل بمعنى مائل.

على مثل قبيلة وقبائل، وصحيفة وصحائف. وقد تجمع خطيئة بالتاء فيهمز فيقال: خطيئات، والخطيئة فعيلة من خَطِىء الرجل يخطأ خِطأً، وذلك إذا عدل عن سبيل الحقّ. ومنه قول الشاعر:

وإنّ مهاجرين تكنّفاه لعمر الله قد خطئا وخابا[1]

يعني أضلّا الحقّ وأثما[2].

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

تأويل ذلك ما رُوي لنا عن ابن عبّاس، وهو ما:

[٢٠٩٦/٢] رواه ابن جريج، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: من كان منكم محسناً زيد في إحسانه، ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئته.

فتأويل الآية: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مباحاً لكم كلّ ما فيها من الطيّبات، موسَّعاً عليكم بغير حساب، وادخلوا الباب سُجَّداً، وقولوا: سجودنا هذا لله حطّة من ربّنا لذنوبنا يحطّ به آثامنا، نتغمّد لكم ذنوب المذنب منكم، فنسترها عليه، ونحطّ أوزاره عنه، وسنزيد المحسنين منكم إلى إحساننا السالف عنده إحساناً.

---

(١) البيت لأميّة بن الأسكر كما في أمالي القالي (٣: ١٠٨) ضمن أبيات أنشدها لعمر بن الخطّاب؛ يقول:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن رقب الكتابا
نتقّض مهده شفقاً عليه ونجنبه أباعرنا الصعابا
إذا هتفت حمامة بطن وادٍ على بيضاتها دَعَوَا كلابا
تركتَ أباك مرعَّشة يداه وأمّك ما تُسيغ لها شرابا
أناديه وولّاني قفاه فلا وأبي، كلابٌ ما أصابا
فإنّ مهاجرين تكنّفاه ليترك شيخه خطئاً وخابا
وإنّ أباك حيث علمتماه يطارد أينُقاً شُسُباً طِرابا
إذا بلغ الرسيم فكان شدّاً يخرّ فخالط الذقن الترابا

وكان أميّة قد أسنّ في الجاهلية، وتركه ابنه كلاب وخرج غازياً. فلمّا سمع عمر هذه الأبيات كتب إلى سعد بن أبي وقّاص أن رَحِّلْ كلاب بن أميّة بن الأسكر؛ فرحّله.

(٢) الطبري ١: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

ثمّ أخبر الله ـ جلّ ثناؤه ـ عن عظيم جهالتهم، وسوء طاعتهم ربَّهم وعصيانهم لأنبيائهم واستهزائهم برسله، مع عظيم آلاء الله ـ عزّ وجلّ ـ عندهم، وعجائب ما أراهم من آياته وعبره، موبّخاً بذلك أبناءهم الّذين خوطبوا بهذه الآيات، ومُعْلِمُهم أنّهم إن تعدّوا في تكذيبهم محمداً ﷺ وجحودهم نبوّته مع عظيم إحسان الله بمبعثه فيهم إليهم، وعجائب ما أظهر على يديه من الحجج بين أظهرهم، أن يكونوا كأسلافهم الّذين وصف صفتهم. وقصّ علينا أنباءهم في هذه الآيات، فقال ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية.

قوله: ﴿فَبَدَّلَ﴾ فغيّر. ويعني بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الّذين فعلوا ما لم يكن لهم فعلُه. ويعني بقوله: ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بدّلوا قولاً غير الذي أُمروا أن يقولوه فقالوا خلافه، وذلك هو التبديل والتغيير الذي كان منهم. وكان تبديلهم ـ بالقول الذي أُمروا أن يقولوه ـ قولاً[1] غيره ما:

[٢٠٩٧/٢] رواه عبدالرزّاق، عن معمر عن همّام بن منبّه أنّه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّة نغفر لكم خطاياكم، فبدّلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبّةٌ في شعيرة»[2].

[٢٠٩٨/٢] وروى همّام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: «بدّلوا فقالوا: حبّة».

[٢٠٩٩/٢] وروى أبو الكنود، عن عبدالله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٠/٢] وروى سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: ركوعاً

(١) «قولاً» مفعول «تبديلهم».

(٢) رواه البخاري ٤: ١٢٩ و ٥: ١٤٨، في الأنبياء، باب ٢٨، وتفسير سورة ٧ باب ٤ و سورة ٢ باب ٥. ومسلم ٨: ٢٣٨ كتاب الزهد والرقاق وكتاب التفسير حديث ١. والترمذي ٤: ٢٧٣ / ٤٠٣٢ في تفسير سورة ٢ باب ٢. وأحمد في المسند ٢: ٣١٨. وروايتهم كلّهم: «حبّة في شعرة». قال ابن كثير (١: ١٠٢ ـ ١٠٣): هذا حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي كلّهم عن عبدالرزّاق.

من باب صغير. فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم. ويقولون حنطة؛ فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠١/٢] وروى سعيد، عن ابن عبّاس، قال: أُمروا أن يدخلوا ركّعاً، ويقولوا: حطّة ـ قال: أُمروا أن يستغفروا ـ قال: فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم من باب صغير ويقولون حنطة يستهزئون، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٢/٢] وروى عبدالرزّاق عن معمر، عن قتادة والحسن: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قالا: دخلوها على غير الجهة التي أُمروا بها، فدخلوها متزحفين على أوراكهم، وبدّلوا قولاً غير الذي قيل لهم، فقالوا: حبّة في شعيرة.

[٢١٠٣/٢] وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجّداً ويقولوا حطّة، وطُؤطئ لهم الباب ليسجدوا فلم يسجدوا ودخلوا على أدبارهم وقالوا حنطة.

[٢١٠٤/٢] وروى أيضاً ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا المسجد ويقولوا حطّة، وطؤطئ لهم الباب ليخفضوا رؤسهم، فلم يسجدوا ودخلوا على أستاههم إلى الجبل، وهو الجبل الذي تجلّى له ربّه وقالوا: حنطة. فذلك التبديل الذي قال الله عزّوجلّ: ﴿فَـبَدَّلَ الَّـذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٥/٢] وروى بالإسناد إلى ابن مسعود أنّه قال: إنّهم قالوا: «هطى سمقا يا أزبة هزبا»[1]، وهو بالعربيّة: حبّة حنطة حمراء مثقوبة[2] فيها شعيرة سوداء. فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٦/٢] وروى سعيدبن جبير، عن ابن عبّاس: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: فدخلوا على أستاههم مقنعي رؤوسهم.

[٢١٠٧/٢] وروى أبو النضربن عديّ، عن عكرمة: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ فدخلوا مقنعي

(١) ولعلّ الصحيح ما أخرجه الحاكم (٢: ٣٢١) في الحديث الآتي وصحّحه عن ابن مسعود قال: قالوا: «هطا سمقاثا ازبه مزبا».

(٢) ولعلّ الصحيح على ما رواه الحاكم: «حنطة حمراء قويّة».

رؤوسهم، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فقالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٨/٢] وروى عن الربيع بن أنس: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: فكان سجود أحدهم على خدّه، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ نحطّ عنكم خطاياكم، فقالوا: حنطة، وقال بعضهم: حبّة في شعيرة. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٠٩/٢] وروى ابن وهب عن ابن زيد: في قوله ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: يحطّ الله بها عنكم ذنبكم وخطيئاتكم. قال: فاستهزأوا به ـ يعني بموسى ـ وقالوا: ما يشاء موسى أن يلعب بنا إلّا لعب بنا حطّة حطّة! أيُّ شيء حطّة؟ وقال بعضهم لبعض: حنطة.

[٢١١٠/٢] وروى ابن جريج، عن ابن عبّاس قال: لمّا دخلوا قالوا: حبّة في شعيرة.

[٢١١١/٢] وروى عن ابن عبّاس، قال: لمّا دخلوا الباب قالوا: حبّة في شعيرة، فبدّلوا قولاً غير الذي قيل لهم[1].

* * *

[٢١١٢/٢] قال مقاتل بن سليمان: وذلك أنّ بني إسرائيل خرجوا مع يوشع بن نون بن اليشامع بن عميهوذ بن غيران بن شونالخ بن إفراييم بن يوسف ﷺ من أرض التيه إلى العمران حيال أريحا وكانوا أصابوا خطيئة فأراد الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يغفر لهم وكانت الخطيئة أنّ موسى ﷺ كان أمرهم أن يدخلوا أرض أريحا التي فيها الجبّارون فلهذا قال لهم: قولوا حطّة، يعني بحطّة: حُطَّ عنّا خطايانا. ثمّ قال: ﴿نغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الّذين لم يصيبوا خطيئة؛ فزادهم الله إحساناً إلى إحسانهم.[2]

[٢١١٣/٢] وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ حتّى إذا كان من آخر الليل اجتزنا في ثنيّة يقال لها: ذات الحنظل، فقال: ما مَثَلُ هذه الثنيّة اللّيلة إلّا كمثل الباب الذي قال

---

(١) الطبري ١: ٤٣٢ ـ ٤٣٥، بتصرّف وتخليص.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١١٠ وقد خلط بين إيليا وأريحا!

الله لبني إسرائيل: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾»[١].

[٢١١٤/٢] وأخرج الحاكم بالإسناد إلى السدّي عن مرّة الهَمداني عن عبدالله بن مسعود، قال: إنّ أصحاب العجل قالوا: هِطّا سُمقاثا أزبه مزبا، وهي بالعربيّة: حنطة حمراء قويّة فيها شعرة سوداء، فذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾[٢].

قال القرطبي: وهي لفظة عبرانيّة، تفسيرها: حنطة حمراء. حكاها ابن قتيبة وحكاها الهروي عن السدّي ومجاهد[٣].

* * *

وقال الحجّة البلاغي: قالوا ما لا يرجع إلى الاستغفار وطلب الحطّ لأثقال ذنوبهم، ولعلّ من مصداق ذلك أنّهم حذفوا الأمر بالعبادة والاستغفار ودوام السجود في بيت المقدس وبدّلوه بأنّ الله أمرهم في التوراة بأنّهم إذا لم يقدروا أن يحملوا زكواتهم، أن يبيعوها بفضّة وينفقوها في بلد بيت المقدس بما تشتهي أنفسهم في البقر والغنم والخمر والمسكر، كما في الفصل الرابع عشر من سفر التثنية!

قال: وهل يُعقل أنّ الله يأمر بإنفاق الزكاة في شرب الخمر والمسكر في بيت عبادته؟![٤].

وقال الشيخ محمّد عبده: منشأ هذه الأقوال، الروايات الإسرائيليّة، ولليهود في هذا المقام كلام كثير وتأويلات خُدع بها المفسّرون. ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى. قال: وما ورد في الصحيح منها لا يخلو من علّة إسرائيليّة[٥].

وذكر السيّد رشيد رضا عن أستاذه: وأمّا معنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم، فهو أنّهم عصوا بالقول والفعل، وخالفوا الأمر مخالفة تامّة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأويل.

قال: ولا ثقة لنا بشيء ممّا روي في هذا التأويل من ألفاظ عبرانيّة ولا عربيّة، فكلّه من الإسرائيليّات الوضعيّة، وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً كحديث أبي هريرة

---

(١) الدرّ ١: ١٧٤؛ ابن كثير ١: ١٠٣.

(٢) الحاكم ٢: ٣٢١؛ الكبير ٩: ٢١١ / ٩٠٢٧؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٤.

(٣) القرطبي ١: ٤١١.

(٤) تفسير آلاء الرحمان ١: ٩٥ ـ ٩٦.

(٥) تفسير المنار ١: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

المرفوع في الصحيحين وغيرهما. قال: ولم يصرّح أبو هريرة بسماع هذا من النبيّ ﷺ فيحتمل أنّه سمعه من كعب الأحبار، إذ ثبت أنّه روي عنه. قال السيّد: وهذا مدرك عدم اعتماد الأستاذ ﷺ على مثل هذا من الإسرائيليّات وإن صحّ سنده[١].

وفسّر أبو مسلم التبديل هنا بمجرّد المخالفة وترك ما أُمروا به، لا أنّهم بدّلوه بقول آخر.

قال: قوله تعالى: ﴿فبدّل﴾ يدلّ على أنّهم لم يفعلوا ما أُمروا به، لا على أنّهم أتوا له ببدل.. قال: والدليل عليه، أنّ تبديل القول قد يُستعمل في المخالفة [محضاً]، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ...﴾[٢]، ولم يكن تبديلهم إلّا الخلاف في الفعل لا في القول، فكذا هنا فيكون المعنى: أنّهم لمّا أُمروا بالتواضع وسؤال المغفرة لم يمتثلوا أمر الله[٣].

وهذا القول رجّحه المراغي والقاسمي وغيرهما من مفسّرين معاصرين[٤].

لكن هذا ينافي ظاهر قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[٥].

* * *

وقال ابن عاشور: وكان المخاطبون العرب واليهود يعلمون تفاصيل القصّة، ومن ثمّ جاءت الآية مختصراً فيها الكلام، الأمر الذي جعل المفسّرين حيارى فسلكوا طرائق لانتزاع تفصيل المعنى، ولم يأتوا بشيء مقنع، وفيها بعض التضارب والمخالفات.

قال: والذي عندي أنّ الآية أشارت إلى قصّة معروفة تضمّنتها كتبهم[٦] وهي أنّ بني إسرائيل لمّا طوّحت بهم الرحلة إلى بريّة «فاران»[٧] نزلوا بمدينة «قادش»[٨] فأصبحوا على حدود أرض

---

(١) تفسير المنار ٩: ٣٧٣.
(٢) الفتح ٤٨: ١٥.
(٣) التفسير الكبير ٣: ٩١. وتفسير أبي مسلم ـ إخراج الغياثي ـ: ٩٤.
(٤) راجع: تفسير المراغي ١: ١٢٤. والقاسمي ١: ٢٩٦.
(٥) البقرة ٢: ٥٩. والأعراف ٧: ١٦٢.
(٦) راجع: سفر الخروج: ١٦. وسفر التثنيه: ١ ـ ٢. وسفر الأعداد: ١٣ ـ ١٤.
(٧) بريّة فاران: صحراء وسيعة واقعة في سفح جبل بهذا الاسم، بمعنى: ذات مغارات، كانت متاه بني إسرائيل، بين وادي سيناء جنوباً، وأرض كنعان شمالاً، وخليج العقبه شرقاً، وصحراء الشام غرباً.
(٨) قاديشا، يعني الوادي المقدّس، وادٍ في لبنان الشمالي. دُعي كذلك لكثرة النسّاك والرهبان الّذين أقاموا فيه منصرفين إلى العبادة في مغارة. كان ملجأً للموارنة في أيّام الشدّة.

كنعان (الأرض الموعودة) وذلك أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر. فأرسل موسى اثني عشر رجلاً يتجسّسون أرض كنعان، من كلّ سبط رجل، وفيهم يوشع بن نون وكالِب بن يَفُنَّة، فصعدوا وأتوا إلى مدينة «حَبْرون»(١) فوجدوا الأرض ذات خيرات، فأخذوا من عنبها ورمّانها وتينها ورجعوا بعد أن قضوا أربعين يوماً وأخبروا القوم وأروهم ثمر الأرض، وقالوا: إنّها ـ حقّاً ـ تفيض لبناً وعسلاً. غير أنّ أهلها ذوو عزّة، ومدنها حصينة جدّاً. فأوعز موسى إلى كالب ويوشع بأنّهم سوف يصعدون إلى المدينة ويمتلكونها، غير أنّ العشرة الباقين أشاعوا في بني إسرائيل مذمّة الأرض وأنّ فيها جبابرة، فخافت بنو اسرائيل وجبنوا عن القتال. فقام يوشَع وكالِب وقالا: لا تخافوا فإنّهم سوف يذلّهم الله على أيدينا، فلم يكترث القوم بقولهما وتجابنوا. فأوحى الله إلى موسى أنّ قومه قد أساؤوا الظنّ بربّهم، فعاقبهم بالحرمان من دخول الأرض المقدّسة أربعين سنة يتيهون في الأرض.

قال ابن عاشور: هذه القصّة كما وردت في العهد القديم تنطبق بعض الانطباق مع الآية الكريمة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ.قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِم الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٢).

قال: قوله تعالى: ﴿ادخُلُوا هَذِهِ القَرْيَة﴾ الظاهر أنّه أراد بها «حَبْرون»(٣) التي كانت قريبة منهم والتي ذهب إليها جواسيسهم وأتوا بأخبارها وثمارها.

---

(١) سيأتي الكلام عنها.

(٢) المائدة ٥: ٢١ ـ ٢٦.

(٣) حَبْرون: هي مدينة الخليل، من أقدم مدن العالم. معروفة بزراعة العنب والتين وصناعة الزجاج. كانت مسكن إبراهيم الخليل وفيها مقبرته. مبنيّة على هضبة على مسافة ٢٠ ميلاً من جنوبي أُورشليم و ١٠٠ ميل من بلدة ناصرة. بناؤها من حجر الكلس وكانت لها أبواب وأسوار. وكانت بعد فتحها عاصمة الحكم الإسرائيلي، حتّى اتّخذ داوود أُورشليم عاصمة البلاد.

قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾ يبدو أنّها إشارة إلى ما أشاعته الجواسيس العشرة من مذمّة الأرض وصعوبتها وقوّة رجالها وما شابه ذلك ممّا يدلّ على وهن عزيمتهم للقيام والمقابلة وأنّهم لم يقولوا كما قال لهم موسى ولم ينتهضوا كما استنهضهم موسى ورجلان معه يوشع وكالِب.

ولعلّ التعبير بكلمة «هذه» المفيدة للقرب ما يرجّح أنّ القرية هي «حَبْرون» الّتي تطلّع عليها جواسيسهم. والقرية: مجتمع المساكن المبنيّة العامرة، من القَرْي وهو الجمع، وتطلق على البـلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب، كما أريد هنا.

وقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ مراد به باب القرية المعهودة. ومعنى السجود عـند الدخـول: الانحناء شكراً لله تعالى أن فضّلهم بهذه النعم.. لا لأنّ بابها قصير كما قيل، إذ لا جدوى له.. كما لم يعهد أن يجعل للمدينة باب قصير.

قال ابن عاشور: ولعلّ الأمر بالانحناء عند الدخول، إيهام لإظهار العجز والضعف فلا يفطن لهم أهل القرية ولا يهابونهم، وهذا من أحوال الجوسسة ولم تتعرّض لها التوراة. قال: ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر، لأنّهم داخلون متجسّسين لا فاتحين.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾. ولعلّ هذا القول كان معروفاً ذلك العهد للدلالة على العجز، أو هو من أقوال السُّؤَّال والشحّاذين كي لا يحسب لهم حساب فلا يتحذّر منهم أهل القرية.

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَـلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي بدّل العشرة القول الذي أمـر مـوسى بإعلانه في القوم وهو الترغيب في دخول القرية وتهوين العدوّ عليهم، فقالوا ـ بدلاً من ذلك ـ: لا تستطيعون مقابلتهم فثبّطوهم. ولذلك عوقبوا فأُنزل عليهم رجز من السماء ـ أي بتقدير من السماء ـ وهو بلاء الطاعون. وقد خصّ بالمثبّطين.

وإنّما جاء بالظاهر في موضع المضمر في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَـلَمُوا رِجْـزاً﴾ ولم يـقل: «عليهم» لئلّا يتوهّم أنّ الرجز عمّ الجميع. وبـذلك تـنطبق الآيـة عـلى مـا ذكـرته التـوراة تـمام الانطباق[1].

---

(١) جاء في سفر الأعداد: ١٤ / ٣٦ و ٣٧ و ٣٨: «أمّا الرجال الاثنا عشر الّذين أرسلهم موسى للتجسّس فرجـعوا وثـبّطوا القوم فأخذهم الله بالوباء، سوى يشوع بن نون وكالب بن يَفُنَّة فعاشا. وكان لهما التوفيق بدخول المدينة بعد أربعين عاماً.

كلام في تأويل الحطّة

وأنّ أولياء الله هم الذرائع لغفران الذنوب وبلوغ المآرب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

أي تحرّوا ما يُوصلكم إلى قربه تعالى. قال الراغب: الوسيلة أخصّ من الوصيلة، لتضمّنها لمعنى الرغبة. والواسل: الراغب.

قال تعالى ـ بشأن الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين حقّاً ـ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[2]. أي يتحرّون أقرب الوسائل إليه تعالى!

وأقرب الوسائل إلى الله تعالى ـ بعد الطاعة والعمل الصالح ـ هو التزلّف لدى نبيّ الرحمة صاحب اللّواء والشّفاعة والوسيلة الناجحة.

كما جاء التصريح بذكره ﷺ في القرآن وأنّه الوسيلة الناجحة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[3].

أي جاؤوك يبتغون الوسيلة فيك. فكان اقتران استغفاره ﷺ لهم، لاستغفارهم تضامناً لغفرانه تعالى وشمول رحمته لهم جميعاً.

وهكذا فهم المسلمون منذ أوّل يومهم أنّ أفضل وسيلة مقرّبة إلى الله هو التوسّل بباب الرحمة نبيّ الإسلام، الشافع المشفّع.

قال سواد بن قارب عند مقدمه إلى رسول الله ﷺ:

فأشهد أنّ الله لا ربّ غيرُه ... وأنّك مأمونٌ على كلّ غائب

وأنّك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطائب

فمرنا بما يأتيك من وحي ربّنا ... وإن كان فيما جئت شَيْبُ الذوائب

---

(١) المائدة ٥: ٣٥. (٢) الإسراء ١٧: ٥٧.

(٣) النساء ٤: ٦٤.

وكـن لي شـفيعاً يـوم لا ذوشـفاعة بمغنٍ فتيلاً عن سواد بـن قـارب[١].

[٢١١٥/٢] وروى البخاري في الصحيح بالإسناد إلى عبدالله بن عمر أنّه كـان يـتمثّل عـند الاستسقاء بشعر أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ:

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمامُ بـوجهه ثمال اليـتامى عـصمة للأرامـل

قال عمربن حمزة: حدّثنا سالم عن أبيه (عبدالله بن عمر) قال: ربّما ذكرتُ قول الشاعر ـ وأنا أنظر إلى وجه النبيّ ﷺ يَسْتَسْقي، فما ينزل [عن المنبر] حتّى يجيش كلّ ميزاب ـ:

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمامُ بـوجهه ثمال اليـتامى عـصمة للأرامـل

قال البخاري: وهو قول أبي طالب.

[٢١١٦/٢] وروى بالإسناد إلى أنس أنّ عمربن الخطّاب كان إذا قَحَطُوا استسقى بالعبّاس بن عبدالمطّلب. فقال: «اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتَسْقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسْقنا». قال: فَيُسْقَوْن[٢].

[٢١١٧/٢] وروى عبدالرزّاق من حديث ابن عبّاس: أنّ عمر استسقى بالمصلّى فقال للعبّاس: قم فاستسق! فقام العبّاس... وساق الحديث...[٣].

[٢١١٨/٢] وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح[٤] من رواية أبي صالح السمّان عن مالك الداري ـ وكان خازن عمر ـ قال: أصاب الناس قحطٌ في زمن عمر، فجاء رجل[٥] إلى قبر النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق لأمّتك، فإنّهم قد هلكوا! فأُتِيَ الرجلُ في المنام فـقيل له: ائت عـمر... وسـاق الحديث[٦].

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البَرّ، بهامش الإصابة ٢: ١٢٤. والإصابة لابـن حـجر ١: ٩٦. وروض الأنـف للسـهيلي ١: ٢٤٤. وغيرها من كتب السير والتاريخ والحديث.

(٢) البخاري ٢: ١٥، باب ٣، من الاستسقاء. والباب ١١ من فضائل الصحابة و ٤: ٢٠٨؛ البيهقي ٣: ٣٥٢.

(٣) المصنَّف لعبدالرزّاق ٣: ١٦ / ٤٩٢٧ ـ ٣ / ٩٢.

(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري ٢: ٤١٢.

(٥) قال ابن حجر: وقد روى سيف في الفتوح: أنّ الّذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحرث المزني أحد الصحابة (الفتح ٢: ٤١٢).

(٦) فتح الباري لابن حجر ٢: ٤١٢.

وفي هذا دلالة على جواز مناجاة النبيّ عند قبره، وعرض الحوائج لدى ضريحه المقدّس، بل والاستلهام من فيض قدسه الشريف.

وهكذا كان أجلّاء الصحابة يأتون قبره ويناجونه في سرّ خلدهم مع سيّدهم سيّد الأبرار.

[٢١١٩/٢] وروى الحاكم بإسناد صحيح عن داوود بن أبي صالح قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم! فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاري ـ رضوان الله عليه ـ[١] فقال: جئتُ رسول الله ﷺ ولم آتِ الحَجَرَ! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهلُه، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غيرُ أهله»[٢] مُعرِّضاً بمروان! وكان والياً على المدينة من قبل معاوية!!

[٢١٢٠/٢] وروى ابن عساكر بالإسناد إلى أبي الدرداء قال: لمّا رحل عمر بن الخطّاب من فتح بيت المقدس فصار إلى جابية، سأله بلال بن رباح مؤذّن رسول الله ﷺ أن يقرّه بالشام، ففعل. ثمّ إنّ بلالاً رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول: «ما هذه الجفوة يا بلال؟! أما آن لك أن تزورني يا بلال؟» فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه[٣].

وهكذا كان جلّ الصحابة يتبرّكون بقبره ويناجونه، أورد السمهودي كثيراً منها في فصل زيارته ﷺ وكذا صاحب الغدير والأحمدي في كتابه تبرّك الصحابة والتابعين بآثار النبيّ وذويه.

[٢١٢١/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل بالإسناد إلى مسلم الملائي عن أنس بن مالك، قال: جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد أتيناك ومالنا بعير يئطّ ولا صبّي يغطّ[٤] وأنشده:

---

(١) هو خالد بن زيد بن كليب أبو أيّوب الأنصاري النجاري معروف باسمه وكنيته. توفّي سنة اثنتين وخمسين.

(٢) الحاكم ٤: ٥١٥. مسند أحمد ٥: ٤٢٢.

(٣) قال السمهودي: إسناده جيّد (وفاء الوفاء ٤: ١٣٥٦). ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ١: ٢٠٨. راجع: الغدير ٥: ١٤٧. والتبرّك للأحمدي: ١٤٧ ـ ١٥٥.

(٤) الأطيط: صوت البعير المثقّل بالحمل. والغطيط: صوت النائم يغطّ في نومة مريحة.

أتـيناك والعـذراءُ يَـدمي لَـبانُها ... وقـد شُـغِلَتْ أمُّ الصبيّ عـن الطـفل
وألقـى بكـفّيه الصـبيُّ اسـتكانةً ... مـن الجـوع ضعفاً مـا يَـمُرُّ ولا يُـخلي
ولا شـيء ممّا يأكـل النـاسُ عـندنا ... سوى الحنظل العامّي والعِلْهِزِ الفَسْل[١]
وليس لنـا إلّا إليك فـرارنـا ... وأيـن فـرار النـاس إلّا إلى الرُّسـل

فقام رسول الله ﷺ يجرّ رداءه حتّى صعد المنبر، ثمّ رفع يديه إلى السماء فقال: «اللهمّ اسقنا غيثاً مُغيثاً مَريئاً مَرْيعاً غَدَقاً، طَبَقا عاجلاً غير رائث[٢]، نافعاً غير ضارّ، تَمْلأ به الضَرْع وتُنْبت بـه الزَرْع، وتُحيي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون».

قال: فوالله ما ردّ يديه إلى نحره حتّى ألقت السماء بأبراقها. فضحك رسول الله ﷺ حتّى بدت نواجذه ثمّ قال: لله درّ أبي طالب لو كان حيًّا قرّت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقام عليّ بن أبي طالب ﵇ فقال: يا رسول الله كأنّك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بـوجهه ... ثمال اليـتامى عـصمة للأرامـل

وهذا البيت من أبيات في قصيدة لأبي طالب ﵁ ذكرها ابن اسحاق في السيرة بطولها وهي أكثر من تسعين بيتاً[٣]. قالها لمّا تمالأت قريش على النبيّ ﷺ ونفّروا عنه من يريد الإسلام.

قال السهيلي: كيف قال أبوطالب: وأبيض يُستَسقى الغمام بوجهه، ولم يره قطّ استسقى، وإنّما كان استسقاءاته ﷺ بالمدينة، وفيها شوهد ما كان من سرعة إجابة الله له؟!

قال: فالجواب: أنّ أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضاً في حياة عبدالمطّلب ما دلّه على ما قال.

[٢١٢٢/٢] فقد روى أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم البُستي النيسابوري: أنّ رُقَيْقَة بنت أبي صيفي بن هاشم قالت:

تتابعت على قريش سِنُو جَدْب قد أقحلتِ الظُلْف[٤] وأرقّت العظم، فبينا أنا راقـدة للـهمّ أو

---

(١) الحنظل العامّي: الّذي مضى عليه عام ويبس. والعِلْهِز، وَبَر كان يُخْلَط بدماء الحَلَم (وهي القردان تمصّ الدم من الجلد) ثمّ يُشوى بالنار. فكانت العرب تقتات به عند سنيّ المجاعة. والفَسْل: الهزيل الذي لا رواء له.

(٢) يقال: طَبِق يفعل الشيء: طفق وأخذ يفعل. ويقال: راث وتريّث: أبطأ.

(٣) أوردها ابن هشام في السيرة (١: ٢٩١ ـ ٢٩٩) أربعاً وتسعين بيتاً.

(٤) أي ذوات الظّلف. وأقحل الشيء: أيبسه.

مُهْدَمة[١] ومعي صنوي[٢] إذا أنا بهاتف صَيِّت يصرخ بصوت صَحِل[٣] يقول: يا معشر قريش إنّ هذا النبيّ المبعوث منكم، هذا إبّان نُجُومه[٤] فحيّهلا بالحيا والخِصْب[٥]. ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً عظاماً أبيض فظّاً، أشمّ العرنين، له فخر يكظم عليه. ألا فليخلص هو وولده، وليدلف إليه من كلّ بطن رجلٌ. ألا فليشنّوا من الماء[٦]، وليمسّوا من الطيب، وليطوّفوا بالبيت سبعاً.. ألا وفيهم الطيّب الطاهر لذاته. ألا فليدع الرجل وليؤمّن القومُ. ألا فَغِثْتُم أبداً ما عِشْتم[٧].

قالت: فأصبحتُ مذعورةً قد قَفَّ جلدي[٨] ووَلِهَ عَقلي، فاقتصصتُ رؤياي، فوا لحُرْمَةِ والحَرَمِ، إن بقي أبطحيٌّ إلّا قال: هذا شيبة الحمد[٩].

وتتامّت عنده قريش[١٠] وانفضّ إليه الناس من كلّ بطنٍ رجلٌ، فشنُّوا ومَشَوْا واستلموا واطّوّفوا، ثمّ ارتقوا أبا قبيس... حتّى قرّوا بِذِروة الجبل، واستكفّوا جَنابيه[١١].

فقام عبدالمطّلب فاعتضد[١٢] ابن ابنه محمّداً ﷺ فرفعه على عاتقه، وهو يومئذٍ غلام قد أيفع أو قد كرب[١٣]. ثمّ قال:

«اللّهم سادّ الخلّة وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلَّم ومسؤول غير مبخَّل[١٤]. وهذه

(١) أي خائرة القُوَى منهارة الأشلاء. (٢) الصِّنْو: الأخ الشقيق.

(٣) يقال: صَحِلَ صوتُه صَحَلاً: غلظ وخشن فهو صَحِل.

(٤) أي هذا أوان ظهوره.

(٥) أي هلمّوا وأقبلوا بالحيا وهو رَيْع الزرع بوفور المطر. والخِصْب: كثرة العشب والخير.

(٦) أي يَصُبُّوا عليهم الماءَ، يُراد به غسل الوجه والأكفّ أو الاغتسال.

(٧) غِثْتُم: أي عمّكم الغيثُ. يقال: غاث الله البلاد: أنزل بها الغيث. غاث الغيثُ الأرضَ: نزل بها، فغيثت الأرض وهي مغيثة.

(٨) أي يبس وتعضّن، وهو تثنّي الجلد وتشنّجه.

(٩) لقب فخيم كان يُلَقَّب به عبدالمطّلب، لأنّه تشيّب محموداً في قومه.

(١٠) يقال: تتامّ القومُ أي جاؤوا كلّهم وانفضّ إليه الناسُ، أي أتوه متفرّقين من كلّ بطن رجلٌ.

(١١) أي أحاطوا بجوانبه. والجنابان: الناحيتان.

(١٢) اعتضده: احتضنه.

(١٣) يفع الغلام: ترعرع وناهز البلوغ. قوله: أو كرب أي أو قرب من اليَفَعة.

(١٤) أي غير منسوب إلى البخل.

عُبَداؤك[١] وإماؤك، بعَذِرات حرمك[٢]، يشكون إليك سَنَتهم[٣]، فاسمعنّ اللهمّ وأمطرنّ علينا غيثاً مُريعاً مُغدقاً[٤]». فما راموا[٥] ـ والبيتِ ـ حتّى انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادي بثجيجه[٦].[٧]

[٢١٢٣/٢] وذكر البيهقي في الدلائل: فتسمّعت شِيْخانُ قريش وجِلّتُها[٨]: عبدالله بن جُدعان وحرب بن أميّة وهشام بن المغيرة، يقولون لعبدالمطّلب: هنيئاً لك أبا البطحاء، أي عاش بك أهل البطحاء.

وفي ذلك ما تقول رُقَيْقَةُ:

بشيبة الحمد أسقى اللهُ بلدتَنا ... لمّا فقدنا الحيا واجلوّذ المَطَرُ[٩]
فجاء بالماء جَوْنيٌّ له سَبَلٌ ... سحّاً فعاشت به الأنعام والشَجَرُ[١٠]
منّاً من الله بالميمون طائرُهُ ... وخيرِ من بُشِّرَتْ يوماً به مُضَرُ[١١]
مبارك الأمر يُستسقى الغمامُ به ... ما في الأنام له عِدْل ولا خَطَرُ[١٢].[١٣]

---

(١) عُبَداء جمع عَبيد وعِباد: جمع عبد.

(٢) عَذِرات جمع عَذِرة: فناء الدار.

(٣) السَّنة: القحط.

(٤) مطر مُريع: يورث الخصب. وأغدق المطر: كثر قطرُه وتوسّع.

(٥) رام المكانَ: فارقه.

(٦) يقال: اكتظّ المسيل بالماء: ضاق به لكثرته، وثجّ الماء: سال. ومطر ثجّاج: سيّال شديد الانصباب والثجيج: السيل الغزير.

(٧) الروض الأنف ـ السهيلي ٢: ٢٨ ـ ٢٩. وراجع: هامش السيرة ١: ٣٠٠.

(٨) شِيخان جمع شيخ وهو كبير القوم. والجِلّة جمع جليل هو كبير السنّ المتقدّم في القوم.

(٩) الحيا: المطر والخِصب والنبات، واجلوّذ المطر: امتدّ تأخّره.

(١٠) الجَوْنيّ: المنسوب إلى الجَوْن وهو من الألوان، يقع على الأسود والأبيض، وهو هنا كناية عن السحب ذوات الألوان البيض والسود. والسَّبَل: المطر النازل من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض. ويقال: سحّ الماءَ سحّاً: صبّه صبّاً متتابعاً غزيراً.

(١١) الطائر من الطِّيَرة: ما تَيَمَّنْتَ به أو تَشَاءَمْتَ.

(١٢) الخَطَر: المثل والعدل ولايقال إلّا فيما له قدر وعلوّ شرف.

(١٣) دلائل النبوّة للبيهقي ٢: ١٨ ـ ١٩. وراجع: فتح الباري ٢: ٤١١ ـ ٤١٣.

وبعد فإذ كان النبيّ ﷺ بشخصه الكريم من أكبر الوسائل إلى الله في الابتهال إليه والمسائلة لديه، ولطلب الحطّ والاستغفار من الذنوب، فلا غرو أن يكون ذووه من آله الأطهار خلفاءه من بعده لنجح حوائج الأُمّة مدى الأيّام، كما فهمه عمر بن الخطّاب فيما توسّل بعمّ النبيّ بدلاً عمّا كانوا يستسقون بالنبيّ الكريم[1].

ودليلاً على صحّة هذا الفهم، ابتهال النبيّ نفسه ﷺ بآله الأطيبين في حديث المباهلة، خرج بعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام قائلاً: اللّهمّ هؤلاء أهلي ـ كما رواه مسلم وغيره[2] ـ أراد أن يباهل بهم وفد نجران، لولا أنّهم تداركوا الأمر وأذعنوا لقبول الجزية[3].

[٢١٢٤/٢] فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لاعنوا لمسخوا ولاضطرم عليهم الوادي ناراً»[4].

* * *

ولعلّ قائلا يقول: هلّا كان ينبغي لعمر بن الخطّاب أن يبتهل إلى الله بمن ابتهل بهم النبي نفسُه، وهم البقيّة الباقية من آل الرسول. ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[5]؟!

الأمر الذي نبّه عليه الذرّيّةُ الطيّبة من آله ﷺ وكما جاء في كلام الرسول منوّهاً بهم عليهم السلام.

[٢١٢٥/٢] روى أبو جعفر الصدوق بإسناده إلى الحسين بن خالد عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال: «لكلّ أمّة صدّيق وفاروق، وصدّيق هذه الأمّة وفاروقها عليّ بن أبي طالب. إنّ عليّاً سفينة نجاتها وباب حطّتها»[6].

[٢١٢٦/٢] وروى في باب مناقب عليّ عليه السلام وتعدادها بالإسناد إلى مكحول، قال: قال عليٌّ عليه السلام: سمعت رسول الله ﷺ يقول لي: « مَثَلُك في أمّتي مَثَلُ باب حطّة في بني إسرائيل، فمن دخل في

(١) فيما تقدّم من كلامه: «اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا، فاسقنا» (البخاري ١: ٣٤).

(٢) مسلم ٧: ١٢١ ـ ١٢٢، باب فضائل الصحابة، باب فضل علي عليه السلام؛ مسند أحمد ١: ١٨٥؛ الحاكم ٣: ١٥٠، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين؛ الترمذي ٤: ٢٤٣ / ٤٠٨٥ كتاب المناقب، باب ٢١ مناقب عليّ عليه السلام.

(٣) قال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تبتهلوا فتهلكوا.. (الكشّاف للزمخشري ١: ٣٦٨ ـ ٣٦٩). (٤) الكشّاف ١: ٣٦٩.

(٥) هود ١١: ٨٦. (٦) العيون ٢: ١٦ / ٣٠، باب ٣٠؛ البحار ٣٨: ١١٢ / ٤٧.

ولايتك فقد دخل الباب كما أمره الله عزّوجلّ»[١].

[٢١٢٧/٢] وجاء في خطبته عليه السلام المعروفة بخطبة الوسيلة: «ألا وإنّي فيكم أيّها الناس كهارون في آل فرعون، وكباب حطّة في بني إسرائيل، وكسفينة نوح...»[٢].

[٢١٢٨/٢] وهكذا تكرّر منه عليه السلام قوله: «أنا باب حطّة...»[٣]، فيما أخرجه الكليني والصدوق وغيرهما.

[٢١٢٩/٢] وأخرج أبو النضر محمّدبن مسعود بن عيّاش السلمي السمرقندي بالإسناد إلى سليمان الجعفري قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «نحن باب حطّتكم»[٤].

[٢١٣٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف بالإسناد إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «إنّما مثلنا في هذه الأمّة كسفينة نوح وكباب حطّة في بني إسرائيل»[٥].

[٢١٣١/٢] قال ابن حجر الهيثمي ـ في ملحق الصواعق ـ: وجاء من طرق كثيرة يُقوّي بعضُها بعضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مَثَل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق».

و«إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل، من دخله غفر له»[٦].

وأخرجه جلال الدين السيوطي في تفسيره[٧] معتمداً عليه.

ومن ثمّ نراه في كتبه ومؤلّفاته يتذرّع بالنبيّ وآله ويجعلهم الوسيلة لنجح مطالبه ـ على غرار سائر الأكابر من العلماء الأبرار ـ يقول في مؤخّرة كتابه الإتقان بشأن تفسير جامع بين الرواية

---

(١) الخصال: ٥٧٤ / ١ ـ ٢٠، أبواب السبعين؛ البحار ٣١: ٤٣٥ ـ ٤٣٦ / ٢.

(٢) برواية أبي جعفر الكليني عن محمّدبن عليّ بن معمر بالإسناد إلى جابربن يزيد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: خطب أميرالمؤمنين بعد بضعة أيّام من وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بعد أن فرغ من جمع القرآن، قال فيها...(الكافي ٨: ٣٠).

(٣) فيما رواه الصدوق في كتاب التوحيد: ١٦٥ / ٢، باب ٢٢، بالإسناد إلى النضربن سويد عن ابن سنان عن أبي بصير عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام.

(٤) العيّاشي ١: ٦٣ / ٤٧؛ مجمع البيان ١: ٢٢٩؛ البحار ١٣: ١٦٨، باب ٦.

(٥) المصنَّف ٧: ٥٠٣، الفضائل باب ١٨ / ٥٢، فضائل عليّ عليه السلام.

(٦) الصواعق المحرقة: ١٤٠ باب الأمان ببقائهم عليهم السلام. (٧) الدرّ ١: ١٧٤.

والدراية شرع في إنجازه: «والله أسأل أن يُعين على إكماله، بمحمّد وآله»[١].

وهذا اقتداء بإمامه العظيم محمّد بن إدريس الشافعي ﷺ حيث قوله:

آل النبيّ ذريعتي   وهموا إليه وسيلتي
أرجو بأن أُعْطَى غداً   بيدي اليمين صحيفتي[٢]

والروايات بهذا الشأن كثيرة ومتظافرة جاءت بتعابير متنوّعة رواها الحفّاظ في مسانيدهم، ولعلّ منها: ما ورد بشأن آل البيت وأنّهم سفن النجاة من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هوى، وما ورد من قوله ﷺ: أهل بيتي أمان لأمّتي، وغيرها من تعابير تجعلهم سبل النجاة والذرايع إلى الله في بلوغ المآرب، نذكر منها شَذْراً:

[٢١٣٢/٢] روى الحاكم بإسناد صحيح عن الكناني قال: سمعت أباذرّ يقول ـ وهو آخذ بباب الكعبة ـ: أيّها الناس من عرفني فأنا من عرفتم، أنا أبوذرّ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم[٣]. ورواه أبو نعيم الأصبهاني بالإسناد إلى ابن عبّاس[٤]. والخطيب البغدادي عن أنس بن مالك عن رسول الله[٥]. والهيثمي عن أبي سعيد الخُدري قال: سمعت النبيّ[٦]. وغيرهم من الأصحاب ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ.

[٢١٣٣/٢] وروى الحاكم ـ أيضاً ـ في المستدرك ـ بإسناد صحيح عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل بيتي أمان لأمّتي...»[٧].

ورواه المتّقي في الكنز بالإسناد إلى سلمة بن الأكوع[٨]. والهيثمي في المجمع[٩] وغيرهما عنه أيضاً.

---

(١) الإتقان ٤: ٢١٤.
(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر ٢: ٢٤٩.
(٣) الحاكم ٢: ٣٤٣. و ٣: ١٥٠؛ كنزالعمّال ٦: ٢١٦؛ مجمع الزوائد ٩: ١٦٨.
(٤) الحلية ٤: ٣٠٦.
(٥) الخطيب ١٢: ١٩.
(٦) مجمع الزوائد ٩: ١٦٨.
(٧) الحاكم ٣: ٤٥٨، و ١٤٩.
(٨) كنزالعمّال ٦: ١١٦ و ٧: ٢١٧ قال: أخرجه ابن أبي شيبة ومسدَّد والحكيم وأبويعلى والطبراني وابن عساكر.
(٩) مجمع الزوائد ٩: ١٧٤؛ فيض القدير للمناوي ٦: ٢٩٧.

وقد عرفت من ابن حجر: أنّ حديث السفينة وحديث الأمان من المستفيضات المتظافرة[١].

وبعد فلنرجع إلى بقيّة الآيات السابقة:

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

وقد عرفت أنّ الّذين ظلموا هم العشرة الّذين تخلّفوا عن الذي أُمروا بإفشائه من الترغيب والتشجيع في أمر القتال والقيام للنضال. فأخذهم الله بموت الفجأة، فهلكوا لوقتهم.

قال جمال الدين القاسمي: والرجز هو: الموت بغتة، ونقل عن بعضهم: أنّ العذاب على ضربين، ضرب قد يمكن دفعه أو يظنّ إمكان دفعه.. كالهدم والغرق، وضرب لا يمكن ولا يظنّ دفعه بقوّة آدميّ، كالطاعون والصاعقة والموت المفاجئ، قال: وهو المعنيّ بقوله: ﴿رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٢].

وللمفسّرين القدامى أقوال وآراء، فذكر منها ما قاله أبو جعفر الطبري:

قال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾:

يعني بقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الّذين فعلوا ما لم يكن لهم فعلُه من تبديلهم القول ـ الذي أمرهم الله جلّ وعزّ أن يقولوه ـ قولاً غيره، ومعصيتهم إيّاه فيما أمرهم به وبركوبهم ما قد نهاهم عن ركوبه ﴿رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. والرِّجز في لغة العرب: العذاب، وهو غير الرُّجْز[٣]، وذلك أنّ الرِّجز: البَثْر[٤]، ومنه الخبر الذي رُوي عن النبيّ ﷺ في الطاعون:

[٢١٣٤/٢] أنّه قال: «إنّهُ رِجز عذّب به بعض الأمم الّذين قبلكم»[٥].

[٢١٣٥/٢] وروى عامر بن سعد بن أبي وقّاص، عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ هذا الوجع أو السقم رِجز عذّب به بعض الأمم قبلكم»[٦].

---

(١) الصواعق المحرقة: ١٤٠. (٢) تفسير القاسمي ١: ٢٩٦.

(٣) الرُّجز: الأوثان. وهو الذي جاء في قوله تعالى في سورة المدّثر: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

(٤) البثر: الخراج الصغير.

(٥) رواه أحمد في المسند (٥: ٢٠٧) مطوّلاً بلفظ: «إنّ هذا الوباء رجز أهلك الله به الأمم قبلكم، وقد بقي منه في الأرض شيء يجيء أحياناً ويذهب أحياناً. فإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها، وإذا سمعتم به في أرض فلا تأتوها».

(٦) مسلم ٧: ٢٨.

[٢١٣٦/٢] وروى عامر بن سعد، قال: شهدت أسامة بن زيد عن سعد بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الطاعون رِجز أُنزل على من كان قبلكم ـ أو على بني إسرائيل ـ».

وبمثل الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

[٢١٣٧/٢] روى معمر، عن قتادة في قوله: ﴿رِجْزاً﴾ قال: عذاباً.

[٢١٣٨/٢] و روى أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال: الرجز: الغضب.

[٢١٣٩/٢] وروى ابن وهب، عن ابن زيد قال: لمّا قيل لبني إسرائيل: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بعث الله جلّ وعزّ عليهم الطاعون، فلم يُبق منهم أحداً. وقرأ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. قال: وبقي الأبناء، ففيهم الفضل والعبادة التي توصف في بني إسرائيل والخير، وهلك الآباء كلّهم، أهلكهم الطاعون.

[٢١٤٠/٢] وروى أيضاً عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: الرجز: العذاب، وكلّ شيء في القرآن رجز فهو عذاب.

[٢١٤١/٢] وروى أبو روق، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿رِجْزاً﴾ قال: كلّ شيء في كتاب الله من الرجز، يعني به العذاب.

وقد دلّلنا على أنّ تأويل الرجز: العذاب. وعذابُ الله جلّ ثناؤه أصناف مختلفة. وقد أخبر الله جلّ ثناؤه أنّه أنزل على الّذين وصفنا أمرهم، الرجز من السماء، وجائز أن يكون ذلك طاعوناً وجائز أن يكون غيره، ولا دلالة في ظاهر القرآن ولا في أثر عن الرسول ثابت أيّ أصناف ذلك كان.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عزّوجل: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بفسقهم. غير أنّه يغلب على النفس صحّة ما قاله ابن زيد، للخبر الذي ذكرتُ عن رسول الله ﷺ في إخباره عن الطاعون أنّه رجز، وأنّه عُذّب به قوم قبلنا. وإن كنتُ لا أقول إنّ ذلك كذلك يقيناً؛ لأنّ الخبر عن رسول الله ﷺ لا بيان فيه أيّ أمّة عُذّبت بذلك. وقد يجوز أن يكون الّذين عذّبوا به كانوا غير الّذين وصف الله صفتهم في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: معنى الفسق: الخروج من الشيء. فتأويل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إذاً: بما كانوا يتركون طاعة الله عزّ وجلّ، فيخرجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره[1].

* * *

وقال ابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾:

[٢١٤٢/٢] روى سعيدبن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال: من باب صغير.

[٢١٤٣/٢] وعن أبي غسان عن زهير قال: سئل خُصَيف عن قول الله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ قال عكرمة: قال ابن عبّاس: كان الباب قبل القبلة.

[٢١٤٤/٢] وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: باب الحطّة من باب إيلياء من بيت المقدس. وروي عن الضحّاك والسدّي نحو قول مجاهد.

[٢١٤٥/٢] وعن همّام بن منبّه أنّه سمع أباهريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سجّدا﴾ فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم».

[٢١٤٦/٢] وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجّدا﴾ قال: ركّعاً من باب صغير. فدخلوا من قِبَلِ أستاههم.

[٢١٤٧/٢] وعن زهير قال: سُئل خصيف عن قول الله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سجدا﴾ قال عكرمة: قال ابن عبّاس: فدخلوا على شقّ.

[٢١٤٨/٢] وعن الربيع بن أنس قوله: ﴿سُجَّداً﴾ قال: كان سجود أحدهم على خدّه.

[٢١٤٩/٢] وعن أبي الكنود عن عبدالله بن مسعود قال: قيل لهم: ادخلوا الباب سجّدا، فدخلوا مقنعي رؤوسهم. قال أبو محمّد: اختلف التابعون، فروي عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عبّاس، وروي عن السدّي نحو ما روي عن ابن مسعود[2].

---

(١) الطبري ١: ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١١٧ ـ ١١٨ / ٥٧٢ ـ ٥٧٩.

وقال في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾:

[٢١٥٠/٢] روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: مغفرة، استغفروا. قال أبو محمّد: وروي عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

[٢١٥١/٢] وروى الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال: قولوا هذا الأمر حقّ، كما قيل لكم.

[٢١٥٢/٢] وروي عن عكرمة قول ثالث: وهو أنّه قال: قولوا: لا إلـه إلّا الله.

[٢١٥٣/٢] وعن عمر بن عبد الواحد قال: سمعت الأوزاعي يحدّث، قال: كتب ابن عبّاس إلى رجل قد سمّاه يسأله عن قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فكتب إليه: أن أقرّوا بالذنب.

[٢١٥٤/٢] وعن قتادة في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال الحسن وقتادة: أي احطط عنّا خطايانا.

[٢١٥٥/٢] وروى سعيد بن بشير عن قتادة في قوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾: من كان خاطئاً غفرت له خطيئته.

[٢١٥٦/٢] وأيضاً عن قتادة: قوله: ﴿وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من كان محسناً زيد في إحسانه[١].

* * *

وقال في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾:

[٢١٥٧/٢] روى همّام بن منبّه أنّه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سجّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدّلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبّة في شعرة.

[٢١٥٨/٢] وروى عن أبي الكنود في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فقالوا: حنطة حبّة حمراء فيها شعرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

[٢١٥٩/٢] وروى عن ابن مسعود أنّه قال: إنّهم قالوا: «هطى سمقا ثا أزبه مزبا». فهي بالعربيّة: حبّة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ﴾.

---

(١) المصدر ١: ١١٧ ـ ١١٩ / ٥٧٢ ـ ٥٨٦.

[٢١٦٠/٢] وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سجّداً﴾: ركّعاً من باب صغير يدخلون من قِبَلِ أستاههم، وقالوا: حنطة. فهو قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّـذي قِـيلَ لَهُمْ﴾. وروي عن عطاء ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحّاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نـحو ذلك.

وقال في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾:

[٢١٦١/٢] روي عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ:

١٤٥»

الطاعون رجز عذاب، عذّب به قوم من قبلكم»[١] وروي عن سعيد بن جبير نحو ما روى عن النبي ﷺ.

[٢١٦٢/٢] وروى الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿رِجْزاً﴾ قال: كلّ شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب: قال أبو محمّد: وروي عن الحسن وأبي مالك ومجاهد والسدّي وقتادة نحو ذلك.

[٢١٦٣/٢] وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً﴾ قال: الرجز الغضب.

[٢١٦٤/٢] وروى مجالد عن الشعبي قال: الرجز إمّا الطاعون، وإمّا البَرَد.

[٢١٦٥/٢] وروى سعيد بن بشير عن قتادة في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: بما كانوا يعصون.

[٢١٦٦/٢] وروي عن محمّد بن إسحاق: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بما تعدّوا في أمري[٢].

---

(١) انظر: مسلم ٧: ٢٧، ومسند أحمد ٥: ٢١٣.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١١٩ ـ ١٢٠ / ٥٨٧ ـ ٥٩٦.

قال تعالى:

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

نعم، وكما يسّر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء، والظلّ في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الريّ بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيّه موسى عليه السلام والقرآن يذكّرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف مسلكهم بعد ذلك الإفضال والإنعام:

لقد طلب موسى لقومه السقيا. طلبها من ربّه فاستجاب له. وأمره أن يضرب حجراً معيّناً بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدّة أسباط بني إسرائيل.. ومن ثمّ فقد علم كلّ أناس مشربهم، أي العين الخاصّة بهم من الاثنتي عشرة عيناً. وقيل لهم ـ على سبيل التذكير بنعم الله فيشكروها وبالتواؤم والائتلاف ولا يكفروها بالتنازع والاختلاف ـ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعُثُوُّ: المبالغة في الفساد.

وجاء في سفر الخروج (أصحاح ١٧): أنّ بني إسرائيل لمّا عبروا البحر وجاوزوا برّيّة «سين» ونزلوا في «رفيديم»(١) ولم يكن ماء ليشربوا، فشكوا إلى نبيّ الله موسى ليطلب لهم ماءً. فدعا موسى ربّه فجاءه النداء: أن اضرب بعصاك الصخرة في جبل «حوريب» ليخرج منها الماء، فضربها فانفجرت عيوناً.

قال الأستاذ النجّار: ولمّا جاوزوا البحر وجاؤوا إلى الشاطئ الشرقي لم يجدوا ماءً لشربهم وسقيا دوابّهم، فشكوا إلى موسى متذمّرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلمّا ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ من الأسباط عين تجري بالماء يُشرب منها.

(١) محطّ أثقال بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وهي أرض واسعة واقعة في برّيّة «فاران» قريبة من جبل «حوريب» وهي سلسلة جبال كانت قمّتها العليا طور سيناء. والصخرة التي انفجرت منها العيون واقعة في وادي «رفيديم» هذه. راجع: قاموس الكتاب المقدّس، لجيمز هاكس: ٤١٨ و ٤٩٨.

قال: وهذه العيون بالبرّ الشرقيّ غير بعيدة من مدينة «السويس» شهيرة بعيون موسى وقلّ اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره، ويزرع على تلك المياه بعض النخيل.

قال: والظاهر أنّ ضرب الحجر وانبجاسه بالماء حصل مرّات[١].

* * *

قال أبو جعفر الطبري: يعني بقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: وإذ استسقانا موسى لقومه، أي سألنا أن نسقي قومه ماء. فترك ذكر المسؤول ذلك والمعنى الذي سأل موسى، إذ كان فيما ذُكر من الكلام الظاهر، دلالة على معنى ما تُرك. وكذلك قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ ممّا استغني بدلالة الظاهر على المتروك منه. وذلك أنّ معنى الكلام، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت، فترك ذكر الخبر عن ضرب موسى الحجر، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه. وكذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ إنّما معناه: قد علم كلّ أناس منهم مشربهم، فترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه.

وقد دلّلنا فيما مضى على أنّ «الناس» جمع لا واحد له من لفظه، وأنّ «الإنسان» لو جمع على لفظه لقيل: أناسيّ وأناسية[٢]. وقوم موسى هم بنو إسرائيل الّذين قصّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قصصهم في هذه الآيات، وإنّما استسقى لهم ربَّه الماء في الحال التي تاهوا فيها في التيه، كما:

[٢١٦٧/٢] روى سعيد بن أبي عُروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ الآية قال: كان هذا إذ هم في البرّيّة اشتكوا إلى نبيّهم الظمأ، فأُمروا بحجر طوريّ ـ أي من الطور ـ أن يضربه موسى بعصاه، فكانوا يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم.

[٢١٦٨/٢] وروى سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: ذلك في التيه ظلّل عليهم الغمام، وأُنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثياباً لاتبلى ولا تتّسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجر مربّع، وأُمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كلّ ناحية منه ثلاث عيون، لكلّ

---

(١) قصص الأنبياء: ٢١١.

(٢) وآناس أيضا وأُناس في الآية، جمع إنس، واحدته: إنسيّ. ويجمع على أُناس وأَناسي.

سبط عين، ولا يرتحلون مَنْقلة[١] إلّا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان به معهم في المنزل الأوّل.

[٢/٢١٦٩] وروى عكرمة عن ابن عبّاس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكلّ سبط منهم عين يشربون منها.

[٢/٢١٧٠] وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ لكلّ سبط منهم عين، كلّ ذلك كان في تيههم حين تاهوا.

[٢/٢١٧١] وروى ابن جُريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَ إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ قال: خافوا الظمأ في تيههم حين تاهوا، فانفجر لهم الحجر اثنتي عشرة عيناً ضربه موسى. قال ابن جريج، قال ابن عبّاس: الأسباط: بنو يعقوب كانوا اثني عشر رجلاً كلّ واحد منهم ولد سبطاً أمّة من الناس.

[٢/٢١٧٢] وروى ابن وهب، عن ابن زيد قال: استسقى لهم موسى في التيه، فسقوا في حجر مثل رأس الشاة. قال: يلقونه في جوانب الجوالق[٢] إذا ارتحلوا، ويقرعه موسى بالعصا إذا نزل، فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ سبط منهم عين. فكان بنو إسرائيل يشربون منه، حتّى إذا كان الرحيل استمسكت العيون، وقيل به[٣] فألقي في جانب الجوالق، فإذا نزل رُمي به. فقرعه بالعصا، فتفجّرت عين من كلّ ناحية مثل البحر.

[٢/٢١٧٣] وروى أسباط، عن السدّي، قال: كان ذلك في التيه.

وأمّا قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فإنّما أخبر الله عنهم بذلك، لأنّ معناهم في الذي أخرج الله ـ جلّ وعزّ ـ لهم من الحجر الذي وصف جلّ ذكره في هذه الآية صفته من الشرب كان مخالفاً معاني سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين التي لا مالك لها سوى الله عزّ وجلّ. وذلك أنّ الله كان جعل لكلّ سبط من الأسباط الاثني عشر عيناً من الحجر الذي وصف صفته في هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره، لا يدخل سبط منهم في شرب سبط غيره. وكان

---

(١) منقلة: مرحلة من السفر، والجمع مناقل.

(٢) الجوالق: وعاء كبير منسوج من صوف أو شعر تحمل فيه الأطعمة.

(٣) يقال: قال بيده أي أهوى بها وأخذ الشيء. فمعنى قيل به: أنّهم أخذوه وحملوه معهم.

مع ذلك لكلّ عين من تلك العيون الاثنتي عشرة موضع من الحجر قد عرفه السبط الذي منه شربه؛ فلذلك خصّ جلّ ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم أنّ كلّ أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم دون غيرهم من الناس، إذ كان غيرهم في الماء الذي لا يملكه أحد شركاء في منابعه ومسايله، وكان كلّ سبط من هؤلاء مفرداً بشرب منبع من منابع الحجر دون سائر منابعه خاصّ لهم دون سائر الأسباط غيرهم، فلذلك خصّوا بالخبر عنهم أنّ كلّ أناس منهم قد علموا مشربهم[١].

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ﴾:

وهذا أيضاً ممّا استغني بذكر ما هو ظاهر منه عن ذكره ما تُرك ذكره. وذلك أنّ تأويل الكلام: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كلّ أناس مشربهم، فقيل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله، أخبر الله جلّ ثناؤه أنّه أمرهم بأكل ما رزقهم في التيه من المنّ والسلوى، وبشرب ما فجّر لهم فيه من الماء من الحجر المتعاوَر[٢] الذي لاقرار له في الأرض، ولا سبيل إليه إلّا لمالكيه، يتدفّق بعيون الماء ويزخر بينابيع العذب الفرات بقدرة ذي الجلال والإكرام. ثمّ تقدم جلّ ذكره إليهم[٣] مع إباحتهم ما أباح وإنعامه بما أنعم به عليهم من العيش الهنيء، بالنهي عن السعي في الأرض فساداً، والعثا فيها استكباراً، فقال جلّ ثناؤه لهم: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

ويعني بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ لاتطغوا، ولاتسعوا في الأرض مفسدين. كما:

[٢١٧٤/٢] رواه الربيع، عن أبي العالية: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يقول: لا تسعوا في الأرض فساداً.

[٢١٧٥/٢] وروى ابن وهب، عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. لا تعث: لا تطغ.

[٢١٧٦/٢] وروى سعيد، عن قتادة: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: أي لا تسيروا في الأرض مفسدين.

---

(١) الطبري ١: ٤٣٧ ـ ٤٣٩.

(٢) المتعاور: الذي ينقل من يد إلى يد بالتبادل.

(٣) تقدّم إليهم: أمرهم.

[٢١٧٧/٢] وروى الضحّاك، عن ابن عبّاس: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تسعوا في الأرض.

وأصل العثا شدّة الإفساد، بل هو أشدّ الإفساد، يقال: عثى فلان في الأرض، إذا تجاوز في الإفساد إلى غايته، يَعْثَى عَثاً مقصور، وللجماعة: هم يعثَوْن، وفيه لغتان أخريان: إحداهما عثاً يعثو عُثُوّاً؛ ومن قرأها بهذه اللّغة، فإنّه ينبغي له أن يضمّ الثاء من يعثُو، ولا أعلم قارئاً ـ يُقْتَدَى بقراءته ـ قرأ به. ومن نطق بهذه اللّغة مخبراً عن نفسه قال: عثوت أعثو، ومن نطق باللّغة الأُولى، قال: عثيت أعثي، والأخرى منهما: عاث يعيث عَيْثاً وعُيوثاً وعيثاناً. كلّ ذلك بمعنى واحد. ومن العيث قول رؤبة بن العجاج:

وعاث فينا مستحلّ عائث مصدّق أو تاجر مقاعث[1].

يعني بقوله عاث فينا: أفسد فينا[2].

* * *

[٢١٧٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى قتادة، قوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ قال: فاستسقى موسى، فأُمر بحجر أن يضربه بعصاه.

[٢١٧٩/٢] وعن ابن عبّاس قال: وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربّعاً وأمر موسى فضربه بعصاه.

[٢١٨٠/٢] وعن عطيّة العوفي: وجعل لهم حَجَراً مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه، فضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فاستمسك الماء.

[٢١٨١/٢] وعن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بعصاه.

[٢١٨٢/٢] وعن شيبان النحوي عن قتادة: قوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فأمر بحجر أن يضربه بعصاه، وكان حجراً طوريّاً من الطور يحملونه معهم حتّى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه.

---

(١) المستحلّ: المستبيح للأموال. والمصدّق: عامل قبض الزكاة. وقَعَث الشيء يقعثه: استأصله واستوعبه، وقعثه فانقعث إذا قلعه من أصله فانقلع.

(٢) الطبري ١: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

[٢١٨٣/٢] وعن القاسم بن أبي أيّوب، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ في كلّ ناحية منه ثلاث عيون.

[٢١٨٤/٢] وعن عليّ بن الحكم عن الضحّاك قال: قال ابن عبّاس: لمّا كان بنو إسرائيل في التيه شقّ لهم من الحجر أنهاراً.

[٢١٨٥/٢] وعن القاسم بن أبي أيّوب، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس: وأعلم كلّ سبط عينهم يشربون منها، لا يرتحلون من منقلة إلّا وجدوا ذلك الحجر منهم بالمكان الّذي كان منهم بالمنزل الأوّل.

[٢١٨٦/٢] وعن يحيى بن أبي النضر قال: قلت لجويبر: كيف علم كلّ أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كلّ سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، فينتضح من كلّ عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين!

[٢١٨٧/٢] وعن أبي العالية في قوله: ﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يقول: لا تسعوا في الأرض فساداً.

[٢١٨٨/٢] وعن قتادة: ﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال لا تسيروا في الأرض مفسدين.

[٢١٨٩/٢] وعن أسباط عن السدّي عن أبي مالك قوله: ﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تمشوا بالمعاصي[١].

* * *

وذكر الثعلبي في قوله تعالى: ﴿وَ إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: السين فيه سين المسألة مثل استعلم واستخبر ونحوهما، أي سأل السُّقيا لقومه وذلك أنّهم عطشوا في التيه فقالوا: يا موسى من أين لنا الشراب؟ فاستسقى لهم موسى فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وكانت[٢] من آس الجنّة طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتّقدان في الظلمة نوراً، واسمه عُلّيق. وكان آدمﷺ حمله معه من الجنّة إلى الأرض فتوارثته الأصاغر عن الأكابر حتّى وصل إلى شعيب

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٢١ ـ ١٢٢/ ٥٩٧ ـ ٦٠٨.

(٢) أي العصا.

فأعطاه لموسى.

و﴿الْحَجَرَ﴾ اختلفوا فيه:

[٢١٩٠/٢] فقال وهب بن منبّه: لم يكن حجراً معيّناً بل كان موسى ﷺ يقرع لهم أقرب حجر من عرض الحجارة فيتفجّر عيوناً لكلّ سبط عين وكانوا اثني عشر سبطاً، ثمّ تسيل كلّ عين في جدول إلى السبط الذي أمر سقيهم.

ثمّ أنّهم قالوا: إن فقد موسى عصاه؟! فأوحى الله تعالى إلى موسى لاتقرعنّ الحجارة ولكن كلّمها تطعك لعلّهم يعتبرون. فقالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى الرّمل وإلى الأرض التي ليست فيها حجارة؟! فحمل موسى معه حجراً فحيث نزلوا ألقاه.

وقال الآخرون: كان حجراً مخصوصاً بعينه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجَرَ﴾ فأُدخل الألف واللام للتعريف مثل قولك: رأيت الرجل.

ثمّ اختلفوا فيه ما هو؟:

[٢١٩١/٢] فقال ابن عبّاس: كان حجراً خفيفاً مربّعاً مثل رأس الرجل أُمر أن يحمله وكان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه. وفي بعض الكتب: إنّها كانت رخاماً.

[٢١٩٢/٢] وقال أبو روق: كان الحجر من الكَذّان[١] وكان فيه اثنا عشرة حفرة ينبع من كلّ حفرة عين ماء عذب فرات فيأخذوه، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء، وكان يسقي كلّ يوم ستمائة ألف.

[٢١٩٣/٢] وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل حين رموه بالأدرة[٢] ففرّ الحجر بثوبه ومرّ به على ملأ من بني إسرائيل حتّى ظهر إنّه ليس بآدَر، فلمّا وقف الحجر أتاه جبرئيل فقال لموسى: إنّ الله يقول: إرفع هذا الحجر، فإنّ فيه قدرة فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة، وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾[٣]. فحمله موسى ووضعه في مخلاته، فكان إذا احتاج إلى الماء ضربه بالعصا.

---

(١) الكَذّان، جمع الكَذّانة: حجر فيه رخاوة كأنّه المَدَر. (٢) الأدرة: نفخ في الخصيتين.

(٣) الأحزاب ٣٣: ٦٩.

[٢١٩٤/٢] وهو ما روي عن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراةً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلّا أنّه آدَر! قال: فذهب مرّة يغتسل فوضع موسى ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه، قال: فجمح موسى في أثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتّى نظر بنو إسرائيل إلى سوأة موسى. فقالوا: والله ما بموسى من بأس. قال: فقام الحجر بعد ما نُظر إليه، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً».

فقال أبو هريرة: والله إنّ بالحجر نَدَباً ستّة أو سبعة أثر ضرب موسى[1]. والنَدَب: أثر الجرح.

وقال عبدالعزيز بن يحيى الكناني: كانت ضربة موسى اثنتي عشرة ضربة، وظهر على موضع كلّ ضربة مثل ثدي المرأة، ثمّ انفجر بالأنهار المطّردة[2]. وهو قوله: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾.

وفي الآية إضمار واختصار تقديرها: ضرب فانفجرت أي سالت، وأصل الانفجار: الانشقاق والانتشار، ومنه فجر النهار.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم ويكون بمعنى المصدر مثل المدخل، المخرج.

﴿كُلُوا وَ اشْرَبُوا﴾ أي قلنا لهم: كلوا من المنّ، واشربوا من الماء؛ فهذا كلّه من رزق الله الذي بلا مشقّة ولا مؤنة ولا تبعة.

﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: يُقال عثى يعثي عثياً، وعثا يعثو عثواً، وعاث يعيث عيثاً وعيوثاً (بثلاث لغات) وهو شدّة الفساد.

قال ابن الرّقاع:

لولا الحياء وأنّ رأسي قد عثا ... فيه المشيب لزرتُ أمّ القاسم[3]

[٢١٩٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: لا تعلوا ولا تسعوا في الأرض ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يقول لا تعملوا في الأرض بالمعاصي. فرفعوا من المنّ والسلوى لغدٍ، فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾[4] يقول: لا ترفعوا منه لغد. وكان موسى ﷺ إذا ظعن حمل الحجر معه

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣١٥. يقال: جمح الفرسُ، أي ذهب مسرعاً لا ينثني.

(٢) اطّردت الأنهار: جرت.

(٣) الثعلبي ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٤) طه ٢٠: ٨١.

وتنضب[١] العيون منه[٢].

وذكر البغوي ـ نقلاً عن عطاء ـ: كان الحجر يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة فيظهر على موضع كلّ ضربة مثل ثدي المرأة، فيعرق ثمّ تفجّر الأنهار ثمّ تسيل.

[٢١٩٦/٢] وعن عطاء: كان للحجر أربعة وجوه، لكلّ وجه ثلاث أعين، لكلّ سبط عين. وقيل: كان الحجر رخاماً.

قال: وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: انبجست عرقت، وانفجرت سالت[٣].

[٢١٩٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: استسقى موسى لقومه فقال: اشربوا يا حمير! فقال الله تعالى له: لا تسمّ عبادي حميراً![٤].

---

(١) نضب الماء: غار.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١١١.

(٣) البغوي ١: ١٢٢.

(٤) الدرّ ١: ١٧٦؛ المصنّف ٦: ١٨٥ / ٢، باب ١١٦، كتاب الأدب؛ ابن عساكر ٦١: ١٦١، رقم ٧٧٤١ (موسى بن عمران).

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

نعم كانوا في صحراء قاحلة ومجدَبة، فمنّ الله عليهم بإنزال المنّ والسلوى وظلّل عليهم الغمام وأرواهم بتفجّر الصخور أنهاراً... ولكن هل ارتوى عطش القوم بهذه البساطة من العيش الهنيء، أم نازعتهم الرغبة إلى حياة يكدرها تعقيد والتواء وتشريد؟!

فقد طلبوا من موسى أن يدعو ربّه ليخرج لهم أنواع الفواكه والنبات، غير أنّ موسى عليه السلام تلقّى طلبهم هذا بالاستنكار: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ أَدْنَى بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ﴾...

حيث فهم موسى عليه السلام ضجرهم عن العيشة الحاضرة وتبرّمهم منها، بعد مغادرتهم مصر، ورغبتهم في العودة إلى ما يوفّر عليهم المآكل حتّى ولو كان في ذلّ العبوديّة الأُولى.

فأجابهم مستنكراً عليهم: هذا الذي تطلبونه هيّن زهيد، لا يستحقّ الدعاء فهو موفور في أيّ مصر من الأمصار: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، من غير حاجة إلى العودة إلى مصر التي أُخرجتم منها والتي كانت حياتكم فيها خانعة ذليلة... فهذا تأنيب لهم من موسى على فكرة قومه في الرجوع إلى مصر.

غير أنّ العيشة في المدن، حيث وفرة متطلّباتها وتزاحم الرغبات الداعية إلى التطاحن والتنازع في الحياة، ممّا يورث نكبة الذلّ والهوان ويوجب وفرة الشرّ والفساد، الأمر الذي جُبلت عليه طباع بني إسرائيل، فما يزيدهم غير تخسير.

وإليك ما جاء في الروايات:

قال أبو إسحاق الثعلبي: وذلك أنّهم ملّوا المنّ والسلوى وسئموهما.

[٢١٩٨/٢] قال الحسن: كانوا نتاني[1] أهل كرّاث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عِكْرهم عِكْر السوء[2]، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عاداتهم عليه، فقالوا: لن نصبر على طعام واحد وكفّوا عن المنّ والسلوى، وإنّما قالوا: «واحد»[3] وهما اثنان؛ لأنّ العرب تعبّر عن اثنين بلفظ الواحد، وبلفظ الواحد عن الاثنين كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ﴾[4]، وإنّما يُخْرَجان من المالح منهما دون العذب.

[٢١٩٩/٢] وقال عبدالرحمان بن زيد بن أسلم: كانوا يعجنون المنّ والسلوى فيصير طعاماً واحداً فيأكلونه[5].

﴿فَادْعُ﴾ فاسأل وادعُ. ﴿لَنَا﴾ لأجلنا. ﴿رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا﴾ قراءة العامّة بكسر القاف.

وقرأ يحيى بن وثّاب، وطلحة بن مصرف، والأشيب العقيلي: وقُثّائها بضمّ القاف، وهي لغة تميم.

﴿وَفُومِهَا﴾:

[٢٢٠٠/٢] قال ابن عبّاس: الفوم: الخبز، تقول العرب: فوّموا لنا، أي اختبزوا لنا.

[٢٢٠١/٢] وقال عطاء وأبو مالك: هو الحنطة وهي لغة قديمة، قال الشاعر:

---

(١) نتاني جمع نَتْنَى. وهو كمَرْضَى جمع نَتِن كَزمِن وزَمْنى. وجاء في الحديث: «لو كان المُطعم بن عديّ حيّا فكلّمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له» يعني أُسارى بدر. واحدهم نَتِن. قال ابن الأثير: سمّاهم نتنى لكفرهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

(٢) أي عادوا إلى أصل عادتهم الرّديئة. والعِكْر: العادة والديدن. قال ابن الأثير: وروي: عَكَرهم بمعنى الدنس والدرن، من عكر الزيت. قال: والأوّل الوجه.

(٣) التعبير بالواحد إنّما جاء من قبل وحدة الرويّة، حيث كانت عيشتهم في المأكل على وُتيرة واحدة لا تنوّع فيها.

(٤) الرحمان ٥٥: ٢٢.

(٥) قال ابن كثير: وإنّما قالوا طعام واحد، وهم يأكلون المنّ والسلوى؟! لأنّه لايتبدّل ولايتغيّر كلّ يوم فهو مأكل واحد. ابن كثير ١: ١٠٥. قلت: أي كان طعامنا على وتيرة واحدة كلّ يوم.

قد كنتُ أحسبُني كأغنى واحد ... نزل المدينة عن زراعة فوم

وقال القتيبي: الحبوب التي تؤكل، كلّها.

[٢٢٠٢/٢] وقال الكلبيّ والنضر بن شُمَيل والكسائيّ والمعرّج: هو الثوم، وأنشد المعرّج لحسّان:

وأنتم أناس لئام الأصول ... طعامكم الفوم والحِفْوَل[١]

يعني الثوم والبصل؛ فالعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول لصمغ العرفط: مغاثير ومغافير[٢]، وللقبر جدف وجدث، ودليل هذا التأويل أنّها في مصحف عبدالله: وثومها.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾:

[٢٢٠٣/٢] عن الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليكم بالعدس فإنّه مبارك مقدّس وإنّه يُرقّق القلب ويُكثر الدَّمعة، وإنّه بارك فيه سبعون نبيّاً آخرهم عيسى عليه السلام»[٣].

فقال لهم موسى عند ذلك: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾. وفي مصحف أبيّ: أتبدّلون.

﴿الَّذي هُوَ أَدْنَى﴾ أخسّ وأردأ.

حكى الفرّاء عن زُهَير الفُرْقُبيّ[٤]: إنّه قرأ «أدنأ» بالهمزة، والعامّة على ترك الهمزة.

وقال بعض النحاة: هو أدون فقُدِّمت النون وحُوِّلت الواوُ ياءً كقولهم: أولى، من الويل[٥].

﴿بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ﴾ أشرف وأفضل، ومعناه: أتتركون الذي هو خير وتريدون الّذي هو شرّ، ويجوز أن يكون هذا الخير والشرّ منصرفين إلى أجناس الطعام وأنواعه، ويجوز أن يكونا منصرفين إلى اختيار الله لهم، واختيارهم لأنفسهم.

﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ يعني: فإن أبيتم إلّا ذلك فاهبطوا مصراً من الأمصار، ولو أراد مصر بعينها لقال: «مصر» ولم يصرفه كقوله ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ﴾[٦]. وهذا معنى قول قتادة.

---

(١) الحِفْوَل: شجر له ورق مدوّر بقدر الإجّاصة ليست له رطوبة والعرب تأكله وفيه مرارة وله عَجَمَةٌ (نواة) لينة تسمّى الحَفَص. نظير نواة الزعرورة.

(٢) المغافير: صمغ يسيل من شجر العرفط، ذو رائحة كريهة.

(٣) العيون ١: ٤٥ / ١٣٦؛ القرطبي ١: ٤٢٧.

(٤) هو من القرّاء النحويّين وكان في زمن عاصم.

(٥) ليكون أصله: أويل.

(٦) يوسف ١٢: ٩٩.

[٢٢٠٤/٢] وقال الضحّاك: هي مصر موسى وفرعون. وكذا قال الأعمش. ودليل هذا القول: قراءة الحسن وطلحة: «مصر» بغير تنوين جعلاها معرفة، وكذلك هو في مصحف عبدالله وأُبيّ بغير ألف، [قال الأخفش والكسائي: وإنّما أجازوا صرفها ـ على هذا القول ـ لخفّتها وشبهها بهند ودعد؛ وأنشد:

لم تتلفّع بفضل مئزرها دعدٌ ولم تُسْقَ دعدُ في العُلَب[١].

فجمع بين اللّغتين][٢].

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من نبات الأرض.

﴿وَضُرِبَتْ﴾: جُعلت ﴿عَلَيْهِمُ﴾ وألزموا ﴿الذِّلَّةُ﴾ الذلّ والهوان. قالوا: بالجزية، يدلّ عليه قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٣] وقال عطاء بن السائب: هو الكُستيج[٤] وهو زيّ اليهوديّة الدالّ على مهانته[٥].

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ يعني ذي الفقر. فتراهم كأنّهم فقراء وإن كانوا مياسير، وقيل: المذلّة وفقر القلب فلا يرى في أهل الملل أذلّ ولا أحرص على المال من اليهود، والمسكنة مفعلة من السكون، ومنه سُميّ الفقير مسكيناً لسكونه وقلّة حركاته. يُقال: ما في بني فلان أسكن من فلان، أي أفقر.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا في قول الكسائي وغيره. قال أبو روق: استحقوا والباء صلة.

قال أبو عبيدة: احتملوا وأقرّوا به، ومنه الدعاء المأثور: «أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنّه لايغفر الذنوب إلّا أنت»، وغضب الله عليهم: ذمّهُ لهم وتوعُّدُه إيّاهم في الدنيا، وإنزال العقوبة عليهم في العقبى، وكذلك بغضه وسخطه.

---

(١) البيت لجرير. والعُلَب: أقداح من جلود، يُحلب فيها اللبن ويُشرب.

(٢) هذا ما نقلناه عن تفسير القرطبي ١: ٤٢٩. بدلاً عن عبارة الثعلبي وكانت مشوّشة للغاية.

(٣) التوبة ٩: ٢٩.

(٤) قال الفيروز آبادي: الكُستيج خيط غليظ يشدّه الذمّي فوق ثيابه دون الزنار.

(٥) صحّحناه على البغوي والقرطبي. وفي المجمع: عن عطاء: هو الكستيج وزيّ اليهود، مجمع البيان ١: ٢٣٩.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ بصفة محمّدﷺ وآنّه الرحيم في التوراة والإنجيل والفرقان.

﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ قراءة العامّة بالتخفيف من القتل، وقرأ السُّلمي بالتشديد من التقتيل.

﴿النَّبِيِّينَ﴾ القراءة المشهورة بالتشديد من غيرهم، وتفرّد نافع بهمز النبيين، ومدّه فمن همز معناه: المخبر، من قول العرب: أنبأ النبي إنباءً ونبّأ ينبّئ تنبئة بمعنى واحد، فقال الله عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا﴾[١] ومن حذف الهمز فله وجهان: أحدهما: أنّه أراد الهمز فحذفه طلباً للخفّة لكثرة استعمالها. والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الرّفيع مأخوذ من النّبْوة وهي المكان المرتفع، يقال: نبا الشيء عن المكان أي ارتفع.

قال الشاعر (وهو معدي كرب يرثي أخاه شرحبيل):

إن جنبي عن الفراش لناب كتجافي الأسرّ فوق الظِّراب[٢]

وفيه وجه آخر: قال الكسائي: النبيّ بغير همز: الطريق، فسمّي الرسول نبيّاً لأنّه طريق إلى الهدى.

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مثل أشعيا وزكريّا ويحيى وسائر مَنْ قتل اليهود من الأنبياء.

وفي الخبر: إنّ اليهود قتلوا سبعين نبيّاً من أوّل النهار في ساعة واحدة، وقامت إلى سوق بقلها حتّى آخر النهار.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي[٣].

* * *

وهكذا روى أبوجعفر الطبري عن بعضهم: أنّ الفوم هي الحنطة أو هو كلّ حبّ يختبز به.

[٢٢٠٥/٢] روى بإسناده إلى قتادة قال: الفوم: الحبّ الذي يختبز الناس منه[٤].

---

(١) التحريم ٦٦: ٣.

(٢) الأَسرّ: البعير إذا كانت بِكِرْكِرَته دَبَرَة أي في صدره قرحة من أثر الرحل. والظِّراب: جمع الظَّرِب وهي الرابية أي التلّ الصغير.

(٣) الثعلبي ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٧. بتصرّف.

(٤) الطبري ١: ٤٤٣.

[٢٢٠٦/٢] وروى بإسناده إلى ابن عبّاس قال: الفوم: الحنطة بلسان بني هاشم[١].

[٢٢٠٧/٢] وأخرج عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، قال: الفوم: الخبزة[٢].

قال أبو جعفر: وقال آخرون: هو الثوم.

[٢٢٠٨/٢] فقد روى ليث، عن مجاهد، قال: هو هذا الثوم.

[٢٢٠٩/٢] وعن الربيع، قال: الفوم: الثوم.

قال: وهو في بعض القراءات: «وثومها». وقد ذُكر أنّ تسمية الحنطة والخبز جميعاً فوماً من اللّغة القديمة، حكي سماعاً من أهل هذه اللغة: فوّموا لنا، بمعنى اختبزوا لنا. وذُكر أنّ ذلك قراءة عبدالله بن مسعود: «وثومها» بالثاء. فإن كان ذلك صحيحاً فإنّه من الحروف المبدلة، كقولهم: وقعوا في عاثور شرّ وعافور شرّ، وكقولهم للأثافي أثاثي، وللمغافير مغاثير، وما أشبه ذلك ممّا تقلب الثاء فاء والفاء ثاء لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء. والمغافير شبيه بالشيء الحلو يشبه بالعسل ينزل من السماء حلواً يقع على الشجر ونحوها[٣].

قال الفرّاء: إنّ الفوم فيما ذكر لغة قديمة وهي الحنطة والخبز جميعاً قد ذكرا. قال بعضهم: سمعنا العرب من أهل هذه اللغة يقولون: فوّموا لنا، بالتشديد لاغير، يريدون: اختبزوا. وهي في قراءة عبدالله: «وثومها» بالثاء، فكأنّه أشبه المعنيين بالصواب؛ لأنّه مع ما يشاكله من العدس والبصل وشبهه. والعرب تبدل الفاء بالثاء فيقولون: جَدَث وجَدَف، ووقعوا في عاثور شرّ وعافور شرّ. والأثاثي والأثافي. وسمعت كثيراً من بني أسد يسمّي المغافير المغاثير[٤].

[٢٢١٠/٢] وأخرج الطسيّ في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَفُومِهَا﴾. قال: الفوم: الحنطة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا مَحْجَن الثقفي وهو يقول:

---

(١) المصدر: ٤٤٤.

(٢) عبدالرزّاق ١: ٢٧٣ / ٦١.

(٣) الطبري ١: ٤٤٥.

(٤) معاني القرآن للفرّاء ١: ٤١. قولهم: وقعوا في عاثور شرّ أي اختلط أمرهم واشتدّ. والمغافير: صمغ يسيل من شجر الرمث والعرفط وهو حلو يؤكل غير أنّ رائحته ليست بطيّبة.

قد كنت أحسبني كأغنى واحـد قدم المـدينة عـن زراعـة فـوم

قال: يا ابن الأزرق ومن قرأها على قراءة ابن مسعود فهو هذا المُنتن، قال أميّة ابن أبي الصلت:

كـانت مـنازلهم إذ ذاك ظـاهرة فيها الفراديس والفومات والبـصل

وقال أميّة بن أبي الصلت أيضاً:

أنفى الديـاس[١] مـن الفـوم الصـحيح كـما أنفي مـن الأرض صـوب الوابـل البَـرَد[٢]

* * *

وقال أبو جعفر في تأويل قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾:

تأويل ذلك: فدعا موسى فاستجبنا له، فقلنا لهم: اهبطوا مـصراً. وهـو مـن المـحذوف الذي اجتزئ بدلالة ظاهره على ذكر ما حذف وترك منه. وقد دلّلنا فيما مضى على أنّ معنى الهبوط إلى المكان إنّما هو النزول إليه والحلول به.

فتأويل الآية إذن: ﴿وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَ عَدَسِهَا وَ بَصَلِهَا﴾ قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أخسّ وأردأ من العيش بالذي هو خير منه؟ فدعا لهم موسى ربّه أن يعطيهم ما سألوه، فاستجاب الله له دعاءه، فأعطاهم ما طلبوا، وقال الله لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

ثمّ اختلف القُرّاء في قراءة قوله: ﴿مِصْراً﴾ فقرأه عامّة القُرّاء: «مصراً» بتنوين مصر وإجرائه[٣]؛ وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه. فأمّا الّذين نوّنوه وأجروه، فإنّهم عنوا به مصراً مـن الأمصار لا مصراً بعينه، فتأويله على قراءتهم: اهبطوا مصراً من الأمصار، لأنّكم في البـدو، والذي طلبتم لايكون في البوادي والفيافي، وإنّما يكون في القرى والأمصار، فإنّ لكـم إذا هـبطتموه مـا سألتم من العيش. وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين، كـان تأويـل الكـلام عنده: اهبطوا مصراً البلدة التي تعرف بهذا الاسم وهي «مصر» التي خرجوا عنها، غير أنّه أجراهـا ونوّنها اتّباعاً منه خطّ المصحف، لأنّ في المصحف ألفاً ثابتة في مصر، فيكون سبيل قراءتـه ذلك

(١) الدياس: ما يداس من سنابل الحبوب. (٢) الدرّ ١: ١٧٧.

(٣) أي صرفه بالتنوين.

بالإجراء والتنوين سبيل من قرأ: ﴿قَوَارِيراً. قَوَارِيراً مِن فِضَّةٍ﴾[1] منوّنة اتباعاً منه خطّ المصحف. وأمّا الذي لم ينوّن مصر فإنّه لا شكّ أنّه عنى مصر التي تُعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها.

وقد اختلف أهل التأويل في ذلك نظير اختلاف القرّاء في قراءته:

[٢٢١١/٢] فعن قتادة: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ أي مصراً من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

[٢٢١٢/٢] وعن السدّي: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فلمّا خرجوا من التيه رُفع المنّ والسلوى وأكلوا البقول.

[٢٢١٣/٢] وعن مجاهد: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ قال: مصراً من الأمصار، زعموا أنّهم لم يرجعوا إلى مصر.

[٢٢١٤/٢] وعن ابن زيد: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ قال: مصراً من الأمصار. ومصر لا تجرى في الكلام، فقيل: أيّ مصر؟ فقال: الأرض المقدسة التي كتب الله لهم. وقرأ قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لَكُمْ﴾[2].

وقال آخرون: هي مصر التي كان فيها فرعون. ذكر من قال ذلك:

[٢٢١٥/٢] روى الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ قال: يعني به مصر فرعون.

قال أبوجعفر: ومن حجّة من قال: إنّ الله جلّ ثناؤه إنّما عنى بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ مصراً من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أنّ الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنّما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة إذ قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3]. فحرّم الله جلّ وعزّ على قائل ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتّى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتّيهان في الأرض أربعين سنة، ثمّ أهبط ذرّيتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على

(١) الإنسان ٧٦: ١٥ و ١٦، بإثبات الألف في كليهما. (٢) المائدة ٥: ٢١.

(٣) المائدة ٥: ٢١ ـ ٢٤.

أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا الله جلّ وعزّ قد أخبر عنهم أنّه كتب لهم الأرض المقدّسة، ولم يخبرنا عنهم أنّه ردّهم إلى مصر بعد إخراجه إيّاهم منها، حتّى يجوز لنا أن نقرأ: اهبطوا مصر، ونتأوّله أنّه ردّهم إليها.

قالوا: فإن احتجّ محتجّ بقول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]. قيل لهم: فإنّ الله جلّ ثناؤه إنّما أورثهم ذلك فملّكهم إيّاها ولم يردّهم إليها، وجعل مساكنهم الشأم.

وأمّا الّذين قالوا: إنّ الله إنّما عنى بقوله جلّ وعزّ: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ مصر، فإنّ من حجّتهم التي احتجّوا بها الآية التي قال فيها: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2] وقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[3]. قالوا: فأخبر الله جلّ ثناؤه أنّه قد ورّثهم ذلك وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها ثمّ لاينتفعون بها. قالوا: ولايكونون منتفعين بها إلّا بمصير بعضهم إليها، وإلّا فلا وجه للانتفاع بها إن لم يصيروا أو لم يصر بعضُهم إليها! قالوا: وأخرى أنّها في قراءة أبيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود: «اهبطوا مصر» بغير ألف، قالوا: ففي ذلك الدلالة البيّنة أنّها مصر بعينها.

والذي نقول به في ذلك أنّه لا دلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله.

فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إنّ موسى سأل ربّه أن يعطي قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بيّنه الله جلّ وعزّ في كتابه وهم في الأرض تائهون، فاستجاب الله لموسى دعاءه، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قراراً من الأرض التي تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك، إذكان الذي سألوه لا تنبته إلّا القرى والأمصار وأنّه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشأم.

فأما القراءة فإنّها بالألف والتنوين: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ وهي القراءة التي لايجوز عندي غيرها

---

(١) الشعراء ٢٦: ٥٧ ـ ٥٩. (٢) الشعراء ٢٦: ٥٧ ـ ٥٩.

(٣) الدخان ٤٤: ٢٥ ـ ٢٨.

لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين، واتّفاق قراءة القرّاء على ذلك. ولم يُقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه إلّا من لايجوز الاعتراض به[١] على الحجّة فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها[٢].

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ﴾.

يعني بقوله: ﴿وَ ضُرِبَتْ﴾ أي فُرضت ووضعت عليهم الذلّة وأُلزموها؛ من قول القائل: ضرب الإمام الجزية على أهل الذمّة، وضرب الرجل على عبده الخراج؛ يعني بذلك وضعه فألزمه إيّاه، ومن قولهم: ضرب الأمير على الجيش البعث[٣]، يراد به ألزمهموه.

وأمّا الذلّة، فهي الفعلة من قول القائل: ذلّ فلان يذلّ ذُلّاً وذِلّة، كالصغرة من صغر الأمر، والقعدة من قعد، والذلّة: هي الصغار الذي أمر الله جلّ ثناؤه عباده المؤمنين أن لا يعطوهم أماناً على القرار على ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله إلّا أن يبذلوا الجزية عليه لهم، فقال جلّ وعزّ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٤]. كما:

[٢٢١٦/٢] روى معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قالا: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

وأمّا المسكنة، فإنّها مصدر المسكين، يقال: ما فيهم أَسْكَنُ من فلان وما كان مسكيناً ولقد تمسكن مسكنة. ومن العرب من يقول: تمسكن تمسكناً. والمسكنة في هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلّها، كما:

[٢٢١٧/٢] روى الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ الْمَسْكَنَةُ﴾ قال: الفاقة.

[٢٢١٨/٢] وروى أسباط، عن السدّي، قوله: ﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ﴾ قال: الفقر.

---

(١) إذ لايعتبر قراءة ابن مسعود حجّة في مقابلة قراءة المشهور وإجماع المصاحف.

(٢) الطبري ١: ٤٤٦ ـ ٤٤٩.

(٣) البعث: بعث الجند إلى الغزو.

(٤) التوبة ٩: ٢٩.

[٢٢١٩/٢] وروى ابن وهب، عن ابن زيد في قوله: ﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هؤلاء يهود بني إسرائيل. قلت له: هم قبط مصر؟ قال: وما لقبط مصر وهذا؟ لا والله ما هم هم، ولكنّهم اليهود يهود بني إسرائيل. فأخبرهم الله جلّ ثناؤه أنّه يبدلهم بالعزّ ذلاًّ، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاءً منه لهم على كفرهم بآياته وقتلهم أنبياءه ورسله اعتداءً وظلماً منهم بغير حقّ، وعصيانهم له، وخلافاً عليه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾

يعني بقوله: ﴿وَ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باؤوا إلّا موصولاً إمّا بخير وإمّا بشرّ، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءاً وبَواءً. ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾(١) يعني: تنصرف متحمّلهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني.

فمعنى الكلام إذن: ورجعوا منصرفين متحمّلين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط. كما:

[٢٢٢٠/٢] رُوي عن الربيع في قوله: ﴿وَ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ قال: فحدث عليهم غضب من الله.

[٢٢٢١/٢] وعن الضحّاك قال: استحقوا الغضب من الله(٢).

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ذَلِكَ﴾ ضرب الذلّة والمسكنة عليهم، وإحلاله غضبه بهم. فدلّ بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ ـ وهي يعني به ما وصفنا ـ على أنّ قول القائل ذلك يشمل المعاني الكثيرة إذا أشير به إليها.

ويعني بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: من أجل أنّهم كانوا يكفرون، يقول: فعلنا بهم من إحلال الذلّ والمسكنة والسخط بهم، من أجل أنّهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحقّ، كما قال أعشى بني ثعلبة(٣):

---

(١) المائدة ٥: ٢٩.

(٢) الطبري ١: ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٣) ديوانه (ص ٦٨) من قصيدة يمدح بها هوذة بن عليّ الحنفي، أوّلها:

غشيت لليلى بليل خدورا ... وطالبتها ونذرت النذورا

مَــــليكيّة جــــاوَرَت بــــالحِجا زِ قَوماً عُــداةً وأرضاً شَـطِيرا(١)

بــــما قـــد تَــرَبَّعَ روضَ القَــطا وروضَ التناضِب حتّى تَصِيرا(٢)

يعني بذلك: جاورت بهذا المكان هذه المرأةُ قوماً عداة وأرضاً بعيدة من أهله ـ لمكان قربها كان منه ومن قومه وبلده ـ من تربّعها روض القطا وروض التناضب. فكذلك قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّــهُمْ كَــانُوا يَكْــفُرُونَ بِآيَــاتِ اللهِ﴾ يــقول: كــان ذلك مــنّا بكفرهمبآياتنا، وجزاء لهم بقتلهم أنبياءنا. وقد بيّنا فيما مضى من كتابنا أنّ مـعنى الكـفر: تـغطية الشيء وستره، وأنّ آيات الله: حججه وأعلامه وأدلّته على توحيده وصدق رسله.

فمعنى الكلام إذن: فعلنا بهم ذلك من أجل أنّهم كانوا يـجحدون حـجج الله عـلى تـوحيده، وتصديق رسله ويدفعون حقّيّتها، ويكذّبون بها.

ويعني بقوله: ﴿وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: ويقتلون رسل الله الّذين ابتعثهم لإنباء ما أرسلهم به عنه لمن أُرسلوا إليه.

وهم جماع واحدهم نبيّ غير مهموز، وأصله الهمز، لأنّه من أنبأ عن الله، فهو يُنْبِئ عنه إنباء، وإنّما الاسم منه منبئ، ولكنّه صرف وهو «مُفعِل» إلى «فَعِيل»، كما صرف سميع إلى فعيل من مُفعل وبصير من مبصر، وأشباه ذلك، وأبدل مكان الهمزة من النبئ الياء، فقيل نبيّ.

هذا ويجمع النبيّ أيضاً على أنبياء، وإنّما جمعوه كذلك لإلحاقهم النبيء ـ بإبدال الهمزة مـنه ياء ـ بالنعوت التي تأتي على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو، وذلك أنّهم إذا جمعوا ما كان مـن النعوت على تقدير فعيل من ذوات الياء والواو جمعوه على أفعلاء، كقولهم وليّ وأولياء، ووصـيّ وأوصياء، ودعيّ وأدعياء، ولو جمعوه على أصله الذي هو أصله، وعلى أنّ الواحد «نبيء» مهموز

(١) مليكيّة: منسوبة إلى المليك، وهو الملك. يريد أنّها من بنات الملوك. والعداة: جمع عاد، وهو العدو المعتدي. والشـطير: البعيد والغريب.

(٢) بما قد تربّع: يعني بسبب تربّعها، والتربّع في المكان: الإقامة فيه زمن الربيع. وروضة القطا: قال ياقوت: من أشهر رياض العرب وأكثرها دوراً في أشعارهم، وهي بناحية كُتلة وجَدُود. (معجم البلدان: مادة روضة القـطا). وروضـة التـناضب: ذكرها أيضاً ياقوت وأورد بيتي الأعشى وأضاف إليهما بيتاً ثالثاً، وقوله: «حتّى تصيرا»: من قولهم صار الرجل يصير فهو صائر: إذا حضر الماء، والقوم الّذين يحضرون الماء يقال لهم الصائرة، والصير: الماء الذي يحضره الناس.

لجمعوه على فُعَلاء، فقيل لهم النُبَآء، على مثال النُبَغاء، لأنّ ذلك جمع ما كان على فعيل من غير ذوات الياء والواو من النعوت كجمعهم الشريك شُرَكاء، والعليم عُلَماء، والحكيم حُكَماء، وما أشبه ذلك. وقد حكي سماعاً من العرب في جمع النبي النُبَآء، وذلك من لغة الّذين يهمزون النبيء، ثمّ يجمعونه على النُبَآء على ما قد بيّنتُ، ومن ذلك قول عبّاس بن مرداس في مدح النبيّ ﷺ:

يا خاتم النُّبَآء إنّك مُرسَل بالخير، كلُّ هُدى السبيل هُداكا

فقال: يا خاتم النُّبَآء على أنّ واحدهم نبيء مهموز.

وقد قال بعضهم: النبيّ والنبوّة غير مهموز، لأنّهما مأخوذان من النَّبْوَة، وهي مثل النجوة وهو المكان المرتفع. وكان يقول: إنّ أصل النبي الطريق، ويستشهد على ذلك ببيت القطامي:

لمّا وَرَدنَ نَبِيّاً واستَتَبَّ بها مُسْحَنْفِرٌ كخُطوط السَّيحِ مُنْسَحِل[1]

يقول: إنّما سمّي الطريق نبيّاً، لأنّه ظاهر مستبين من النبوة. ويقول: لم أسمع أحداً يهمز النبيّ.

قال: وقد ذكرنا ما في ذلك وبيّنّا ما فيه الكفاية إن شاء الله.

ويعني بقوله: ﴿وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: أنّهم كانوا يقتلون رسل الله بغير إذن الله لهم بقتلهم منكرين رسالتهم جاحدين نبوّتهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ردّ على «ذلك» الأُولى. ومعنى الكلام: وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، من أجل كفرهم بآيات الله. وقتلهم النبيّين بغير الحقّ، من أجل عصيانهم ربّهم واعتدائهم حدوده؛ فقال جلّ ثناؤه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ والمعنى: ذلك بعصيانهم وكفرهم معتدين. والاعتداء: تجاوز الحدّ الذي حدّه الله لعباده إلى غيره، وكلّ متجاوز حدّ شيء إلى غيره فقد تعدّاه

---

(١) رواية هذا البيت في معجم البلدان لياقوت (٥: ٢٥٩): «واستتب بنا... الشيخ». قال: وفي كتاب نصر: النبيّ: ماء بالجزيرة من ديار تغلب والنمر بن قاسط... قال: والنبيّ أيضاً موضع من وادي ظبي على القبلة منه إلى الهَيْل. واستتبّ الأمر والطريق: استوى واستقام وتبيّن واطّرد وامتدّ. ومسحنفر: صفة للطريق أي واسع ممتدّ. والسيح: ضرب من البرود أو العباء مخطّط. يلبس أو يستتر به ويفرش. وسحلت الريح الأرض فانسحلت: كشطت ما عليها. وأمّا الشيح فهو نبات أنواعه كثيرة كلّه طيّب الرائحة والواحدة شِيحَة.

إلى ما جاوز إليه. ومعنى الكلام: فعلتُ بهم ما فعلتُ من ذلك بما عصوا أمري وتجاوزوا حدّي إلى ما نهيتهم عنه[١].

* * *

[٢٢٢٢/٢] وأخرج أحمد عن ابن مسعود: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبيّ أو قتل نبيّاً، وإمام ضلالة وممثّل من الممثّلين»[٢].

[٢٢٢٣/٢] وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال: «ما همز رسول الله ﷺ، ولا أبوبكر، ولا عمر، ولا الخلفاء، وإنّما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم»[٣].

[٢٢٢٤/٢] وأخرج ابن عديّ عن حمران بن أعين «أنّ رجلاً من أهل البادية أتى النبيّ ﷺ فقال: السلام عليك يا يا نبيء الله! فقال النبي ﷺ: لستُ بنبيء الله ولكنّني نبيّ الله»[٤].

[٢٢٢٥/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه عن أبي ذرّ قال: «جاء أعرابيّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيء الله! قال: لست بنبيء الله ولكنّني نبيّ الله»[٥].

[٢٢٢٦/٢] وأخرج الواحدي عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ قال: يريد الحكمة التي أُنزلت على محمّد ﷺ[٦].

[٢٢٢٧/٢] وجاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ؛ : ثمّ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، واذكروا إذ قال أسلافكم: لن نصبر على طعام واحد، المنّ والسلوى، ولابدّ لنا من خلطة معه ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَ عَدَسِهَا وَ بَصَلِهَا قَالَ﴾ موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، يريد أتستدعون الأدون ليكون لكم بدلاً من الأفضل، ثمّ قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ من الأمصار من هذا التيه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ في المصر، قال الله تعالى: ﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الجزية أُخزُوا بها عند ربّهم وعند مؤمني عباده. ﴿وَ الْمَسْكَنَةُ﴾ هي الفقر والذلّة ﴿وَ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ احتملوا الغضب واللعنة من الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

(١) الطبري ١: ٤٤٩ ـ ٤٥٣.
(٢) الدرّ ١: ١٧٨؛ مسند أحمد ١: ٤٠٧.
(٣) الدرّ ١: ١٧٩؛ الحاكم ٢: ٢٣١، كتاب التفسير.
(٤) الدرّ ١: ١٧٨ ـ ١٧٩؛ الكامل ٢: ٤٣٧.
(٥) الدرّ ١: ١٧٨؛ الحاكم ٢: ٢٣١، كتاب التفسير؛ كنزالعمّال ١١: ٤٥٧ / ٣٢١٤٨.
(٦) الوسيط ١: ١٤٨.

كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ قبل أن يضرب عليهم الذلّة والمسكنة ﴿وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كانوا يقتلونهم بغير حقّ: بلا جرم كان منهم إليهم ولا إلى غيرهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ ذلك الخذلان الذي استولى عليهم حتّى فعلوا الآثام التي من أجلها ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ﴿وَّ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون أمر الله تعالى إلى أمر إبليس[١].

[٢٢٢٨/٢] وقال عليه السلام: وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا فلا تفعلوا كما فعلت بنو إسرائيل ولا تُسخطوا الله تعالى ولا تقترحوا على الله تعالى، وإذا ابتُلي أحدكم في رزقه أو معيشته بما لا يُحبّ فلا يَحدِس[٢] شيئاً يسأله لعلّ في ذلك[٣] حتفه وهلاكه، ولكن ليقل: اللّهم بجاه محمّد وآله الطيّبين إن كان ما كرهته من أمري خيراً لي وأفضل في ديني فصبّرني عليه وقوّني على احتماله ونشّطني على النهوض بثقل أعبائه، وإن كان خلافُ ذلك خيراً فجُد عليّ به ورضّني بقضائك على كلّ حال، فلك الحمد. فإنّك إذا قلت ذلك قدّر الله ويسّر لك ما هو خير».

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «يا عباد الله، فاحذروا الانهماك في المعاصي والتهاون بها، فإنّ المعاصي يستولي بها الخذلانُ على صاحبها حتّى يُوقعه في ما هو أعظم منها، فلا يزال يعصي ويتهاون ويُخْذَل ويقع في ما هو أعظم حتّى يوقعه في ردّ ولاية ولاية الله ورسوله وأوليائه».[٤]

[٢٢٢٩/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: فلمّا طال عليهم الأمد قالوا: ﴿يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَ عَدَسِهَا وَ بَصَلِهَا﴾. والفوم: الحنطة. فقال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فقالوا: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ فنصف الآية في سورة البقرة وتمامها وجوابها لموسى في المائدة[٥].

---

(١) تفسير الإمام: ٢٦٣ / ١٣٠؛ البحار ١٣: ١٨٤ ـ ١٨٥ / ١٩، باب ٦.

(٢) أي لا يُسرع في اقتراح شيء على الله.

(٣) أي في الذي سأله واقترحه.

(٤) تفسير الإمام: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ١٣١ و ١٣٢؛ البحار ٦٨: ١٤٩ / ٤٦، باب ٦٢. إلى قوله: «ويسّر لك ما هو خير» والبقيّة في ٧٠: ٣٦٠ / ٨٣، باب ١٣٧.

(٥) القمي ١: ٤٨؛ البحار ١٣: ١٧٤، ذيل رقم ٢، باب ٦ والآية من سورة المائدة ٥: ٢٢.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

كانت لليهود وكذا غيرهم من أهل الكتاب أو شبهة الكتاب، دعاوٍ عريضة يزعم كلُّ قبيل منهم أنّهم وحدهم على الحقّ وأنّ غيرهم على الباطل. ولاسيّما اليهود كانوا يدّعون أنّهم المهتدون وأنّهم شعب الله المختار، وإلى أمثال ذلك من دعاوٍ فارغة لامستند لها سوى الغِرّة والاستهواء.

وهنا يأتي القرآن ليفنّد تلكم الدعاوي والاستهواءات، ويقرّر قاعدته الأصيلة: أن لافضل إلّا بالتقوى. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١].. كما لاتفاضل بين الأديان بعد أن كان ملاكها وقوامها الأوّل هو الإيمان بالله العظيم، إيماناً راسخاً في القلوب ولينبثق منه العملُ الصالحُ وفي سلامة النفس وصدق النيّة والإخلاص.

هذا هو ملاك الفضيلة، وقد تسامى به الإنسان على سائر الحيوان!

والآية تقرّر هذا الأصل الأصيل، وأنّ المؤمن له قيمته وزنته عند الله، في أيّ زمان وفي أيّ مكان، سواء أكان مؤمناً بشرائع سابقة أم بشرائع لاحقة، كلّاً في حدّه الخاصّ، فالمؤمن بشريعة موسى ﷺ إذا كان مؤمناً بها لأنّها شريعة الله، فهو مؤمن بشريعة عيسى وبشريعة الإسلام، لأنّ الكلّ على نمط واحد، نازلة من عند الله، فلا عصبيّة عمياء، ولا انحياز ولاتزاحم في العقائد والسلوك.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[٢].

---

(١) الحجرات ٤٩: ١٣.

(٢) البقرة ٢: ١٣٦ ـ ١٣٨.

هذه هي صبغة الله، الايمان بجميع شرائع الله، وأنّ ما تأتي به شريعة، هو ما أتت به سائر الشرائع، سواء بسواء.

نعم كانت الشريعة اللاحقة مستكملة للشرائع قبلها، فلازم الإيمان بالجميع هو الإيمان بالشريعة الحاضرة، الجامعة لكلّ ما سبقها.

ومن ثمّ فإنّ الدين الكامل عند الله هو الإسلام[١] وسيبقى في ذمّة الخلود. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾ ـ والحال هذه ـ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢].

* * *

وبعد فمن ابتغى ديناً فهو إنّما يبتغي شريعة من شرائع الله، إذ كان يحاول العثور على الدين الخالص.. ولكن مهما يجده وقد لعبت بها الأدوار والأقدار واعتوار الزمان؟!

فإن كان صادقاً في نيّته فعليه باتّباع شريعة الإسلام الغرّاء، والتي جاءت نقيّة بيضاء، وقد ضمن الله لها البقاء سليمة عن الأكدار والأقذار، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣].

وجاء عن لسان نبيّ الإسلام: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٤]. أي: إن كنتم تستهدفون شريعة تقرّبكم إلى الله حبّاً لله.. فها أنا على شريعة ومنهاج يوصلكم إلى هذا الهدف الكريم إن كنتم صادقين.

وهذا لاينفي حقّانيّة سائر الشرائع في أصولها ومباني فروعها.. سوى أنّها لم تبق خالصة نقيّة، وهذا الإسلام شريعة الله الكاملة بين أيديكم لم يمسّها ولن يمسّها كدر ولا قذر. ألا فاستمسكوا بها تهديكم إلى الصراط السويّ المستقيم، والنهج القويم الذي تبتغونه، إن صدقت نواياكم.

إذن فلا عصبيّة ولا موضع لقولتهم العجيبة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾[٥]. ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ أي الفوز بالقربىٰ ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾[٦]. مزاعم تنشأ من عصبيّة عمياء لامستند لها سوى الأوهام الفارغة.

---

(١) آل عمران ٣: ١٩.
(٢) آل عمران ٣: ٨٥.
(٣) الحجر ١٥: ٩.
(٤) آل عمران ٣: ٣١.
(٥) البقرة ٢: ١٣٥.
(٦) البقرة ٢: ١١١.

أمّا الصابئون فهم طائفة من العرب ساورهم الشكّ فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فَصَبَوا عن دين قومهم، ومالوا إلى الحنيفيّة الأُولى، ملّة إبراهيم، دين التوحيد والخلق الكريم، واعتزلوا عبادة قومهم، ولكن من غير أن تكون لهم دعوة فيهم، فقال عنهم المشركون: إنّهم صبأوا أي مالوا عن دين آبائهم، وسجّلهم التاريخ باسم الحنفاء.

منهم: ورقة بن نوفل وعبيدالله بن جحش وعثمان بن الحُوَيرث وزيدبن عمروبن نُفَيل.

قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم كانوا يعظّمونه وينحرون له ويعكفون لديه ويديرون به، فخلص منهم أربعة نفر، وقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء! لقد اخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولايبصر ولايضرّ ولا ينفع؟! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيّة دين إبراهيم!

فأمّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانيّة.

وأمّا عبيدالله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس.

وأمّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصّر وحسنت منزلته لديه.

وأمّا زيدبن عمرو فوقف ولم يدخل في يهوديّة ولانصرانيّة وفارق دين قومه! فاعتزل الأوثان وامتنع من أكل الميتة والدّم والذبائح الّتي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموؤودة وقابل هذه الشنعة بجرأة وشهامة.

وهكذا رافقه في هذا الموقف العصيب صعصعة بن معاوية جدّ الفرزدقﷺ وفي ذلك يقول الفرزدق:

ومنّا الذي منع الوائدا ت، وأحيا الوئيد، فلم يوأد

ولزيد بن عمرو شعر طويل في فراق الوثنيّة يقول فيه:

أربّاً واحداً، أم ألف ربّ أدين إذا تُقُسّمت الأمور
عزلت اللات والعزّىٰ جميعاً كذلك يفعل الجَلْد الصبور
فلا العزّىٰ أدين ولا ابنتيها ولا صَنَمَي بني عمرو أزور
ولاهبلاً أدين، وكان ربّاً لنا في الدهر إذ حلمي يسير

عـجبت وفـي اللّـيالى مـعجبات وفـي الأيّـام يـعرفها البـصير
بأنّ الله قـد أفـنى رجـالاً كـثيراً كـان شأنـهم الفـجور
وأبـقى آخـرين بِـبرّ قـوم فَـيَرْبِلُ مـنهم الطـفل الصـغير
وبـينا المـرء يـعثر ثـاب يـوماً كـما يـتروّح الغـصن المـطير
ولكـن أعـبد الرحـمان ربّـي ليـغفر ذنـبي الربُّ الغـفور
فـتقوى الله ربّكـم احـفظوها مـتى مـا تـحفظوها لاتـبوروا
تـرى الأبـرار دارهـم جـنان وللكـفّار حـامية سـعير
وخـزي فـي الحـياة وإن يـموتوا يـلاقوا مـا تـضيق بـه الصـدور

وله مواقف مشهودة ورحلات في البحث عن الدين الحنيف، وله في ذلك وفيمن حاول صدّه عن هذا التجوال أشعار وقصائد مرهفة، سجّلها يراع التاريخ المجيد[١].

* * *

قلت: والآية الكريمة خطاب مع هؤلاء الّذين حاولوا نبذ خرافات الأوهام، سعياً وراء الأخذ بعُرَى الاعتصام، اعتصاماً بحبل الله المتين والسير على النهج المستقيم.

فليكن الطالب للحقّ من أيّ طائفة من طوائف الناس، ممّن دانوا بدين تـفكّكت أو اصـره أو صبوا عن خرافة الوثنيّة الجهلاء. فإن كانوا يبتغون الحقيقة الناصعة، فليستمسكوا بعرى الإيمان الوثيقة، ويؤمنوا بالله واليوم الآخر، وليكن عملهم على الصلاح ومشيتهم على الطمأنينة والسلام، الأمر الذي يهتف به الإسلام في جامع أصوله وفروعه.

نكتة ظريفة

وهنا نكتة دقيقة لايسمح التغافل عنها، وهي ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. الأصل الذي يقرّر الإسلام: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٢].

---

(١) راجع: السيرة لابن هشام ١: ٢٣٧ ـ ٢٤٧. والروض الأنف للسهيلي ١: ٢٥٣ ـ ٢٦٣.

(٢) الكهف ١٨: ٣٠.

فأيّ إنسان خيِّر قام بعمل إنساني نبيل، فإنّه مشكور عند الله ولا تفوته مثوبته، وهي قاعدة عقلانيّة قرّرها الإسلام على الأصل: «الناس مجزيّون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ»[١].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٢].

وهذا أصل عام يشمل المتعبّد بدين وغيره على سواء، نعم إذا كان العمل الذي قدّمه خالصاً من الأكدار، نظيفاً من الأقذار.. وإلّا فإن كان فسده بسوء النيّات لم يكن عملُه خيراً محضاً.. «وإنّما الأعمال بالنيّات»[٣].

فلو كان العمل مشوباً بالرياء والسمعة والامتنان المستدعي للتحقير والتوهين، فعمله هذا بالشرّ أشبه منه إلى الخير.

فربّ عمل خطير صغّرته نيّة، العامل الهزيلة، وعلى العكس: ربّ عمل صغير عظّمته نيّة صاحبه الفخيمة. «فلا عمل إلّا بنيّة»[٤]. وهي التي تحدّد من قيمة العمل إن فخيماً أو ضئيلاً.

هل لغير المؤمن نصيب في الآخرة؟

هنا سؤال آخر بعد تقرير الأصل القائل بعدم ضياع الأعمال، وهو: هل لغير المؤمن نصيب في حظوظ الآخرة، إذا كان ممّن أحسن عملاً، ولم يعاند الحقّ الصريح؟

قلت: ظاهر إطلاق الآية هو التعميم والشمول حتّى مثوبات دار البقاء، بعد عدم دليل على اختصاص مثوبات الآخرة بالمؤمنين محضاً، وحرمان غيرهم منها بصورة عامّة.

ويتأيّد إطلاق الآية بالمستفيض عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام بأنّ القاصر والمستضعف الذي لم ينكشف له وجه الحقّ صريحاً ولم يعانده، لا يُعَدُّ مخالفاً ولا هو من أهل الباطل، وسوف تشمله

---

(١) المستفاد من الكلام النبوي المشهور، راجع: كنز العمّال ٣: ٢٥ / ٥٢٧٥ والبحار ٦٨: ٣٦٨ / ١٨.

(٢) سورة الزلزال.

(٣) تهذيب الأحكام، ١: ٨٣ / ٢١٨.

(٤) المحاسن، ١: ٢٢٢؛ الكافي ١: ٧٠ / ٩، رواه في حديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وتمام الحديث: عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لاقول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بنيّة ولاقول ولا عمل ولا نيّة إلّا بإصابة السنّة.

رحمة الله الواسعة، على حدّ رعايته الحدود المضروبة ولم يفرّط في جنب الله عن علم وقصد.

[٢ / ٢٢٣٠] روى ثقة الإسلام الكليني بإسناده الصحيح إلى زرارة بن أعين، قال: «دخلت على الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وقلت له: إنّا نمدّ المطمار[1] فمن وافقنا [أي في الرأي والعقيدة] تولّيناه، ومن خالفنا برئنا منه؟!

فقال عليه السلام: يا زرارة، قول الله ـ عزّ وجلّ ـ أصدق من قولك، فأين الّذين قال الله [بشأنهم]: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾[2]؟!

أين المرجون لأمر الله[3]؟! أين الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً[4]؟!

أين أصحاب الأعراف[5]؟! أين المؤلّفة قلوبهم[6]؟!

قال: فارتفع صوت أبي جعفر حتّى كان يسمعه من على باب الدار!».[7]

[٢ / ٢٢٣١] وروى أيضاً بالإسناد إلى هشام عن حمزة بن الطيّار قال: قال لي أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «الناس على ستّة أصناف:

١ و ٢ ـ أهل الوعيد من أهل الجنّة وأهل النار[8]

٣ ـ ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[9].

٤ ـ ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[10].

٥ ـ ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[11].

---

(١) المطمار: خيط المعمار، يقيس به البناء والحائط دون الأَوَد.

(٢) النساء ٤: ٩٨.

(٣) انظر: التوبة ٩: ١٠٦.

(٤) انظر: التوبة ٩: ١٠٢.

(٥) انظر: الأعراف ٧: ٤٦.

(٦) انظر: التوبة ٩: ٦٠.

(٧) الكافي ٢: ٣٨٢ـ٣٨٣ / ٣، باب أصناف الناس.

(٨) أي جاء وعدهم بالجنّة أو النار في القرآن صريحاً.

(٩) التوبة ٩: ١٠٢.

(١٠) التوبة ٩: ١٠٦.

(١١) النساء ٤: ٩٨ـ٩٩.

٦ ـ وأصحاب الأعراف!

قال: قلت: ومن أصحاب الأعراف؟ قال: قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم، فإن أدخلهم الله النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبرحمته»(١).

وفي هذا الحديث دلالة على أنّ العذاب والحرمان ليس حتماً على من لم يؤمن إيماناً كإيمان أهل المعرفة واليقين.

[٢٢٣٢/٢] وفي ذلك روى الكليني بإسناد صحيح إلى عبدالرحمان بن الحجّاج عن زرارة قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: يدخل النار مؤمن؟ قال: لا، والله. قلت: فمايدخلها إلّا كافر؟ قال: لا، إلّا من شاء الله.. فرددتُ عليه مراراً فقال لي: أي زرارة، إنّي أقول: لا، وأقول: إلّا من شاء الله! وأنت تقول: لا، ولا تقول: إلّا من شاء الله!»(٢).

[٢٢٣٣/٢] وفي حديث آخر: «يا زرارة، ما تقول فيمن أقرّ لك بالحكم، أتقتله؟ ما تقول في خدمكم وأهليكم، أتقتلهم؟»(٣).

[٢٢٣٤/٢] وروى زرارة عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «لو أنّ العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا، لم يكفروا»(٤).

إذن فليس كلّ من خالف المذهب الحقّ أي لم يتوافق معه، لجهل أو قصور، كان مناوئاً أي جاحِداً معانداً.

كما ليس كلّ كافر أي غير معتقد بدين الحقّ، لجهل أو قصور أيضاً، كان مستوجباً للنار ويحرم المثوبات الأخروية على الإطلاق.

بل ولعلّه ـ إن كانت نيّته صادقة واستقام في أمره على طريقة العقل الرشيد وأحسن عملاً ـ لعلّه يثاب وفق نيّته وتشمله رحمة الله الواسعة: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(٥).

[٢٢٣٥/٢] فقد روى الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق عن آبائه عن عليّ عليهم السلام قال ـ ما

(١) الكافي ٢: ٣٨١ / ١، باب أصناف الناس. (٢) المصدر ٢: ٣٨٥ / ٧.

(٣) المصدر: ٣٨٦. قوله: «أقرّ لك بالحكم» أي نزل على حكمك فيه.

(٤) المصدر: ٣٨٨ / ١٨، باب الكفر. (٥) الكهف ١٨: ٣٠.

مضمونه ـ: إنّ للجنّة باباً يدخل منه الصلحاء من سائر الناس، إذا لم يجابهوا الحقّ ولم يعاندوا أئمّة الدين، في مسيرتهم في الحياة[1].

نعم قد يتوهم التنافي مع آيات خصّت نعيم الآخرة بأهل التقوى واليقين وأن لاحظّ لمن ابتغى الدنيا وآثرها على الآخرة.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[2].

﴿وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[3].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾[4].

قلت: هذا صحيح، غير أنّ التقوى التي هي شرط التلذّذ بنعيم الآخرة، مراد بها: التعهّد الإنساني النبيل في هذه الحياة.. فمن سار على منهج الإنسانيّة والتزم بما فرضت عليه من تعهّدات تجاه بني جلدته ووفّى حقوقهم ولم يحد عن جادّة الصواب التي يرشد إليها العقل الرشيد. والتي توارثها بنو الإنسان منذ عهدهم بالنبوّات والشرائع الإلّهية طول التاريخ، فالملتزم بها ملتزم بمكارم الأخلاق ومتعهّد بتعاليم السماء.. وكان ممّن دعى إلى الفضيلة وقد أحسن عملاً.

نعم من كان باع حظّه بالثمن الأبخس وعاكس طريق الهدى فهذا ممّن آثر الحياة الدنيا وماله في الآخرة من خلاق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[5].

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[6].

---

(١) روى الصدوق في باب الثمانية من كتابه الخصال: أنّ عليّاً عليه السلام قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون. وباب يدخل منه الشهداء والصالحون. وخمسة أبواب يدخل منها الموالون العارفون. والباب الثامن يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد بالتوحيد ولم يبغض أولياء الله الأطيبين». ومنه يظهر شموله لسائر الناس من أصحاب الملل والنحل ممّن شهد بالوحدانيّة ـ التي هي فطرة الناس جميعاً ـ ولم يقم في وجه أئمّة الدين بالمجاحدة والمنابذة الرذيلة. راجع: الخصال ٦: ٤٠٨، أبواب الثمانية والبحار ٨: ٣٩ / ١٩، و ١٢١ / ١٢، و ٦٩: ١٥٩ / ٥.

(٢) البقرة ٢: ٢٠٠.

(٣) البقرة ٢: ١٠٢.

(٤) مريم ١٩: ٦٣.

(٥) آل عمران ٣: ٧٧.

(٦) القصص ٢٨: ٨٣.

ملحوظة

والذي نستشّفه من حديثنا السابق: أنّ لذوي العقول الكبيرة من علماء وحكماء خدموا الناس بفكرتهم وبمبتكرات علومهم في الصناعة والزراعة بما أفاض على الناس بركات وخيرات وسّعت عليهم المعيشة في الحياة وصعدت بالمدنيّة وازدهرت معالمها ملأ الآفاق أن لابدّ لهم الحظّ الأوفى عند الله والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

نعم هناك للنيّة الصادقة دورها في النيل بحظوظ الآخرة.

[٢٢٣٦/٢] وإنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرء ما نوى كما قالﷺ[١]. وفي ذيل الحديث: «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته ما هاجر إليه»[٢].

فمن كانت نيّته الشهرة وحسن السَّمت، فذاك حظّه. ومن كانت نيّته إسداء الخدمة إلى الناس والترفيه بحالتهم في الحياة، فهذا أجره على الله، إذ لا يقابل عمله بشيء سوى رضى الله له والترفيع بشأنه.

* * *

وبعد فإليك ما ذكره أصحاب التفسير بالمأثور بشأن الآية:

قال أبو جعفر: أمّا الّذين آمنوا فهم المصدِّقون رسول الله فيما أتاهم به من الحقّ من عند الله، وإيمانُهم بذلك: تصديقهم به على ما قد بيّنّاه فيما مضى من كتابنا هذا[٣]. وأمّا الّذين هادوا، فهم اليهود، ومعنى هادوا: تابوا. يقال منه: هاد القوم يهودون هَوداً وهادةً.

[٢٢٣٧/٢] وقيل: إنّما سمّيت اليهود يهود من أجل قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[٤]. قاله ابن جُريج.

وقال أبو جعفر: والنصارى جمع، واحدهم نصران، كما واحد سكارى سكران، وواحد النشاوى نشوان. وكذلك جمع كلّ نعت كان واحده على فعلان، فإنّ جمعه على فعالى؛ إلّا أنّ

(١) عوالي اللئالي ١: ٣٨٠ / ٢.
(٢) البخاري ١: ٢ / ١ باب بدء الوحي؛ مسند أحمد ١: ٤٣.
(٣) المراد من الكتاب: تفسير الطبري.
(٤) الأعراف ٧: ١٥٦. والمعنى: رجعنا بتوبتنا إليك. قال الطبرسي: والهَوْد: الرجوع. مجمع البيان ٤: ٤٨٦.

المستفيض من كلام العرب في واحد النصارى نصرانيّ. وقد حُكي عنهم سماعاً «نَصْرَان» بطرح الياء، ومنه قول الشاعر:

تــراه إذا زار العشــيُّ مُــحَنِّفاً ويُضحي لديه وهو نصران شامِس[1]

سمع منهم في الأنثى نصرانة، قال الشاعر:

فكلتاهما خَـرَّت وأُسـجِدَ رأسُـها كما سجدت نـصرانـة لم تَـحَنَّفِ[2]

يقال: أسجد: إذا مال. وقد سمع في جمعهم أنصار بمعنى النصارى، قال الشاعر:

لَـمّا رأيتُ نَـبَطاً أنـصارا شَمَّرْتُ عـن رُكْـبَتِي الإزارا

كُنْتُ لَهُم مِنَ النَّصارَى جارا

وهذه الأبيات التي ذكرتها تدلّ على أنّهم سمّوا نصارى لنصرة بعضهم بعضاً وتناصرهم بينهم.

[٢٢٣٨/٢] وقد قيل إنّهم سمّوا نصارى من أجل أنّهم نزلوا أرضاً يقال لها: «ناصرة». ذكره ابن جريج.

ويقول آخرون: لقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾[3].

[٢٢٣٩/٢] وقد ذكر عن ابن عبّاس من طريق غير مرتضى أنّه كان يقول: إنّما سمّيت النصارى نصارى، لأنّ قرية عيسى بن مريم كانت تسمّى ناصرة، وكان أصحابه يسمّون الناصريّين، وكان يقال لعيسى: الناصريّ.

[٢٢٤٠/٢] وعن قتادة قال: إنّما سمّوا نصارى لأنّهم كانوا بقرية يقال لها: ناصرة ينزلها عيسى بن مريم، فهو اسم تسمّوا به ولم يؤمروا به.

[٢٢٤١/٢] وروى عبدالرزّاق عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ قال: تسمّوا

---

(١) محنّفاً: صار إلى الحنيفيّة. ولديه: أي لدى العشيّ. وشامس: مستقبل الشمس.

(٢) البيت لأبي الأخزر الحماني. ذكره سيبويه في الكتاب (٣ / ٢٥٦ و ٤١١) وابن منظور في اللسان (مادة حنف). يصف ناقتين خرتا من الإعياء أو نحرتا فطأطأتا رؤوسهما، فشبّه إسجادهما بسجود النصرانة. والإسجاد: طأطأة الرأس. والسجود: وضع الجبهة على الأرض، أو هما بمعنى طأطأة الرأس. والتحنّف: اعتناق الحنيفيّة أي الإسلام.

(٣) الصفّ ٦١: ١٤.

بقرية يقال لها: ناصرة، كان عيسى بن مريم ينزلها(١).(٢)

* * *

قال أبو جعفر: والصابئون جمع صابئ، وهو المستحدث سوى دينه ديناً، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه. وكلّ خارج من دين كان عليه إلى آخرَ غيرِه تُسميّه العرب صابئاً، يقال منه: صَبَأَ فلان يَصْبَأُ صَبْأً، ويقال: صبأت النجوم: إذا طلعت، وصبأ علينا فلان موضع كذا وكذا، يعني به طلع.

واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل. فقال بعضهم: يلزم ذلك كلّ من خرج من دين إلى غير دين. وقالوا: الّذين عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم.

[٢٢٤٢/٢] روى ليث، عن مجاهد، قال: ﴿الصَابِئُون﴾ ليسوا بيهود ولانصارى ولا دين لهم.

[٢٢٤٣/٢] وعنه أيضاً، قال: الصابئون بين المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

[٢٢٤٤/٢] وعن قتادة، عن الحسن مثل ذلك.

[٢٢٤٥/٢] وعن ابن أبي نجيح: الصابئين بين اليهود والمجوس لا دين لهم.

[٢٢٤٦/٢] ورواه عن مجاهد، وقال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا دين لهم.

[٢٢٤٧/٢] وقال ابن جريج: قلت لعطاء: «الصابئين» زعموا أنّها قبيلة من نحو السواد(٣) ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى. قال: قد سمعنا ذلك، وقد قال المشركون للنبيﷺ: قد صبأ.

[٢٢٤٨/٢] وقال ابن زيد: الصابئون: دين من الأديان، كانوا بجريرة الموصل يقولون: «لا إلـه إلّا الله»، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبيّ إلّا قول لا إلـه إلّا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول الله، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبيّﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون. يشبّهونهم بهم.

وقال آخرون: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلّون إلى القبلة، كما:

[٢٢٤٩/٢] قال الحسن، قال: حدّثني زياد: أنّ الصابئين يصلّون إلى القبلة ويصلّون الخَمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخُبِّر بعدُ أنّهم يعبدون الملائكة.

---

(١) ذكر أرباب اللغة: النصرانيّ نسبة إلى الناصرة على غير قياس. والجمع: نصارى. والناصرة: مدينة في شماليّ فلسطين (الجليل)، بلدة العذراء مريم. قضى فيها المسيح حياته المحتجبة فدعي ناصرياً وأتباعه نصارى.

(٢) الطبري ١: ٤٥٣ـ ٤٥٥.

(٣) يعني سواد العراق.

[٢٢٥٠/٢] وقال قتادة: الصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلّون إلى القبلة، ويقرأون الزبور.

[٢٢٥١/٢] وقال أبو العالية: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور.

قال أبو جعفر الرازي: وبلغني أيضاً أنّ الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرأون الزبور، ويصلّون إلى القبلة.

وقال آخرون: بل هم طائفة من أهل الكتاب كما:

[٢٢٥٢/٢] روى سفيان، قال: سُئل السدّيّ عن الصابئين فقال: هم طائفة من أهل الكتاب[١].

* * *

وأخرج ابن أبي حاتم ـ في تفسيره للصابئين ـ ثمانية أقوال:

[٢٢٥٣/٢] فعن سعيدبن جبير: هم منزلة بين اليهود والنصارى.

[٢٢٥٤/٢] وعن ليث عن مجاهد وكذا عن عطا: قوم بين المجوس واليهود والنصارى. ليس لهم دين.

[٢٢٥٥/٢] وعن أبي العالية وكذا عن الضحّاك والسدّي والربيع بن أنس وجابربن زيد: هم فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور.

[٢٢٥٦/٢] وعن الحسن: إنّهم كالمجوس.

[٢٢٥٧/٢] وعن ابن وهب عن ابن أبي الزناد عن أبيه: هم قوم ممّا يلي العراق، وهو بكُوثَى[٢] وهم يؤمنون بالنبيّين كلّهم ويصومون من كلّ سنة شهراً ثلاثين يوماً ويصلّون إلى اليمن كلّ يوم خمس صلوات.

[٢٢٥٨/٢] وعن أبي جعفر الرازي قال: بلغني أنّ الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرأون الزبور ويصلّون إلى القبلة.

---

(١) الطبري ١: ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٢) مدينة قديمة بسواد العراق في أرض بابل واشتهرت بتلّ إبراهيم ورد ذكرها في التوراة، كانت مركزاً للتعليم الديني في العهد السومري. وبها كانت ولادة إبراهيم. ومن ثمّ لمّا سئل علي ﷺ عن أصل قريش، قال: نحن من كوثى. قال ابن الأعرابي: أراد كوثى السواد الّتي ولد بها إبراهيم الخليل. (معجم البلدان ٤: ٤٨٨).

[٢٢٥٩/٢] وعن وهب بن منبّه سُئل: ما الصابئيّ؟ قال: الّذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً.

[٢٢٦٠/٢] وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: هم بين المجوس واليهود، لا دين لهم[١].

[٢٢٦١/٢] وأخرج عبد بن حميد عن ابن عبّاس قال: يقولون: الصابئون وما الصابئون؟ الصابئون! ويقولون: الخاطئون وما الخاطئون؟ الخاطئون![٢].

* * *

وقال أبو إسحاق الثعلبي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني اليهود، واختلف العلماء في سبب تسميتهم به؛ فقال بعضهم: سمّوا بذلك لأنّهم هادوا أي تابوا من عبادة العجل، كقوله إخباراً عنهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[٣].

وأنشد أبو عبيدة:

إنّي امرؤ من مدحه هائد[٤].

أي تائب.

وقال بعضهم: لأنّهم هادوا أي مالوا عن الإسلام وعن دين موسى. يُقال: هاد يهود هوداً: إذا مال. قال امرؤ القيس:

قد علمت سلمى وجاراتها أنّي من الناس لها هائد[٥]

أي إليها مائل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنّهم يتهوّدون أي يتحرّكون عند قراءة التوراة، ويقولون: إنّ السماوات والأرض تحرّكت حين أتى الله موسى التوراة.

وقرأ أبو السمّاك العدوي وإسمه قعنب: هادوا بفتح الدال من المهاداة، أي مال بعضهم إلى بعض

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٢٧ـ١٢٨.

(٢) الدرّ ١: ١٨٣.

(٣) الأعراف ٧: ١٥٦.

(٤) لسان العرب: ٣ / ٤٣٩.

(٥) كتاب العين: ٥ / ٩٦؛ والعبارة كالتالي:

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلّا أنا

في دينهم.

﴿وَالنَّصارى﴾ واختلفوا في سبب تسميتهم بهذا الاسم، فقال الزُّهْري: سُمّوا نصارى لأنّ الحواريّين قالوا: نحن أنصار الله.

[٢/٢٢٦٢] وقال مقاتل: لأنّهم نزلوا قرية يُقال لها: ناصرة، فنسبوا إليها.

وقال الخليل بن أحمد: النصارى: جمع نصران، كقولهم: ندمان وندامى.

وأنشد:

تـــراه إذا دار العشـــيّ مـــحنّفاً ويضحى لربّه وهو نصران شـامس

فنسبت فيه ياء النسبة كقولهم لذي اللحية: لحياني، ورقابي لذي الرقبة.

فقال الزجّاج: يجوز أن يكون جمع نصري كما يُقال: بعير حبري، وإبل حبارى، وإنّما سمّوا نصارى لاعتزائهم إلى نصرة وهي قرية كان ينزلها عيسى وأمّه.

﴿والصَّابِئين﴾ قرأ أهل المدينة بترك الهمزة من الصّابئين والصّابئون الصّابين والصّابون في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل، يُقال: صبا يصبوا صبوءاً، إذا مال وخرج من دين إلى دين.

قال الفرّاء: يُقال لكلّ من أحدث ديناً: قد صبأ وأصبأ بمعنى واحد، وأصله الميل، وأنشد:

إذا أصـــبأت هـوادي الخـيل عـنّا حـســبت بـنحرها شـــرق البـعير

واختلفوا في الصّابئين من هم:

[٢/٢٢٦٣] قال عُمَر: هم طائفة من أهل الكتاب ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب، وبه قال السدّي.

[٢/٢٢٦٤] وقال ابن عبّاس: لا تحلّ ذبائحهم ولا مناكحة نسائهم.

[٢/٢٢٦٥] وقال مجاهد: هم قبيلة نحو الشّام بين اليهود والمجوس لا دين لهم.

[٢/٢٢٦٦] وقال السّدي: هم طائفة من أهل الكتاب، وهو رأي أبي حنيفة.

[٢/٢٢٦٧] وقال قتادة ومقاتل: هم قوم يقرّون بالله عزّ وجلّ، ويعبدون الملائكة، ويقرأون الزبور ويصلّون إلى الكعبة، أخذوا من كلّ دين شيئاً.

[٢/٢٢٦٨] وقال الكلبي: هم قوم بين اليهود والنصارى، يحلقون أوساط رؤوسهم ويـجبّون

مذاكرهم[١] قال عبدالعزيز بن يحيى: دَرَجوا وانقرضوا فلا عين ولا أثر[٢].

* * *

وقال في قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ﴾: اختلفوا في حكم الآية ومعناها، ولهم فيها طريقان:

أحدهما: أنّه أراد بقوله: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنوا﴾ على التحقيق وعقد التصديق، ثمّ اختلفوا في هؤلاء المؤمنين من هم؟ فقال قوم: هم الّذين آمنوا بعيسى ثمّ لم يتهوّدوا ولم يتنصّروا ولم يصبئوا، وانتظروا خروج محمّد ﷺ.

وقال آخرون: هم طلّاب الدين، منهم: حبيب النجّار، وقسّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، والبراء[٣]، وأبوذر الغفاري، وسلمان الفارسي، ويحيى الراهب، ووفد النجاشي. فمنهم من آمن بالنبي ﷺ قبل مبعثه، فمنهم من أدركه وتابعه، ومنهم من لم يدركه.

وقيل: هم مؤمنو الأمم الماضية. وقيل: المؤمنون من هذ الأُمّة.

﴿وَالَّذِينَ هَادوا﴾ يعني الّذين كانوا على دين موسى ﷺ ولم يبدّلوا ولم يغيّروا.

﴿وَالنَّصارى﴾: الّذين كانوا على دين عيسى ﷺ ولم يبدّلوا وماتوا على ذلك.

قالوا: وهذان اسمان لزماهم زمن موسى وعيسى ﷺ، حيث كانوا على الحقّ فبقي الاسم عليهم كما بقي الإسلام على أمّة محمّد ﷺ.

﴿وَالصَّابِئين﴾ زَمَنَ استقامتهم. ﴿مَن آمَن﴾ منهم أي مات منهم وهو مؤمن؛ لأنّ حقيقة الإيمان المؤافاة. ويجوز أن يكون الواو فيه مضمراً أي: ومن آمن بعدك يا محمّد إلى يوم القيامة.

والطريق الآخر: أنّ المذكورين بالإيمان في أوّل الآية إنّما هو على طريق المجاز والتّسمية

---

(١) البغوي ١: ١٢٤. قوله: يجبّون مذاكيرهم أي يقطعونها، ولعلّه كناية عن الختان كما هو شريعة اليهود.

(٢) دَرَج القوم: انقرضوا وبادوا.

(٣) وفي نسخة المتن وصفه بالسندي أو السني، ولعلّه تصحيف السلمي، وهو البراء بن معرور الخزرجي السلمي الأنصاري أوّل من بادر إلى البيعة بالعقبة، وكان حريصاً على الإسلام. مات قبل هجرة النبي ﷺ بشهر فصلّى على قبره. وكان أوصى بوصية للنبيّ فردّها إلى ابنه.

دون الحكم والحقيقة، ثمّ اختلفوا فيه:

فقال بعضهم: إنّ الّذين آمنوا بالأنبياء الماضين والكتب المتقدّمة ولم يؤمنوا بك ولا بكتابك.

وقال آخرون: يعني بهم المنافقين أراد: إنّ الّذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾[1].

والّذين هادوا: أي اعتقدوا اليهوديّة وهي الدين المبدّل بعد موسى عليه السلام.

والنصارى: هم الّذين اعتقدوا النصرانيّة والدّين المبدّل بعد عيسى عليه السلام.

والصابئين: يعني أصناف الكفّار من آمن بالله من جملة الأصناف المذكورين في الآية.

وفيه اختصار وإضمار تقديره: من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ لأنّ لفظ «من» يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[2] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾[3] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[4]. ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ﴾[5]، وقال الفرزدق في التشبيه:

تعال فإن عاهدتني لاتخونني تكن مثل من ناديت يصطحبان[6]

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما قدّموا. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلّفوا، وقيل: لا خوف عليهم بالخلود في النار، ولا يحزنون بقطيعة الملك الجبّار، ولا خوف عليهم من الكبائر وإنّي أغفرها، ولا هم يحزنون على الصغائر فأنّي أكفّرها. وقيل: لاخوف عليهم فيما تعاطوا من الأجرام، ولا هم يحزنون على ما اقترفوا من الآثام لما سبق لهم من الإسلام[7].

* * *

وقال أبوجعفر في تأويل الآية: يعني بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: من صدّق وأقرّ بالبعث بعد الممات يوم القيامة وعمل صالحاً فأطاع الله، فلهم أجرهم عند ربّهم، يعني بقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

(١) النساء ٤: ١٣٦.
(٢) الأنعام ٦: ٢٥.
(٣) يونس ١٠: ٤٣.
(٤) يونس ١٠: ٤٢.
(٥) الأحزاب ٣٣: ٣١.
(٦) لسان العرب: ١٣ / ٤١٩.
(٧) الثعلبي ١: ٢٠٨ ـ ٢١٠.

عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربّهم.

فإن قال لنا قائل: فأين تمام قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَى وَ الصَّابِئِينَ﴾؟ قيل: تمامه جملة قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأنّ معناه: من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فترك ذكر «منهم» لدلالة الكلام عليه استغناء بما ذكر عمّا ترك ذكره.

فإن قال: وما معنى هذا الكلام؟ قيل: إنّ معناه: إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم.

فإن قال: وكيف يؤمن المؤمن؟ قيل: ليس المعنى في المؤمن، المعنى الذي ظننته من انتقال من دين إلى دين كانتقال اليهوديّ والنصرانيّ إلى الإيمان ـ وإن كان قد قيل إنّ الّذين عُنوا بذلك من كان من أهل الكتاب على إيمانه بعيسى وبما جاء به، حتّى أدرك محمّداًﷺ، فآمن به وصدّقه، فقيل لأولئك الّذين كانوا مؤمنين بعيسى وبما جاء به إذ أدركوا محمّداًﷺ: آمنوا بمحمّد وبما جاء به ـ ولكن معنى إيمان المؤمن في هذا الموضع ثباته على إيمانه وتركه تبديله.

وأمّا إيمان اليهود والنصارى والصابئين، فالتصديق بمحمّدﷺ، وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمّد، وبما جاء به واليوم الآخر، ويعمل صالحاً، فلم يبدّل ولم يغيّر، حتّى توفّي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربّه، كما وصف جلّ ثناؤه.

فإن قال قائل: وكيف قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإنّما لفظ «مَن» لفظ واحد، والفعل معه موحّد؟ قيل: «مَنْ» وإن كان الذي يليه من الفعل موحّداً، فإنّ له معنى الواحد والاثنين والجمع والتذكير والتأنيث، لأنّه في كلّ هذه الأحوال على هيئة واحدة وصورة واحدة لا يتغيّر، فالعرب توحّد معه الفعل وإن كان في معنى جمع، للفظه، وتجمع أخرى معه الفعل لمعناه، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] فجمع مرّة مع «مَنْ» الفعلَ لمعناه، ووحّد أخرى معه الفعلَ؛ لأنّه في لفظ الواحد، كما قال الشاعر:

---

(١) يونس ١٠: ٤٢ و ٤٣.

ألِـمّا بسَـلْمَى عـنكما إن عـرضتما وقولا لها عُوجي على من تخلّفوا(١)

فقال: تخلّفوا، وجعل «مَنْ» بمنزلة الّذين.

وقال الفرزدق:

تَـعالَ فـإن عـاهَدْتَني لا تـخُونُني نكُن مثل من يا ذِئبُ يَـصْطَحِبانِ(٢)

فثنّى يصطحبان لمعنى «مَنْ». فكذلك قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وحّد آمن وعمل صالحاً للفظ «مَنْ» وجمع ذكرهم في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ لمعناه، لأنّه في معنى جمع.

وأمّا قوله: ﴿وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنّه يعني به جلّ ذكرُه: ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة، ولاهم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده(٣).

* * *

[٢٢٦٩/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّـذِينَ هَـادُوا﴾ يـعني اليـهود ﴿وَ النَّصَارَىٰ وَ الصَّابِئِينَ﴾ «وهم» قوم يصلّون للقبلة، يقرأون الزبور ويـعبدون المـلائكة، وذلك أنّ سلمان الفارسي كان من جندي سابور، فأتى النبيّ ﷺ فأسلم وذكر سلمان أمر الراهب وأصحابه، وأنّهم مجتهدون في دينهم يصلّون ويصومون، فقال النبيّ ﷺ: هم في النار فأنزل الله ـ عزّوجلّ ـ فيمن صدّق منهم بمحمّد ﷺ وبما جاء به ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني صـدّقوا يـعني أقـرّوا وليسـوا بمنافقين ﴿وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَىٰ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِـرِ وَ عَـمِلَ صَـالِحاً﴾ يـقول: من صدّق منهم بالله ـ عزّ وجلّ ـ بأنّه واحد لاشريك له وصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال بأنّه

(١) عرضتما: من قولهم: عرض الرجل، إذا أتى العَرُوض، وهي مكّة والمدينة وما حولهما.

(٢) في الديوان: «تعش فإن واثقتني» والرواية المشهورة: «تعش فإن عاهدتني». وكان الفرزدق قد اجترز شاة ثمّ أعـجله المسير فسار بها، فجاء الذئب فحرّكها وهي مربوطة على بعير، فأبصر الفرزدق الذئب وهو ينهشها، فقطع رجـل الشـاة فرمى بها إليه، فأخذها وتنحّى ثمّ عاد، فقطع له اليد فرمى بها إليه، فلمّا أصبح القوم خبّرهم الفرزدق. والبيت في كـتاب سيبويه (٢: ٤١٦).

(٣) الطبري ١: ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

كائن ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نزول العذاب ﴿وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت. يقول: إنّ الّذين آمنوا يعني صدّقوا بتوحيد الله ـ تعالى ـ ومن آمن من الّذين هادوا ومن النصارى ومن الصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر فيما تقدّم إلى آخر الآية[١].

[٢٢٧٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال: نحن أعلم الناس من أين تسمّت اليهود باليهوديّة؟ بكلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدنا إِلَيك﴾، ولِمَ تسمّت النصارى بالنصرانيّة؟ من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ الله﴾[٢].

[٢٢٧١/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: نحن أعلم الناس من أين تسمّت اليهود باليهوديّة، والنصارى بالنصرانيّة، إنّما تسمّت اليهود باليهوديّة بكلمة قالها موسى: ﴿إِنَّا هُدنا إِلَيك﴾، فلمّا مات قالوا: هذه الكلمة كانت تعجبه فتُسمّوا باليهود، وإنّما تسمّت النصارى بالنصرانيّة لكلمة قالها عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ فتُسمّوا بالنصرانيّة[٣].

[٢٢٧٢/٢] وروى أبو جعفر الصدوق بإسناده إلى عليّ بن فضّال عن أبيه أنّه سأل الإمام أبا الحسن الرضا عليه السلام: لِمَ سمّي الحواريّون الحواريّين؟ قال: «أمّا عند الناس فإنّهم سمّوا حواريّين لأنّهم كانوا قصّارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل.

وأمّا عندنا فسمّي الحواريّون الحواريّين لأنّهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير.

قال: فقلت له: فلم سمّي النصارى نصارى؟ قال: لأنّهم من قرية إسمها ناصرة من بلاد الشام نزلتها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر»[٤].

[٢٢٧٣/٢] وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن جرير عن ابن عبّاس قال: إنّما سمّيت النصارى

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١١١ ـ ١١٢.

(٢) الدرّ ١: ١٨٢؛ ابن أبي حاتم ٥: ١٥٧٧ / ٩٠٤٣، والآيتين من الأعراف ٧: ١٥٦، والصفّ ٦١: ١٤.

(٣) الدرّ ١: ١٨٢ والآية من آل عمران ٣: ٥٢.

(٤) العيون ٢: ٨٥، باب ٣٢ / ١٠؛ علل الشرائع ١: ٨٠ ـ ٨١، باب ٧٢ / ١؛ البحار ١٤: ٢٧٢ ـ ٢٧٣ / ٢ باب ٢٠.

نصارى، لأنّ قرية عيسى كانت تسمّى ناصرة[١].

[٢٢٧٤/٢] وقال عليّ بن إبراهيم القمّي: الصابئون قوم لا مجوس ولا يهود ولا نصارى ولا مسلمون وهم يعبدون الكواكب والنجوم[٢].

[٢٢٧٥/٢] وقال قتادة والبلخي في قوله: ﴿الصَّابِئُون﴾: هم قوم معروفون ولهم مذهب يتفرّدون به، ومن دينهم عبادة النجوم. وهم يقرّون بالصانع وبالمعاد وببعض الأنبياء[٣].

[٢٢٧٦/٢] وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى، هم قوم من المشركين لا كتاب لهم[٤].

[٢٢٧٧/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن مجاهد قال: سُئل ابن عبّاس عن الصابئين؟ فقال: هم قوم بين اليهود والنصارى والمجوس، لا تحلّ ذبائحهم ولا مناكحهم[٥].

[٢٢٧٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: الصابئون منزلة بين النصرانيّة والمجوسيّة. ولفظ ابن أبي حاتم: منزلة بين اليهود والنصارى[٦].

[٢٢٧٩/٢] وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: ذهبت الصابئون إلى اليهود فقالوا: ما أمركم؟ قالوا: نبيّنا موسى جاءنا بكذا وكذا ونهانا عن كذا وكذا، وهذه التوراة فمن تابعنا دخل الجنّة، ثمّ أتوا النصارى فقالوا في عيسى ما قالت اليهود في موسى، وقالوا: هذا الإنجيل فمن تابعنا دخل الجنّة، فقالت الصابئون: هؤلاء يقولون: نحن ومن اتّبعنا في الجنّة، واليهود يقولون: نحن ومن اتّبعنا في الجنّة، فنحن به لا ندين، فسمّاهم الله الصابئين[٧].

---

(١) الدرّ ١: ١٨٢؛ الطبقات الكبرى ١: ٥٣ ـ ٥٤، باب ذكر القرون والسنين التي بين آدم ﷺ ومحمد ﷺ؛ ابن عساكر ١: ٣٢، باب في مبتدأ التاريخ.

(٢) نورالثقلين ١: ٨٤؛ القمّي ١: ٤٨؛ كنزالدقائق ٢: ٣٢؛ الصافي ١: ٢٠٤، بلفظ: والقمّي: إنّهم ليسوا من أهل الكتاب ولكنّهم يعبدون الكواكب والنجوم؛ البرهان ١: ٢٣١ ـ ٢٣٢ / ١١.

(٣) التبيان ١: ٢٨٢ ـ ٢٨٣؛ مجمع البيان ١: ٢٤٢.

(٤) الدرّ ١: ١٨٢؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٢ / ٥٩.

(٥) الدرّ ١: ١٨٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٢ / ٥٩.

(٦) الدرّ ١: ١٨٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٢٧ / ٦٣٧.

(٧) الدرّ ١: ١٨٣. ولعلّنا في عرض آخر نتكلّم عن الصابئين بصورة أوسع.

[٢٢٨٠/٢] وذكر أبوجعفر في سبب نزول الآية: أنّها نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، وكان سلمان من جُنْدي سابور، وكان من أشرافهم، وكان ابن الملك صديقاً له مؤاخياً، لا يقضي واحدٌ منهم أمراً دون صاحبه، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً. فبينما هما في الصيد إذ رفع لهما بيت من عَبَاء[1]، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه وهو يبكي، فسألاه ما هذا؟ فقال: الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فانزلا حتّى أُعلّمكما، فنزلا إليه، فقال لهما: هذا كتاب جاء من عند الله، أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته، فيه: أن لا تزني، ولا تسرق، ولا تأخذ أموال الناس بالباطل. فقصّ عليهما ما فيه، وهو الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى. فوقع في قلوبهما وتابعاه فأسلما، وقال لهما: إنّ ذبيحة قومكما عليكما حرام، فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه، حتّى كان عيد للملك، فجعل طعاماً، ثمّ جمع الناس والأشراف، وأرسل إلى ابن الملك فدعاه إلى صنيعه ليأكل مع الناس، فأبى الفتى وقال: إنّي عنك مشغول، فكل أنت وأصحابُك، فلمّا أكثر عليه من الرسل، أخبرهم أنّه لا يأكل من طعامهم، فبعث الملك إلى ابنه، فدعاه وقال: ما أمرُك هذا؟ قال: إنّا لا نأكل من ذبائحكم، إنّكم كفّار ليس تحلّ ذبائحكم، فقال له الملك: من أَمَرَك بهذا؟ فأخبره أنّ الراهب أمره بذلك، فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابني؟ قال: صدق ابنك، قال له: لولا أنّ الدم فينا عظيم لقتلتك، ولكن اخرج من أرضنا! فأجّله أجلاً. فقال سلمان: فقمنا نبكي عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين، فإنّا في بيعة بالموصل مع ستّين رجلاً نعبد الله فيها، فأتونا فيها. فخرج الراهب، وبقي سلمان وابن الملك؛ فجعل يقول لابن الملك: انطلق بنا، وابن الملك يقول: نعم، وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلمّا أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتّى أتاهم، فنزل على صاحبه وهو ربّ البيعة، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان، فكان سلمان معهم يجتهد في العبادة، ويُتعب نفسه، فقال له الشيخ: إنّك غلام حدث تتكلّف من العبادة ما لا تطيق، وأنا خائف أن تفتر وتعجز، فارفق بنفسك وخفّف عليها! فقال له سلمان: أرأيت الذي تأمرني به أهو أفضل أو الذي أصنع؟ قال: بل الذي تصنع؟ قال: فخلّ عنّي.

(١) العباء: ضرب من الأكسية فيه خطوط سود كبار، وغالباً يُكسى بها أخبية البدو في الصحراء.

ثمّ إنّ صاحب البيعة دعاه فقال: أتعلم أنّ هذه البيعة لي، وأنا أحقّ الناس بها، ولو شئت أن أُخرج هؤلاء منها لفعلت؟ ولكنّي رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، وأنا أريد أن أتحوّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيم هاهنا فأقم، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق. قال له سلمان: أيّ البيعتين أفضل أهلاً؟ قال: هذه. قال سلمان: فأنا أكون في هذه. فأقام سلمان بها وأوصى صاحبُ البيعة عالمَ البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبّد معهم، ثمّ إنّ الشيخ العالم أراد أن يأتي بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم. فقال له سلمان: أيّهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: لا بل تنطلق معي. فانطلق معه فمرّوا بمُقْعَدٍ على ظهر الطريق ملقى، فلمّا رآهما نادى: يا سيّد الرهبان ارحمني يرحمك الله. فلم يكلّمه ولم ينظر إليه، وانطلقا حتّى أتيا بيت المقدس، فقال الشيخ لسلمان: اخرج فاطلب العلم فإنّه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوماً حزيناً، فقال له الشيخ: ما لك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كلّه قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم، فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن، فإنّه قد بقي نبيّ ليس من نبيّ بأفضل تبعاً منه وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أدركه، وأمّا أنت فشابّ لعلّك تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فآمن به واتّبعه! فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء. قال: نعم، هو مختوم في ظهره بخاتم النبوّة، وهو يأكل الهديّة ولا يأكل الصدقة. ثمّ رجعا حتّى بلغا مكان المُقْعَد، فناداهما فقال: يا سيّد الرهبان ارحمني يرحمك الله، فعطف إليه حماره، فأخذ بيده فرفعه، فضرب به الأرض ودعا له، وقال: قم بإذن الله، فقام صحيحاً يشتدّ[1]، فجعل سلمان يتعجّب وهو ينظر إليه يشتدّ. وسار الراهب فتغيّب عن سلمان، ولا يعلم سلمان. ثمّ إنّ سلمان فزع بطلب الراهب، فلقيه رجلان من العرب من كلب فسألهما: هل رأيتما الراهب؟ فأناخ أحدهما راحلته، قال: نعم راعي الصِّرْمة[2] هذا، فحمله فانطلق به إلى المدينة. قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قطّ. فاشترته امرأة من جُهَينة فكان يرعى غنمها هو وغلام لها يتراوحان الغنم هذا يوماً وهذا يوماً، فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج

---

(١) يشتدّ: يعدو ويسرع.

(٢) الصرمة: القطيع من الإبل والغنم.

محمّدﷺ. فبينا هو يوماً يرعي، إذ أتاه صاحبه الذي يعقبه[١]، فقال: أشعرت أنّه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنّه نبيّ؟ فقال له سلمان: أقم في الغنم حتّى آتيك. فهبط سلمان إلى المدينة، فنظر إلى النبيّﷺ ودار حوله، فلمّا رآه النبيﷺ عرف ما يريد، فأرسل ثوبه، حتّى خرج خاتمه، فلمّا رآه أتاه وكلّمه، ثمّ انطلق، فاشترى بدينار ببعضه شاة وببعضه خبزاً، ثمّ أتاه به، فقال: «ما هذا؟» قال سلمان: هذه صدقة! قال: «لا حاجة لي بها فأخرِجْها فليأكُلْها المسلمون». ثمّ انطلق فاشترى بدينار آخر خبزاً ولحماً، فأتى به النبيّﷺ، فقال: «ما هذا؟» قال: هذه هديّة، قال: «فاقعُد»، فقعد فأكلا جميعاً منها. فبينا هو يحدّثه إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلّون ويؤمنون بك، ويشهدون أنّك ستبعث نبيّاً؛ فلمّا فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبيّ اللهﷺ: «يا سلمان هم من أهل النار»! فاشتدّ ذلك على سلمان، وقد كان قال له سلمان: لو أدركوك صدّقوك واتبعوك، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَىٰ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢].

فكان إيمان اليهود أنّه من تمسّك بالتوراة وسنّة موسى حتّى جاء عيسى، فلمّا جاء عيسى كان من تمسّك بالتوراة وأخذ بسنّة موسى فلم يدعها ولم يتّبع عيسى كان هالكاً. وإيمان النصارى أنّه من تمسّك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه، حتّى جاء محمّدﷺ، فمن لم يتّبع محمّداًﷺ منهم ويَدَع ما كان عليه من سنّة عيسى والإنجيل كان هالكاً[٣].

[٢٢٨١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج، عن مجاهد قال: سأل سلمان الفارسي النبيّﷺ عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم، قال: لم يموتوا على الإسلام! قال سلمان: فأظلمت عليّ الأرض وذكر اجتهادهم، فنزلت هذه الآية، فدعا النبيّ سلمان فقال: «نزلت هذه الآية في أصحابك». ثمّ قال النبيّﷺ: «من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي فهو

---

(١) أي الذي يأتي بعده في نوبته.

(٢) رواه ابن أبي حاتم صدراً وذيلاً مختزلاً. التفسير ١: ١٢٧. قال: وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا؛ الدرّ ١: ٣٨٩ ـ ٣٩٤، ط: دار هجر.

(٣) الطبري ١: ٤٥٨ ـ ٤٦١.

على خير ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك».

[٢٢٨٢/٢] وأخرج عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَ الصَّابِئِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.. فأنزل الله تعالى بعد هذا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).(٢)

قال أبو جعفر: وهذا الخبر يدلّ على أنّ ابن عبّاس كان يرى أنّ الله جلّ ثناؤه كان قد وعد من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين، على عمله، في الآخرة الجنّة، ثمّ نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

فتأويل الآية إذن على ما ذكرنا [أوّلاً] عن مجاهد والسدّي: أنّ الّذين آمنوا من هذه الأمّة، والّذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن من اليهود والنصارى والصابئين بالله واليوم الآخر، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والذي قلنا من التأويل الأوّل أشبه بظاهر التنزيل، لأنّ الله جلّ ثناؤه لم يخصّص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان، بعض خلقه دون بعض منهم، والخبر بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن جميع ما ذكر في أوّل الآية(٣).

[٢٢٨٣/٢] وأخرج الواحدي عن مجاهد قال: لمّا قصّ سلمان على رسول الله ﷺ قصّة أصحابه قال: هم في النار. قال سلمان: فأظلمت عليّ الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى قوله ﴿وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال: فكأنّما كشف عنّي جبل(٤).

---

(١) آل عمران ٣: ٨٥.

(٢) الطبري ١: ٤٦١/ ٩٢٨_٩٢٩.

(٣) الطبري ١: ٤٦١.

(٤) الدرّ ١: ١٧٩؛ أسباب النزول: ١٤_١٥.

قال تعالى:

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

موقف آخر من مواقف بني إسرائيل المتعنّتة: قصّة أخذ الميثاق، حسبما جاء تفصيله في الآية ٨٣ من السورة ومواضع أُخر من القرآن، وبما فيه من التملّص والتقلّص منه، ثمّ التشديد عليه لطفاً بهم كتشديد الطبيب الناصح على المريض اللجوج.. ولكن هيهات وتلك القلوب القاسية الجامحة ترفض النصح السليم وتجنح إلى السرح السقيم، بغياً وعتوًّا، ولايزالون يبتغون الفساد في الأرض كلّما حلّوا و ارتحلوا.

وهكذا كانت يهود المدينة تعمل الخبائث وتقوم بالدسائس تجاه صرح الإسلام القويم.

نعم لابدّ مع أخذ العهد بقوّةٍ وجدٍّ واستجماع نفس وتصميم لابدّ مع هذا من تذكّر ما فيه واستشعار حقيقته، والتكليف بهذه الحقيقة، كي لايكون الأمر كلّه مجرّد حماسة وحميّة وقوّة. فعهد الله منهج الحياة، منهج يستقرّ في القلب تصوّراً وشعوراً، ويستقرّ في الحياة وضعاً ونظاماً، ويستقرّ في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحسّاسيّة برقابة الله وخشية المصير.

ولكن هيهات! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها[1] وغلبت عليها جبلّتها: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ غير أنّ رحمة الله وسعت غضبه فأدركتهم مرّة أخرى وشملهم فضله العظيم، فأنقذهم من الخسار المبين ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

حادث نتوق الجبل

ممّا يسترعي الانتباه هنا هو حادث نتوق الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل، بما اضطرّهم إلى قبول العهد والاستسلام للشريعة!

---

(١) النحيزة: الطبيعة. يقال: هو كريم النحيزة أي شريف رفيع.

والسؤال هنا من جهتين: أُولاهما: هل صحّ أنّ الجبل اقتلع من مكانه وارتفع فوق رؤوسهم وظنّوا أنّه واقع بهم؟

والثانية: كيف يعنّف على التكليف، في حين أنّ المقصود من التكليف هو الاختبار غير الحاصل مع الاضطرار. إذ لا اختبار إلّا مع اختيار!

جاء ذكر هذا الحادث في القرآن في موضعين:

١ ـ سورة البقرة: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[١].

٢ ـ سورة الأعراف: ﴿وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتيناكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

ليس في الآيتين سوى اقتلاع جزء عظيم من أعالي الجبل، أثناء رجفة وزلزال مصحوبة بطوفان ورعود وبروق وسحاب ثقيل ـ كما جاء في نصّ التوراة[٣] ـ وقد ارتجف القوم من هول المشهد، وإذا بالصخرة الهائلة تنحدر إليهم وهم في سفح الجبل.

جاء في سفر الخروج: «وحدث في اليوم الثالث لمّا كان الصباح أنّه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل. فارتعد كلّ الشعب الذي في المحلّة وكانوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كلّه يدخن وصعد دخانُه كدخان الأتون وارتجف كلّ الجبل جدّاً ويزداد صوت البرق اشتداداً[٤]».

والصخرة كانت تهطل على صفحة الجبل وتنزلق إلى أسفل بشدّة وقوّة، حتّى خشي القوم أنّها ستدمّرهم، بسقوطها عليهم.

لكنّ الله بفضله ورحمته أوقفها في الأثناء ـ في ثنايا منحدرات الجبل ـ وكانت وقفتها بصورة عموديّة مطلّة عليهم جانبيّاً كأنّها ظلّة، فظنّوا أنّها واقعة بهم.

وكما جاء في نصّ التوراة أنّ هذا الحادث الهائل فاجأهم وهم في أثناء مذاكرتهم مع موسى عليه السلام عند ما عرض عليهم الشريعة، وحاول أخذ الميثاق عليها.

---

(١) البقرة ٢: ٦٣.
(٢) البقرة ٢: ١٧١.
(٣) سفر الخروج، أصحاح: ١٩ / ١٥ ـ ١٩.
(٤) المصدر.

ولعلّ في هذه المباغتة المفاجئة حكمة إلهيّة بالغة، ليريهم من آيات كونيّة موجّهة لضمير الإنسان إلى جانب ضعف مقدرته تجاه إرادة الله القادر الحكيم.

وهذا من قبيل إراءة المعاجز على أيدي الأنبياء إيقاظاً للضمير وليس إكراهاً على التسليم.

هذا ما دلّت عليه الآية الكريمة ودعمته التوراة بنصّها الصريح.

أمّا اقتلاع الجبل من أصله ورفعه في السماء برمّته فوق رؤوس القوم وكان معسكرهم فرسخاً في فرسخ بما اضطروا إلى الاستسلام خوف الدمار والاستئصال ـ كما جاء في بعض التفاسير[١] ـ فلا شاهد له في القرآن ولا في أثر صحيح معتمد.. وإنّما هو شيء جاء في روايات إسرائيليّة عاميّة اغترّ بها بعض الأوائل المشعوفين بأحاديث مسلمة اليهود.

قال السيّد محمّدرشيد رضا: شايَعَ الأستاذُ الإمامُ (الشيخ محمّد عبده) المفسّرين على أنّ رفع الطور كان آية كونيّة، أي انتزع من الأرض وصار معلّقاً فوقهم في الهواء. وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السّياق، وإن لم تكن ألفاظها نصّاً فيه.

وقال في وجه عدم نصّيّة الآية في ذلك: إنّ أصل النتق ـ في اللّغة ـ الزعزعة والزلزلة، وأمّا الظُلّة فكلّ ما أظلّك وأطلّ عليك سواء أكان فوق رأسك أم في جانبك مرتفعاً له ظلّ. فيحتمل أنّهم كانوا بجانب الطور رأوه منتوقاً أي مرتفعاً مزعزعاً، فظنّوا أن سيقع بهم وينقضّ عليهم. ويجوز أنّ ذلك كان في أثر زلزال تزعزع له الجبل. قال: وإذا صحّ هذا التأويل لايكون منكرُ ارتفاع الجبل في الهواء مكذّباً للقرآن![٢].

قال الأستاذ النجّار: قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال، رأوه بأعينهم وهم في أسفل الجبل كأنّه ظلّة، وخافوا وقوعه بهم. وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة[٣].

---

(١) ستأتي الرواية عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ قال: انتزعه الله من أصله ثمّ جعله فوق رؤوسهم ثـمّ قـال: «لتأخذنّ أمري أو لأرمينّكم به...».

(٢) المنار ١: ٢٤٢ـ ٢٤٣.

(٣) قصص الأنبياء للأستاذ عبدالوهّاب النجّار: ٢٣١.

قلت: ما أجمل رأيهما بعد احتمال لفظ القرآن ما يترفّع به عن شبهة الإكراه على الدين. ولاسيّما والروايات بهذا الشأن ضعاف بأجمعها، فضلاً عن مخالفتها لأصول الحكمة في التكليف ـ على ما نبّهنا ـ وكما قال السيّد رشيد رضا: إنّ هذا المعنى ـ على ما جاء في الروايات ـ اعترض عليه بأنّه إكراه على الإيمان وإلجاء إليه وذلك ينافي التكليف.

ومن الغريب ما ذكره بعضهم: أنّ نفي الإكراه في الدين خاصّ بالإسلام، وربّما كان مثل هذا الإلجاء جائزاً في الأمم السابقة[1].

وأغرب منه نقد جماعة من علماء الأزهر لهذا التأويل، بحجّة أنّه خلاف التعبير بالفوقيّة الظاهرة في المسامتة، لا الارتفاع على جانب.

قالوا: وحيث ظهر فساد هذا التأويل، وأنّ القرآن الكريم نصّ في إفادة الرفع المخصوص ـ كما قرّره جميع المفسّرين ـ كان القول بعدمه تكذيباً للقرآن[2].

ولسيّدنا العلّامة الطباطبائي هنا كلام قد يبدو منه عجيباً، قال: هذا التأويل وصرف الآية عن ظاهرها، والقول بأنّ بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزُلزل وزُعزع حتّى أطلّ رأسُه عليهم فظنّوا أنّه واقع بهم، فعُبّر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبنيّ على أصل إنكار المعجزات وخوارق العادات!![3]

وقد ردّ عليهم الأستاذ النجّار بأنّ الفوقيّة تحصل مع عدم المسامتة أيضاً، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[4] أي جاؤوكم من أعلا الوادي ومن أسفله والإضافة هنا كانت لأدنى ملابسة[5].

وبعد فالنَّتْق عبارة عن النَّفْض، يقال: نَتَق الجرابَ أي نَفَضه بمعنى حرّكه. ونَتَق الشيءَ: زعزعه. رفعه. بسطه. قال الراغب: نَتَق الشيءَ: جذبه ونزعه حتّى يسترخي كنتق عُرَى الحِمْل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾.

---

(١) راجع: المصدر: ٢٢٩.

(٢) المصدر: ٢٣٢.

(٣) الميزان ١: ٢٠٠.

(٤) الأحزاب ٣٣: ١٠. وشواهد أُخر ذكرها الأستاذ فراجع.

(٥) قصص الأنبياء: ٢٣٣.

وعليه فليس نتق الجبل سوى زعزعته ليقتلع جزء من أعلاه فيتدلّى وينحدر نحو السفل، لولا أن أوقفه الله أثناء الانحدار ليقوم جانبيّاً فوق رؤوس القوم حتّى ظنّوا أنّه واقع بهم.

هذا هو ظاهر الآية الكريمة، ولا مشاحّة فيه حقيقةً لولا ذهاب الجمهور و وفرة الروايات بخلافه، الأمر الذي أوقف هؤلاء الأعلام (أعضاء اللجنّة الأفاضل والعلّامة الطباطبائي) عن الانصياع له.

فالعمدة هي الروايات المسوقة بهذا الشأن فلننظر فيها:

قال أبو جعفر في تفسير الآية: الميثاق: المفعال من الوثيقة إمّا بيمين وإمّا بعهد أو غير ذلك من الوثائق.

ويعني بقوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ الميثاق الذي أخبر جلّ ثناؤه أنّه أخذ منهم في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَ'لِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[1] إلى آخر الآيات وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد ما:

[٢٢٨٤/٢] أخبر ابن وهب عن ابن زيد أنّه قال: لمّا رجع موسى من عند ربّه بالألواح قال لقومه بني إسرائيل: إنّ هذه الألواح فيها كتابُ الله، وأمرُه الذي أمركم به، ونهيُه الذي نهاكم عنه؛ فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتّى نرى الله جهرةً، حتّى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه! فما له لا يكلّمنا كما كلّمك أنت يا موسى، فيقول: هذا كتابي فخذوه؟ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة فصعقتهم، فماتوا أجمعين. قال: ثمّ أحياهم الله بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله! فقالوا: لا، قال: أيّ شيء أصابكم؟ قالوا: متنا ثمّ حيينا، قال: خذوا كتاب الله! قالوا: لا. فبعث ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم، هذا الطور، قال: خذوا الكتاب وإلّا طرحناه عليكم! قال: فأخذوه بالميثاق. وقرأ قول الله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ حتّى بلغ: ﴿وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] قال: ولو كانوا أخذوه أوّل مرّة لأخذوه بغير ميثاق.

---

(١) البقرة ٢: ٨٣.

(٢) البقرة ٢: ٨٣ـ ٨٥.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾:

وأمّا الطور فإنّه الجبل في كلام العرب، ومنه قول العجّاج:

دانـي جـناحيه مـن الطـور فـمرّ   تقضّيَ البازي إذا البـازي كسـر [١]

وقيل إنّه إسم جبل بعينه. وذكر أنّه الجبل الذي ناجى الله عليه موسى. وقيل: إنّه من الجبال ما أنبت دون ما لم يُنبت.

[٢٢٨٥/٢] روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجّداً ويقولوا حطّة وطؤطىء لهم الباب ليسجدوا، فلم يسجدوا ودخلوا على أدبارهم، وقالوا حنطة. فنتق فوقهم الجبل، يقول: أخرج أصل الجبل من الأرض فرفعه فـوقهم كـالظلّة (والطـور بـالسُّريانية: الجبل) تخويفاً فدخلوا سُجّداً على خوف وأعينهم إلى الجبل، وهو الجبل الذي تجلّى له ربّه.

[٢٢٨٦/٢] وقال: رفع الجبل فوقهم كالسحابة، فقيل لهم: لتؤمننّ أو ليقعنّ عليكم، فآمنوا.

[٢٢٨٧/٢] وعن قتادة قال: الطور: الجبل، كانوا بأصله فرفع عليهم فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذُنّ أمري أو لأرمينّكم به.

[٢٢٨٨/٢] وبطريق آخر عنه قال: الطور: الجبل اقتلعه الله فرفعه فوقهم، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ فأقرّوا بذلك.

[٢٢٨٩/٢] وعن أبي العالية، قال: رفع فوقهم الجبل يخوّفهم به.

[٢٢٩٠/٢] وعن عكرمة، قال: الطور: الجبل.

[٢٢٩١/٢] وعن السدّي قال: لمّا قال الله لهم: ﴿وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فأبـوا أن يسجدوا، أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجّداً على شقّ، ونـظروا بالشقّ الآخر. فرحمهم الله، فكشفه عنهم.

[٢٢٩٢/٢] وعن ابن جريج، عن ابن عبّاس قال: الطور: الجبل الذي أُنزلت عليه التوراة، يعني

---

(١) داني جناحيه: أي ضمّهما وقرّبهما وضيّق ما بينهما تأهّباً للانقضاض من ذروة الجبل. ومرّ: أسرع إسراعاً شديداً. وتقضّي: أصلها «تقضض» فقلب الضاد الأخيرة ياء. وتقضض الطائر: هوى في طيرانه يريد الوقوع. وكسر الطائر جناحيه: ضمّ منهما قليلاً وهو يريد السقوط.

على موسى، وكانت بنو إسرائيل أسفل منه.

[٢٢٩٣/٢] وقال ابن جريج: وقال لي عطاء: رفع الجبل على بني إسرائيل فقال: لتؤمننّ به أو ليقعنّ عليكم، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُـلَّةٌ﴾.

[٢٢٩٤/٢] وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس قال: الطور من الجبال: ما أنبت، وما لم ينبت فليس بطور.

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾:

اختلف أهل العربيّة في تأويل ذلك، فقال بعض نحويّي أهل البصرة: هو ممّا استغني بدلالة الظاهر المذكور عمّا ترك ذكره له، وذلك أنّ معنى الكلام: ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بقوّة، وإلّا قذفناه عليكم.

وقال بعض نحويّي أهل الكوفة[1]: أخذ الميثاق قول، فلا حاجة بالكلام إلى إضمار قول فيه، فيكون من كلامين، غير أنّه ينبغي لكلّ ما خالف القول من الكلام الذي هو بمعنى القول أن يكون معه «أن» كما قال الله جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّـآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾[2] قال: ويجوز أن تحذف «أن».

والصواب في ذلك عندنا أنّ كلّ كلام نطق به مفهوم به معنى ما أُريد ففيه الكفاية من غيره، ويعني بقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم﴾: ما أمرناكم به في التوراة، وأصل الإيتاء: الإعطاء. ويعني بقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ في تأدية ما أمركم فيه وافترض عليكم. كما:

[٢٢٩٥/٢] روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ قال: تعملوا بما فيه.

[٢٢٩٦/٢] وعن أبي العالية قال: بطاعة.

[٢٢٩٧/٢] وعن قتادة قال: القوّة: الجدّ، وإلّا قذفته عليكم. قال: فأقرّوا بذلك أنّهم يأخذون ما أُوتوا بقوّة.

---

(١) هو الفرّاء. راجع: التبيان ١: ٢٨٧ ومجمع البيان ١: ٢٤٥.

(٢) نوح ٧١: ١.

[٢٢٩٨/٢] وعن السدّي في قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قال: يعني بجدّ واجتهاد.

[٢٢٩٩/٢] وعن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قول الله: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ قال: خذوا الكتاب الذي جاء به موسى بصدق وبحقّ.

فتأويل الآية إذن: خذوا ما افترضناه عليكم في كتابنا من الفرائض فاقبلوه واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان. وذلك هو معنى أخذهم إيّاه بقوّة بجدّ.

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

يعني: واذكروا ما فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد وترغيب وترهيب، فاتلوه واعتبروا به وتدبَّروه إذا فعلتم ذلك كي تتّقوا وتخافوا عقابي بإصراركم على ضلالكم فتنتهوا إلى طاعتي وتنزعوا عمّا أنتم عليه من معصيتي. كما:

[٢٣٠٠/٢] عن عكرمة عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تنزعون عمّا أنتم عليه.

والذي آتاهم الله هو التوراة: كما:

[٢٣٠١/٢] عن أبي العالية في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اذكروا ما في التوراة.

[٢٣٠٢/٢] وعن ابن وهب، قال: سألت ابن زيد عن قول الله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال: اعملوا بما فيه طاعة لله وصدق، قال: وقال اذكروا ما فيه لا تنسوه ولا تغفلوه.

* * *

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾:

يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ ثمّ أعرضتم. وإنّما هو «تفعّلتم» من قولهم: ولّاني فلان دبره: إذا استدبر عنه وخلّفه خلف ظهره، ثمّ يستعمل ذلك في كلّ تارك طاعة أمر بها ـ عزّ وجلّ ـ معرض بوجهه، يقال: قد تولّى فلان عن طاعة فلان، وتولّى عن مواصلته. ومنه قول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَلَمَّآ آتاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] يعني بذلك: خالفوا ما كانوا وعدوا الله من قولهم: ﴿لَئِنْ آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] ونبذوا ذلك وراء ظهورهم، ومن شأن العرب

(١) التوبة ٩: ٧٦. (٢) التوبة ٩: ٧٥.

استعارة الكلمة ووضعها مكان نظيرها، كما قال أبو ذؤيب الهذلي[(١)]:

فليس كعهد الدار يا أمّ مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل[(٢)]

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

يعني بقوله: «أحاطت بالرقاب السلاسل»: أنّ الإسلام صار في منعه إيّانا ما كنّا نأتيه في الجاهليّة ممّا حرّمه الله علينا في الإسلام بمنزلة السلاسل المحيطة برقابنا التي تحول بين من كانت في رقبته مع الغلّ الذي في يده وبين ما حاول أن يتناوله. ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى، فكذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني بذلك أنّكم تركتم العمل بما أخذنا ميثاقكم وعهودكم على العمل به بجدّ واجتهاد بعد إعطائكم ربّكم المواثيق على العمل به والقيام بما أمركم به في كتابكم فنبذتموه وراء ظهوركم. وكنى بقوله جلّ ذكره: «ذلك» عن جميع ما قبله في الآية المتقدمة، أعني قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ﴾:

يعني بقوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فولا أنّ الله تفضّل عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه، إذ رفع فوقكم الطور، بأنّكم تجتهدون في طاعته، وأداء فرائضه، والقيام بما أمركم به، والانتهاء عمّا نهاكم عنه في الكتاب الذي آتاكم، فأنعم عليكم بالإسلام ورحمته التي رحمكم بها، وتجاوز عنكم خطيئتكم التي ركبتموها بمراجعتكم طاعة ربّكم، لكنتم من الخاسرين. وهذا وإن كان خطاباً لمن كان بين ظهرانيّ مهاجر رسول الله ﷺ من أهل الكتاب أيّام رسول الله ﷺ، فإنّما هو خبر عن أسلافهم، فأخرج الخبر مخرج المخبر عنهم على نحو ما قد بيّنّا فيما مضى من أنّ القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره بما مضى من فعل أسلاف المخاطب بأسلاف المخاطب، فتضيف فعل أسلاف المخاطب إلى نفسها، فتقول: فعلنا بكم، وفعلنا بكم.

وقد زعم بعضهم أنّ الخطاب في هذه الآيات إنّما أُخرج بإضافة الفعل إلى المخاطبين به

---

(١) كذا في الأصل. والصواب أنّ البيتين لأبي خراش الهذلي كما في ديوان الهذليين والأغاني والسيرة لابن هشام وغيرها من الكتب.

(٢) يعني بالدار: مكّة وما يجاورها.

والفعل لغيرهم؛ لأنّ المخاطبين بذلك كانوا يتولّون من كان فعل ذلك من أوائل بني إسرائيل، فصيّرهم الله منهم من أجل ولايتهم لهم.

وقال بعضهم: إنّما قيل ذلك كذلك، لأنّ سامعيه كانوا عالمين، وإن كان الخطاب خرج خطاباً للأحياء من بني إسرائيل وأهل الكتاب؛ إذ المعنى في ذلك إنّما هو خبر عمّا قصّ الله من أنباء أسلافهم، فاستغنى بعلم السامعين بذلك عن ذكر أسلافهم بأعيانهم. ومثّل ذلك بقول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تُقِرّي به بدّا

فقال: «إذا ما انتسبنا»، و«إذا» تقتضي من الفعل مستقبلاً. ثمّ قال: «لم تلدني لئيمة» فأخبر عن ماض من الفعل، وذلك أنّ الولادة قد مضت وتقدّمت. وإنّما فعل ذلك عند المحتجّ به لأنّ السامع قد فهم معناه، فجعل ما ذكرنا من خطاب الله أهل الكتاب الّذين كانوا بين ظهرانيّ مهاجر رسول الله ﷺ أيّام رسول الله ﷺ بإضافة أفعال أسلافهم إليهم نظير ذلك.

والأوّل الذي قلنا هو المستفيض من كلام العرب وخطابها. وكان أبو العالية يقول في قوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فيما ذكر لنا نحو القول الذي قلناه، كما:

[٢٣٠٣/٢] روى الربيع، عن أبي العالية، قال: فَضْلُ الله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

وقال في تأويل: ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

يعني بقوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: إيّاكم بانقاذه إيّاكم بالتوبة عليكم من خطيئتكم وجرمكم، لكنتم الباخسين أنفسكم حظوظها دائماً، الهالكين بما اجترمتم من نقض ميثاقكم وخلافكم أمره وطاعته[١].

* * *

وقال أبو إسحاق الثعلبي: الطور: الجبل بالسُّريانية في قول بعضهم. وقالوا: ليس من لغة في الدنيا إلّا وهي في القرآن.

وقال أبو عبيدة والحذّاق من العلماء: لايجوز أن تكون في القرآن لغة غير لغة العرب؛ لأنّ الله

---

(١) الطبري ١: ٤٦٢ ـ ٤٦٨ بتلخيص.

تعالى قال: ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾[1] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] وإنّما هذا وأشباهه وفاق بين اللّغتين.

وقد وجدنا الطّور في كلام العرب، وقال جرير:

فإن ير سليمان الجنّ يستأنسوا بها وإن يـر سليمان أحب الطّور ينزل

وقال المفسّرون: وذلك أنّ الله تعالى أنزل التوراة على موسى وأمر قومه بالعمل بأحكامه فأبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للأضرار والأثقال الّتي فيها، وكانت شريعته ثقيلة فأمر الله تعالى جبرئيل ﷺ يضع جبلاً على قدر عسكره وكان فرسخاً في فرسخ ورفعه فوق رؤوسهم مقدار قامة الرّجل.

[٢٣٠٤/٢] روى أبو صالح عن ابن عبّاس قال: أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتّى قام على رؤوسهم مثل الظُلّة.

[٢٣٠٥/٢] وروى عطاء عن ابن عبّاس قال: رفع الله فوق رؤوسهم الطّور وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ أي أعطيناكم.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ ومواظبة. وفيه إضمار، أي: وقلنا لهم: خذوا.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه واعلموه واعملوا به أي اتّعظوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدّنيا والعذاب في العقبى فإن قبلتموه وفعلتم ما أُمرتم به وإلّا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم في البحر وأحرقتكم بهذه النّار، فلمّا رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا لك وسجدوا خوفاً وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فصارت سنّة في اليهود لا يسجدون إلّا على أنصاف وجوههم فلمّا زال الجبل قالوا: يا موسى سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم وعصيتم.

﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب عنكم.

﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لصرتم من المغلوبين بالعقوبة وذهاب الدّنيا والآخرة[3].

---

(١) يوسف ١٢: ٢؛ طه ٢٠: ١١٣. (٢) الشعراء ٢٦: ١٩٥.

(٣) الثعلبي ١: ٢١١ ـ ٢١٢.

[٢٣٠٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿ميثاقكم﴾ يقول: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره(١).

[٢٣٠٧/٢] وأخرج عن الضحّاك قال: النبط يسمّون الجبل الطور(٢).

[٢٣٠٨/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عبّاس، قال: إنّما سمّي الجبل الذي كان عليه موسى عليه السلام طور سيناء لأنّه جبل كان عليه شجر الزيتون، وكلّ جبل يكون عليه ما يُنتفع به من النبات والأشجار سُمّي طور سيناء وطور سينين وما لم يكن عليه ما يُنتفع به من النبات أو الأشجار من الجبال سمّي جبل و طور، ولا يقال له: طور سيناء وطور سينين(٣).

[٢٣٠٩/٢] وروى عليّ بن إبراهيم مرسلاً عن الصادق عليه السلام قال: لمّا أُنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه فرفع الله عليهم جبل طور سيناء، فقال لهم موسى عليه السلام: إن لم تقبلوه وقع عليكم الجبل، فقبلوه وطأطأوا رؤوسهم(٤).

[٢٣١٠/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: فإنّ موسى عليه السلام لمّا رجع إلى بني إسرائيل ومعه التوراة لم يقبلوا منه فرفع الله جبل طور سينا عليهم وقال لهم موسى: لئن لم تقبلوا ليقعنّ الجبل عليكم وليقتلنّكم فنكسوا رؤوسهم فقالوا: نقبله(٥).

[٢٣١١/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ قال: جبل نزلوا بأصله فرُفِعَ فوقهم، فقال: لتأخذنّ أمري أو لأرمينّكم به(٦).

[٢٣١٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فلمّا قرأوا التوراة وفيها الحدود والأحكام كرهوا أن يقرّوا بما فيها رفع الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم الجبل ليرضخ به رؤوسهم، وذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ يعني الجبل فلمّا رأوا ذلك أقرّوا بما فيها. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٢٩ / ٦٤٩. (٢) الدرّ ١: ١٨٤.

(٣) المعاني: ٤٩ / ١؛ العلل ١: ٦٧ ـ ٦٨ / ١، باب ٥٧؛ البحار ١٣: ٦٤ ـ ٦٥ / ٣.

(٤) القمّي ١: ٢٤٦، سورة الأعراف ٧: ١٧١؛ البحار ١٣: ٢٤٤ / ٥١.

(٥) القمّي ١: ٤٨ ـ ٤٩؛ البحار ١٣: ٢٠٨ / ١.

(٦) الدرّ ١: ١٨٤؛ الطبري ١: ٤٦٣ / ٩٣٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٣ / ٦٣، بلفظ: الطور: الجبل، اقتلعه الله فرفعه فوقهم.

أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[(١)] [(٢)].

* * *

[٢٣١٣/٢] وقال في قوله: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ يقول: ما أعطيناكم من التوراة، بالجدّ والمواظبة عليه[(٣)].

[٢٣١٤/٢] وروى الصدوق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «في قوله تعالى: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ سئل: قوّة الأبدان أم قوّة القلوب؟ فقال: جميعاً. ثمّ قال عليه السلام: لا قول إلّا بعمل، ولا عمل إلّا بنيّة، ولا نيّة إلّا بإصابة السنّة»[(٤)].

[٢٣١٥/٢] وهكذا روى العيّاشي بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام سئل: «أبقوّة في الأبدان أم بقوّة في القلوب؟ فقال: فيهما جميعاً»[(٥)].

[٢٣١٦/٢] وروى بالإسناد إلى عبيدالله الحلبي، قال: قال (الصادق عليه السلام) «في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واذكروا ما في تركه من العقوبة»[(٦)].

[٢٣١٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾: يقول احفظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من أمره ونهيه ولا تضيّعوه[(٧)].

[٢٣١٨/٢] وقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: لكي تتّقوا المعاصي[(٨)].

[٢٣١٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: لعلّكم تنزعون عمّا أنتم عليه[(٩)].

---

(١) الأعراف ٧: ١٧١. (٢) تفسير مقاتل ١: ١١٢.

(٣) المصدر.

(٤) فقه الرضا عليه السلام: ٣٧٨، باب ١٠٥، (النيّات)؛ البحار ٦٧: ٢٠٩ / ٣١؛ مستدرك الوسائل ١: ٩٣ / ٦٧ ـ ٨.

(٥) العيّاشي ١: ٦٤ / ٥٢ و ٢: ٤٠ / ١٠١.

(٦) العيّاشي ١: ٦٤ / ٥٣؛ البحار ١٣: ٢٢٦ / ٢٥. البرهان ١: ٢٣٣ / ٤.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١١٢. (٨) المصدر.

(٩) الدرّ ١: ١٨٤؛ الطبري ١: ٤٦٥ / ٩٤٥.

قال تعالى:

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

تلك كارثة أخرى واجهت حياة بني إسرائيل تنبؤك عن النكْث والنكسة، والتحلّل من العهد الذي تعاهدوا عليه، وضعف مقدرتهم الإيمانيّة عن احتمال التكليف ورعاية الحدود المضروبة عليهم. ضعفاً أمام هوى عاجل وترجيحاً للنفع القريب.

وقد فصّل القرآن حكاية اعتدائهم في السبت في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[1].

كانوا قد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة وقداسة، يستريحون فيه عن متاعب الحياة الدنيا ومكاسبها المضنية، ويُقبلون فيه إلى عبادة ربّهم لايُشغلهم عنها شيء.

فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدّسة لايعملون فيه للمعاش لكنّهم اعتدوا وتجاوزوا الحدّ المضروب لهم.

قال ابن عاشور: والاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إيّاهم من عهد موسى عليه السلام بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه، ليتفرّغوا للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا.

قال: فكانت طائفة من سكّان أيلة[2] على البحر رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطىء، لأنّها إذا لم تر سفن الصيّادين وشباكهم أمنت فتقدّمت إلى الشاطىء تفتح أفواهها في الماء لابتلاع مايكون على الشواطىء من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها فقالوا: لو حفرنا لها حياضاً

---

(١) الأعراف ٧: ١٦٣.

(٢) أيلة، بفتح الهمزة وبتاء تأنيث في آخره، بلدة على خليج صغير من البحر الأحمر في أطراف مشارف الشام وتعرف اليوم بالعقبة. وهي غير إيلياء، بكسر الهمزة وبياءين ممدوتين، هو اسم بيت المقدس.

وشرَّعنا إليها جداول يوم السبت، فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك فغضب الله عليهم لهذا الحرص [الخليع] على الرزق. أو لأنّهم يشغلون بالهمّ يوم السبت بالفكر فيما تحصّل لهم أو لأنّهم تحيّلوا على اعتياض العمل في السبت.

وهذا هو الذي أحسبه؛ لما اقترن به من الاستخفاف واعتقادهم أنّهم عملوا ما لم تهتد إليه شريعتهم، فعاقبهم الله بما ذكره هنا.

قال: ولعلّ تحريم الصيد في يوم السبت ليكون أمناً للدوابّ.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، كونوا أمر تكوين، وتكوينهم قردة يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنساني وهذا قول الجمهور.

ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة، مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد.

قال: والثاني أقرب للتاريخ، إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيّين، ولذلك قال الفخر الرازي: ليس قول مجاهد ببعيد جدّاً[1] لكنّه خلاف الظاهر، وليست الآية صريحة في المسخ.

ومعنى كونهم قردة أنّهم لمّا لم يتلقّوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ، فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات، فلم يتميّزوا عن البهائم إلّا بالشكل، وهذه القردة تشاركهم في هذا الشَّبه. وهذا معنى قول مجاهد: هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات[2].

وقال سيّد قطب: «وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سماتٍ تؤثّر في السَّحنة وتلقي ظِلَّها العميق»[3].

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الحادثة الكارثة مضت عبرة رادعة في وقتها وبعد حين، وبقيت موعظة نافعة لأهل التقوى واليقين، تتمثّل لهم العبر فيما يأتي من عصور.

* * *

وبعد فإليك ما ورد من الروايات بهذا الشأن.

---

(١) التفسير الكبير ٣: ١١١.

(٢) راجع: التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥٢٦ـ٥٢٧.

(٣) في ظلال القرآن ١: ٩٩ـ ١٠٠.

قال أبوجعفر: هذه الآية وآيات بعدها ممّا عدّد ـ جلّ ثناؤه ـ فيها على بني إسرائيل الّذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمان النبي ﷺ الّذين ابتدأ بذكرهم في أوّل هذه السورة، من نكث أسلافهم عهد الله وميثاقه ما كانوا يُبرمون من العقود، وحذّر المخاطبين بها أن يحلّ بهم ـ بإصرارهم على كفرهم ومقامهم على جحود نبوّة محمّد ﷺ وتركهم اتّباعه والتصديق بما جاءهم به من عند ربّه ـ مثلُ الذي حلّ بأوائلهم من المسخ والرَّجْف والصَّعْق، وما لاقِبَل لهم به من غضب الله وسخطه.

[٢٣٢٠/٢] فعن أبي روق، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ يقول: ولقد عرفتم، وهذا تحذير لهم من المعصية، يقول: احذروا أن يصيبكم ما أصاب أصحاب السبت إذ عصوني، ﴿اعْتَدَوْا﴾ يقول اجترأوا في السبت. قال: لم يبعث الله نبيّاً إلّا أمره بالجمعة وأخبره بفضلها وعظّمها في السماوات وعند الملائكة، وأنّ الساعة تقوم فيها، فمن اتّبع الأنبياء فيما مضى كما اتّبعت أمّة محمّد ﷺ محمّداً قَبِلَ الجمعة وسمع وأطاع وعرف فضلها وثبت عليها بما أمره الله تعالى به ونبيّه ﷺ، ومن لم يفعل ذلك كان بمنزلة الّذين ذكر الله في كتابه، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. وذلك أنّ اليهود قالت لموسى حين أمرهم بالجمعة وأخبرهم بفضلها: يا موسى كيف تأمرنا بالجمعة وتفضّلها على الأيّام كلّها، والسبت أفضل الأيّام كلّها لأنّ الله خلق السماوات والأرض والأقوات في ستّة أيّام وسَبَت[1] له كلّ شيء مطيعاً يوم السبت، وكان آخر الستّة؟ قال: وكذلك قالت النصارى لعيسى بن مريم حين أمرهم بالجمعة، قالوا له: كيف تأمرنا بالجمعة، وأوّل الأيّام[2] أفضلها وسيّدها، والأوّل أفضل، والله واحد، والواحد الأوّل أفضل؟ فأوحى الله إلى عيسى أن دعهم والأحد، ولكن ليفعلوا فيه كذا وكذا ممّا أمرهم به. فلم يفعلوا، فقصّ الله تعالى قصصهم في الكتاب بمعصيتهم. قال: وكذلك قال الله لموسى حين قالت له اليهود ما قالوا في أمر السبت: أن دعهم والسبت فلا يصيدوا فيه سمكاً ولا غيره، ولا يعملون شيئاً كما قالوا. قال: فكان إذا كان السبت ظهرت الحيتان على الماء فهو قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾[3] يقول: ظاهرة على الماء، ذلك لمعصيتهم موسى. وإذا كان غير

---

(١) سبت: سكن.
(٢) يريدون الأحد.
(٣) الأعراف ٧: ١٦٣. وحيتان شُرَّع أي شارعات من غمرة الماء إلى الجُدّ. لسان العرب ٨: ١٧٨.

يوم السبت صارت صيداً كسائر الأيّام، فهو قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[١]. ففعلت الحيتان ذلك ما شاء الله؛ فلمّا رأوها كذلك طمعوا في أخذها وخافوا العقوبة، فتناول بعضهم منها فلم تمتنع عليه، وحذر العقوبة التي حذّرهم موسى من الله تعالى. فلمّا رأوا أنّ العقوبة لا تحلّ بهم عادوا وأخبر بعضهم بعضاً بأنّهم قد أخذوا السمك ولم يصبهم شيء، فكثروا في ذلك وظنّوا أنّ ما قال لهم موسى كان باطلاً، وهو قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقول لهؤلاء الّذين صادوا السمك، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذاً لم يحيوا في الأرض إلّا ثلاثة أيّام، ولم تأكل، ولم تشرب، ولم تنسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستّة الأيّام التي ذكر الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن شاء كما يشاء، ويحوّله كما يشاء.

[٢٣٢١/٢] وروى ابن حميد بالإسناد إلى ابن عبّاس، قال: إنّ الله إنّما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت فعظّموه وتركوا ما أُمروا به، فلمّا أبوا إلّا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرّم عليهم ما أحلّ لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها «مَدْيَن»، فحرّم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرَّعاً إلى ساحل بحرهم، حتّى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتّى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شرّعاً، حتّى إذا ذهب السبت ذهبن. فكانوا كذلك، حتّى إذا طال عليهم الأمد وقَرِموا[٢] إلى الحيتان، عمد رجل منه فأخذ حوتاً سرّاً يوم السبت فخزمه بخيط[٣]، ثمّ أرسله في الماء، وأوتد له وَتَداً في الساحل، فأوثقه ثمّ تركه. حتّى إذا كان الغد جاء فأخذه؛ أي إنّي لم آخذه في يوم السبت! ثمّ انطلق به فأكله. حتّى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك. ووجد الناس ريح الحيتان. فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان. ثمّ عثروا على ما صنع ذلك الرجل[٤]. قال: ففعلوا كما فعل، وأكلوا سرّاً زماناً طويلاً لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتّى

---

(١) الأعراف ٧: ١٦٣.

(٢) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم.

(٣) خزمه: شكّه وثقبه.

(٤) عثروا عليه: أطلعوا عليه.

صادوها علانية وباعوها بالأسواق، وقالت طائفة منهم من أهل البقية[١]: وَيْحَكُم اتّقوا الله! ونهوهم عمّا كانوا يصنعون. وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عمّا صنعوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

قال ابن عبّاس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم، وفقدوا الناس فلا يرونهم، فقال بعضهم لبعض: إنّ للناس لشأناً فانظروا ماهو! فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوا ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما تغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، إنّهم ليعرفون الرجل بعينه وإنّه لقرد، والمرأة بعينها وإنّها لقردة، والصبي بعينه وإنّه لقرد.

قال ابن عبّاس: فلولا ما ذكر الله أنّه أنجى الّذين نهوا عن السوء لقلنا أهلك الجميع منهم. قالوا: وهي القرية التي قال الله لمحمّدﷺ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[٣] الآية.

[٢/٢٣٢٢] وعن قتادة في قوله: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: أُحلّت لهم الحيتان وحرّمت عليهم يوم السبت بلاءً من الله ليعلم من يطيعه ممّن يعصيه. فصار القوم ثلاثة أصناف: فأمّا صنف فأمسك ونهى عن المعصية، وأمّا صنف فأمسك عن حرمة الله، وأمّا صنف فانتهك حرمة الله ومرَد على المعصية،[٤] فلمّا أبوا إلّا الاعتداء إلى ما نهوا عنه، قال الله لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصاروا قردة لها أذنابٌ، تَعاوَى، بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

[٢/٢٣٢٣] وروى عبد الرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ قال: نُهوا عن صيد الحيتان يوم السبت، فكانت تشرّع إليهم يوم السبت، وبُلوا بذلك فاعتدوا فاصطادوها، فجعلهم الله قردة خاسئين.

[٢/٢٣٢٤] وروى أسباط، عن السدّي: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر. فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت ـ وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً ـ لم يبق في البحر حوت إلّا خرج حتّى

---

(١) أهل البقية: أهل التمييز والفهم.

(٢) الأعراف ٧: ١٦٤.

(٣) الأعراف ٧: ١٦٣.

(٤) مَرَد: طغا وجاوز حدّه.

يخرجن خراطيمهنّ من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم يُرَ منهنّ شيء حتّى يكون يوم السبت. فذلك قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾(١). فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتّى يُلقيها في الحفيرة، ويريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلّة ماء النهر، فيمكث، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه. فجعل الرجل يشوي السمك، فيجد جاره ريحه، فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره. حتّى إذا فشا فيهم أكل السمك قال لهم علماؤهم: ويحكم إنّما تصطادون السمك يوم السبت، وهو لا يحلّ لكم! فقالوا: إنّما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال الفقهاء: لا، ولكنّكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل؛ فقالوا: لا. وعتوا أن ينتهوا. فقال بعض الّذين نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾(٢) يقول: لم تعظونهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٣). فلمّا أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة! فقسّموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داوود. فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم؛ فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلمّا أبطأوا عليهم تسوّر المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض. فذلك قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(٤) فذلك حين يقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسرائيلَ عَلَىٰ لِسَانِ داوود وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(٥) فهم القردة.

* * *

[٢٣٢٥/٢] وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: لم يمسخوا إنّما هو مثل ضربه الله لهم مثل ما ضرب مثل الحمار يحمل

---

(١) الأعراف ٧: ١٦٣.
(٢) الأعراف ٧: ١٦٤.
(٣) الأعراف ٧: ١٦٤.
(٤) الأعراف ٧: ١٦٦.
(٥) المائدة ٥: ٧٨.

أسفاراً[١].

[٢٣٢٦/٢] وعنه أيضاً قال: مُسخت قلوبهم، ولم يمسَخوا قردة، وإنّما هو مَثَل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

قال أبوجعفر: وهذا الذي قاله مجاهد مخالف لظاهر مادلّ عليه كتاب الله، وذلك أنّ الله أخبر في كتابه أنّه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، كما أخبر عنهم أنّهم قالوا لنبيّهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[٢] وأنّ الله تعالى أصعقهم عند مسألتهم ذلك وأنّهم عبدوا العجل، فجعل توبتهم قتل أنفسهم، وأنّهم أُمروا بدخول الأرض المقدّسة، فقالوا لنبيّهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٣] فابتلاهم بالتيه. فسواء قال قائل: هم لم يمسخهم قردة، وقد أخبر ــ جلّ ذكره ــ أنّه جعل منهم قردة وخنازير، وآخر قال: لم يكن شيء ممّا أخبر الله عن بني إسرائيل أنّه كان منهم من الخلاف على أنبيائهم والعقوبات والأنكال التي أحلّها الله بهم. ومن أنكر شيئاً من ذلك وأقرّ بآخر منه، سُئل البرهان على قوله وعُورض فيما أنكر من ذلك بما أقرّ به، ثمّ يُسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح. هذا مع خلاف قول مجاهد قولَ جميع الحجّة التي لايجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه، وكفى دليلاً على فساد قولٍ إجماعُها على تخطئته.

وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئينَ﴾ أي صيروا كذلك. والخاسيء: المُبْعَد المطرود كما يُخسأ الكلب، يقال منه: خسأته أخسؤه خسأً وخُسوءاً، وهو يخسأ خُسوءاً، ويقال خسأته فخسأ وانخسأ، ومنه قول الراجز:

كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ[٤].

يعني إن طردته انطرد ذليلاً صاغراً. فكذلك معنى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئينَ﴾ أي مبعدين من الخير أذلّاء صغراء.

[٢٣٢٧/٢] روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئينَ﴾ قال: صاغرين.

[٢٣٢٨/٢] وروى عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة قال: صاغرين.

---

(١) تضمين للآية ٥: من سورة الجمعة.

(٢) النساء ٤: ١٥٣.

(٣) المائدة ٥: ٢٤.

(٤) روايته في اللسان (مادة خسأ): «إن قيل له».

[٢٣٢٩/٢] وعن الربيع قال: أي أذلّة صاغرين.

[٢٣٣٠/٢] وروى الضحّاك، عن ابن عبّاس: خاسئاً: يعني ذليلاً.

* * *

وقال أبو جعفر في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اختلف أهل التأويل في تأويل الهاء والألف في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عَلامَ هي عائدة؟ فروي عن ابن عبّاس فيها قولان: أحدهما ما:

[٢٣٣١/٢] رواه أبو روق عن الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ قال: فجعلنا تلك العقوبة وهي المسخة نكالاً. فالهاء والألف من قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ على قول ابن عبّاس هذا كناية عن المسخة، وهي «فَعلَة» من مَسَخَهم الله مَسخَة. فمعنى الكلام على هذا التأويل: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصاروا قردة ممسوخين ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إيّاهم ﴿نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والقول الآخر من قولي ابن عبّاس ما روي عنه:

[٢٣٣٢/٢] أنّه قال في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: يعني الحيتان. والهاء والألف على هذا القول من ذكر الحيتان، ولم يجر لها ذكر. ولكن لمّا كان في الخبر دلالة كُنّي عن ذكرها، والدلالة على ذلك قوله: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

وقال آخرون: فجعلنا القرية التي اعتدى أهلها في السبت. فالهاء والألف في قول هؤلاء كناية عن قرية القوم الّذين مُسخوا.

وقال آخرون: معنى ذلك: فجعلنا القردة الّذين مُسخوا نكالاً لما بين يديها وما خلفها، فجعلوا الهاء والألف كناية عن القردة.

وقال آخرون: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعني به: فجعلنا الأمّة التي اعتدت في السبت نكالاً.

قال: والنكال مصدر من قول القائل: نكّل فلان بفلان تنكيلاً ونكالاً، وأصل النكال: العقوبة، كما قال عديّ بن زيد العبادي:

لا يحطّ الضليل ما صنع الـ ... ـعبد ولا في نكاله تنكير

وبمثل الذي قلنا في ذلك رُوي الخبر عن ابن عبّاس:

[٢/٢٣٣٣] إنّه قال في قوله: ﴿نَكَالاً﴾ يقول: عقوبة.

[٢/٢٣٣٤] وعن الربيع في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾ قال: أي عقوبة[١].

* * *

[٢/٢٣٣٥] وقال أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾: وذلك أنّهم كانوا زمن داوودﷺ بأرض يقال لها: أَيلة، حرّم الله عليهم صيد السمّك يوم السبت، فكان إذا دخل يومُ السبت لم يبق حوت في البحر إلّا اجتمع هناك حتّى يخرجن خراطيمهنّ من الماء لأمنها، فإذا مضى السبت تفرّقن ولزمن البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشيّة الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج لبعد عمقها وقلّة الماء، فإذا كان يوم الأحد أخذوها.

وقيل: كانوا ينصبون الحبائل والشّصوص[٢] يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً فكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة، فقست قلوبهم وأصرّوا على الذّنب، وقالوا: ما نرى السّبت إلّا قد أُحلّ لنا، فلمّا فعلوا ذلك صار أهل القرية ـ وكانوا سبعين ألفاً ـ ثلاثة أصناف: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمة، وكان الّذين نَهَوا اثنا عشر ألفاً، فلمّا أبى المجرمون قبول نصحهم قال الناهون: والله لا نُساكِنكم في قرية واحدة، فقسّموا القرية بجدار وغبروا بذلك سنتين، فلعنهم داوود وغضب الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم لإصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا أبوابهم ولا خرج منهم أحد، فلمّا أبطأوا تسوّروا عليهم الحائط فإذا هم جميعاً قردة، فمكثوا ثلاثة أيّام ثمّ هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيّام ولم يتوالدوا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ أمر تحويل[٣].

---

(١) الطبري ١: ٤٦٩ ـ ٤٧٥، بحذف وتلخيص.

(٢) الشصوص جمع الشّصّ: حديدة عقفاء يُصاد بها السمك وتسمّى السنّارة.

(٣) كان الأمر بكونوا أمر تحويل وتبديل إلى صورة القرود.

﴿خاسِئينَ﴾ مطرودين صاغرين بلغة كنانة، قاله مجاهد وقتادة والربيع.

قال أبو روق: يعني خُرْساً لايتكلّمون، دليله قوله -عزّ وجلّ-: ﴿قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ﴾[1]. وقيل: مبعدون من كلّ خير.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي القردة، وقيل: القرية، وقيل: العقوبة.

﴿نَكَالاً﴾ عقوبة وعبرة وفضيحة شاهرة، وأصله من النكل وهو القيد، وجمعه أنكال، ويقال للّجام نِكْل[2].

[٢٣٣٦/٢] وفي قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا﴾ قال أبو العالية والرّبيع: معناه عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لما بعدهم.

[٢٣٣٧/٢] وقال قتادة: جعلنا تلك العقوبة جزاءً لما تقدّم من ذنوبهم قبل نهيهم عن الصّيد وما خلفها من العصيان بأخذ الحيتان بعد النّهي.

وقيل: لما بين يديها من عقوبة الآخرة وما خلفها من نصيحتهم في دنياهم فيذكّرون بها إلى يوم قيام السّاعة.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ وتقديرها: فجعلناها وما خلفها ممّا أعدّ لهم من العذاب في الآخرة نكالاً وجزاءاً لما بين يديها: أي لما تقدّم من ذنوبهم في اعتدائهم يوم السّبت.

﴿وَ مَوْعِظَةً﴾: عظة وعبرة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين من أُمّة محمّدﷺ فلا يفعلون مثل فعلهم[3].

* * *

[٢٣٣٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق عبدالرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ قال: نهوا عن صيد الحيتان في السبت فكانت تشرع إليهم يوم السبت فبُلُوا بذلك، فاعتدوا فاصطادوها؛ فجعلهم الله قردة خاسئين[4].

[٢٣٣٩/٢] وعن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: افترقوا ثلاث فرق: فرقة أكلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه، وفرقة نهت ولم تعتزل، فنودي الّذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصواب نودوا يا أهل القرية

---

(١) المؤمنون ٢٣: ١٠٨.

(٢) النِّكْل: حديدة اللجام وكلّ قيد شديد.

(٣) الثعلبي ١: ٢١٢-٢١٣.

(٤) عبدالرزّاق ١: ٢٣٧ / ٦٤.

فانتبهت طائفة، ثمّ نودوا يا أهل القرية فانتبهت طائفة أكثر من الأُولى. ثمّ نودوا يا أهل القرية فانتبهت الرجال والنساء والصبيان. فقال الله لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الّذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم أنهكم؟ فيقولون برؤوسهم. أي بلى.

[٢٣٤٠/٢] وعن أسباط عن السدّي قال: هم أهل إيلياء فكانت الحيتان إذا كانت يوم السبت ـ وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت ـ لم يبق حوت في البحر إلّا خرج حتّى يخرجن خراطيمهنّ من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مَقْل[1] البحر فلم يُرَ منهنّ شيء حتّى يكون يوم السبت. وروي عن قتادة نحو ذلك.

[٢٣٤١/٢] وأخرج في قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عبّاس قال: إذا كان الّذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً ثمّ هلكوا ما كان للمسخ نسلاً[2].

[٢٣٤٢/٢] وعن قتادة قال: فصار القوم قروداً تعاوى، لها أذناب، بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

[٢٣٤٣/٢] وعن مجاهد قال: مسخت قلوبُهم، ولم يمسخوا قردة وخنازير، وإنّما هو مثل ضربه الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً.

[٢٣٤٤/٢] وعن ابن عبّاس قال: فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعموا أنّ شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

[٢٣٤٥/٢] وعن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعني أذلّة صاغرين. وروي عن مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وأبي مالك نحو ذلك.

[٢٣٤٦/٢] وأخرج في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾. عن أبي العالية قال: أي عقوبة.

[٢٣٤٧/٢] وأخرج في قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ عن عكرمة عن ابن عبّاس: قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى.

[٢٣٤٨/٢] وعن أبي العالية قال: أي عقوبة لما خلا من ذنوبهم. وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك. وروي عن مجاهد والسدّي وقتادة في رواية معمر والحسن وعكرمة نحو ذلك.

---

(١) المقل: أسفل البئر.

(٢) الفُواق: النفثة ينفثها المحتضر عند الموت.

[٢٣٤٩/٢] وعن إسماعيل بن أبي خالد في قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال: ماكان قبلها من الماضين في شأن السبت. وروي عن قتادة وعطيّة نحو ذلك.

[٢٣٥٠/٢] وعن سعيد بن جبير قال من بين يديها: مَن بحضرتها يومئذ من الناس.

[٢٣٥١/٢] وأخرج في قوله: ﴿وَ مَا خَلْفَهَا﴾ عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: وما خلفها من القرى.

[٢٣٥٢/٢] وعن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ مَا خَلْفَهَا﴾ قال: أي عبرة لمن بقي بعدهم من الناس. وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك.

[٢٣٥٣/٢] وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَ مَا خَلْفَهَا﴾ قال: التي قد أُهلكوا بها. يعني خطاياهم. وروي عن قتادة نحو ذلك.

[٢٣٥٤/٢] وعن مطرف عن عطيّة في قوله: ﴿وَ مَا خَلْفَهَا﴾ لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، أن لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم.

[٢٣٥٥/٢] وأخرج في قوله: ﴿وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: الّذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

[٢٣٥٦/٢] وعن الربيع عن أبي العالية: قال: موعظة للمتّقين خاصّة.

[٢٣٥٧/٢] وعن عباد بن منصور عن الحسن قال: ﴿وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ بعدهم؛ فيتّقوا نقمة الله ويحذروها. وروي عن قتادة نحو قول الحسن.

[٢٣٥٨/٢] وعن مطرف عن عطيّة في قوله: ﴿وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: لأمة محمّد ﷺ لا يلحدوا في حرم الله.

[٢٣٥٩/٢] وعن أسباط عن السدّي، قال: فهم أمّة محمّد ﷺ[١].

* * *

[٢٣٦٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يعني اليهود ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ فصادوا فيه السمك وكان محرّماً عليهم صيد السمك يوم السبت فأمهلهم الله ـ سبحانه ـ

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٣٢ ـ ١٣٥، بتصرّف.

بعد صيد السمك سنين ثمّ مسخهم الله قردة فذلك قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بوحي ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ يعني صاغرين[١].

[٢/٢٣٦١] وأخرج ابن المنذر عن ابن عبّاس قال: القردة والخنازير من نسل الّذين مسخوا[٢].

[٢/٢٣٦٢] وأخرج ابن المنذر من وجه آخر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل[٣].

[٢/٢٣٦٣] وروى الصدوق بإسناده إلى عليّ بن عقبة عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ اليهود أُمروا بالإمساك يوم الجمعة، فتركوا يوم الجمعة وأمسكوا يوم السبت فحرّم عليهم الصيد يوم السبت»[٤].

[٢/٢٣٦٤] وفي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: «قال الله عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ لمّا اصطادوا السمك فيه ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ مبعدين عن كلّ خير ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي جعلنا تلك المسخة التي أخزيناهم ولعنّاهم بها ﴿نَكَالاً﴾ عقاباً وردعاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين يدي المسخة من ذنوبهم الموبقات التي استحقّوا بها العقوبات ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ للقوم الّذين شاهدوهم بعد مسخهم يرتدعون عن مثل أفعالهم لمّا شاهدوا ما حلّ بهم من عقابنا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتّعظون بها فيفارقون المحرمات ويعظون بها الناس ويحذّرونهم المرديات.

قال عليّ بن الحسين عليه السلام: كان هؤلاء قوم يسكنون على شاطىء البحر، نهاهم الله وأنبياؤه عن اصطياد السمك في يوم السبت، فتوصّلوا إلى حيلة ليحلّوا بها إلى أنفسهم ما حرّم الله. فخدّوا أخاديد وعملوا طرقاً تؤدّي إلى حياض يتهيّأ للحيتان الدخول فيها من تلك الطرق ولا يتهيّأ لها الخروج إذا همّت بالرجوع منها إلى اللُّجَج[٥]. فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على أمان الله لها، فدخلت الأخاديد وحصلت[٦] في الحياض والغدران فلمّا كانت عشية اليوم همّت بالرجوع منها إلى اللُّجَج

(١) تفسير مقاتل ١: ١١٣.
(٢) الدرّ ١: ١٨٥.
(٣) المصدر.
(٤) العلل ١: ٦٩ / ١، باب ٥٩؛ العيّاشي ٢: ٣٧ / ٩٤، سورة الأعراف؛ وليس فيه: «فحرم عليهم الصيد يوم السبت». البحار ١٤: ٥٠ / ١؛ كنزالدقائق ٢: ٣٧.
(٥) اللُّجَج جمع اللُّجّة وهي معظم الماء.
(٦) أي تجمّعت وثبتت.

لتأمن من صائدها، فرامت الرجوع فلم تقدر، وبقيت ليلها في مكـان يُـتهيّأ أخـذها بـلا اصـطياد لاسترسالها فيه وعجزها عن الامتناع لمنع المكان لها، فكانوا يأخذونها يوم الأحد ويـقولون مـا اصطدنا يوم السبت وإنّما اصطدنا في الأحد وكذب أعداء الله. بل كانوا آخذين لها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت حتّى كثر من ذلك مالُهم وثراؤهم وتنعّموا بالنساء وغـيرها لاتّسـاع أيـديهم. وكانوا في المدينة نيفاً وثمانين ألفاً. فعل هذا منهم سبعون ألفاً وأنكر عليهم الباقون، كما قصّ الله ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[1] الآية. وذلك أنّ طائفة منهم وعـظوهم وزجـروهم ومن عذاب الله خوّفوهم، ومن انتقامه وشديد بأسه حذّروهم فأجابوهم عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، بذنوبهم هلاك الاصطلام[2]، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ أجـابوا القـائلين لهـم هـذا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ إذ كلّفنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحن ننهى عن المنكر ليعلم ربّنا مخالفتنا لهم وكراهتنا لفعلهم، قالوا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3] ونعظهم أيضاً لعلّه تنجع فيهم المواعظ فيتّقوا هذه الموبقة، ويحذروا من عقوبتها.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾، حادوا وأعرضوا وتكبّروا عن قبولهم الزجر ﴿عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾[4] مبعدين عن الخير مقصّين، قال: فلمّا نظر لهم العشرة آلاف والنـيف أنّ السبعين ألفاً لايقبلون مواعظهم ولا يحفلون بتخويفهم إياهم وتحذيرهم لهم، اعتزلوهم إلى قـرية أُخرى قريبة من قريتهم وقالوا: نكره أن ينزل بهم عذاب الله، ونحن فـي خـلالهم، فأمسـوا ليـلة، فمسخهم الله تعالى كلّهم قردة وبقي باب المدينة مغلقاً لايخرج منه أحد ولا يدخل أحد، وتسامع بذلك أهل القرى، فقصدوهم وتسنّموا حيطان البلد، فأطلعوا عليهم فإذا كلّهم رجـالهم ونسـاؤهم قردة يموج بعضهم في بعض، يعرف هؤلاء الناظرون معارفهم وقراباتهم وخلطاءهم، يقول المطّلع لبعضهم: أنت فلان أنت فلانة؟ فتدمع عينه ويومىء برأسه أن نعم. فما زالوا كذلك ثلاثة أيام، ثمّ بعث الله ـعزّ وجلّ ـ عليهم مطراً وريحاً فجرفهم إلى البحر، وما بقي مسخ بعد ثلاثة أيّـام، وإنّـما الذي

---

(١) الأعراف ٧: ١٦٣.

(٢) اصطلمه: استأصله.

(٣) الأعراف ٧: ١٦٤.

(٤) الأعراف ٧: ١٦٦.

ترون من هذه المصوّرات بصورها فإنّما هي أشباهها لا هي بأعيانها ولا من نسلها...

قال الباقر عليه السلام: فلمّا حدّث عليّ بن الحسين عليه السلام بهذا الحديث قال له بعض من في مجلسه: يا ابن رسول الله كيف يعاقب الله ويوبّخ هؤلاء الأخلاف على قبائح أتى بها أسلافهم وهو يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]؟ فقال زين العابدين عليه السلام: إنّ القرآن نزل بلغة العرب، فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم، يقول الرجل التميمي، وقد أغار قومه على بلد وقتلوا من فيه: قد أغرتم على بلد كذا وكذا وفعلتم كذا وكذا، ويقول العربي أيضاً: نحن فعلنا ببني فلان ونحن سبينا آل فلان ونحن خرّبنا بلد كذا، لا يريد أنّهم باشروا ذلك ولكن يريد هؤلاء بالعذل وهؤلاء بالافتخار أنّ قومهم فعلوا كذا وكذا، وقول الله ـ عزّ وجلّ ـ في هذه الآيات إنّما هو توبيخ لأسلافهم وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين لأنّ ذلك هو اللغة التي بها نزل القرآن، ولأنّ هؤلاء الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم مصوّبون ذلك لهم، فجاز أن يقال: أنتم فعلتم إذ رضيتم قبيح فعلهم»[2].

[٢٣٦٥/٢] وروى العيّاشي عن عبدالصمد بن برار قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «كانت القردة، هم اليهود الّذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قروداً»[3].

كلام عن المسوخ

يقع الكلام هنا من جهتين:

الأُولى: هل هناك في القرآن ما دلّ صريحاً على وقوع المسخ في الأجساد لا في القلوب فحسب؟

الثانية: هل صحّ ما ورد من روايات بشأن وقوع المسخ في أُمم سالفة لينقلبوا إلى بهائم وعجماوات؟

أمّا القرآن فلا موضع فيه يدلّنا على ذلك صريحاً، وانّما هي تعابير أشبه بالاستعارة منها إلى

---

(١) الأنبياء ٢١: ١٦٤.

(٢) تفسير الإمام: ٢٦٨ ـ ٢٧٢ / ١٣٦ ـ ١٣٩؛ البرهان ١: ٢٣٣ ـ ٢٣٧ / ٩.

(٣) العيّاشي ١: ٦٤ / ٥٥؛ البرهان ١: ٢٣٣ / ٦؛ البحار ١٤: ٥٥ / ٨، باب ٤.

إرادة الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٣).

وهذا نظير قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(٤) أي كأنّه خلق من عجل لفرط عجله في الأمور. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾(٥) أي دأب على العجلة.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾(٦). قال الزمخشري: إنّ الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكّنهما منه ورسوخهما فيه، كأنّه مجبول عليهما مطبوع، وكأنّه أمر خُلُقي وضروري غير اختياري. كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

واستدلّ على أنّه من الاستعارة والتشبيه بأنّه ذمّ، والله لا يذمّ فعل نفسه لو كان هو خلقه كذلك. لكن الإنسان لفرط جهله وإفراطه في الأمور، صار متطبّعاً على ذلك، كأنّه مطبوع ومفطور عليه ذاتاً.

قال: والدليل عليه: استثناء المؤمنين ﴿إلّا المصلّين..﴾ الّذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وظلفوها عن الشهوات، حتّى لم يكونوا جازعين ولا مانعين(٧).

[٢٣٦٦/٢] وروي عن النبيّ ﷺ قال: «شرّ ما في رجلٍ شُحٌّ هالع وجُبن خالع»(٨).

[٢٣٦٧/٢] وقال: «لا يجتمع شحٌّ وإيمان في قلب رجل مسلم»(٩).

---

(١) البقرة ٢: ٦٥ـ٦٦.
(٢) الأعراف ٧: ١٦٦.
(٣) المائدة ٥: ٦٠.
(٤) الأنبياء ٢١: ٣٧.
(٥) الإسراء ١٧: ١١.
(٦) المعارج ٧٠: ١٩ـ٢١.
(٧) الكشّاف ٤: ٦١٢.
(٨) أبو داوود ١: ٥٦٤ / ٢٥١١، كتاب الجهاد، باب الجرأة والجبن. مسند أحمد ٢: ٣٠٢ و ٣٢٠.
(٩) مسند أحمد ٢: ٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١؛ النسائي ٣: ١٠ـ١١ / ٤٣٢٣.

قال الإمام الرازي ـ بشأن رأي مجاهد: إنّه تعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم، لا أنّه مسخ صورهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ـ: ما ذكره مجاهد غير مستبعد جدّاً، لأنّ الإنسان إذا أصرّ على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البيّنات، فقد يقال في العرف الظاهر: إنّه حمار وقرد. وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة، لم يكن في المصير إليه محذور البتّة[١].

وقال الإمام الشيخ محمّد عبده: «وحديث المسخ والتحويل وأنّ أولئك قد تحوّلوا من أناس إلى قردة وخنازير، إنّما قصد به التهويل والإغراب. فاختيار ما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة».

قال: وليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبيّ ﷺ نصّ فيه على كون ما ذكر مسخاً لصورهم وأجسادهم[٢].

وقال في موضع آخر: رووا عن مجاهد أنّه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وانّما هو مَثَل ضربه الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً.

قال: فالمراد على هذا أنّهم صاروا كالقردة في نزواتها، والخنازير في اتّباع شهواتها. وقد تقدّم ترجيح هذا القول من جهة المعنى. بعد نقله عن مجاهد من رواية ابن جرير. ولا عبرة بردّ ابن جرير له وترجيحه لقول المشهور، فذلك اجتهاد منه، وكثيراً يردّ به قول ابن عبّاس والجمهور.

قال: وليس قول مجاهد بالبعيد من استعمال اللغة، فمن الفصيح أن تقول: ربّى فلان الملك قومه أو جيشه على الشجاعة والغزو، فجعل منهم الأسود الضواري، وكان له منهم الذئاب المفترسة[٣].

وقد عرفت كلام ابن عاشور في ترجيح هذا القول وأنّه مسخ قلوب لامسخ ذوات[٤].

والعمدة أنّه لاصراحة في القرآن في كونه مسخاً للصور، بل اللفظ يحتمل الأمرين، ولا ضرورة تدعو على الحمل على ظاهر التعبير بعد احتماله المجاز الشائع في العرف واللغة كما عرفت.

---

(١) التفسير الكبير ٣: ١١١.
(٢) المنار ١: ٣٤٥.
(٣) المصدر ٦: ٤٤٨. وراجع: ٧: ٣٧٩.
(٤) التحرير والتنوير ١: ٥٢٧.

كما لا نصّ مستنداً إلى المعصوم، حسبما صرّح به الإمام عبده[١].

وقد تقدّم كلام سيّد قطب: وليس من الضروري أن يستحيلوا قِرَدَةً بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم. وانطباعات الشعور والتفكير تَعْكِسُ على الوجوه والملامح سماتٍ تؤثّر في السحنة وتلقي ظِلَّها العميق[٢]. وهذا هو الأوجه والأوفق مع الاعتبار، والأظهر حسب ملامح التعبير.

ماذا تهدينا ملامح التعبير؟

جاء التعبير في سورة المائدة هكذا:

﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾عطفٌ على ﴿جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾. أثراً مباشراً لوقوع اللعنة والغضب عليهم، بسوء تصرّفهم.

فهم إنّما انقلبوا من الصورة الإنسانية النبيلة إلى صورة بهائم شرسة، لكونهم خرجوا من ظلّ عنايته تعالى إلى مهوى غضبه وسخطه.

ولنفس السبب خرجوا من عزّ عبادة الله إلى ذلّ عبادة الطاغوت.

فكما أنّ هذا التحوّل الأخير لم يكن عن قسر وإلجاء. وإنّما هو عن سوء نيّة واجتراء. فكذلك التحوّل من الإنسانيّة إنّما حصل بسوء اختيارهم هم، فهم جعلوا أنفسهم قردة وخنازير. وهذا لايكون إلّا معنويّاً لاصوريّاً بتحوّل الأجساد.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٣]. أي هم لفرط جهلهم وتمادي غيّهم جعلوا لأنفسهم حجاباً حائلاً دون سماع العظة والتذكار. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا

---

(١) المنار ١: ٣٤٥. وهكذا لم يأت في تفاسيرنا شيء من ذلك مأثوراً عن العترة الطاهرة. سوى ما في تفسير الإمام وهو مجهول الانتساب. وتفسير القمّي، لم يُعرف واضعه لحدّ الآن. وفي روايةٍ للعيّاشي (١: ٦٤ / ٥٥) بإسناد مقطوع عن عبدالصمد بن برار ـ مجهول ـ عن الكاظم عليه السلام. تقدّم نقله ولايصلح مستنداً.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٩٩ ـ ١٠٠. (٣) البقرة ٢: ٧.

في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ في آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِن بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[١].

ولاريب أنّه لسان ذمّ، ولا ذمّ إلّا على فعل اختياري ارتكبه إنسان ساقط.

فهم جعلوا أنفسهم بمثابة القردة والخنازير في نزواتها وشهواتها، وعبدوا الطاغوت ذلًّا وصغاراً. والطاغوت طاغوت الهوى والانطلاق في مسارح الطيش والردى في مهانة واحتقار.

على أنّ هذا الخطاب جاء عتاباً للأبناء بما ارتكبه الآباء من فضائح، ليعتبروا بها. ولا اعتبار إلّا بما يعرفونه ويلمسونه من قبح أعمال السالفين.

وقد جاء العتاب أوّلاً بمكّة ـ في سورة الأعراف ـ ثمّ بالمدينة في البقرة والمائدة. فلابدّ أنّ الأبناء وجدوا ذلك في مآثر آبائهم. إمّا على صحائف التاريخ أو المأثور في الصدور يتوارثونه يداً بيد. وليس في الآثار العبريّة ما يشي بتحوّل الصور والأجساد. في حين أنّه أمر عظيم. أمّا التحوّل في القلوب والأرواح، فقد سجّل التاريخ منه الشيء الكثير.

فتلك تعنّتاتهم ولجاجهم دون الرضوخ للحقّ، وارتكابهم المخازي الفاضحة، كلّها مسجّلة على صفحات تاريخ حياة بني إسرائيل، المليئة بالأكدار والأقذار.

تكفيك مراجعة سفر الخروج، ففيه من المآثم والمآسي ما يجعل الإنسان في خجل وعجب من فعال هؤلاء القوم وتصرّفاتهم المخزية تجاه الأنبياء وكفرانهم الشنيع لما أنعم الله عليهم بفضله العميم.

جاء في سفر الخروج (أ ص ١٦ ع ٢٧) أنّهم مُنعوا من التقاط المنّ يوم السبت، فقد كان توفّر لهم الطعام يوم الجمعة ما يكفي للغد أيضاً. لكنّ بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا في السبت فلم يجدوا. فجاء الخطاب لموسى عليه السلام: «إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياي وشرائعي؟!».

وفي الأصحاح ١٧ ع ١ ـ ٥: «أنّهم ارتحلوا من برّيّة سين ونزلوا رفيديم ولم يكن ماء ليشربوا، فخاصموا موسى عليه السلام وتذمّروا حتّى كادوا يقتلونه، فصرخ موسى إلى الربّ قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشعب، بعد قليل يرجموني!!».

---

(١) فصلت ٤١: ٥.

وهكذا جاءت عبادتهم للعجل (أ ص ٣٢) كبيرة موبقة، وأُمروا أن يقتل بعضهم بعضاً (ع ٢٧ ـ ٢٨).

وفي الأصحاح ١٤ من سفر العدد: ما ينبؤك عن تمرّدهم العارم تجاه موسى ﷺ حتّى كادوا يرجعون إلى مصر. وذلك عجزاً منهم عن مقاتلة العماليق. وعزموا على رجم يوشع وكالب حيث كانا يحثّانهم على الثبات والجهاد في سبيل الحياة الفُضلى.

هذا جانب ممّا حدث على عهد موسى ﷺ أمّا وبعد وفاته وفي أدوار سائر أنبيائهم فالخطب أفضع وأشنع.

كلّ ذلك مسجّل في التاريخ وفي متناول الأبناء، فهلّا يعتبرون بها؟!

* * *

كما كان هناك مواضع عبر في مشهد من مشركي العرب، يؤنّبهم القرآن على عدم الاتّعاظ بها وهي في مرأى لهم ومسمع.

فقد جاء مذكّراً بمساكن قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. كانت ديارهم بمرأى ومنظر لهم في رحلاتهم إلى الشام، صباحاً حين نزوعهم إليها، ومساءً حين الرجوع ومساكنهم حاليّاً قد غمرها مياه البحر الميّت فكانوا يسيرون على شاطئه، وكانت آثار ديارهم بعدُ ظاهرة حينذاك.

وجاء بشأن مساكن ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]. وقد كانت ديار ثمود مشهودة لقريش وهي في طريقهم ـ ببلاد الأردن حاليّاً ـ في ممرّهم إلى الشام. والآثار باقية حتّى الآن.

وهكذا التذكار بقوم سبأ وانهيار سدّ مأرب وقوم مدين وقوم عاد بالأحقاف ـ بين حضرموت واليمن ـ والآثار الباقية من فرعون ونمرود وغيرهما من طغاة، جرف بهم الزمان حيث مهوى الدمار والهلاك.

---

(١) الصافات ٣٧: ١٣٧.
(٢) النمل ٢٧: ٥٢.

كلّ ذلك آثار باقية في مشهد القوم، فليتذكّروا بها لو كانوا يُبصرون.

إذن فلا تذكار بما لم تسجّله صفحات التاريخ، ولا أثر له في العيان. ومنه مسخ أقوام مردوا على العناد واللجاج، فأخذهم الله بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وكان من العذاب البئيس أن مسخهم الله قِرَدَةً وخنازير وعَبَدَةَ الطاغوت، مسخاً للقلوب والأرواح ـ وقد سجّله التاريخ ـ لا مسخاً في الصور والأجسام، ممّا لم يسجّله الزمان ولا أثر له في العيان.

* * *

والجهة الثانية: تقييم روايات السلف بشأن المسوخ.

وأوّل شيء فيها: أنّها متضاربة بعضها مع بعض وفي منافرة فاحشة فضلاً عمّا فيها من تعاليل وتعابير هجينة ينبو صدورها من المعصوم.

ففي رواية أوردها ابن بابويه في كتاب العلل، أنّ المسوخ ثلاثة عشر صنفاً:

١ ـ الفيل، كان رجلاً جبّاراً لوطيّاً لا يدع رطباً ولا يابساً.

٢ ـ الدبّ، كان رجلاً مخنّثاً يدعو الرجال إلى نفسه.

٣ ـ الأرنب، كانت امرأة لا تغتسل من حيض ولا جنابة.

٤ ـ العقرب، كان رجلاً همّازاً.

٥ ـ الضبّ، كان رجلاً أعرابيّاً يسرق أموال الحجّاج بمحجنه (وهي العُكّازة).

٦ ـ العنكبوت، كانت امرأة سحرت زوجها.

٧ ـ الدعموص (دودة سوداء تكون في الغدران) كان نمّاماً.

٨ ـ الجرّي، كان رجلاً ديّوثا.

٩ ـ الوطواط (الخفّاش) كان يسرق الرطب من النخيل.

١٠ ـ القردة، هم اليهود اعتدوا يوم السبت.

١١ ـ الخنازير، هم النصارى كذّبوا بنزول المائدة.

١٢ ـ سهيل (كوكب سماوي) كان رجلاً عشّاراً باليمن.

١٣ ـ الزهرة (كوكب سماوي) كانت امرأة تسمّى ناهيد (اسم الزهرة بالفارسية) وهي الّتي افتتن

بها هاروت و ماروت!![1]

وفي رواية أخرى رواها ابن بابويه في العلل أيضاً: أنّ المسوخ اثنا عشر صنفاً:

١ ـ الفيل، كان ملكاً زنّاء لوطيّاً.

٢ ـ الدبّ، كان أعرابيّا ديّوثاً.

٣ ـ الأرنب، كانت امرأة تخون زوجها.

٤ ـ الوطواط، كان يسرق تمور الناس.

٥ ـ سهيل، كان عشّاراً.

٦ ـ الزهرة، افتتن بها هاروت و ماروت.

٧ و ٨ ـ القردة والخنازير، بنو إسرائيل اعتدوا في السبت.

٩ و ١٠ ـ الجرّي والضبّ، فرقة من إسرائيل كذّبوا بنزول المائدة.

١١ ـ العقرب كان نمّاماً.

١٢ ـ الزنبور كان لحّاماً يسرق في الميزان[2].

وأيضاً في العلل:

١ ـ الخفّاش امرأة سحرت ضرّة لها.

٢ ـ الفار كان سبطاً من اليهود غضب الله عليهم.

٣ ـ البعوض كان رجلاً يستهزيء بالأنبياء.

٤ ـ القمّلة كانت في أصلها رجلاً استهزأ بنبيّ وكَلَح في وجهه (أي ضحك مستهزءاً).

٥ ـ الوزغ كان سبطاً من اليهود يسبّون الأنبياء.

٦ ـ العنقاء، غضب الله على رجل فجعله مثلة ومسخه عنقاء[3].

تلك نماذج ثلاثة عرضناها على علّاتها، لتشهد ملامحها على مدى وهنها وسقوطها عن درجة الاعتبار.. لها منها عليها شواهد.. وكفى!

---

(١) العلل ٢: ٤٨٦ / ٢، باب ٢٣٩.
(٢) المصدر: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ / ١، باب ٢٣٩.
(٣) راجع: العلل ٢: ٤٨٦ ـ ٤٨٧ / ٣، باب ٢٣٩، (علل المسوخ وأصنافها).

وذكر المجلسي أنّ أنواع المسوخ غير مضبوطة، والروايات بهذا الشأن مختلفة، وفي أكثرها ضعف، والمتحصّل من الجميع أنّ المسوخ ثلاثون صنفاً لو أخذنا بالاسم، وإلّا فقد يتداخل بعضها[١].

غريبة

ذكروا أنّ الممسوخ بسخط الله لايبقى أكثر من ثلاثة أيّام، لا يأكل ولايشرب ولا ينسل، ويأتيهم العذاب فيفنيهم لآخرهم من غير عقب ثمّ يخلق الله على مثالهم وفي شاكلتهم حيوانات لتبقى عبرة مع الأبد وهذه التي تسمّى المسوخ كانت المسوخيّة لها اسماً مستعاراً تشبيهاً[٢].

ومعنى ذلك أنّ المسوخ خلق جديد حادث بعد كارثة عذاب المسخ، ولم يكن لها سابقة من ذي قبل، إذ لم تصلح حينذاك تذكاراً لتلك العقوبة على الفرض.

الأمر الذي يرفضه علم الأحياء، وتواجد أسلاف تلكم الحيوانات منذ أحقاب طاعنة في القدم.

ملحوظة

إنّما أخذ الفقهاء من روايات المسوخ نصّها على تحريم لحومها فحسب، أمّا التعاليل الواردة فيها فأغفلوها ولم يعيروا لها اهتماماً؛ قال الصدوق: المسوخيّة اسم مستعار، وقد حرّم الله لحومها لما فيها من مضارّ كسائر المحرّمات من غير رابط بين هذا التحريم وذاك الاسم المستعار[٣].

(١) البحار ٦٢: ٢٢٠ ـ ٢٤٥، (باب أنواع المسوخ وأحكامها).

(٢) راجع: ابن كثير ١: ١٠٥، ذيل الآية: ٦٥.

(٣) راجع: العلل ٤٨٩ باب ٢٣٩.

قال تعالى:

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

إنّ هذه القصّة القصيرة ترسم سمة اللجاجة والتعنّت والتلكّؤ في الاستجابة، وتمحّل المعاذير، التي تتّسم بها إسرائيل.

وفي هذه القصّة ـ كما يعرضها السياق القرآني ـ مجال للنظر في جوانب شتّى: جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلّتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق وحقيقة البعث والنشور. وطبيعة الموت والحياة. ثمّ الجانب الفنّي في عرض القصّة بدءاً ونهايةً واتّساقاً مع السياق.

إنّ السمات الرئيسيّة لطبيعة بني إسرائيل تبدو واضحة في قصّة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم الجافية، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان الصادق بالغيب والثقة بالله. والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثمّ التلكّؤ في الاستجابة وتلمّس الحجج والمعاذير، والسخريّة المنبعثة من صفاقة القلب وصلافة اللسان!

وهذه القصّة ـ كما هي ـ تلمح بموقف بني إسرائيل المتعنّت. يبدو عليها قلّة توقيرهم لنبيّ الله

والإعنات في المسألة والإلحاح فيها إمّا للتفصّي من الامتثال وإمّا لبعد فهمهم عن مقاصد الشريعة وقصدهم التوقيف على مالا قصد إليه.

قد يقال: إنّ هنا تقديماً وتأخيراً، فأوّل القصة هو المذكور بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا...﴾، وإنّ قول موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾ ناشيء عن قتل النفس المذكورة.. غير أنّ السياق فكّك بينهما تكريراً للتقريع عليهم في موقفين: موقفهم المستهزيء المستخفّ بموضع نبيّهم الكريم وموقفهم المتلكّيء المتداريء في جريمة ارتكبوها، فجاءت القصّتان مستقلّتين في سياقتهما: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ...﴾، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً...﴾ وإن كانتا متّصلتين متّحدتين، لتكون الأُولى تقريعاً على الاستهزاء وترك المسارعة في الامتثال، والثانية تقريعاً على قتل النفس المحرّمة والتدارؤ فيه.

قال الزمخشري: وإنّما قدّمت قصّة الأمر بذبح البقرة، لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصّة واحدة ولذهب الغرض في تكرير التقريع[١].

نعم قد فوجئوا بالأمر بذبح البقرة، من غير سبب معروف لديهم، وذلك تهييباً بموضع أنبياء الله العظام، فيما يوجّهونه من أوامر وتكاليف، فيتميّز المؤمن الخالص الإيمان عن المستسلم المتعنّت الغشوم.

* * *

وقصّة ذبح البقرة جاءت في سفر التثنية (أص ٢١) في غاية الإجمال ممّا أضاع الهدف منها، جاء فيه: «إذا وجد قتيل لايعلم قاتله، فإنّ أقرب المحلّات إلى موضع القتيل يخرجون بمشايخهم، وليأتوا بعِجْلةٍ لم تحرث ولم تجرّ بالنير، ولتكن في وادٍ لم يُحْرَث ولم يُزرع وفيه ماء جارٍ فليكسروا عنق العِجْلة هنالك ويتقدّم الكهنة من بني لاوي وشيوخهم ويغسلون أيديهم على العِجْلة المذبوحة ويتبرّأون من دم القتيل، فيغفر لهم».

هكذا جاءت قصّة الذبح بإجمال أضاع المقصود وأبهم الغرض من هذا الذبح، أهو إضاعة ذلك الدم ليذهب باطلاً أم هو تعذّر عن معرفة المتّهم، بالقتل؟!

---

(١) الكشّاف ١: ١٥٤.

وفي الروايات الإسلاميّة هنا ـ إن صحّت ـ ما لعلّه يرشدنا إلى جوانب من هذه القصّة العجيبة وربما يرفع بعض الإبهام عنها. وسيوافيك.

وإليك شرح الآيات:

لقد قال لهم نبيّهم ـ الذي هو زعيمهم الذي أنقذهم من الذلّ وحرّرهم من أسر العدوّ ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾.

وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ من غير تلكّع. لكنّهم عن سفاهة وسوء أدب، واجهوه بالهزء فاتّهموه بأنّه يمزح ويسخر منهم، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً؟﴾. وكان ردّ موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله وأن يردّهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الأمر الذي لايليق بساحة الأنبياء، وإنّما هو من صفاقة الجهلاء (أمثال من خاطبوه بهذا الكلام الهجين).

فلو كانوا قد تنبّهوا بهذا التعريض، لكان عليهم أن يقوموا بتنفيذ الأمر، ولكنّهم لسوء تدبّرهم وضحالة عقولهم، زادوا في تهوّسهم وغلوائهم تجاه فهم الحقّ الصريح!

فقالوا ـ تعنّتاً و استنكاراً بموقف الرسول ـ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فكأنّما هو ربّه وحده لاربّهم كذلك! وكأنّ المسألة لاتعنيهم هم إنّما تعني موسى وربّه!

ثمّ إنّهم يطلبون منه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم: ﴿مَا هِيَ؟﴾ والسؤال عن الماهيّة هاهنا ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء ماهي؟ إنّها بقرة، وقد قال لهم ذلك من أوّل الأمر، بلا تحديد لصفة ولاسمة: بقرة، وكفى!

هنا كذلك يردّهم موسى إلى جادّة الصواب، ولايجيبهم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لايدخل معهم في جَدَل شكلي إنّما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلّم المربّي، من ابتلاه الله بهم من سفهاء منحرفين. يجيبهم عن صفة البقرة: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

لا هي عجوز ولا هي شابّة، وسط بين ذا وذلك ثمّ يعقّب هذا البيان المجمل بنصيحة حازمة: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ولاتتمحّلوا في مراودة الأسئلة وهي تزيد في شدة التكليف بعد إطلاقه!

وهكذا لمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقّي فيبادروا إلى أيّة بقرة لاعجوز

ولاصغيرة، متوسطة السنّ فيذبحوها ويخلّصوا أنفسهم من مآزق التكليف الشاقّ لو تمادوا في الغيّ واللجاج.

ولكن أنّى يفيد النصح لقوم لجوج، فراحوا يسألون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا؟﴾.

وهنا يتضايق عليهم التكليف ـ كلّما شدّدوا شدّد الله عليهم ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ وهكذا ضيّقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر في سعة ـ فأصبحوا مكلّفين أن يبحثوا، لا عن أيّة بقرة كانت بل عن بقرة متوسطة السنّ صفراء لمعاء صافية زاهية تسرّ الناظرين.

فلو كانوا وقفوا عند ذلك ولم يصرّوا على تعنّتهم الجاهل، لأراحوا أنفسهم من تشديد لاحق آكد ولكن أنّى وطبيعة بني إسرائيل المتلكّئة، تعود لتثير سخط الربّ عليهم أكثر: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ؟﴾ سؤال عن الواقع المطلوب، ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكّؤ بأنّ الأمر أصبح مشتبهاً لديهم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وكأنّما استشعروا لجاجتهم هذه المرّة وقالوا: ﴿وَ إِنَّـآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

قال موسى: إنّه تعالى يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

فمضافاً إلى الصفات السابقة تكون بحيث لم تدرّب بعد على الحرث أو السقي، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها شِيَة (قطع تخالف معظم لونها)..

وهنا عرفوا أنّ الأمر جدّ لامحيص لهم عنه. ومن ثمّ قالوا: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وكأنّهم لم يستيقنوا ذلك من قبلُ!!

﴿فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾!! فرضخوا للأمر بعد أن واجهوا الصلابة والقاطعيّة الحاسمة.

* * *

وعندئذ وبعد تنفيذ الأمر، كشف الله لهم عن الغاية التي كانت خافية عليهم لذلك الوقت.

﴿وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هذا هو الجانب الثاني للقصّة، وإن شئت قلت: الغاية من عرضها والسياق يتغيّر من الحكاية إلى

الخطاب والمواجهة:

فقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة: لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم؛ ثمّ جعل كلّ فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد؛ فأراد الله أن يظهر الحقّ على لسان القتيل ذاته؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه. وذلك بضربه ببعضٍ من تلك البقرة الذبيح وهكذا كان، فعادت إليه الحياة ليخبر عن قاتله وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله.

وفي هذا دلالة أيضاً على قدرة الله على إحياء الموتى ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

والقصّة كما سردها القرآن، أيضاً فيها بعض اللبس: هل القتيل كان تعود إليه الحياة ليعيش حتّى يتوفّاه الموت، أم كانت إعادة حياةٍ مؤقّته للإفشاء بالقاتل فحسب؟![1]

وهل كانت تلك سنّة باقية فيهم فيما إذا تدوريء في قتيل لم يعرف قاتله، نظير إقامة القسامة في شريعة الإسلام لمن لم يعرف قاتله؟ أم كانت قضيّة في واقعة؟

والظاهر أنّها شُرّعت سنّة فيجتمع أطراف التهمة على القتيل، بعد أن تُقَدَّم ذبيحة، فيتحالفوا وتبرأ ذممهم، أو يعترف القاتل حيث قوبل بمشهد القتيل وبمحضر الإلّه حيث القربان؟!

ولعلّ الأمر في بدئه اقترن بإحياء القتيل ـ عبرة وآية ـ فيفشي عن قاتله وبذلك يتحقّق سبب التهمة الموجبة لإقامة القسامة، إذ نفس إفشاء القتيل، سواء قبل موته أم بعده، لا يوجب سوى الاتّهام اللّهم إلّا أن يقال: إنّ الإحياء بعد الموت كانت آية إلّهيّة ولا مجال للريب فيما ثبت بإعجاز الأمر الذي اختلف فيه أنظار الفقهاء إذ غاية ما في الباب أنّه يوجب العلم لمن شهد المنظر ومنهم القاضي وأثباتُه، وهل مثل هذا العلم يكفي للحكم في القضاء؟!

نعم إلّا أن يعترف القاتلُ حيث وجد نفسه تجاه أمر واقع، وحفزه وجدانُه على الإقرار والاعتراف!

* * *

---

(١) جاء في رواية ابن سيرين عن أبي عبيدة السلماني: أنّه تكلّم فقال: قتلني فلان، ثمّ عاد ميّتاً. (التبيان ١: ٣٠٤).

قال أبو عبدالله القرطبي: استدلّ الإمام مالك ـ في رواية ابن وهب وابن القاسم ـ على صحّة القول بالقَسامة بقول المقتول ـ عند موته ـ: دمي عند فلان، أو فلان قتلني. ومنعه الإمام الشافعي وجمهور العلماء. قالوا: لأنّ قول المقتول: دمي عند فلان أو فلان قتلني، خبر يحتمل الصدق والكذب. ولا خلاف أنّ دم المدَّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلّا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل اعتبار قول المقتول: دمي عند فلان.

وأمّا قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنّه يحييه، وذلك يتضمّن الإخبار بقاتله خبراً جزماً لا يدخله احتمال؛ فافترقا.

قال ابن العربي: المعجزة كانت في إحيائه، فلمّا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلّهم في القبول والردّ. قال: وهذا فنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلّا مالك، وليس في القرآن أنّه إذا أخبر وجب صدقه، فلعلّه أمرهم بالقسامة معه[(١)].

قال القرطبي: واستبعد ذلك البخاريّ والشافعيّ وجماعة من العلماء فقالوا: كيف يقبل قوله في الدم وهو لا يقبل قوله في درهم؟![(٢)].

وهكذا ذكر الشيخ في الخلاف أنّه لايُقْبَل قوله. قال:

[٢٣٦٨/٢] لقول النبيّ ﷺ: البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر. وهذا مدّع[(٣)].

* * *

وبعد فإليك ما ذكره أرباب التفسير بالمأثور:

قال أبو جعفر الطبري: وهذه الآية ممّا وبّخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل في نقض أوائلهم الميثاق الّذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضاً من نكثكم ميثاقي، إذ قال موسى لقومه، وقومُه بنو إسرائيل، إذ ادّارأوا في القتيل الذي قتل فيهم، إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ والهزو: اللعب والسخريّة، كما قال الراجز:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربيّ ١: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) القرطبي ١: ٤٥٧.

(٣) راجع: كتاب الخلاف لأبي جعفر الطوسي ٥: ٣١١.

قــد هـزئت مـني أمُّ طَـيْسَلَه قالت أراه مُعدِماً لا شيءَ لَه[١]

يعني بقوله: قد هزئت: قد سخرت ولعبت. ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله فيما أخبرت عن الله من أمر أو نهي هزو أو لعب. فظنّوا بموسى أنّه في أمره إيّاهم عن أمر الله تعالى ذكره بذبح البقرة عند تدارئهم في القتيل إليه أنّه هازىء لاعب، ولم يكن لهم أن يظنّوا ذلك بنبيّ الله، وهو يخبرهم أنّ الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة. وحذفت الفاء من قوله: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ وهو جواب، لاستغناء ما قبله من الكلام عنه، وحسن السكوت على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فجاز لذلك إسقاط الفاء من قوله: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ كما جاز وحسن إسقاط من قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾[٢] ولم يقل: فقالوا إنّا أُرسلنا، ولو قيل: «فقالوا»، كان حسناً أيضاً جائزاً، ولو كان ذلك على كلمة واحدة لم تسقط منه الفاء؛ وذلك أنّك إذا قلت: قمت وفعلت كذا وكذا ولم تقل: قمت فعلت كذا وكذا، لأنّها عطف لا استفهام يوقف عليه، فأخبرهم موسى إذ قالوا له ما قالوا إنّ المخبر عن الله ـ جلّ ثناؤه ـ بالهزء والسخريّة من الجاهلين وبرّأ نفسه ممّا ظنّوا به من ذلك، فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني من السفهاء الّذين يروون عن الله الكذب والباطل. وكان سبب قيل موسى لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾:

---

(١) نسبه القالي في أماليه (٢: ٢٨٤) لأعرابي. وفي الحاشية: في كتاب مجموع أشعار العرب المشتمل على الأصمعيات أنّ القصيدة لصخير بن عمير التميمي. ورواية القالي:

تهزأ منّي أخت آل طيسله قالت أُراه مبلَّطاً لا شيء له

وبعده:

وهزئت من ذاك أمُّ مـوءله قالت أراه دالفاً قد دُنّـيَ له

مالك لا جُنِّبتِ تبريح الوله مردودةً أو فاقداً أو مُثْكِلَه

إلى تتمّة الأبيات، وهي ٢١ بيتاً.

قال أبو علي القالي: طيسلة: اسم. والمبلط: الفقير. يقال: أُبلط الرجل فهو مُبلَّط. وقال الأصمعي: أبلط فهو مبلط إذا لصق بالبلاط وهي الأرض الملساء.

ورواية اللسان (مادّة طسل) للبيت:

تهزأ منّي أخت آل طيسلَه قالت أراه في الوقار والعَلَه

(٢) الحجر ١٥: ٥٧ ـ ٥٨.

[٢/٢٣٦٩] ما رواه محمّد بن سيرين، عن عبيدة، قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم أو عاقر، قال: فقتله وليّه، ثمّ احتمله، فألقاه في سبط غير سبطه. قال: فوقع بينهم فيه الشرّ، حتّى أخذوا السلاح. قال: فقال أولو النُّهى: أتقتتلون وفيكم رسول الله ﷺ؟ قال: فأتوا نبيَّ الله، فقال: اذبحوا بقرة! فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال: فضُرب فأخبرهم بقاتله. قال: ولم تؤخذ البقرة إلّا بوزنها ذهباً. قال: ولو أنّهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم، فلم يورث قاتل بعد ذلك.

[٢/٢٣٧٠] وروى الربيع، عن أبي العالية قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنيّاً ولم يكن له ولد، وكان له قريبٌ وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثمّ ألقاه على مجمع الطريق[١]، وأتى موسى، فقال له: إنّ قريبي قُتل، وأتى إليّ أمرٌ عظيم، وإنّي لا أجد أحداً يبيّن لي مَنْ قتله غيرك يا نبيّ الله! قال: فنادى موسى في الناس: أُنشد الله من كان عنده من هذا علم إلّا بيّنه لنا! فلم يكن عندهم علمُه، فأقبل القاتل على موسى فقال: أنت نبيّ الله، فاسأل لنا ربّك أن يبيّن لنا! فسأل ربّه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فعجبوا وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ يعني هَرِمة ﴿وَ لَا بِكْرٌ﴾ يعني ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي نَصَف بين البكر والهَرِمة. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي صافٍ لونُها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي تُعجب الناظرين. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّـآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي لم يذلّلها العمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يعني ليست بذلول فتثير الأرض ﴿وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يعني مسلّمة من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يقول لا بياض فيها. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. قال: ولو أنّ القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا[٢] بقرة من البقر فذبحوها لكانت إيّاها، ولكنّهم شدّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم. ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وَ إِنَّـآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما هدوا إليها أبداً. فبلغنا أنّهم لم يجدوا البقر التي نُعتت لهم إلّا عند

(١) مجمع الطريق: حيث تلتقي الطرق.
(٢) استعرضوا: أخذوا من عُرض البقر فلم يبالوا أيّها أخذوا.

عجوز عندها يتامى، وهي القيّمة عليهم، فلمّا علمت أنّهم لا يزكو لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن، فأتوا موسى، فأخبروه أنّهم لم يجدوا هذا النعت إلّا عند فلانة، وأنّها سألتهم أضعاف ثمنها، فقال لهم موسى: إنّ الله قد كان خفّف عليكم، فشدّدتم على أنفسكم، فاعطوها رضاها وحكمها! فـفعلوا واشتروها، فذبحوها. فأمرهم موسى أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليـه روحه، فسمّى لهم قاتله، ثمّ عاد ميتاً كما كان. فأخذوا قاتله وهو الّذي كان أتى موسى فشكى إليه، فقتله الله على أسوء عمله.

[٢ / ٢٣٧١] وروى أسباط، عن السدّي قال: كان رجل من بني إسرائيل مُكْثَراً من المال، وكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج. فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوّجه إيّاها، فغضب الفتى وقال: والله لأقتلنّ عمّي ولآخذنّ ماله ولأنكحنّ ابنته ولآكلنّ ديته! فأتاه الفتى وقد قدم تجّار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عمّ انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم لعلّي أُصيب منها، فإنّهم إذا رأوك معي أعطوني. فخرج العمّ مع الفتى ليلاً، فلمّا بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثمّ رجع إلى أهله. فلمّا أصبح جاء كأنّه يطلب عمّه، كأنّه لايدري أين هو فلم يجده، فانطلق نحوه فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمّي فأدّوا إليّ ديته! وجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي وا عمّاه! فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله: ادع لنا حتّى يتبيّن له من صاحبه فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله إنّ ديته علينا لهيّنة، ولكنّا نستحيي أن نعير به. فذلك حين يقول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا: نسألك عن القتيل وعمّن قتله وتقول اذبحوا بقرة، أتهزأ بنا؟ قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

[٢ / ٢٣٧٢] وقال: قال ابن عبّاس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنّهم شدّدوا وتعنّتوا موسى، فشدّد الله عليهم؛ فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ والفارض: الهَرِمة التي لا تلد، والبكر: التي لم تلد إلّا ولداً واحـداً، والعـوان: النَصَف التي بين ذلك، التي قد ولدت وولد ولدها ـ فافعلوا ما تؤمرون. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال: تُعجب الناظرين: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة. ﴿قَالُوا ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها. وكان رجل من بني إسرائيل من أبرّ الناس بأبيه. وإنّ رجلاً مرّ به معه لؤلؤ يبيعه، فكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري منّي هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت، حتّى يستيقظ أبي فآخذه بثمانين ألفاً. فقال له الرجل: أيقظ أباك وهو لك بستّين ألفاً. فجعل التاجر يحطّ له حتّى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر حتّى يستيقظ أبوه حتّى بلغ مائة ألف. فلمّا أكثر عليه قال: لا والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يُوقظ أباه. فعوّضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرّت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة، فأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إيّاها بقرة ببقرة فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزادوه حتّى بلغوا عشراً فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتّى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، فقالوا: يا نبيّ الله إنّا وجدنا البقرة عند هذا فأبى أن يعطيناها، وقد أعطيناه ثمناً. فقال له موسى: أعطهم بقرتك! فقال: يا رسول الله أنا أحقّ بمالي. فقال: صدقت، وقال للقوم: أرضوا صاحبكم! فأعطوه وزنها ذهباً فأبى، فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنها حتّى أعطوه وزنها عشر مرّات، فباعهم إيّاها وأخذ ثمنها. فقال: اذبحوها! فذبحوها، فقال: اضربوه ببعضها! فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي قال: أَقتلُهُ وآخذ ماله وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه.

[٢٣٧٣/٢] وكذا قال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد: إنّ السبب الذي من أجله قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ نحو السبب الذي ذكره عبيدة وأبو العالية والسدّي. غير أنّ بعضهم ذكر أنّ الذي قتل القتيل الذي اختصم في أمره إلى موسى كان أخا المقتول. وذكر بعضهم أنّه كان ابن أخيه. وقال بعضهم: بل كانوا جماعة ورثة استبطأوا حياته. إلّا أنّهم جميعاً مجمعون على أنّ موسى إنّما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتيل إذ احتكموا إليه عن أمر الله إيّاهم بذلك، فقالوا له: وما ذبح البقرة يبيّن لنا خصومتنا التي اختصمنا فيها إليك في قتل من قُتل، فادّعى على بعضنا أنّه القاتل أتهزأ بنا؟

[٢٣٧٤/٢] وروى ابن وهب، عن ابن زيد قال: قتل قتيل من بني إسرائيل، فطرح في سبط من

الأسباط. فأتى أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط، فقالوا: أنتم والله قتلتم صاحبنا! قالوا: لا والله. فأتوا موسى، فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهرهم وهم والله قتلوه. فقالوا: لا والله يا نبيّ الله طرح علينا. فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فقالوا: أتستهزىء بنا؟ وقرأ قول الله جلّ ثناؤه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ قالوا: نأتيك فنذكر قتيلنا والذي نحن فيه فتستهزىء بنا؟ فقال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

[٢٣٧٥/٢] وعن محمّد بن كعب القرظي، ومحمّد بن قيس قالا: لمّا أتى أولياء القتيل والّذين ادّعوا عليهم قتل صاحبهم موسى وقصّوا قصّتهم عليه، أوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قالوا: وما البقرة والقتيل؟ قال: أقول لكم: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، وتقولون: أتتّخذنا هزواً!؟

قال أبو جعفر: فقال الّذين قيل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ بعد أن علموا واستقرّ عندهم أنّ الّذي أمرهم به موسى ﷺ من ذلك عن أمر الله من ذبح بقرة، جدٌّ و حقٌّ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ فسألوا موسى أن يسأل ربّه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم: «اذبحوا بقرة» لأنّه ـ جلّ ثناؤه ـ إنّما أمرهم بذبح بقرة من البقر أيّ بقرة شاؤوا ذِبْحَها من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع أو صنف دون صنف، فقالوا بجفاء أخلاقهم وغِلَظ طبائعهم وسوء أفهامهم، وتكلّف ما قد وضع الله عنهم مؤنته، تعنّتاً منهم رسول الله ﷺ: كما:

[٢٣٧٦/٢] روي عن ابن عبّاس، قال: لمّا قال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قالوا له يتعنّتونه: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ فلمّا تكلّفوا جهلاً منهم ما تكلّفوا من البحث عمّا كانوا قد كفوه من صفة البقرة التي أُمروا بذبحها تعنّتاً منهم بنبيّهم موسى ـ صلوات الله عليه ـ بعد الذي كانوا أظهروا له من سوء الظنّ به فيما أخبرهم عن الله ـ جلّ ثناؤه ـ بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ عاقبهم ـ عزّ وجلّ ـ بأن خصّ بذبح ما كان أمرهم بذبحه من البقر على نوع منها دون نوع، فقال لهم ـ جلّ ثناؤه ـ إذ سألوه فقالوا: ما هي صفتها وما حليتها؟ حلّها[1] لنا لنعرفها! ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا

(١) حَلِّها لنا: أي صفها وصوّرها لنا، من الحلية، وهي الصفة والصورة.

بِكْرٌ﴾ يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾: لا مسنّة هرمة، يقال منه: فرضت البقرة تفرض فروضاً، يعني بذلك أسنّت، ومن ذلك قول الشاعر:

يا رُبَّ ذي ضغن عليّ فارض   له قروء كقروء الحائض[1]

يعني بقوله فارض: قديم يصف ضغناً قديماً. ومنه قول الآخر:

له زجاج ولهاة فارض   هدلاء كالوطب نحاه الماخض[2]

[٢٣٧٧/٢] وروي عن مجاهد في قوله: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ قال: لا كبيرة.

[٢٣٧٨/٢] وروى شريك بإسناده عن ابن عبّاس، أو عن عكرمة، شكّ شريك في قوله: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ قال: الكبيرة.

[٢٣٧٩/٢] وعن ابن عبّاس قال: الفارض: الهرمة.

[٢٣٨٠/٢] وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس قال: الفارض: ليست بكبيرة هرمة.

[٢٣٨١/٢] وروى ابن جريج، عن عطاء الخراساني عن ابن عبّاس قال: الفارض: الهرمة.

[٢٣٨٢/٢] وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: الفارض: الكبيرة.

والبكر من إناث البهائم وبني آدم ما لم يفتحله الفحل، وهي مكسورة الباء لم يسمع منه «فَعَل» ولا «يَفْعَل». وأما «البكر» بفتح الباء فهو الفتى من الإبل. وإنّما عنى ـ جلّ ثناؤه ـ بقوله ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: ولا صغيرة لم تلد. كما:

[٢٣٨٣/٢] قال مجاهد: البكر: الصغيرة.

---

(١) في اللسان (مادة فرض):

يا ربّ مولى حاسد مباغض   عليّ ذي ضغن وضبٌّ فارضِ

له قروءٌ كقروء الحائض

والضب: الغيظ والحقد تضمره في القلب. والقروء: جمع قرء، وهو وقت الحيض.

(٢) الشطر الأول في اللسان (مادة زجج). والزجاج: الأنياب. واللهاة: لحمة حمراء في الحنك مشرفة على الحلق. والفارض هنا: الواسع العظيم الضخم. الأهدل والهدلاء: المسترخي المشفر أو الشفة. والوطب: سقاء اللبن يكون من جلد. ونحاه: صرفه عنه. والماخض: من مخض اللبن: إذا وضع في الممخضة ليخرج زبده.

[٢٣٨٤/٢] وكذا روي عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ لَا بِكْرٌ﴾ قال: الصغيرة.

[٢٣٨٥/٢] وعن معمّر عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَا بِكْرٌ﴾ قال: ولا صغيرة.

[٢٣٨٦/٢] وأيضاً عن ابن عبّاس قال: ﴿وَ لَا بِكْرٌ﴾: ولا صغيرة ضعيفة.

[٢٣٨٧/٢] وعن أبي العالية قال: ﴿وَ لَا بِكْرٌ﴾: يعني ولا صغيرة.

[٢٣٨٨/٢] وروى أسباط، عن السدّي: في «البكر» لم تلد إلّا ولداً واحداً.

والعوان: النَصَف التي قد ولدت بطناً بعد بطن، وليست بنعت للبكر، يقال منه: قد عوّنت إذا صارت كذلك. وإنّما معنى الكلام أنّه يقول: إنّها بقرة لا فارض ولا بكر بل عوان بين ذلك. ولايجوز أن يكون عوان إلّا مبتدأ، لأن قوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ كناية عن الفارض والبكر، فلا يجوز أن يكون متقدّماً عليهما. ومنه قول الأخطل:

وما بمكة من شُمط مُحفِّلة ... وما بيثرب من عُون وأبكار[١]

وجمعها عُوْن يقال: امرأة عوان من نسوة عُون. ومنه قول تميم بن مقبل:

ومأتم كالدُّمَى حُور مدامعها ... لم تبأس العيش أبكاراً ولاعُونا[٢]

وبقرة عوان وبقر عُون. قال: وربّما قالت العرب: بقرٌ عُوُن، مثل رُسُل يطلبون بذلك الفرق بين جمع عوان من البقر، وجمع عانة من الحمر. ويقال: هذه حرب عوان: إذا كانت حرباً قد قوتل فيها

---

(١) رواية البيت في الديوان (: ١٤٤):

وما بزمزم من شمط محلّقة ... وما بيثرب من عون وأبكار

من قصيدة طويلة يمدح بها يزيد بن معاوية أوّلها:

تغيّر الرسم من سلمى بأحفار ... وأقفرت من سُليمى دمنة الدار

والشمط: جمع أشمط، وهو الذي خالط سواد شعره بياض الشيب. و محفلة: يعني مجتهدين ومبالغين في العبادة والنسك.

(٢) البيت من قصيدة له ـ وهي من المشوبات ـ في جمهرة أشعار العرب (: ٣٠٨)، أوّلها:

طاف الخيال بنا ركباً يمانينا ... ودون ليلى عوادٍ لو تعدّينا

والمأتم: جماعة الرجال أو النساء في خير أو شرّ. والدمى: جمع دمية، وهي الصورة أو التمثال. والحور: جمع حوراء، وهي شديدة بياض بياض العين وسواد سوادها مع استدارة الحدقة ورقّة الجفون. وقوله: «لم تبأس العيش»: أي لم يلحقها بؤس العيش.

مرّة بعد مرّة، يمثّل ذلك بالمرأة التي ولدت بطناً بعد بطن. وكذلك يقال: حالة عوان إذا كانت قد قضيت مرّة بعد مرّة.

وعن ابن وهب أنّ ابن زيد أنشده:

قعود لدى الأبواب طلّاب حاجة   عوان من الحاجات أو حاجة بكرا[1]

قال أبو جعفر: والبيت للفرزدق. وبنحو الذي قلنا في ذلك تأوّله أهل التأويل.

[٢٣٨٩/٢] قال مجاهد: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: وسط قد ولدن بطناً أو بطنين.

[٢٣٩٠/٢] وعنه قال: العوان: العانس النصف.

[٢٣٩١/٢] وروى الضحّاك، عن ابن عبّاس قال: ﴿عَوَانُ﴾: بين الصغيرة والكبيرة. وهي أقوى ما تكون من البقر والدوابّ وأحسن ما تكون.

قوله: ﴿صَفْرَآءُ﴾ قال بعضهم: معنى ذلك سوداء شديدة السواد.

[٢٣٩٢/٢] فقد روي عن الحسن: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعُ لَّوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد.

وقال آخرون: معنى ذلك: صفراء القرن والظلف.

[٢٣٩٣/٢] وأيضاً روي عن الحسن في قوله: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعُ لَّوْنُهَا﴾ قال: صفراء القرن والظلف.

[٢٣٩٤/٢] وعنه في قوله: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعُ لَّوْنُهَا﴾ قال: كانت وحشية.

[٢٣٩٥/٢] وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعُ لَّوْنُهَا﴾ قال: صفراء القرن والظلف.

[٢٣٩٦/٢] وقال ابن زيد: هي صفراء.

[٢٣٩٧/٢] وقال مجاهد: لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم.

قال أبو جعفر: وأحسب أنّ الذي قال في قوله: ﴿صَفْرَآءُ﴾ يعني به سوداء، ذهب إلى قوله في نعت الإبل السود: هذه إبل صُفْر، وهذه ناقة صفراء؛ يعني بها سوداء. وإنّما قيل ذلك في الإبل لأنّ سوادها يضرب إلى الصفرة، ومنه قول الشاعر[2]:

---

(١) قعوداً: جمع قاعد. والحاجة العوان: الكبيرة. والبكر: الصغيرة.

(٢) هو الأعشى (ديوانه: ٢٠) من قصيدة في مدح قيس بن معديكرب، أوّلها:

من ديار بالهضب هضب القليب   فاق ماءُ الشؤون فيض الغروب

تلك خيلي منها وتلك ركـابي هنّ صفر أولادها كـالزبيب(١)

يعني بقوله: هنّ صُفر: هنّ سُود، وذلك إن وصفت الإبل به فليس ممّا توصف به البقر، مـع أنّ العرب لاتصف السواد بالفقوع، وإنّما تصف السواد إذا وصفته بالشدّة وبالحلوكة ونحوها، فتقول: هو أسود حالك وحانك وحلكوك، وأسود غربيب ودجوجي، ولا تقول: هو أسود فاقع، وإنّما تقول هو أصفر فاقع. فوصفه إيّاه بالفُقُوع من الدليل البيّن على خلاف التأويل بشديدة السواد.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ يعني خالص لونها، والفقوع في الصفر نظير النـصوع فـي البياض، وهو شدّته وصفاؤه. كما:

[٢٣٩٨/٢] قال قتادة: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: هي الصافي لونها.

[٢٣٩٩/٢] وروي عن أبي العالية في قوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: أي صاف لونها.

[٢٤٠٠/٢] وعن السدّيّ قال: نقيّ لونها.

[٢٤٠١/٢] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيضّ. قال الشاعر:

حـملت عـليه الورد حـتّى تـركته ذليلاً يَسُفّ التُرب واللـون فـاقع(٢)

وقال في قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ يعني بقوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تُعجب هـذه البـقرة فـي حسن خلقها ومنظرها وهيئتها الناظر إليها. كما:

[٢٤٠٢/٢] روي عن قتادة في قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال: أي تُعجب الناظرين.

[٢٤٠٣/٢] وروي عن عبدالصمد بن معقل أنّه سمع وَهَباً قال في قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾: إذا نظرت إليها يُخيَّل إليك أنّ شعاع الشمس يخرج من جلدها(٣).

* * *

[٢٤٠٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبّه قال: إنّ فتى من بني

---

(١) رواية الديوان: «خيلي منه» وهو الصواب وما قبله يومىء إلى ذلك، حيث قال: «إنّ قيساً قيس الفعال...الخ» والركاب: الإبل التي يسار عليها. والزبيب: ذاوي العنب، وأسوده أجوده.

(٢) الورد: فرسه.

(٣) الطبري ١: ٤٧٨ ـ ٤٩٢، بحذف وتصرّف.

إسرائيل كان برّاً بوالدته، وكان يقوم ثلث الليل يصلّي، ويـجلس عـند رأس والدتـه ثـلث اللـيل، فيذكّرها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد، ويقول: يا أمّه إن كنت ضعفت عن قيام الليل فكبّري الله وسبّحيه وهلّليه، فكان ذلك عملهما الدهر كلّه، فإذا أصبح أتى الجبل فاحتطب على ظهره فيأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله أن يبيعه، فيتصدّق بثلثه ويُبقي لعبادته ثلثا ويُعطي الثلث أمّه، وكانت أمّه تأكل النصف وتتصدّق بالنصف، وكان ذلك عملهما الدهر كلّه.

فلمّا طال عليها قالت: يا بُنيّ اعلم إنّي قد ورثت من أبيك بقرة وختمت عنقها، وتركتها في البقر على اسم إلـه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، قالت وسأُبيّن لك ما لونها وهيئتها، فإذا أتيت البقر فادعها باسم إلـه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فإنّها تفعل كما وعدتني، وقـالت: إنّ علامتها ليست بهرمة ولا فتية، غير أنّها بينهما وهي صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين، إذا نظرت إلى جلدها يُخيّل اليك أنّ شعاع الشمس يخرج من جلدها، وليست بالذلول، ولا صعبة تثير الأرض، ولا تسقي الحرث، مسلّمة لا شية فيها ولونها واحد، فإذا رأيتها فخذ بعنقها فإنّها تتبعك بإذن إلـه إسرائيل.

فانطلق الفتى وحفظ وصيّة والدته، وسار في البرّيّة يومين أو ثلاثاً، حتّى إذا كان صبيحة ذلك اليوم انصرف فصاح بها فقال: بإلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلّا ما أتيتني، فأقبلت البقرة إليه وتركت الرعي، فقامت بين يدي الفتى، فأخذ بعنقها فتكلّمت البقرة وقالت: يا أيّها الفتى البَـرُّ بوالدته اركبني فإنّه أهون عليك. قال الفتى: لم تأمرني والدتي أن أركب عليك ولكنّها أمرتني أن أسوقك سوقاً فأُحبّ أن أبلغ قولها. فقالت: بإلّه إسرائيل لو ركبتني ما كنت لتقدر عليّ، فانطلق يا أيّها الفتى البرّ بوالدته، لو أنّك أمرت هذا الجبل أن ينقلع لك من أصله لانقلع لبرّك بوالدتك ولطاعتك إلّهك[1].

فانطلق حتّى إذا كان من مسيرة يوم من منزله استقبله عدوّ الله إبليس، فتمثّل له على صورة راع من رعاة البقر، فقال: يا أيّها الفتى من أين جئت بهذه البقرة، ألا تركبها فإنّي أراك قد أعييت؟ أظنّك لاتملك من الدنيا مالاً غير هذه البقرة، فإنّي أعطيك الأجر ينفعك ولايضرّها، فإنّي رجل من رُعاة

(١) العظمة ٥: ١٧٦٥ / ١٢٦٤ ـ ٩٠.

البقر اشتقت إلى أهلي، فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه طعامي وزادي، حتّى إذا بلغت شطر الطريق أخذني وجع بطني، فذهبت لأقضي حاجتي فعدا وسط الجبل وتركني وأنا أطلبه ولست أقدر عليه، فأنا أخشى على نفسي الهلاك وليس معي زاد ولا ماء، فإن رأيت أن تحملني على بقرتك فتبلغني مراعيّ وتنجيني من الموت وأعطيك أجرها بقرتين.

قال الفتى: إنّ بني آدم ليس بالذي يقتلهم اليقين وتهلكهم أنفسهم، فلو علم الله منك اليقين لبلغك بغير زاد ولا ماء، ولست براكب أمراً لم أؤمر به، إنّما أنا عبد مأمور ولو علم سيّدي أنّي أعصيه في هذه البقرة لأهلكني وعاقبني عقوبة شديدة، وما أنا بمؤثر هواك على هوى سيّدي، فانطلق يا أيّها الرجل بسلام! فقال له إبليس: أعطيك بكلّ خطوة تخطوها إلى منزلي درهماً فذلك مال عظيم وتفدي نفسي من الموت في هذه البقرة. قال الفتى: إنّ سيدي له ذهب الأرض وفضّتها، فإن أعطيتني شيئاً منها علم أنّه من ماله، ولكن أعطني من ذهب السماء وفضّتها، فأقول إنّه ليس هذا من مالك؛ فقال إبليس: وهل في السماء ذهب أو فضّة، أو هل يقدر أحد على هذا؟ قال الفتى: أو هل يستطيع العبد بما لم يأمر به سيّده كما لا تستطيع أنت ذهب السماء وفضّتها.

قال له إبليس: أراك أعجز العبيد في أمرك. قال له الفتى: إنّ العاجز من عصى ربّه. قال له إبليس: مالي لا أرى معك زاداً ولا ماء؟ قال الفتى: زادي التقوى، وطعامي الحشيش، وشرابي من عيون الجبال، قال إبليس: ألا آمرك بأمر يُرشدك؟ قال الفتى: مر به نفسك فإنّي على رشاد إن شاء الله. قال له إبليس: ما أراك تقبل نصيحة! قال له الفتى: الناصح لنفسه من أطاع سيّده وأدّى الحقّ الذي عليه، فإن كنت شيطاناً فأعوذ بالله منك، وإن كنت آدميًّا فاخرج فلا حاجة لي في صحابتك. فجمد إبليس عند ذلك ثلاث ساعات مكانه، ولو ركبها له إبليس ما كان الفتى يقدر عليها ولكنّ الله حبسه عنها.

فبينما الفتى يمشي إذ طار طائر من بين يديه فاختلس البقرة، ودعاها الفتى وقال: بإلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلّا ما آتيتني، فأتت البقرة إليه وقامت بين يديه، فقالت: يا أيّها الفتى ألم تر إلى ذلك الطائر الذي طار من بين يديك؟ فإنّه إبليس عدوّ الله اختلسني، فلمّا ناديتني بإلّه إسرائيل جاء ملك من الملائكة فانتزعني منه فردّني إليك لبرّك بوالدتك وطاعتك إلّهك، فانطلق فلست ببارحتك حتّى تأتي أهلك إن شاء الله.

قال: فدخل الفتى إلى أمّه يُخبرها الخبر، فقالت: يا بُنَي إنّي أراك تحتطب على ظهرك الليل والنهار فتشخص[١]، فاذهب بهذه البقرة فبعها وخذ ثمنها فتقوّ به وودِّع به نفسك[٢]. قال الفتى: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير على رضاً منّي. فانطلق الفتى إلى السوق فبعث الله إليه ملكاً من الملائكة ليُري خَلْقَه قُدرَتَه، فقال للفتى: بكم تبيع هذه البقرة أيّها الفتى؟ فقال: أبيعها بثلاثة دنانير على رضاً من والدتي. قال: لك ستّة دنانير ولا تستأمر والدتك! فقال: لو أعطيتني زنتها لم أبعها حتّى أستأمرها، فخرج الفتى فأخبر والدته الخبر، فقالت: بعها بستّة دنانير على رضاً منّي. فانطلق الفتى وأتاه الملك فقال: ما فعلت؟ فقال: أبيعها بستّة دنانير على رضاً من والدتي. قال: فخذ اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها. قال: لا.

فانطلق الفتى إلى أمّه فقالت: يا بُنيّ إنّ الذي يأتيك ملك من الملائكة في صورة آدمي، فإذا أتاك فقل له: إنّ والدتي تقرأ عليك السلام، وتقول: بكم تأمرني أن أبيع هذه البقرة؟ فأتاه فقال له مقالة أمّه. فقال له الملك: يا أيّها الفتى يشتري بقرتك هذه موسى بن عمران لقتيل يُقتل من بني إسرائيل، وله مال كثير ولم يترك أبوه ولداً غيره، وله أخ له بنون كثيرون، فيقولون كيف لنا أن نقتل هذا الغلام ونأخذ ماله، فَدَعَوا الغلام إلى منزلهم فقتلوه فطرحوه إلى جانب دارهم، فأصبح أهل الدار فأخرجوا الغلام إلى باب الدار، وجاء بنو عمّ الغلام فأخذوا أهل الدار، فانطلقوا بهم إلى موسى، فلم يدر موسى كيف يحكم بينهم من أجل أنّ أهل الدار برآء من الغلام...! فشقّ ذلك على موسى فدعا ربّه، فأوحى الله إليه: أن خذ بقرة صفراء فاقعاً لونها فاذبحها، ثمّ اضرب الغلام ببعضها.

فعمدوا إلى بقرة الفتى فاشتروها على أن يملأوا جلدها دنانير، ثمّ ذبحوها ثمّ ضربوا الغلام ببعضها، فقام يُخبرهم فقال: إنّ بني عمّي قتلوني وأهل الدار منّي برآء، فأخذهم موسى فقالوا: يا موسى أتتّخذنا هزواً قد قُتل ابن عمّنا مظلوماً، وقد علموا أن سيفضحوا، فعمدوا إلى جلد البقرة فملأوه دنانير ثمّ دفعوه إلى الفتى، فعمد الفتى فتصدّق بالثلثين على فقراء بني إسرائيل وتقوّى بالثلث و ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣].

---

(١) أي فتتعب. (٢) أي رَفِّه على نفسك.

(٣) الدرّ ١: ١٩٤ ـ ١٩٧.

[٢٤٠٥/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب مَن عاش بعد الموت عن ابن عبّاس قال: كانت مدينتان في بني إسرائيل، إحداهما حصينة ولها أبواب، والأخرى خربة. فكان أهل المدينة الحصينة إذا أمسوا أغلقوا أبوابها، فإذا أصبحوا قاموا على سور المدينة فنظروا هل حدث فيما حولها حادث؛ فأصبحوا يوماً فإذا شيخ قتيل مطروح بأصل مدينتهم، فأقبل أهل المدينة الخربة فقالوا: قتلتم صاحبنا وابن أخ له شاب يبكي عليه ويقول: قتلتم عمّي. قالوا: والله ما فتحنا مدينتنا منذ أغلقناها، وما لدينا من دم صاحبكم هذا! فأتوا موسى، فأوحى الله إلى موسى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ إلى قوله ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

قال: وكان في بني إسرائيل غلام شابّ يبيع في حانوت له، وكان له أب شيخ كبير، فأقبل رجل من بلد آخر يطلب سلعة له عنده فأعطاه بها ثمناً، فانطلق معه ليفتح حانوته فيعطيه الذي طلب والمفتاح مع أبيه، فإذا أبوه نائم في ظلّ الحانوت فقال: أيقظه. قال ابنه: إنّه نائم وأنا أكره أن أروّعه من نومته. فانصرفا فأعطاه ضعف ما أعطاه على أن يوقظه فأبى. فذهب طالب السلعة. فاستيقظ الشيخ فقال له ابنه: يا أبت والله لقد جاء هاهنا رجل يطلب سلعة كذا، فأعطى بها من الثمن كذا وكذا، فكرهت أن أروّعك من نومك، فلامه الشيخ، فعوّضه الله من برّه بوالده أن نتجت من بقر تلك البقرة التي يطلبها بنو إسرائيل، فأتوه فقالوا له: بعناها فقال: لا. قالوا: إذن نأخذ منك. فأتوا موسى فقال: اذهبوا فارضوه من سلعته. قالوا: حكمك؟ قال: حكمي أن تضعوا البقرة في كفّة الميزان وتضعوا ذهباً صامتاً في الكفّة الأخرى، فإذا مالَ الذهبُ أخذته، ففعلوا وأقبلوا بالبقرة حتّى انتهوا بها إلى قبر الشيخ، واجتمع أهل المدينتين فذبحوها، فضرب ببضعة من لحمها القبر، فقام الشيخ ينفض رأسه يقول: قتلني ابن أخي طال عليه عمري وأراد أخذ مالي ومات[1].

[٢٤٠٦/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثمّ احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثمّ أصبح يدّعيه عليهم حتّى تسلّحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم: علامَ يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟

---

(١) الدرّ ١: ١٨٦؛ كتاب من عاش بعد الموت: ٥٣ـ٥٦ / ٥٤؛ ابن عساكر ٦١: ١٦٤ـ١٦٥.

فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنّهم شدّدوا فشدّد عليهم، حتّى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا. لابن أخيه[1]. ثمّ مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً ولم يورّث قاتلٌ بعد[2].

[٢٤٠٧/٢] وأخرج سفيان بن عيينة عن عكرمة قال: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً، لكلّ سبط منهم باب يدخلون منه ويخرجون، فوجد قتيل على باب سبط من الأسباط قتل على باب سبط وجرّ إلى باب سبط آخر، فاختصم فيه أهل السبطين. فقال هؤلاء: أنتم قتلتم هذا، وقال الآخرون: بل أنتم قتلتموه، ثمّ جررتموه إلينا. فاختصموا إلى موسى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾ الآية. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ قال: فذهبوا يطلبونها فكأنّها تعذّرت عليهم، فرجعوا إلى موسى فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ... وَ إِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ولولا أنّهم قالوا: إن شاء الله ما وجدوها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ ألا وإنّما كانت البقرة يومئذ بثلاثة دنانير، ولو أنّهم أخذوا أدنى بقرهم فذبحوها كفتهم ولكنّهم شدّدوا فشدّد الله عليهم.

فذهبوا يطلبونها فيجدون هذه الصفة عند رجل فقالوا: تبيعنا هذه البقرة؟ قال: أبيعها. قالوا: بكم تبيعها؟ قال: بمائة دينار. فقالوا: إنّها بقرة بثلاثة دنانير! فأبوا أن يأخذوها، فرجعوا إلى موسى فقالوا: وجدناها عند رجل فقال لا أنقصكم من مائة دينار، وإنّها بقرة بثلاثة دنانير. قال: هو أعلم هو صاحبها، إن شاء باع وإن شاء لم يبع. فرجعوا إلى الرجل فقالوا: قد أخذناها بمائة دينار. فقال: لا أنقصها عن مائتي دينار. فقالوا، سبحان الله...! قد بعتنا بمائة دينار و رضيت فقد أخذناها. قال: ليس انقصها من مائتي دينار. فتركوها ورجعوا إلى موسى فقالوا له: قد أعطاناها بمائة دينار، فلمّا رجعنا

---

(١) أي مشيراً إلى ابن أخيه.

(٢) الدرّ ١: ١٨٦ـ ١٨٧؛ الطبري ١: ٤٧٩ ـ ٤٨٠ / ٩٧٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٣٦ / ٦٩٠؛ البيهقي ٦: ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / ٦٧ و ٧١.

إليه قال: لا أنقصها من مائتي دينار. قال: هو أعلم إن شاء باعها وإن شاء لم يبعها، فعادوا إليه فقالوا: قد أخذناها بمائتي دينار. فقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار. قالوا: قد كنت أعطيتناها بمائتي دينار فقد أخذناها! فقال: ليس أنقصها من أربعمائة دينار، فتركوها وعادوا إلى موسى فقالوا: قد أعطيناه مائتي دينار، فأبى أن يأخذها وقال: لا أنقصها من أربعمائة دينار. فقال: هو أعلم هو صاحبها إن شاء باع وإن شاء لم يبع، فرجعوا إليه فقالوا: قد أخذناها بأربعمائة دينار فقال: لا أنقصها من ثمانمائة دينار. فلم يزالوا يعودون إلى موسى ويعودون عليه، فكلّما عادوا إليه أضعف عليهم الثمن حتّى قال: ليس أبيعها إلّا بملء مسكها، فأخذوها فذبحوها فقال: اضربوه ببعضها، فضربوه بفخذها فعاش. فقال: قتلني فلان.

فإذا هو رجل كان له عمّ، وكان لعمّه مال كثير، وكان له ابنة فقال: أقتل عمّي هذا وأرث ماله وأتزوّج ابنته، فقتل عمّه فلم يرث شيئاً ولم يورّث قاتل منذ ذلك شيئاً. قال موسى: إنّ لهذه البقرة لشأناً ادعوا إليّ صاحبها، فدعوه فقال: أخبرني عن هذه البقرة وعن شأنها؟ قال: نعم. كنت رجلاً أبيع في السوق وأشتري، فسامني رجل ببضاعة عندي فبعته إيّاها، وكنت قد أشرفت منها على فضل كبير، فذهبت لآتيه بما قد بعته، فوجدت المفتاح تحت رأس والدتي، فكرهت أن أوقظها من نومها، ورجعت إلى الرجل فقلت: ليس بيني وبينك بيع، فذهب ثمّ رجعت فنتجت لي هذه البقرة، فألقى الله عليها منّي محبّة فلم يكن عندي شيء أحبّ إليّ منها، فقيل له: إنّما أصبت هذا ببرّ والدتك[1].

* * *

وذكر الثعلبي: أنّه وجد قتيل في بني إسرائيل إسمه عاميل ولم يدروا قاتله واختلفوا في قاتله والسبب في قتله.

[٢٤٠٨/٢] فقال عطاء والسّدي: كان في بني إسرائيل رجل كثير المال وله ابن عمّ مسكين لا وارث له غيره فلمّا طال عليه موته قتله ليرثه.

---

(١) الدرّ ١: ١٨٧ ـ ١٨٩؛ أبوالفتوح ٢: ٣، بذكر صدر الحديث؛ القرطبي ١: ٤٥٦؛ الثعلبي ١: ٢١٣.

وقال بعضهم: وكان تحت عاميل بنت عمّ له لم يكن لها مثلٌ في بني إسرائيل بالحسن والجمال فقتله ابن عمّه لينكحها.

[٢٤٠٩/٢] وقال ابن الكلبي: قتله ابن أخيه لينكح ابنته فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك. وقيل: ألقاه بين قريتين.

[٢٤١٠/٢] وقال عكرمة: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكلّ سبط منهم باب فوُجد قتيل على باب سبط.

قيل: وجُرّ إلى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان.

وقال ابن سيرين: قتله القاتل ثمّ احتمله فوضعه على باب رجل منهم ثمّ أصبح يطلب بثأره ودمه ويدّعيه عليه. قال: فجاء أولياء القتيل إلى موسى وأتوه بناس وادّعوا عليهم القتل وسألوا القصاص. فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم خلاف.

[٢٤١١/٢] وقال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليبيّن لهم ذلك فسأل موسى ربّه فأمرهم بذبح بقرة! فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ يا موسى أي أتستهزىء بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة! وإنّما قالوا ذلك لتباعد الأمرين في الظّاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه!

وقرأ ابن محيصن: أيتّخذنا بالياء قال: يعنون الله! ولايُستبعد هذا من جهلهم، لأنّهم الّذين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[١].

وفي هزواً ثلاث لغات: هُزْواً بالتخفيف والهمز. ومثله كُفْواً. وهي قراءة الأعمش وحمزة وخلف وإسماعيل.

وهُزُؤاً وكُفُؤاً مثقّلان مهموزان وهي قراءة أبي عمرو وأهل الحجاز والشام واختيار الكسائي وأبي عبيد وأبي حاتم.

وهُزُواً وكُفُواً مثقّلان بغير همزة في رواية حفص عن عاصم[٢]. وكلّها لغات صحيحة معناها: الاستهزاء.

---

(١) الأعراف ٧: ١٣٨. (٢) راجع: كتاب السبعة لابن مجاهد: ١٥٨ ـ ١٥٩.

فقال لهم موسى ﷺ: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي من المستهزئين بالمؤمنين. فلمّا علم القوم أنّ ذبح البقرة عزم من الله عزّ وجلّ سألوه الوصف:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ولو أنّهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنّهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم وإنّما كان تشديدهم تقديراً من الله ـ عزّ وجلّ ـ وحكمة. وكان السبب في ذلك على ما:

[٢٤١٢/٢] ذكره السدّيّ وغيره: أنّ رجلاً في بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه وبلغ من برّه به أنّ رجلاً أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفاً وكان فيها فضل. فقال للبائع: أبي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلني حتّى يستيقظ وأعطيك الثمن. قال: فأيقظ أباك واعطني المال. قال: ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف فانتظرني حتّى ينتبه أبي.

فقال الرّجل: فأنا أحطّ عنك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجّلت النقد. قال: وأنا أزيدك عشرين ألفاً إن انتظرت انتباه أبي. ففعل ولم يوقظ الرجل أباه فأعقبه برُّه بأبيه أن جعل تلك البقرة عنده وأمر بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها.

[٢٤١٣/٢] وقال ابن عبّاس ووهب وغيرهما: كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابنٌ طفلٌ وكان له عِجْل فأتى بالعجل إلى غَيْضة[1] وقال: اللّهمّ إني استودعك هذه العجلة لابني حتّى يكبر. مات الرّجل فَسُيِّبَت العجلة[2] في الغيضة وصارت عواناً، وكانت تهرب من كلّ مَن رامها. فلمّا كبر الابن كان بارّاً بوالدته وكان يقسّم اللّيلة ثلاثة أثلاث: يصلّي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمّه ثلثاً فإذا أصبح انطلق واحتطب على ظهره ويأتي به السّوق فيبيعه بما شاء الله، ثمّ يتصدّق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثاً، وقالت له أمّه يوماً: إنّ أباك ورّثك عِجْلة وذهب بها إلى غيضة كذا واستودعها الله ـ عزّ وجلّ ـ فانطلق إليها فتدعُ إلـه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق بأن يردّها عليك، وإنّ من علامتها أنّك إذا نظرت إليها يُخيّل إليك أنّ شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمّى المذهّبة لحسنها وصفرتها وصفاء لونها. فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى، وقال: أعزم عليك بإلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فأقبلت تسعى حتّى قامت بين يديه، فقبض على عنقها

---

(١) الغيضة: مجتمع الشجر في مغيض الماء. (٢) سُيِّبت: تُركت وأُهملت.

وقادها، فتكلّمت البقرة بإذن الله وقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته اركبني فإنّ ذلك أهون عليك! فقال الفتى: إنّ أُمّي لم تأمرني بذلك ولكن قالت: خذها بعنقها. فقالت البقرة: بإله إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً، فانطلق فإنّك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل، لبرّك بوالدتك.

وسار الفتى فاستقبله عدوّ الله إبليس في صورة راع فقال: أيّها الفتى إنّي رجل من رعاة البقر اشتقت إلى أهلي فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه زادي ومتاعي حتّى إذا بلغت شطر الطّريق ذهبت لأقضي حاجتي ذهب الثور صُعُداً وسط الجبل وما قدرت عليه وإنّي أخشى على نفسي الهلاك، فإن رأيت أن تحملني على بقرتك وتنجيني من الموت وأعطيك أجرها بقرتين مثل بقرتك، فلم يفعل الفتى وقال: اذهب فتوكّل على الله، فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة، فقال إبليس: فإن شئت فبعنيها بحكمك، وإن شئت فاحملني عليها وأعطيك عشرة مثلها، فقال الفتى: إنّ أمّي لم تأمرني بهذا، فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدي البقرة ونفرت البقرة هاربة في الفلاة وغاب الرّاعي، فدعاها الفتى باسم إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة فقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته، ألم تر إلى الطائر الذي طار، إنّه إبليس عدوّ الله اختلسني، أما إنّه لو ركبني لما قدرت عليّ أبداً فلمّا دعوت إله إبراهيم جاء ملك فانتزعني من يد إبليس وردّني إليك لبرّك بوالدتك وطاعتك لها.

فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له: إنّك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنّهار والقيام باللّيل فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها. قال: بكم أبيعها؟

قالت: بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي وكانت ثمن البقرة في ذلك الوقت، فانطلق بها الفتى إلى السّوق فبعث الله ملكاً إنساناً خلقه بقدرته ليخبر الفتى كيف برّه بوالدته وكان الله به خبيراً فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتي. فقال المَلَك: ستّة دنانير ولا تستأمر أمّك.

فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلّا برضا أمّي، فردّها إلى أُمّه وأخبرها بالثّمن فقالت: ارجع فبعها ستّة على رضاي فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق وأتى الملك وقال: استأمرت والدتك؟ فقال الفتى: إنّها أمرتني أن لا أنقصها من ستّة على أن أستأمرها. قال الملك: فإنني أعطيك

اثني عشر على أن لاتستأمرها. فأتى الفتى ورجع إلى أمّه وأخبرها بذلك. قالت: إنّ ذلك الرجل الذي يأتيك ويعطيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي ليجرّبك فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل ذلك فقال له الملك: إذهب إلى أمّك وقل لها بكم هذه البقرة؟ فإنّ موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يقتل من بني إسرائيل فلا تبيعونها إلّا بملء مسكها دنانير فأمسكوا البقرة، وقدّر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها وأمرهم بها. فقالوا يستوصفون ويصف لهم حتّى وصف تلك البقرة بعينها موافاة له على برّه بوالدته فضلاً منه ورحمة[1].

[٢٤١٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَ إِذْقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: كان ذلك بأرض مصر قبل الغرق[2].

[٢٤١٥/٢] وقال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليبيّن لهم بدعائه فأمرهم الله بذبح بقرة[3].

[٢٤١٦/٢] وأخرج البزّار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم ذلك أو لأجزأت عنهم»[4].

[٢٤١٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّما أُمروا ببقرةٍ ولو عمدوا إلى أدنى بقرة لأجزأت عنهم، والذي نفس محمّد بيده لو لم يستثنوا ما بُيّنت لهم آخر الأبد. قال: فشدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم»[5].

[٢٤١٨/٢] وهكذا روى العيّاشي عن الحسن بن عليّ بن محبوب عن علي بن يقطين قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «إنّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وإنّما كانوا يحتاجون إلى ذَنَبها، فشدّدوا، فشدّد الله عليهم»[6].

[٢٤١٩/٢] وروى الصدوق والعيّاشي بالإسناد إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «إنّ رجلاً من بني

---

(١) الثعلبي ١: ٢١٣ـ٢١٦.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١١٣.
(٣) البغوي ١: ١٢٧؛ الثعلبي ١: ٢١٤.
(٤) الدرّ ١: ١٨٩؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٤.
(٥) تفسير مقاتل ١: ١١٤.
(٦) البرهان ١: ٢٤٦ / ٤؛ العيّاشي ١: ٦٥ / ٥٨؛ الصافي ١: ٢١٣؛ البحار ١٣: ٢٦٦ / ٦، باب ٩.

إسرائيل قتل قرابة له، ثمّ أخذه فطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ثمّ جاء يطلب بدمه. فقالوا لموسى عليه السلام: إنّ آل فلان قتلوا فلاناً فأخبرنا من قتله؟ قال: ائتوني ببقرة ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ﴾ يعني لاصغيرة ولا كبيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة لأجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل فقال: لاأبيعها إلّا بملاء مسكها ذهباً فجاؤوا إلى موسى عليه السلام فقالوا له ذلك، فقال: اشتروها، فاشتروها وجاؤوا بها، فأمر بذبحها ثمّ أمر أن يُضرب الميّت بذَنَبها، فلمّا فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله إنّ ابن عمّي قتلني دون من يدّعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله، فقال موسى عليه السلام لبعض أصحابه: إنّ هذه البقرة لها نبأ! فقال: وما هو؟ قال: إنّ فتى من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه وإنّه اشترى سلعة فجاء إلى أبيه والأقاليد تحت رأسه فكره أن يُوقظه فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره، فقال له: أحسنت، خذ هذه البقرة فهو لك عوضاً لما فاتك، ثمّ قال موسى عليه السلام: انظروا إلى البرّ ماذا يبلغ بأهله!»[1]

التشديد في التكليف عقوبةٌ

قد تكرّر في قصّة ذبح البقرة: أنّ بني إسرائيل شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، ولو أنّهم لأوّل مرّة عمدوا إلى أيّة بقرة فذبحوها لأجزأت وسقط التكليف عنهم غير أنّهم تمحّلوا في السؤال والتنقيب حتّى تورّطوا في عسر التكليف الأمر الذي هم جلبوه على أنفسهم.

---

(١) العيون ٢: ١٦ـ١٧ / ٣١، باب ٣٠؛ العيّاشي ١: ٦٤ـ٦٥ / ٥٧؛ البحار ١٣: ٢٦٢ـ٢٦٣ / ٢، باب ٩؛ نورالثقلين ١: ٨٧ـ٨٨؛ البرهان ١: ٢٤٤ـ٢٤٥ / ٢. وقريب منه ما رواه القمّي في التفسير ١: ٤٩. وهكذا في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٢٧٣.

وهنا يتوجّه سؤال: كيف يزداد قيدُ تكليفٍ وَرَدَ مطلقاً وكان يكفي امتثاله لحينه، الأمر الذي يؤذن بوجود كمال المصلحة حينذاك إذن فكيف تتغيّر المصلحة بسبب مراودة جاهل، لا رابط بينه وبين الحِكَم والمصالح الواقعيّة، والتي يراعيها الشارع الحكيم؟!

ولأبي جعفر الطبري[1] هنا بحث عريض في ضوء مباني علم الأصول في مباحث العامّ والخاصّ، حيث يرد تكليف متعلّق بموضوع عامّ مثل: اعتق رقبة. وبعد فترة طويلة وربما عشرات السنين يأتي التقييد بالمؤمنة وقد كان المكلّفون في الشريعة يأخذون بصيغة العام أو المطلق قبل مجيء الخاص أو القيد وكان يجزيهم العمل به على إطلاقه أمّا و بعد ورود الخاصّ أو التقييد، لا يُجزي إلّا مع القيد؟

ومن ثمّ قال بعض الأصوليّين: إنّه بالنسخ أشبه منه إلى التخصيص أو التقييد! لأنّ النسخ، رفع حكم سابق بتشريع حكم لاحق، وهنا قد ارتفع الحكم العام بتشريع التخصيص.

أمّا التخصيص فهو شرح لواقع المراد، أي أنّ دليل الخاصّ يكشف عن كون المراد من العام ـ من الأوّل ـ هو هذا الخاصّ لا العموم البادي حينذاك.

ولازم ذلك أنّ التكليف من أوّل أمره كان متعلّقاً بالعام المخصّص، فالآخذ بالعام من غير مراعاة التخصيص، لم يأت بمراد الشارع فلم يكن ممتثلاً للتكليف الواقعي فلا يجزيه ما أتى به وعليه التدارك بالإعادة أو القضاء!!

غير أنّ الفقهاء ملتزمون بالاجتزاء وكفاية ما أتى به حينذاك، وقد امتثل تكليفه وإن كان بعد ورود الخاصّ يجب العمل به بالذات ولازم ذلك هو القول بالنسخ، لوجود خواصّه.

نعم ذكر المتأخّرون: أنّ الحكم العامّ الصادر أوّلاً على عمومه، إنّما هو حكم ظاهريّ ولعلّه تسهيلاً على المكلّفين، وإن لم يكن مراداً به العموم حينذاك، ولكنّهم رخّصوا في الأخذ به لحكمة التسهيل ثمّ بعد ذلك يأتي البيان الشارح للمقصود، والمبيّن لصلب التكليف في قالبه الخاصّ.

قلت: والأمر هنا يختلف عن ذاك المبحث الأصوليّ العريق إذ يبدو من لحن الخطاب في الآية

---

(١) الطبري ١: ٤٩٤ ـ ٤٩٦.

الكريمة، أنّ التكليف في واقعه كان مطلقاً وكان يكفيهم أن يذبحوا بقرةً أيّة بقرةٍ كانت، حيث الغرض أن يضربوا ببعضها القتيل، الأمر الذي كان لا يخصّ بقرةً معيّنة.

[٢/ ٢٤٢٠] وبذلك وردت الرواية عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفرﷺ ـ على ما رواه العيّاشي ـ قال: «إنّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرةً، وإنّما كانوا يحتاجون إلى ذَنَبها»[1].

لكنّهم لسوء حظّهم أخذوا في التمحّل والتعمّل، فعوقبوا بشدّة التكليف من غير أن يكون منوطاً بحكمة إحياء القتيل. نعم ربما هناك حكمة أخرى كانت خفيّة هو إثراء مؤمن في سبيل طاعة الله، على ما ورد في بعض الروايات.

* * *

وللشيخ أبي علي الطَبْرَسي هنا تحقيق لطيف يدور حول محوريّة مباني علم الأصول.

قال: ونذكر هنا فصلاً موجزاً ينجذب إلى الكلام في أصول الفقه. قال: اختلف العلماء في هذه الآيات، فمنهم من ذهب، إلى أنّ التكليف فيها متغاير، وأنّهم لمّا قيل لهم: اذبحوا بقرة، لم يكن المراد منهم إلّا ذبح أيّ بقرة شاؤوا من غير تعيين بصفة. ولو أنّهم ذبحوا أيّ بقرةٍ اتّفقت لهم كانوا قد امتثلوا الأمر، فلمّا لم يفعلوا كانت المصلحة أن يُشدّد عليهم التكليف. ولمّا راجعوا المرّة الثانية تغيّرت مصلحتهم إلى تكليف ثالث.

ثمّ اختلف هؤلاء من وجه آخر، فمنهم من قال في التكليف الأخير: إنّه يجب أن يكون مستوفياً لكلّ صفة تقدّمت.

فعلى هذا القول يكون التكليف الثاني والثالث ضمّ تكليف إلى تكليف، زيادة في التشديد عليهم، لما فيه من المصلحة.

ومنهم من قال:إنّه يجب أن يكون بالصفة الأخيرة فقط دون ما تقدّم.

وعلى هذا القول يكون التكليف الثاني نسخاً للأوّل، والتكليف الثالث نسخاً للثاني. وقد جوّز نسخ الشيء قبل الفعل، لأنّ المصلحة يجوز أن تتغيّر بعد فوات وقته. وإنّما لا يجوز نسخ الشيء قبل

---

(١) العيّاشي ١: ٦٥/ ٥٨.

وقت العمل، لأنّ ذلك يؤدّي إلى البداء!

وذهب آخرون إلى أنّ التكليف واحد، وأنّ الأوصاف المتأخّرة هي للبقرة المتقدّمة، وإنّما تأخّر البيان!

قال: وهو مذهب المرتضى ـ قدّس الله روحه ـ واستدلّ بهذه الآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة. قال: إنّه تعالى لمّا كلّفهم ذبح بقرة قالوا لموسى ﷺ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾. فلا يخلو قولهم «ماهي» من أن يكون كناية عن البقرة المتقدّم ذكرها، أو عن التي أُمروا بها ثانياً! والظاهر من قولهم: «ماهي» يقتضي أن يكون السؤال عن صفة البقرة المأمور بذبحها، لأنّه لا علم لهم بتكليف ذبح بقرة أخرى فيستفهموا عنها، وإذا صحّ ذلك فليس يخلو قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَ لَا بِكْرٌ﴾ من أن يكون الهاء فيه كناية عن البقرة الأُولى أو عن غيرها، وليس يجوز أن يكون كناية عن بقرة ثانية، لأنّ الظاهر يقتضي أن تكون الكناية متعلّقة بما تضمّنه سؤالهم.

ولأنّه لو لم يكن الأمر على ذلك لم يكن جواباً لهم. وقول القائل في جواب من سأله ما كذا وكذا: إنّه بالصفة الفلانيّة، صريح في أنّ الهاء كناية عمّا وقع السؤال عنه. هذا مع قولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾فإنّهم لم يقولوا ذلك إلّا وقد اعتقدوا أنّ خطابهم مجمل غير مبيَّن. ولو كان الأمر على ما ذهب إليه القوم، فَلِمَ لم يقل لهم: وأيّ تشابه عليكم؟ وإنّما أُمرتم في الابتداء بذبح بقرة أيّة بقرة كانت. وفي الثاني بما يختصّ بالسّنّ المخصوص. وفي الثالث بما يختصّ باللون المخصوص من أيّ البقر كان.

قال المرتضى: وأمّا قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فالظاهر أنّ ذمّهم مصروف إلى تقصيرهم أو تأخيرهم امتثال الأمر بعد البيان التامّ، وهو غير مقتضٍ ذَمَّهم على ترك المبادرة في الأوّل إلى ذبح بقرة. فلا دلالة في الآية على ذلك[1].

(١) مجمع البيان ١: ١٣٦. وراجع: الأمالي للمرتضى ٢: ١٢٧. والبحث مذيّل لخّصه الطبرسي في التفسير. وأورده المجلسي في البحار ١٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٥. وله تذييل عليه فراجع.

قال تعالى:

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

وهذه الآية جاءت تعقيباً على قصّة البقرة، والتي كانت بحيث من شأنها أن تستجيش في قلوب بني إسرائيل الحسّاسيّة والخشية والتقوى؛ وكذلك جاءت تعقيباً على ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة لتبرهن العكس لكلّ ما كان يتوقّع ويترقّب وفقاً لطبيعة إسرائيل المنتكسة.

نعم بدلاً من أن تلين قلوبهم، قست وأصبحت كالحجارة وهي صخرة صلدة غير أنّ قلوبهم أجدب وأقسى فإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، المنهملة من عيون تتفجّر من خلال صخور الجبال. ومنها ما تتشقّق أو تهبط من خشية الله، انصياعاً لنظام الكون ولكن قلوبهم لاتنصدع ولا تتخشّع ولاتلين لذكر الله مهما كثر التذكار وتتابعت العبر والعظات ومن ثمّ هذا التهديد: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وبهذا يختتم هذا الشوط من الجولة مع بني إسرائيل في تأريخهم الحافل بالكفر والجحود، والالتواء واللجاجة، والكيد والقسوة، والتمرّد والفسوق.

* * *

[٢٤٢١/٢] روي عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام قال ـ في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ ـ: «عست[١] وجفّت ويَبُسَت قلوبهم من الخير والرحمة، ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما تبيّنت الآياتُ الباهرات. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ اليابسة لا تُرشّح برطوبة، ولا يَنْتفض[٢] منها ما يُنتفع به فلا يؤدّون حقًّا

(١) يقال: عسى النباتُ: غَلُظ وصَلُب. وعست يده: غلظت من العمل. والليل: اشتدّت ظلمته.

(٢) يقال: نفض الزرع: خرج آخر سنبله. ونفض الكرم: تفتّحت عنا قيده.

لله واجباً، ولا من أموالهم يتصدّقون، ولا يقومون بمعروف، ولا الضيف يُقرون، ولا مكروباً يغيثون، ولا بشيء من الإنسانيّة يعاشرون أو يعاملون.

قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ليس ترديداً من القائل أو استدراكاً، وإنّما هو على طريقة الإبهام على السامع. أي بأيّهما قلت فقد أصبت، فهم بين هذا وذاك.. والاستدراك إنّما هو لتدارك الغلط ولا خطأ من العالم الحكيم وهذا كقول أحدهم: لاخير فيهم لا في قليل ولا في كثير.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ...﴾ بيان لكون قلوبهم أشدّ قسوة.

قال: وهذا الذي وصف الله به قلوبهم جاء نظيره في سورة النساء: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾[1].

وما وصف به الأحجار هنا، جاء نحوه في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هذا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[2].

قال: وهذا التقريع لليهود ومن على شاكلتهم، استغلظه يهود المدينة فأتى رؤساؤهم وذوو الألسن والبيان منهم رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمّد! قد هجوتنا وادّعيت على قلوبنا ما يعلم الله خلافه، إنّ في قلوبنا الخير الكثير، نصوم ونتصدّق ونواسي الفقراء!

فقال رسول الله ﷺ: إنّما الخير ما أُريد به وجه الله تعالى، وعمل على أمره تعالى. فأمّا الرياء والسمعة ومنابذة الرسول والاستكبار على الله فليس بخير، بل هو شرٌّ محض ووبال على صاحبه، يعذّبه الله به أشدّ العذاب.

فقال اليهود: إنّما نريد بذلك منابذتك حسبةً لله تعالى، فيما نعتقده!

فقال رسول الله: يا إخوة اليهود إنّ الدعاوى يتساوى فيها المحقّون والمبطلون، ولكن حجج الله ودلائله واضحة لائحة تميّز المبطلين عن المحقّين.

قال رسول الله: وأنا بسمتي رسول الله لا أغتنم جهلكم ولا أكلّفكم التسليم لي بغير حجّة، ولكن

(١) النساء ٤: ٥٣.

(٢) الحشر ٥٩: ٢١.

لأقيم عليكم الحجّة من الله مالا يمكنكم الدفاع ولا تطيقون الامتناع»[١].

[٢٤٢٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾: فشبّه قلوبهم حين لم تلن بالحجارة في الشدّة، ثمّ عذّر الحجارة وعاب قلوبهم، فقال: فهي كالحجارة في القسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثمّ قال: ﴿وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ ماهي ألين من قلوبهم فمنها ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا﴾ يعني ما ﴿يَشَّقَّقُ﴾ يعني يتصدّع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يقول من بعض الحجارة الذي يهبط من أعلاه فهؤلاء جميعاً ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يفعلون ذلك، وبنو إسرائيل لايخشون الله ولا ترقّ قلوبهم، كفعل الحجارة ولا يُقبلون إلى طاعة ربّهم. ثمّ وعدهم فقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي[٢].

[٢٤٢٣/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال: إنّ الحجر ليقع على الأرض، ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه، وإنّه ليهبط من خشية الله[٣].

[٢٤٢٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما جفّت الدموع إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب»[٤].

[٢٤٢٥/٢] وروى الكليني بإسناده إلى عمروبن عثمان عن عليّ بن عيسى رفعه قال: فيما ناجى الله ـ عزّ وجلّ ـ به موسى عليه السلام: يا موسى لا تُطوّل في الدنيا أَمَلَك فيقسو قلبُك، والقاسي القلب منّي بعيد[٥].

(١) تفسير الإمام: ٢٨٣ ـ ٢٨٦. وأخرجه القطب الراوندي في الخرائج والجرائح (٢: ٥١٩ / ٢٨) في أعلام النبوّة. والبحار ٩: ٣١٢ و ١٧: ٣٣٥. ومع تصرّف يسير في بعض العبائر.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١١٦.

(٣) الدرّ ١: ١٩٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٤٧ / ٧٦٢.

(٤) نورالثقلين ١: ٩٢؛ العلل ١: ٨١ / ١، باب ٧٤؛ البحار ٦٧: ٥٥ / ٢٤، باب ٤٤؛ كنز الدقائق ٢: ٥٥.

(٥) نورالثقلين ١: ٩٢؛ الكافي ٢: ٣٢٩ / ١، كتاب الايمان والكفر، باب القسوة؛ البحار ٧٠: ٣٩٨ / ٣، باب ١٤٥؛ كنزالدقائق ٢: ٥٥.

قال تعالى:

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

وهذا استعراض آخر لمواقف بني إسرائيل الشنيئة، جاءت حاضرة العالم الإسلامي في بدء نشوئه و تشكلّه في مدينة الرسول وإذا هي امتداد لمواقفهم الأُولى مع أنبيائهم حذو النعل بالنعل، ملؤها القسوة والجفاء والتعنّت واللجاج.

والخطاب في هذه الآيات إلى الجماعة المسلمة ليأخذوا حذرهم من هؤلاء الّذين مرنوا على المكر والخداع، بشتّى وسائلهم وأساليبهم في إيقاع الفتنة وبثّ الفساد في الأرض يحذّرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلّتهم المنحرفة. فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم الكاذبة ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل.

نعم كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صوّر الله بها قلوب بني إسرائيل في آيات سبقت، صورة الحجارة الصلدة التي لا تنضّ منها قطرة، ولا يلين لها مسّ، ولا تنبض فيها حياة وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية وفي ظلّ هذا التصوير، وظلّ هذا الإيحاء، يلتفت السياق إلى المؤمنين، الّذين يطمعون ـ لحسن نيّتهم ـ في هداية هؤلاء الأشاكس الطباع، وربما يحاولون أن يبثّوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس والقنوط.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾! ـ استفهام تعجيب وتيئيس ـ ﴿وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ ـ يخونون في أداء رسالة الله ـ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ ـ وفهموه على حقيقته التي لا ريب فيها ـ ﴿وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فكانوا عن عمد وسوء نيّة يحرّفون الكلم عن مواضعه.

فلا مطمع في أن يؤمن أمثال هؤلاء. فللإيمان الصادق طبيعة أخرى واستعداد آخر: إنّ الطبيعة المؤمنة سمحة هيّنة ليّنة، مفتّحة المنافذ للأضواء وللاتّصال بالنبع الأزلي الخالد أمّا الفريق المشار إليه هم أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم، وهم الأحبار وكبراء القوم، كانت طبيعتهم سبخة سمجة ذات انحراف شديد.. ومن ثمّ لاتنصاع للحقّ إلّا فيما وافق مطامعهم. وفيما عدا ذلك يؤوّلون النصّ الصريح حيث ساق بهم الهوى.

ومن ثمّ هذا التخاتل والنفاق الفاضح، كانوا ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوٓا﴾ عن خبث ولؤم: ﴿آمَنَّا وَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا﴾ عقاباً لمن صرّح بالحقّ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أتحدّثون المسلمين ـ بكلّ بساطة ـ بما فتح الله عليكم من صدق شريعة الله النازلة على محمّد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يلزموكم يوم القيامة بما اعترفتم به من الحقّ، فيكون حجّة عليكم! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتعقّلون المصلحة في الكتمان والمفسدة في الإفشاء.

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وهم يضيفون إلى خراب الذمّة وكتمان الحقّ وتحريف الكلم عن مواضعه، الرياء والنفاق والخداع والمراوغة؟!

كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنّا بأنّ محمّداً مرسل، بحكم ما عندنا من دلائل نبوّته والبشارة بمقدمه، وبحكم أنّهم كانوا ينتظرون بعثته، ويتوقّعون أن ينصرهم الله به على من عداهم ﴿وَ كَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1].

ولكن عند ما كان يختلي بعضهم إلى بعض، عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحّة رسالة الإسلام وأنّ ذلك سيعود حجّة لهم عليكم؟!

وهنا نراهم قد تداركتهم طبيعتهم المحتجبة عن معرفته تعالى وأنّه يعلم ما في الصدور. وأنّه سوف يؤاخذهم على نيّاتهم وسوء تصرّفاتهم، سواء أخفوها أم أعلنوها ﴿أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾؟!

* * *

---

(١) البقرة ٢: ٨٢.

وبعد فإليك ما ورد من أحاديث السلف بشأن هذه الآيات:

[٢٤٢٦/٢] قال مقاتل بن سليمان قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: أي النبيّ ﷺ وحده. ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: أن يصدّقوا قولك يا محمّد! يعني يهود المدينة. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ على عهد موسى ﷺ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وذلك أنّ السبعين الّذين اختارهم موسى حين قالوا أرنا الله جهرة فعاقبهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وأماتهم عقوبة، وبقي موسى وحده، يبكي فلمّا أحياهم الله ـ سبحانه ـ قالوا: قد علمنا الآن أنّك لم تر ربّك ولكن سمعت صوته فأسمعنا صوته! قال موسى: أمّا هذا فعسى! قال موسى: يا ربّ إنّ عبادك هؤلاء بني إسرائيل يحبّون أن يسمعوا كلامك! فقال: من أحبّ منهم أن يسمع كلامي فليعتزل النساء ثلاثة أيّام، وليغتسل اليوم الثالث وليلبس ثياباً جدداً، ثمّ ليأتي الجبل فأسمعه كلامي! ففعلوا ذلك ثمّ انطلقوا مع موسى إلى الجبل، فقال لهم موسى: إذا رأيتم السحابة قد غشيت، ورأيتم فيها نوراً وسمعتم فيها صوتاً، فاسجدوا لربّكم وانظروا ما يأمركم به، فافعلوا. قالوا: نعم، فصعد موسى ﷺ الجبل فجاءت الغمامة فحالت بينهم وبين موسى، ورأوا النور وسمعوا صوتاً كصوت الصور، وهو البوق، فسجدوا وسمعوه وهو يقول: إنّي أنا ربّكم لا إله إلّا أنا الحيّ القيّوم، وأنا الذي أخرجتكم من أرض مصر بيد رقيقة[1] وذراع شديد فلا تعبدوا إلهاً غيري، ولا تشركوا بي شيئاً ولا تجعلوا لي شِبْهاً فإنّكم لن تروني، ولكن تسمعون كلامي. فلمّا أن سمعوا الكلام ذهبت أرواحهم من هول ما سمعوا ثمّ أفاقوا وهم سجود. فقالوا لموسى ﷺ: إنّا لانطيق أن نسمع كلام ربّنا، فكن بيننا وبين ربّنا، فليقل لك وقل أنت لنا. قال موسى: يا ربّ إنّ بني إسرائيل لم يطيقوا أن يسمعوا كلامك فقل لي أقل لهم. قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: نعم ما رأوا!

فجعل الله ـ عزّ وجلّ ـ يأمر موسى ثمّ يخبرهم موسى ويقولون سمعنا ربّنا وأطعنا. فلمّا فرغ من أمره ونهيه ارتفعت السحابة وذهب الصوت، فرفع القوم رؤوسهم ورجعوا إلى قومهم. قيل لهم: ماذا أمركم به ربّكم ونهاكم عنه؟ فقال بعضهم: أمرنا بكذا وكذا، ونهانا عن كذا وكذا. وقال آخرون... وأَتْبَعَ في آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما نهاكم عنه فافعلوا ما تستطيعون. فذلك قوله سبحانه:

(١) في نسخة: رفيقة. وفي أخرى: رفيعة.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني طائفة من بني إسرائيل ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم حرّفوا الكلام!![(١)]

[٢٤٢٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ قال: يعني أصحاب محمّد ﷺ أن يؤمنوا لكم، يقول: أفتطمعون أن يؤمن لكم اليهود؟[(٢)]

[٢٤٢٨/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: ثمّ قال الله لنبيّه ومن معه من المؤمنين يؤيّسهم منهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾. وليس قوله: يسمعون التوراة، كلّهم قد سمعها، ولكنّهم الّذين سألوا موسى رؤية ربّهم فأخذتهم الصاعقة فيها![(٣)]

[٢٤٢٩/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال: هي التوراة حرّفوها[(٤)].

[٢٤٣٠/٢] وأخرج عن ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها عليهم يحرّفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً، والحقّ فيها باطلاً والباطل فيها حقّاً، إذا جاءهم المحقّ برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محقّ، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حقّ ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحقّ، فقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(٥)].[(٦)]

[٢٤٣١/٢] وأخرج عن محمّد بن إسحاق، قال: بلغني عن بعض أهل العلم أنّهم قالوا لموسى: يا موسى قد حيل بيننا وبين رؤية الله ـ عزّ وجلّ ـ فأسمعنا كلامه حين يكلّمك! فطلب ذلك موسى إلى ربّه، فقال: نعم، فمُرْهم فليتطهّروا وليطهّروا ثيابهم ويصوموا! ففعلوا، ثمّ خرج بهم حتّى أتى الطور، فلمّا غشيهم الغمام أمرهم موسى ﷺ، فوقعوا سجوداً، وكلّمه ربّه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم،

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١١٦ـ١١٧. (٢) الطبري ١: ٥١٨ / ١٠٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٤٨ / ٧٦٩.

(٣) الدرّ ١: ١٩٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٤٨ / ٧٦٨ و ٧٧٠؛ الطبري ١: ٥٢٠ / ١١٠١؛ ابن كثير ١: ١١٩.

(٤) الدرّ ١: ١٩٨؛ الطبري ١: ٥١٩ ـ ٥٢٠ / ١٠٩٨؛ ابن كثير ١: ١١٩.

(٥) البقرة ٢: ٤٤. (٦) الطبري ١: ٥٢٠ / ١٠٩٩؛ ابن كثير ١: ١١٩.

حتّى عقلوا ما سمعوا، ثمّ انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلمّا جاؤوهم حرّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إنّ الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذي ذكرهم الله: إنّما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ لهم. فهم الّذين عنى الله لرسوله محمّد ﷺ[1].

* * *

ولكن قال أبو عبدالله القرطبي: هذا قول الربيع وابن إسحاق، وفي هذا القول ضعف. ومن قال: إنّ السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم. وقد قال السُّدِّي وغيره: لم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعيده لهم، فلمّا فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيّهم موسى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2]!

فإن قيل:

[٢٤٣٢/٢] فقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس أنّ قوم موسى سألوه أن يسأل ربّه أن يُسمعهم كلامه، فسمعوا صوتاً كصوت الشَّبُّور[3]: «إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا الحيّ القيّوم، أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديد»!

قلت: هذا حديث باطل لايصحّ، روي بسند ضعيف، وإنّما الكلام شيء خُصَّ به موسى من بين جميع ولد آدم. فإن كان الله قد كلّم قومه أيضاً حتّى أسمعهم كلامه، فما فضل موسى عليهم؟! وقد قال تعالى ـ وقوله الحقّ ـ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[4]. وهذا واضح[5].

[٢٤٣٣/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية. قال: فالذين يحرّفونه والّذين يكتمونه هم العلماء منهم، والّذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم

(١) الطبري ١: ٥٢٠ / ١١٠٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٤٨ / ٧٧٢؛ ابن كثير ١: ١١٩.

(٢) التوبة ٩: ٦.

(٣) على وزان التَّنُّور: البوق. ولعلّه معرّب «شيپور» الفارسيّة.

(٤) الأعراف ٧: ١٤٤.

(٥) القرطبي ٢: ٢.

هؤلاء كلّهم يهود[١].

[٢٤٣٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العاليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمّدﷺ فحرّفوه عن مواضعه[٢].

[٢٤٣٥/٢] وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود وكانوا يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه بعد ما سمعوه ووعوه[٣].

[٢٤٣٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ قال: يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمّدﷺ قالوا آمنّا. وقوله ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بما أكرمكم به[٤].

[٢٤٣٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني صَدَّقنا بمحمد ﷺ بأنّه نبيّ. وذلك أنّ الرجل المسلم كان يلقى من اليهود حليفه أو أخاه من الرضاعة فيسأله: أتجدون محمّداً في كتابكم؟ فيقولون: نعم، إنّ نبوّة صاحبكم حقّ وإنّا نعرفه! فسمع كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد ومالك بن الضيف وجدي بن أخطب، فقالوا لليهود في السرّ: أتحدّثون أصحاب محمّدﷺ بما فتح الله لكم يعني بما بيّن لكم في التوراة من أمر محمّدﷺ فذلك قوله تعالى: [﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾] ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ يعني ليخاصموكم ﴿بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ باعترافكم أنّ محمّداًﷺ نبيّ ثمّ لاتتابعوه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أفلا ترون أنّ هذه حجّة لهم عليكم؟![٥].

قال أبو إسحاق الثعلبي: هو أنّ الرجل من المسلمين كلّما ياقى قرينه وحليفه وصديقه من اليهود فيسأله عن أمر محمّدﷺ فيقولون: إنّه لحقّ. فيقولون: قد أقررتم إنّه نبيّ حقّ في كتابكم ثمّ لا تتّبعونه وهو نبيّ؟! فيرجعون إلى رؤسائهم فيلومونهم على ذلك.

---

(١) الدرّ ١: ١٩٨؛ الطبري ١: ٥١٩ / ١٠٩٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٤٩ / ٧٧٣، بلفظ: «فالّذين يحرّفونه، والّذين يعلمونه، العلماء منهم والأمّيّون. يقول: فهؤلاء كلّهم يهود». (٢) ابن أبي حاتم ١: ١٤٩ / ٧٧٥.

(٣) المصدر: ٧٧٦. (٤) الدرّ ١: ١٩٩؛ الطبري ١: ٥٢٢ / ١١٠٤.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١١٧ـ ١١٨.

قال:

[٢٤٣٨/٢] قال السدّي: كان ناس من اليهود آمنوا ثمّ نافقوا وكانوا يحدّثون المؤمنين بما عُذّبوا به. فقال لهم رؤساؤهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أنزل من العذاب!! ليعيروكم به ويقولوا: نحن أكرم على الله منكم؟[١]

قال أبو محمّد البغوي: وذلك أنّهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتّباع محمّد ﷺ: آمنوا به فإنّه حقّ. ثمّ قال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليكون لهم الحجة عليكم.

وقيل: إنّهم أخبروا المؤمنين بما عذّبهم الله به على الجنايات. فقال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجّوكم به عند ربّكم، ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله[٢].

[٢٤٣٩/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي قال: نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا ثمّ نافقوا، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عُذّبوا به، فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ليقولوا نحن أحبّ إلى الله منكم وأكرم على الله منكم![٣]

[٢٤٤٠/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ﴾ قال: كانوا يقولون: إنّه سيكون نبيٌّ فجاء بعضهم إلى بعض فقالوا: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحتجوا به عليكم[٤].

[٢٤٤١/٢] وعن أبي عُبيدة والأخفش في قوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قالا: أي بما منّ الله عليكم وأعطاكم![٥]

وأخرجه الثعلبي عن الواقدي[٦].

[٢٤٤٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: يعني بما قضى لكم وعليكم[٧].

---

(١) الثعلبي ١: ٢٢٢ ـ ٢٢٣. (٢) البغوي ١: ١٣٦.

(٣) الدرّ ١: ١٩٩؛ الطبري ١: ٥٢٣ / ١١٠٦؛ و ٥٢٤ ـ ٥٢٥ / ١١١٤. ابن أبي حاتم ١: ١٤٩ ـ ١٥٠ / ٧٧٩ و ٧٨٣.

(٤) عبدالرزّاق ١: ٢٧٧ / ٧٨؛ ابن كثير ١: ١٢٠. (٥) أبو الفتوح ٢: ٢١؛ التبيان ١: ٣١٦.

(٦) الثعلبي ١: ٢٢٢؛ البغوي ١: ١٣٥. (٧) ابن أبي حاتم ١: ١٥١ / ٧٨٤؛ ابن كثير ١: ١٢٠.

[٢٤٤٣/٢] وروي عن الحسن في قوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ قال: أي في ربّكم فيكونوا أولى منكم إذا كانت حجّتهم عليكم(١).

[٢٤٤٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم فقال: «يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت. فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمّداً، ما خرج هذا الأمر إلّا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بما حكم الله، ليكون لهم حجّة عليكم».(٢)

[٢٤٤٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ قال: قول يهود بني قريظة حين سبّهم النبي ﷺ بأنّهم إخوة القردة والخنازير، قالوا: من حدّثك؟ هذا حين أرسل إليهم عليّاً فآذوا محمّداً، فقال: «يا إخوة القردة والخنازير»(٣).(٤)

[٢٤٤٦/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قالوا: هم اليهود، كانوا إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا، فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم، وإذا خلا بعضهم إلى

---

(١) التبيان ١: ٣١٦؛ القرطبي ٢: ٤. بلفظ: وقيل: «عند» بمعنى «في» أي ليحاجّوكم به في ربّكم فيكونوا أحقّ به منكم، لظهور الحجّة عليكم. روي عن الحسن.

(٢) الدرّ ١: ١٩٩؛ الطبري ١: ٥٢٤ / ١١١٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٠ / ٧٨٢، بلفظ: «عن مجاهد قوله: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ...﴾ قال تقوله يهود من قريظة حين سبّهم محمّد بأنّهم إخوة القردة والخنازير. فقالوا: من حدّثك هذا؟ وذلك حين أرسل إليهم عليًّا وكانوا قد آذوا محمّداً فقال: يا إخوة القردة والخنازير»؛ ابن كثير ١: ١٢٠؛ القرطبي ٢: ٣ ـ ٤؛ البغوي ١: ١٣٦؛ التبيان ١: ٣١٥، عن أبي العاليه ومجاهد و قتادة.

(٣) قوله: «يا إخوة القردة والخنازير» من كلام النبي ﷺ وليس من كلام عليّ ؈.

(٤) الطبري ١: ٥٢٤ / ١١١٢؛ ابن كثير ١: ١٢٠، بتفاوت؛ القرطبي ٢: ٣ ـ ٤ بلفظ: وقيل: إنّ علياً لمّا نازل قريظة يوم خيبر سمع سبّ رسول الله ﷺ فانصرف إليه وقال: يا رسول الله لا تبلغ إليهم وعرّض له. فقال: أظنّك سمعت شتمي منهم، لو رأوني كفّوا عن ذلك. ونهض إليهم، فلمّا رأوه أمسكوا. فقال لهم: أنقضتم العهد يا إخوة القردة والخنازير، أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته. فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمّد، فلا تجهل علينا. من حدّثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلّا من عندنا! قال: روي هذا المعنى عن مجاهد؛ التبيان ١: ٣١٥، بتفاوت؛ مجمع البيان ١: ٢٧٢، بتفاوت.

بعض، نهى بعضُهم بعضاً أن يحدّثوا بما فتح الله عليهم وبيّن لهم في كتابه من أمر محمّد ﷺ ونعته ونبوّته، وقالوا: إنّكم إذا فعلتم ذلك احتجّوا عليكم بذلك عند ربّكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ. أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾ قال: ما يعلنون من أمرهم وكلامهم إذا لقوا الّذين آمنوا، وما يسرّون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمّد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم[١].

[٢٤٤٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلنّ علينا قصبة المدينة إلّا مؤمن! فقال رؤساء اليهود: اذهبوا فقولوا آمنّا، واكفروا إذا رجعتم إلينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر[٢] ويرجعون إليهم بعد العصر، وهو قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا آخِرَهُ﴾[٣] وكانوا يقولون: إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فكان المؤمنون يظنّون أنّهم مؤمنون، فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم في التوراة كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم قالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّـهُ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية»[٤].

[٢٤٤٨/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوٓا آمَنَّا﴾ أي بصاحبكم رسول الله، ولكنّه إليكم خاصّة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدّثوا العرب بهذا، فإنّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي يقرّون بأنّه نبيّ وقد علمتم أنّه قد أخذ عليكم الميثاق باتّباعه وهو يخبرهم أنّه النبي الذي كان يُنتظر ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به[٥].

[٢٤٤٩/٢] وقال عليّ بن إبراهيم إنّها نزلت في اليهود وقد كانوا أظهروا الإسلام وكانوا منافقين وكانوا إذا رأوا رسول الله قالوا: إنّا معكم، وإذا رأوا اليهود قالوا: إنّا معكم، وكانوا يخبرون المسلمين بما في التوراة من صفة رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم كبراؤهم وعلماؤهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ

---

(١) الدرّ ١: ٢٠٠؛ الطبري ١: ٥٢٤ و ٥٢٧ / ١١١٠ و ١١١٦.

(٢) البِكر: أوّل كلّ شيء. (٣) آل عمران ٣: ٧٢.

(٤) الدرّ ١: ١٩٩؛ الطبري ١: ٥٢٥ / ١١١٥؛ ابن كثير ١: ١٢٠.

(٥) الدرّ ١: ١٩٨؛ الطبري ١: ٥٢٣ / ١١٠٨؛ ابن كثير ١: ١١٩ ـ ١٢٥؛ مجمع البيان ١: ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ التبيان ١: ٣١٥.

اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فردّ الله عليهم فقال: ﴿أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ﴾[(١)].

[٢٤٥٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إنّ امرأة من اليهود أصابت فاحشة فجاؤوا إلى النبيّ ﷺ يبتغون منه الحكم، رجاء الرخصة! فدعا رسول الله ﷺ عالمهم وهو ابن صوريا، فقال له: احكم! قال: فَجَبُّوه[(٢)]. قال عكرمة: التجبئة: أن يحملوه على حمار ويجعلوا وجهه إلى ذَنَب الحمار (وهو المعروف بالتشهير).

فقال له رسول الله ﷺ: أبحكم الله حكمت؟ أو بما أُنزل على موسى؟ قال: لا. ولكن نساءنا كنّ حساناً فأسرع فيهنّ رجالنا، فغيّرنا الحكم.

قال عكرمة: وفيه أنزلت: ﴿وَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾. قال: إنّهم غيّروا الحكم منذ ستّمأة سنة[(٣)].

[٢٤٥١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: يعني بما أمركم الله به، فيقولون: إنّما نستهزىء بهم ونضحك![(٤)].

---

(١) القميّ ١: ٥٠؛ البرهان ١: ٢٥٧/٣؛ البحار ٩: ١٧٩ ـ ١٨٠/٧.

(٢) أي جبّؤوا المحكوم.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٥٠/٧٨٠.

(٤) الطبري ١: ٥٢٣/١١٠٧.

قال تعالى:

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن
كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

وهنا يستطرد القرآن يقصّ على المسلمين من أحوال بني إسرائيل: إنّهم فريقان، فريق أمّي جاهل، لايدري شيئاً من كتابهم سوى أوهام وظنون، وسوى أماني في النجاة في دار العقبى، على حساب أنّهم شعب الله المختار، المغفور له كلّ ما يعمل وكلّ ما يرتكب من آثام.

وفريق يستغلّ هذا الجهل وهذه الأمّيّة فيزوّر على كتاب الله، ويحرّف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة، ويكتم منه ما يشاء، ويبدى منه ما يشاء، ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه بين العوامّ باسم أنّه كتاب الله وشريعته كلّ هذا ليربح ويكسب، ويحتفظ بالرياسة والقيادة..

﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

إذن فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا للحقّ، وأن يستقيموا على الهدى وأن يخلصوا الإيمان الصادق بالإسلام والقرآن وشريعة السماء.

هيهات كيف يُنتظر الصلاح من ذوي الطباع المنحرفة المعوجّة؟!

نعم، إنّما يَنْتظرهم الويل والهلاك، لصنيعهم في تحريف الكتاب، ولابتغائهم الثمن البخس في مكسبهم الدنيء.

* * *

من تلك الأماني الجاهلة التي لاتستقيم مع منطق العدل، ولاتتّفق مع التصوّر الصحيح للعمل والجزاء. أن يحسبوا أنفسهم منجاةً من المؤاخذة والعذاب، لا عن مبرّر معقول، وإنّما هو على حساب الأوهام الفارغة ومن غير أساس.

«وقالوا ـ سفهاً ـ: لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودة أيّاماً قلائل ومن غير خلود قل: على أيّ أساس تدّعون هذه الدعوى الغريبة! هل اتّخذتم عندالله عهداً ومتى وأين هذا العهد؟ فلن يخلف الله عهده حيث دعواكم الجازمة! أم تقولون على الله ما لاتعلمون؟!».

وهذا هو التلقين الإلّهي للحجّة الدامغة: أين هذا العهد الّذي جزمتم به وأنّ الله لايخلفه؟! نعم ليس سوى الافتراء عليه سبحانه، وتقولون على الله مالاتعلمون، أي لاعلم لكم به وإنّما هي أوهام وظنون كاذبة. كما هو دأبكم في الكذب والاختلاق.

* * *

وهنا يأتي دور بيان الحقّ، الذي هو فصل الخطاب، وهو التصوّر الإسلامي النزيه في باب المثوبات والعقوبات: ﴿وَ أَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ﴾[1].

نعم ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وأصرّ عليها ولم يرعو إلى رشده ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُ﴾ حيث الدؤوب عليها وعدم الرجوع ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لأنّهم بذلك الدؤوب والإصرار على الذنب، هم مهّدوا هذا الخلود في مهاوي التيه والابتعاد عن رضوان الله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

هذه هي الصورة الكليّة من التصوّر الإسلامي النبيل، تنبع من فكرته الكلّيّة عن الكون والحياة والإنسان.. هذا الموجود الخالد.. إمّا في شقاء دائم، أو سعادة مع الأبد.

* * *

[٢٤٥٢/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يقول: من اليهود من لايقرأ التوراة إلّا أن يُحدِّثهم عنها رؤوس اليهود[2].

---

(١) النجم ٥٣: ٣٩ ـ ٤١.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١١٨.

[٢٤٥٣/٢] وقال عكرمة والضحاك: هم نصارى العرب(١).

[٢٤٥٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال: أمّيّون لايقرأون الكتاب، من اليهود(٢).

[٢٤٥٥/٢] وأخرج عن ابن عبّاس قال: الأمّيّون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله، ولاكتاباً أنزله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثمّ قالوا لقوم سفلة جُهّال: هذا من عند الله وقال: قد أخبرهم أنّهم يكتبون بأيديهم، ثمّ سمّاهم أمّيّين لجحودهم كتب الله ورسله(٣).

[٢٤٥٦/٢] وأخرج عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: منهم من لايُحسن أن يكتب(٤).

[٢٤٥٧/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: لا يدرون ما فيه ﴿وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهم يجحدون نبوّتك بالظنّ(٥).

[٢٤٥٨/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: ناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً. وكانوا يتكلّمون بالظنّ بغير ما في كتاب الله، ويقولون هو من الكتاب. أماني يتمنّونها(٦).

[٢٤٥٩/٢] وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ قال: إنّما هم أمثال البهائم لا يعلمون شيئاً.

---

(١) القرطبي ٢: ٥.

(٢) الطبري ١: ٥٢٨ / ١١٢٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٠٠؛ الطبري ١: ٥٢٨ / ١١٢٣، وقال الطبري بعد ذلك: وهذا التأويل على خلاف مايعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أنّ الأمّيّ عند العرب هو الذي لايكتب؛ ابن كثير ١: ١٢١؛ التبيان ١: ٣١٨.

(٤) الدرّ ١: ٢٠٠؛ الطبري ١: ٥٢٨ / ١١٢١؛ قال الطبري: «وأرى أنّه قيل للأمّي أمّي نسبة له بأنّه لايكتب، إلى أمّه، لأنّ الكتاب كان في الرجال دون النساء، فنسب من لايكتب ولايخطّ من الرجال إلى أمّه في جهله بالكتابة دون أبيه كما ذكرنا عن النبيّ ﷺ من قوله: «إنّا أمّة أمّيّة لانكتب ولانحسب» وكما قال: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] فإذا كان معنى الأمّي في كلام العرب ما وصفنا، فالذي هو أولى بتأويل الآية ما قاله النخعي من أنّ معنى قوله: ﴿وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: ومنهم من لايحسن أن يكتب»؛ ابن كثير ١: ١٢٠؛ عن أبي العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي.

(٥) الدرّ ١: ٢٠٠؛ الطبري ١: ٥٢٩ و٥٣٣ / ١١٢٦ و١١٣٦.

(٦) الدرّ ١: ٢٠٠؛ الطبري ١: ٥٣٠ / ١١٣٢.

وفي رواية قال: لايعلمون الكتاب ولايدرون ما فيه[١].

[٢٤٦٠/٢] وعن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: لا يدرون فيه[٢].

[٢٤٦١/٢] وعن ابن زيد قال: لايعلمون شيئاً، لايقرأون التوراة! ليست تستظهر، إنّما تقرأ هكذا، فإذا لم يكتب أحدهم لم يستطع أن يقرأ[٣].

[٢٤٦٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: إلّا أحاديث[٤].

[٢٤٦٣/٢] وروى أبو إسحاق الثعلبي عن الكلبي، قال في قوله: ﴿أَمَانِيَّ﴾: بمعنى: لايعلمون إلّا ما تحدّثهم به علماؤهم[٥].

قال الطبرسي: والأمنيّة، ذكر فيها وجوه أحدها: التلاوة.

وثانيها: أنّ المراد بالأمانيّ الأحاديث المختلقة، كما عن الفرّاء. والعرب تقول: أنت إنّما تتمنّى هذا القول أي تختلقه. وقال بعضهم: ما تمنّيت مذ أسلمت أي ما كذبت!

وثالثها: أنّ المراد بالأماني أنّهم يتمنّون على الله ماليس لهم، مثل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٦].

وقال الثعلبي: الأمانيّ الأحاديث المفتعلة[٧].

[٢٤٦٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: إلّا قولاً يقولون بأفواههم كذباً[٨].

[٢٤٦٥/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: إلّا كذباً ﴿وَ إِنْ

---

(١) الطبري ١: ٥٢٩ / ١١٢٤؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٧ / ٧٩. (٢) الطبري ١: ٥٢٩ / ١١٢٥.

(٣) المصدر / ١١٢٧.

(٤) الدرّ ١: ٢٠١؛ الطبري ١: ٥٣٠ / ١١٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٢ / ٧٩٢؛ ابن كثير ١: ١٢١؛ الوسيط ١: ١٦٢، بلفظ: «إلّا أحاديث لايعلمون إلّا ما حدثوا به».

(٥) الثعلبي ١: ٢٢٣؛ مجمع البيان ١: ٢٧٦.

(٦) مجمع البيان ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٧) الثعلبي ١: ٢٢٤؛ البغوي ١: ١٣٦؛ الوسيط ١: ١٦٢.

(٨) الدرّ ١: ٢٠١؛ الطبري ١: ٥٢٩ / ١١٢٨؛ ابن كثير ١: ١٢١؛ مجمع البيان ١: ٢٧٦؛ التبيان ١: ٣١٨، عن ابن عبّاس ومجاهد.

هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: إلّا يكذبون[1].

[٢٤٦٦/٢] وأخرج ابن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال: يتمنّون على الله ما ليس لهم[2].

[٢٤٦٧/٢] وكذا عن قتادة قال: يتمنّون على الله ما ليس لهم.

وفي رواية قال: يتمنّون على الله الباطل وما ليس لهم[3].

[٢٤٦٨/٢] وروي عن الإمام العسكري ﷺ قال: «قال الله: عزّ وجلّ: يا محمّد، ومن هؤلاء اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يقرأون الكتاب ولا يكتبون فالأُمّي منسوب إلى أمّه أي هو كما خرج من بطن أمّه لا يقرأ ولا يكتب ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ المنزل من السماء، ولا المكذّب به، ولا يميزون بينهما ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي إلّا أن يُقرأ عليهم ويُقال لهم: إنّ هذا كتاب الله وكلامه. لا يعرفون إن قُرِىء عليهم من الكتاب خلاف ما فيه ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إلّا ما يقول لهم رؤساؤهم... وهم يقلّدونهم».

قال: «قال رجل للصادق ﷺ: فإذا كان هؤلاء القوم لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم، وهل عوامّ اليهود إلّا كعوامّنا يقلّدون علماءهم، فإن لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لعوامّنا القبول من علمائهم؟ فقال ﷺ: بين عوامّنا وعلمائنا، وبين عوامّ اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة، أمّا من حيث أنّهم استووا فإنّ الله قد ذمّ عوامّنا بتقليدهم علماءهم، كما قد ذمّ عوامّهم، وأمّا من حيث أنّهم افترقوا فلا»، فقال الرجلّ: بيّن لي ذلك يا ابن رسول الله!

قال ﷺ: إنّ عوامّ اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وبأكل الحرام والرشا وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصّب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنّهم إذا تعصّبوا أزالوا حقوق من تعصّبوا عليه وأعطوا ما لا يستحقّه من تعصّبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعَرَفوهم بأنّهم يقارفون المحرمات، واضطرّوا بمعارف قلوبهم إلى أنّ من فعل ما يفعلونه، فهو فاسق لا يجوز أن يصدَّق على الله تعالى ولا على الوسائط بين

---

(١) الدرّ ١: ٢٠١؛ الطبري ١: ٥٣٠ و ٥٣٣ / ١١٢٩ و ١١٣٥؛ ابن كثير ١: ١٢١ ـ ١٢٢؛ الثعلبي ١: ٢٢٤؛ البغوي ١: ١٣٦ ـ ١٣٧، بلفظ: وقال مجاهد وقتادة: إلّا كذباً وباطلاً. وقال مجاهد: يكذبون؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥، عن مجاهد وقتادة والربيع.

(٢) الطبري ١: ٥٣٠ / ١١٣٣.

(٣) الطبري ١: ٥٣٠ / ١١٣٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٧ / ٧٩.

الخلق وبين الله، فلذلك ذمّهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنّه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته، ولا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله ﷺ، إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى وأشهر من أن لا تظهر لهم.

وكذلك عوامّ أمّتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبيّة الشديدة والتكالب على حطام الدنيا وحرامها وإهلاك من يتعصّبون عليه وإن كان لإصلاح أمره مستحقّاً، وبالترفّق بالبرّ والإحسان على من تعصّبوا له، وإن كان للإذلال والإهانة مستحقّاً، فمن قلّد من عوامّنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الّذين ذمّهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهائهم.

فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوامّ أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا في بعض الفقهاء دون بعض لا جميعهم فإنّه من ركب من القبائح والفواحش مراكب الفسقة فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً ولا كرامة لهم.

وإنّما كثر التخليط فيما يُتحَمّل عنّا أهل البيت لذلك، لأنّ الفسقة يتحمّلون عنّا فيحرّفونه بأسره لجهلهم ويضعون الأشياء على غير وجهها، لقلّة معرفتهم. وآخرون يتعمّدون الكذب علينا ليجرّوا من عرض الدنيا ما هو زادهم، إلى نار جهنم»[١].

من هو الأمّيّ؟

الأمّي هو الذي لا يقرأ في كتاب ولا يخطّ في قرطاس.

ولكن ما وجه نسبته إلى الأمّ؟

ذكر المشهور أنّ هذه النسبة جاءته من قِبَل كونه كيوم ولدته أمّه لا يعرف شيئاً لا القراءة ولا الكتابة.

ولكنّ أباجعفر الطبري ذكر وجهاً لعلّه أدقّ، قال:

«وأرى أنّه قيل للأمّيّ أمّي نسبة له إلى أمّه، لأنّ الكتابة ذلك العهد كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخطّ من الرجال إلى أمّه في جهله بالكتابة، دون أبيه..»[٢].

أي إنّه ورث الجهل بالكتابة من أمّه دون أبيه، إذ قد لعلّه كان يعرفها.

---

(١) تفسير الإمام: ٢٩٩؛ البحار ٢: ٨٦ / ١٢.
(٢) الطبري ١: ٥٢٨.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

[٢٤٦٩/٢] أخرج أحمد وهنّاد بن السّري في الزهد وعبدبن حميد والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار، وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبّان في صحيحه والحاكم في المستدرك وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخُدري عن رسول الله ﷺ قال: «ويل، وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»(١).

[٢٤٧٠/٢] وأخرج ابن جرير عن عثمان بن عفّان عن رسول الله ﷺ «في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: الويل جبل في النار، وهو الذي أُنزل في اليهود لأنّهم حرّفوا التوراة، زادوا فيها ما أحبّوا، ومحوا منها ما كانوا يكرهون، ومحوا اسم محمّد ﷺ من التوراة»(٢).

[٢٤٧١/٢] وأخرج البزّار وابن مردويه عن سعد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في النار حجراً يقال لها: ويل. يصعد عليه العُرَفاء(٣) وينزلون فيه»(٤).

[٢٤٧٢/٢] وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوّة عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: «الويح والويل بابان. فأمّا الويح فباب رحمة. وأمّا الويل فباب عذاب»(٥).

[٢٤٧٣/٢] وأخرج الحربي في فوائده عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ويحك يا عائشة...! فجزعت منها. فقال لي: يا حميراء إنّ ويحك أو ويك رحمة فلا تجزعي منها، ولكن اجزعي من الويل»(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٢٠١؛ مسند أحمد ٣: ٧٥؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٢٨٩ / ٩٢٤، باب مسند أبي سعيد الخدري؛ الترمذي ٥: ٣ـ٤ / ٣٢١٣، تفسير سورة الأنبياء؛ الطبري ١: ٥٣٤ / ١١٤٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٣ / ٧٩٨؛ صحيح ابن حبّان ١٦: ٥٠٨؛ الحاكم ٤: ٥٩٦، كتاب الأهوال؛ البعث: ٢٧١ / ٤٦٥؛ أبوالفتوح ٢: ٢٥؛ الثعلبي ١: ٢٢٤؛ البغوي ١: ١٣٧ / ٦٨؛ مجمع البيان ١: ٢٧٨؛ التبيان ١: ٣٢١؛ كنزالعمّال ٢: ١٢ / ٢٩٣٧.

(٢) الدرّ ١: ٢٠١؛ الطبري ١: ٥٣٤ و ٥٣٦ / ١١٤٣ و ١١٥١، وزاد فيه: فلذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ كنزالعمّال ٢: ٣٥٨ / ٤٢٣٤؛ التبيان ١: ٣٢١، بلفظ: هو جبل في النار.

(٣) العُرَفاء، جمع عَريف وهم العشّارون.

(٤) الدرّ ١: ٢٠١؛ مجمع الزوائد ٣: ٨٩، كتاب الزكاة، باب في العشّارين والعرفاء؛ كنزالعمّال ٦: ٨٢ / ١٤٩٤٢.

(٥) الدرّ ١: ٢٠٢.

(٦) الدرّ ١: ٢٠١.

[٢٤٧٤/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: ويل وادٍ في جهنّم يسيل منه صديد أهل النار، جعل للمكذّبين(١).

[٢٤٧٥/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال: الويل واد من قيح في جهنّم(٢).

[٢٤٧٦/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عطاء بن يسار قال: ويل، وادٍ في جهنّم لو سُيِّرت فيه الجبال لماعت من شدّة حرّه(٣).

[٢٤٧٧/٢] وأخرج هنّاد في الزهد وعبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عياض قال: ويل سيل من صديد في أصل جهنم. وفي لفظ: ويل واد في جهنم يسيل فيه صديدُه(٤).

[٢٤٧٨/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي عياض في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ قال: صهريج في أصل جهنم يسيل فيه صديدهم.

وفي أخرى: قال: الويل واد من صديد في جهنم(٥).

[٢٤٧٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى عفرة قال: إذا سمعتَ الله يقول: «ويل»، فهي النار(٦).

[٢٤٨٠/٢] وروى الكلبي عن ابن عبّاس قال: الويل الشدّة من العذاب(٧).

ما هو الويل؟

قد عرفت عن ابن عبّاس ـ برواية الكلبي ـ أنّه الشدّة من العذاب..

قال الأصمعي: وَيْلٌ، قُبْحٌ. وقد يستعمل على التحسّر. ووَيْس استصغار. وويح: ترحّم. ومـن

---

(١) الدرّ ١: ٢٠٢؛ الكبير ٩: ٢٢٨ / ٩١١٤، بلفظ: «ويل واد في جهنّم من قيح»؛ البعث: ٢٧٢ / ٤٦٧، باب ماجاء في أودية جهنّم؛ مجمع الزوائد ٧: ١٣٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٠٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٠٢؛ الزهد، ابن مبارك: ٩٥ / ٣٣٢، باب صفة النار؛ الطبري ١: ٥٣٦ / ١١٥٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٣ / ٨٠٠؛ البعث: ٢٧٢ / ٤٦٨؛ الوسيط ١: ١٦٣؛ البغوي ١: ١٣٧، عن سعيد بن المسيّب؛ ابن كثير ١: ١٢١.

(٤) الدرّ ١: ٢٠٢؛ الطبري ١: ٥٣٤ / ١١٤١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٣ / ٧٩٩؛ ابن كثير ١: ١٢١.

(٥) الطبري ١: ٥٣٤ / ١١٤١.

(٦) الدرّ ١: ٢٠٢.

(٧) الوسيط ١: ١٦٣.

قال: ويل وادٍ في جهنّم، فإنّه لم يُرد أنّ ويلاً في اللّغة هو موضوع لهذا، وإنّما أراد: من قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقّ مقرّاً من النار وثبت ذلك له[١].

[٢٤٨١/٢] روى ابن جرير وابن أبي حاتم بالإسناد إلى أبي العالية في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ قال: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمّد ﷺ، فحرّفوه عن مواضعه يبتغون بذلك عرضاً من عرض الدنيا، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

[٢٤٨٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ قال: عرضاً من عرض الدنيا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: ممّا يأكلون به الناس السفلة وغيرهم[٣].

[٢٤٨٣/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ سوى نعت محمّد ﷺ وذلك أنّ رؤوس اليهود بالمدينة محوا نعت محمّد ﷺ من التوراة وكتبوا سوى نعته وقالوا لليهود سوى نعت محمّد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هذا﴾ النعت ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ يعني عرضاً يسيراً ممّا يعطيهم سفلة اليهود كلّ سنة من زروعهم وثمارهم، يقول ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني في التوراة من تغيير نعت محمّد ﷺ ﴿وَ وَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من تلك المآكل على التكذيب بمحمّد ﷺ ولو تابعوا محمّداً ﷺ إذاً لحبست عنهم تلك المآكل[٤].

[٢٤٨٤/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس قال: وصف الله محمّداً ﷺ في التوراة، فلمّا قدم رسول الله ﷺ حسده أحبار اليهود فغيّروا صفته في كتابهم، وقالوا: لانجد نعته عندنا، وقالوا للسفلة: ليس هذا نعت النبيّ الذي يحرّم كذا وكذا كما كتبوه، وغيّروا نعت هذا كذا كما وصف فلبّسوا على الناس، وإنّما فعلوا ذلك لأنّ الأحبار كانت لهم مأكلة يطعمهم إيّاها السفلة لقيامهم على التوراة، فخافوا أن تؤمن السفلة فتنقطع تلك المأكلة[٥].

[٢٤٨٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ...﴾ الآية. قال: هم أحبار اليهود، وجدوا صفة النبي ﷺ مكتوبة في التوراة أكحل، أعين، ربعة، جعد الشعر،

---

(١) مفردات الراغب: ٥٣٥.
(٢) الطبري ١: ٥٣٦ / ١١٥٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٥ / ٨١١.
(٣) الدرّ ١: ٢٠٣؛ الطبري ١: ٥٣٥ و ٥٣٧ / ١١٤٦ و ١١٥٤.
(٤) تفسير مقاتل ١: ١١٨ـ ١١٩.
(٥) الدرّ ١: ٢٠٢.

حسن الوجه. فلمّا وجدوه في التوراة محوه حسداً وبغياً، فأتاهم نفرٌ من قريش فقالوا: تجدون في التوراة نبيّاً أميّاً؟ فقالوا: نعم، تجده طويلاً أزرق سَبْط الشعر[١]. فأنكرت قريش وقالوا: ليس هذا منّا[٢].

قوله تعالى: ﴿وَ قالوا لَنْ تَمَسَّنَا النّار﴾

[٢٤٨٦/٢] أخرج ابن جرير عن السدّي في قوله تعالى: ﴿وَ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قال: قالت اليهود: إنّ الله يدخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلة، حتّى إذا أكلت النار خطايانا واستنقتنا[٣]، نادى منادٍ: أخرجوا كلَّ مختون من ولد بني إسرائيل، فلذلك أُمرنا أن نختتن. قالوا: فلا يدعون منّا في النار أحداً إلّا أخرجوه[٤].

[٢٤٨٧/٢] وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: «لمّا افتتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. قال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقت وبررت. ثمّ قال لهم: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثمّ تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسأوا ـ والله ـ لانخلفكم فيها أبداً»[٥].

[٢٤٨٨/٢] وأخرج ابن جرير والبغوي عن أبي العالية، قال: قالت اليهود: إنّ ربّنا عتب علينا في أمرنا، فأقسم ليعذّبنا أربعين ليلة فلن تمسّنا النار إلّا أربعين يوماً، تحلّةً للقسم ثمّ يخرجنا! فأكذبهم الله![٦].

---

(١) السَّبط من الشعر: المنبسط المسترسل.

(٢) الدرّ ١: ٢٠٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٤ / ٨٠٥.

(٣) من النقاوة أي طهّرتنا النار.

(٤) الطبري ١: ٥٣٨ / ١١٥٧.

(٥) الدرّ ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٨؛ مسند أحمد ٢: ٤٥١، وليس فيه: «اخسأوا»؛ البخاري ٧: ٣٢؛ الدارمي ١: ٣٣ ـ ٣٤؛ النسائي ٦: ٤١٣ / ١١٣٥٥، تفسير سورة المؤمنون.

(٦) الطبري ١: ٥٣٨ / ١١٥٨؛ البغوي ١: ١٣٨، عن الحسن وأبي العالية.

[٢٤٨٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك في قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قال: قالت اليهود: لا نعذّب في النار يوم القيامة إلّا أربعين يوماً مقدار ما عبدنا العجل(١).

[٢٤٩٠/٢] وعن عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قالوا: أيّاماً معدودة بما أصبنا في العجل(٢).

[٢٤٩١/٢] وعن الضحاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قال: ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلّا تحلّة القسم، الأيّام التي أصبنا فيها العجل أربعين يوماً، فإذا انقضت عنّا تلك الأيّام، انقطع عنّا العذاب والقسم(٣).

[٢٤٩٢/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عبّاس أنّ اليهود كانوا يقولون: مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنّما نعذّب لكلّ ألف سنة من أيّام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنّما هي سبعة أيّام معدودات ثمّ ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ إلى قوله ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤).

[٢٤٩٣/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والواحدي عن ابن عبّاس قال: وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنّم مسيرة أربعين، فقالوا: لن يعذّب أهل النار إلّا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة أُلجموا في النار فساروا فيها حتّى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيّام المعهودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنّكم لن تعذّبوا في النار إلّا أيّاماً معدودة، فقد انقضى العدد وبقي الأبد، فيؤخذون في الصعود يرهقون على وجوههم(٥).

* * *

[٢٤٩٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ

---

(١) الطبري ١: ٥٤٠ / ١١٦٢.

(٢) الطبري ١: ٥٣٨ / ١١٥٦؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٨ / ٨١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٦ / ٨١٦.

(٣) الطبري ١: ٥٣٨ / ١١٥٥.

(٤) الدرّ ١: ٢٠٧؛ الطبري ١: ٥٤٠ / ١١٦٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٥ / ٨١٣؛ الكبير ١١: ٧٩؛ أسباب النزول: ١٦؛ الوسيط ١: ١٦٤.

(٥) الدرّ ١: ٢٠٧؛ الطبري ١: ٥٣٩ / ١١٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٦ / ٨١٧؛ أسباب النزول: ١٦.

عَهْداً﴾ أي موثقاً من الله بذلك أنّه كما تقولون[(١)].

[٢٤٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: لمّا قالت اليهود ما قالت، قال الله لمحمّد: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً﴾ يقول: أدّخرتم عند الله عهداً. يقول: أقلتم: لا إلـه إلّا الله، لم تشركوا ولم تكفروا به؟ فإن كنتم قلتموها فارجوا بها، وإن كنتم لم تقولوها فَلِمَ تقولون على الله مالاتعلمون[(٢)].

[٢٤٩٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً﴾؟! قال: أي هل عندكم من الله من عهد أنّه ليس معذّبكم؟ أم هل أرضيتم الله بأعمالكم فعملتم بما افترض عليكم وعهد إليكم فلن يخلف الله عهده؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟﴾.[(٣)]

[٢٤٩٧/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ قال: بفراكم[(٤)] وبزعمكم أنّ النار ليس تَمَسُّكم إلّا أيّاماً معدودة، يقول: إن كنتم اتخذتم عند الله عهداً بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: قال القوم الكذب والباطل، وقالوا عليه مالا يعلمون[(٥)].

[٢٤٩٨/٢] وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿عَهْداً﴾: عهداً بالتوحيد[(٦)].

[٢٤٩٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً﴾ فعلمتم بما عهد إليكم في التوراة فإن كنتم علمتم ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ﴾ يعني بل تقولون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بأنّه ليس بمعذّبكم إلّا تلك الأيّام. فإذا مضت تلك الأيّام مقدار كلّ يوم ألف سنة، قالت الخزنة يا أعداء الله ذهب الأجل وبقي الأبد وأيقنوا بالخلود![(٧)].

---

(١) الدرّ ١: ٢٠٨؛ الطبري ١: ٥٤١ / ١١٦٦؛ البخاري ٥: ٢٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٧ / ٨١٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٠٨؛ الطبري ١: ٥٤١ / ١١٦٨.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٥٧ / ٨٢٠.

(٤) قوله: بفراكم، جمع فرية أي بكذباتكم المفتراة.

(٥) الدرّ ١: ٢٠٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٧ / ٨٢١. من قوله: «قال القوم: الكذب...».

(٦) البغوي ١: ١٣٨؛ أبوالفتوح ٢: ٣٠.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١١٩.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

استفاضت الروايات عن السلف[1] بأنّ المراد من السيّئة هنا هو الشرك بالله العظيم.

ولعلّه نظراً لكون الخلود في النار لايكون لمؤمن مهما اقترف السيّئات حيث الإيمان ـ المحتفظ به حتّى الموت ـ عمل قلبي فخيم، ولابدّ من المثوبة عليه، ولا مثوبة حيث يتعقّبها الخلود في النار فلابدّ أن تتأخّر عن معاقبته على ما ارتكبه من السيّئات.

[٢٥٠٠/٢] ومن ثمّ روى الثعلبي عن ابن عبّاس وغيره: أنّ المراد، الشرك يموت عليه الرجل[2].

[٢٥٠١/٢] وعن السدّي والحسن أيضاً: أنّها الكبيرة من الكبائر الموبقة[3].

[٢٥٠٢/٢] وعن السدّي أيضاً: أنّها الذنوب التي وعد الله عليها النار[4].

[٢٥٠٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: أحاط به شركه[5].

قال أبو جعفر الطوسي: والذي نقوله، الذي يليق بمذهبنا، أنّ المراد بذلك هو الشرك والكفر، لأنّه الذي يُستحقّ به الدخول في النار مؤبّداً، ولايجوز أن يكون مراداً به غيره.. قال: وهذا قول مجاهد. لأنّ ما عدا الشرك لايُستحقّ عندنا الخلود عليه في النار وقوله تعالى: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ يقوّي ذلك، لأنّ المعنى فيه: أن تكون خطاياه كلّها اشتملت عليه، ولايكون معه طاعة يستحقّ بها الثواب، تشبيهاً بما أحاط بالشيء من كلّ وجه. ولو كان معه شيء من الطاعات، لكان مستحقّاً للثواب، فلا يكون محاطاً بالسيّئة. قال: لأنّ الإحباط عندنا باطل، فلايحتاج إلى مراعاة كثرة العقاب وقلّة الثواب. لأنّ قليل الثواب عندنا يثبت مع كثرة العقاب، لما ثبت من بطلان التحابط بأدلّة العقل وليس هنا موضع ذكرها.. قال: ولأنّ الآية بعدها فيها وعد لأهل الإيمان بالثواب الدائم،

---

(١) كما عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وعكرمة وأبي العالية وعطاء وابن جريج والضحّاك والربيع وأبي وائل والحسن ومقاتل بن سليمان. فيما رواه ابن أبي حاتم ١: ١٥٧. والطبري ١: ٥٤٣. والثعلبي ١: ٢٢٦. وأبوالفتوح ٢: ٣١. والطوسي ١: ٣٢٥ ومجمع البيان ١: ٢٨٢. وابن كثير ١: ١٢٣. ومقاتل ١: ١١٩ وغيرهم.

(٢) الثعلبي ١: ٢٢٦ ؛ الوسيط ١: ١٦٥.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٥٨ / ٨٢٤.

(٤) الطبري ١: ٥٤٣ / ١١٧٤؛ التبيان ١: ٣٢٥؛ مجمع البيان ١: ٢٨١.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٥٨ / ٨٢٧؛ الدرّ ١: ٢٠٨؛ ابن كثير ١: ١٢٣.

فكيف يجتمع الثواب الدائم والعقاب الدائم؟! وذلك خلاف الإجماع![١].

[٢٥٠٤/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي من عمل مثل أعمالكم وكفر بما كفرتم به حتّى يحيط كفره بما له من حسنة[٢] ﴿فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنّة خالدين فيها. يُخبرهم أنّ الثواب بالخير والشرّ، مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له أبداً[٣].[٤]

[٢٥٠٥/٢] وروى ابن جرير بالإسناد إلى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَٔتُهُ﴾؟ قال: الشرك، ثمّ تلا: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾[٥].

[٢٥٠٦/٢] وروى عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَٔتُهُ﴾ قال: السيّئة الشرك والخطيئة الكبائر[٦].

[٢٥٠٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَٔتُهُ﴾ قال: هي الكبيرة الموجبة لأهلها النار[٧].

[٢٥٠٨/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـَٔتُهُ﴾ قال: ما أوجب الله فيه النار[٨].

---

(١) التبيان ١: ٣٢٥ـ٣٢٦.

(٢) بحيث تغلبها السيّئة فتنقلب الحسنة سيّئة، بسبب ما نواه من شرّ.

(٣) وهذا إشارة إلى خلود كلّ من الفريقين فيما اكتسبوه لأنفسهم من آثار صلاح أو فساد..الأمر الذي ينبؤك عن تجسّم الأعمال، وأنّ المثوبات والعقوبات ليس من قبيل الجعل والمواضعة كما في الأجر والجزاء الدنيويّين.. وإنّما هي انعكاسات أعمال قام بها الإنسان هنا في الحياة الدنيا فتناله في الآخرة، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.. ولعلّنا نبحث عن ذلك بتفصيل في مجال متناسب يأتي. إن شاء الله.

(٤) الدرّ ١: ٢٠٨ـ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٢ و ٥٤٥ و ٥٤٧ / ١١٧٠ و ١١٧٩ و ١١٩٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٧ـ١٥٩ / ٨٢٢ و ٨٢٦ و ٨٣٢؛ ابن كثير ١: ١٢٣.

(٥) الطبري ١: ٥٤٦ / ١١٨٧.

(٦) عبدالرزّاق ١: ٢٧٨ / ٨٢.

(٧) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٥ / ١١٨١، بلفظ: «أمّا الخطيئة فالكبيرة الموجبة».

(٨) الطبري ١: ٥٤٥ / ١١٨٠.

[٢٥٠٩/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن أنّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ ما الخطيئة؟ قال: اقرأوا القرآن، فكلّ آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة[١].

[٢٥١٠/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: الذنوب تحيط بالقلب، فكلّما عمل ذنباً ارتفعت[٢] حتّى تغشّى القلب، حتّى يكون هكذا، وقبض كفّه، ثمّ قال: والخطيئة كلّ ذنب وعد الله عليه النار[٣].

[٢٥١١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وعبدبن حميد وابن جرير عن الربيع بن خُثيم في قوله تعالى: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب[٤].

[٢٥١٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: حتّى مات على الشرك[٥].

[٢٥١٣/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: فمات ولم يَتُب[٦].

[٢٥١٤/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن الأعمش في قوله: ﴿وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: مات بذنبه[٧].

[٢٥١٥/٢] وكذا عن الضحّاك قال: مات بذنبه[٨].

[٢٥١٦/٢] وقال الكلبي: أوبقته ذنوبه. قال: دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾[٩] أي

---

(١) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٥ / ١١٨٢. (٢) أي تضخّمت.

(٣) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٥ ـ ٥٤٦، بلفظ: «عن مجاهد في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ...﴾ قال: كلّ ذنب محيط فهو ما وعد الله عليه النار»؛ الثعلبي ١: ٢٢٧، بلفظ: «مجاهد: هي الذنوب تحيط بالقلب كلّما عمل ذنباً ارتفعت حتّى تغشى القلب وهو الرّين».

(٤) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٦؛ ابن كثير ١: ١٢٣، وزاد: وعن السدّيّ وأبي رزين نحوه؛ الثعلبي ١: ٢٢٧. البغوي ١: ١٣٨، بلفظ: «وقيل: السيّئة: الكبيرة، والإحاطة به: أن يُصرّ عليها فيموت غير تائب، قاله عكرمة والربيع بن خُثَيم»؛ أبوالفتوح ٢: ٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٨ / ٨٢٨.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١١٩. (٦) الطبري ١: ٥٤٦ / ١١٨٦.

(٧) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٦ / ١١٨٤. (٨) الطبري ١: ٥٤٥ / ١١٧٧.

(٩) يوسف ١٢: ٦٦.

تهلكوا[١].

[٢/٢٥١٧] وقال ابن السراج: هي الّتي سدّت عليه مسالك النجاة[٢].

[٢/٢٥١٨] وعن عكرمة ومقاتل: إنّها الإصرار على الذنب[٣].

[٢/٢٥١٩] وروى ابن كثير بالإسناد إلى عبدالله بن مسعود قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم ومحقّرات الذنوب فإنّهنّ يجتمعن على الرجل حتّى يهلكنّه»[٤].

[٢/٢٥٢٠] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال: أي دائمون أبداً[٥].

[٢/٢٥٢١] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال: لا يخرجون منها أبداً[٦].

[٢/٢٥٢٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى عليّ بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن ابن أبي عمير قال: سمعت موسى بن جعفر ؈ يقول: «لا يُخلد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود وأهل الضلال والشرك»[٧].

[٢/٢٥٢٣] وروى ثقة الإسلام الكليني بإسناده إلى أبي هاشم قال: قال أبو عبدالله ؈: «إنّما خُلّد أهل النار في النار، لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة، لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٨] قال: على نيّته»[٩].

---

(١) الثعلبي ١: ٢٢٧؛ أبو الفتوح ٢: ٣١.
(٢) التبيان ١: ٣٢٥.
(٣) مجمع البيان ١: ٢٨٢؛ الثعلبي ١: ٢٢٧.
(٤) ابن كثير ١: ١٢٣.
(٥) مجمع البيان ١: ٢٨٢.
(٦) الطبري ١: ٥٤٧ / ١١٨٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٩ / ٨٣٠، بلفظ «خالداً أبداً» عن ابن عبّاس والسدّي.
(٧) التوحيد: ٤٠٧ / ٦، باب ٦٣، باب الأمر والنهي والوعد والوعيد؛ البحار ٨: ٣٥١ / ١، باب ٢٧؛ كنزالدقائق ٢: ٦٣ ـ ٦٤؛ الصافي ١: ٢٢٢.
(٨) الإسراء ١٧: ٨٤.
(٩) الكافي ٢: ٨٥ / ٥، كتاب الايمان والكفر، باب النيّة؛ المحاسن ٢: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ٩٤؛ علل الشرائع ٢: ٥٢٣ / ١، باب ٢٩٩؛ البحار ٨: ٣٤٧ / ٥، باب ٢٦، و ٦٧: ٢٠١ / ٥، باب ٥٣؛ العيّاشي ٢: ٣٣٩ / ١٥٨، سورة الإسراء وزاد في صدره: قال سألت أباعبدالله ؈ عن الخلود في الجنة والنّار فقال إنّما... الخ.

مسألة الخلود في النار

هنا سؤال قديم: كيف يخلد العاصي في النار بذنوب كان لها أمد قصير؟

والجواب الحاسم هو ما جاء في حديث أبي هاشم الآنف مع أبي عبدالله الصادق عليه السلام: أنّ المجازاة في الدار الأخرى إنّما هي على النوايا التي ترسم شاكلة الإنسان في كيان ذاته فتؤهّله إمّا للقرب الدائم من ساحة قدسه تعالى، أو الابتعاد أبداً[1].

وبعبارة أخرى: ليست المثوبات والعقوبات في النشأة الأخرى ـ كالمجازاة في هذه الحياة ـ بالمواضعة والجعل الاعتباري المحض بل هي انعكاسات ذاتيّة لأعمال قام بها، وكانت محاكاةً لنفسيّاته التي كانت تدور في خلده وكلّ إناء بالذي فيه ينضح.

وكلّ عمل يقوم به الإنسان من خير أو شرّ، إنّما يُنبؤك عن حسن نيّته أو سوء سجيّته، ليكون عمله إفراغاً لما انطوت عليه سريرته التي هو صنعها طول مزاولاته في الحياة. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾[2].

وهذه الشاكلة التي يرسمها الإنسان لنفسه، سوف تتبلور بشكل أوفى في دار أخرى، وتؤتي أُكلها ـ من طيّب أو خبيث ـ ذلك الحين بإذن ربّها وهذا ما اصطلحوا عليه من تجسّم الأعمال.

ومن ثمّ لايستحقّ الخلود في النار إلّا من رانت نفسه وغمرته أدران الغثاثة والفساد.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

وكَسْبُ السيئة هنا كنايةٌ عن محاولةٍ وإصرارٍ في مكسبة السيّئات، بحيث انهمك فيها وشغلته عن الإنابة والرجوع، حتّى فارق الحياة، ولم يترك فيها بصيصاً يجعله على رجاء فهذا قد أخلد نفسه إلى الأرض ـ مطاليب سفلى ـ ولم يعمل للارتقاء إلى سماء العلى، ولا مثقال حبّة ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[4]. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[5].

وبذلك تعرف وجه اختصاص الخلود ـ في النار ـ بمن لم يحتفظ بإيمانه ومات كافراً؛ إذ لو

---

(١) تقدّم نقله من الكافي ٢: ٨٥ / ٥. والعيّاشي ٢: ٣٣٩ / ١٥٨.

(٢) الإسراء ١٧: ٨٤.

(٣) البقرة ٢: ٨١.

(٤) الأعراف ٧: ١٧٦.

(٥) الكهف ١٨: ٢٨.

مات مؤمناً محتفظاً على إيمانه ـ ولو من غير عمل ـ فإنّ الإيمان بذاته عمل ـ جانحي ـ فخيمٌ يُثاب عليه لا محالة. فلابدّ أن تتأخّر المثوبة عن العقوبات على ما ارتكبه من آثام إذ لا التذاذ بالمثوبات لمن كان ينتظر العقاب الدائم وقد تقدّم بعض الإشارة إلى ذلك.

قال العلّامة المجلسي ـ تعقيباً على حديث أبي هاشم الآنف ـ: كأنّ الاستشهاد بالآية[1] مبنيّ على ما حقّقنا سابقاً[2] أنّ المدار في الأعمال على النيّة[3] التابعة للحالة التي اتّصفت بها النفس من عقائد وأخلاق حسنة أو سيّئة، فإذا كانت النفس [مروّضة] على العقائد [الصحيحة] الثابتة والأخلاق الحسنة الراسخة، التي لايتخلّف عنها الأعمال الصالحة الكاملة، لو بقي في الدنيا أبداً، فبتلك الشاكلة والحالة استحقّ الخلود في الجنّة. وإذا كانت على العقائد الباطلة والأخلاق الرديئة، التي علم الله تعالى أنّه لو بقي في الدنيا أبداً لعصى الله دائماً، فبتلك الشاكلة استحقّ الخلود في النار لا بالأعمال التي لم يرتكبها فلا يرد أنّه ينافي الأخبار الواردة في عدم المؤاخذة على نيّة السوء من غير عمل[4].

(١) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ الإسراء ١٧: ٨٤.

(٢) سبق قوله: إنّ النيّة تابعة للشاكلة والحالة وأنّ كمالها لايحصل إلّا بكمال النفس واتّصافها بالأخلاق الرضيّة الواقعيّة. البحار ٦٧: ٢٠٠.

(٣) قال الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام: «لاعمل إلّا بنيّة». الكافي ٢: ٨٤ / ١ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرء ما نوى». البخاري ١: ٢.

(٤) راجع: البحار ٦٧: ٢٠١، ومرآة العقول ٨: ١٠٤.

قال تعالى:

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَ أَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

هنا يمضي السياق يحدّث للجماعة المسلمة عن حالة اليهود ومواقفهم الّتي يتجلّى فيها العصيان والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق وهكذا يواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين:

﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ﴾... على الاستسلام لله وحسن المعاشرة مع الناس وهذا نصّه ـ خطاباً لبني إسرائيل ـ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فريضة عباديّة ﴿وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾ فريضة ماليّة.

ولكن هيهات والاستسلام لشريعة الله والتزام مواثيقه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ نبذتم مواثيق الله وعهوده وراء ظهوركم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَ أَنتُم﴾ بأكثريّتكم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن الحقّ الصراح.

﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لايبادر أحدكم بقتل أخيه عبثاً ومن غير حقّ ﴿وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ لايُشرّد بعضكم بعضاً فتخرجوه ﴿مِّن دِيَارِكُمْ﴾ الديار التي ألف الجميع بها فكانت ديار الجمع.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ توثّقتم العهد والميثاق ﴿وَ أَنتُمْ﴾ اليوم ﴿تَشْهَدُونَ﴾ بذلك، فما هذا التهافت بين القول والسلوك؟!

وهذه العهود والمواثيق هي بعينها هي مواثيق الإسلام الأمر الذي ينبؤك عن وحدة دين الله القويم، وكان التصديق بما جاء به محمّدﷺ تصديقاً بما جاء به النبيّون من قبله. وعليه فالإقرار بشرائع الله السابقة، ليستدعي إقراراً بالشريعة الحاضرة. فالإقرار بشريعة التوراة وإنكار الإسلام تهافت فاضح مضافاً إلى تهافت مابين قولهم والسلوك.

وتبييناً لهذا التهافت ما بين القول والسلوك وجّه إليهم التوبيخ الثاني: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضاً عداءً ظاهراً ﴿وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ تشرّدونهم إلى حيث لا مأوى لهم. وزيادة على ذلك ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ يتظاهر بعضكم مع بعض، ضدّ الفريق المتشرّد ﴿بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ﴾ أي كان التظاهر منبعثاً عن نيّة الخبث والعداء العارم. وليس عن منبعث حقّ لائح.

وتهافت آخر في السلوك أشنع: إنّهم في العداء مع بعضهم البعض يتظاهرون بالإثم والعدوان. ولكن عند مايقع هؤلاء أسارى بيد أجانب غيرهم، تثور غيرتهم ليقوموا باستخلاصهم، حتّى ولو كان ذلك بافتداء المال. تناقض غريب في السلوك!!

﴿وَ إِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾ أي وجدتموهم أسارى ـ تفادوهم ـ بالمال.

كان هذا الحادث الغريب المتهافت واقعاً قريب العهد من الإسلام. كان الأوس والخزرج أشدّ مايكون حيّان من العرب عداءً. وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذين الحيّين. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كلّ فريق إلى جنب حلفائه. فربما قتل يهوديٌّ يهودياً، وهذا حرام بنصّ ميثاق التوراة. كذلك كانوا يُشرّدون بيهوديّ كان حلفاً لغير حلفهم إذا غلبوهم فيخرجونهم من ديارهم وينهبون أموالهم وربما يسبّونهم. وهذا أيضاً حرام بنصّ التوراة. ثمّ إذا وضعت الحرب أوزارها جعلوا يفادون أسارى اليهود ويفكّونهم من الأسر هنا أو هناك عندهم أو عند حلفائهم، أو عند أعداء حلفائهم.

وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: «إنّك لاتجد مملوكاً من بني إسرائيل إلّا أخذته وأعتقته»[1].

هذا هو التناقض الذي يؤاخذهم عليه القرآن:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟! وهنا يأتي تهديدهم اللاذع: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ التناقض في السلوك ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ إذ ذلك يكشف عن صلابتهم في الدين، كما يدلّ على عدم التزامهم بالخلق الكريم الأمر الذي في النهاية إلى انهيار خُلُقي يتعقّبه السقوط والخزي والعار هذا في الحياة الدنيا.

﴿وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

ثمّ يلتفت السياق إلى المسلمين وإلى البشريّة جميعاً، تبييناً لحقيقة هذا القوم اللجوج العنود، المتعنّت الغشوم فيحذروهم ويتجانبوا مثل فعالهم وتصرّفاتهم البذيئة: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ﴾ خسروا في صفقتهم في هذه الحياة، حيث ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ أي باعوا حظّهم الأوفى في الحياة ـ و هي الحياة الشريفة ذات العزّ والوقار الكافلة لسعادة الدارين ـ تجاه مكسبهم هذا الزهيد الزائل.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ حيث لا موضع للتخفيف عليهم بذلك الإصرار على العناد ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ حيث لا ناصر لهم ولاشفعاء يشفعون لهم، بعد حيادهم عن سبيل النجاة.

* * *

وإليك من روايات السلف بشأن الآيات:

[٢٥٢٤/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ميثاقكم[2].

[٢٥٢٥/٢] وأخرج عبدبن حميد عن عيسى بن عمر قال: قال الأعمش: نحن نقرأ ﴿لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا

---

(١) جاء في ١: ١٥ ع ١٢ من سفر التثنية: «إذا بيع لك أخوك العبراني أو أختك العبرانيّة و خدمك ستّ ستين ففي السنة السابعة تطلقه حرًّا من عندك وتزوّده من غنمك ومن معصرتك».

(٢) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ١١٩٢/٥٤٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٣٣/١٥٩.

اللَّهَ﴾ بالياء، لأنّا نقرأ آخر الآية: ﴿ثُمَّ تولَّوا عَنْهُ﴾، وأنتم تقرأون ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فاقرأوها: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾(١).

وقرأ أُبيّ بن كعب: «لاتعبدوا» على النهي وهكذا نسب إلى عبدالله بن مسعود(٢).

[٢٥٢٦/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: ميثاق أخذه الله على بني إسرائيل، فاسمعوا على ما أخذ ميثاق القوم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً...﴾ الآية(٣).

[٢٥٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية. قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له وأن لايعبدوا غيره(٤).

وهكذا أخرج عن الربيع(٥).

[٢٥٢٨/٢] وعن ابن جريج في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال: الميثاق الذي أخذ عليهم في المائدة(٦).(٧).

[٢٥٢٩/٢] وروي عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «أمّا قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من شغلته عبادةُ الله عن مسألته، أعطاه الله أفضل ما يعطي السائلين».(٨)

[٢٥٣٠/٢] وقال: قال عليّ عليه السلام: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ من فوق عرشه: «يا عبادي اعبدوني فيما

---

(١) الدرّ ١: ٢١٠.

(٢) الثعلبي ١: ٢٢٨؛ البغوي ١: ١٣٩؛ أبو الفتوح ٢: ٣٥؛ القرطبي ٢: ١٣.

(٣) الدرّ ١: ٢١٠.

(٤) الدرّ ١: ٢٠٩؛ الطبري ١: ٥٤٩ / ١١٩٣، و ٤: ٢٠٣ / ٩٠٢٣، تفسير سورة المائدة، الآية ١٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٠ / ٨٣٤.

(٥) الطبري ١: ٥٤٩ / ١١٩٤.

(٦) يشير إلى قوله تعالى في الآية ١٢ من سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ إلى آخر الآية.

(٧) الطبري ١: ٥٤٩ / ١١٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٠ / ٨٣٥.

(٨) تفسير الإمام عليه السلام: ٣٢٧ / ١٧٥؛ البرهان ١: ٢٦٥ / ١٢؛ البحار ٦٨: ١٨٤ / ٤٤، باب ٦٤؛ الصافي ١: ٢٢٣.

أمرتكم به ولا تُعلموني ما يصلحكم، فإنّي أعلم به، ولا أبخل عليكم بمصالحكم»(١).

[٢ / ٢٥٣١] وروى الكليني بإسناده إلى الحسن بن محبوب، عن أبي ولّاد الحنّاط قال: سألت أبا عبدالله ﷺ عن قول الله ـ عزّ وجلّ : ﴿وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ ما هذا الإحسان؟ فقال: «الإحسان أن تُحسن صحبتهما، وأن لاتكلّفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين، أليس يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾...»(٢).

[٢ / ٢٥٣٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن مقاتل بن حيّان في قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ... وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ﴾ قال: فيما أمركم به من حق الوالدين و ذوي القربى واليتامى والمساكين(٣).

[٢ / ٢٥٣٣] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ إِذْ﴾ يعني ولقد ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرائيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ يعني برّاً بهما(٤).

[٢ / ٢٥٣٤] وقال: ﴿وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ﴾ واليتيم، أن تصدّق عليه، وابن السبيل يعني الضيف، أن تُحسن إليه(٥).

[٢ / ٢٥٣٥] وفي تفسير الإمام: المسكين من سكن الضرّ والفقر حركته، ألا فمن واساهم بحواشي ماله، وسّع الله عليه جنانه، وأناله غفرانه ورضوانه(٦).

---

(١) تفسير الإمام ﷺ: ٣٢٧ / ١٧٦؛ البرهان ١: ٢٦٥ / ذيل ١٢، البحار ٦٨: ١٨٤ / ٤٤، باب ٦٤.

(٢) الكافي ٢: ١٥٧ / ١، كتاب الايمان والكفر؛ باب البرّ بالوالدين؛ الصافي ١: ٢٢٣؛ كنزالدقائق ٢: ٦٥؛ الفقيه ٤: ٤٠٧ ـ ٤٠٨ / ٥٨٨٣؛ البحار ٧١: ٣٩ ـ ٤٠ / ٣، باب ٢، وللمجلسي هنا بيان لطيف في شرح الحديث ينبغي مراجعته؛ العيّاشي ٢: ٣٠٨ / ٣٩ الإسراء: ٢٤.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٦٠ / ٨٣٧.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١١٩.

(٥) المصدر.

(٦) تفسير الإمام ﷺ: ٣٤٥ / ٢٢٦؛ البرهان ١: ٢٦٧ / ١٧؛ البحار ٦٦: ٣٤٤، باب ٣٨، (بخلاف يسير)؛ الصافي ١: ٢٢٤.

[٢٥٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم ومسلم بإسنادهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوّاف ـ الذي يطوف على الناس ـ ولا بالذي تردُّه اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان، ولكن المسكين المتعفّف الذي لايسأل الناس شيئاً، ولا يُفْطَن له فيُتَصَدَّقُ عليه»(١).

* * *

[٢٥٣٧/٢] وأخرج أبو عبيد وسعيدبن منصور وابن المنذر عن عبدالملك بن سليمان أنّ زيد بن ثابت كان يقرأ: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾. وكان ابن مسعود يقرأ: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَناً»(٢).

[٢٥٣٨/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عليّ بن أبي طالب ؑ في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: «يعني الناس كلّهم»(٣).

[٢٥٣٩/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن عطاء وأبي جعفر الباقر ؑ في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قالا: للناس كلّهم(٤).

[٢٥٤٠/٢] وروى الكليني والعيّاشي عن حريز عن سدَير قال: قلت لأبي عبدالله ؑ: أطعم سائلاً لاأعرفه مسلماً؟ قال: «نعم أعط من لا تعرفه بولاية ولابعداوة للحقّ، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾»(٥).

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٦١ / ٨٤١؛ مسلم ٣: ٩٥، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لايجد غنىً. وفيه: قالوا فما المسكين يا رسول الله ﷺ؟ قال: الذي لايجد غنىً يُغنيه ولا يُفْطَن له فيتصدّق عليه ولا يسأل الناس شيئاً.

(٢) الدرّ ١: ٢١٠؛ الثعلبي ١: ٢٢٨، بلفظ: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ اختلفت القراءة فيه فقرأ زيدبن ثابت وأبو العالية وعاصم وأبو عمرو «حُسْنا» بضم الحاء وجزم السّين وهو اختيار أبي حاتم. دليله قوله عزّو جلّ: ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾. وقرأ ابن مسعود وخلف «حَسَنا» بفتح الحاء والسين وهو اختيار أبي عبيد.

(٣) الدرّ ١: ٢١٠؛ شعب الإيمان ٥: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ / ٦٦٨٢، باب، في تحريم أعراض الناس؛ كنزالعمّال ٢: ٣٥٩ / ٤٢٣٨.

(٤) الدرّ ١: ٢١٠؛ الطبري ١: ٥٥٣ ـ ٥٥٤ / ١٢٠١؛ التبيان ١: ٣٣٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦١ / ٨٤٤، وكذا عن عكرمة؛ الوسيط ١: ١٦٦، بلفظ: «قال الربيع وعطاء ومحمّدبن عليّ الباقر ؑ: هذا على العموم في تحسين المقالة للناس كلّهم».

(٥) الكافي ٤: ١٣ / ١، باب الصدقة على من لاتعرفه؛ العيّاشي ١: ٦٦ ـ ٦٧ / ٦٤، وفيه: عن حريز عن بريد؛ البحار ٦٨: ١٥ / ٣١٣، باب ٧٩ و ٧١: ٣٦٧ / ٥٣، باب ٢٣.

[٢٥٤١/٢] وروى الكليني بإسناده إلى معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: «قولوا للناس ولا تقولوا إلّا خيراً حتّى تعلموا ماهو»(١).

[٢٥٤٢/٢] وقال الصادق عليه السلام: «﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ﴾ كلّهم ﴿حُسْناً﴾ مؤمنهم ومخالفهم: أمّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه وبشره. وأمّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان، فإن ييأس من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه، وعن إخوانه المؤمنين»(٢).

[٢٥٤٣/٢] وقال الإمام أبو محمّد العسكري عليه السلام: «إنّ مداراة أعداء الله من أفضل صدقة المرء على نفسه وإخوانه. كان رسول الله صلى الله عليه وآله في منزله إذ استأذن عليه عبدالله بن أبيّ بن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بئس أخو العشيرة، ائذنوا له. فأذنوا له. فلمّا دخل أجلسه وبَشَر في وجهه، فلمّا خرج قالت له عائشة: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت، وفعلت به من البُشْر ما فعلت! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عويش يا حميراء، إنّ شرّ الناس عند الله يوم القيامة من يُكرم اتقاء شرّه!»(٣).

[٢٥٤٤/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالملك بن أبي سليمان، قال: سألت عطاء بن أبي رياح، عن قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: من لقيت من الناس فقل له حسناً من القول. قال: وسألت أبا جعفر ـ يعني محمّدبن عليّ الباقر عليه السلام ـ، فقال مثل ذلك(٤).

[٢٥٤٥/٢] وروى العياشي بإسناده إلى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «اتّقوا الله ولاتحملوا الناس على أكتافكم، إنّ الله يقول في كتابه: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾»(٥)!

---

(١) نورالثقلين ١: ٩٤؛ الكافي ٢: ١٦٤ / ٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأمور المسلمين؛ البحار ٧١: ٣٤٠ / ١٢٤، باب ٢٠؛ كنزالدقائق ٢: ٦٨.

(٢) تفسير الإمام عليه السلام: ٣٥٣ـ٣٥٤ / ٢٤٠؛ البرهان ١: ٢٦٧ـ٢٦٨ / ١٨؛ الصافي ١: ٢٢٥؛ البحار ٦٨: ٣٠٩، باب ٧٩، و ٧٢: ٤٠١ / ٤٢، باب ٨٧.

(٣) تفسير الإمام عليه السلام: ٣٥٤ / ٢٤١؛ الصافي ١: ٢٢٥ بخلاف؛ البحار ٧٢: ٤٠١ / ٤٢، باب ٨٧.

(٤) الطبري ١: ٥٥٣ / ١٢٠٠؛ التبيان ١: ٣٣٠، بلفظ: وروي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام وعن عطا إنّهما قالا: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾: للناس كلّهم.

(٥) نورالثقلين ١: ٩٤؛ العيّاشي ١: ٦٧ / ٦٥؛ البحار ٦٨: ٣١٣ / ١٦، باب ٧٩، و ٧١: ١٦١ / ٢٠، باب ١٠؛ كنزالدقائق ٢: ٦٨؛ البرهان ١: ٢٦٥ / ١٠.

[٢٥٤٦/٢] وروى جعفر بن محمّد بن شريح: عن أبي الصباح، عن أبي عبدالله ﷺ، إنّه قال في كلام له: «وخالطوا الناس، وآتوهم، وأعينوهم، ولا تجانبوهم، وقولوا لهم كما قال الله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾»[١].

[٢٥٤٧/٢] وروى البرقي عن ابن محبوب، عن عبدالله بن سنان قال: سمعت أباعبدالله ﷺ يقول: «أُوصيكم بتقوى الله عزّ و جلّ، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ ثمّ قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم»[٢].

[٢٥٤٨/٢] وأخرج ابن جرير عن سفيان الثوري في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر[٣].

[٢٥٤٩/٢] وعن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: قولوا للناس معروفاً[٤].

[٢٥٥٠/٢] وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾: فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله و هو كلّ خلق حسن رضيه الله[٥].

[٢٥٥١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٦].

[٢٥٥٢/٢] وأخرج ابن جرير من طريق الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمرهم أن يأمروا بلا إلـه إلّا الله من لم يقلها ورغب عنها، حتّى يقولها: فإنّ ذلك قربة لهم من الله[٧].

---

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٣١٤.
(٢) وسائل الشيعة ٨: ٣٠١؛ المحاسن ١: ١٨ / ٥١.
(٣) الطبري ١: ٥٥٣ / ١١٩٩؛ الثعلبي ١: ٢٢٨.
(٤) الطبري ١: ٥٥٣ / ١١٩٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦١ / ٨٤٣.
(٥) ابن كثير ١: ١٢٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦١ ـ ١٦٢ / ٨٤٦.
(٦) الدرّ ١: ٢١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦١ / ٨٤٢.
(٧) الدرّ ١: ٢١٠؛ الطبري ١: ٥٥٣ / ١١٩٦؛ التبيان ١: ٣٣٠.

[٢٥٥٣/٢] وأخرج أحمد عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ إنّه قال: «لا تحقّرنّ من المعروف شيئاً، وإن لم تجد، فالْقِ أخاك بوجهٍ طلق»(١).

[٢٥٥٤/٢] وقال الصادق عليه السلام: «حسن المعاشرة مع خلق الله تعالى في غير معصيته، من مزيد فضل الله تعالى عند عبده، و من كان خاضعا لله تعالى في السرّ، كان حَسَن المعاشرة في العلانية، فعاشر الخلق لله تعالى، ولا تعاشرهم لنصيبك لأمر الدنيا، ولطلب الجاه، والرياء والسمعة، ولا تسقطنّ بسببها عن حدود الشريعة، من باب المماثلة والشهرة، فإنّهم لا يغنون عنك شيئاً، وتفوتك الآخرة بلا فائدة، فاجعل من هو أكبر منك بمنزلة الأب، والأصغر بمنزلة الولد، والمثل بمنزلة الأخ، ولا تدع ما تعلم يقيناً من نفسك، بما تشكّ فيه من غيرك، وكن رفيقاً في أمرك بالمعروف، وشفيقاً في نهيك عن المنكر، ولا تدع النصيحة في كلّ حال، قال الله تعالى: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾»(٢).

[٢٥٥٥/٢] وروى الكليني والعيّاشي بالإسناد إلى جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قال: «قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يُقال فيكم!»(٣)

[٢٥٥٦/٢] وقال أبو العالية في معنى الآية: قولوا لهم الطيّب من القول وجازوهم بأحسن ما تحبّون أن تجازوا به(٤).

[٢٥٥٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، قال: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ هذه، وإقامة الصلاة تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها(٥).

[٢٥٥٨/٢] وقال الإمام أبو محمّد العسكري عليه السلام في قوله: ﴿وَ آتُوا الزَّكاةَ﴾: «من المال والجاه وقوّة البدن، فمن المال مواساة إخوانكم المؤمنين، ومن الجاه إيصالهم إلى ما يتقاعسون عنه لضعفهم عن

---

(١) مسند أحمد ٥: ١٧٣؛ مسلم ٨: ٣٧، كتاب البرّ والصلة بلفظ: لا تحقّرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق.

(٢) مستدرك الوسائل ٨: ٣١٧؛ مصباح الشريعة: ٤٣، الباب التاسع عشر، في المعاشرة؛ البحار ٧١: ١٦٠ / ١٧، باب ١٠.

(٣) نورالثقلين ١: ٩٤؛ الكافي ٢: ١٦٥ / ١٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأمور المسلمين؛ العيّاشي ١: ٦٦ / ٦٣ وفيه: «يقال لكم» بدل «يقال فيكم». وزاد: فإنّ الله يبغض اللعّان السبّاب الطعّان على المؤمنين المتفحّش؛ الأمالي للصدوق: ٣٢٦ / ٣٨٢ ـ ٥، المجلس ٤٤؛ البحار ٧١: ٣٤١ / ١٢٥، باب ٢٠، و ١٦١ / ١٩، باب ٩.

(٤) القرطبي ٢: ١٦.

(٥) الطبري ١: ٥٥٤ / ١٢٠٢.

حوائجهم المتردّدة في صدورهم، وبالقوّة معونة أخ لك قد سقط حماره أو جمله في صحراء أو طريق، وهو يستغيث فلا يُغاث، تعينه حتّى يحمل عليه متاعه، وتُركبه [عليه] وتُنهضه حتّى تلحقه القافلة»[١].

[٢٥٥٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ آتُوا الزَّكاةَ﴾ قال: إيتاء الزكاة ما كان الله فرض عليهم في أموالهم من الزكاة، وهي سنّة كانت لهم غير سنّة محمّد ﷺ؛ كانت زكاة أموالهم قرباناً تهبط إليه نار فتحملها، فكان ذلك تقبّله، ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبّل. وكان الذي قُرّب من مكسب لا يحلّ من ظلم أو غشم، أو أخذ بغير ما أمر الله به وبيّنه له[٢].

[٢٥٦٠/٢] وعن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ آتُوا الزَّكاةَ﴾ قال: يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص[٣].

[٢٥٦١/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قال: أي تركتم ذلك كلّه[٤].

[٢٥٦٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قال: أعرضتم عن طاعتي ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ وهم الّذين اخترتُهم لطاعتي[٥].

[٢٥٦٣/٢] وقال مقاتل بن سليمان: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني أعرضتم عن الإيمان فلم تُقرّوا ببعث محمّد ﷺ ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَ أَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ يعني ابن سلام، وسلام بن قيس، وثعلبة بن سلام، وقيس ابن أخت عبدالله بن سلام، وأُسَيد وأَسَد ابني كعب ويامين، وابن يامين، وهم مؤمنو أهل التوراة[٦].

* * *

[٢٥٦٤/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ قال: أي

(١) تفسير الإمام عليه السلام: ٣٦٤ ـ ٣٦٥ / ٢٥٤؛ البرهان ١: ٢٦٨ / ٢٠؛ البحار ٧١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩ / ٢٣، باب ١٥.

(٢) الطبري ١: ٥٥٤ / ١٢٠٣.

(٣) المصدر / ١٢٠٤.

(٤) الدرّ ١: ٢١٠؛ الطبري ١: ٥٥٥ / ١٢٠٦؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٢ / ٨٥٠.

(٥) الدرّ ١: ٢١٠؛ الطبري ١: ٥٥٥ / ١٢٠٥.

(٦) تفسير مقاتل ١: ١٢٠.

لا يقتل بعضُكم بعضاً. ﴿وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ونفسك يا ابن آدم أهل ملّتك![١].

[٢٥٦٥/٢] وفي رواية عنه في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِماءَ كُمْ﴾ يقول: لا يقتل بعضُكم بعضاً بغير حقّ، فتسفك يا ابن آدم دماء أهل ملّتك ودعوتك[٢].

[٢٥٦٦/٢] وقال الإمام أبو محمّد العسكري عليه السلام في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: «واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا ميثاقكم [أي أخذنا ميثاقكم] على أسلافكم، وعلى كلّ من يصل إليه الخبر بذلك من أخلافهم الّذين أنتم منهم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِماءَ كُمْ﴾ لا يسفك بعضكم دماء بعض ﴿وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك الميثاق كما أقرّ به أسلافكم، والتزمتموه كما التزموه ﴿وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك على أسلافكم وأنفسكم»[٣].

[٢٥٦٧/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِماءَ كُمْ﴾ يقول: لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ يقول: لا يخرج بعضكم بعضاً من الديار. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يقول: وأنتم شهود[٤].

[٢٥٦٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ في التوراة يعني ولقد أخذنا ميثاقكم في التوراة ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِماءَ كُمْ﴾ يقول لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ يعني لا يخرج بعضكم بعضاً ﴿مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا ﴿وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنّ هذا في التوراة[٥].

[٢٥٦٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنّ هذا حقّ من ميثاقي عليكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أهل الشرك حتّى تسفكوا دماءكم معهم ﴿وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ قال: تخرجونهم من ديارهم معهم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ﴾ فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، وظاهرَ كلٌّ واحد من الفريقين حلفاءه على

(١) الطبري ١: ٥٥٦ / ١٢٠٧.
(٢) المصدر بعد حديث ١٢٠٨.
(٣) تفسير الإمام عليه السلام: ٣٦٧ / ٢٥٧؛ البرهان ١: ٢٦٩ / ١؛ البحار ٩: ١٨٠ / ٨ باب ١؛ الصافي ١: ٢٢٧.
(٤) الدرّ ١: ٢١١؛ الطبري ١: ٥٥٦ـ٥٥٧ / ١٢٠٨ و ١٢٠٩ و ١٢١١.
(٥) تفسير مقاتل ١: ١٢٠.

إخوانه حتّى تسافكوا دماءهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة[١].

[٢ / ٢٥٧٠] وأخرج ابن جرير عن أسباط، عن السدّيّ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قال: إنّ الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لايقتل بعضهم بعضاً، وأيّما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام ثمنه فأعتقوه. فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون. فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءها. وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها فيغلبونهم، فيخرّبون بيوتهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتّى يفدوه، فتعيّرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنّا أُمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنّا نستحيي أن تستذلّ حلفاؤنا. فذلك حين عيّرهم ـ جلّ وعزّ ـ فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢].

[٢ / ٢٥٧١] وأخرج عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك؟[٣]

[٢ / ٢٥٧٢] وقال الطبرسي في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾: معناه: لايقتل بعضكم بعضاً لأنّ في قتل الرجل منهم الرجل قتل نفسه إذا كانت ملّتهما واحدة ودينهما واحداً. وأهل الدين الواحد بمنزلة الرجل الواحد في ولاية بعضهم بعضاً. قال النبي ﷺ: «إنّما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر»[٤].

قال: هذا قول قتادة وأبي العالية[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٢١١؛ الطبري ١: ٥٥٧ و ٥٦٢ / ١٢١٠ و ١٢١٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ٨٥٤ و ٨٥٦ و ٨٥٩ و ٨٦٠.

(٢) الطبري ١: ٥٦٠ / ١٢١٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ٨٥٧ بمعناه؛ أبوالفتوح ٢: ٤٢. وكذا عن ابن عبّاس وعكرمة: الثعلبي ١: ٢٣١.

(٣) الطبري ١: ٥٦٢ / ١٢١٨؛ الثعلبي ١: ٢٣١.

(٤) البخاري ٧: ٧٧ ـ ٧٨، كتاب الأدب.

(٥) مجمع البيان ١: ٢٨٨.

[٢/٢٥٧٣] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ يعني الهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فكان خزي أهل قريظة القتل والسبي وخزي أهل النضير الجلاء والنفي من منازلهم وجنّاتهم التي بالمدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فكان هذا خزياً لهم وهواناً لهم[١].

* * *

[٢/٢٥٧٤] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْـيَا بِالْآخِرَةِ﴾ قال: استحبّوا قليل الدنيا على كثير الآخرة[٢].

[٢/٢٥٧٥] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ نعتهم فقال ـ سبحانه ـ: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ يعني اختاروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ يقول باعوا الآخرة بالدنيا ممّا يصيبون من سَفَلة اليهود من المآكل ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة ﴿وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني ولاهم يمنعون من العذاب[٣].

[٢/٢٥٧٦] وروي عن الإمام العسكري ﷺ قال: «ثمّ وصفهم فقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ رضوا بالدنيا وحطامها بدلاً من نعيم الجنان المستحق بطاعات الله ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لاينصرهم أحدٌ يَرْفَعُ عنهم العذاب»[٤].

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢٠.

(٢) الدرّ ١: ٢١٢؛ الطبري ١: ٥٦٧ / ١٢٢٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٧ / ٨٧٧.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٢١.

(٤) تفسير الإمام ﷺ: ٣٦٨ / ذيل ٢٥٧؛ البرهان ١: ٢٧٠ / ذيل ١؛ البحار ٩: ١٨١ / ذيل ٨، باب ١.

قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَينا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَينا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْـبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وهنا يمضي السياق ليواجه بني إسرائيل بمواقفهم الشائنة تجاه النبوّات، تجاه الأنبياء أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم، كلّما جاؤوهم بالحقّ جابهوهم بالجحود والعصيان.

وهذا في الحقيقة ردّ على تعاليلهم المزعومة لرفض الإسلام، بأنّ لديهم من شرائع أنبيائهم ما فيه الكفاية وأنّهم متّبعون لأنبياء كانوا منهم وفيهم الكفاءة فلا حاجة إلى شرائع جاءت على يد غيرهم من سائر الناس.

وهنا يأتي القرآن ليفنّد مزعومتهم هذه في اتّباع الرسل والالتزام بشرائع سالفة.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾.

[٢٥٧٧/٢] قال مقاتل بن سليمان: يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ يعني اليهود ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يعنى تكبّرتم عن الإيمان برسولي يعني محمّداً ﷺ ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾ يعني طائفة من الأنبياء كذّبتم منهم عيسى ومحمّد ﷺ ﴿وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ يعني وطائفة قتلتموهم منهم زكريّا ويحيى والأنبياء أيضاً[١].

نعم إنّ محاولة إخضاع معالم الهدى وشريعة الوحي للهوى الطارىء والنزوة المتقلّبة، ظاهرة تبدو كلّما فسدت الفطرة وانطمست فيها عدالة المنطق السليم.

ولقد قصّ الله على المسلمين من أنباء إسرائيل ما يحذّرهم من الوقوع في مثله، حتّى لا تُسلب منهم الخلافة في الأرض، ولا الأمانة التي نالها الله لهم.

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢١.

وأشنع من ذلك تعليلهم لتصرّفاتهم تلك الشائنة، بأنّها من أثر صمود قلوبهم فلا ينفذ فيها عظة ولا ينفعها تذكار، وهم مجبولون على ذلك وبذلك حاولوا سلب المسؤوليّة عن أنفسهم بأعذار هي أشنع من الفعال.

﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مُغَلَّفة مُغَلَّقه لاتنفذ فيها دعوة ولاتنفعها نصيحة، ولكنّهم كذبوا في وقاحة ولهجوا في شراسة ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أبعدهم الله بسبب لجاجهم وعنادهم مع الحقّ الصريح، فهم أغلقوا على أنفسهم أبواب الفهم وإدراك الحقيقة الناصعة ومن ثمّ ـ ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي قليل منهم يؤمنون ممّن راجعوا أنفسهم وفتحوا مغاليق قلوبهم، الأمر الذي قد يتّفق لقليل منهم.

وإليك أهمّ ما روي بهذا الشأن:

[٢٥٧٨/٢] أخرج ابن عساكر من طريق جُويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَينا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ قال: يعني التوراة جملة واحدة مفصّلة محكمة ﴿وَ قَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني: رسولاً يُدعى إشموئيل، ورسولاً يُدعى منشائيل، ورسولاً يُدعى شعيا، ورسولاً يدعى حزقيل، ورسولاً يُدعى أرميا بن حَلْقِيا وهو الخضر، ورسولاً يدعى داوود بن إيشا وهو أبو سليمان، ورسولاً يُدعى المسيح عيسى بن مريم، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم للأمّة بعد موسى بن عمران، وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدّوا إلى أممهم صفة محمّد ﷺ وصفة أمّته[١].

[٢٥٧٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَ آتَينا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾: يقول: وأعطينا عيسى ابن مريم العجائب التي كان يصنعها من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله[٢].

[٢٥٨٠/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: هي الآيات التي وُضعت على يده من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب، وما ردّ عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه[٣].

---

(١) ابن عساكر ٨: ٣٣، فصل ٥٨٩ (أرميابن حلقيا)؛ الدرّ ١: ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٢١.

(٣) الدرّ ١: ٢١٣؛ الطبري ١: ٥٦٨ / ١٢٢٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٨ / ٨٨١.

قوله تعالى: ﴿وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

اختلفت الروايات عن السلف بشأن تفسير «روح القدس» هنا وفي مواضع من القرآن الكريم.

[٢/٢٥٨١] فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والثعلبي وغيرهم من أعلام المفسرين بإسنادهم إلى عبدالله بن عبّاس قال: «روح القدس، هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى بن مريم يُحيي به الموتى ويُري الناس تلك العجائب»[١].

[٢/٢٥٨٢] وأخرج ابن أبي حاتم والبخاري بالإسناد إلى ابن مسعود قال: «روح القدس جبريل»[٢].

[٢/٢٥٨٣] وهكذا أخرج أبو الشيخ عن جابر عن النبي ﷺ قال: «روح القدس جبريل»[٣].

[٢/٢٥٨٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد في قوله تعالى: ﴿وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أعانه جبريل[٤].

[٢/٢٥٨٥] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة قال: روح القدس هو جبريل[٥].

[٢/٢٥٨٦] وهكذا عن الضحّاك قال: روح القدس: جبريل[٦].

[٢/٢٥٨٧] وعن السدّي قال: هو جبريل ﷺ[٧].

[٢/٢٥٨٨] وعن الربيع قال: أُيّد عيسى بجبريل وهو روح القدس[٨].

[٢/٢٥٨٩] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب عن ابن زيد قال: أيّد الله عيسى بن مريم بالإنجيل

---

(١) الدرّ ١: ٢١٣؛ الطبري ١: ٥٦٩ ـ ٥٧٠ / ١٢٣٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٦٩ / ٨٨٦؛ الثعلبي ١: ٢٣٣، أخرجه عن ابن عبّاس وسعيدبن جبير وعُبيدبن عمير. أبوالفتوح ١: ٢٩٥؛ التبيان ١: ٣٤٠؛ مجمع البيان ١: ٢٩٥؛ البغوي ١: ١٤١؛ القرطبي ٢: ٢٤؛ ابن كثير ١: ١٢٧.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١٦٨ / ٨٨٤؛ البخاري ٥: ٢٢٢، كتاب التفسير، سورة النحل، ولم يذكر الراوي؛ ابن كثير ١: ١٢٧.

(٣) العظمة ٢: ٧٧٦ ـ ٧٧٧ / ٣٥٢ ـ ١٤، باب ذكر الملائكة الموكّلين في السماوات والأرض.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٦٨ / ٨٨٣.

(٥) الطبري ١: ٥٦٩ / ١٢٢٦؛ الثعلبي ١: ٢٣٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٩ / ٨٤.

(٦) الطبري ١: ٥٦٩ / ١٢٢٨؛ الثعلبي ١: ٢٣٣.

(٧) الطبري ١: ٥٦٩ / ١٢٢٧.

(٨) المصدر / ١٢٢٩.

روحاً، كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾[(١)] [(٢)].

[٢٥٩٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح قال: الروح: حفظة من الملائكة[(٣)].

[٢٥٩١/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس قال: القدس هو الربّ تبارك وتعالى[(٤)].

[٢٥٩٢/٢] وهكذا روي عن مجاهد والحسن قالا: القدس هو الله تعالى وروحه جبريل[(٥)].

[٢٥٩٣/٢] وعن السدّي قال: القدس البركة[(٦)].

[٢٥٩٤/٢] وعن ابن عبّاس قال: القدس المطهّر[(٧)].

[٢٥٩٥/٢] وأخرج الزبير بن بكّار في أخبار المدينة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من كلّمه روح القدس لن يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه»[(٨)].

والظاهر: أنّ الضمير يرجع إلى نفسه الكريمة، فلا يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه بعد الدفن، وذلك ببركة روح القدس الذي أفاض عليه أنوار الملكوت.

[٢٥٩٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: الله القُدُس، وأيّد عيسى بروحه. قال: نعت الله، القُدُس. وقرأ قول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ قال: القُدُس والقُدّوس واحد[(٩)].

[٢٥٩٧/٢] وعن عطاء بن يسار، قال: قال: نعت الله: القُدُس[(١٠)].

---

(١) الشورى ٤٢: ٥٢.

(٢) الطبري ١: ٥٦٩ / ١٢٣١؛ الثعلبي ١: ٢٣٣، بلفظ: وقال ابن زيد: هو الإنجيل جُعل لعيسى روحاً كما جُعل القرآن لمحمّد ﷺ روحاً. قال: يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ مجمع البيان ١: ٢٩٥، بلفظ: وقال ابن زيد: المراد بروح القدس الإنجيل كما سمّي القرآن روحاً... قال: فكذلك سمّي الإنجيل روحاً؛ التبيان ١: ٣٤٠؛ أبوالفتوح ٢: ٥١؛ ابن كثير ١: ١٢٧.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٦٩ / ٨٨٥؛ ابن كثير ١: ١٢٧.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٦٩ / ٨٨٧.

(٥) القرطبي ٢: ٢٤؛ التبيان ١: ٣٤١ عن ابن زيد؛ ابن كثير ١: ١٢٧.

(٦) ابن أبي حاتم ١: ١٦٩ / ٨٨٨.

(٧) المصدر / ٨٨٩.

(٨) الدرّ ١: ٢١٣.

(٩) الطبري ١: ٥٧٠ ـ ٥٧١ / ١٢٣٥؛ التبيان ١: ٣٤١.

(١٠) الطبري ١: ٥٧١ / ١٢٣٦.

الروح في المصطلح القرآني

جاء استعمال لفظة الروح في القرآن مكرّرة[١]، مضافة ومفردة أو موصوفة ويختلف معناها حسب الموارد. وأكثر استعمالها في سور مكّيّة:

أُولاها سورة القدر[٢]: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾.

ثانيتها سورة صٓ[٣]: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن روحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

ثالثتها سورة مريم[٤]: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾.

رابعتها سورة الشعراء[٥]: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

خامسها سورة الإسراء[٦]: ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

فإذا لاحظنا أنّ السؤال هنا ـ في سورة الإسراء ـ ناظر إلى ما ورد في السور الأربع قبلها، مع العلم بأنّ الروح في سورة القدر وفي سورة مريم، هو المراد به في سورة الشعراء: جبرائيل؈ لأنّه الّذي نزل بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ وقد تمثّل لمريم بشراً سويّاً، ويتنزّل مع الملائكة كلّ ليلة قدر.

أمّا الروح في سورة «صٓ» فمراد به الروح الّتي نفخها الله في آدم ليكون مسجود الملائكة وهكذا الوارد في سورة الحجر المكيّة أيضاً[٧].

وكذا الوارد في سورة السجدة المكّيّة: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[٨] هي الروح الملكوتيّة المنفوخة في الإنسان ليصبح خليفة الله في الأرض وهو المعبّر عنه في سورة المؤمنون المكيّة

(١) أكثر من عشرين مرّة.

(٢) رقم نزولها بمكة: ٢٥. رقم ثبتها في المصحف: ٩٧.

(٣) رقم نزولها بمكة: ٣٨. رقم ثبتها في المصحف: ٣٨، الآية: ٧٢.

(٤) رقم نزولها بمكة: ٤٤. رقم ثبتها في المصحف: ١٩، الآية ١٧.

(٥) رقم نزولها بمكة: ٤٧. رقم ثبتها في الصحف: ٢٦، الآية: ١٩٣.

(٦) رقم نزولها بمكة: ٥٠. رقم ثبتها في الصحف: ١٧ الآية: ٨٥.

(٧) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ الحجر ١٥: ٢٩ رقمها المكّي: ٥٤.

(٨) السجدة ٣٢: ٩ رقمها المكّي: ٧٥.

بالخَلْق الآخر: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١] خلقاً آخر ملكوتيّاً مترفّعاً عن سائر الأحياء الأرضيّين ومن ثمّ بارك الله نفسه في هذه الخلق البديع.

[٢/٢٥٩٨] قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق خلقاً وخلق روحاً، ثمّ أمر ملكاً فنفخ فيه»[٢] وهذه الروح مخلوقة لله تعالى من الصفوة وخصّ بها أصفياء خلقه آدم وذرّيّته وكانت نسبتها إلى الله نسبة تشريف حيث مقام الاصطفاء فكانت ذات مقام ملكوتي رفيع.

[٢/٢٥٩٩] روى الصدوق بإسناده الصحيح عن عمربن أذينة عن محمّدبن مسلم قال: سألت الإمام أباجعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قال: «روح اختاره الله واصطفاه وخلقه، وأضافه إلى نفسه، وفضّله على جميع الأرواح، فأَمَرَ فنُفخ منه في آدم»[٣].

[٢/٢٦٠٠] وروى بالإسناد الصحيح إلى الحلبيّ وزرارة عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أحدٌ، صمدٌ، ليس له جوف. وإنّما الروح خلق من خلقه: نصرٌ وتأييدٌ وقوّةٌ، يجعله الله في قلوب الرسل والمؤمنين»[٤].

ولعلّ المراد به في هذا الحديث هي الّتي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٥]. أي روحانيّة مترفّعة عن أدناس الحياة الدنيا[٦].

[٢/٢٦٠١] وروى بالإسناد إلى محمّدبن مسلم قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فقال: «وإنّما أضافه إلى نفسه لأنّه اصطفاه على سائر الأرواح، كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال: بيتي[٧]. وقال لرسول من الرسل: خليلي[٨] وأشباه ذلك. قال: وكلّ ذلك مخلوق مصنوع مُحدَث مربوب مدبَّر»[٩].

[٢/٢٦٠٢] وروى بالإسناد إلى أبي جعفر الأصمّ قال: سألت أباجعفر الباقر عليه السلام عن الروح التي في

---

(١) المؤمنون ٢٣: ١٤ رقمها المكّي: ٧٤.

(٢) البحار ٥٨: ٣٢ / ٥؛ التوحيد: ١٧٢ / ٦، باب ٢٧.

(٣) التوحيد: ١٧٠ / ١، باب ٢٧.

(٤) المصدر: ١٧١ / ٢.

(٥) المجادلة ٥٨: ٢٢ مدنيّة رقم نزولها: ١٠٦.

(٦) راجع: كتاب التوحيد: ١٧١ / ٢.

(٧) البقرة ٢: ١٢٥. والحجّ ٢٢: ٢٦.

(٨) النساء ٤: ١٢٥.

(٩) التوحيد: ١٧١ / ٣.

آدم والتي في عيسى ماهما؟ قال: «روحان مخلوقان، اختارهما واصطفاهما، روح آدم وروح عيسى عليه السلام»[١].

[٢٦٠٣/٢] وبالإسناد إلى سيف بن عُمَيرة عن أبي بصير عن الإمام أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، قال: «من قدرتي»[٢]. أي الروح المنفوخة في آدم أيضاً مخلوقة بقدرتي وواقعة في قبضتي والنسبة إليه تعالى تشريف، وإلّا فكلّ ما في الوجود مخلوق لله وواقع تحت قدرته تعالى... فذلك نظير قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٣] أي كان تحت عنايتنا الخاصّة.

* * *

ورجّح جمهور المفسّرين أن يكون السؤال عن الروح بهذا المعنى وهي الروح التي بها حياة الإنسان وبها تكون حقيقته وأصله وهي التي اختلفت أنظار الفلاسفة منذ القديم في معرفة حقيقتها وبما أنّها حقيقة ملكوتيّة، كانت الأنظار الماديّة قاصرة عن إدراكها وعن تعقّلها كما هي![٤]

ويتأيّد ذلك ما ورد أنّ الباعث لقريش في سؤالهم هذا، هم اليهود، سألتهم قريش أن يعرّفوهم شيئاً يسألون عنه محمّداً صلى الله عليه وآله ليستخبروا حاله، أهو نبيّ كما يقول، أم يدّعي أمراً لا ينبغي له؟! فأوعز إليهم اليهود أن يسألوه عن الروح، وهم يعلمون أنّه من مشاكل المسائل التي عطبت فيها أفهام فطاحل الحكماء.

[٢٦٠٤/٢] روى محمّد بن إسحاق بإسناده إلى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عبّاس قال: إنّ قريشاً بعثت النضر بن الحارث بن كلدة وعُقبة بن أبي مُعيط إلى يثرب، ليسألا أحبار اليهود عن أخبار نبيّ ظهر بينهم، فهل يجدون صفته عندهم؟ فخرجا حتّى قدما المدينة وسألا الأحبار عن شأن محمّد صلى الله عليه وآله.

---

(١) المصدر: ١٧٢ / ٤.

(٢) المصدر / ٥.

(٣) سورة ص ٣٨: ٧٥.

(٤) قال ابن عاشور: قال الجمهور: المسؤول عنه هو الروح الإنسانية. لأنّه الأمر المشكل الّذي لم تتّضح حقيقته. وأمّا الروح بمعنى الملك أو روح الشريعة فهما من المصطلح القرآني الحديث. وقد ثبت أنّ اليهود سألوا عن الروح بذاك المعنى، لأنّه الوارد في أوّل سفر التكوين من التوراة في الأصحاح الأوّل: «وروح الله يَرُفُّ على وجه المياه» وليس الروح بالمعنيين الأُخريين بوارد في كتبهم. (التحرير والتنوير ١٤: ١٥٥).

فقال لهما الأحبار: سلوه عن ثلاث مسائل: عن الفتية أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح حتّى يظهر لكم صدق نبوّته.

فقدما مكّة وعرضت قريش الأسئلة عليه ﷺ. فسألوه عن ذي القرنين، فجاء الوحي: ﴿قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾[1].

وهكذا ذكر تعالى قصّة أصحاب الكهف مع شيء من التفصيل[2].

وأما السؤال عن الروح فجاء في سورة الإسراء، مع الإجمال في الجواب، حيث لامجال حينذاك ولامقتضى للتفصيل والبيان، بعد قصور أفهام العرب عن إدراك هكذا مسائل مستعصية.

قال سيّد قطب: وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل. ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الّذي يُدركه. فلا جدوى في الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لايملك العقل إدراكه، لأنّه لايملك وسائل إدراكه[3].

قلت: الجواب وافٍ شافٍ، وليس إقناعيّاً محضاً وتملّصاً عن الجواب الصريح ـ كما زُعم ـ بل الحقيقة هي: أنّ الروح الإنسانيّة هي من سنخ الملكوت الأعلى «هبطت إليك من المكان الأرفع». فإذ لم يكن باستطاعة مُدرِكات الإنسان أن تدرك ماوراء عالم الحسّ والشهود، إذ ما لديه من وسائل الإدراك إنّما خصّت بما يسانخها من مُدْرَكات، فلامجال لفهم ماسواها سوى الإذعان بوجودها وأنّها من عالم أعلا ومن أمر الله. أي شأنه شأن سائر المغيّبات وراء عالم الملكوت.

* * *

والسورة السادسة ـ الّتي جاء فيها ذكر الروح ـ هي سورة الحجر المكيّة[4]. وآيتها عين آية سورة «صٓ»[5] ـ وكانت ثانية السور في ذلك ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَاجِدِينَ﴾.

---

(١) الكهف ١٨: ٨٣.

(٢) الكهف ١٨: ٩ ـ ٢٦. رقم نزولها: ٦٩.

(٣) في ظلال القرآن ٥: ٣٥٧.

(٤) رقم نزولها: ٥٤. رقم ثبتها في المصحف: ١٥. الآية: ٢٩.

(٥) رقم نزولها: ٣٨. رقم ثبتها في المصحف: ٣٨. الآية: ٧٢.

والسابعة سورة غافر[١]: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

والثامنة سورة الشورى[٢]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

والتاسعة سورة النحل[٣]: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَآئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

والروح في هذه المواضع الثلاثة يراد به منهاج الشريعة الهادي إلى طريق الرشاد. وفيه الحياة والسعادة والهناء. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٤].

والآية في سورة الشورى هكذا تبتدىء: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ. وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[٥].

وهكذا في السورتين الأُخريين كان السياق فيهما سياق التبشير والإنذار.

* * *

وفي سورة النحل أيضاً قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يراد به جبرائيل رسول الوحي إلى الأنبياء ﷺ وهو الروح الأمين الّذي نزل بالقرآن على قلب سيّد المرسلين[٦].

وسنتكلّم عن روح القدس الّذي يتأيّد به الأنبياء ﷺ. وقد جاء التعبير به في سور مدنية[٧].

* * *

(١) رقم نزولها بمكة: ٦٠. رقم ثبتها في المصحف: ٤٠. الآية: ١٥.

(٢) رقم نزولها بمكة: ٦٢. رقم ثبتها في المصحف: ٤٢. الآية: ٥٢.

(٣) رقم نزولها بمكة: ٧٠. رقم ثبتها في المصحف: ١٦. الآية: ٢.

(٤) الأنفال ٨: ٢٨.

(٥) الشورى ٤٢: ٥١ ـ ٥٣.

(٦) الشعراء ٢٦: ١٩٣.

(٧) البقرة ٢: ٨٧ و ٢٥٣. والمائدة ٥: ١١٠.

والسورة العاشرة سورة الأنبياء[١]: ﴿وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾. والآية بعينها تكرّرت في سورة مدنيّة: سورة التحريم: ﴿الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيه مِن رُّوحِنَا﴾[٢].

غير أنّ الموصول في سورة الأنبياء جاء عطفاً، وفي سورة التحريم وصفاً.

أمّا اختلاف التأنيث والتذكير فتنوّع في الكلام تارة نظراً إلى ذات الشيء، وأخرى إلى متعلّقه كقولك: نظرت إلى وجه هندٍ فرأيتها جميلة أو فرأيته جميلاً.

والروح هنا هو الروح في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٣]. فقد كان عيسى عليه السلام روحاً منه سبحانه ألقاه إلى مريم وشرّفها به وجعلها وابنها آية للعالمين[٤].

* * *

والحادية عشرة سورة السجدة[٥]: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ مراداً به الروح الإنسانيّة المفاضة على الإنسان من ملكوت أعلا. كما مرّ الحديث عنه في سورة ص برقم ٢. وسورة الحجر برقم ٦.

والثانية عشرة سورة المعارج[٦]: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وهذه الروح الصاعدة الرافعة ببركات الأرض، هي التي نزلت ببركات السماء ليلة القدر[٧]. فكان هذا العروج إيذاناً بنهاية الحياة على الأرض، للحشر على صعيد القيامة.

وهي التي تقوم صفاً مع الملائكة يوم الحساب تنتظر أمر الإلّه كما في السورة التالية:

---

(١) رقم نزولها بمكة: ٧٣. رقم ثبتها في المصحف: ٢١. الآية: ٩١.

(٢) التحريم ٦٦: ١٢. رقم نزولها: ١٠٨.

(٣) النساء ٤: ١٧١. رقم نزولها: ٩٢.

(٤) الأنبياء ٢١: ٩١.

(٥) رقم نزولها بمكة: ٧٥. رقم ثبتها في المصحف: ٣٢. الآية: ٩.

(٦) رقم نزولها بمكة: ٧٩. رقم ثبتها في المصحف: ٧٠. الآية: ٤.

(٧) ولعلّه إلى ذلك ينظر ما أخرجه الزبير بن بكّار في أخبار المدينة عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كلّمه روح القدس لن يُؤذن للأرض أن تأكل من لحمه». (الدرّ ١: ٢١٣). والظاهر أنّ الضمير يرجع إلى نفسه الكريمة. فلا تأكل الأرض لحمه بعد الدفن. حيث وقايته بالكلمة الّتي ألقاها إليه روح القدس.. وقد تقدم الحديث.

والثالثة عشرة سورة النبأ[١]: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَآئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَ قَالَ صَوَاباً . ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً﴾.

ذكر الشيخ أبوجعفر الطوسي: أنّ الروح النازل بالبركات ليلة القدر، والروح الصاعد بها إلى السماء، كلاهما في الموردين هو جبرائيل ؑ[٢] لأنّه الّذي ينزل بالروح من أمره على من يشاء من عباده[٣] وأخيراً يعرج به في نهاية المطاف.

قاله بشأن الروح في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَآئِكَةُ صَفًّا...﴾: قال الضحّاك والشعبي: الروح هو جبرائيل ؑ. وقال ابن مسعود وابن عبّاس: ملك من أعظم الملائكة خلقاً. قال الشيخ: وهو المرويّ في أخبارنا[٤].

قلت: إذا كان النازل برَوْح الله والصاعد به هو جبرائيل، فليكن المسؤول والشاهد على إقامته باستقامة أو انحراف في مسرح الحياة، شهادةً صادقة يوم الحساب هو جبرائيل أيضاً الأمر الّذي تستدعيه المناسبة القريبة.

والقول بأنّه ملك من أعظم الملائكة لاينافي كونه جبرائيل، لأنّه من أعظم الملائكة خلقاً وقُرْباً إليه تعالى.

والأخبار التي أشار إليها الشيخ، لعلّها ناظرة إلى روح القدس الّذي يرافق الأنبياء والأئمّة وصالحي المؤمنين. وهي نفحة رحمانيّة، ذات قدسيّة ملكوتيّة[٥]، جاءت تسدّد خُطى الأولياء المقرّبين وتؤيّدهم وتهديهم حيث سبيل الصواب ولاشكّ أنّها ذات مراتب متصاعدة حسب ارتقائهم على مدارج الكمال.

وإليك بعض الحديث عنه:

---

(١) رقم نزولها بمكة: ٨٠. رقم ثبتها في المصحف: ٧٨. الآية: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) راجع: التبيان ١٠: ٣٨٦ بتفسير سورة القدر. و: ١١٤ بتفسير سورة المعارج.

(٣) النحل ١٦: ٢.

(٤) التبيان ١٠: ٢٤٩.

(٥) كما في رواية الصفار عن الصادق ؑ. البصائر: ٤٦٢ / ٩.

روح القُدُس

قال تعالى ـ بشأن عيسى بن مريم عليه السلام ـ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾[١].

وقال: ﴿وَ آتَينا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٢] وتكرّرت[٣].

وقال تعالى ـ بشأن صالحي المؤمنين ـ: ﴿...أُوْلَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيـمانَ وَ أَيَّـدَهُم بِـرُوحٍ مِّنْهُ...﴾[٤].

[٢٦٠٥/٢] قال عليّ بن إبراهيم القمي: الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل، كـان مـع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمّة[٥]. وهو من الملكوت ـ كما في رواية الصفّار ـ[٦].

[٢٦٠٦/٢] وهكذا روى الصفّار بإسناده إلى أبي الصباح الكناني عن أبي بصير، سأل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك فقال: «خلق من خلق الله، أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يُخبره ويسدّده، وهو مع الأئمّة من بعده»[٧].

[٢٦٠٧/٢] وفي رواية يونس عنه قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن هذه الروح، فقال: «يا أبا محمّد، خلق والله أعظم من جبرائيل وميكائيل، وقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمّة يخبرهم ويسدّدهم»[٨].

[٢٦٠٨/٢] وعن سلّام بن المستنير عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنّه أي الروح الذي هبط إلى رسول الله يرافقه ويسدّده ـ لم يصعد إلى السماء منذ هبط، ولا يزال يسدّد الأئمّة من بعده. وبذلك روايات كثيرة»[٩].

* * *

[٢٦٠٩/٢] وروي بالإسناد إلى محمّدبن الفضيل عن أبي حمزة، قال: سألت أبا عبدالله

---

(١) المائدة ٥: ١١٠. مدنيّة رقم نزولها: ١١٣.
(٢) البقرة ٢: ٨٧. مدنيّة. رقم نزولها: ٨٧.
(٣) البصائر: ٢٥٣.
(٤) المجادلة ٥٨: ٢٢. مدنيّة. رقم نزولها: ١٠٦.
(٥) القمي ٢: ٣٥٨.
(٦) البصائر: ٤٦٢ / ٩، باب ١٨.
(٧) المصدر: ٤٥٥ / ٢، باب ١٦.
(٨) المصدر / ١.
(٩) راجع: المصدر: ٤٥٥ ـ ٤٥٨ من رقم ٣ ـ إلى ـ ١٥.

الصادق عليه السلام عن العلم ما هو؟ أعلم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال أو في كتاب عندكم تقرأونه فَتَعْلَمون منه؟ فقال: «الأمر أعظم من ذلك وأجلّ! أما سمعت قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَاكُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾[1].

قال عليه السلام: بلى قد كان صلى الله عليه وآله في حال لايدري ما الكتاب ولا الايمان، حتّى بعث الله إليه تلك الروح الّتي يعطيها الله من يشاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم والعلم»[2].

[٢٦١٠/٢] وعن الحسن بن عليّ بن فضّال عن أبي جميلة عن محمّد الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أحد صمد، والصمد الشيء الذي ليس له جوف[3]. وإنّما الروح خلق من خلقه، له بصر وقوّة وتأييد، يجعله الله في قلوب الرسل والمؤمنين»[4].

[٢٦١١/٢] وعن المفضّل بن عمر عنه عليه السلام قال: «مثل المؤمن وبدنه كجوهرة في صندوق، إذا خرجت الجوهرة منه طرح الصندوق ولم تتعب به. قال: إنّ الأرواح لاتمازج البدن ولاتداخله، إنّما هي كالكلل للبدن محيطة به»[5].

وفي الروايات تأكيد على أنّ الروح التي تسدّد الأنبياء والأئمّة والصلحاء، غير جبرائيل عليه السلام بل خلق أعظم منه[6].

* * *

وجاء في وصف روح القدس أنّها العاصمة للأنفس الزكيّة، فلا تلهو ولاتقترف كبيرة، وتجعلها على وعي أبداً.

[٢٦١٢/٢] روى الصفّار بالإسناد إلى الحسن بن جهم عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «من سكن فيه روح القدس، فإنّه لايعمل بكبيرة أبداً»[7].

---

(١) الشورى ٤٢: ٥٢ـ٥٣.
(٢) البصائر: ٤٥٨ـ٤٦٠/ ١ـ٥، باب ١٧.
(٣) أي ليس لله روح في باطن جوفه كما في غيره من الأحياء.
(٤) البصائر: ٤٦٣/ ١٢، باب ١٨.
(٥) المصدر/ ١٣.
(٦) راجع: البصائر: ٤٦٤/ ٣و ٤، باب ١٩، والبحار ٢٥: ٥٩.
(٧) البحار ٢٥: ٥٥/ ١٤؛ البصائر: ٤٤٧/ ٣.

[٢٦١٣/٢] وعن جابر الجُحفي عن الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح الحياة وروح القوّة وروح الشهوة. فبروح القدس علموا الأشياء كلّها قال: إنّ سائر الأرواح قد يصيبها الحَدَثان، إلّا أنّ روح القدس لايلهو ولايلعب»[١].

[٢٦١٤/٢] وبالإسناد إلى حمران بن أعين عن جُعَيد الهمداني قال: سألت الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ: بأيّ حكمٍ تحكمون؟ قال: «نحكم بحكم آل داوود، فإن عيينا شيئاً تلقّانا به روح القدس»[٢].

قوله: بحكم آل داوود، أراد داوود نفسه وقد شاع هذا التعبير. قال ابن الأثير: ومنه الحديث: «لقد أعطي مزماراً من مزاير آل داوود» أراد: من مزامير داوود نفسه. والآل صلة. وقد تكرّر ذكر الآل في الحديث[٣].

قال العلّامة المجلسي: قوله: بحكم آل داوود، أي نحكم بعلمنا ولانسأل بيّنة. كما كان داوود يفعله أحياناً[٤].

[٢٦١٥/٢] وبالإسناد إلى الحسن بن العبّاس بن حريش عن الإمام أبي جعفر الثاني محمد بن علي الجواد ﷺ يرفعه إلى الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «إنّ الأوصياء محدَّثون؛ يُحدّثهم روح القدس ولايرونه. وكان عليّ ﷺ يَعْرُضُ على روح القدس ما يسأل عنه، فَيُوجس في نفسه أن قد أصبت بالجواب فيخبر، فيكون كما قال»[٥].

[٢٦١٦/٢] وبالإسناد إلى هشام بن سالم عن عمّار أو غيره قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: فبما تحكمون إذا حكمتم؟ فقال: «بحكم الله وحكم داوود[٦] وحكم محمّد ﷺ قال: فإذا ورد علينا ما ليس في كتاب عليّ، تلقّانا به روح القدس، وألهمنا الله إلهاماً»[٧].

[٢٦١٧/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «إنّ منّا لمن يعاين معاينة.

---

(١) البصائر: ٤٤٧ / ٤.
(٢) المصدر: ٤٥١ / ٢، باب ١٥؛ البحار ٢٥: ٥٦ / ١٧.
(٣) النهاية لابن الأثير ١: ٨١. (أوّل).
(٤) البحار ٢٥: ٥٦. وراجع: البصائر: ٢٥٨ / ١.
(٥) البصائر: ٤٥٣ / ٩؛ البحار ٢٥: ٥٧ / ٢٤. قوله: فيوجس في نفسه أي أحسّ من داخل ضميره.
(٦) أي حكماً نظير حكم داوود، كان يحكم بعلمه الخاصّ.
(٧) البصائر: ٤٥٢ / ٦ باب ١٥. والبحار ٢٥: ٥٦ / ٢١.

وإنّ منّا لَمَنْ يُنْقَرُ في قلبه كيت وكيت. وإنّ لمن يسمع كوقع السلسلة تقع في الطست»[١].

هذا بيان لأنواع التبصّر الروحي الحاصل لخُلَّص عباد الله المقرّبين، من أنبياء وأوصياء وصُلحاء... فمنهم من يعاين روح القدس ماثلاً لديه، ومنهم من يُنكت في قلبه ويُلْهم الحقائق الملكوتيّة فيحسّ بها من داخل ضميره، ومنهم من يَسْتمع إلى الوحي يَنْزل عليه وله وقعٌ كوقع السلسلة تصيب الطِشت.

ومنهم من يرى في المنام الرؤيا الصادقة، كما في رؤيا إبراهيم عليه السلام وللعلّامة المجلسي هنا بيان لطيف بشأن الأرواح الخمسة الواردة في هذه الروايات ولا سيّما روح القدس. قال: ولعلّ المراد بها هي مراتب النفس الكماليّة، تبتدىء بصفات جسمانيّة، وتتصاعد درجات لتبلغ مرتبة الشفّافيّة الملكوتيّة، المعبّر عنها بروح القدس، هي روحاء واسعة الأرجاء، طيّبة زكيّة نقيّة، تتجلّى فيها قدسيّة الحقائق المتعالية، والمهيمنة على آفاق الوجود والمصطلح عنها بعوالم الكشف والشهود[٢].

[٢٦١٨/٢] قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... وما بَرِحَ لله ـ عزّت آلاؤه ـ في البُرهة بعد البُرهة، وفي أزمان الفَتَرات، عبادٌ ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظةٍ في الأبصار والأسماع والأفئدة... حتّى كأنّهم يرون مالايرى الناس، ويسمعون مالايسمعون... فلو مثّلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة[٣] ومجالسهم المشهودة... لرأيت أعلام هدىً ومصابيح دجىً، قد حفّت بهم الملائكة، وتنزّلت عليهم السكينة، وفُتحت لهم أبواب السماء»[٤].

وهذا هو المعبّر عنه في كثير من الروايات بعمود النور، يرون فيه ما غاب وحضر.

[٢٦١٩/٢] كما جاء عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة، ليست بملك كانت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهي مع الأئمّة منّا، تسدّدهم وتوفّقهم، وهو عمودٌ من نور بيننا وبين الله ـ عزّ وجلّ ـ»[٥].

[٢٦٢٠/٢] وسأل المأمون العبّاسي الإمام الرضا عليه السلام عن علمهم بما في قلوب الناس؟ فقال: أما بلغك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله»!! قال: «وما من مؤمن إلّا وله

(١) البحار ٢٥: ٥٠ ـ ٥١ / ١١ عن البصائر.
(٢) راجع: بحارالأنوار ٢٥: ٥٣ ـ ٥٤.
(٣) جمع مقام: مقاماتهم في خطاب الوعظ.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٢.
(٥) العيون ٢: ٢٠٠ / ٢؛ (باب ٤٦، ما جاء عن الرضا عليه السلام في وجه دلائل الأئمّة)؛ البحار ٢٥: ٤٨ / ٧.

فراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه، وقد جمع الله في الأئمّة ـ من أهل البيت ـ ما فرّقه في جميع المؤمنين ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[(١)].

قال: فأوّل المتوسّمين هو رسول الله ثمّ أمير المؤمنين وولده الأئمّة من بعده»[(٢)].

والأحاديث عن المعصومين بشأن عمود النور، يجعل الله بينه وبينهم، ينظر به إليهم وينظرون به إليه كثيرة ومتضافرة وهو كناية عن تلك البصيرة الوقّادة الّتي يُنْعَمُ بها الخُلَّصُ من عباده الصالحين. وتتّسع آفاقها حسب مراتب الكمال ومبلغ الإيمان، حتّى تبلغ أقصاها في الكُمَّلين.

[٢٦٢١/٢] جاء في حديث صالح بن سهل مع الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «... إنّ الله جعل بينه وبين الإمام عموداً من نور، ينظر الله به إلى الإمام، وينظر الإمام به إليه. فإذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً نظر في ذلك النور فعرفه»[(٣)].

قال العلّامة المجلسي: نظر الله تعالى إليه، كناية عن إفاضاته تعالى عليه. ونظره إليه تعالى، كناية عن غاية عرفانه[(٤)].

[٢٦٢٢/٢] ويتأيّد ذلك بما رواه الصفّار بالإسناد إلى إسحاق الحريري قال: كنت عند الإمام أبي عبدالله عليه السلام فسمعته يقول: «إنّ لله عموداً من نور، حجبه الله عن سائر الخلق، طرفه عند الله وطرفه الآخر في أذن الإمام، فإذا أراد الله شيئاً أوحاه في أذن الإمام»[(٥)].

ولا غرابة فإنّ المؤمن مُحَدَّث أي مُلْهَمٌ من عند الله وفي رعايته تعالى، فضلاً عن أولئك الّذين بلغوا مرتبة الشهود، ولمسوا حقائق الأشياء في قرب الحضور.

وقد مرّ عليك كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيما حكاه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: «... إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنّك لست بنبيّ»[(٦)].

فالإمام المعصوم، حيث بلغ أعلا مراتب الإيمان وصفى قلبه في أعلا مراتب الجلاء فقد بلغ

---

(١) الحجر ١٥: ٧٥. والتوسّم: الفطنة والفراسة والذكاء البالغ. قال الراغب: وهو الذي سمّاه قوم الزكانة. وهي الفطنة والفراسة. والزكانة: إصابة الظنّ وصدقه.

(٢) العيون: ٢٠٠ / ١.

(٣) البصائر: ٤٤٠ / ٢، باب ١٢.

(٤) البحار ٢٦: ١٣٥ / ١٠.

(٥) البصائر: ٤٣٩ / ١، باب ١٢. والإيحاء هنا: نَفْثٌ في القلوب. يقال: نَفَثَ اللهُ الشيءَ في قلبه أي ألقاه. ونُفِث في رَوْعي أو قلبي أي ألهمته.

(٦) نهج البلاغة ٢: ١٥٨، الخطبة القاصعة: ١٩٢.

مرتبة الشهود التي بلغها الأنبياء، فيوقر في أذنهم وينكت في قلوبهم وقد يعاينون من عوالم الغيب ما يعاينها الأنبياء، سوى أنّهم ليسوا بأنبياء فلا يوحى إليهم ما يوحى إلى الأنبياء من وحي الرسالة وإن كانوا يُلهمون ويُحدَّثون كما يُلهم الأنبياء ويُحدَّثون.

وقد سبق حديث الإمام أبي جعفر الثاني عن جدّه الإمام أبي جعفر الأوّل: أنّ الأوصياء مُحدَّثون، يُحدّثهم روحُ القدس ولا يرونه[1] كناية عن إلهامات تُفاض عليهم من عالم القدس والملكوت وقد استفاض الحديث الوارد بشأن الأئمّة وأنّهم محدَّثون.

[٢٦٢٣/٢] روى ابن شهر آشوب عن أبي جعفر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أهل بيتي اثنا عشر نقيباً مُحدَّثون مُفهَّمون»[2].

[٢٦٢٤/٢] وروى النعماني بالإسناد إلى أبي جعفر عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال: «من أهل بيتي اثنا عشر محدَّثاً»[3].

[٢٦٢٥/٢] وروى المفيد بالإسناد إلى أبي هاشم الجعفري قال: سمعت الرضا ﷺ يقول: «الأئمّة علماء حلماء صادقون، مُفَهَّمون مُحدَّثون»[4].

[٢٦٢٦/٢] وروى عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: فما آية المحدَّث؟ قال: «يأتيه ملك فينكت في قلبه كيت وكيت»[5].

نعم هنالك المؤمن الصادق في إيمانه، جعله الله في رعايته وألهمه الخير، وأصبح محدَّثاً مفهّماً.

[٢٦٢٧/٢] روى الصدوق بإسناده إلى عُبيد بن هلال، قال: سمعت أبا الحسن الرضا ﷺ يقول: «إنّي أحبُّ أن يكون المؤمن محدَّثاً! قلت: وأيّ شيء المحدَّث؟ قال: مفهَّم»[6] أي ملهماً واعياً.

[٢٦٢٨/٢] وروى الكشّي بإسناده إلى الصادق ﷺ قال: «اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنّا، فإنّا لانعدّ الفقيه منهم فقيهاً حتّى يكون محدَّثاً. فقيل له: أو يكون المؤمن محدَّثاً؟

---

(١) البحار ٢٥: ٥٧ / ٢٤. البصائر: ٤٧٣ / ٩.

(٢) البحار ٣٦: ٢٧١ / ٩٢؛ المناقب لابن شهر آشوب ١: ٢٥٨.

(٣) البحار: ٢٧٢ / ٩٥؛ الغيبة للنعماني: ٧٢ / ٦، باب ٤.

(٤) البحار ٢٦: ٦٦ / ١؛ الأمالي للشيخ: ٢٤٥ / ٤٢٦.

(٥) البحار ٦٧ / ٤؛ الأمالي للشيخ: ٤٠٧ / ٩١٤.

(٦) البحار ١: ١٦١ / ١؛ المعاني: ١٧٢، باب معنى المحدَّث؛ عيون الأخبار ٢: ٢٧٥ / ٦٨.

قال: يكون مفهّماً، والمفهَّم محدَّث»[1]. أي يكون واعياً، وموضع عنايته تعالى فألهمه الله.

* * *

وقد جاء في كثير من التعابير أنّ روح القدس نطق على لسان من تكلّم بالصواب:

[٢٦٢٩/٢] روى ابن بابويه الصدوق بإسناده عن الهروي قال: سمعت دعبل الخزاعي يقول: أنشدتُ مولاي عليّ بن موسى الرضا ﷺ قصيدتي التي أوّلها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

فلمّا انتهيت إلى قولي:

خروج إمامٍ لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والبركات

يميّز فينا كلّ حقّ وباطل ... ويجزي على النعماء والنقمات

بكى الرضا ﷺ بكاءً شديداً، ثمّ رفع رأسه إليّ فقال لي: «يا خزاعيّ، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين!»[2].

[٢٦٣٠/٢] وروى ثقة الإسلام الكليني بإسناده عن الكميت بن زيد الأسدي قال: دخلت على أبي جعفر ﷺ فقال: «والله يا كميت، لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»[3].

[٢٦٣١/٢] أمّا حديث حسّان بن ثابت، فهو على ما رواه أبو عبدالله المفيد في قصّة الغدير، قال: جاء حسّان إلى رسول الله ﷺ وقد تمّت البيعة لعليّ ﷺ فقال: ائذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله! فقال له: قل ياحسّان على اسم الله. فوقف على نَشَزٍ (مرتفع) من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخمٍّ وأسمع بالنبيّ منادياً

وقال: فمن مولاكم ووليّكم؟ ... فقالوا ولم يُبدوا هناك التوانيا

إلهك مولانا وأنت وليّنا ... ولن تجدن منا لك اليوم عاصياً

(١) البحار ٢: ٨٢ / ١.

(٢) البحار ٥١: ١٥٤ / ٤؛ عيون الأخبار ١: ٢٩٧ / ٥؛ إكمال الدين: ٣٧٢، باب ٣٥.

(٣) البحار ٤٦: ٣٤١ / ٣٢ الكافي ٨: ١٠٢ / ٧٥.

فقال له: قم يا عليّ فإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليّه فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا: اللّهم وال وليّه وكن للذي عادى عليّاً معاديا

فقال له رسول الله ﷺ: «لا تزال ـ يا حسّان ـ مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك!»[1].

ورواه الخوارزمي في المناقب[2] وغيره من أعلام[3].

[٢٦٣٢/٢] وأخرج ابن سعيد وأحمد والبخاري وأبو داوود والترمذي عن عائشة: «أنّ رسول الله وضع ﷺ لحسان منبراً في المسجد، فكان يُنافح عن رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: اللّهم أيّد حسّانَ بروح القدس كما نافح عن نبيّه»[4].

قوله تعالى: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾

وهذه بادرة أخرى تعنّتت بها بنو إسرائيل، تهكّماً بمواقف أنبيائهم واستهانةً بموضعهم الرسالي، بما يشي عن مهانتهم هم في الرأي والسلوك.

قالوا ـ استهزاءً بموضع رسالة الأنبياء ـ: قلوبُنا غلف ـ أي مغلّفة لا تنفذ فيها دعوة ولا تعي نصحاً ولا تتّعظ بعظة.

هذا كلام من بلغت به الشراسة مبلغها في اللؤم والشؤم.

---

(١) الارشاد ١: ١٧٧، (مصنّفات المفيد ١١). (٢) المناقب: ١٣٦.

(٣) راجع: الغدير ٢: ٣٤ ـ ٣٩.

ملحوظة: في تقييد النصرة باللسان هنا لطيفة: كان حسّان جباناً للغاية؛ جعله النبي ﷺ يوم الخندق في الحصن مع النساء والصبيان، فطاف عليهم يهوديّ، فقالت صفيّة لحسّان: لا آمن هذا اليهودي، انزل فاقتله! فقال: يغفر الله لكِ يا بنت عبدالمطّلب، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا! فأخذت صفيّة عموداً ونزلت من الحصن فضربت اليهوديّ فقتلته ورجعت إلى الحصن. ومن ثمّ لم يشهد مع النبيّ ﷺ شيئاً من مشاهده لجبنه (الكامل لابن الأثير ٢: ١٨٢).

(٤) الدرّ ١: ٢١٣؛ ابن كثير ١: ١٢٧؛ مسند أحمد ٦: ٧٢؛ الحاكم ٣: ٤٧٨ كتاب معرفة الصحابة؛ أبو داوود ٢: ٤٨٠ / ٥٠١٥ كتاب الأدب باب ٩٥: ما جاء في الشعر. الترمذي ٤: ٢١٦ ـ ٢١٧ / ٣٠٠٣، أبواب الاستيذان والآداب، باب ١٠٣ (ما جاء في إنشاد الشعر)؛ ابن عساكر ١٢: ٣٨٨ / ١٢٦٣؛ البخاري ٥: ٦١ بلفظ: عن هشام عن أبيه قال: ذهبت أسبّ حسّانَ عند عائشة فقالت: لا تسبّه، فإنّه كان يُنافح عن رسول الله ﷺ أي يدافع عنه، كأنّه يكشف الهمّ عنه.

إنّ القلوب ـ في أصل فطرتها ـ خلقت أوعية متفتّحة، تلتهم ما أُفيض عليها من ملكوت القدس لولا أن عارضها غطاء التعامي والإفراط في الجهالة.

ومنّ ثمّ فلا غطاء هناك، وإنّما هو التعامي عن تلقّي الحقّ الصراح. فقد لعنهم الله وأبعدهم عن ساحة رحمته بسبب كفرهم وإصرارهم على التباعد عنها، فمثل هؤلاء المتعنّتين قلّ منهم من يؤمن، حيث كان انفلاتٌ عن غواية الجهل والتعامي.

وبذلك وردت أحاديث:

[٢/٢٦٣٣] أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عبّاس: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي في أكنّة.

[٢/٢٦٣٤] وعن أبي طلحة عن ابن عبّاس قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي في غطاء[1].

[٢/٢٦٣٥] وأخرج وكيع عن عكرمة في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: عليها طابع[2].

[٢/٢٦٣٦] وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ عليها غشاوة[3].

[٢/٢٦٣٧] وأخرج عن عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: عليها طابع، قال: هو كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[4].[5].

[٢/٢٦٣٨] وعن شريك عن الأعمش قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: هي في غلف[6].

[٢/٢٦٣٩] وعن ابن زيد في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: يقول قلبي في غلاف، فلا يخلص إليه ممّا تقول. وقرأ: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[7].[8].

[٢/٢٦٤٠] وعن أسباط، عن السدّي: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: يقولون: عليها غلاف وهو الغطاء[9].

[٢/٢٦٤١] وقال مقاتل بن سليمان: فعرفوا أنّ الذي قال لهم النبيّ ﷺ حقّ فسكتوا ﴿وَ قَالُوا﴾

---

(١) الطبري ١: ٥٧٢ / ١٢٣٩.

(٢) الدرّ ١: ٢١٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧١ / ٨٩٩.

(٣) الدرّ ١: ٢١٤؛ الطبري ١: ٥٧٢ / ١٢٤٠؛ أبوالفتوح ٢: ٥٢ ـ ٥٣؛ الثعلبي ١: ٢٣٣.

(٤) فصّلت ٤١: ٥.

(٥) الطبري ١: ٥٧٣ / ١٢٤٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٧٩ / ٨٥.

(٦) الطبري ١: ٥٧٢ / ١٢٤١.

(٧) فصّلت ٤١: ٥.

(٨) الطبري ١: ٥٧٣ / ١٢٤٦.

(٩) الطبري ١: ٥٧٣ / ١٢٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٥.

للنبيّ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ يعني في غطاء ويعنون: في أكنّة عليها الغطاء فلا تفهم ولا تفقه ما تقول يا محمّد. كراهيّة لما سمعوا من النبيّ من قوله: إنّكم كذّبتم فريقاً من الأنبياء وفريقاً قتلتم. أي فإن كنت صادقاً فأفهمنا ما تقول(١).

[٢٦٤٢/٢] وأخرج الواحدي عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: إنهم قالوا استهزاء وإنكاراً لما أتى به النبي ﷺ: قلوبنا عليها غشاوة، فهي أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول يا محمّد! فأكذبهم الله فيما قالوا، وقال ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته وطردهم(٢).

[٢٦٤٣/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: قالوا: لا تفقه(٣).

[٢٦٤٤/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي لا تفقه(٤).

[٢٦٤٥/٢] وبهذا المعنى أيضاً ما رواه ابن أبي حاتم بالإسناد إلى قتادة عن الحسن قال: قلوبنا غلف: لم تُختَن(٥).

وغُلْف: جمع أغلف وغلفاء والمعنى: أنّه لم يرفع غطاؤها ولم تؤخذ جلدتها المُغَشّيَة لها فلا تستطيع الوعي والتفقّه.

قال أبو علي الفارسي: ما يُدْرَك به المعلومات من الحواسّ وغيرها، إذا ذكر بأنّه لا يعلم، وُصف بأنّ عليه مانعاً، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٦). فإنّ القُفل لمّا كان مانعاً من الدخول إلى المقفَّل عليه، شبّه القلوب [العاتية] به.

ومثله قوله تعالى: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾(٧). وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾(٨). ومثله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾(٩). وقوله ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾(١٠). لأنّ العين إذا كانت في غطاءٍ لم ينفذ شعاعها،

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) الوسيط ١: ١٧٢.
(٣) الدرّ ١: ٢١٤. الطبري ١: ٥٧٣ / ١٢٤٢؛ البغوي ١: ١٤١. عن مجاهد وقتادة؛ الثعلبي ١: ٢٣٣؛ أبوالفتوح ٢: ٥٢ ـ ٥٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٧. عن قتادة وأبي العالية.
(٤) الطبري ١: ٥٧٣ / ١٢٤٤.
(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٦.
(٦) محمّد ٤٧: ٢٤.
(٧) الحجر ١٥: ١٥.
(٨) الكهف ١٨: ١٠٢.
(٩) النحل ١٦: ٦٦.
(١٠) البقرة ٢: ١٧.

فلا يقع بها إدراك. فكأنّ شدّة عنادهم تحملهم على الشكّ في المشاهدات ودفع المعلومات(١).

* * *

وهناك تفسير آخر لغَلْف القلوب وهو امتلاؤها بالعلوم والمعارف فلا تكاد تستزيد.

[٢٦٤٦/٢] أخرج الطبراني في الأوسط بالإسناد إلى ابن عبّاس قال ـ في قوله: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ـ: مُثْقِلة، أوعية للحكمة. قال: قالت اليهود ـ حين دعاهم رسول الله ﷺ ليتعلّموا الحكمة ـ: كيف نتعلّم وقلوبنا إنّما هي غُلْف محكمة أي أوعية للحكمة أي ملآنة بالحكمة فلا فراغ فيها للزيادة.

والمُثْقِل: الذي ثَقُل حمله يقال للمرأة إذا ثَقُل حملها في بطنها ودنا وضعه: مُثْقِل ومُثْقِلة(٢).

[٢٦٤٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: مملوءة علماً لانحتاج إلى علم محمّد ﷺ ولا غيره!(٣).

[٢٦٤٨/٢] وأخرج عن فضيل بن مرزوق، عن عطيّة: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: أوعية للذكر.

وعن عبيدالله بن موسى، عن فضيل، عن عطيّة في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: أوعية للعلم(٤).

[٢٦٤٩/٢] وقال الكلبي: معناه: أوعية لكلّ علم، فهي لاتسمع حديثاً إلّا وَعَتْه إلّا حديثك لا تعقله ولا تعيه، ولو كان فيه خير لوعته وفهمته(٥).

[٢٦٥٠/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن عطية في قوله: ﴿وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: هي القلوب المطبوع عليها(٦).

---

(١) التبيان ١: ٣٤٢ـ٣٤٣؛ مجمع البيان ١: ٢٩٧.

(٢) الدرّ ١: ٢١٤؛ الأوسط ٥: ٤٧ـ٤٨؛ مجمع الزوائد ٧: ١٥٤، باب القراءات.

(٣) الدرّ ١: ٢١٤؛ الطبري ١: ٥٧٤ / ١٢٤٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٣؛ ابن كثير ١: ١٢٨، عن الضحاك عن ابن عبّاس؛ أبوالفتوح ٢: ٥٣، عن ابن عبّاس وعطاء والكلبي؛ الثعلبي ١: ٢٣٣، عن عطاء وابن عبّاس.

(٤) الطبري ١: ٥٧٣ـ٥٧٤ / ١٢٤٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٤.

(٥) الثعلبي ١: ٢٣٤؛ البغوي ١: ١٤١؛ أبوالفتوح ٢: ٥٣.

(٦) الدرّ ١: ٢١٤؛ الطبري ١: ٥٧٢ / ٢ـ١٢٣٩ عن ابن عبّاس؛ ابن كثير ١: ١٢٨، عن عطيّة العوفي عن ابن عبّاس.

وتفسير ثالث: لغَلْف القلوب، بمعنى أنّها ممتلئة بالأراجيف فلاتعي الحِكَمَ والمواعظ.

[٢٦٥١/٢] أخرج ابن أبي حاكم بإسناده إلى عطيّة العوفي قال: أوعية للمنكر(١).

قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

فسّره بعضهم بأنّه لايؤمن منهم إلّا قليل.

[٢٦٥٢/٢] أخرج عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة قال: لايؤمن منهم إلّا قليل(٢).

[٢٦٥٣/٢] وأخرج ابن جرير عن يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة قال: فلعمري لمن رجع من أهل الشرك أكثر ممّن رجع من أهل الكتاب، إنّما آمن من أهل الكتاب رهطٌ يسير(٣).

* * *

وفسّره آخرون بأنّهم لايؤمنون إلّا بقليل ممّا في أيديهم أو ممّا جاء نبيّ الإسلام ويرفضون ماسواه ممّا لايتوافق وهواهم.

[٢٦٥٤/٢] أخرج ابن جرير عن معمر، عن قتادة: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: لا يؤمن منهم إلّا قليل. قال معمر: وقال غيره: لا يؤمنون إلّا بقليل ممّا في أيديهم(٤).

[٢٦٥٥/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر والكلبي قالا: لايؤمنون إلّا بقليل ممّا في أيديهم ويكفرون بما وراءه(٥).

[٢٦٥٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فطبع على

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ١٧٠ / ٨٩٨.

(٢) الدرّ ١: ٢١٥؛ عبدالرزاق ١: ٢٧٩ / ٨٦؛ الطبري ١: ٥٧٥ / ١٢٥٠؛ الثعلبي ١: ٢٣٤.. بلفظ: «معناه: لايؤمن منهم إلّا قليل، لأنّ من آمن من المشركين أكثر ممّن آمن من اليهود. قاله قتادة.» ؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧١ / ٩٠٠؛ التبيان ١: ٣٤٣.

(٣) الطبري ١: ٥٧٥ / ١٢٤٩.

(٤) الطبري ١: ٥٧٥ / ١٢٥١؛ الثعلبي ١: ٢٣٤، وزاد فيه: ويكفرون بأكثره؛ البغوي ١: ١٤١؛ عبدالرزاق ١: ٢٧٩ / ٨٦؛ ابن كثير ١: ١٢٨؛ القرطبي ٢: ٢٦. عن معمر وزاد فيه: ويكفرون بأكثره.

(٥) عبدالرزاق ١: ٢٨٠ / ٨٧؛ القُرطبي ٢: ٢٦. الثعلبي ١: ٢٣٤، عن معمر.

قلوبهم ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بالقليل بأنّهم يصدّقون بأنّه من الله، وكفروا بما سواه ممّا جاء به محمّد فذلك قوله ـعزّ وجلّ ـ: في النساء[1]: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

القلوب أوعية فخيرها أوعاها

كلام نورانيّ فاضت به قريحة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حينما أخذ بيد كُمَيْل بن زياد النخعي وأخرجه إلى الجَبّانة بظهر الكوفة، فلمّا أصحر تنفّس الصُعَداء، ثمّ قال:

[٢٦٥٧/٢] «يا كميل... إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عنّي ما أقول لك:

الناس ثلاثة، فعالم ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رعاع أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

ياكميل، معرفة العلم دين يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه.

يا كميل، هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقي الدهر: أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

ثمّ قال عليه السلام: «ها، إنّ هاهنا لعلماً جمّاً ـوأشار بيده إلى صدره ـلو أصبتُ له حَمَلَةً! بلى أصبتُ لَقِناً غير مأمون عليه[3]، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحقّ لابصيرة له في أحنائه[4]، ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارض من شبهة. ألا، لا ذا ولا ذاك! أو منهوماً باللذّة، سلس القياد للشهوة، أو مُغرماً بالجمع والادّخار. ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيء شَبَهاً بهما الأنعامُ السائمة! كذلك يموت العلم بموت حامليه!»

ثمّ قال عليه السلام: «اللّهم بلى! لاتخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً

---

(١) النساء ٤: ٤٦ و ١٥٥.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٢٢.

(٣) اللقن: السريع الفهم ولكن غير متحفّظ.

(٤) جمع حِنْو، وهو جانب الضلوع.. كناية عن عدم التبصّر وقلّة الوعي.

مغموراً. لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته. وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك ـ والله ـ الأقلّون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً. يحفظ الله بهم حججه وبيّناته، حتّى يُودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استعوره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاءُ الله في أرضه، والدعاةُ إلى دينه. آهٍ آهْ شوقاً إلى رؤيتهم!»

ثمّ قال لكميل: انصرف يا كميل إذا شئت[1].

وله ﷺ في صفات القلب وحالاته وصف بالغ. قال:

[٢٦٥٨/٢] «لقد عُلِّق بنياط[2] هذا الإنسان بَضْعَةٌ هي أعجب ما فيه، وذلك القلب وذلك أنّ له موادَّ من الحكمة وأضداداً من خلافها:

فإن سَنَحَ[3] له الرجاء، أذلّه الطمع! وإن هاج به الطمع، أهلكه الحرص! وإن ملكه اليأس، قَتَله الأسف! وإن عرض له الغضب، اشتدّ به الغيظ! وإن أسعده الرّضا، نسي التحفّظ[4]!

وإن غاله الخوف، شغله الحذر! وإن اتّسع له الأمر، استلبته الغِرّة[5]! وإن أفاد مالاً، أطغاه الغنى[6]! وإن أصابته مصيبة، فضحه الجزع! وإن عضّته الفاقة، شغله البلاء! وإن جَهَده الجوع، قعد به الضعف! وإن أفرط به الشَبَع، كظّته البِطنة!»

ثمّ قال: فكلّ تقصير به مضرّ، وكلّ إفراط له مفسد[7]!.

[٢٦٥٩/٢] وقال ﷺ: «إنّ هذه القلوب تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم[8]».

[٢٦٦٠/٢] وقال ﷺ: «قيمة كلُّ امرءٍ ما يُحْسِنُه»[9].

قال السيّد ﷺ: وهي الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

[٢٦٦١/٢] وقال ﷺ: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع!»[10].

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٦، الحكمة ١٤٧.

(٢) النياط ـ ككتاب ـ: عِرق معلّق به القلب.

(٣) سنح ـ بالحاء المهملة ـ: بدا وظهر.

(٤) التحفّظ من الضياع وذهاب النعم.

(٥) الغِرّة: الغفلة. وهي توجب ذهاب الفُرَص.

(٦) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٢٥، الحكمة ١٠٨.

(٨) المصدر: ٢٠، الحكمة ٩٠.

(٩) المصدر: ١٨، الحكمة ٨١.

(١٠) المصدر: ٤٨، الحكمة ٢١٩.

[٢٦٦٢/٢] وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اغدُ عالماً أو متعلّماً أو أحبّ العلماء. ولا تكن رابعاً فتهلك»[١]

[٢٦٦٣/٢] وفي رواية أخرى: «اغدُ عالماً أو متعلّماً أو مستمعاً أو محبّاً لهم. ولا تكن الخامس فتهلك»[٢].

[٢٦٦٤/٢] وعن ابن أبي عمير قال: قال الصادق عليه السلام: «الناس اثنان: عالم ومتعلّم. وسائر الناس همج»[٣]

[٢٦٦٥/٢] وروي: «الناس أربعة: رجل يعلم ويعلم أنّه يعلم فذاك مرشد عالم فاتّبعوه. ورجل يعلم ولا يعلم أنّه يعلم، فذاك غافل فأيقظوه. ورجل لايعلم ويعلم أنّه لايعلم، فذاك جاهل فعلّموه. ورجل لايعلم ويعلم (أي يعتقد) أنّه يعلم، فذاك ضالّ فأرشدوه»[٤].

[٢٦٦٦/٢] وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «للعلم خزائن، ومفتاحها السؤال».

قال صلى الله عليه وآله: «فاسألوا يرحمكم الله، فإنّه يُوجَر فيه أربعة: السائل والمعلّم والمستمع والمحبّ لهم»[٥].

[٢٦٦٧/٢] وعن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه أنشأ يقول:

صبرتُ على مُرِّ الأمور كراهةً ... وأيقنتُ في ذاك الصواب من الأمر
إذا كنت لاتدري ولم تك سائلاً ... عن العلم من يدري، جهلت ولا تدري[٦]

[٢٦٦٨/٢] وقال عليه السلام: «اغُد عالماً أو متعلّماً، ولا تكن الثالث، فتعطب»[٧].

[٢٦٦٩/٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ترك المؤمن ورقة فيها علم، تكون له يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النار»[٨].

---

(١) البحار ١: ١٨٧ / ٢.

(٢) عوالي اللئالي ٤: ٧٥ / ٥٨؛ البحار ١: ١٩٥ / ١٣. ولا منافاة بين الروايتين، حيث المستمع متعلّم لا محالة.

(٣) الخصال: ٣٩ / ٢٢؛ البحار ١: ١٨٧.

(٤) عوالي اللئالي ٤: ٧٩ / ٧٤؛ البحار ١: ١٨٧ / ١٥.

(٥) البحار ١: ١٩٧ / ٣.

(٦) المصدر: ١٩٨ / ٤.

(٧) المصدر: ١٩٦ / ١٩.

(٨) المصدر: ١٩٨ باب ٤ / ١.

[٢ / ٢٦٧٠] وقال ﷺ: «المتّقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»[١].

[٢ / ٢٦٧١] وقال ﷺ: «تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا، فإنّ الحديث جلاء. إنّ القلوب لترين كما يرين السيف وجلاؤها الحديث»[٢].

[٢ / ٢٦٧٢] وقال الإمام أمير المؤمنين ﷺ: «من جالس العلماء وُقّر، ومن خالط الأنذال حُقّر»[٣].

[٢ / ٢٦٧٣] وقال: «النظر إلى وجه العالم عبادة»[٤].

[٢ / ٢٦٧٤] وقال الصادق ﷺ: «أفضل العبادة العلم بالله»[٥].

[٢ / ٢٦٧٥] وروى العيّاشي بالإسناد إلى أبي بصير قال: سألت الإمام محمّد بن علي الباقر ﷺ عن الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٦]؟ قال: المعرفة[٧].

[٢ / ٢٦٧٦] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير عن حذيفة قال: القلوب أربعة، قلب أغلف معصوب عليه، فذلك قلب الكافر. وقلب مُصْفَح[٨] فذلك قلب المنافق. وقلب أجرد[٩] فيه مثلُ السراج، فذلك قلب المؤمن. وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيّب، ومثل النفاق كمثل قرحة يمدّها القيح والدم، فأيّ المادّتين غلبت صاحبتها أهلكته[١٠].

[٢ / ٢٦٧٧] وأخرج الحاكم وصحّحه عن حذيفة قال: تُعرَض فتنة على القلوب، فأيّ قلب أنكرها نُكِتَت في قلبه نكتة بيضاء، وأيّ قلب لم ينكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء، ثمّ تعرض فتنة أخرى على القلوب فإن أنكرها القلب الذي أنكرها في المرّة الأُولى نُكِتَت في قلبه نكتة بيضاء، وإن لم

---

(١) المصدر: ٢٠١ / ٩.

(٢) المصدر: ٢٠٢ / ١٦.

(٣) المصدر: ٢٠٥ / ٣٠.

(٤) المصدر / ٢٩.

(٥) المصدر: ٢١٥ / ٢١.

(٦) البقرة ٢: ٢٦٩.

(٧) البحار ١: ٢١٥ / ٢٣.

(٨) المصفح: المقلوب، المائل، المنحرف.

(٩) الأجرد: مالاشعر عليه، يقال: لبن أجرد أي لارغوة عليه.

(١٠) الدرّ ١: ٢١٤؛ الطبري ١: ٥٧٢ / ١٢٣٨؛ المصنّف ٧: ٢٢٣ / ٥٣، كتاب الإيمان والرؤيا، بلفظ: عن حذيفة قال: القلوب أربعة: قلب مصفح فذلك قلب المنافق، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب أجرد فكأنّ فيه سراجاً يزهر فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان... .

ينكرها نكتت نكتة سوداء، ثمّ تعرض فتنة أخرى فإن أنكرها ذلك القلب كما في المرّتين الأوليتين اشتدّ وابيضّ وصَفا ولم تضرّه فتنة أبداً، وإن لم ينكرها كما في المرّتين الأُوليين اسودّ واربدّ[١] ونكس، فلا يَعْرِفُ حقّاً ولا يُنكر منكراً[٢].

[٢٦٧٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان والبيهقي في شعب الإيمان عن عليّ عليه السلام قال: «إنّ الإيمان يبدو لُمظة[٣] بيضاء في القلب، فكلّما ازداد الإيمان عِظَماً ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل الإيمان ابيضّ القلبُ كلُّه، وإنّ النفاق يبدو لُمْظَة سوداء في القلب، فكلّما ازداد النفاق عِظَماً ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كلُّه، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»[٤].

[٢٦٧٩/٢] وأخرج أحمد بسند جيّد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصفَح، فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأمّا القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثمّ أنكر، وأما القلب المصفَح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومَثَلُ الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيّب، ومَثَلُ النفاق فيه كمَثَلِ القرحة يمدّها القيح والدمّ، فأيّ المادّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». أي على القلب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي موقوفاً مثله سواء.[٥]

---

(١) الرُّبدَة: لون بين السواد والغُبرة.

(٢) الدرّ ١: ٢١٤؛ الحاكم ٤: ٤٦٨، كتاب الفتن والملاحم؛ مسلم ١: ٨٩، كتاب الإيمان.

(٣) اللُّمْظَة: القليل من الشيء. قال ابن الأثير: في حديث عليّ عليه السلام: «الإيمان يبدأ في القلوب لُمظَةً». اللمظة ـ بالضمّ ـ مثل النكتة من البياض. ومنه فرس ألمظ إذا كان بجحفلته بياض يسير. وقال البيهقي: واللمظة هي الذوقة وهو أن يلمظ الإنسان أو الدابّة شيئاً يسيراً أي يتذوّقه فكذلك القلب يدخله من الإيمان شيء يسير ثمّ يتّسع فيه فيكثر.

(٤) الدرّ ١: ٢١٥؛ الشعب ١: ٧٠ / ٣٨، كنزالعمال ١: ٤٠٦ ـ ٤٠٧ / ١٧٣٤؛ المصنّف ٧: ٢١١ / ٣، كتاب الإيمان، باب ٢: وفيه: «نقطة» بدل «لمظة».

(٥) الدرّ ١: ٢١٥؛ مسند أحمد ٣: ١٧؛ مجمع الزوائد ١: ٦٣؛ كنز العمال ١: ٢٤٤ / ١٢٢٦.

القلب في المصطلح القرآني

القلب ـ في المصطلح القرآني ـ يُراد به منشأ الإدراك العقلاني في الذي هو منبعث التدبّر والتفكير، والذي به يتميّز الإنسان عن سائر الأحياء، حيث الذي فيها هو نحو شعور من غير أن يتعقّبه تفكير ومن ثمّ لا تطوّر في حياتها مستنداً إلى تطويرٍ في تفكّرها ذلك التطّور الهائل الذي حظي به الإنسان، منذ أن مسّت قدماه وجه الأرض ولايزال حظوة نال بها بفضل تدبّره وتعمّقه في الحياة.

وهذا القلب الذي هو منبعث الإدراك في الإنسان، ليس سوى واقع الإنسان في باطنه، والذي ليست الأعضاء الظاهرة الجسمانيّة، سوى أدوات آليّة يستخدمها ذات الإنسان (القابع وراءها) في بلوغ مآربه لاشيء سواه.

وقد استعير لفظ «القلب» لواقع الإنسان الذاتي، حيث القلب هو حقيقة الشيء وواقعه الذاتي في التعبير العامّ وكانت الإشارة إلى القلب الصنوبري الواقع خلف ضلوع الصدر، إشارة رمزيّة إلى ذلك الذات الحقيقي القابع وراء هذا الجَسَد الظاهري في المتفاهم العامّ.

فحيث أريدت الإشارة إلى ذات الإنسان الحقيقي، أشير إلى القلب الواقع في الصدر، إشارة رمزيّة لاغير.

وإليك ما ورد من تعابير قرآنية بهذا الشأن:

قال تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(١). أي يؤاخذكم بما كسبتم أنتم في ذات أنفسكم عن قصد لاالذي صدر عفواً ومن غير قصد ذاتي.

قال العلّامة الطباطبائي: وهذا من الشواهد على أنّ المراد بالقلب هو الإنسان ذاته، فإنّ التعقّل والتفكّر وسائر الصفات النفسيّة، وإن كان يُنسب إلى القلب باعتبار أنّه العضو المدرك في البدن ـ حسب معتقد العامّة ـ كما ينسب السمع إلى الأذن والإبصار إلى العين والذوق إلى اللسان(٢) لكن الكسب والاكتساب ممّا لاينسب إلّا إلى الإنسان ذاته.

---

(١) البقرة ٢: ٢٢٥.

(٢) في حين أنّها آلات لهذه الأحاسيس، وإنّما الذي يحسّ هو شيء وراء هذه الأعضاء الآليّة، وهو النفس.

قال: ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[١]. و قوله: ﴿وَ جَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٢]. وهو من المجاز في الإسناد أي فإنّه آثم في ذاته وجاء بنفسه منيبة.

قال: هذا هو السبب في إسنادهم الإدراك والشعور وسائر الصفات الباطنة إلى القلب، ومرادهم هي الروح المتعلّقة بالبدن أو السارية فيه بواسطته، فينسبونها إليه كما ينسبونها إلى الروح وكما ينسبونها إلى أنفسهم، يقال: أحببتُه وأحبّته روحي وأحبّته نفسي وأحبّه قلبي، كلّ ذلك على سواء وقد استقرّ هذا التجوّز في التعبير، فعبّر بالقلب وأريد به نفس الذات مجازاً دارجاً، كما ربما نسبوا ذلك إلى الصدر، باعتبار أنّه موضعه وأنّه مجتمع الصفات النفسيّة ولأنحاء الإدراكات والحالات الجانحيّة.

قال: وفي القرآن من هذا الباب الشيء الكثير قال تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[٣]. وقال: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾[٤]. وقال: ﴿وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٦]. أي بما يدور في خُلدكم[٧].

وكان اختيار القلب رمزاً لواقع الإنسان، باعتباره العضو الأساسي في هيكل الإنسان، والذي تقوم به حيويّته العامّة المسيطرة على سائر الأعضاء وحتّى المخّ الذي هو مركز الإرادة والتصميم في الإنسان، بحاجة إلى أن يمدّه القلب بالحياة النابضة وبالتالي كان الإنسان بحقيقته الذاتيّة، هو المسيطر على القلب باعتباره مركزاً لبثّ الحيويّة وعلى المخّ باعتباره مركزاً للإرادة والتصميم فكان دور الإنسان بذاته دور حاكم مسيطر آخذ بزمام الحيويّة والتدبير معاً وما القلب والمخّ إلّا جناحين يبسطهما على مراكز الحركة والتصميم في جميع مراحل الحياة.

وحيث كان القلب هي الأداة الأُولى الّتي استخدمتها الروح، والتي توصّلت بها للسيطرة على سائر الأعضاء فكانت المناسبة قريبة لاستعارته عنواناً للإنسان ذاته.

وممّا جاء استعمال القلب و أريد به الانسان ذاته، قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ

---

(١) البقرة ٢: ٢٨٣. (٢) ق ٥٠: ٣٣.

(٣) الأنعام ٦: ١٢٥: أي تنشرح الأنفس الكريمة للإسلام. (٤) الحجر ١٥: ٩٧: أي ضاقت نفسك.

(٥) الأحزاب ٣٣: ١٠: أي تضايقت أنفسهم. (٦) المائدة ٥: ٧.

(٧) راجع: الميزان ٢: ٢٣٤ـ٢٣٦.

وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾[١].

آخر الآية تهديد لهذا الإنسان إذا عتى عن أمر ربّه بأنّه سوف يحول حاجز بين الإنسان وقلبه، كناية عن ذاته حيث ينسى الإنسان نفسه فلا يرى من نفسه إنساناً ذا مسؤوليّة إنسانيّة عليا بل موجوداً هائماً في شهوات دنيا سافلة وهذا من أفضع العقوبات تصيب الإنسان الهائم في غياهب اللذّات كما في قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٢]. فقد نسوا الله في شريعته، فكانت مغبّة ذلك أن نسوا موضعهم الإنسانيّ الرفيع فتسافلوا وتساقطوا حيث أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ﴾.[٣] أي كان له باطن ضاحٍ واعٍ. أي كانت شخصيّته الباطنة مشرقةً لامعةً.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاول التسمّع إلى النصح بجدٍّ وعن إقبال نفس.

وبالجملة، فمتى استُعمل لفظة القلب في القرآن، سواء أريد به منبعث الحياة، أو مركز الإرادة والتصميم فالمراد هو ذات الإنسان نفسه، والذي هو منشأ أصل الحياة و التفكير.

---

(١) الأنفال ٨: ٢٤.
(٢) الحشر ٥٩: ١٩.
(٣) ق ٥٠: ٣٧.

قال تعالى:

وَ لَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ
أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِما أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُوا
بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا
نُؤْمِنُ بِما أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ
اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَ لَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

وبادرة أخرى هي غاية في صَفَاقة الرأي وشَرَاسة الصنيع: أنّهم جاحدوا نبيّاً كانوا يترقّبونه وكانوا يستفتحون به استنصاراً على مخالفيهم، فلمّا جاءهم الذي عرفوه أنّه هو، ناكروه ونابذوه بغياً وعناداً مع الحقّ.

وما هذا إلّا تصرّف يستحقّ الطرد والغضب والشنآن، لمكان قبحه وشناعته العارمة ومن ثَمَّ يُصبُّ عليهم اللعنة وسوء العذاب ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ابتعاداً عن حريم رحمته الواسعة بسوء تصرّفهم.

* * *

نعم كانت صفقهم خاسرة، حيث آثروا الحياة الدنيئة وطمعاً في حطام رذيلة، على الرضوخ للحقّ الصريح: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ ابتاعوا أنفسهم وآثروها على الحقيقة الواضحة، تحفّظاً على مطامع خسيسة كلّ ذلك إزاء: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِما أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فقد كان الثمن الذي بذلوه إزاء استيفاء هوى النفس والحفاظ على آمالها، باهظاً جدّاً، وهو الكفر بالله وكتمان الحقّ ونكران الحقيقة.

فتلك أبأس الصفقات وأخسرها، إذ خسروا شرف الإنسانيّة النبيلة والحياة العليا الكريمة إزاء مطامع سافلة وآمال خائبة لامحالة كما وقد خسروا سعادة الحياة في الدار الأخرى وسوف ينتظرهم العذاب المهين في ذلّ وهوان.

ولقد كان الذي حملهم على ارتكاب هذا العمل الشائن الخاسر، هو حسدهم أن يختار الله لرسالته التي انتظروها فيهم، محمّداً ﷺ النبيّ العربيّ الكريم وحقدهم لأن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده من سائر الأمم غيرهم. وما هذا الحسد والحقد إلّا بغياً وظلماً فاحشاً ونكارة لحكمة الله في صنعه القويم. فكانت مغبّة هذا البغي والاعتداء الفاحش أن عادوا بغضب على غضب. وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

* * *

﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾. وهذه هي الطبيعة التي تبدو هنا في يهود، هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيّقة الّتي تعيش في نطاق من التعصّب الشديد وتحسّ أنّ كلّ خير يصيب من سواها كأنّما هو مقتطع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً. وهكذا عاشت اليهود في عزلة عصبيّة عمياء، ويتربّصون بالبشرية الدوائر ولايزالون يكنّون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن. ويذيقون البشريّة رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين الشعوب وهكذا يدبّرون للناس المكائد عبر التاريخ.

كانوا إذا دعوا للإيمان الصادق يتبجّحون بما عندهم ويرون فيه الكفاية ليدعوا ما سواه. في حين أنّ الذي عُرض عليهم كان هو الحقّ المتوافق مع مالديهم من حقائق ضاعت أكثرها.

* * *

وإنّه لعجب من موقفهم هذا، مالهم وللحقّ؟! إنّهم يعبدون أنفسهم ويتعبّدون لعصبيّتهم ماداموا يستأثرون بما لديهم فحسب لا بل إنّهم يعبدون هواهم فلقد كفروا من قبلُ بما جاء به أنبياؤهم. وكانوا يجابهونهم بالجحود والنكران وأحياناً بالقتل والتشريد.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إيماناً صادقاً بالحقّ الذي عندكم ـ فيما زعمتم ـ فكيف جابهتم الّذين جاؤوكم به بالعداء العارم؟!

لا بل إنّكم ناكرتم رسالة نبيّكم الأوّل الذي أنجاكم من براثن الذلّ والصغار، عاندتم موسى الكليم ذلك النبيّ العظيم.

﴿وَ لَقَدْ جَآءَ كُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَ أَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾. فهل كان اتّخاذكم العجل بعد ما جاءكم موسى بالبيّنات، وفي حياته هل كان ذلك منكم من وحي الإيمان؟ وهل يتوافق ذلك مع دعواكم أنّكم تؤمنون بما أُنزل إليكم؟!

* * *

نعم لم يكن اتّخاذهم العجل البادرة الوحيدة التي اتسمت بها إسرائيل في حياتها الكدرة بل كان هنالك الميثاق عند الصخرة الهاطلة وكان هناك التمرّد والعصيان بشكل أمرّ.

﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾.

فهل أطاعوا وهل رضخوا للحقّ الصريح؟ نعم أظهروا الطاعة وخالفوا في العمل!

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا...﴾

هذا لسان الحال وليس لسان القال. ولقد كان استسلامهم حينذاك إظهاراً للسماع والطاعة. ولكن تمرّدهم المتواصل بعدئذٍ كان بياناً عن حالتهم التعنّتيّة الجامحة.

وهذا الجموح والشقاق إنّما هو أثر تلك الطبيعة الغاشمة العاتية المائلة إلى الغيّ والانحراف عن جادّة الحقّ الصراح فكأنّما عجنت جبلّتهم بالغثاث واللجاج:

﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فكأنّما أُشرب قلوبهم الجنوح نحو الباطل ومن ثمّ ذاك الجموح أمام الحقّ.

والإشراب في القلوب أبدع تصوير لحالتهم التعنّتيّة الزائفة فهي صورة فريدة. لقد أُشربوا فكانت حالة انفعاليّة متميّعة لاصلابة فيها ولا ثبات.

وأُشربوا ماذا؟ أُشربوا العجل وماهي إلّا صورة ساخرة هازئة، صورة العجل يُدخَل في القلوب إدخالاً، ويُحشَر فيها حشراً، حتّى ليكاد يذهب بمعنى الحبّ إلى أقصى مراتبه في التفاني وميوعة الذات وفي النهاية إلى التعامي في الحياة.

الأمر الذي استدعى أن لايروا الحقّ حقّاً ويرضخوا إلى ماعشقوه من الزهو الباطل فقد غُطّيت وجوههم وخُتم على قلوبهم.

ومن ثمّ فإنّ السياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية كما يلتفت إلى المؤمنين ليطلعهم على ما كان من مهازل اليهود. ثمّ يلقّن الرسول ﷺ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعوهم إلى الكفر بالدين المبين.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

ولنعطف النظر إلى المأثور من أحاديث السلف بهذا الشأن.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾

[٢٦٨٠/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ قال: هو القرآن الذي أُنزل على محمّد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: من التوراة والإنجيل. وهكذا أخرج عن الربيع(١).

[٢٦٨١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن قتادة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ قال: هو الفرقان الذي أنزل الله على محمد ﷺ. قال أبو محمّد: وروي عن الربيع نحو ذلك(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾

[٢٦٨٢/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال: حدّثني أشياخ منّا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منّا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب وكنّا أصحاب وَثَن، وكنّا إذا بَلَغْنا منهم ما يكرهون(٣)، قالوا: إنّ نبيّاً يبعث الآن قد أطلّ زمانه(٤) نتّبعه فنقتلكم معه(٥) قتل عاد وإرم، فلمّا بعث الله رسوله اتّبعناه وكفروا به، ففينا ـ والله ـ وفيهم أنزل الله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ

---

(١) الدرّ ١: ٢١٥؛ الطبري ١: ٥٧٧/ ١٢٥٢. (٢) ابن أبي حاتم ١: ١٧١/ ٩٠١.

(٣) أي اعتدينا عليهم. إشارة إلى ما كان من العرب حين تعلو على اليهود وتسطو عليهم.

(٤) أَطَلَّ ـ بالطاء المهملة ـ أي أشرف. يقال: أطلّ الزمان أي قرب وأطلّ عليه أي أشرف.

(٥) أي في صحبته وفي ركابه. كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾. (آل عمران ٣: ١٤٦).

كَفَرُوا...﴾ الآية كلّها.(١)

[٢٦٨٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن أبي نجيح، عن عليّ الأزدي في قوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: اليهود، كانوا يقولون: اللّهمّ ابعث لنا هذا النبيّ يحكم بيننا وبين الناس؛ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون به على الناس.(٢)

[٢٦٨٤/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس. وعن مرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة في الآية قال: كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمّداً في التوراة، فيسألون الله أن يبعثه نبيّاً فيقاتلون معه العرب، فلمّا جاءهم محمّد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل(٣).

[٢٦٨٥/٢] وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحّاك عن ابن عبّاس قال: كانت يهود بني قريظة وبني النضير من قبل أن يُبعَث محمّدﷺ يستفتحون الله، يدعون الله على الّذين كفروا ويقولون: اللّهمّ إنّا نستنصرك بحقّ النبيّ الأمّيّ إلّا نصرتنا عليهم، فينصَرون: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ يريد محمّداً ولم يشكّوا فيه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾(٤).

[٢٦٨٦/٢] وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: كان يهود أهل المدينة قبل قدوم النبيﷺ إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من أسد وغطفان وجهينة و عذرة، يستفتحون عليهم ويستنصرون، يدعون عليهم باسم نبي الله فيقولون: اللّهم ربّنا انصرنا عليهم باسم نبيّك وبكتابك الذي تنزل عليه، الذي وعدتنا إنّك باعثه في آخر الزمان(٥).

[٢٦٨٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن قتادة قال: كانت اليهود تستفتح بمحمّد على كفّار العرب، يقولون: اللّهم ابعث النبيّ الذي نجده في التوراة، يعذّبهم ويقتلهم، فلمّا بعث الله محمّداً كفروا به حين رأوه بعث من غيرهم حسداً للعرب، وهم يعلمون أنّه رسول الله(٦).

[٢٦٨٨/٢] وأخرج ابن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية، قال: كانت اليهود تستنصر بمحمّدﷺ

---

(١) الدرّ ١: ٢١٥ـ٢١٦؛ الطبري ١: ٥٧٧ـ٥٧٨ / ١٢٥٤؛ الدلائل، البيهقي ٢: ٧٥ـ٧٦؛ ابن كثير ١: ١٢٩.

(٢) الطبري ١: ٥٧٨ـ٥٧٩ / ١٢٥٧.

(٣) الدرّ ١: ٢١٦؛ الطبري ١: ٥٧٩ / ١٢٦٠ عن السدّي.

(٤) الدرّ ١: ٢١٦.

(٥) المصدر.

(٦) الدرّ ١: ٢١٦؛ الطبري ١: ٥٧٩ / ١٢٥٨.

على مشركي العرب، يقولون: اللّهمّ ابعث هذا النبيّ الذي نجده مكتوباً عندنا، حتّى يعذّب المشركين ويقتلهم! فلمّا بعث الله محمّداً ورأوا أنّه من غيرهم كفروا بـه حسـداً للـعرب، وهـم يـعلمون أنّـه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

[٢/٢٦٨٩] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أن يبعث محمّد ﷺ رسولاً ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نظيرها في الأنفال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ يعني إن تستنصروا بخروج محمّد ﷺ على مشركي العرب جهينة ومزينة وبني عذرة وأسد وغطفان ومن يليهم. كانت اليهود إذا قاتلوهم قالوا: اللّهمّ إنّا نسـألك باسم النبي الذي نجده في كتابنا، تبعثه في آخر الزمان، أن تنصرنا فينصرون عليهم. فلمّا بعث الله ـ عزّ وجلّ ـ محمّداً ﷺ من غير بني إسرائيل كفروا به وهم يعرفونه. فـذلك قـوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ محمّد ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ أي بما عرفوا من أمره في التوراة ﴿كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني اليهود[2].

[٢/٢٦٩٠] وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلّما التقوا هزمت يهودَ، فعاذت بهذا الدعاء: اللّهم إنّا نسألك بحقّ محمّد النبيّ الأمّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلّا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا فهزموا غطفان، فلمّا بُعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني وقد كانوا يستفتحون بك يا محمّد إلى قوله ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].

[٢/٢٦٩١] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس. إنّ اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمّا بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداوود بن سلمة: يا معشر يهود، اتّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد ونحن أهـل شـرك، وتخبرونا بأنّه مبعوث، وتصفونه بصفته! فقال سلام بن مشكم ـ أخو بني النضير ـ: ما جاءنا بشيء

---

(١) الطبري ١: ٥٧٩ / ١٢٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٢ / ٩٠٦؛ ابن كثير ١: ١٢٩.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٢٢.

(٣) الدرّ ١: ٢١٦ ـ ٢١٧؛ الحاكم ٢: ٢٦٣، وقال: وهو حديث غريب وإنّما أخرجته لضرورة التفسير؛ أسباب نزول الآيات: ١٦ ـ ١٧؛ الوسيط ١: ١٧٣؛ القرطبي ٢: ٢٧.

نعرفه وما هو بالذي كنّا نذكر لكم، فأنزل الله ﴿وَ لَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ...﴾ الآية.(١)

[٢٦٩٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب، قال: سألت ابن زيد عن قول الله ـعزّ وجلّ ـ: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾(٢) قال: كانت يهودُ يستفتحون على كفّار العرب يقولون: أَما والله لو قد جاء النبيّ الذي بشّر به موسى وعيسى، أحمد، لكان لنا عليكم. وكانوا يظنّون أنّه منهم والعرب حولهم، وكانوا يستفتحون عليهم به ويستنصرون به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وحسدوه. وقرأ قول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(٣) قال: قد تبيّن لهم أنّه رسول، فمن هنالك نفع الله الأوس والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أنّ نبيّاً خارج.(٤)

[٢٦٩٣/٢] وأخرج عن ابن عبّاس: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمّد، على مشركي العرب، يعني بذلك أهل الكتاب، فلمّا بعث الله محمّداً ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.(٥)

[٢٦٩٤/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل بالإسناد إلى سَلَمة بن سلامة بن وقش، قال: كان بين أبياتنا يهوديّ، فخرج على نادي قومه(٦): بني عبد الأشهل ذات غداةٍ، فذكر البعث والقيامة والجنّة والنار والحساب والميزان قال ذلك لأصحاب وَثَنٍ لايرون أنّ بعثاً كائن بعد موت. وذلك قُبَيل مبعث رسول الله ﷺ فقالوا: ويحك يا فلان، أَوَ هذا كائن: أنّ الناس يُبْعَثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنّة ونار، يُجزَون من أعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحْلَفُ به، لَوَدِدْتُ أنّ حظّي من تلك النار، أن تُوقِدُوا أعظم تنُّورٍ في داركم، فتحمونه، ثمّ تقذفوني فيه، ثمّ تُطيّنون عليّ، وأنّي أنجو من النار غداً! فقيل له: يا فلان، فما علامة ذلك؟ قال: نبيٌّ يُبعث من ناحية هذه البلاد ـ وأشار بيده نحو مكّة واليمن ـ قالوا: فمتى نراه؟ فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي، وأنا أَحْدَثُ القوم. فقال: إن يَسْتَنْفِدْ

---

(١) الدرّ ١: ٢١٧؛ الطبري ١: ٥٧٨ / ١٢٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٢ / ٩٠٥؛ ابن كثير ١: ١٢٩؛ مجمع البيان ١: ٢٩٩؛ التبيان ١: ٣٤٤ـ٣٤٥.

(٢) البقرة ٢: ٨٩.

(٣) البقرة ٢: ١٠٩.

(٤) الطبري ١: ٥٨٠ / ١٢٦٥.

(٥) الدرّ ١: ٢١٧؛ الطبري ١: ٥٧٨ / ١٢٥٦؛ ابن كثير ١: ١٢٩.

(٦) النادي: المحلّ المعدّ لاجتماع القوم، يتذاكرون ويتسامرون وما إلى ذلك من شؤون.

هذا الغلام عُمْرَه يُدركه[(١)] فما ذهب الليل والنهار حتّى بعث الله رسوله ﷺ، وإنّه لحيّ بين أظهرنا، فآمنّا به وصدّقناه وكفر به [ذلك اليهودي] بغياً وحَسَداً. فقلنا له: يا فلان، ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا؟ قال: بلى، وليس به![(٢)]

[٢٦٩٥/٢] وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمَير عن حمّاد عن حريز عن أبي عبدالله ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. يقول الله ـ تبارك و تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آتَيناهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني رسول الله ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[(٣)] لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمّد ﷺ وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجرته، وهو قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[(٤)] فهذه صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه، فلمّا بعثه الله ـ عزّ وجلّ ـ عرفه أهل الكتاب كما قال ـ جلّ جلاله ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فكانت اليهود يقولون للعرب قبل مجيء النبيّ ﷺ: أيّها العرب، هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة، ويكون مهاجرته بمدينة، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يلبس الشملة، ويجتزي بالكسرة والتمرات، ويركب الحمار العريّ، وهو الضحوك القتّال، يضع سيفه على عاتقه، ولايبالي من لاقى، يبلغ سلطانه منقطع الخفّ والحافر، لنقتلنّكم به يا معشر العرب قتل عاد، فلمّا بعث الله نبيّه بهذه الصفة حسدوه

---

(١) استنفد ـ بالدال المهملة ـ: استوفى. أي يستوفي عمره ولم يفاجئه الأجل.

(٢) أخرج البيهقي في الدلائل ٢: ٧٨ ـ ٧٩. ورواه ابن هشام في السيرة ١: ٢٣١. والإمام أحمد في المسند ٣: ٤٦٧. ونقله الصالحي في السيرة الشاميّة ١: ١٣٥. وقال: رواه ابن إسحاق، والبخاري في التاريخ، وصحّحه الحاكم في المستدرك ٣: ٤١٧ ـ ٤١٨. وابن حجر في مجمع الزوائد ٨: ٢٣٠. وأخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ١: ٢١٧. قال: أخرجه أحمد و ابن قانع والطبراني والحاكم وصحّحه وأبو نُعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن سَلَمة وكان من أهل بدر. قال: كان لنا جار يهوديّ في بني عبدالأشهل. فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتّى وقف على مجلس بني الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدث من فيه سنّاً. عليّ بُردة، مضطجعاً فيها بفناء أهلي.. وساق الحديث. ولفظ الحديث للبيهقي، وعدّلنا منه ألفاظاً على سائر النُسَخ.

(٣) البقرة ٢: ١٤٦. والأنعام ٦: ٢٠.

(٤) الفتح ٤٨: ٢٩.

وكفروا به كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾».(١)

[٢٦٩٦/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن صفوان بن يحيى عن إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام في قوله الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قال: «كان قوم فيما بين محمّد وعيسى صلوات الله عليهما، وكانوا يتوعّدون أهل الأصنام بالنبيّ صلى الله عليه وآله ويقولون: ليخرجنّ نبيّ فليكسرنّ أصنامكم وليفعلنّ بكم وليفعلنّ. فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله كفروا به».(٢)

[٢٦٩٧/٢] وروى الكليني والعيّاشي بالإسناد إلى أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت اليهود تجد في كتبها أنّ مَهَاجر محمّد صلى الله عليه وآله ما بين عَيْر وأُحُد(٣). فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يسمّى حَدَداً. فقالوا: حَدَد وأُحد سواء، فتفرّقوا عنده. فنزل بعضهم بتيماء(٤) وبعضهم بفدك وبعضهم بخيبر. فاشتاق الّذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابيّ من قيس، فتكاروا منه، وقال لهم: أمرّ بكم مابين عَيْر وأُحُد. فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا بهما. فلمّا توسّط بهم أرض المدينة قال لهم: ذاك عَيْر وهذا أُحُد. فنزلوا وقالوا: قد أصبنا بُغيتنا، فلا حاجة لنا في إبلك.. وأرسلوا إلى إخوانهم: أنّا قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا.

وهؤلاء استوطنوا أرض يثرب واتخذوا مصانع ومزارع وكثروا وتضاخمت أموالهم، فكان يقع بينهم وبين الأوس والخزرج بعض المناوشات، وكانت اليهود تعتزّ بنبيّ يظهر بين أظهرهم وسوف يتظاهرون به على خصومهم العرب.

---

(١) القمّيّ ١: ٣٢ـ ٣٣، بخلاف في اللفظ؛ البحار ٦٩: ٩٢ ـ ٩٣ / ٢ باب ٩٨.

(٢) الكافي ٨: ٣١٠ / ٤٨٢؛ البحار ١٥: ٢٣١ / ٥٣، باب ٢.

(٣) عير: جَبَل بالمدينة. كما ذكره الجوهري في الصحاح ٢: ٧٦٣.

(٤) حَدَد ـ محرّكة ـ: جبل بتيماء، مُشرف عليها يهتدىٰ به المسافر. كما ذكره الزبيدي في تاج العروس ١: ٣٣٣. وتيماء: واحة (أرض واسعة) قاحلة واقعة في شمالي جزيرة العرب بين الشام ووادي القُرى بالقرب منها كان الأبلق حصن السموأل بن عادياء أو الصموئيل: شاعر يهوديّ جاهليّ (ت ٥٦٠ م) ومن شعره:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكلّ رداء يرتديه جميل

ولمّا بعث الله محمّداً ﷺ من العرب وآمنت به الأنصار، رفضت اليهود أن يؤمنوا به وكفرت به، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم يكونوا على شريعة التوحيد ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ أي أتاهم الذي عرفوه أنّه النبيّ الحقّ ﴿كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾»[1].

وهكذا حكى ابن النّجار عن بعض العلماء في سبب نزوع اليهود إلى أرض يثرب ونزولهم بتيماء وماوالاها، بغية لقاء نبيّ آخر الزمان على ما ذكره السمهودي في تاريخ المدينة.[2]

[٢٦٩٨/٢] وفي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: ذمّ الله تعالى اليهود فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني هؤلاء اليهود ـ الّذين تقدّم ذكرهم ـ وإخوانهم من اليهود، جاءهم ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ذلك الكتاب ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة التي بُيّن فيها أنّ محمّداً الأمّي من وُلد إسماعيل، ﴿وَكَانُوا﴾ يعني هؤلاء اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ ظهور محمّد ﷺ بالرسالة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يسألون الله الفتح والظفر ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أعدائهم والمناوين لهم، فكان الله يفتح لهم وينصرهم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ جاء هؤلاء اليهود ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ من نعت محمّد ﷺ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وجحدوا نبوّته حسداً له وبغياً عليه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.[3]

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾

[٢٦٩٩/٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ...﴾ الآية. قال: هم اليهود كفروا بما أنزل الله وبمحمّد ﷺ، بغياً وحسداً للعرب ﴿فَبَآءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال: غضب الله عليهم مرّتين بكفرهم بالإنجيل وبعيسى، وبكفرهم بالقرآن وبمحمّد.[4]

---

(١) الكافي ٨: ٣٠٨ ـ ٣١٠ / ٤٨١. نقلاً باختزال وتوضيح يسير. العياشي ١: ٦٨ ـ ٦٩ / ٦٩؛ البحار ١٥: ٢٢٥ ـ ٢٢٧ / ٤٩. وللمجلسي في شرحه على الكافي (مرآة العقول ٢٦: ٤٠٣ ـ ٤٠٦ / ٤٨١). شرحٌ ضافٍ بعد توثيقه للإسناد.

(٢) راجع: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١: ١٦٠.

(٣) تفسير الإمام ﷺ: ٣٩٣ / ٢٦٨؛ البرهان ١: ٢٧٤ / ١؛ البحار ٩: ١٨١ ـ ١٨٢. / ٩، باب ما ورد عن المعصومين ﷺ في تفسير الآيات؛ و ٩١: ١٠ / ١١، باب ٢٨.

(٤) الدرّ ١: ٢١٨؛ الطبري ١: ٥٨٥ و ٥٨٧ / ١٢٧٢، ١٢٨٠ و ١٢٧٣ عن أبي العالية و ١٢٧٤ عن الربيع، باختلاف يسير في الألفاظ؛ الثعلبي ١: ٢٣٥، عن قتادة وأبي العالية.

[٢٧٠٠/٢] وأخرج الطستيّ في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ قال: بئس ما باعوا به أنفسهم حيث باعوا نصيبهم من الآخرة بطمع يسير من الدنيا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

يعطى بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبها ألا تشري(١)

[٢٧٠١/٢] وعن ابن عبّاس: إنّ كفر اليهود لم يكن شكّاً ولا اشتباهاً ولكن كان بغياً منهم حيث صارت النبوّة في ولد إسماعيل.(٢)

* * *

قال أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري: ومعنى قوله جلّ ثناؤه: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ ساء ما اشتروا به أنفسهم. وأصل «بِئْسَ»: «بَئِسَ» من البؤس، سكنت همزتها ثمّ نقلت حركتها إلى الباء، كما قيل في ظَلِلْت: ظِلْتُ، وكما قيل للكَبِد: كِبْدٌ، فنقلت حركة الباء إلى الكاف لمّا سكنت الباء. وقد يُحتمل أن تكون «بئس» وإن كان أصلها «بَئِسَ» من لغة الّذين ينقلون حركة العين من فَعِلَ إلى الفاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستّة، كما قالوا من «لَعِبَ»: «لِعْبَ» ومن «سَئِمَ» «سِئْمَ»، وذلك فيما يقال، لغة فاشية في تميم، ثمّ جُعلت دالّة على الذمّ والتوبيخ و وصلت بـ«ما».

واختلف أهل العربية في معنى «ما» الّتي مع «بئسما»، فقال بعض نحويّي البصرة: هي وحدها اسم، و«أن يكفروا» تفسير له(٣) نحو: نعم رجلاً زيد، و «أن ينزل الله» بدل من «أنزل الله».

وقال بعض نحويّي الكوفة: معنى ذلك: بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا، فـ«ما» اسم بئس، و «أن يكفروا» الاسم الثاني. وزعم أنّ «أن ينزل الله من فضله»(٤) إن شئت جعلت «أن» في موضع رفع، وإن شئت في موضع خفض. أمّا الرفع: فبئس الشيء هذا أن فعلوه؛ وأما الخفض: فبئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً. قال: وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾(٥) كمثل ذلك. والعرب تجعل «ما» وحدها في هذا الباب بمنزلة الاسم التامّ كقوله:

---

(١) الدرّ ١: ٢١٨. (٢) الوسيط ١: ١٧٣.

(٣) التفسير عند البصريين هو التميز.

(٤) كذا في الأصل: ولعلّه خطأ من النسّاخ. والصواب: «أن يكفروا» إن شئت... الخ.

(٥) المائدة ٥: ٨٠.

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾[(١)] و «بئسما أنت» واستشهد لقوله ذلك برجز بعض الرُّجَّاز:

لا تَعْجلا فِي السَّيْرِ وادْلُوَاهَا ... لَبِئْسَما بُطْءٌ وَلا نَرعاها[(٢)]

قال أبو جعفر: والعرب تقول: لبئسما تزويجٌ ولا مَهْرَ، فيجعلون «ما» وحدها اسماً بغير صلة. وقائل هذه المقالة لايجيز أن يكون الذي يلي «بئس» معرفة موَقَّتة وخبره معرفة موقّتة[(٣)]. وقد زعم أنّ «بئسما» بمنزلة: بئس الشيء اشتروا به أنفسهم، فقد صارت «ما» بصلتها اسماً موقتاً؛ لأنّ «اشتروا» فعل ماض من صلة «ما» في قول قائل هذه المقالة، وإذا وصلت بماض من الفعل كانت معرفة موقتة معلومة؛ فيصير تأويل الكلام حينئذٍ: «بئس شراؤهم كفرهم»، وذلك عنده غير جائز، فقد تبيّن فساد هذا القول.

وكان آخر منهم يزعم أنّ «أن» في موضع خفض إن شئت، ورفع إن شئت، فأمّا الخفض فأن تردّه على الهاء التي في «به» على التكرير على كلامين، كأنّك قلت: اشتروا أنفسهم بالكفر. وأمّا الرفع فأن يكون مكرّراً على موضع «ما» التي تلي «بئس». قال: ولايجوز أن يكون رفعاً على قولك: بئس الرجلُ عبدُالله.

وقال بعضهم: «بئسما» شيء واحد يرفع[(٤)] ما بعده كما حكي عن العرب: «بئسما تزويج ولا مهر» فرافعُ تزويج «بئسما»، كما يقال: «بئسما زيد، وبئسما عمرو»، فيكون «بئسما» رفعاً بما عاد عليها من الهاء، كأنّك قلت: بئس شيء الشيء اشتروا به أنفسهم، وتكون «أن» مترجمة[(٥)] عن «بئسما».

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من جعل «بئسما» مرفوعاً بالراجع من الهاء في قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِهِ﴾ كما رفعوا ذلك بعبدالله، إذ قالوا: بئسما عبدالله، وجعل «أن يكفروا» مترجمة عن «بئسما»، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: بئس الشيء [الّذي] باع اليهود به أنفسهم، كفرُهم بما أنزل الله بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله. وتكون «أن» التي في قوله: «أن ينزل الله» في موضع نصب؛ لأنّه يعني به أن يكفروا بما أنزل الله من أجل أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وموضع أن

---

(١) البقرة ٢: ٢٧١.

(٢) ادلواها: يقال: دلوت الناقة، إذا سقتها سوقاً رفيقاً.

(٣) المعرفة الموقّتة: المعرفة المحدّدة.

(٤) كانت في الأصل: «يعرف». والصواب ما أثبتناه.

(٥) الترجمة هي عطف البيان والبدل.

جرّ[١]. وكان بعض أهل العربيّة من الكوفيّين يزعم أنّ «أن» في موضع خفض بنيّة الباء. وإنّما اخترنا فيها النصب لتمام الخبر قبلها، ولا خافض معها يخفضها، والحرف الخافض لا يخفض مضمراً.

وأما قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ فإنّه يعني به باعوا أنفسهم. كما:

[٢٧٠٢/٢] حدّثني موسى بن هارون بالإسناد عن السدّي في قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً.

[٢٧٠٣/٢] وعن ابن جُريج، قال: قال مجاهد في قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يهود شروا الحقّ بالباطل وكتمان ما جاء به محمّد ﷺ بأن يبيّنوه.

والعرب تقول: شَريته بمعنى بعته، واشتروا في هذا الموضع «افتعلوا» من شريت. وكلام العرب فيما بلغنا أن يقولوا: شَرَيْت بمعنى بعت، واشتريت بمعنى ابتعت. وقيل إنّما سمّي الشاري[٢] شارياً لأنّه باع نفسه و دنياه بآخرته. ومن ذلك قول يزيد بن مفرِّغ الحميري:

وَشَــرَيْتُ بُــرْداً لَــيْتَنِي ... مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ كُنْتُ هـامَة[٣]

ومنه قول المسيَّب بن عَلَس[٤]:

يُــعْطَى بِـها ثَـمَناً فَـيَمْنَعُها ... ويَقُولُ صَـاحِبُهَا ألا تَشْـرِي

يعني به: بعت برداً. وربما استعمل «اشتريت» بمعنى «بعت»، و«شريت» في معنى «ابتعت»، والكلام المستفيض فيهم هو ما وصفت.

قال أبو جعفر: فمعنى الآية: بئس الشيء [الذي] باعوا به أنفسهم الكفرُ بما أُنزل الله في كتابه على موسى من نبوّة محمّد ﷺ والأمر بتصديقه واتّباعه، من أجل[٥] أن أنزل الله من فضله ـ وفضلُه

---

(١) أي ويجوز أن تجعل أن في موضع جرّ. ويكون الواو هنا بمعنى أو.

(٢) الشاري هنا واحد الشراة؛ وهم الخوارج. قيل سمّوا بذلك لقولهم: إنّا شرينا أنفسنا في طاعة الله حين فارقنا الأئمّة الجائرة.

(٣) قوله: «كنت هامة» أي هالكاً. يقال: فلان هامة اليوم أو غد، أي قريب هلاكه، فإذا هو هامة. وكانت الجاهلية تزعم أنّ روح الميت تصير هامة «وهو طائر كالبومة» فتطير.

(٤) هو من شعراء بكر بن وائل المعدودين خال الأعشى. (الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٩٥).

(٥) تعليل للكفر، أي إنّهم كفروا من أجل.

حكمته وآياته و نبوّته ـ على من يشاء من عباده ـ يعني به محمّداً ﷺ ـ بغياً وحسداً لمحمّد ﷺ، من أجل[١] أنّه كان من ولد إسماعيل، ولم يكن من بني إسرائيل!

فإن قال قائل: وكيف ابتاعت اليهود أنْفُسَها بالكفر فقيل: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِما أَنزَلَ اللَّهُ﴾؟ وهل يُشترى بالكفر شيء؟ قيل: إنّ معنى الشراء والبيع عند العرب: هو إزالة مالكٍ ملكَه إلى غيره بعوض يعتاضُه منه، ثمّ تستعمل العرب ذلك في كلّ معتاض من عمله عوضاً شرّاً أو خيراً، فتقول: نِعْمَ ما باع به فلان نفسه، و بئس ما باع به فلان نفسه، بمعنى: نعم الكسب أكسبها وبئس الكسب أكسبها إذا أورثها بسعيه عليها خيراً أو شرّاً. فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: ﴿بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ لمّا أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمّد ﷺ فأهلكوها، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا من كفرهم بالله في تكذيبهم محمّداً، إذ كانوا قد رضوا عوضاً من ثواب الله وما أعدّ لهم ـ لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه ـ بالنار، و ما أعدّ لهم بكفرهم بذلك.

وهذه الآية وما أخبر الله فيها من حسد اليهود محمّداً ﷺ وقومه من العرب، من أجل أنّ الله جعل النبوّة والحكمة فيهم دون اليهود من بني إسرائيل، حتّى دعاهم ذلك إلى الكفر به مع علمهم بصدقه، وأنّه نبيّ الله مبعوث ورسول مرسل؛ نظيرة[٢] الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيناهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾[٣].[٤]

* * *

وقال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ...﴾: معناه ـ والله أعلم ـ: باعوا به أنفسهم. وللعرب في شروا واشتروا مذهبان، فالأكثر منهما أن يكون شروا: باعوا، واشتروا: ابتاعوا. وربما

(١) تعليل للحسد، أي إنّهم حسدوا محمّداً من أجل أنّه كان من العرب..

(٢) قوله: «نظيرة» خبر قوله قبل أسطر: «وهذه الآية». (٣) النساء ٤: ٥١ ـ ٥٤.

(٤) الطبري ١: ٥٨١ ـ ٥٨٥.

جعلوهما جميعاً في معنى باعوا. وكذلك البيع، يقال: بعتُ الثوب، على معنى أخرجته من يدي. وبعتُه: اشتريته. وهذه اللغة في تميم وربيعة. قال: سمعتُ أبا ثروان يقول لرجل: بع لي تمراً بدرهم، يريد: اشتر لي. وأنشدني بعض ربيعة:

ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تَبِعْ له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

على معنى: لم تشتر له بتاتاً. قال الفرّاء: والبتات: الزاد.[1]

* * *

قلت: القرآن لايتعدّى اللغة الفصحى وإنّما يتّبع من الأساليب ما هو أفشى وأفصح، ولا يستعمل النادر فضلاً عن الشاذّ وقد عرفت من كلام الطبري: أنّ المستفيض من كلام العرب أن يقولوا: شريت بمعنى بعت واشتريت بمعنى ابتعت إذن فلا معدل عنه بعد إمكان حمل الآية عليه حيث الاشتراء هنا ـ كالاشتراء في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[2] ـ بمعنى الابتياع.

فقوله تعالى ـ هنا ـ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مجاز أُطلق فيه الاشتراء على استبقاء الشيء المرغوب فيه، تشبيهاً لاستبقائه بابتياع شيء نفيس مرغوب فيه[3] فهم قد أثروا أنفسهم فأبقوا عليها، إزاء كفرهم بالله العظيم ورفضهم لشريعة سيّد المرسلين.

وذلك حسب زعمهم أن لو صدّقوا بنبوّة محمد ﷺ لضاعت أنفسهم وذهبت آمالهم أدراج الرياح ومن ثمّ واحتفاظاً على مطامعهم المهدّدة صمدوا تجاه الحقّ وأصرّوا على كتمانه. وبذلك كانوا قد آثروا أنفسهم وامتلكوها دون أن يخسروها، لو آمنوا بالإسلام.[4]

قوله تعالى: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾

[٢٧٠٤/٢] أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن سعيدبن جبير في قول الله: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ يقول: استوجبوا سخطاً على سخط.[5]

---

(١) معاني القرآن ١: ٥٦. (٢) البقرة ٢: ١٦.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٥٨٦.

(٤) وكلّ ما جاء في القرآن بلفظ «اشترى» فهو بمعنى ابتاع، و«شرى» بمعنى باع. وفق الدارج في اللغة.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٧٣ / ٩١٣ـ٩١٦.

[٢٧٠٥/٢] وفي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري قال عليه السلام: «ذمّ الله تعالى اليهود وعاب فعلهم في كفرهم بمحمّد صلى الله عليه وآله فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ أي اشتروها بالهدايا والفضول التي كانت تصل إليهم، وكان الله أمرهم بشرائها من الله بطاعتهم له ليجعل لهم أنفسهم والانتفاع بها دائماً في نعيم الآخرة فلم يشتروها، بل اشتروها بما أنفقوه في عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله ليبقى لهم عزُّهم في الدنيا ورياستُهم على الجهّال، وينالوا المحرّمات. وأصابوا الفضولات من السَّفَلة وصرفوهم عن سبيل الرشاد، ووقفوهم على طريق الضّلالات. ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً﴾ أي بما أنزل على موسى عليه السلام من تصديق محمّد صلى الله عليه وآله بغياً ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. قال: وإنّما كان كفرهم لبغيهم وحسدهم له لما أنزل الله من فضله عليه وهو القرآن الذي أبان فيه نبوّته وأظهر به آيته ومعجزته. ثمّ قال: ﴿فَبَآؤوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ يعني رجعوا وعليهم الغضب من الله على غضب في إثر غضب، والغضب الأوّل حين كذبوا بعيسى بن مريم، والغضب الثاني حين كذبوا بمحمّد صلى الله عليه وآله. قال: والغضب الأوّل أن جعلهم قردة خاسئين، ولعنهم على لسان عيسى عليه السلام والغضب الثاني حين سلّط الله عليهم سيوف محمّد وآله وأصحابه وأمّته حتّى ذلّلهم بها فإمّا دخلوا في الإسلام طائعين، وإمّا أدّوا الجزية صاغرين داخرين».(١)

* * *

وقال أبوجعفر الطبري: يعني بقوله: ﴿فَبَآؤوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: فرجعت اليهود من بني إسرائيل ـ بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بمحمّد صلى الله عليه وآله والاستفتاح به، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنّه نبيّ مبعوث ـ مرتدّين على أعقابهم حين بعثه الله نبيّاً مرسلاً، فباؤوا بغضب من الله ـ استحقّوه منه بكفرهم بمحمّد حين بُعث، وجحودهم نبوّته، وإنكارهم إيّاه أن يكون هو الذي يجدون صفته في كتابهم، عناداً منهم له وبغياً وحسداً له وللعرب ـ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ سالفٍ كان من الله عليهم قبلَ ذلك سابقِ غَضَبِه الثاني لكفرهم الذي كان قبل ذلك بعيسى بن مريم، أو لعبادتهم العجل، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت يستحقون بها الغضب من الله. كما:

[٢٧٠٦/٢] حدّثنا ابن حميد، بالإسناد إلى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَبَآؤوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال: فالغضب على الغضب غضبه عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة

---

(١) تفسير الإمام عليه السلام: ٤٠١ ـ ٤٠٢ / ٢٧٢؛ البرهان ١: ٢٧٩ ـ ٢٨٠ / ١؛ البحار ٩: ١٨٢ / ١٠؛ الصافي ١: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبيّ الذي أحدث الله إليهم.

[٢٧٠٧/٢] وعن عكرمة في قوله: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال: كُفْرٌ بعيسى وكفرٌ بمحمّد ﷺ.

[٢٧٠٨/٢] وعن الشعبي، قال: النّاس يوم القيامة على أربعة منازل: رجل كان مؤمناً بعيسى وآمن بمحمّد ﷺ فله أجران. ورجل كان كافراً بعيسى فآمن بمحمّد ﷺ فله أجر. ورجل كان كافراً بعيسى فكفر بمحمّد، فباء بغضب على غضب. ورجل كان كافراً بعيسى من مشركي العرب، فمات بكفره قبل محمّد ﷺ فباء بغضب.

[٢٧٠٩/٢] وعن قتادة قال: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وبعيسى، وغضب عليهم بكفرهم بالقرآن وبمحمّد ﷺ.

[٢٧١٠/٢] وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ﴾ بما كان من تبديلهم التوراة قبل خروج النبيّ ﷺ، ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ جحودهم النبيّ ﷺ وكفرهم بما جاء به.

[٢٧١١/٢] وعن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ يقول: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل و عيسى، ثمّ غضبه عليهم بكفرهم بمحمّد ﷺ وبالقرآن.

[٢٧١٢/٢] وعن أسباط، عن السدّي في قوله: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال: أما الغضب الأوّل: فهو حين غضب الله عليهم في العجل، وأمّا الغضب الثاني: فغضب عليهم حين كفروا بمحمّد ﷺ.

[٢٧١٣/٢] وعن ابن جريج وعطاء وعبيد بن عمير في قوله: ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال: غضب الله عليهم فيما كانوا فيه من قبل خروج النبيّ ﷺ من تبديلهم وكفرهم، ثمّ غضب عليهم في محمّد ﷺ إذ خرج فكفروا به.

قال أبو جعفر: وقد بيّنا معنى الغضب مِنَ الله على مَنْ غَضِبَ عليه مِنْ خلقه، واختلاف المختلفين في صفته، فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: وللجاحدين لنبوّة محمّد ﷺ من الناس كلّهم عذاب من الله إمّا في الآخرة، وإمّا في الدنيا والآخرة ﴿مُّهِينٌ﴾ هو المذلّ لصاحبه المخزي لمُلبَسه هواناً وذلّة.

فإن قال قائل: أيّ عذاب هو غير مهين صاحبَه فيكون للكافرين المهين منه؟ قيل: إنّ المهين

---

(١) عند تفسير قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من فاتحة الكتاب.

هو الذي قد بيّنا أنّه المورث صاحبه ذلّةً وهواناً الذي يخلد فيه صاحبه لاينتقل من هوانه إلى عزّ وكرامة أبداً، وهو الذي خصّ الله به أهل الكفر؛ وأمّا الذي هو غير مهين صاحبه: فهو ماكان تمحيصاً لصاحبه، وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام يسرق ما يوجب به القطع فتُقطع يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحدّ. وما أشبه ذلك من العذاب والنكال الذي جعله الله كفّاراتٍ للذنوب، وكأهل الكبائر من أهل الإسلام الّذين يعذّبون في الآخرة بمقادير أجرامهم التي ارتكبوها ليمحَّصوا من ذنوبهم ثمّ يدخلون الجنة. فإنّ كلّ ذلك وإن كان عذاباً فغير مهين لمن عُذّب به، إذكان تعذيب الله إيّاه به ليمحصّه من آثامه ثمّ يورده معدن العزّ والكرامة ويخلده في نعيم الجنان.(١)

* * *

[٢٧١٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن مقاتل بن حيّان قوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يعني بالمهين: الهوان(٢).

[٢٧١٥/٢] وأخرج الترمذي وأحمد بالإسناد إلى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبّرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صُوَر الناس، يغشاهم الذُلّ من كلّ مكان، فَيُسَاقُون إلى سجن في جهنّم يسمّى «بُولَس»(٣) تَعْلُوهم نارُ الأنيار(٤)، يُسْقَوْن من عُصارة أهل النار طينةَ الخَبَال». قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٥).(٦)

[٢٧١٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني اليهود منهم أبو ياسر والنعمان بن أوفى ﴿آمِنُوا﴾ يعني صدّقوا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن على محمّد ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ﴾ يعني بما بعد التوراة: الإنجيل والفرقان.(٧)

---

(١) الطبري ١: ٥٨٦ ـ ٥٨٨. (٢) ابن أبي حاتم ١: ١٧٤ / ٩١٨.

(٣) هكذا جاء في الحديث اسماً خاصّاً لموضع في جهنّم. ولعلّه مأخوذ من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله. يقال: أبلس إذا يئس من رحمة الله. ومنه إبليس اسماً للشيطان الرجيم. ويقال: أبلس الرجل إذا قلّ خيره، وانكسر وحزن.

(٤) قال ابن الأثير: لم أجده مشروحاً. ولكن هكذا يُروى فإن صحّت الرواية فيحتمل أن يكون معناه: نار النيران، فجمع على أنيار. وأصلها أنوار، لأنّها من الواو، كما جاء في ريح أرياح وفي عيد أعياد وهما من الواو.

(٥) الترمذي ٤: ٦٦ ـ ٦٧ / ٢٦١٠، باب ٤٧ من كتاب صفة القيامة الحديث الثاني.

(٦) ورواه أحمد في المسند ٢: ١٧٩، باختلاف يسير. و هكذا ابن كثير في التفسير ١: ١٣٠.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٢٣.

قال الفرّاء: قوله: ﴿وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ...﴾ يريد: سواه. وذلك كثير في العربيّة أن يتكلّم الرجل بالكلام الحسن، فيقول السامع: ليس وراء هذا الكلام شيء، أي ليس عنده شيء سواه.(١)

قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾

[٢٧١٧/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ﴾ وذلك أنّ النبيّ ﷺ دعا اليهود إلى الإيمان فقالوا للنبيّ ﷺ: آتنا بالآيات والقربان كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم. يقول الله ـ سبحانه ـ فقد كانت الأنبياء تجيء إلى آبائهم فكانوا يقتلونهم فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ قل يا محمّد: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل. يقول فلم قتلتم أنبياء الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني آباءهم وقد جاؤوا بالآيات والقربان.(٢)

* * *

[٢٧١٨/٢] وأخرج أبو جعفر بالإسناد إلى أسباط عن السدّي قال: قال الله تعالى ـ وهو يعيّر اليهود ـ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال أبوجعفر: فإن قال قائل: وكيف قيل لهم ذلك بلفظ المستقبل، ثمّ أخبر أنّه قد مضى؟

قيل: إنّ أهل العربيّة مختلفون في تأويل ذلك، فقال بعض البصريّين: معنى ذلك: فَلِمَ قتلتم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ...﴾(٣) أي ماتلت. وكما قال الشاعر:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني　　　فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

يريد بقوله: ولقد أمرّ ولقد مررت واستدلّ بقوله: فمضيت، ولم يقل فأمضى وزعم أنّ فَعَلَ ويَفْعَلُ قد يشتركان في معنى واحد. واستشهد بقول الشاعر:

وإنّي لآتيكم بشكري ما مضى　　　من الأمر واستيجاب ما كان في غد

يريد: ما يكون في غد.

---

(١) معاني القرآن ١: ٦٠.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٢٣.

(٣) البقرة ٢: ١٠٢.

وبقول الحُطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه ... أنّ الوليد أحقّ بالعذر

يعني: يشهد.

وقال بعض نحويّي الكوفيّين: إنّما قيل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ فخاطبهم بالمستقبل ومعناه الماضي، كما يعنَّف الرجل على ما سلف منه بلفظ المستقبل، فيقال له: ويحك، لِمَ تَكْذِبُ ولِمَ تُبْغِضُ نَفْسَك إلى الناس؟! كما قال الشاعر:

إذا ما انتسبنا لَمْ تَلِدْني لئيمةٌ ... ولَمْ تَجِدِيْ من أن تُقِرِّي به بُدّاً

قال: وليس الّذين خوطبوا هم القَتَلة، إنّما هم أسلافهم الّذين مضوا، وهؤلاء رضوا بما فعل أسلافهم، فنسب القتل إليهم.

قال أبو جعفر: والصواب فيه من القول عندنا: أنّ الله خاطب من عاصر رسول الله ﷺ بما سلف من أُسلافهم، وأضاف ذلك إلى المخاطبين، نظير قول العرب بعضها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا وكذا، وفعلتم بنا يوم كذا وكذا.. يعنون بذلك ما فعل أسلافهم.

وهكذا قوله تعالى يعني: قل فَلِمَ قتل أسلافكم الأنبياءَ من قَبْلُ وهذا خبر عن فعل سلفهم قبل اليوم.. وإنّما عُيِّر المعاصرون لكونهم متّبعين لأسلافهم وراضين بفعالهم.[١]

[٢٧١٩/٢] وروى العيّاشي بالإسناد إلى أبي عمرو الزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال الله في كتابه يحكي قول اليهود، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ﴾ الآية وقال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإنّما نزل هذا في قوم من اليهود وكانوا على عهد رسول الله ﷺ لَمْ يقتلوا الأنبياء بأيديهم، ولا كانوا في زمانهم، وإنّما قَتل أوائلهم الّذين كانوا من قبلهم، فنزّلوا بهم أولئك القَتَلة فجعلهم الله منهم وأضاف إليهم فعل أوائلهم بما تبعوهم وتولّوهم.[٢]

[٢٧٢٠/٢] وعن ابن عبّاس: كلّما عُمِلَتْ معصيةٌ فمن أنكرها بريء منها، ومن رضي بها كان كمن شهدها.[٣]

---

(١) الطبري ١: ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(٢) نورالثقلين ١: ١٠٢؛ العيّاشي ١: ٦٩ ـ ٧٠ / ٧٢؛ البحار ٩٧: ٩٥ / ٥، باب ٢؛ البرهان ١: ٢٨٢ / ٣.

(٣) الوسيط ١: ١٧٥.

قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

[٢٧٢١/٢] قال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال لمحمّد ﷺ قل لليهود: ﴿وَ لَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالآيات التسع.(١)

[٢٧٢٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ قال: هي: الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والعصا واليد والنقص من الثمرات والسنين.(٢)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾

[٢٧٢٣/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلٰهاً ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَ أَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم.(٣)

قوله تعالى: ﴿وَ أَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

[٢٧٢٤/٢] أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن محمّد بن إسحاق: قوله: ﴿وَ أَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني المنافقين الّذين يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرّة على المعصية.(٤)

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

[٢٧٢٥/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني وقد أخذنا ميثاقكم في التوراة على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تؤمنوا بالكتاب والنبيّين ﴿وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ حين لم يقبلوا التوراة ﴿خُذُوا ما آتيناكُم بِقُوَّةٍ﴾ يعني ما آتيناكم من التوراة بالجِدّ والمواظبة عليه ﴿وَاسْمَعُوا﴾ يقول: اسمعوا ما في التوراة من الحدود والأحكام والشدّة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بذلك الّذي تخوّفنا به من أمر الجبل ﴿وَ عَصَيْنَا﴾ أمرك فلا نتّبع ما جئتنا به من الشدّة في التوراة. والعجل كان أرفق بنا وأهون علينا ممّا جئتنا به من الشدّة.(٥)

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢٣.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١٧٥ / ٩٢٧.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٢٣.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٧٥ / ٩٢٩.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٢٣ ـ ١٢٤.

[٢/٢٧٢٦] وقال الحسن: قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ بألسنتهم ﴿وَ عَصَيْنَا﴾ بقلوبهم.(١)

قوله تعالى: ﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾

[٢/٢٧٢٧] أخرج عبد الرزّاق وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: أُشربوا حُبّه حتّى خَلُص ذلك إلى قلوبهم.(٢)

[٢/٢٧٢٨] وأخرج ابن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: أُشربوا حُبَّ العجل بكفرهم.(٣)

[٢/٢٧٢٩] وأخرج ابن أبي حاتم عن عمارة بن عمير وأبي عبدالرحمان السلمي قالا: عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطىء نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممّن كان يعبد العجل إلّا اصفرّ وجهُه مثل الذهب.(٤)

[٢/٢٧٣٠] وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: لمّا أُحرق العجل بُرد ثمّ نُسف، فحسوا الماءَ حتّى عادت وجوههم كالزعفران.(٥)

[٢/٢٧٣١] وأخرج ابن جرير عن أسباط، عن السدّيّ: لمّا رجع موسى إلى قومه أخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه فذبحه، ثمّ حَرَقَه ثمّ ذرّاه في اليمّ، فلم يبق بحر يومئذ يجري إلّا وقع فيه شيء منه. ثمّ قال لهم موسى: اشربوا منه! فشربوا منه، فمن كان يحبّه خرج على شاربيه الذهب؛ فذلك حين يقول الله عزّ و جلّ: ﴿وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.(٦)

[٢/٢٧٣٢] وأخرج عن ابن جريج، قال: لمّا سُحِل(٧) فأُلقي في اليمّ، استقبلوا جرية الماء، فشربوا

---

(١) الوسيط ١: ١٧٦.

(٢) الدرّ ١: ٢١٩؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٠ / ٨٩؛ الطبري ١: ٥٩٤ / ١٢٩٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٦ / ٩٣٤؛ التبيان ١: ٣٥٤.

(٣) الطبري ١: ٥٩٤ / ١٢٩١؛ التبيان ١: ٣٥٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٦ / ٩٣٤.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٧٦ / ٩٣١؛ ابن كثير ١: ١٣١.

(٥) ابن كثير ١: ١٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٦ / ٩٣٢؛ وقريب منه في العيّاشي ١: ٧٠ / ٧٣. والبحار ١٣: ٢٢٧ / ٢٨.

(٦) الطبري ١: ٥٩٤ / ١٢٩٣؛ التبيان ١: ٣٥٤؛ ابن كثير ١: ١٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٦ / ٩٣٣، بتفاوت يسير.

(٧) أي نُحت.

حتّى ملأوا بطونهم، فأورث ذلك من فعله منهم جُبْناً.[١]

قال أبو جعفر الطبري: وأولى التأويلين هو إشراب حبّ العجل، لأنّ الماء لايقال منه: أُشرب فلان في قلبه، وإنّما يقال ذلك في حبّ الشيء. فيقال: منه أُشرب قلب فلان حبّ كذا بمعنى: سُقي ذلك حتّى غلب عليه وخالط قلبه. كما قال زهير

فصحوتُ عنها بعد حبّ داخل ... والحبُّ يشــربه فــؤادُك داءُ

قال أبو جعفر: ولكنّه تعالى ترك ذكر الحبّ، اكتفاءً بفهم السامع، إذ كان معلوماً أنّ العجل لايُشرب القلب، وأنّ الذي يُشرب القلب منه حبّه والعرب قد تترك ذكر الشيء إذا كان معلوماً لدى السامعين.[٢]

(١) الطبري ١: ٥٩٤ / ١٢٩٤.

(٢) المصدر.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ولعلّها من أخسأ البوادر التي بدرت من اليهود، منذ أن أطلقوا دعواهم تلك العريضة: إنّهم شعب الله المختار. إنّهم وحدهم هم المهتدون. إنّهم وحدهم هم الفائزون. إنّه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب!!

وهذه الدعاوي تتضمّن أنّ المؤمنين برسول الإسلام ﷺ غير مهتدين وأن ليس لهم نصيب في الآخرة والهدف الأوّل هو زعزعة ثقة المسلمين بدينهم وبمواعيد رسولهم ومواعيد القرآن ذاته. فأمر الله نبيّه أن يدعو اليهود إلى المباهلة، ليقف الفريقان ويدعوان الله بهلاك الكاذب منهما. وإليك مع مساق الآيات:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

هنا يأتي حديث المباهلة مع اليهود[1]، نظير مباهلة نصارى نجران وكما تحدّى القرآنُ مشركي العرب لو أن يأتوا بحديث مثله.

ومن ثمّ تعقّبه بتقرير أنّهم سوف لايستجيبون للمباهلة ولن يطلبوا الموت بعد علمهم أنّهم كاذبون وأن لا موضع لهم عند الله في الآخرة.

---

(١) حسبما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «... فوالذي نفسي بيده لايقولها رجل منكم إلّا غصّ بريقه فمات مكانه... فأبوا أن يفعلوا» (الدلائل البيهقي ٦: ٢٧٤ ـ ٢٧٥). وفي حديث ابن عبّاس: «دُعوا إلى أن يدعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب، فأبوا ذلك، ولو تمنّوه يومذاك، مابقي على وجه الأرض يهوديّ إلّا هلك.» (الدرّ ١: ٢٢٠). وسيأتي ذلك في أحاديث الباب.

نعم إنّهم آيسون من الآخرة على قدر ما هم حريصون على حياة الدنيا.

﴿وَ لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

* * *

[٢٧٣٣/٢] قال عليّ بن إبراهيم: أحبّوا العجل حتّى عبدوه، ثمّ قالوا: نحن أولياء الله! فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: إن كنتم أولياء الله كما تقولون ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إذ قد جاء في التوراة: إنّ أولياء الله يتمنّون الموت ولا يرهبونه.(١)

وقال أبو جعفر: وهذه الآية ممّا احتجّ الله بها لنبيّه محمّد ﷺ على اليهود الّذين كانوا بين ظهرانيّ مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم. وذلك أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ أمر نبيّه ﷺ أن يدعوهم إلى قضيّة عادلة بينه وبينهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى (صلوات الله عليه) وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة(٢). وقال لفريق اليهود: إن كنتم مُحقّين فتمنّوا الموت، فإنّ ذلك غير ضارّكم إن كنتم محقّين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أُعطيتم أُمنيّتكم من الموت إذا تمنّيتم فإنّما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونَصَبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جنانه، إن كان الأمر كما تزعمون أنّ الدار الآخرة لكم خالصة دوننا. وإن لم تُعْطَوْها علم الناس أنّكم المبطلون ونحن المحقّون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابة النبيّ ﷺ إلى ذلك؛ لعلمها أنّها إن تمنّت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريق النصارى الّذين جادلوا النبيّ ﷺ في عيسى ـ إذ دُعوا إلى المباهلة ـ من المباهلة؛ فبلغنا أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الّذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

[٢٧٣٤/٢] حدثنا بذلك أبو كريب، بالإسناد إلى عكرمة، عن ابن عبّاس، عن رسول الله ﷺ.

---

(١) القمّي ١: ٥٤؛ البحار ٩: ١٨٦ / ١٥.

(٢) يشير إلى قوله تعالى في الآية ٦١ من سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

[٢٧٣٥/٢] وعن الأعمش، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: لو تمنّوا الموت لَشَرِقَ أحدُهم بريقه.

[٢٧٣٦/٢] وعن عبدالرزّاق، بإسناده عن عكرمة في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: قال ابن عبّاس: لو تمنّى اليهود الموت لماتوا.

[٢٧٣٧/٢] وعن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبّاس قال: لو تمنّوه يوم قال لهم ذلك، ما بقي على ظهر الأرض يهوديّ إلّا مات.

قال أبو جعفر: فانكشف، لمن كان مشكلاً عليه أمر اليهود يومئذ، كذبُهم وبَهْتُهم[١] وبغيهم على رسول الله ﷺ، وظهرت حجّة رسول الله وحجّة أصحابه عليهم، ولم تزل والحمد لله ظاهرة عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل. وإنّما أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنّهم فيما ذُكر لنا ﴿قالُوا نَحْنُ أَبناءُ اللَّهِ وَأَحِبَاؤُهُ﴾[٢] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾[٣] فقال الله لنبيّه محمّد ﷺ: قل لهم: إن كنتم صادقين فيما تزعمون فتمنّوا الموت! فأبان الله كذبهم بامتناعهم من تمنّي ذلك، وأفلج حجّة رسول الله ﷺ أي فازت وظفرت.

* * *

قال: وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله أمر الله نبيّه ﷺ أن يدعو اليهود أن يتمنّوا الموت، وعلى أيّ وجه أُمروا أن يتمنّوه.

فقال بعضهم: أُمروا أن يتمنّوه على وجه الدعاء على الفريق الكاذب منهما.

[٢٧٣٨/٢] فعن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبّاس، قال: قال الله لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ادعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب.

[٢٧٣٩/٢] وقال آخرون بما رويناه عن سعيد، عن قتادة قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ وذلك أنّهم ﴿قالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾[٤] وقالوا:

---

(١) البَهْت والبهتان: الكذب المفترى.
(٢) المائدة ٥: ١٨.
(٣) البقرة ٢: ١١١.
(٤) البقرة ٢: ١١١.

﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1] فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[٢٧٤٠/٢] وعن الربيع، عن أبي العالية، قال: قالت اليهود: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فقال الله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم يفعلوا.

* * *

قال: وأمّا تأويل قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ فإنّه يقول: قل يا محمّد إن كان نعيم الدار الآخرة ولذّاتها لكم يا معشر اليهود عند الله. فاكتفى بذكر «الدار» من ذكر نعيمها، لمعرفة المخاطبين بالآية معناها.

وأمّا تأويل قوله: ﴿خَالِصَةً﴾ فإنّه يعني به صافية، كما يقال: خلص لي فلان بمعنى صار لي وحدي وصَفَا لي؛ يقال منه: خلص لي هذا الشيء، فهو يخلص خُلُوصاً وخالصة، والخاصة مصدر مثل العافية، ويقال للرجل: هذا خُلْصاني، يعني خالصتي من دون أصحابي. وقد رُوي عن ابن عبّاس أنّه كان يتأوّل قوله: ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة، وذلك تأويل قريب من معنى التأويل الذي قلناه في ذلك.

[٢٧٤١/٢] وعن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ قال: قل يا محمّد لهم ـ يعني اليهود ـ إن كانت لكم الدار الآخرة ـ يعني الخير ـ ﴿عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ يقول: خاصة لكم.

وأمّا قوله ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ فإنّ الذي يدلّ عليه ظاهر التنزيل أنّهم قالوا: لنا الدار الآخرة عند الله خالصة من دون جميع الناس. ويبيّن أنّ ذلك كان قولهم من غير استثناء منهم من ذلك أحداً من بني آدم، إخبارُ الله عنهم أنّهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

[٢٧٤٢/٢] إلّا أنه رُوي عن ابن عبّاس قولٌ غير ذلك. فعن الضحّاك، عن ابن عبّاس: ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ يقول: من دون محمّد ﷺ وأصحابه الّذين استهزأتم بهم، وزعمتم أنّ الحقّ في أيديكم، وأنّ الدار الآخرة لكم دونهم.

---

(١) المائدة ٥: ١٨.

وأمّا قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ فإنّ تأويله: تشهّوه وأرِيدُوه. وقد رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال في تأويله: «فسلوا الموت» ولا يُعرف التمنّي بمعنى المسألة في كلام العرب، ولكن أحسب أنّ ابن عبّاس وجّه معنى الأُمنيّة إذ كانت محبّة النفس وشهوتها إلى معنى الرغبة والمسألة، إذ كانت المسألة هي رغبة السائل إلى الله فيما سأله.

[٢٧٤٣/٢] وروى أبو روق، عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ قال: فسلوا الموت ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

* * *

قال أبو جعفر: وأمّا قوله تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فهو خبر من الله ـ جلّ ثناؤه ـ عن اليهود وكراهتهم الموت وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دُعوا إليه من تمنّي الموت، لعلمهم بأنّهم إن فعلوا ذلك فالوعيد بهم نازل والموت بهم حالّ، ولمعرفتهم بمحمّد ﷺ أنّه رسول من الله إليهم مرسل وهم به مكذّبون، وأنّه لم يُخبرهم خبراً إلّا كان حقّاً كما أخبر، فهم يحذرون أن يتمنّوا الموت خوفاً أن يحلّ بهم عقابُ الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

[٢٧٤٤/٢] فعن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ الآية قال: أي ادعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ. يقول الله لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك.

[٢٧٤٥/٢] وعن أبي روق، عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾ يقول: يا محمّد ولن يتمنّوه أبداً لأنّهم يعلمون أنّهم كاذبون، ولو كانوا صادقين لتمنّوه ورغبوا في التعجيل إلى كرامتي، فليس يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم.

[٢٧٤٦/٢] وعن ابن جُريج قال: وكانت اليهود أشدّ فراراً من الموت، ولم يكونوا ليتمنّوه أبداً.

وأمّا قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنّه يعني به بما أسلفته أيديهم. وإنّما ذلك مَثَلٌ على نحو ما تتمثّل به العرب في كلامها، فتقول للرجلّ ـ يؤخذ بجريرة جرّها أو جناية جناها فيعاقب عليها ـ: نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدّمت يداك؛ فتضيف ذلك إلى اليد، ولعلّ الجناية التي جناها فاستحقّ عليها العقوبة كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سوى اليد. وإنّما قيل ذلك بإضافته إلى اليد؛ لأنّ عظم جنايات الناس بأيديهم، فجرى الكلام باستعمال

إضافة الجنايات التي يجنيها الناس إلى أيديهم حتّى أضيف كلّ ما عوقب عليه الإنسان ممّا جناه بسائر أعضاء جسده إلى أنّها عقوبة على ما جنته يده؛ فلذلك قال ـ جلّ ثناؤه ـ للعرب: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني به: ولن يتمنّى اليهود الموت بما قدّموا أمامهم من حياتهم من كفرهم بالله في مخالفتهم أمره وطاعته في اتّباع محمّدﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، ويعلمون أنّه نبيّ مبعوث. فأضاف ـ جلّ ثناؤه ـ ما انطوت عليه قلوبهم وأضمرته أنفسهم ونطقت به ألسنتهم من حسد محمّدﷺ، والبغي عليه، وتكذيبه، وجحود رسالته إلى أيديهم، وأنّه مما قدّمته أيديهم. لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها، إذ كان ـ جلّ ثناؤه ـ إنّما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها.

[٢٧٤٧/٢] وروي عن ابن عبّاس في ذلك ما رواه أبو روق، عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول: بما أسلفت أيديهم.

[٢٧٤٨/٢] وعن ابن جريج في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: إنّهم عرفوا أنّ محمّداًﷺ نبيّ فكتموه.

* * *

وأمّا قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فإنّه يعني ـ جلّ ثناؤه ـ: والله ذو علم بظَلَمَةِ بني آدم: يهودِها ونصاراها وسائر أهل الملل غيرها، ومايعملون. وظلم اليهود وكفرهم بالله في خلافهم أمره وطاعته في اتّباع محمّدﷺ بعد أن كانوا يستفتحون به وبمبعثه، وجحودهم نبوّته وهم عالمون أنّه نبيّ الله ورسوله إليهم.(١)

[٢٧٤٩/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس في هذه الآية قال: قل لهم يا محمّد: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني الجنّة كما زعمتم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنّها لكم خالصة من دون المؤمنين فقال لهم رسول اللهﷺ: «إن كنتم في مقالتكم صادقين، قولوا: اللّهم أمتنا. فوالذي نفسي بيده لايقولها رجل منكم إلّا غُصّ بريقه فمات مكانه»، فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم، فنزل ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني عملته

(١) الطبري ١: ٥٩٦ـ ٥٩٩.

أيديهم ﴿وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ إنّهم لن يتمنّوه، فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: «والله لا يتمنّونه أبداً».(١)

[٢٧٥٠/٢] وأخرج أحمد والنسائي، وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ قال: «لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار».(٢)

[٢٧٥١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: «لو تمنّوا الموت لشرق أحدهم بريقه.(٣)

[٢٧٥٢/٢] وروى مقاتل مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ قال: لو تمنّوا الموت ما قام منهم رجل من مجلسه حتّى يغصّه الله بريقه فيموت».(٤)

[٢٧٥٣/٢] وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال: لو تمنّى اليهودُ الموتَ لماتوا. ولو خرج الّذين يباهلون النبي لرجعوا لايجدون أهلاً ولا مالاً.(٥)

[٢٧٥٤/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي ادعُوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب، فأبوا ذلك، ولو تمنّوه مابقي على وجه الأرض يهوديّ إلّا مات.(٦)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ وحتّى أنّهم أحرص على الحياة من المشركين

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٠؛ الدلائل ٦: ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ مجمع البيان ١: ٣١٠، بلفظ: وروى الكلبي عن ابن عبّاس إنّه قال: كان رسول الله ﷺ يقول لهم: «إن كنتم صادقين في مقالتكم فقولوا اللّهمّ أمتنا، فوالذي نفسي بيده لايقولها رجل إلّا غصّ بريقه فمات مكانه».

(٢) الدرُّ ١: ٢٢٠؛ مسند أحمد ١: ٢٤٨ بلفظ: عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: ولو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الّذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً؛ النسائي ٦: ٣٠٨/١١٠٦١؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٢٨، كتاب فيه ذكر الأنبياء وقال رجاله صحيح؛ الطبري ١: ٥٩٧ / ١٢٩٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٠ / ٩٠، كلّهم بنحو ما رواه أحمد في المسند.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٧ / ٩٣٦؛ الثعلبي ١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٢٥.

(٥) الدرّ ١: ٢٢٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨١ / ٩١؛ الطبري ١: ٥٩٧ / ١٢٩٧؛ أبوالفتوح ٢: ٦٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٧ / ٩٣٨.

(٦) الدرّ ١: ٢٢٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٧ / ٩٣٧.

الّذين لا يعتقدون حياة أخرى.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. تطول حياته مهما كانت كاسدة. ولكن هل البقاءُ طولَ الحياة يجدي لهم نفعاً للخلاص من العذاب الأبدي؟!

﴿وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بصير بنواياهم الخبيثة وآمالهم المنكوسة حيث الظالم لا فلاح له أبداً.

* * *

قال أبو جعفر الطبري: يعني بقوله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ اليهود، يقول: يا محمّد لتجدنّ أشدّ الناس حرصاً على الحياة في الدنيا وأشدّهم كراهة للموت اليهود. كما:

[٢٧٥٥/٢] روي عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبّاس: يعني اليهود. وهكذا روي عن مجاهد والربيع وأبي العالية.(١)

قال: وإنّما وصف الله ـ جلّ ثناؤه ـ اليهود بأنّهم أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعدّ لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقرّ به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الّذين لا يؤمنون بالبعث؛ لأنّهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب، وأنّ المشركين لا يصدّقون بالبعث، ولا العقاب. فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت.

وقيل: إنّ الّذين أشركوا الّذين أخبر الله تعالى ذكره أنّ اليهود أحرص منهم ـ في هذه الآية ـ على الحياة هم المجوس الّذين لا يصدّقون بالبعث!

[٢٧٥٦/٢] فعن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: يعني المجوس.

[٢٧٥٧/٢] وعن ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: يهود أحرص من هؤلاء على الحياة.

وقال بعضهم: هم الّذين ينكرون البعث كما:

[٢٧٥٨/٢] روى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحبّ طول الحياة، وأنّ

(١) الطبري ١: ٦٠١ـ٦٠٢.

اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيّع ممّا عنده من العلم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

هذا خبر من الله ـ جلّ ثناؤه ـ عن الّذين أشركوا، الّذين أخبر أنّ اليهود أحرص منهم على الحياة، يقول ـ جلّ ثناؤه ـ: يودّ أحد هؤلاء الّذين أشركوا ـ الّذين لايعتقدون بعد فناء دنياه وانقضاء أيّام حياته أن يكون له بعد ذلك نشور أو محيا أو فرح أو سرور ـ: لو يعمَّر ألف سنة؛ حتّى جَعَل بعضُهم تحيّة بعضٍ عشرة آلاف عام حرصاً منهم على الحياة. كما:

[٢٧٥٩/٢] روي عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: سال زه نوروز مهرجان حر.

[٢٧٦٠/٢] وأيضاً عنه، عن سعيد، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول أحدهم إذا عطس زه هزار سال، يقول: عشرة آلاف سنة.

[٢٧٦١/٢] وعن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول أهل الشرك بعضهم لبعض إذا عطس: زه هزار سال.

[٢٧٦٢/٢] وعن ابن أبي نجيح عن قتادة في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حُبِّبت إليهم الخطيئة طول العمر.

[٢٧٦٣/٢] وعن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ حتّى بلغ: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يهود أحرص من هؤلاء على الحياة، وقد ودّ هؤلاء لو يعمَّر أحدُهم ألف سنة.

قوله: ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ أي بمُبعِده ومُنَحِّيه، كما قال الحُطَيئة:

وقالُوا تَزَحْزَحْ ما بِنا فَضْلُ حاجَةٍ إلَيكَ وَما مِنّا لِوَهْيِكَ رَاقِعُ

يعني بقوله تزحزح: تباعد، يقال منه: زحزحه يزحزحه زحزحةً وزِحزاحاً، وهو عنك متزحزح: أي متباعد.

فمعنى الآية: وما طول العمر بمبعده من عذاب الله ولا منحّيه منه؛ لأنّه لابدّ للعمر من الفناء ومصيره إلى الله. كما:

[٢٧٦٤/٢] روي عن سعيد بن جبير، أو عن عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ

مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ قال: أي ما هو بمنحّيه من العذاب.

[٢٧٦٥/٢] وعن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ يقول: وإن عُمِّر، فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجّيه.

[٢٧٦٦/٢] وعن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾: ويهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمَّر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر كما عُمِّر إبليس لم ينفعه ذلك، إذ كان كافراً ولم يزحزحه ذلك عن العذاب.(١)

[٢٧٦٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ قال: اليهود ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم.(٢)

[٢٧٦٨/٢] وفي التفسير المنسوب إلى الإمام ﷺ: ثمّ قال: يا محمّد ﴿وَ لَتَجِدَنَّهُمْ﴾ يعني تجد هؤلاء اليهود ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ وذلك ليأسهم من نعيم الآخرة ـ لانهماكهم في كفرهم ـ الذي يعلمون أنّه لاحظّ لهم معه في شيء من خيرات الجنّة. ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال [تعالى]: هؤلاء اليهود ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ وأحرص ﴿وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على حياة يعني المجوس لأنّهم لايرون النعيم إلّا في الدنيا، ولا يأملون خيراً في الآخرة. فلذلك هم أشدّ الناس حرصاً على حياة. ثمّ وصف اليهود فقال: ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنّى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ﴾ التعمير ألف سنة ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ بمباعده ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾.(٣)

---

(١) الطبري ١: ٦٠١-٦٠٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٢١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٨ / ٩٤٤ و ٩٤٦؛ الحاكم ٢: ٢٦٣.

(٣) تفسير الإمام ﷺ: ٤٤٤ / ذيل ٢٩٤؛ البرهان ١: ٢٨٦ / ذيل ١؛ البحار ٩: ٣٢٢-٣٢٣ / ذيل ١٥، باب ٢.

قال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَ مَلَآئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَ لَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

تلك سمة أخرى من سمات اليهود تبدو عجيبة حقّاً. لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ مبلغاً يتجاوز كلّ حدّ، وقادهم إلى تناقض لايستقيم في عقل. فقد سمعوا أنّ جبريل ينزل بالوحي على محمّدﷺ وقد بلغ حقدهم له مبلغ السفه والخبل فقد لجّ بهم الضغن أن يخترعوا قصّة واهية فيزعموا أنّ جبريل عدوّهم، حيث نزل بالوحي على غير قبيلهم ولأنّه كان ينزل بالدمار والهلاك وصبّ البلاء على بني إسرائيل منذ أمد بعيد وأنّ هذا هو السبب الذي يمنعهم من الإيمان بنبيّ الإسلامﷺ ولو كان الّذي ينزل بالوحي على محمّدﷺ هو ميكال لآمنوا، حيث إنّه ينزل بالمطر والخصب والرخاء.

إنّها الصفاقة والحماقة المضحكة... غير أنّ الحقد والغيظ يسوقان إلى كلّ سفاهة وإلّا فما بالهم يعادون جبريل، وجبريل عبد من عباد الله، ويعمل بإذن الله ولا موجب لأن يعادي فئة لامساس لهم به فيما يزاوله من شؤون!

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فما كان له من هوىً شخصيّ ولا إرادة ذاتيّة وإنّما هو مُنفّذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلب سيّد المرسلين. ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولم يكن ما نزل به جبريل ما يضادّ رسالات الله السالفة، أو يكون فيه عداء لقوم دون قوم بل هو هداية عامّة وبشرى لمن آمن به، بشرى بسعادة الدارين. ومن ثمّ فمن

كان عدوًّا لجبريل، فإنّه معاد لله ومعارض لرسالة الله في الأرض. ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَ مَلائكتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ حيث كان العداءُ مع رُسُل الله عداءً مع الله وهو في حدّ الكفر بالله والله عدوّ للكافرين.

ثمّ يتّجه الخطاب إلى الرسول ﷺ يثبّته على موضع رسالته، وأن سوف يظهره على الدين كلّه. ويريه الناس كيف يدخلون في دين الله أفواجاً وأن لا موضع للمعارض سوى الشذوذ والإنفراد عن ركب جماعة الناس. ﴿وَ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾. وما هذا الشـذوذ و الانحراف عن جادّة الحقّ، سوى امتداد لمنهجهم الملتوي في سائر عهودهم والمواثيق. ﴿أَوَ كُـلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فقد أخلفوا ميثاقهم مع الله في سفح الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد. وأخيراً نـبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبيّ ﷺ أوّل مقدمه إلى المدينة، وهو العهد الّذي وادَعَهم فيه بشروط معيّنة[1]. بينما كانوا هم أوّل من أعان عليه أعداءه، وأوّل من عاب دينه، وحاول بثّ الفرقة والفتنة في صفوف المسلمين، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه.

﴿وَ لَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وكان هذا من أبرز مظاهر النقض فقد كان عليهم أن يؤمنوا بكلّ رسول يعرفونه رسـولاً مـن عندالله وينصروه ويؤازروه ولكنّهم على العكس نابذوا رسول الإسلام وعادوه، فـي حـين أنّـهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

نعم جاءهم كتاب يتوافق مع أسس الشرائع السالفة ـ دليلاً على صدقه ـ لكنّهم رغم عرفانهم له نبذوه وراء ظهورهم، على غرار جَهَلة المشركين.

وفي هذا التعبير نكاية بهم وسخريّة خفيّة بموضعهم الشنيء، إنّهم حسب زعمهم أهل كتاب وعرفان ولكنّهم بصنيعهم هذه البشعة ساووا جيرانهم المشركين الّذين هم أمّيّون لاعـلم لهـم ولا كتاب.

---

(١) وسيوافيك نصّ المعاهدة، نقلاً من السيرة لابن هشام ٢: ١٤٧ ـ ١٥٠.

قال أبو جعفر الطبري: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أنّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذْ زعموا أنّ جبريل عدوّ لهم وأنّ ميكائيل وليّ لهم. ثمّ اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنّما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوّته.

[٢٧٦٩/٢] فعن شهر بن حوشب، عن ابن عبّاس أنّه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدّثنا عن خلال نسألك عنهنّ لا يعلمهنّ إلّا نبيّ! فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدّثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنّي على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم!» فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهنّ! أخبرنا أيّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبيّ الأميّ في النوم ومَن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنّي!». فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرّمنّ أحبّ الطعام والشراب إليه وكان أحبّ الطعام إليه لحم الإبل؟» ـ قال أبو جعفر: فيما أرى: «وأحبّ الشراب إليه ألبانها» ـ فقالوا: اللّهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «أُشهد الله عليكم و أُنشدكم بالله الّذي لا إله إلّا هو، الّذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أنّ ماء الرجل أبيض غليظ، وأنّ ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيّهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أنثى بإذن الله!» قالوا: اللّهم نعم. قال: «اللّهم اشهد. قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أنّ هذا النبيّ الأمّي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهمّ نعم. قال: «اللّهم اشهد» قالوا: أنت الآن تحدّثنا، مَن وليّك من الملائكة؟ فعندها نتابعك أو نفارقك! قال: فإنّ وليّي جبريل. ولم يبعث الله نبيّاً قطّ إلّا وهو وليّه! قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدّقناك!

قال: فما يمنعكم أن تصدّقوه؟ قالوا: إنّه عدوّنا فأنزل الله ـعزّ وجلّ ـ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فعندها باؤوا بغضب على غضب.(١)

قلت: لا يخفى مواضع الوهن في هذا الحديث وأمثاله ممّا سنذكر ولعلّ واضعه قد خلط الحابل بالنابل، فتنبّه.

[٢٧٧٠/٢] وكذا أخرج الطيالسي والفريابي وأحمد وعبدبن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نُعَيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عبّاس قال: حضرت عصابةٌ من اليهود نبيّ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدّثنا عن خلال نسألك عنهنّ لا يعلمهنّ إلّا نبيّ! قال: سلوني عمّا شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمّة الله وما أَخَذَ يعقوبُ على بنيه: لئن أنا حدّثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابِعُنّي؟ قالوا: فذلك لك. قالوا: أربع خلال نسألك عنها: أخبرنا أيّ طعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة وكيف الأنثى منه والذكر؟ وأخبرنا كيف هذا النبيّ الأمّي في النوم، ومَن وليّه من الملائكة؟ فأخذ عليهم عهد الله لئن أخبرتكم لتتابعنّي، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق! قال: فأُنشدكم بالذي أنزل التوراة هل تعلمون أنّ إسرائيل مرض مرضاً طال سقمه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنّ أحبّ الشراب إليه وأحبّ الطعام إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهمّ نعم. فقال: اللهمّ اشهد. قال: أنشدكم بالذي لا إلـه إلّا هو، هل تعلمون أنّ ماء الرجل أبيض غليظ وأنّ ماء المرأة أصفر رقيق، فأيّهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله؛ إن علا ماءُ الرجل كان ذكراً بإذن الله وإن علا ماءُ المرأة كان أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللّهم نعم. قال: اللهمّ اشهد قال: فأُنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنّ النبيّ الأمّي هذا تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: نعم. قال: اللهمّ اشهد عليهم. قالوا: أنت الآن فحدّثنا مَن وليّك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك؟ قال: وليّي جبريل، ولم يبعث الله نبيّاً قط إلّا وهو وليّه. قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليّك سواه من الملائكة لاتّبعناك وصدّقناك. قال: فما يمنعكم أن

(١) الطبري ١: ٦٠٦ـ٦٠٧ / ١٣٣٠.

تصدّقوه؟ قالوا: هو عدوّنا. فأنزل الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك باؤوا بغضب على غضب.(١)

[٢/٢٧٧١] وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: حدّثني القاسم بن أبي بزّة: أنّ اليهود سألوا النبيّ ﷺ مَن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي، فقال: «جبريل». قالوا: فإنّه لنا عدوّ ولا يأتي إلّا بالحرب والشدّة والقتال. فنزل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.(٢)

[٢/٢٧٧٢] وأخرج ابن جرير وعبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة قال: قالت اليهود: إنّ جبريل هو عدوّنا لأنّه ينزل بالشدّة والحرب والسَّنة، وإنّ ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدوّنا. فقال الله جلّ ثناؤه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾.(٣)

[٢/٢٧٧٣] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف وإسحاق بن راهويه في مسنده وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: نزل عمر بالروحاء، فرأى ناساً يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها! فقال: ما هذا؟ فقالوا: يقولون إنّ النبي ﷺ صلّى إلى هذه الأحجار، فقال: سبحان الله! ما كان رسول الله ﷺ إلّا راكباً مرّ بوادٍ، فحضرت الصلاة فصلّى.

ثمّ حدّث عمر فقال: إنّي كنت أغشى اليهود يوم دراستهم، فقالوا: ما من أصحابك أحد أكرم علينا منك، لأنّك تأتينا! قلت: وما ذاك إلّا أنّي أعجب من كتب الله كيف يصدّق بعضُها بعضاً؛ كيف تصدّق التوراةُ الفرقانَ والفرقانُ التوراةَ. فمرّ النبي ﷺ يوماً وأنا أُكلّمهم فقلت: أُنشدكم بالله وما تقرأون من كتابه، أتعلمون أنّه رسول الله؟ فسكتوا فقال عالمهم وكبيرهم: إنّه قد عظّم عليكم فأجيبوه! قالوا: أنت عالمنا وسيّدنا فأجبه أنت. قال: أمّا إذا أنشدتنا به فإنّا نعلم إنّه رسول الله! قلت: ويحكم، أي هلكتم والله تعلمون أنّه رسول الله ثمّ لا تتّبعونه ولا تصدّقونه! قالوا: لم نهلك ولكن

---

(١) الدرّ ١: ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ مسند الطيالسي: ٣٥٦ ـ ٣٥٧؛ مسند أحمد ١: ٢٧٨؛ ابن أبي حاتم ١: ١٧٩ ـ ١٨٠ / ٩٥٢، باختصار؛ الكبير ١٢: ١٩٠ ـ ١٩١ / ١٤١٤، ترجمة شهر بن حوشب عن ابن عبّاس؛ الدلائل، للبيهقي ٦: ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٤ ـ ٣١٥؛ ابن كثير ١: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) الطبري ١: ٦٠٨ / ١٣٣٢؛ ابن كثير ١: ١٣٤.

(٣) الطبري ١: ٦١٠ / ١٣٣٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨١ / ٩٢؛ ابن كثير ١: ١٣٦.

سألناه مَن يأتيه بنبوّته فقال: عدوّنا جبريل، لأنّه ينزل بالغلظة والشدّة والحرب والهلاك ونحو هذا، فقلت: فَمن سِلْمكم من الملائكة؟ فقالوا: ميكائيل ينزل بالقطر والرحمة ونحو هذا. قلت: وكيف منزلتهما من ربّهما؟ فقالوا: أحدهما عن يمينه والآخر من الجانب الآخر. قلت: فإنّه لا يحلّ لجبريل أن يعادي ميكائيل، ولا يحلّ لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل! وإنّي أشهد أنّهما وربّهما سلم لمن سالموا وحرب لمن حاربوا، ثمّ أتيت النبيّ ﷺ وأنا أريد أن أخبره، فلمّا لقيته قال: ألا أخبرك بآيات أُنزلت عليّ؟ قلت: بلى يا رسول الله! فقرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ حتّى بلغ ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ قلت: والله يا رسول الله ما قمت من عند اليهود إلّا إليك لأخبرك بما قالوا لي وقلت لهم، فوجدتُ الله قد سبقني![1]

[٢٧٧٤/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن مغراء، عن مجاهد، عن الشعبي، قال: انطلق عمر إلى يهود، فقال: إنّي أُنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمّداً في كتابكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتّبعوه؟ قالوا: إنّ الله لم يبعث رسولاً إلّا كان له كِفل من الملائكة، وإنّ جبريل هو الذي يتكفل لمحمّد، وهو عدوّنا من الملائكة، وميكائيل سِلمنا؛ فلو كان هو الذي يأتيه اتّبعناه! قال: فإنّي أُنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، ما منزلتهما من ربّ العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن جانبه الآخر. فقال: إنّي أشهد ما يقولان إلّا بإذن الله، وما كان لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدوّ ميكائيل. [فبينما هو عندهم] إذ مرّ نبيّ الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب. فقام إليه فأتاه وقد أُنزل عليه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

[٢٧٧٥/٢] وأخرج سفيان بن عُيَيْنَة عن عِكرمة قال: كان عمر يأتي اليهود يكلّمهم فقالوا: إنّه ليس من أصحابك أحد أكثر إتياناً إلينا منك، فأخبرنا من صاحب صاحبك الذي يأتيه بالوحي؟ فقال: جبريل! قالوا: ذاك عدوّنا من الملائكة. ولو أنّ صاحبه صاحب صاحبنا لاتّبعناه. فقال عمر:

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ الطبري ١: ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٣٣٣. ابن أبي حاتم ١: ١٨١ / ٩٦٠، باختلاف في اللفظ؛ ابن كثير ١: ١٣٥ ـ ١٣٦؛ كنزالعمّال ٢: ٣٥٣ ـ ٣٥٤ / ٤٢٢٢.

(٢) الطبري ١: ٦١١ / ١٣٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨١ / ٩٦٠؛ ابن كثير ١: ١٣٦.

مَن صاحب صاحبكم؟ قالوا: ميكائيل. قال: وما هما؟ قالوا: أمّا جبريل فينزل بالعذاب والنقمة وأمّا ميكائيل فينزل بالغيث والرحمة وأحدهما عدوّ لصاحبه. فقال عمر: وما منزلتهما؟ قالوا: إنّهما من أقرب الملائكة منه تعالى أحدهما عن يمينه وكلتا يديه يمين، والآخر على الشقّ الآخر! فقال عمر: لئن كانا كما تقولون، ما هما بعدوّين! ثمّ خرج من عندهم فمرّ بالنبي ﷺ فدعاه فقرأ عليه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآية. فقال عمر: والذي بعثك بالحقّ إنّه الذي خاصمتُهم به آنفا![1]

[٢٧٧٦/٢] وأخرج الثعلبي بالإسناد إلى قتادة وعكرمة والسدّي: إنّه كان لعمر أرض بأعلى المدينة وممرّها على مدارس اليهود. وكان عمر إذا أتى أرضه يأتيهم ويسمع منهم ويكلّمهم، فقالوا له: ما في أصحاب محمّد ﷺ أحبّ إلينا منك؛ إنّهم يمرّون بنا فيؤذوننا وأنت لا تؤذينا، وإنّا لنطمع فيك! فقال عمر: والله ما آتيكم لحبّكم ولا أسألكم لأنّي شاكٌ في ديني، وإنّما أدخل عليكم لأزداد بصيرةً في أمر محمّد ﷺ وأرى آثاره في كتابكم! فقالوا: مَن صاحب محمّد الذي يأتيه من الملائكة؟ قال: جبرئيل! فقالوا: ذاك عدوّنا يُطلع محمّداً على سرّنا، وهو صاحب كلّ عذاب وخسف وسنة وشدّة. وإنّ ميكائيل إذا جاء، جاء بالخصب والسلم! فقال لهم عمر: تعرفون جبريل و تنكرون محمّداً؟ قالوا: نعم. قال: فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله ـ عزّ وجلّ ـ! قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره. وميكائيل عدوّ لجبريل! قال عمر: فإنّي أشهد أنّ من كان عدوّاً لجبريل فهو عدوّ لميكائيل، ومن كان عدوّاً لميكائيل فهو عدوّ لجبريل، ومن كان عدوّاً لهما كان الله عدوّاً له.

ثمّ رجع عمر إلى رسول الله ﷺ فوجد جبرئيل قد سبقه بالوحي، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية وقال: «لقد وافقك ربّك يا عمر!». فقال عمر: لقد رأيتني بعد ذلك في دين الله أصلب من الحجر![2]

[٢٧٧٧/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذُكر لنا أنّ عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما أبصروه رحّبوا به، فقال عمر: والله ما جئت لحبّكم ولا للرغبة فيكم. ولكنّي جئتُ

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٣؛ الثعلبي ١: ٢٣٩ باختلاف في الألفاظ؛ البغوي ١: ١٤٥ / ٧١.

(٢) الثعلبي ١: ٢٣٩؛ البغوي ١: ١٤٥؛ الطبري ١: ٦١٠.

لأسمع منكم! وسألوه فقالوا: مَن صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريل، قالوا: ذاك عدوّنا من الملائكة يطلع محمّداً على سرّنا، وإذا جاء، جاء بالحرب والسَّنة ولكن صاحبنا ميكائيل، إذا جاء جاء بالخصب والسلم. فتوجّه نحو رسول الله ﷺ ليحدّثه حديثهم، فوجده قد أُنزل عليه هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآية.(١)

[٢٧٧٨/٢] وأخرج البخاري وغيره بالإسناد إلى أنس، قال: سمع عبدالله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو ـ أي ابن سلام ـ في أرض يخترف(٢)، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إنّي سائلك عن ثلاث لايعلمهنّ إلّا نبيٌّ: فما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام أهل الجنّة؟ وما ينزع الولد(٣) إلى أبيه أو إلى أمّه؟

قال النبي ﷺ أخبرني بهنّ جبريل آنفاً! قال ابن سلام: جبريل؟! قال: نعم! قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة! فقرأ النبيّ ﷺ هذه الآية ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾. قال: أمّا أوّل أشراط الساعة فنارٌ تَحْشُرُ الناس من المشرق إلى المغرب! وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت!؟ وامّا ما ينزع الولد إلى أبيه أو أمّه فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد إليه. وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع إليها! فعند ذلك شهد ابن سلام الشهادتين وأسلم.(٤)

قلت: وفي هذا الحديث غرابة من وجوه لاتخفى!

[٢٧٧٩/٢] وروى الثعلبي بالإسناد إلى ابن عبّاس قال: إنّ حبراً من أحبار اليهود يقال له ـ عبدالله بن صوريا ـ كان قد حاجّ النبيّ وسأله عن أشياء.(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٣؛ الطبري ١: ٦٠٩ ـ ٦١٠ / ١٣٣٤.

(٢) جاء في مسند أحمد ٣: ٢١١: وهو في نخل لأهله، يخترف لهم منه. أي يجتني لهم ثمر النخل.

(٣) أي وَلِمَ ينزع إلى أحدهما؟

(٤) البخاري ٥: ١٤٨ ـ ١٤٩ و ٤: ١٠٢ ـ ١٠٣ و ٢٦٨؛ و(ط الشعب) ٤: ١٦٠ ـ ١٦١؛ مسند أحمد ٣: ١٠٨ و ١٨٩؛ دلائل النبوّة للبيهقي ٦: ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ النسائي ٥: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ / ٩٠٧٤؛ كنزالعمّال ١٤: ٣٤٤ / ٣٨٨٨٢؛ أبويعلى ٦: ٤٥٨ ـ ٤٥٩ / ٣٨٥٦؛ ابن حبّان ١٦: ١١٧ ـ ١١٨؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٤٠٨ ـ ٤٠٩ / ١٣٨٩.

(٥) ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي في التبيان (١: ٣٦٣): أنّ ابن صوريا وجماعة من يهود فدك، لمّا قدم النبي ﷺ المدينة ←

فلمّا اتّجهت الحجّة عليه قال: أيّ ملك يأتيك من السماء؟ قال: جبرئيل، ولم يُبعث الكتاب لأنبياء قطّ إلّا وهو وليّه. قال: ذلك عدوّنا من الملائكة، ولو كان ميكائيل مكانه لآمنّا بك، لأنّ جبرئيل ينزل بالعذاب والقتال والشقوة، وإنّه عادانا مراراً كثيرة، وكان أشدّ ذلك علينا أنّ الله أنزله على نبيّ لنا: أن سيُخرب بيت المقدس على يد رجل يقال له: بخت نصَّر، و أخبرنا بالحين الذّي يُخرب فيه. فلمّا كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلب بخت نصّر ليقتله، فانطلق يطلبه حتّى لقيه ببابل غلاماً مسكيناً ليس له قوّة. فأخذه صاحبنا ليقتله فدافع عنه جبرئيل وقال لصاحبنا: إن كان ربّكم هو الذي أذن له في هلاككم، فلن تسلّط عليه، وإن لم يكن هذا فعلى أيّ حقّ تقتله؟! فصدّقه صاحبنا ورجع فكَبُر بخت نصّر وقوي وغزانا وخرّب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدوّاً فأنزل الله هذه الآية.(١)

[٢ / ٢٧٨٠] وجاء في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام عن الصحابيّ الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري قال: «ولقد حَدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحَضَره عبدالله بن صوريا ـ غلام يهوديّ تزعم اليهود أنّه أعلم يهوديّ بكتاب الله وعلوم الأنبياء ـ فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مسائل كثيره يُعنّته فيها، فأجابه عنها بما لم يجد إلى إنكار شيء منه سبيلاً.

وساق الحديث ـ كما رواه الثعلبي ـ غير أنّه سمّى الرجل الذي بعثوه ليبحث عن بخت نصّر أنّه «دانيال».(٢)

← سألوه. فقالوا: يا محمّد، كيف نومك؟ فقد أُخبرنا عن نوم النبيّ الذي يأتي في آخر الزمان! فقال: تنام عيناي، وقلبي يقظان. فقالوا: صدقت يا محمّد، فأخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو من المرأة؟ فقال: أمّا العظام والعصب والعروق، فمن الرجل، وأمّا اللحم والدم والظفر والشعر، فمن المرأة! قالوا: صدقت يا محمّد، فما بال الولد يُشبه أعمامه، ليس فيه من شَبَه أخواله شيء، أو يُشبه أخواله ليس فيه من شَبَه أعمامه شيء؟ فقال: أيّهما علا ماؤه كان الشبه له! قالوا: صدقت يا محمّد، فأخبرنا عن ربّك ماهو؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. وَ لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فقال ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنتُ بك واتّبعتك: أيّ ملك يأتيك بما ينزل الله لك؟ وساق الحديث. (مجمع البيان ١: ٣١٥).

(١) الثعلبي ١: ٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ البغوي ١: ١٤٤ ـ ١٤٥؛ أبوالفتوح ٢: ٦٣، ذكره باختصار.

(٢) تفسير الإمام: ٤٠٦ ـ ٤٠٧ / ٢٧٧. وراجع كتاب الاحتجاج المنسوب إلى الطبرسي ١: ٤٦ ـ ٤٧، والبحار ٩: ٢٨٣.

[٢٧٨١/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: وقوله ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنّما نزلت في اليهود الّذين قالوا لرسول الله ﷺ: إنّ لنا في الملائكة أصدقاء وأعداء، فقال رسول الله ﷺ: مَن صديقكم ومَن عدوّكم؟ فقالوا: جبرئيل عدوّنا، لأنّه يأتي بالعذاب، ولو كان الذي ينزّل عليك القرآن ميكائيل، لآمنّا بك، فإنّ ميكائيل صديقنا، وجبرئيل ملك الفُظاظة[١] والعذاب، وميكائيل ملك الرحمة. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.[٢]

غرائب آثار بشأن جبريل وميكال

هناك روايات عن السلف بشأن الملكين المقرّبين عند الله، جبرائيل وميكائيل، هي أشبه بالأوهام منها إلى الحقائق ولعلّها من نسائج أحلام أبناء إسرائيل، كادت تسخر من أصحاب العقول الضئيلة، أو تضعضع من عقائدها الهزيلة وهم بعدُ لم يرتووا من مناهل الإسلام العذبة الرحيقة.

من المعروف أنّ هذين الاسمين يُعبِّران عن مفاهيم جليلة، هي بالقرب إلى ساحة قدسه تعالى أدلّ. فلفظة جبرائيل تعني: رَجُل الله أي مظهر قدرته تعالى... وميكائيل: سطوة الله المهيمنة على سائر الملائكة والخلائق أجمعين.

حيث كانت «جبرا» بمعنى الرجل المقتدر. و «إيل» هو الله تعالى. وكذلك «ميكا» بمعنى السطوة والهيمنة وتعني رأس الملائكة. كما أنّ «إسرا» بمعنى العبد المظفَّر لدى مولاه.[٣]

هذا ولكن ورد في آثار السلف ما يقضي بالعجب:

قال أبو إسحاق الثعلبي: قال العلماء: جَبْر هو العبد بالسُّريانيّة وإيل هو الله تعالى.

كما روى إسماعيل عن رجاء عن معاوية (!؟) يرفعه قال: إنّما جبرئيل وميكائيل كقولك: عبدالله وعبدالرحمان.

---

(١) الفُظاظة: الغلظة والشدّة والنكال.
(٢) القمّيّ ١: ٥٤؛ البحار ٩: ١٨٦.
(٣) راجع: قاموس الكتاب المقدّس لجميز هاكس: ٥٣ و ٢٧٨ و ٨٦١.

وقيل: جبرئيل مأخوذ من جبروت الله، وميكائيل من ملكوت الله.(١)

وعن عكرمة قال: جبر وميك وإسراف، هو: العبد، بالسريانيّة. قال: وإيل هو الله تعالى. ومعناهما: عبدالله وعبدالرحمان.(٢)

[٢٧٨٢/٢] وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن يعمر انّه كان يقرأها: جبرال، ويقول: «جبر» هو عبد و«إل» هو الله.(٣)

[٢٧٨٣/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن عكرمة قال: جبر: عبد وايل: الله، وميك: عبد وايل: الله، وإسراف: عبد وايل: الله.(٤)

[٢٧٨٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عليّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(٥) قال: قول جبريل وميكائيل وإسرافيل، كأنّه يقول حين يضيف «جبر» و«ميكا» و «إسرا» إلى «إيل» يقول: عبدالله، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ كأنّه يقول: لايرقبون الله عزّ وجلّ.(٦)

[٢٧٨٥/٢] وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: جبريل اسمه عبدالله، وميكائيل اسمه عُبيدالله،

---

(١) الثعلبي ١: ٢٤٠؛ الطبري ١: ٦١٤.

(٢) البغوي ١: ١٤٦؛ الدرّ ١: ٢٢٦؛ ابن كثير ١: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٥؛ ابن كثير ١: ١٣٧؛ عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر؛ الثعلبي ١: ٢٤٠، بلفظ: «وجبرال» مهموز، مقصور، مشدد اللام من غير ياء وهي قراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر والأعمش.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٦؛ الطبري ١: ٦١٤ / ١ ـ ١٣٥٠؛ ابن كثير ١: ١٣٥ ـ ١٣٦؛ البغوي ١: ١٤٦؛ أبوالفتوح ٢: ٦٩؛ برواية عكرمة وسعيدبن جبير وعطا عن عبدالله بن عبّاس.

(٥) التوبة ٩: ٨. والإلّ: العهد. كما قال الشاعر:

وَجَدْنا هم كاذباً إلُّهم وذو الإلّ والعهد لايكذب

وبمعنى القرابة، كما قال حسّان:

لعمرك إنّ إلّك من قريشٍ كإلّ السَّقْب مِنْ رأل النعام

والسَّقْب: ولد الناقة. والرأل: فرخ النعامة.. لانسب بينهما.

فمعنى الآية: أنّ المشركين إن ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم قرابةً ولاعهداً. (مجمع البيان ٥: ٨ ـ ٩). إذن لاصلة للآية بما زعمه أبو مجلز، هو: لاحق بن حُمَيد.

(٦) الطبري ١: ٦١٥ / ١٣٥١.

قال: والإلّ الله، وذلك قوله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال: لا يرقبون الله!![١]

[٢٧٨٦/٢] وأخرج أبو الشيخ وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عبّاس. وابن جرير عن عليّ بن حسين، قال: قال لي: هل تدري ما اسم جبريل من أسمائكم؟ قلت: لا، قال: عبدالله، قال: فهل تدري ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قال: لا، قال: عُبيدالله. وقد سمّى لي إسرائيل باسم نحو ذلك فنسيته، إلّا أنّه قد قال لي: أرأيت كلّ اسم يرجع إلى إيل فهو معبَّد به.[٢]

[٢٧٨٧/٢] وأخرج عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عبّاس: أنّ إسرائيل وميكائيل وجبريل وإسرافيل، كقولك: عبدالله.[٣]

[٢٧٨٨/٢] وأخرج الديلمي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «اسم جبريل عبدالله، واسم اسرافيل عبدالرحمان».[٤]

[٢٧٨٩/٢] وأخرج ابن جرير، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبدالله بن الحارث، قال: «إيل»: الله بالعبرانية.[٥]

[٢٧٩٠/٢] وأخرج أبو الشيخ عن موسى بن أبي عائشة قال: بلغني أنّ جبريل إمام أهل السماء.[٦]

[٢٧٩١/٢] وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن مرّة قال: جبريل على ريح الجنوب.[٧]

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٥؛ الطبري ١: ٦١٤ / ١٣٤٧؛ بلفظ: عن عكرمة قال: جبريل اسمه عبدالله وميكائيل اسمه عبيدالله، إيل: الله؛ ابن كثير ١: ١٣٥، عن عكرمة وابن عبّاس.

(٢) الطبري ١: ٦١٤ / ١٣٤٩ و ١٣٥٠؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٢ / ٩٦٥، و فيه بعد قوله: «عبيدالله»: «وكلّ اسم مرجعه إلى ايل فهو إلى الله». وكذا نسبه إلى عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر؛ العظمة ٣: ٨١٢ـ٨١٣ / ٣٨٢ / ٧. باختلاف يسير؛ شعب الإيمان ١: ١٨٢ / ١٦٥؛ القرطبي ٢: ٣٨. وابن كثير ١: ١٣٥ ـ ١٣٧؛ أبو الفتوح ٢: ٦٩؛ الدرّ ١: ٢٢٥.

(٣) الطبري ١: ٦١٤ / ١٣٤٥. (٤) الدرّ ١: ٢٢٥.

(٥) الطبري ١: ٦١٤ / ١٣٤٦. ابن أبي حاتم ١: ١٨٢ / ٩٦٧.

(٦) الدرّ: ١ / ٢٢٦؛ العظمة ٢: ٧٨٦ / ٣٥٩ ـ ٢١، (١٢) باب: ذكر الملائكة الموكّلين في السماوات والأرضين.

(٧) الدرّ: ١ / ٢٢٦؛ العظمة ٤: ١٣٤٨ / ٨٦٥ ـ ٦٩ (٢٧) باب ذكر الرياح.

[٢٧٩٢/٢] وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال: قال جبريل ﷺ: إنّ ربّي ليبعثني على الشيء لأمضيه فأجد الكونَ قد سبقني إليه![١]

[٢٧٩٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبدالعزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله.[٢]

[٢٧٩٤/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل الملائكة: جبريل، وأفضل النبيين: آدم، وأفضل الأيّام: يوم الجمعة، وأفضل الشهور: شهر رمضان، وأفضل اللّيالي: ليلة القدر، وأفضل النساء: مريم بنت عمران»؟![٣]

[٢٧٩٥/٢] وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن عن ابن عبّاس قال: «بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه إذ انشقّ أفق السماء، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض ويدنو من الأرض، فإذا ملك قد مُثّل بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد إنّ ربّك يُقرئك السلام، ويُخيِّرك بين أن تكون نبيًّا مَلِكاً وبين أن تكون نبيًّا عبداً! قال رسول الله ﷺ: فأشار جبريل إليّ بيده أن تواضَعْ؛ فعرفت أنّه لي ناصح، فقلت: عبد نبيّ. فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت: يا جبريل قد كنتُ أردت أن أسألك عن هذا، فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة، فمَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا إسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافّاً قدميه لا يرفع طرفه، بينه وبين الربّ سبعون نوراً، ما منها نور يدنو منه إلّا احترق، بين يديه اللوح المحفوظ، فإذا أذن الله في شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فيه، فإذا كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به! قلت: يا جبريل على أيّ شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود! قلت: على أيّ شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر! قلت: على أيّ شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأنفس وما ظننت أنّه هبط إلّا

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٦؛ حلية الأولياء ٣: ٣٣٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٢٦؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٣ / ٩٦٨؛ ابن كثير ١ / ١٣٧؛ العظمة ٢: ٧٧٦ / ٣٥١ ـ ١٣، باب ذكر الملائكة الموكّلين في السماوات والأرضين.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٦؛ الكبير ١١: ١٢٩ / ١١٣٦١؛ مجمع الزوائد ٢: ١٦٥؛ كنزالعمّال ١٢: ٣٤٦ / ٣٥٣٤٣.

بقيام الساعة، وما ذاك الذي رأيتَ منّي إلّا خوفاً من قيام الساعة!»[١].

[٢٧٩٦/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «وددت أنّي رأيتك في صورتك! قال: وتحبّ ذلك؟ قال: نعم. قال: موعدك كذا وكذا من اللّيل بقيع الغرقد، فلقيه رسول الله ﷺ موعده، فنشر جناحاً من أجنحته فسدّ أفق السماء حتّى ما يُرى من السماء شيء»![٢]

[٢٧٩٧/٢] وأخرج أحمد وأبو الشيخ عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: «رأيت جبريل منهبطاً قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلّق بها اللؤلؤ والياقوت».[٣]

[٢٧٩٨/٢] وأخرج أبو الشيخ عن شريح بن عبيد أنّ النبيّ ﷺ لمّا صعد إلى السماء رأى جبريل في خلقته، منظومة أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت. قال: «فخيّل إليّ أنّ ما بين عينيه قد سَدَّ الأفق، وكنت أراه قبل ذلك على صور مختلفة، وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي، وكنت أحياناً أراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال».[٤]

[٢٧٩٩/٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ جبريل ليأتيني كما يأتي الرجل صاحبه في ثياب بيض مكفوفة باللؤلؤ والياقوت، رأسه كالحبك، وشعره كالمرجان، ولونه كالثلج، أجلى الجبين، برّاق الثنايا، عليه وشاحان من درّ منظوم، وجناحاه أخضران، ورجلاه مغموستان في الخضرة، وصورته التي صوّر عليها تملأ ما بين الأفقين، وقد قال ﷺ: أشتهي أن أراك في صورتك يا روح الله. فتحوّل له فيها فسدَّ ما بين الأفقين».[٥]

[٢٨٠٠/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة عن حذيفة قال: لجبريل جناحان، وعليه وشاح من درٍّ

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٦؛ العظمة ٢: ٧٠٠ ـ ٧٠١ / ٢٩١ ـ ٣٠. باب ذكر حجب ربّنا تبارك وتعالى؛ الكبير ١١: ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ مجمع الزوائد ٩: ١٩، باب: في تواضعه ﷺ؛ شعب الإيمان ١: ١٧٧ / ١٥٧.

(٢) الدرّ ١: ٢٢٧؛ العظمة ٢: ٧٧١ ـ ٧٧٢ / ٣٤٦ ـ ٨؛ منتخب مسند عبد بن حميد: ٤٣٩ / ١٥١٩؛ وزاد في آخره: واجتثّ رسول الله ﷺ عند ذلك.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٧؛ العظمة ٢: ٧٦٨ / ٣٤٣ ـ ٥؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٥٧؛ كنزالعمال ٦: ١٤٠ / ١٥١٦٨؛ مسند أحمد ٦: ١٢٠.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٧؛ العظمة ٢: ٧٨٠ / ٣٥٦ ـ ١٨.

(٥) الدرّ ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

منظوم، وهو برّاق الثنايا، أجلى الجبينين، ورأسه حُبكَ حبكاً مثل المرجان، وهو اللؤلؤ كأنّه الثلج، وقدماه إلى الخضرة.(١)

[٢٨٠١/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد عن ابن شهاب أنّ رسول الله ﷺ سأل جبريل أن يتراءى له في صورته، فقال جبريل: إنّك لن تطيق ذلك! قال: إنّي أحبّ أن تفعل. فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلّى في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته، فغُشي على رسول الله ﷺ حين رآه، ثمّ أفاق وجبريل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أرى أنّ شيئاً من الخلق هكذا! فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل! إنّ له لاثني عشر جناحاً، منها جناح في المشرق وجناح في المغرب، وإنّ العرش على كاهله وإنّه ليتضاءل أحياناً لعظمة الله عزّ وجلّ حتّى يصير مثل الوصع (طائر أصغر من العصفور)، حتّى ما يحمل عرشه إلّا عظمته.(٢)

[٢٨٠٢/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «ما بين منكبي جبريل مسيرة خمسمائة عام للطائر السريع الطيران».(٣)

[٢٨٠٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن وهب بن منبه أنّه سُئل عن خلق جبريل؟ فزعم أنّ ما بين منكبيه من ذي إلى ذي، خفق الطير سبعمائة عام!(٤)

[٢٨٠٤/٢] وأخرج ابن سعد والبيهقي في الدلائل عن عمّار بن أبي عمّار أنّ حمزة بن عبد المطّلب قال: يا رسول الله أرني جبريل في صورته! قال: إنّك لا تستطيع أن تراه! قال: بلى فأرنيه! قال: فاقعد، فقعد فنزل جبريل على خشبةٍ كانت في الكعبة، يلقي المشركون عليها ثيابهم إذا طافوا، فقال النبي ﷺ: ارفع طرفك فانظر، فرفع طرفه، فرأى قدميه مثل الزبرجد الأخضر، فخرّ مغشياً عليه.(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٧؛ الطبري ٧: ١٢٠ بعد رقم ١٤٢١١، الرواية مطولة (سورة هود ـ الآية ٨١)؛ ابن كثير ٢: ٤٧٠.

(٢) الدرّ ١: ٢٢٨؛ الزهد لابن المبارك: ٧٤ / ٢٢١، باب تعظيم ذكر الله عزّ وجلّ.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٧؛ العظمة ٢: ٨٠٢ / ٣٧٥ ـ ٣٧.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٨؛ العظمة ٢: ٨٠٠ / ٣٧٣ ـ ٣٥.

(٥) الدرّ ١: ٢٢٨؛ الطبقات الكبرى ٣: ١٢ الطبقه الأُولى، حمزة بن عبدالمطلب.

[٢٨٠٥/٢] وأخرج الحاكم عن ابن عبّاس قال: قال لي النبيّ ﷺ ـ لمّا رأيتُ جبريل ـ: «لم يره خلقٌ إلّا عَمِيَ إلّا أن يكون نبيّاً، ولكن أن يُجعل ذلك في آخر عمرك».(١)

[٢٨٠٦/٢] وأخرج أبو الشيخ عن أبي العلاء بن هارون قال: لجبريل في كلّ يومٍ انغماسةٌ في نهر الكوثر، ثمّ ينتفض، فكلّ قطرة يُخلَق منها مَلَكٌ!(٢)

[٢٨٠٧/٢] وأخرج عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ في الجنّة لنهراً، ما يدخله جبريل مِنْ دَخْلَةٍ فيخرج فينتفض، إلّا خلق الله من كلّ قطرةٍ تقطر منه مَلَكاً».(٣)

[٢٨٠٨/٢] وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: هل ترى ربّك؟ قال: إنّ بيني وبينه لسبعين حجاباً من نار أو نور، لو رأيتُ أدناها لاحترقت.(٤)

[٢٨٠٩/٢] وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية بسند واه عن أبي هريرة. أنّ رجلاً من اليهود أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل احتجب الله بشيء عن خلقه غير السماوات؟ قال: «نعم، بينه وبين الملائكة الّذين حول العرش سبعون حجاباً من نور، وسبعون حجابا من نار، وسبعون حجاباً من ظلمة، وسبعون حجاباً من رفارف الاستبرق، وسبعون حجاباً من رفارف السندس، وسبعون حجاباً من درّ أبيض، وسبعون حجاباً من درّ أحمر، وسبعون حجاباً من درّ أصفر، وسبعون حجاباً من درّ أخضر، وسبعون حجاباً من ضياء، وسبعون حجاباً من ثلج، وسبعون حجاباً من ماء، وسبعون حجاباً من غمام، وسبعون حجاباً من بَرَد، وسبعون حجاباً من عظمة الله التي لا تُوصَف! قال: فأخبرني عن مَلَك الله الذي يليه؟ فقال النبي ﷺ: إنّ الملك الذي يليه

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٨؛ الحاكم ٣: ٥٣٦ كتاب معرفة الصحابة؛ بلفظ:... قال: بعث العباس ابنه عبدالله إلى النبي ﷺ فنام وراءه وعند النبيّ ﷺ رجلٌ، فالتفت النّبي ﷺ فقال: متى جئت يا حبيبي؟ قال: مذ ساعة. قال: هل رأيت عندي أحداً؟ قال: نعم رأيتُ رجلاً. قال ذاك جبرئيل ﷺ ولم يره خلق إلّا عَمِي، إلّا أن يكون نبيّاً. ولكن أن يُجْعَل ذلك في آخر عمرك. ثمّ قال: اللهمّ علّمه التأويل وفقّهه في الدين واجعله من أهل الإيمان.

(٢) الدرّ ١: ٢٢٨؛ العظمة ٢: ٧٤٦ / ٣٢٩ ـ ٢٤. باب ذكر خلق الملائكة وكثرة عددهم.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٨؛ العظمة ٢: ٧٣٥ / ٣١٧ ـ ١٢؛ كنزالعمال ١٤: ٤٥٤ / ٣٩٢٣٢.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٩؛ العظمة ٢: ٦٦٩ ـ ٦٧٠ / ٢٦٤ ـ ٢ (١٠) باب ذكر حجب ربنا تبارك وتعالى. كنزالعمال ١٤: ٤٤٨ / ٣٩٢١٠، و ٤٤٩ / ٣٩٢١٥؛ الأوسط ٦: ٢٧٨ / ٦٤٠٧؛ مجمع الزوائد ١: ٧٩.

إسرافيل، ثمّ جبريل، ثمّ ميكائيل، ثمّ ملك الموت ﷺ».(١)

[٢٨١٠/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني أنّه بلغه أنّ جبريل أتى النبيّ ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: وما يبكيك؟! قال: ومالي لا أبكي...! فوالله ما جفّت لي عين منذ خلق الله النار، مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها.(٢)

[٢٨١١/٢] وأخرج أيضاً عن رباح قال: «حُدِّثْتُ أَنَّ النبيّ ﷺ قال لجبريل: لم تأتني إلّا وأنت صارٌّ بين عينيك(٣) قال: إنّي لم أضحك منذ خُلقت النارُ.(٤)

[٢٨١٢/٢] وأخرج أحمد في مسنده وأبو الشيخ عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال لجبريل: مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قطّ! قال: ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار.(٥)

[٢٨١٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن عبدالعزيز بن أبي روّاد قال: نظر الله إلى جبريل وميكائيل وهما يبكيان، فقال الله: ما يبكيكما وقد علمتما أنّي لا أجور!؟ فقالا: يا ربّ إنّا لا نأمن مكرك! قال: هكذا فافعلا، فإنّه لا يأمن مكري إلّا كلّ خاسر!(٦)

[٢٨١٤/٢] وأخرج أبو الشيخ من طريق الليث عن خالد عن سعيد قال: بلغنا أنّ إسرافيل يؤذّن لأهل السماء فيؤذّن لاثنتي عشرة ساعة من النهار، ولاثنتي عشرة ساعة من الليل لكلّ ساعة تأذين، يسمع تأذينه مَن في السماوات السبع ومَن في الأرضين السبع إلّا الجنّ والإنس، ثمّ يتقدّم بهم عظيم الملائكة فيصلّي بهم. قال: وبلغنا أنّ ميكائيل يؤمّ الملائكة في البيت المعمور!(٧)

---

(١) الدرّ ١: ٢٢٩؛ الأوسط ٨: ٣٨٢ ـ ٣٨٣ / ٨٩٤٢؛ مجمع الزوائد ١: ٧٩ ـ ٨٠ بنحو ما رواه الطبراني. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالمنعم بن إدريس، كذّبه أحمد وقال ابن حِبّان: كان يضع الحديث؛ الموضوعات ١: ١١٧ باب ذكر الحجب. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ والمتّهم به عبدالمنعم، وقد كذّبه أحمد ويحيى. وقال الدار قطني: هو وأبوه متروكان؛ حلية الأولياء ٤: ٨٠.

(٢) الدرّ ١: ٢٢٩؛ كنزالعمال ٣: ١٤٥ / ٥٨٩٦؛ شعب الإيمان ١: ٥٢١ / ٩١٥.

(٣) أي مُقَبِّضٌ جامع بينهما كما يفعل الحزين. وأصل الصرّ: الجمع والشدّ. ومنه الصُرَّة.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٩.

(٥) الدرّ ١: ٢٢٩؛ العظمة ٣: ٨١٤ ـ ٨١٥ / ٣٨٤ ـ ٩؛ مسند أحمد ٣: ٢٢٤؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٨٥.

(٦) الدرّ ١: ٢٢٩؛ العظمة ٣: ٨١٤ / ٣٨٣ ـ ٨.

(٧) الدرّ ١: ٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ العظمة ٣: ٨٥٧ / ٤٠١ ـ ١٧.

[٢٨١٥/٢] وأخرج الحكيم الترمذي عن زيد بن رفيع قال: دخل على رسول الله ﷺ جبريل وميكائيل وهو يستاك، فناول رسول الله ﷺ جبريل السواك، فقال جبريل له: أكبر! قال الترمذي: أي ناوِل ميكائيلَ فإنّه أكبر![١]

[٢٨١٦/٢] وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أيّ الخلق أكرم على الله عزّ وجلّ؟ قال: لا أدري! فجاءه جبريل فقال: يا جبريل أيّ الخلق أكرم على الله؟ قال: لا أدري! فعرج جبريل ثمّ هبط، فقال: أكرم الخلق على الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فأمّا جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأمّا ميكائيل فصاحب كلّ قطرة تسقط وكلّ ورقة تنبت وكلّ ورقة تسقط، وأمّا ملك الموت فهو موكّل بقبض كلّ روح عبد في برّ أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم.[٢]

[٢٨١٧/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ثابت قال: بلغنا أنّ الله تعالى وكّل جبريل بحوائج الناس، فإذا دعا المؤمن، قال الله: يا جبريل احبس حاجته فإنّي أحبّ دعاءه، وإذا دعا الكافر، قال: يا جبريل اقض حاجته فإنّي أبغض دعاءه.[٣]

[٢٨١٨/٢] وأخرج البيهقي والصابوني في المائتين عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «إنّ جبريل موكّل بحاجات العباد، فإذا دعا المؤمن قال: يا جبريل احبس حاجة عبدي فإنّي أحبّه وأحبّ صوته، وإذا دعا الكافر قال: يا جبريل اقض حاجة عبدي فإنّي أبغضه وأبغض صوته».[٤]

[٢٨١٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة من طريق ثابت عن عُبيدالله بن عُبيد قال: «إنّ جبريل موكّل بالحوائج، فإذا سأل المؤمن ربّه قال: احبس احبس حبّاً لدعائه أن يزداد، وإذا سأل الكافر قال: أعطه أعطه، بغضاً لدعائه».[٥]

[٢٨٢٠/٢] وأخرج أبو الشيخ عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم منه مسيرة خمسين ألف سنة، جبريل عن يمينه وميكائيل عن

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٠؛ نوادر الأصول ٢: ٧١، الأصل ١١٤. (٢) الدرّ ١: ٢٣٠؛ العظمة ٣: ٨١١ / ٣٨٠ ـ ٥.

(٣) الدرّ ١: ٢٢٧؛ شعب الإيمان ٧: ٢١١ / ١٠٠٣٤، باب في الصبر على المصائب.

(٤) الدرّ ١: ٢٢٧؛ شعب الايمان ٧: ٢١١ / ١٠٠٣٥. (٥) الدرّ ١: ٢٢٧؛ المصنّف ٧: ١٤٦ / ٣، باب ١٧٤.

يساره وإسرافيل بينهما».(١)

[٢٨٢١/٢] وأخرج أبو الشيخ عن خالد بن أبي عمران قال: جبريل أمين الله إلى رسله، وميكائيل يتلقّى الكتب التي تلقّى من أعمال الناس، وإسرافيل كمنزلة الحاجب.(٢)

[٢٨٢٢/٢] وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن أبي داوود في المصاحف وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إسرافيل صاحب الصور، وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وهو بينهما».(٣)

[٢٨٢٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: إنّ أدنى الملائكة من الله جبريل، ثمّ ميكائيل، فإذا ذَكَر عبداً بأحسن عمله قال: فلان بن فلان عمل كذا وكذا من طاعتي صلوات الله عليه، ثمّ سأل ميكائيلُ جبريل: ما أحدث ربّنا؟ فيقول: فلان بن فلان ذكره بأحسن عمله فصلّى عليه، صلوات الله عليه، ثمّ سأل ميكائيلَ مَن يراه من أهل السماء! فيقول: ماذا أحدث ربُّنا؟ فيقول: ذكَر فلانَ بنَ فلان بأحسن عمله فصلّى عليه، صلوات الله عليه، فلا يزال يقع من سماءٍ إلى سماءٍ حتّى يقعَ إلى الأرض. وإذا ذكر عبداً بأسوأ عمله قال: عبدي فلان بن فلان عمل كذا وكذا من معصيتي فلعنتي عليه، ثمّ سأل ميكائيلُ جبريلَ: ماذا أحدث ربّنا؟ فيقول: ذكر فلانَ بنَ فلان بأسوأ عمله، فعليه لعنة الله، فلا يزال يقع من سماء إلى سماء حتّى يقع إلى الأرض!(٤)

[٢٨٢٤/٢] وأخرج الحاكم وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «وزيراي من السماء جبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض أبوبكر وعمر»!(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٠؛ العظمة ٢: ٦٨٣ ـ ٦٨٤ / ٢٧٥ ـ ١٣.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٠؛ العظمة ٢: ٧٠٣ / ٢٩٢ ـ ٣١.

(٣) الدرّ ١: ٢٣٠؛ العظمة ٣: ٨٠٩ / ٣٧٧ ـ ٢؛ مسند أحمد ٣: ٩ ـ ١٠؛ أبو داوود ٢: ٢٤٨ / ٣٩٩٩، كتاب الحروف والقراءات؛ الحاكم ٢: ٢٦٤؛ كنز العمال ١٤: ٣٥١ / ٣٨٩٠٥.

(٤) الدرّ ١: ٢٣٠ ـ ٢٣١؛ العظمة ٢: ٥٠٣ / ١٦٤ ـ ٤٨.

(٥) الدرّ ١: ٢٣١؛ الحاكم ٢: ٢٦٤، كتاب التفسير سورة البقرة؛ الترمذي ٥: ٢٧٩ ـ ٢٧٨ / ٣٧٦١، باب ٦٤، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب؛ كنز العمال ١١، ٥٦٠ / ٣٢٦٤٧.

[٢٨٢٥/٢] وأخرج البزّار والطبراني عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أيّدني بأربعة وزراء، اثنين من أهل السماء: جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض: أبي بكر وعمر!».(١)

[٢٨٢٦/٢] وأخرج الطبراني عن أمّ سلمة. أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ في السماء ملكين أحدهما يأمر بالشدّة، والآخر يأمر باللين. وكلٌّ مصيب: جبريل وميكائيل. ونبيّان أحدهما يأمر باللين والآخر يأمر بالشدة وكلٌّ مصيب، وذكر إبراهيم ونوحاً، ولي صاحبان أحدهما يأمر باللين والآخر يأمر بالشدّة وكلٌّ مصيب، وذكر أبابكر وعمر!».(٢)

[٢٨٢٧/٢] وأخرج البزّار والطبراني في الأوسط والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبدالله بن عمرو قال: «جاء فئام من الناس إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله زعم أبوبكر أنّ الحسنات من الله والسيّئات من العباد. وقال عمر: الحسنات والسيئات من الله، فتابع هذا قوم وهذا قوم! فقال رسول الله ﷺ: لأقضينّ بينكما بقضاء إسرافيل بين جبريل وميكائيل، إنّ ميكائيل قال بقول أبي بكر، وقال جبريل بقول عمر. فقال جبريل لميكائيل: متى تختلف أهل السماء تختلف أهل الأرض، فلنتحاكم إلى إسرافيل، فتحاكما إليه فقضى بينهما بحقيقة القدر: خيرُه وشرُّه وحلوُه ومرُّه كلّه من الله». ثمّ قال النبي ﷺ: «يا أبابكر إنّ الله لو أراد أن لا يُعْصَى لم يخلق إبليس! فقال أبوبكر: صدق الله ورسولُه!».(٣)

---

(١) الدرّ ١: ٢٣١؛ الكبير ١١: ١٤٤ / ١١٤٢٢، باب عكرمة عن ابن عبّاس. بلفظ: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تعالى أيّدني بأربعة وزراء نقباء. قلنا: يا رسول الله من هؤلاء الأربع؟ قال: اثنين من أهل السماء واثنين من أهل الأرض. فقلت: مَن الاثنين من أهل السماء؟ قال: جبريل وميكائيل. قلنا: من الاثنين من أهل الأرض؟ قال: أبوبكر وعمر!؛ مجمع الزوائد ٩: ٥١، كتاب المناقب، باب فيما ورد من الفضل لأبي بكر وعمر وغيرهما. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه محمّد بن مجيب الثقفي وهو كذّاب، ورواه البزّار بمعناه وفيه عبدالرحمان بن مالك بن مغول وهو كذّاب؛ تاريخ بغداد ٤: ٦٦، بنحو ما رواه الطبراني. قال الخطيب: تفرّد بروايته محمّد بن مجيب عن وهيب عن عطاء... قال: سمعت يحيى بن معين يقول: محمّد بن مجيب كان جار عبّاد بن العوّام وكان كذّاباً عدوّ الله!

(٢) الدرّ ١: ٢٣١؛ الكبير ٢٣: ٣١٥ ـ ٣١٦ / ٧١٥، باب ما رواه أبو سفيان عن أمّ سلمة؛ مجمع الزوائد ٩: ٥١، كتاب المناقب، باب فيما ورد من الفضل لأبي بكر وعمر وغيرهما...؛ كنزالعمال ١١: ٥٦٣ / ٣٢٦٦٥.

(٣) الدرّ ١: ٢٣١؛ مسند البزّار ٦: ٤٥٦ / ٢٤٩٦؛ الأوسط ٣: ١١٢ ـ ١١٣ / ٢٦٤٨؛ مجمع الزوائد ٧: ١٩١ ـ ١٩٢؛ الموضوعات ١: ٢٧٣ ـ ٢٧٤. قال ابن جوزي: هذا حديث موضوع بلا شكّ والمتّهم به يحيى أبو زكريا.

[٢٨٢٨/٢] وأخرج الحاكم عن أبي المليح عن أبيه أنّه صلّى مع النبي ﷺ ركعتي الفجر، فصلّى النبي ﷺ ركعتين خفيفتين قال: فسمعته يقول: «اللهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمّد أعوذ بك من النار» ثلاث مرّات.[1]

[٢٨٢٩/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن عائشة، أنّ النبي ﷺ أُغمي عليه ورأسه في حجرها، فجعلت تمسح وجهه وتدعو له بالشفاء؛ فلمّا أفاق قال: «لا، بل اسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل ﷺ».[2]

قوله تعالى: ﴿وَ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾

يعني: أنّ دلائل الدين واضحة وبراهين الشريعة لائحة ومتوافقة مع فطرة العقل السليم. ومن ثَمَّ فإنّ الذي يرفضها كان قد عاكس فطرته وخرج عن إطار العقل الرشيد، الأمر الذي يتصادق مع صنيع اليهود الذي دأبوا عليه في نقض العهود والمواثيق ونبذ كتاب الله وراء الظهور ومجابهة الأنبياء بالعصيان والمرود.

نعم سوى اتّباع شياطين الجنّ والإنس في إغواءاتهم الضالّة والعمل على بثّ التفرقة والفساد في الأرض.

وهذا ما تعرّضت له الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يعني: أنّ نقضهم للعهود ونبذهم للمواثيق إنّما نشأ عن اعوزازٍ في ذات نفوسهم ونقصٍ ذاتي غالب على جبلّة اليهود المنحرفة عن الحقّ والمنجرفة مع كلّ باطل.. فقد جُبلوا أن لا يؤمنوا لحقيقة ولا يذعنوا لنصيحة ركضاً وراء مشتهيات سافلة ذاهلين.

[٢٨٣٠/٢] أخرج ابن جرير عن ابن جُريج قال: لم يكن في الأرض عهد يعاهدون إليه إلّا نقضوه،

---

(١) الدرّ ١: ٢٣١ ـ ٢٣٢؛ الحاكم ٣: ٦٢٢؛ الكبير ١: ١٩٥ / ٥٢٠؛ مجمع الزوائد ٢: ٢١٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٢.

ويعاهدون اليوم وينقضون غداً. قال: وفي قراءة عبدالله: نَقَضَه فَرِيقٌ مِنْهُمْ.[١]

عهد النبيّ عند مهاجره إلى المدينة

وأوّل عهد عهده نبيّ الإسلام مع قبائل العرب وقبائل اليهود القاطنين بيثرب، فنبذوه وراء ظهورهم و تعاملوا مع الخصوم، العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم حسبما ذكره محمّدبن إسحاق بن يسار (٨٥ ـ ١٥١) صاحب التاريخ قال:

[٢٨٣١/٢] كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمان الرحيم، هذا كتابٌ من محمّدٍ النبيّ ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم: إنّهم أمّة واحدة من دون الناس:

المهاجرون من قريش على رِبعَتهم[٢] يتعاقلون بينهم، وهم يفدُون عانِيَهم[٣] بالمعروف والقِسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى،[٤] كلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٢؛ الطبري ١: ٦٢١ / ١٣٦٢؛ الثعلبي ١: ٢٤٢.

(٢) الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٣) العاني: الأسير.

(٤) المعاقل: الديات؛ الواحد: معقلة.

وبنو جُشَم على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عَوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأُولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإنّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[١] بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فِداء أو عَقْل.

وأن لايحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه.

وإنّ المؤمنين المتّقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعةُ[٢] ظُلمٍ أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين؛ وإنّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهم؛ ولايقتل مؤمنٌ مومناً في كافر، ولاينصر كافراً على مؤمن؛ وإنّ ذمّة الله واحدة، يُجير عليهم أدناهم. وإنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنّه من تَبِعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإنّ سِلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلّا على سواء وعدل بينهم.

وإنّ كلّ غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً.

---

(١) ويروى: «مُفْرَجاً» وهو بمعنى المُفْرَح بالحاء المهملة. قال ابن هشام: المُفرَح: المُثقَل بالدين والكثير العيال. قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدّي أمانةً   وتحملُ أخرى أفرَحَتْك الودائع

(٢) الدسيعة: العظيمة، وهي في الأصل: مايخرج من حلق البعير إذا رغا. وأراد بها هنا: ما ينال عنهم من ظلم.

وإنّ المؤمنين يُبيء بعضُهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإنّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وإنّه لايُجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنّه من اعتبط[1] مؤمناً قتلا عن بَيّنة فإنّه قَوَدٌ به إلّا أن يرضى وليّ المقتول.

وإنّ المؤمنين عليه كافّة، ولا يحلّ لهم إلّا قيامٌ عليه.

وإنّه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثاً ولا يؤويه؛ وأنّه من نصره أو آواه، فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وإنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردّه إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإلى محمّد ﷺ؛

وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين؛

وإنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين[2]، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلّا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ[3] إلّا نفسَه، وأهلَ بيته؛

وإنّ ليهود بني النجّار مثل ما ليهود بني عوف؛

وإنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف؛

وإنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف؛

وإنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف؛

وإنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف؛

وإنّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف؛ إلّا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ إلّا نفسه وأهل بيته؛

وإنّ جَفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم؛

وإنّ لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف؛

---

(١) اعتبطه، أي قتله بلا جناية منه توجب قتله.

(٢) هنا وفي هذه العبارة نكتة دقيقة: إنّ اليهود أو كلّ أمّة خارجة عن حظيرة الإسلام فإنّهم ماداموا في حماية الإسلام وملتزمين بشرائط الإسلام، فإنّهم مع المؤمنين أمّة واحدة.

(٣) يوتغ: يهلك.

وإنّ البرّ دون الإثم؛

وإنّ موالي ثعلبة كأنفسهم؛

وإنّ بطانة[١] يهود كأنفسهم؛

وإنّه لايخرج منهم أحد إلّا بإذن محمّد ﷺ؛

وإنّه لاينحجز على ثار جُرح؛

وإنّه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلّا من ظلم؛ وإنّ الله على أبرّ هذا[٢]؛ وإنّ على اليهود نفقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة؛ وإنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم؛ وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه؛ وإنّ النصر للمظلوم؛ وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين؛

وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة؛ وإنّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم؛ وإنّه لاتُجار حرمة إلّا بإذن أهلها؛

وإنّه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث أو اشتجار[٣] يُخاف فسادُه فإنّ مردّه إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإلى محمّد رسول الله ﷺ؛ وإنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه؛

وإنّه لاتُجار قريش ولا من نصرها؛ وإنّ بينهم النصر على من دَهَم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه؛ وإنّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين، إلّا من حارب في الدين، على كلّ أناس حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم؛ وإنّ يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة».[٤]

---

(١) بطانة الرجل: خاصّته وأهل بيته.

(٢) على أبرّ هذا، أي على الرضا به.

(٣) الاشتجار: المشاجرة والتنازع.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ١٤٧ ـ ١٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض اليهود للعهود، حيث كان مأخوذاً عليهم من قبل: أن يؤمنوا بكلّ رسول يأتي من عند الله مصدِّقاً لما معهم، ومتوافقاً مع دلائل أوضحتها كُتُبهم، فينصروه ويؤازروه ولكنّهم على العكس ناكروه ونابذوه على غرار الّذين لاعلم لهم ولا كتاب.

[٢٨٣٢/٢] قال مقاتل بن سليمان: الفريق الّذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، هم: كعب بن الأشرف، وكعب بن أُسَيد، وأبو ياسر بن أخطب، وسعيدبن عمرو الشاعر، ومالك بن الضيف، وحُيَيّ بن أخطب، وأبو لُبابة بن عمرو.[١]

[٢٨٣٣/٢] وقال أبو مسلم: لمّا جاءهم رسول الإسلام بهذا الكتاب (القرآن العظيم) فلم يقبلوه، صاروا نابذين للكتاب الأوّل أيضاً، الذي جاءت فيه البشارة بنبيّ الإسلام.[٢]

[٢٨٣٤/٢] وفي رسالة أبي جعفر الباقر عليه السلام إلى سعد الخير: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه...»[٣].

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢٦.

(٢) مجمع البيان ١: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٣) الكافي ٨: ٥٣ ـ ٥٤/ ١٦.

قال تعالى:

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

نعم كانت مغبّة أن نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ورفضهم لشريعة الله الصادعة بالحقّ الصُّراح أن ركضوا وراء سفاسف أهل السفه والعبث في الحياة.

إنّهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير فارغة لا تستند إلى مستند وثيق.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

لقد تركوا ما أنزل الله وراحوا يتتبّعون ما كان يقصّه الشياطين ـ أرباب الشيطنة والخداع ـ على عهد سليمان يضلّلون به الناس، من دعاوي مكذوبة على سليمان، إذ يقولون: إنّه كان يعمل السحر، وإنّما سخّر ما سخّر، عن طريق السحر والشعوذة، كان يستخدمها في سلطانه.

والقرآن ينفي هذا الاتّهام ويُبرّىء ساحة سليمان عن عمل السحر الذي هو بمنزلة الكفر بالله العظيم، حيث الساحر يعاكس الدستور الآلهي الرشيد.

﴿وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ هم ﴿كَفَرُوا﴾ حيث ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

وهكذا حسبت اليهود ـ في تملّصاتهم ـ أنّهم يتابعون ما أُلهم على المَلَكين ببابل هاروت

وماروت، من أنواع العلوم الغريبة ومنها السحر والشعوذة. قيل: كانا رجلين صالحين من كبار رجال العلم في تلك البلاد، شُبِّها بالملائكة لمكان ترفّعهما عن رذائل الحياة ولتوفّر مالديهما من العلوم والمعارف. وقرىء بكسر اللام، تشبيهاً بذوي السلطة والاقتدار في الهيمنة والوقار.

لكنّها معاذير فارغة، وأنّ الملَكَين كانا موضع فتنة واختبار للناس، فليقتبسوا من علومهم النافع منها دون الضارّ وهكذا كانا يذكّران الناس: أنّ في علومهم ما ينتفعون به وما هو ضارّ لمن لم يكن من أهله فليحذر الّذين في قلوبهم زيغ أن يستخدموا العلم في سبيل الإفساد في الأرض فذلك كفر بالله العظيم، وكفران لنعمه الجسام.

ولكن هناك من غلبته الرغبة إلى الشرّ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ﴾ من دسائس ومكائد خدّاعة.

وهنا يبادر القرآن فيقرّر كلّيّة التصوّر الإسلامى الأساسيّة، وهي: إنّه لايقع شيء في هذا الوجود إلّا بإذن الله «لا مؤثّر في الوجود إلّا الله».

فبإذن الله تَفْعل الأسباب فعلها وتُنشيء آثارها وتُحقّق نتائجها.

وهذه قاعدة كلّيّة في التصوّر الإسلامي، لابدّ من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً.

قال سيد قطب: وأقرب ما يُمثّل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنّك إذا عرضت يدك للنّار فإنّها تحترق. ولكن هذا الاحتراق لايكون إلّا بإذن الله. فالله هو الذي أودع النار خاصّيّة الحرق، وأودع يدك خاصّيّة الاحتراق بها، وهو قادر على أن يُوقف هذه الخاصّيّة حين لايأذن، لحكمة خاصّة يريدها، كما وقع لإبراهيم عليه السلام.

وكذلك هذا السحر الذي يفرّقون به بين المرء وزوجه، يُنشيء هذا الأثر بإذن الله، وهو قادر على أن يُوقف هذه الخاصّيّة فيه، حين لا يأذن لحكمة خاصّة يريدها وهكذا بقيّة ما نتعارف عليه بأنّها مؤثّرات وآثار. كلّ مؤثّر مودع خاصّيّة التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقَف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء.[١]

---

(١) في ظلال القرآن ١: ١٢٩ ـ ١٣٠.

كلام عن الإذن منه تعالى

وإليك توضيحاً لهذا الجانب: مِنْ توقُّف تأثير المؤثِّرات الطبيعيّة على إذنه تعالى. وذلك نظراً لقاعدة «الإمكان الذاتي» السارية في كلّ موجود على الإطلاق ماسوى واجب الوجود فإنّ الموجودات بأسرها ـ بأعيانها وخواصّها وآثارها ـ كلّها خاضعة لقانون الإمكان الذاتي اللااقتضائي البحت أي الفقر المحض المُدقع: «وخضعت له الرقاب وتقطّعت دونه الأسباب».

فهي إن وُجدت فبمؤثّر غير ذاته وإن انعدمت فبموجب سوى ذاته حيث لا اقتضاء في ذاته، لا وجوداً ولا عدماً.

هذا في أصل وجود الشيء.. وهكذا في تداومه بعد بقاء الذات على فقره الذاتي كما كان، لم ينقلب عند وجوده في الآن الأوّل واجباً ذاتياً، بل هو باق على إمكانه الذاتي اللااقتضائي في الآن الثاني والثالث وهكذا عبر آنات الوجود. ففي كلّ هذه الآنات واللحظات هو بحاجة لإفاضة الوجود عليه، كالآن الأوّل بلا فرق فالشيء المستمر في وجوده، هو بحاجة إلى تداوم الإفاضة عليه من واجب الوجود. فلو انقطعت عنه الإفاضة لحظة انعدم لفوره ولم يُتح له التداوم في الوجود.

وبما أنّ خاصّيّة الأشياء كذواتها أيضاً فقيرة بحاجة إلى تداوم الإفاضة عليها آناً بعد آن. فبانقطاع الإفاضة ينقطع حبل المسير وهذا هو معنى إيقاف التأثير.

[٢٨٣٥/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بالإسناد إلى سفيان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: بقضاء الله. قال الثعلبي: أي إلّا بعلمه وقضائه ومشيئته وتكوينه وجاء في تفسير البغوي: إلّا بقضائه وقدره ومشيئته.[1]

قوله تعالى: ﴿وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنفَعُهُمْ﴾

وهذا تقرير لحقيقة مُرّة أصابتهم بسوء اختيارهم، حسبوه خيراً لهم، بل هو شرّ لهم ويكفي أن يكون هذا الشرّ هو كفران النعم المنتهي إلى الكفر بالله العظيم فيكون ضرّاً خالصاً لانفع فيه أبداً. فهم كما أضرّوا بأنفسهم في هذه الحياة ـ إذ كانت لهم الصفقة الخاسرة ـ كذلك أضرّوا بآخرتهم حيث لا

(١) الدرّ ١: ٢٥٠؛ الطبري ١: ٦٥٠ / ١٤١٧؛ ابن أبي الحاتم ١: ١٩٤ / ١٠٢٠؛ الثعلبي ١: ٢٥٠؛ البغوي ١: ١٥٢.

خلاق (لا حظّ ولا نصيب) لهم فيها:

﴿وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ اكتسب لنفسه هذه المأساة ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.. إذ افتقد كلّ رصيد له كاد ينفعه هناك لو كان لم يخسرها. فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة ﴿وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لو شعروا بموقفهم هذا الخاسر.

نعم لم يكن طريق النجاح منسدّاً عليهم لو قصدوه لنالوا منه حظّهم الأوفر: لذّة الحياة وسعادة البقاء.

﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. إنّ للإيمان بالله العظيم، والتزام التقوى والتعهّد في السلوك، لأثراً بيّناً في مباهج الحياة ويضمن سعادة الدارين، لو شعروا بهذه الحقيقة اللائحة. حيث تطابق الوحي مع نداء الفطرة الصارخة.

* * *

وبعد فإليك من أحاديث السلف بشأن شعوذة الشياطين على عهد سليمان وما قيل بشأن هاروت وماروت المعبَّر عنهما بالملكين في لسان اليهود وغير ذلك من أساطير مسطّرة وأكثرها مفتعلة عن لسان السلف الصالحين.

[٢٨٣٦/٢] أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: إنّ الشياطين كانوا يَسْتَرِقُون السمعَ من السّماء، فإذا سمع أحدُهم بكلمة حقٍّ كَذِبَ عليها ألف كِذْبة فأشربتها قلوبَ الناس واتّخذوها دواوين، فأطلع الله على ذلك سليمانَ بن داوود فأخذها فدَفنها تحت الكرسيّ، فلمّا مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال: ألا أدلّكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه المُمْتِع؟ قالوا: نعم. فأخرجوه فإذا هو سحر، فتناسختها الأمم، وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية.[1]

[٢٨٣٧/٢] وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: كان آصف بن برخيا كاتِبَ

(١) الدرّ ١: ٢٣٣، سنن سعيدبن منصور ٢: ٥٩٤ ـ ٥٩٥ / ٢٠٧؛ الطبري ١: ٦٣٠ ـ ٦٣١ / ١٣٨٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٧ / ٩٨٩؛ الحاكم ٢: ٢٦٥.

سليمان، وكان يعلم الإسم الأعظم، وكان يكتب كلّ شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيّه، فلمّا مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كلّ سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به، فأكفره جُهّال الناس وسفاؤهم وسبّوه، ووقف علماؤهم. فلم يزل جهّالهم يسبّونه حتّى أنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾.(١)

[٢٨٣٨/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من شأنه، أعطى الجرادة ـ وهي امرأته ـ خاتَمه. فلمّا أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به وأعطى الجرادة ذلك اليوم خاتمه، جاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه فلبسه، فلمّا لبسه دانت له الشياطين والجنّ والإنس، فجاء سليمان فقال لها: هاتي خاتمي! قالت: كذبتَ لستَ سليمان. فعرف أنّه بلاء ابتلي به، فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيّام كتباً فيها سحر وكفر، ثمّ دفنوها تحت كرسيّ سليمان، ثمّ أخرجوها فقرأوها على الناس وقالوا: إنّما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرىء الناس من سليمان وأكفروه حتّى بعث الله محمّداً ﷺ، وأنزل عليه: ﴿وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.(٢)

[٢٨٣٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: لمّا ذهب ملكُ سليمان ارتدّ فِئام من الجنّ والإنس واتّبعوا الشهوات، فلمّا رجع إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيّه، وتوفّي حُدثان ذلك(٣)، فظهر الجنّ والإنس على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان أخفاه عنّا، فأخذوه فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أي الشهوات التي كانت الشياطين تتلو، وهي المعازف واللعب وكلّ شيء يصدّ عن ذكر الله.(٤)

[٢٨٤٠/٢] وأخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: قالت اليهود: انظروا إلى محمّد يخلط

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٣ ـ ٢٣٤؛ النسائي ٦: ٢٨٨ / ١٠٩٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٥ / ٩٨٢.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٤؛ الطبري ١: ٦٢٩ ـ ٦٣٠ / ١٣٨٠؛ ابن كثير ١: ١٣٩.

(٣) حُدثان ـ بالضمّ ـ جمع حَدَث بمعنى الشابّ.

(٤) الدرّ ١: ٢٣٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٥ ـ ١٨٦ / ٩٨٤؛ الطبري ١: ٦٢٥ ـ ٦٢٦ / ١٣٧٠.

الحقّ بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، إنّما كان ساحراً يركب الريح. فأنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ...﴾ الآية.(١)

[٢٨٤١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية وعن الربيع قال: إنّ اليهود سألوا النبي ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلّا أنزل الله عليه ما سألوا عنه فيخصمهم، فلمّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أُنزل علينا منّا! وإنّهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ...﴾ الآية. وإنّ الشياطين عمدوا إلى كتاب، فكتبوا فيه السحر والكهانة وما إلى ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان سليمان لا يعلم الغيب، فلمّا فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا به الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه عن الناس ويحسدهم عليه، فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث، فرجعوا من عنده وقد حزنوا وأدحض الله حجّتهم.(٢)

[٢٨٤٢/٢] وأخرج سعيد بن منصور عن خُصَيف قال: كان سليمان إذا نبتت الشجرة قال: لأيّ داء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا. فلمّا نبتت الشجرة الخرنوبة قال: لأيّ شيء أنت؟ قالت: لمسجدك أُخرّبه. قال: تخرّبينه؟ قالت: نعم! قال: بئس الشجرة أنت! فلم يلبث أن توفّي، فكتب الشياطينُ كتاباً فجعلوه في مصلّى سليمان، فقالوا: نحن ندلّكم على ما كان سليمان يداوي به، فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب، فإذا فيه سحر ورقيّ، فأنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.(٣)

[٢٨٤٣/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة، قال: ذُكر لنا ـ والله أعلم ـ: أنّ الشياطين ابتدعت كتاباً فيه سحر وأمر عظيم، ثمّ أفشوه في الناس وعلّموهم إيّاه! فلمّا سمع بذلك سليمان نبيّ الله ﷺ تتبّع تلك الكتب، فأُتي بها فدفنها تحت كرسيّه، كراهيّة أن يتعلّمها الناس! فلمّا قبض الله نبيّه سليمان عمدت الشياطين فاستخرجوها من مكانها الذي كانت فيه، فعلّموها الناس،

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٤؛ الطبري ١: ٦٣١ ـ ٦٣٢ / ١٣٨٥؛ ابن كثير ١: ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٥ ـ ٢٣٤؛ الطبري ١: ٦٢٤ ـ ٦٢٥ / ١٣٦٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٦ / ٩٨٥؛ ابن كثير ١: ١٤٠.

(٣) الدرّ ١: ٢٣٥؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٥٧٦ ـ ٥٧٧ / ٢٠٤؛ أسباب نزول الآيات: ٢٠.

فأخبروهم أنّ هذا علم كان يكتمه سليمان ويستأثر به. فعذر الله نبيّه سليمان وبرّأه من ذلك، فقال جلّ تناؤه: ﴿وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.(١)

[٢٨٤٤/٢] وأخرج ابن جرير عن أسباط عن السدّي قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدّث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا، حتّى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم، فأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كلّ كلمة سبعين كلمة. فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب وفشا في بني إسرائيل أنّ الجنّ تعلم الغيب. فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثمّ دفنها تحت كرسيّه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسيّ إلّا احترق، وقال: «لا أسمع أحداً يذكر أنّ الشياطين تعلم الغيب إلّا ضربت عنقه». فلمّا مات سليمان، وذهبت العلماء الّذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعدهم خلفٌ، تمثّل الشيطان في صورة إنسان، ثمّ أتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلّكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسيّ! وذهب معهم فأراهم المكان. فقام ناحية، فقالوا له: فادنُ! قال: لا ولكنّي هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلمّا أخرجوها قال الشيطان: إنّ سليمان إنّما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثمّ طار فذهب. وفشا في الناس أنّ سليمان كان ساحراً واتّخذت بنو إسرائيل تلك الكتب. فلمّا جاءهم محمّد ﷺ خاصموه بها، فذلك حين يقول: ﴿وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.(٢)

[٢٨٤٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ يعني اليهود ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ يعني ما تلت الشياطين على عهد سليمان وفي سلطانه. وذلك أنّ طائفة من الشياطين كتبوا كتاباً فيه سحر فدفنوه في مصلّى سليمان حين خرج من مُلكه ووضعوه تحت كرسيّه، فلمّا توفّي سليمان

---

(١) الطبري ١: ٦٣١ / ١٣٨٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٧ / ٩٩٢، إلى قوله: وعلّموهم إيّاه.

(٢) الطبري ١: ٦٢٣ ـ ٦٢٤ / ١٣٦٦؛ الثعلبي ١: ٢٤٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٦ / ٩٨٧؛ البغوي ١: ١٤٧ ـ ١٤٨؛ ابن كثير ١: ١٣٩ ـ ١٤٠؛ أبوالفتوح ٢: ٧٤ ـ ٧٥.

استخرجوا الكتاب، فقالوا: إنّ سليمان تملّككم بهذا الكتاب، به كانت تجيء الريح، وبه سخّرت الشياطين! فعلّموه الناس، فأبرأ الله ـعزّ وجلّ ـمنه سليمان ﴿وَ مَاكَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فتركت اليهود كتاب الأنبياء واتّبعوا ما تلت الشياطين من السحر.(١)

قوله تعالى: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ﴾

اختلفوا في تأويل هذه الآية: كيف تعلّم الناسُ السحر ممّا أُنزل على الملكين؟

[٢٨٤٦/٢] فروى ابن جرير بالإسناد إلى السدّي قال: إنّ كلام الملائكة فيما بينهم، إذا علمته الإنس، فصُنع وعُمل به كان سحراً.(٢)

[٢٨٤٧/٢] وهكذا قال ابن عبّاس ـوكذا عن الربيع ـ: إنّ الله لم ينزل السحر عليهما.(٣)

وعليه فقد كان عمل الناس بما تلقّوه من الملكين، سحراً بسوء تصرّفهم.

وزعم بعضهم أنّ المراد بالملكين هنا هما عِلْجان(٤) من أهل بابل.

[٢٨٤٨/٢] كما رواه ابن أبي حاتم بالإسناد إلى الضحّاك، قال: هما علجان من أهل بابل.(٥)

ومن ثمّ قرأه بعضهم بكسر اللام «الملِكين» هما من ملوك بابل وعلوجها. هكذا روي في الشواذّ عن ابن عبّاس والحسن والضحّاك ويحيى بن كثير.(٦) قال البغوي: قرأ ابن عبّاس والحسن «الملِكين» بكسر اللام.

[٢٨٤٩/٢] وقال ابن عبّاس: هما رجلان ساحران كانا ببابل.

[٢٨٥٠/٢] وقال الحسن: عِلْجان. لأنّ الملائكة لايُعلّمون السحر.(٧)

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢٦ـ١٢٧.

(٢) الطبري ١: ٦٣٤ / ١٣٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٣ / ١٠١٤.

(٣) الطبري ١: ٦٣٣ / ١٣٨٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٨ / ٩٩٧.

(٤) العِلْج: الرجل الضخم من كفّار العجم. وأصله: حمار الوحش السمين القويّ.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٨٩ / ١٠٠٢؛ ابن كثير ١: ١٤٢.

(٦) الثعلبي ١: ٢٤٥؛ البغوي ١: ١٤٨؛ القرطبي ٢: ٥٢؛ الروض ٢: ٨٠؛ التبيان ١: ٣٧٣.

(٧) البغوي ١: ١٤٨.

وفي مقابل هؤلاء من يرى ويروي أنّهما مَلَكان من الملائكة.

[٢٨٥١/٢] أخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «هما ملكان من ملائكة السماء» وهكذا ابن مردويه من وجه آخر عنه عليه السلام.(١)

[٢٨٥٢/٢] وقال الزجّاج: وروي عن علي عليه السلام أنّه قال: «أي والذي أُنزل على الملكين وأنّ الملكين كانا يعلّمان الناس تعليم إنذار من السحر، لاتعليم دعاء إليه».

قال الزجّاج: وهذا القول، الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر. ومعناه: أنّهما يعلّمان الناس على النهي، فيقولان لهم: لاتفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا، لتفرّقوا بين المرء وزوجه. والذي أُنزل عليهما هو النهي. كأنّه: قولا الناس: لاتعملوا كذا. فيُعلّمان، بمعنى: يُعلِمان. كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(٢) أي أكرمنا.(٣)

* * *

[٢٨٥٣/٢] ومن الغريب ما أخرجه البخاري في تاريخه وابن المنذر عن ابن عبّاس: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ يعني جبريل و ميكائيل ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ يعلّمان الناس السحر.(٤)

قلت: وتأويل الملكين بجبريل وميكائيل، ينظر إلى فرض «ما» نافية تنفي أن يكون النازل على الملكين سحراً وإنّما هو زعم زعمته سحرة اليهود.

[٢٨٥٤/٢] فقد أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس أنّه يقول: لم ينزل الله السحر.(٥)

[٢٨٥٥/٢] وعن الربيع بن أنس قال: ما أنزل الله عليهما السحر.(٦)

[٢٨٥٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عطيّة قال: ما أُنزل على جبريل وميكائيل السحر.(٧)

قال أبوجعفر الطبري: فيكون معنيّاً بالملكين جبريل وميكائيل، لأنّ سحرة اليهود ـ فيما ذكرت ـ كانت تزعم أنّ الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داوود، فأكذبهم

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٦؛ ابن أبي حاتم ١: ١٨٨ / ١٠٠١؛ ابن كثير ١: ١٤٣.

(٢) الإسراء ١٧: ٧٠.

(٣) القرطبي ٢: ٥٣ ـ ٥٤.

(٤) الدرّ ١: ٢٣٦؛ التاريخ ٧: ١٦٨ / ٧٥٢.

(٥) الطبري ١: ٦٣٣ / ١٣٨٩.

(٦) المصدر / ١٣٩٠.

(٧) ابن أبي حاتم ١: ١٨٨ / ٩٩٩؛ ابن كثير ١: ١٤٢.

الله بذلك وأخبر نبيّه أنّ جبريل وميكائيل لم ينزلا بالسحر. وبرّأ سليمان ممّا نحلوه من السحر وأخبرهم أنّ السحر من عمل الشياطين وأنّها تعلّم الناس ذلك ببابل. وأنّ الّذين يعلمونهم السحر رجلان اسم أحدهما هاروت والآخر ماروت. فيكون هاروت و ماروت ـ على هذا التأويل ـ ترجمة عن الناس وردّاً عليهم.(١)

غرائب وعجائب عن هاروت وماروت ومدينة بابل البائدة!

لقد سطّرت نسائج إسرائيليّة حول مدينة بابل القديمة أحاديث هي بالخرافة أشبه منها إلى الواقع كما تعقّبها حكايات حاكتها عقول هزيلة كانت أشبه بسُلوة أهل السَّمَر الفارهين.

والعجب اعتناء القدامى بهكذا مهازيل فارغة، وولعهم بجمعها وضبطها في مجاميع الحديث والتفسير وبذلك شوّهوا وجه النقل عن السَّلَف، والذي كان من شأنه الحفاظ على قدسيّته النزيهة وإليك طرفاً منها:

الآثار بشأن البلاد

[٢٨٥٧/٢] أخرج الدينوري في المجالسة وابن عساكر من طريق نعيم بن سالم عن أنس بن مالك قال: لمّا حشر الله الخلائق إلى بابل، بعث إليهم ريحاً شرقيّة وغربيّة وقبليّة وبحريّة، فجمعتهم إلى بابل؛ فاجتمعوا يومئذ ينظرون لما حُشروا له، إذ نادى منادٍ: من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره، واقتصد إلى البيت الحرام بوجهه، فله كلام أهل السماء! فقام يعرب بن قحطان فقيل له: يا يعرب بن قحطان بن هود أنت هو. فكان أوّل من تكلّم بالعربيّة. فلم يزل المنادي ينادي: من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتّى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً، وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن، فسمّيت بابل؛ وكان اللسان يومئذ بابليّاً.

وهبطت ملائكة الخير والشرّ، وملائكة الحياء والإيمان، وملائكة الصحّة والشقاء، وملائكة الغنى، وملائكة الشرف، وملائكة المروءة، وملائكة الجفاء، وملائكة الجهل، وملائكة السيف،

---

(١) الطبري ١: ٦٣٣.

وملائكة البأس، حتّى انتهوا إلى العراق فقال بعضهم لبعض: افترقوا!

فقال ملك الإيمان: أنا أسكن المدينة ومكّة؛ فقال ملك الحياء: أنا معك، فاجتمعت الأمّة على أنّ الإيمان والحياء ببلد رسول الله ﷺ!

وقال ملك الشقاء: أنا أسكن البادية؛ فقال ملك الصحّة: وأنا معك، فاجتمعت الأمّة على أنّ الصحّة والشقاء في الأعراب!

وقال ملك الجفاء: أنا أسكن المغرب، فقال ملك الجهل: وأنا معك، فاجتمعت الأمّة على أنّ الجفاء والجهل في البربر!

وقال ملك السيف: أنا أسكن الشام؛ فقال ملك البأس: أنا معك.

وقال ملك الغنى: أنا أقيم هاهنا (أي أرض بابل بالعراق). فقال ملك المروءة: أنا معك. فقال ملك الشرف: وأنا معكما. فاجتمع ملك الغنى والمروءة والشرف بالعراق![1]

[٢٨٥٨/٢] وأخرج ابن عساكر عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق أربعة أشياء وأردفها أربعة أشياء، خلق الجدب وأردفه الزهد وأسكنه الحجاز، وخلق العفّة وأردفها الغفلة وأسكنها اليمن، وخلق الريف وأردفه الطاعون وأسكنه الشام، وخلق الفجور وأردفه الدرهم وأسكنه العراق».[2]

[٢٨٥٩/٢] وأخرج عن سليمان بن يسار قال: كتب عمر بن الخطّاب إلى كعب الأحبار أن اختر لي المنازل! فكتب إليه يا أميرالمؤمنين إنّه بلغنا أنّ الأشياء اجتمعت، فقال السخاء: أريد اليمن، فقال حسن الخلق: أنا معك. وقال الجفاء: أريد الحجاز، فقال الفقر: أنا معك. وقال البأس: أريد الشام، فقال السيف: أنا معك. وقال العلم: أريد العراق، فقال العقل: أنا معك. وقال الغنى: أريد مصر، فقال الذلّ: أنا معك! فاختر لنفسك يا أميرالمؤمنين، فلمّا ورد الكتاب على عمر قال: فالعراق إذن، فالعراق إذن![3]

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ ابن عساكر ١: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٧؛ ابن عساكر ١: ٣٥١ ـ ٣٥٢؛ كنزالعمّال ١٢: ٣٠١ / ٣٥١٢٠.

(٣) الدرّ ١: ٢٣٧؛ ابن عساكر ١: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

[٢/ ٢٨٦٠] وأخرج عن حكيم بن جابر قال: أُخبرت أنّ الإسلام قال: أنا لاحق بأرض الشام، فقال الموت: وأنا معك. وقال المُلك: وأنا لاحق بأرض العراق، فقال القتل: وأنا معك. وقال الجوع: وأنا لاحق بأرض المغرب؛ فقالت الصحّة: وأنا معك!(١)

[٢/ ٢٨٦١] وأخرج عن دغفل قال: قال المال: أنا أسكن العراق. فقال الغدر: أنا أسكن معك. وقالت الطاعة: أنا أسكن الشام. فقال الجفاء: أنا أسكن معك. وقالت المروءة: أنا أسكن الحجاز. فقال الفقر: وأنا أسكن معك.(٢)

الآثار بشأن مدينة بابل

[٢/ ٢٨٦٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ﴾ أي واتبعوا ما أُنزل على الملكين: يعني هاروت وماروت وكانا من الملائكة مكانهما في السماء واحد ثمّ قال: ببابل. أي وهما ببابل. وإنّما سمّيت بابل لأنّ الألسن تبلبلت «بها» حين أُلقي إبراهيم ﷺ في النار.(٣)

[٢/ ٢٨٦٣] وقال الحسن: هي بابل العراق سمّيت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود، أي: تفرّقها.(٤)

[٢/ ٢٨٦٤] وعن السدّي: أنّ بابل هي دماوند.(٥)

[٢/ ٢٨٦٥] وأخرج ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قصّة ذكرتها عن امرأة قدمت من العراق وأنّها أتت هاروت و ماروت ببابل وتعلّمت منهما السحر.(٦)

[٢/ ٢٨٦٦] وعن قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين.(٧)

[٢/ ٢٨٦٧] وعن ابن مسعود: بابل أرض الكوفة، حيث قال مخاطباً لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٧؛ ابن عساكر ١: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.
(٢) الدرّ ١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ ابن عساكر ١: ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٣) تفسير مقاتل ١: ١٢٧.
(٤) البغوي ١: ١٤٨.
(٥) مجمع البيان ١: ٣٣٠؛ البغوي ١: ١٤٨ بلفظ: قيل: جبل دماوند.
(٦) الطبري ١: ٦٤٣ / ١٤٠٥.
(٧) التبيان ١: ٣٧٤؛ القُرطبي ٢: ٥٣؛ مجمع البيان ١: ٣٣٠ مع عدم ذكر الراوي.

وبابل.(١)

[٢٨٦٨/٢] وعن الحسن: إنّ الملكين ببابل الكوفة إلى يوم القيامة وأنّ من أتاهما سمع كلامهما ولا يراهما.(٢)

[٢٨٦٩/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم قال: سُئل المختار: هل يرى هاروت وماروت اليوم أحدٌ؟ قال: أمّا منذ ائتفكت بابل ائتفاكتها الآخرة فإنّ أحداً لم يرهما.(٣)

[٢٨٧٠/٢] وعن مجاهد: إنّ هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطانٌ في كلّ مسألة اختلافةً واحدةً.(٤)

مدينة بابل بين الأسطورة والواقع

الذي جاء في هذه الآثار هي لقطات من أسطورة إسرائيليّة قديمة جاء في سفر التكوين (أ ص ١١): «وكانت الأرض كلّها لساناً واحداً ولغةً واحدة. وحدث في ارتحال قبائل بني نوح شرقاً أن وجدوا بقعة في أرض شِنْعار(٥) وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نبن لنا مدينةً وبُرجاً رأسه بالسماء(٦). ونصنع لأنفسنا اسماً لئلّا نتبدّد على وجه كلّ الأرض.

لكن الربّ لمّا أشرف على المدينة والبُرج يُبنيان جاس في نفسه: أن لو بنى بنو آدم المدينة وسكنوها واجتمعوا على لسان واحد ولغة واحدة، أن سوف لا يُؤمَن عاقبة أمرهم في كلّ ما ينوون ويعملون في سبيل الرقيّ والحضارة وهذا ابتداء عملهم.

---

(١) القرطبي ٢: ٥٣؛ البغوي ١: ١٤٨.
(٢) التبيان ١: ٣٧٤.
(٣) عبدالرزّاق ١: ٢٨٤ / ١٠٢؛ الثعلبي ١: ٢٤٩.
(٤) البغوي ١: ١٥٢.
(٥) شنعار بمعنى النهرين اسم أطلقته التوراة على أرض العراق وعلى أواسطها بالذات، باعتبار وقوعها بين النهرين دجلة والفرات.. ومن ثمّ يقال للعراق: أرض الرافدين.. (قاموس الكتاب المقدس ـ جيمز هاكس: ٥٢٦) وجاء في تراجم البلاد: أنّ بابل مدينة قديمة في أواسط ما بين النهرين. تقع أنقاضها على الفرات، قرب الحلّة، على مسافة ٨٠كم جنوب شرقيّ بغداد.
(٦) قيل: لعلّهم حاولوا بذلك إمكان التخلّص من ورطة طوفان آخر قد يداهمهم!! (المصدر: ١٥٥).

قال: هلمّ نَنْزِل ونُبَلبل هناك لسانهم حتّى لايتفاوض بعضهم مع بعض فبدّدهم الربّ من هناك على وجه كلّ الأرض، فكفّوا عن البنيان، ولذلك دعي اسمها «بابل». لأن الربّ بَـلْبَلَ لسانهم وبدّدهم على وجه كلّ الأرض!!»[1]

وهذا يعني: إنّ بني الإنسان هم وحسب جبلّتهم ينزعون إلى التآلف والتفاهم ويرغبون في التجمّع والتوافق على وحدة اجتماعيّة شاملة في الحياة غير أنّه تعالى لموضع خشيته ـ و حاشاه ـ من توحّد بني الإنسان، هو الذي بدّدهم وفرّق شملهم!!

الأمر الذي نتحاشاه وننزّه ساحة قدسه تعالى عن مثل هذه الخسائس والتي تعتور ذهنيّة اليهود العاثرة!!

ولكن ما بال المسلمين يغفلون رصيدهم الثريّ ويركضون وراء خزعبلات نسجتها إسرائيل نسج العنكبوت!!

وكلّ ما ذكروه هنا لاتعدو إملاءات أبناء القردة وعلى رأسهم كعب الأحبار.

* * *

وأمّا مدينة بابل فهي من أقدم مدن العالم، وأصل الاسم ـ باللغة الكلدانيّة ـ «باب ايلو» أي باب الله. ويرادفه بالعبرانيّة: باب إيل وعرّب إلى بابل.

وهي بلدة كانت على ضَفَّتي الفرات، بحيث كان يخترقها الفرات. يقْرب موضعها من موقع بلد الحلّة الآن، على بُعد أميال من ملتقى الفرات ودجلة وعلى مسافة (٨٠ كم) جنوب شرقيّ بغداد.

وبابل كانت من أعظم مدن العالم القديم، بناها أوّلاً ـ فيما يقال ـ بقايا آل نوح بعد الطوفان. ثمّ توالى عليها اعتناء أصحاب الحضارة بمواطن العراق جيلاً بعد جيل. ولكن اعتلاء عظمة بابل كان في حدود سنة ٣٧٥٥ ثلاثة آلاف وسبعمأة وخمس وخمسين قبل الميلاد فكانت إحدى عواصم أربعة لمملكة الكلدانيّين، وهي أعظمها وأشهرها. ولم تزل همم ملوك الدولتين الكلدانيّة والآشوريّة متّجهة نحو عمارة هذا البلد وتنميقه، فكان بلد العجائب من الأبنية والبساتين ومعهد الثقافة الآسويّة ومنبعث المعارف والعلوم والآداب وقد نسبوا إليها قديماً الخمر المعتقة، كما قال أبو الطيّب:

---

(١) العهد القديم: ١٧.

سقى الله أيّام الصِّبا مايسرّها ويفعل فعل البابليّ المُعَتَّق[١]

وهذه المدينة العريقة في القدم، أنشئت حولها في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد دولة كبرى ازدهرت على مرحلتين:

١ ـ الدولة البابلّية الأُولى، حَلَّت محلّ سومر[٢] واكد[٣] وبلغت عَصْرَها الذهبيّ مع حمورابي[٤] المشترع الكبير ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق. م. فبسطت سيادتها على سائر البلاد ما بين النهرين وازدهرت فيها العلوم الفلكيّة والرياضيّة والآداب. ثمّ أفل نجمها فخضعت للحِثِيّين[٥] والقَسِيّين[٦] والآشوريّين.[٧]

---

(١) التحرير والتنوير ١: ٦٢٤.

(٢) سومر: منطقة في جنوب ما بين النهرين. استوطنها السومريّون. وهم شعب غير سامي استوطنوا بلاد سومر في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. أسّسوا حضارة رفيعة امتدّ أثرها امتداداً واسعاً.

(٣) اكد: مدينة قديمة في وسط العراق كانت عاصمة الإمبراطوريّة الاكديّة التي أسّسها سوجون الأوّل في القرن: ٢٤ قبل الميلاد. والاكديّون شعب ساميّ استوطنوا بلاد ما بين النهرين وأسّسوا دولة قويّة استمرّت نحو قرنين: ٢٤ ـ ٢٢ ق. م، كانت لهم حضارة مزدهرة ولغة حلّت محلّ اللغة السومريّة وأصبحت في الألف الثاني ق. م. لغة دول الشرق الرسميّة. عنها تفرّعت البابليّة والآشوريّة.

(٤) أشهر ملوك الدولة البابليّة. قضى على الإمارات الصغيرة وحقّق وحدة مابين النهرين. ساعد على استقرار البدو الرُّحَّل بتوزيع الأراضي الملكيّة عليهم وعلى الجنود. اشتهر بشرائعه الإداريّة والاجتماعية واكتشفت شريعته المعروفة في شوش سنة ١٩٠٢ م ونقل إلى متحف اللوفر (باريس)، يمثّل في أعلاه الملك حمورابي أمام الإلّه الشمس، ويحمل في أسفله بالحروف المسماري نصّ شريعة حمورابي في ٢٨٥ بنداً. وهي مجموعة اجتهادات لتنظيم القضاء، خاصّة فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعيّة.

(٥) الحِثِيُّون: من شعوب آسيا الصغرى القديمة، عاصمتهم حَتُّوزا (بُغاز كوى = قرية في شمال تركيا الآسيويّة. كشفت التنقيبات فيها عن آثار قيّمة: ١٩٠٦ م) ازدهرت حضارتهم في الألف الثاني قبل الميلاد وأنشأوا امبراطوريّة امتدّت حتّى سوريّة الشماليّة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ألّهوا القوى الطبيعيّة وعبدوها.

(٦) القَسِيُّون: أقوام غازية، قضت على الدولة البابليّة الأُولى وأنشأت سلالة حكمت نحو ستّة قرون: ١٧٣٠ ـ ١١٥٥ ق. م.

(٧) آشور: بلاد قديمة في شماليّ مابين النهرين. استوطنها منذ الألف الثاني قبل الميلاد شعب ساميّ وأنشأوا فيها دولة ازدهرت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فبسطت سيادتها على سائر بلاد ما بين النهرين، ثمّ امتدّت إلى سائر بلدان ←

٢ ـ الدولة البابليّة الحديثة ٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق. م. من أشهر ملوكها نَبُوخَذْ نَصَّر الثاني: ٦٠٥ ـ ٥٢٦ ق. م.

دمّر مدينة بابل سنحاريب الآشوري ٦٨٩ ق. م. ثمّ أعاد بناءها أَسَرحدون[١].

فتحها كورش ٥٣٩ ق. م. فأصبحت قاعدة ولاية أخمينيّة. حتّى احتلّها الإسكندر المقدوني ٣٣١ ق. م. وجعلها عاصمة القسم الشرقيّ من إمبراطوريّته وفيها توفّي.

من آثارها باب عشتار، وبلاط نبوخذ نصّر الثاني، والطريق الملوكي.

هاروت و ماروت

هما اسمان كلدانيّان دخلهما تغيير التعريب، للإجراء على خفّة الأوزان العربيّة. والظاهر أنّ هاروت معرَّب (هاروكا) وهو اسم القمر عند الكلدانيّين[٢]. و ماروت معرَّب (ماروداخ) وهو اسم المشتري عندهم، وكانوا يعدّون الكواكب السيّارة من المعبودات المقدّسة التي هي دون الآلهة (نظير الملائكة عند الإلهيين) لاسيّما القمر فإنّه عندهم أشدّ الكواكب تأثيراً في هذا العالم وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم.

← الشرق وكانت لهم إمبراطوريّة واسعة. كانت عاصمتهم أوّلاً مدينة آشور ثمّ كالح وأخيراً نينوا الواقعة في شماليّ العراق قرب الموصل. وازدهرت في عهد سنحريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق. م).

وآخر كبار ملوكهم آشور بانيبال (٦٦٩ ـ ٦٣٠ ق.م) ابن أسرحدون. حمل مراراً على مصر ودمّر ثيبة ٦٣٠ ق.م. أخضع المدن الفينقيّة وآسية الصغرى وبابل. بلغت الدولة الآشورية في عهده أوجها. ثمّ بدأت في الانحطاط. كان هذا الملك مغرماً بجمع الكتب والآثار وجمع مكتبة غنيّة تحتوي على الألوف من اللوحات الأثريّة اكتشفت في قصره بنينوا وانتقلت إلى المتحف البريطاني بلندن.

(١) أَسَرحَدون ابن سنحاريب ملك آشور (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق. م) اشتهر بالسياسة والدهاء. أعاد بناء مدينة بابل. غزا مصر ٦٧٧ ق.م. واحتلّ محفيس. وازدهرت الإمبراطوريّة الآشوريّة وبلغت أوجها في عهده.

(٢) نسبة إلى كلده (اسم أطلق على بلاد مابين النهرين بأسرها). والكلدانيّون عاشوا منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وانقسموا إلى سومر واكد، كانا قد يتحدّان وقد يتنازعان. وانقرضوا على يد حمورابي حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م. وفي أيّام «نبوكد نصّر ـ ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م ـ» استولت الدولة البابليّة على مناحي بين النهرين ومن جملتها كلده. وهو الذي احتلّ فلسطين وخرّب أورشليم وسبى اليهود ٥٨٦ ق. م. وأخيراً انقرضت دولته على يد كورش الكبير ٥٣٩ ق.م.

قال ابن عاشور: ولعلّ إسناد هذا التقديس للكواكب، ناشىء عن اعتقادهم أنّـهم كـانوا مـن الصالحين المقدَّسين وأنّهم بعد موتهم رفعوا للسماء في صورة الكواكب، فيكون هاروكا وماروداخ قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين في البلاد وهما اللذان وضعا السحر.

قال: ولعلّ هذا وجه التعبير عنهما في القصّة بالملكين ـ بفتح اللام ـ!

قال: ولأهل القصص هنا قصّة خرافيّة من موضوعات اليهود في خرافاتهم الحـديثة. اعـتاد بعض المفسّرين ذكرها وأشار المحقّقون إلى كذبها وأنّها من مرويّات كعب الأحبار، وقد وهم بعض المتساهلين في الحديث فنسبوا روايتها عن النبيّ ﷺ أو بعض الصحابة بأسانيد واهية.(١)

وعليه فقوله تعالى: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ﴾ أي ما أُلهما من غـرائب العلوم، والعلم برموز الدسائس المفرّقة، ومعرفة طرائق حلّها وإبطالها.

والتعبير بالملكين حكاية عن زعم زعمته اليهود بشأنـهما كـما زعـمت أنّ مـا كـانت تـتلو الشياطين على ملك سليمان أنّه كان بمرأى ومسمع منه وعن رضاه.

فالله تبارك وتعالى يحكي هذه المزاعم ليفنّدها ولايتسلّم لها.

* * *

وقوله: ﴿وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ جملة حاليّة من هاروت وماروت. وما نافية. والتعبير بالمضارع لحكاية الحال. إشارة إلى أنّ قولهما لمتعلّمي رموز السحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ قـول مـقارن لوقت التعليم لا متأخّر عنه.

والفتنة: لفظ يجمع معنى مرج واضطراب حال وتشتّت بال، بإحساس الخوف والخطر عـلى الأنفس والأموال ومنها فتنة المال وفتنة الدين.

ولمّا كانت هذه الحالة يختلف ثبات الناس فيها، كان من لوازمها الابتلاء والاختبار. فكان ذلك من المعاني التي يكنّى بالفتنة عنها كثيراً.

وإخبار الملكين عن أنفسهما بأنّهما فتنة، إخبار بالمصدر للمبالغة، وقد أُكّدت المبالغة بالحصر الإضافي. والمقصد من ذلك: أنّهما كانا يصرّحان بأنّ في علمهما الذي يعلّمان الناس، جانباً خطيراً

---

(١) راجع: التحرير والتنوير ١: ٦٢٤.

قد يفتتن به من لا رجاحة لعقله ولم يكن له قلب سليم، فيزلّ ويقع في تيه الضلال.

وقوله: ﴿لَا تَكْفُرْ﴾ أي لاتفتتن به كما افتتن السحرة وضلّوا حين نسبوا التأثيرات للآلهة، وقد علمت سرّها الذي كشفناه لك! فمعنى ﴿لَا تَكْفُرْ﴾: لاتعجل باعتقاد ذلك، فإنّك إذا توغّلت في معارف السحر وكشفت رموزه، علمت أنّها معلولة لعلل من خصائص النفوس أو خصائص الأشياء. فالفتنة تحصل لمن يتعلّم السحر حين يرى ظواهره وعجائبه على أيدي السحرة ولمن كان في مبدء التعليم، ولكنّه إذا تحقّق في علمه اندفعت الفتنة.[1]

وقال السيّد رشيد رضا: تلك أوهام وأكاذيب على نبيّ الله سليمان ﷺ افتجرها بعض الدجّالين من اليهود ووسوسوا بها إلى بعض المسلمين فصدّقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر، وكذّبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر.

وإنّك لترى دجاجلة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساماً وعزائم، ويخطّون خطوطاً وطلاسم، ويسمّون ذلك خاتم سليمان وعهوده، ويزعمون أنّها تقي حاملها من اعتداء الجنّ ومسّ العفاريت ولقد رأيت شيئاً من ذلك أيّام حداثتي وكنت أصدّقه واعتقد بفائدته!!

وقد زعم اليهود أنّ سليمان سُحِرَ ودُفن السحر تحت كرسيّه، وأنّه أضاع خاتمه الذي كان به مُلكه، فوقع في يد آخر وجلس مجلسه إلى آخر ما خلطوا فيه التاريخ بالدَّجَل. وروي عنهم أنّ سليمان هو الّذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيّه ثمّ استخرجها الناس وتناقلوه

قال: ومن البديهي أنّ ذكر القصّة في القرآن لايقتضي أن يكون كلُّ ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً، فذكر السحر في هذه الآيات لايستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه، كما أنّ نسبة الكفر إلى سليمان ـ التي علمت من النفي ـ لاتستلزم أن تكون صحيحة، ولو لم تذكر في سياق النفي!

قال الأستاذ الإمام محمّد عبده ما مثاله: بيّنّا غير مرّة أنّ القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيّات الأخبار عند الغابرين، وإنّه ليحكي من عقائدهم الحقّ والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضارّ،

---

(١) راجع: المصدر: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لاتعدو موضع العبرة ولاتتجاوز موطن الهداية ولابدّ أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم، ما يدلّ على استحسان الحسن واستهجان القبيح وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكيّ عنهم، وإن لم تكن صحيحة في نفسها.

وهذا الأسلوب مألوف، فإنّنا نرى كثيراً من كُتّاب العربيّة وكُتّاب الإفرنج، يذكرون آلهة الخير والشرّ في خطبهم ومقالاتهم، لاسيّما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريّين القدماء، ولايعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنيّة.

وقد جاء ذكر السحر في مواضع متعدّدة في القرآن وأكثره في قصّة موسى وفرعون، وذكر هنا في الكلام عن اليهود. وإذا أردنا فهمه من عرف أهل اللغة وجدنا أنّ السحر عند العرب: كلّ ما لطف مأخذه ودقّ وخفي، وقالوا: سحره وسحّره بمعنى خدعه وعلّله. وقالوا: عين ساحرة وعيون سواحر. وفي الحديث: «إنّ من البيان لسحراً». قال الأستاذ الإمام: في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وجهان: أحدهما متّصل بقوله: ﴿وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي إنّ الشياطين هم الّذين يعلّمون الناس السحر.

والثاني ـ وهو الأظهر ـ أنّه متصل بالكلام عن اليهود[1] وأنّ الكلام عن الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم. وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولايزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ﴾ فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصّة كانوا يتحدّثون بها، كما أجمل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ما هو؟ أشعوذة وتخييل، أم خواصّ طبيعيّة، وتأثيرات نفسيّة؟ وهذا ضرب من الإعجاز في الإيجاز، انفرد به القرآن. يذكر الأمر المشهور بين الناس في وقت من الأوقات، لأجل الاعتبار به، فينظّمه في أسلوب يمكن لكلّ أحد أن يقبله فيه مهما يكن اعتقاده. ألاترى كيف ذكر السحر هنا وفي مواضع أخرى بأساليب لايستطيع

(١) في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ... يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ جملة حاليّة عن ضمير الجمع من اتّبعوا.

أن ينكرها من يدّعي أنّ السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك، ولا يستطيع أن يردّها من يدّعي أنّه من خوارق العادات!

قال: في «الملكين» قراءتان: فتح اللام وكسرها. وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر. ويؤيّده ما قيل: إنّ المراد بهما: رجلان صاحبا وقار وسمت، فشُبّها بالملائكة، وكان يؤمّهما الناس بالحوائج الأهليّة ويُجلّونهما أشدّ الإجلال فشُبّها بالملوك. وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة؛ يقولون: هذا مَلَك وليس بإنسان. كما يقولون فيمن كان سيّداً عزيزاً لاغنى للناس من الرجوع إليه: هذا سلطان زمانه.

قال الأستاذ الإمام: لعلّ الله تعالى سمّاهما مَلَكين ـ بفتح اللام ـ حكاية لاعتقاد الناس فيهما، وأجاز أيضاً كون إطلاق لفظ الملكين عليهما مجازاً، كما قال بعض المفسّرين.[1]

* * *

وهكذا ذكر الأستاذ محمّد جمال الدين القاسمي، قال: والذي ذهب إليه المحقّقون أنّ هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل، وكانا يعلّمان الناس السحر. وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنّوا أنّهما ملكان من السماء، وأنّ ما يُعلّمانه للناس هو وحي من الله.[2]

وللأستاذ أحمد مصطفى المراغي توضيح لهذا الجانب، لخّص فيه ما ذكره شيخه الأستاذ محمّد عبده قال: والملكان في هذه الآية هما رجلان شُبّها، إمّا بالملائكة، لانفرادهما بصفات محمودة، وقد جرت العادة أن يقولوا: هذا ملك وليس ببشر[3]. وإمّا بالملوك ـ في قراءة كسر اللام ـ كما يقال لمن كان سيّداً عزيزاً يُظهر الغنى عن الناس: هذا من الملوك. وكان الناس في عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم لايقصدون للفصل في شؤونهم الروحيّة إلّا أهل السمت والوقار، الّذين يلبسون لباس أُهل الصلاح والتقوى.[4]

---

(١) راجع: تفسير المنار ١: ٣٩٨ـ٤٠٢.

(٢) تفسير القاسمي ١: ٣٣٩.

(٣) كما في قوله تعالى ـ حكاية عن نسوة مصر ـ: ﴿مَا هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف ١٢: ٣١).

(٤) تفسير المراغي ١: ١٨١.

قلت: وفي القرآن كثير من تعابير جاءت تعبيراً عن معتقد أو مزعومة، حكاية لها لاتسالماً لها كما في قوله تعالى ـ بشأن مدّة لبث أصحاب الكهف ـ: ﴿وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً﴾[1]. فإنّ هذا التعبير عطف على قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾. وهي قولهم بشأن المدّة، كقولتهم بشأن العدد، حدس محض ومن ثمّ جاء ردّهم في كلا الموضعين: قل: الله أعلم. وكذا قوله: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[2]. وهكذا ذكر ابن عبّاس وتلامذته. إذن فظاهر التعبير قد يوهم أنّه من كلامه تعالى، في حين أنّه قول الآخرين.[3]

وعليه فقوله تعالى: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على قوله: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أي كما أنّ اليهود اتّبعوا ـ في زعمهم ـ ما كانت تنفثه الشياطين من دسائس الشرّ على عهد سليمان كذلك اتّبعوا ـ في زعمهم ـ ما أُلهم[4] الرجلان الصالحان، المنعوتان بنعوت الروحانيّين، ملائكة الله المقرّبين.

فالتعبير بالملكين حكاية عمّا كانت جمهرة الناس تُعبّر به، ولو تعبيراً مجازيّاً، لموضع حسن ظنّهم بهما.

وقد استغل اليهود هذا النعت الجليل، فراحوا ينسبون تزاويرهم و أساليبهم الماكرة إلى عهد سليمان أوّلاً، بزعم أنّه كان عالماً بها ورائجاً ذلك العهد من غير نكير. وثانياً، إلى رجلين صالحين عُرفا بِسَمتِ الملائكة الروحانيّين في الجلال والوقار. وذلك تبريراً لموقفهم هذا السّيء البذيء.

ومن ثمّ جاء ردّهم بأنّه افتراء على سليمان، كما هو افتراء على هاروت وماروت. إذ كانا من العلماء الصالحين، وكان تعليمهما للعلوم الدائرة والغريبة، مشفوعاً بالتذكّر والإرشاد إلى استعمال العلوم في سبيل الأهداف الصالحة دون الأهداف الضالّة الموجبة للكفر والعصيان.

ولأبي مسلم الأصفهاني هنا كلام بديع، ينفي أن يكون النازل على الملكين السحر. نظراً لأنّ السحر في أصله تمويه وتشويه، وانحراف عن جادة الحقّ. فلا يناسب أن يكون نازلاً من عنده تعالى أو ممّا ألهمه الله على عباده الصلحاء!

---

(١) الكهف ١٨: ٢٥. (٢) الكهف ١٨: ١٩.

(٣) راجع التفصيل في كتابنا «التمهيد» ٧: ٤٩٦.

(٤) هكذا جاء في تعبير العلّامة الطباطبائي: «واتّبعت اليهود ما أُنزل بالإخطار والإلهام على الملكين.» (الميزان ١: ٢٣٨).

وأيضاً لم يأت الأنبياء ليعلّموا الناس الدسائس والتمويهات ولم يـعهد مـنهم ذلك. فكـذلك الملائكة أو من كان على شاكلتهم من ذوي النفوس القدسيّة![1]

وممّا يُبعّد أن يكون هاروت و ماروت ملكين ـ بالمعنى الحقيقي ـ أنّ المقابلة والمواجهة مع الملك مستحيل مادام على صورته الذاتيّة، لأنّه من سنخ لطيف يغاير سنخ البشر الكثيف، الأمر الذي يجعل رؤيته والمفاوضة معه شفاهاً ممتنعاً على البشر، اللّهم إلّا أن يتمثّل الملك بشراً كـما تـمثّل جبرائيل لمريم بشراً سويّاً.[2]

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ مقترح غريب: أن يـنزل مـلك فـيشاهدوه ويتساءلوه في حين أنّه مستحيل ومن ثمّ جاء الردّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَـلَكاً لَّـجَعَلْنَاهُ رَجُـلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3]. أي لو جعل الرسول مَلَكاً لجعل الملك مـتمثّلاً فـي صـورة البشـر، ليمكّنهم رؤيته وسماع كلامه، ولو جعله ملكاً في صورة البشر لوهموه بشراً بذاته، إذ لا يُدركون منه سوى صورته وهندامه البشريّ، فيعود المحذور: بِمَ يعرفون أنّه مَلَك؟!

إنّ البشر في حالتهم العاديّة غير مستعدّين لرؤية الملائكة والجنّ على حالتهم الأصليّة، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[4] وذلك لأنّ أبصار البشر لاتدرك كلّ الموجودات، بـل إنّـما تدرك ما هو من سنخها فتدرك في عالمها هذا بعض الأجسام كالماء وما هو أكثف منه من الأجرام الملوّنة، دون ما هو ألطف منه كالهواء وما هو ألطف منه كالعناصر البسيطة التي يتألّف منها المـاء والهواء والملك والجنّ من عالم آخر غيبيّ ألطف ممّا ذكر.[5]

* * *

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّآ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَـئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾[6].

أي لو وجد في الأرض ملائكة يمكن الاجتماع بهم، لنزّلنا من السماء رسـلاً مـن المـلائكة

---

(١) التفسير الكبير ٣: ٢١٧.

(٢) ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾ (مريم ١٩: ١٧).

(٣) الأنعام ٦: ٨ ـ ٩.

(٤) الأعراف ٧: ٢٧.

(٥) راجع: تفسير المنار ٧: ٣١٦.

(٦) الإسراء ١٧: ٩٤ ـ ٩٥.

ليلتقوا مع البشر ولكن طبيعة الملك لاتصلح للاجتماع بالبشر، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم، لبعد ما بين الملك وبينهم في السنخ. وإجمال القول في ذلك: أنّه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم، ولما تمكّنوا من التلقّي منهم تلقّياً مباشراً.(١)

إذن يبعد أن يكون هاروت وماروت ملكين حقيقيّين، إذ لا يمكن للبشر العاديّ أن يتفاوض مع الملك، وهما على حالتهما الأصليّة، لا تكاثفاً من الملك، ولا تلطيفاً لجانب الإنسان الروحانيّة.

ويقرب أن يكون التعبير عنهما بالملَكين تشريفيّاً لمقام صلاحهما القدسيّ. وكذا على قراءة الملِكين ـ بالكسر ـ تعبير تشريفي أيضاً نظراً لهيمنتهما وسطوتهما الروحيّة ومرجعيّتهما لعامّة الناس.(٢)

وبعد فإليك من أحاديث السلف بشأن كوكبة الزهرة والأساطير التي حيكت حولها، نعرضها اعتباراً لااعتقاداً:

الآثار بشأن كوكبة الزهرة

[٢٨٧١/٢] أخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال: كنت مع عبدالله بن عمر في سفر فقال لي: ارمق الكوكبة ـ يعني الزهرة ـ فإذا طلعت فأيقظني، فلمّا طلعت أيقظته فاستوى جالساً، فجعل ينظر إليها ويسبُّها سبّاً شديداً! فقلت: يرحمك الله أبا عبدالرحمان، نجم ساطع مطيع، ماله تسبّه؟! فقال: أما إنّ هذه كانت بغيّاً في بني إسرائيل، فلقي المَلَكان منها ما لقيا!(٣)

[٢٨٧٢/٢] وأخرج ابن جرير والخطيب في تاريخه عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر، فلمّا كان من آخر الليل قال: يا نافع انظر هل طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرّتين أو ثلاثاً، ثمّ قلت: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً. قلت: سبحان الله! نجم مسخّر سامع مطيع! قال: ما قلت لك إلّا ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: «إنّ الملائكة قالت: يا ربّ كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إنّي ابتليتهم وعافيتكم. قالوا: لو كنّا مكانهم ما عصيناك! قال: فاختاروا ملكين منكم، فلم يألوا

(١) راجع: تفسير المراغي ١٥: ٩٧.
(٢) راجع: التفسير الكبير ٣: ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٣) الدرّ ١: ٢٣٨؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٥٨٣ / ٢٠٦، وقال: سنده حسن؛ الثعلبي ١: ٢٤٧.

جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت فنزلا، فألقى الله عليهم الشبق. قلت: وما الشبق؟ قال: الشهوة. فجاءت امرأة يقال لها الزهرة، فوقعت في قلوبهما، فجعل كلّ واحد منهما يخفي عن صاحبه ما في نفسه، ثمّ قال أحدهما للآخر: هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي؟ قال: نعم، فطلباها لأنفسهما فقالت: لا أُمكّنكما حتّى تعلّماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان. فأبيا، ثمّ سألاها، أيضاً فأبت ففعلا. فلمّا استطيرت طمسها الله كوكباً وقطع أجنحتهما، ثمّ سألا التوبة من ربّهما فخيّرهما فقال: إن شئتما رددتكما إلى ما كنتما عليه فإذا كان يوم القيامة عذّبتكما، وإن شئتما عذّبتكما في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة رددتكما إلى ما كنتما عليه. فقال أحدهما لصاحبه: إنّ عذاب الدنيا ينقطع ويزول، فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة. فأوحى الله إليهما: أن ائتيا بابل. فانطلقا إلى بابل، فخسف بهما فهما منكوسان بين السماء والأرض معذّبان إلى يوم القيامة».(١)

[٢٨٧٣/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق موسى بن جبير عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بني آدم يعصون فقالت: يا ربّ ما أجهل هؤلاء! ما أقلّ معرفة هؤلاء بعظمتك! فقال الله: لو كنتم في مسالخهم لعصيتموني. قالوا: كيف يكون هذا ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك؟ قال: فاختاروا منكم ملكين، فاختاروا هاروت وماروت، ثمّ أُهبطا إلى الأرض وركّبت فيهما شهوات مثل بني آدم، ومَثّلت لهما امرأة فما عصما حتّى واقعا المعصية، فقال الله: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه قال: ما تقول فاختر؟ قال: أقول إنّ عذاب الدنيا ينقطع وإنّ عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختارا عذاب الدنيا فهما اللّذان ذكر الله في كتابه: ﴿وَ ما أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ الآية».(٢)

---

(١) الدرّ ١: ٢٣٨؛ الطبري ١: ٦٤٢؛ الخطيب ٨: ٤٢ ـ ٤٣؛ وابن أبي حاتم أخرجه عن مجاهد ١: ١٩٠ ـ ١٩١ / ١٠٠٧.

(٢) الدرّ ١: ٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ الشعب ١: ١٨٠ ـ ١٨١ / ١٦٣؛ الطبري ١: ٦٣٩ ـ ٦٤٠ / ١٤٠١، رواه عن ابن عمر عن كعب، فذكر الحديث؛ القرطبي ٢: ٥١ ـ ٥٢؛ بمعناه عن ابن مسعود وابن عبّاس وابن عمر وكعب الأحبار والسدّي والكلبي، وبعد نقل الخبر عن هؤلاء المذكورين قال: وقال سالم عن أبيه عبدالله: فحدّثني كعب أنّهما لم يستكملا يومهما حتّى عملا بما حرّم الله عليهما؛ كنز العمّال ٢: ٣٦٦ ـ ٣٦٧ / ٤٢٦٩.

[٢٨٧٤/٢] وأخرج ابن جرير عن أسباط، عن السدّي: أنّه كان من أمر هاروت وماروت أنّهما طَعَنا على أهل الأرض في أحكامهم، فقيل لهما: إنّي أعطيتُ ابن آدم عشراً من الشهوات فبها يعصونني! قال هاروت وماروت: ربّنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثمّ نَزَلنا لحكمنا بالعدل! فقال لهما: انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس! فنزلا ببابل دُنْباوند. فكانا يحكمان، حتّى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا. فلم يزالا كذلك حتّى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية: «الزُّهرَة»، وبالنبطية: «بيذُخت»، واسمها بالفارسية: «ناهيد»، فقال أحدهما لصاحبه: إنّها لتُعجبني! فقال الآخر: قد أردتُ أن أذكر لك فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم، ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنّا نرجو رحمة الله. فلمّا جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها، فقالت: لا حتّى تقضيا لي على زوجي، فقضيا لها على زوجها. ثمّ واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها، فأتياها لذلك، فلمّا أراد الذي يواقعها، قالت: ما أنا بالذي أفعل حتّى تخبراني بأيّ كلام تصعدان إلى السّماء؟ وبأيّ كلام تنزلان منها؟ فأخبراها فتكلّمت فصعدت. فأنساها الله ما تنزل به فبقيت مكانها. وجعلها كوكباً ـ فكان عبدالله بن عمر كلّما رآها لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت ـ فلمّا كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يستطيعا فعرفا الهلاك فخيّرا بين عذاب الدّنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا من عذاب الآخرة فعلّقا ببابل فجعلا يكلّمان الناس كلامهما وهو السحر؟![1]

[٢٨٧٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: إنّ هاروت و ماروت أُهبطا إلى الأرض، فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشدّ النهي، وقالا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنّهما علّماه الخير والشرّ والكفر والإيمان، فعرّفاه أنّ السحر من الكفر، فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلّمه، فإذا تعلّمه خرج منه النور، فينظر إليه ساطعاً في السماء!

---

(١) الطبري ١: ٦٤٠ ـ ٦٤١ / ١٤٠٢؛ ابن كثير ١: ١٤٣ و ١٤٥ ـ ١٤٦. قال: رجاله ثقات؛ البغوي ١: ١٥١ عن الكلبي والسدّي؛ الثعلبي ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ الحاكم ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ و ٤: ٦٠٧ ـ ٦٠٨ وصحّحه؛ كنز العمّال ١٠: ٢٧٦ / ٢٩٤٣٤؛ العظمة ٤: ١٢٢٣ ـ ١٢٢٤؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٣ / ٩٨؛ سنن سعيد بن منصور ٢. ٥٨١ ـ ٥٨٢ / ٢٠٥؛ القمّي ١: ٥٤ ـ ٥٥.

فيقول: يا حسرتاه، ياويلاه، ماذا أصنع!![1]

[٢٨٧٦/٢] وأخرج ابن جرير عن أسباط، عن السدّي، قال: إذا أتاهما ـ يعني هاروتَ وماروتَ ـ إنسانٌ يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر إنّما نحن فتنة. فإن أبى قالا له: ائت هذا الرُّماد فبُلْ عليه! فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتّى يدخل السماء، وذلك الإيمان ـ وقيل شيء أسود كهيئة الدخان ـ حتّى يدخل في مسامعه وكلّ شيء منه، فذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علّماه السحر. فذلك قول الله: ﴿وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.[2]

[٢٨٧٧/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا جبريل ما لي أراك متغيّر اللون؟! فقال: ما جئتك حتّى أمر الله بمفاتيح النار! فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل صف لي النار وانعت لي جهنّم! فقال جبريل: إنّ الله تبارك وتعالى أمر بجهنّم فأوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت، ثمّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت، ثمّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها. والذي بعثك بالحقّ لو أنّ قدر ثقب أبرة فُتح من جهنّم لمات من في الأرض كلّهم جميعاً من حرّه. والذي بعثك بالحقّ لو أنّ ثوباً من ثياب النار علّق بين السماء والأرض لمات من في الأرض جميعاً من حرّه. والذي بعثك بالحقّ لو أنّ خازناً من خزنة جهنّم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه لمات من في الأرض كلّهم من قُبح وجهه ومن نتن ريحه. والذي بعثك بالحقّ لو أنّ حلقةً من حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضّت وما تقارّت حتّى تنتهي إلى الأرض السفلى. فقال رسول الله ﷺ: حسبي يا جبريل! فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال: تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به؟! فقال: ومالي لا أبكي؟ أنا أحقّ بالبكاء، لعلّي أكون في علم الله على غير الحال الّتي أنا عليها، وما أدري لعلّي أُبتلى بما

---

(١) الدرّ ١: ٢٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٢ و ١٩٤ / ١٠١٠ و ١٠٢١؛ ابن كثير ١: ١٤٧.

(٢) الطبري ١: ٦٤٦ / ١٤١٠؛ ابن كثير ١: ١٤٨؛ القرطبي ٢: ٥٥؛ البغوي ١: ١٥١، عن عطا والسدّي بلفظ: فإن أبى إلّا التعلّم قالا له: إئت هذا الرُّماد فبُل عليه فيخرج منه نور ساطع في السماء فذلك نور المعرفة وينزل شيء أسود شبه الدخان حتّى يدخل مسامعه وذلك غضب الله.

ابتلي به إبليس فقد كان من الملائكة، وما أدري لعلّي أُبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت. فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل، فما زالا يبكيان حتّى نوديا أن: يا جبريل ويا محمّد إنّ الله قد أمّنكما أن تعصياه».[1]

[٢٨٧٨/٢] وأخرج الثعلبي وابن أبي حاتم بالإسناد إلى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّها قالت: قدمت عَلَيَّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله ﷺ تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به!

قالت: وَقَفْنا ببابل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما! فقالا: ما جاء بكم؟! فقلت: نتعلّم السحر. فقالا: إنّما نحن فتنة فلا تكفروا وارجعوا. فأبيتُ وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك التنّور فبولي فيه فذهبتُ فبلتُ فيه. فرأيت فارساً مقنّعاً بحديد خرج منّي! حتّى ذهب في السماء وغاب عنّي. فجئتهما وقلت: قد فعلت وقصصت عليهما ما رأيت. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك، خرج منك. اذهبي.

قالت عائشة: فما علّماكِ وما قالا لكِ؟ قالت: لا أعلم شيئاً ولا قالا لي شيئاً إلّا أنّي ما أريد شيئاً إلّا كان فآخذ القمح وأقول: ابذري فتبذر. وأقول: اطلعي فتطلع. وأقول: احقلي فتحقل. وأقول افركي وايبسي واطحني واخبزي فتكون كذلك لوقتها. قالت: فلمّا رأيت أنّي لاأريد شيئاً إلّا كان، سقط في يدي وندمت ــ والله يا أمّ المؤمنين ــ وما فعلت شيئاً وما أفعله أبداً.[2]

قالت عائشة ــ وكان رسول الله ﷺ قد توفّي آنذاك ــ: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يومئذٍ متوافرون، فمادروا ما يقولون لها، وكلّهم يخشى أن يفتيها بما لا يعلمه إلّا أنّه قد قال لها ابن عبّاس أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيّين أو أحدهما لكانا يكفيانك!![3]

* * *

[٢٨٧٩/٢] وهكذا أخرج ابن جرير والحاكم وصحّحه والبيهقي في سننه عن عروة عن عائشة

---

(١) الدرّ ١: ٢٤٩ ــ ٢٥٠؛ الأوسط ٣: ٨٩ ــ ٩٠؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٨٦ ــ ٣٨٧. كتاب صفة النار؛ كنزالعمّال ١٤: ٦٥٤ ــ ٦٥٦ / ٣٩٧٨٤.

(٢) الثعلبي ١: ٢٤٩ ــ ٢٥٠.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ١٩٤ / ١٠٢٢. والحديث مبتور أكملناه على الدرّ المنثور ١: ٢٤٦.

أنّها قالت: قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به. قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، كانت تبكي حتّى أنّي لأرحمها وتقول: إنّي لأخاف أن أكون قد هلكت، قالت: كان لي زوج فغاب عنّي، فدخلت عليَّ عجوزٌ فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فأجعله يأتيك؛ فلمّا كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبْتُ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كشيء حتّى وقفنا ببابل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلتُ: أتعلّم السحر! فقالا: إنّما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي. فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك التنّور فبولي فيه ثمّ ائتي، فذهبت، ففرغت ولم أفعل فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: ما رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً! فقالا: كذبت لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنّك على رأس أمرك، فأبيت! فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه وذهبت فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنَّعاً بحديد خرج منّي حتّى ذهب في السماء وغاب عنّي حتّى ما أراه، وجئتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: رأيت فارساً مقنَّعاً خرج منّي فذهب في السماء حتّى ما أراه! فقالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً ولا قالا لي شيئاً! فقالت: بلى، لن تريدي شيئاً إلّا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرتُ وقلت: اطلعي فأطلعت، وقلت: أحقلي فأحقلت، ثمّ قلت: أفركي فأفركت، ثمّ قلت: أيبسي فأيبست، ثمّ قلت: أطحني فأطحنت، ثمّ قلت: أخبزي فأخبزت! فلمّا رأيت أنّي لا أريد شيئاً إلّا كان سقط في يدي، وندمت والله يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئاً قطّ ولا أفعله أبداً.

قالت عائشة: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلّهم خاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلّا أنّه قد قال لها ابن عبّاس أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيّين أو أحدهما لكانا يكفيانك![1]

قلت: حديث غريب وأغرب منه الحديث التالي:

---

(١) الدرّ ١: ٢٤٦؛ الطبري ١: ٦٤٥ـ٦٤٦ / ١٤٠٩؛ الحاكم ٤: ١٥٥ـ١٥٦؛ البيهقي ٨: ١٣٦ـ١٣٧؛ الثعلبي ١: ٢٤٩ـ٢٥٠؛ ابن كثير ١: ١٤٦ـ١٤٧.

[٢/ ٢٨٨٠] أخرج ابن المنذر من طريق الأوزاعي عن هارون بن رئاب قال: دخلت على عبدالملك بن مروان وعنده رجل قد ثنّيت له وسادة وهو متكّيء عليها قالوا: هذا قد لقي هاروت وماروت!. فقلت: حدّثنا. فأنشأ يحدّث ـ ولم يتمالك دموعه ـ فقال: كنت غلاماً حدثاً ولم أدرك أبي. وكانت أمّي تنفق عليّ وتعطيني من المال ما أفسده وأبذره ولاتمنعني منه. فلمّا كبرت وطال ذلك أحببت أن أعلم: من أين لأمّي هذه الأموال؟! فسألتها يوماً، فقالت: كل وتنعّم ولا تسأل، فهو خير لك! فألححت عليها فقالت: إنّ أباك كان ساحراً وجمع هذه الأموال من السحر قال: فأكلت ما أكلت ومضى ما مضى، ثمّ تفكّرت وقلت: يوشك أن يذهب هذا المال ويفنى، فينبغي أن أتعلّم السحر فأجمع كما جمع أبي! فسألت أمّي: من كان خاصّة أبي وصديقه؟ قالت: فلان في مكانٍ مّا! فتجهّزت وأتيته فقال: من الرجل؟ قلت: ابن فلان صديقك. قال: نعم، مرحباً. ما جاء بك، وقد ترك أبوك مالاً لانفاد له! قلت: جئت لأتعلّم السحر! قال: يا بنيّ لاترده، لا خير فيه! قلت: لابدّ من ذلك فألحّ عليّ بالترك وألححتُ عليه بالوفاق.

فقال: أمّا إذا أبيت، فاذهب الآن، وإذا كان يوم كذا فوافني هاهنا ففعلت ووافيته على الموعد وكان يناشدني أيضاً وينهاني وأنا مصرّ على العمل فلمّا رآني قد أبيت قال لي: فإنّي أدخلك موضعاً، فإيّاك أن تذكر الله فيه!! فأخذني وأدخلني في سرب تحت الأرض، فجعلت أدخل ثلاثمأة وكذا مرقاةً ولا أنكر من ضوء النهار شيئاً. فلمّا بلغت أسفله إذا أنا بهاروت وماروت معلّقان بالسلاسل في الهواء، وإذا أعينهما كالترسة ولهما أجنحة فنظرا إليّ فقالا: آدميّ؟ قلت: نعم! قالا: من أمّة من؟ قلت: من أمّة محمّد ﷺ! قالا: أو بُعث؟ قلت: نعم! قالا: اجتمع الناس على رجل واحد أم هم مختلفون؟ قلت: قد اجتمعوا على رجل واحد! فساءهما ذلك قالا: كيف ذات بينهم؟ قلت: سيّء! فسرّهما ذلك فقالا: هل بلغ البنيان بُحَيْرة الطبريّة؟ قلت: لا. فساءهما ذلك فسكتا، فقلت لهما: ما بالكما حين أخبرتكما على الاجتماع ساءكما ذلك؟ قالا: إنّ الساعة لم تقترب مادام الناس مجتمعين على رجل واحد. قلت: فما بالكما سرّكما حين أخبرتكما بفساد ذات البين؟ قالا: لأنّا رجونا اقتراب الساعة! قلت: فما شأن بُحَيرة الطبريّة؟ قالا: لأنّ الساعة لا تقوم حتّى يبلغ البنيان بُحَيرة الطبريّة! فقلت لهما:

أوصياني! قالا: إن قدرت أن لاتنام فافعل، فإنّ الأمر جدّ.[١]

قلت: وهكذا ذهب القوم في سفاسفهم يستخفّون بعقول الناس ويسردون أقاصيص لا وزن لها ولا اعتبار وقد غفلوا عن أنّ الأمر جدّ، ولكنّهم في نزواتهم يعمهون.

[٢٨٨١/٢] وذكر الزبير بن بكّار في الموفّقيات وابن مردويه والديلمي: «أنّ النبيّ ﷺ سُئل عن المسوخ؟ فقال: هم ثلاثة عشر: الفيل والدبّ والخنزير والقرد والجرّيث والضبّ والوطواط والعقرب والدعموص والعنكبوت والأرنب وسهيل والزهرة. فقيل: يا رسول الله وما سبب مسخهنّ؟ فقال: أمّا الفيل فكان رجلاً جبّاراً لوطيّاً لايدع رطباً ولا يابساً. وأمّا الدبّ فكان مؤنّثاً يدعو الرجال إلى نفسه. وأمّا الخنزير فكان من النصارى الّذين سألوا المائدة فلمّا نزلت كفروا، وأمّا القردة فيهود اعتدوا في السبت، وأمّا الجرّيث فكان ديّوثاً يدعو الرجال إلى حليلته، وأمّا الضبّ فكان أعرابياً يسرق الحاجّ بمحجنه، وأمّا الوطواط فكان رجلاً يسرق الثمار من رؤوس النخل، وأمّا العقرب فكان رجلاً لايسلم أحد من لسانه، وأمّا الدعموص فكان نمّاماً يُفرّق بين الأحبّة، وأمّا العنكبوت فامرأة سحرت زوجها، وأمّا الأرنب فامرأة كانت لا تطهر من حيض، وأما سهيل فكان عشّاراً باليمن، وأمّا الزهرة فكانت بنتاً لبعض ملوك بني إسرائيل افتتن بها هاروت وماروت».[٢]

قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ وما وضعه إلّا ملحد يقصد وهن الشريعة بنسبة هذا إلى رسول الله ﷺ أو مستهين بالدين لايبالي ما فعل.

والمتّهم به مغيث. قال أبو الفتح الأزدي: خبيث كذّاب لايساوي شيئاً روى حديث المسوخ وهو حديث منكر.[٣]

* * *

[٢٨٨٢/٢] قال أبو يعقوب وأبو الحسن[٤]: قلنا للإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام: إنّ قوماً عندنا يزعمون أنّ هاروت وماروت ملكان اختارتهما الملائكة لمّا كثُر عصيان بني آدم، وأنزلهما إلى

---

(١) الدرّ ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٢٤٩؛ كنزالعمّال ٦: ١٧٨ ـ ١٧٩ / ١٥٢٥٤.

(٣) راجع: الموضوعات لابن الجوزي ١: ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) هما راويا التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام.

الدنيا، وأنّهما افتتنا بالزهرة، وأرادا الزنا بها، وشربا الخمر، وقتلا النفس المحرّمة، وأنّ الله يُعذّبهما ببابل، وأنّ السحرة منهما يتعلّمون السحر، وأنّ الله مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الذي هو الزهرة!؟

فقال الامام عليه السلام: «معاذ الله من ذلك إنّ ملائكة الله معصومون من الخطأ محفوظون من الكفر والقبايح بألطاف الله تعالى فيهم: قال الله تعالى فيهم: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِندَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٢] وقال في الملائكة أيضاً: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَ هُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.[٣]

ثمّ قال عليه السلام: لو كان كما يقولون لكان الله قد جعل هؤلاء الملائكة خلفاءه على الأرض، وكانوا كالأنبياء في الدنيا وكالأئمّة، أفيكون من الأنبياء والأئمّة قتل النفس والزنا!؟

ثمّ قال عليه السلام: أو لست تعلم أنّ الله تعالى لم يُخل الدنيا قطُّ من نبيّ أو إمام من البشر، أو ليس الله يقول: ﴿وَ ما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يعني إلى الخلق ﴿إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[٤] فأخبر أنّه لم يبعث الملائكة إلى الأرض ليكونوا أئمة وحُكّاماً، وإنّما أُرسلوا إلى أنبياء الله!

قالا: فقلنا له: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً؟ فقال: لا، بل كان من الجنّ، أما تسمعان الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[٥] فأخبر الله ـ عزّ وجلّ ـ أنّه كان من الجنّ. وهو الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾»[٦].[٧]

ورواه ابن بابويه الصدوق ـ رحمه الله ـ في عيون أخبار الرضا عليه السلام.[٨]

---

(١) التحريم ٦٦: ٦.
(٢) الأنبياء ٢١: ١٩ ـ ٢٠.
(٣) الأنبياء ٢١: ٢٦ ـ ٢٨.
(٤) يوسف ١٢: ١٠٩.
(٥) الكهف ١٨: ٥٠.
(٦) الحجر ١٥: ٢٧.
(٧) راجع: تفسير الإمام: ٤٧٥ ـ ٤٧٦، والبحار ٥٦: ٣٢١، و البرهان ١: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، ونورالثقلين ١: ١٠٧ ـ ١٠٩.
(٨) العيون ١: ٢٤٢ ـ ٢٤٣ / ١، باب ٢٧ فيما جاء في هاروت و ماروت.

كلام عن عصمة الملائكة

العصمة عبارة عن بصيرة نافذة وحاجزة دون ارتكاب الذمائم تلك الذمائم التي يترفّع عنها ذوو النفوس القدسيّة الملكوتيّة.

وهكذا الأنبياء والأولياء الصالحون يملكون بصيرة نافذة، يرون من كلّ فضيلة فضيلتها الذاتيّة ليرغبوا فيها رغبة ذاتيّة وبدافع نفسي عريق وكذا يرون من كلّ رذيلة رذيلتها الذاتيّة، ليجتنبوها ذاتياً وبحاجز نفسي عميق فلا يكاد أن يمدّوا يداً إلى إثم، أو يرتكبوا مظلمة، ماداموا على ذلك الانبعاث النفسي الرشيد.

وهذا لايعني أنّهم مجبورون على ذلك، بل مجبولون عليه، بفضل بصيرتهم وكمال عقلهم ورشد طويّتهم فإنّما هي إرادة ناشئة من صميم الذات الصافية الضاحية على وضح النور.

وكذلك الملائكة ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.(١) لهم أنفس نوريّة بيضاء لائحة لايريدون إلّا ما أراده الله ولايفعلون إلّا ما أمرهم الله لا عن إجبار وإكراه، وإلّا لم يكن مدحاً لهم، بل عن إرادة حازمة، ناشئة عن بصيرتهم الذاتيّة النافذة.

وهم على درجات: ﴿وَ مَا مِنَّـآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ. وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ. وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.(٢)
﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.(٣)

ومن ثمّ فإنّهم ـ بفضل بصيرتهم وحزم إرادتهم ـ لايرتكبون خطيئة، مادام قبحها لائحاً لهم بوضوح، وهكذا كلّ من طابت نفسه ولطفت سجيّته، لايقرب إثماً، وإنّما يفعل الخير محضاً ويأتي بصالح الأعمال خالصة.(٤)

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.(٥)

فالملائكة مترفّعون في صميم الذات عن ارتكاب الآثام، ولا تطيق قدسيّة نفوسهم التخطّي عمّا خُطِّط لهم في مسيرة الوجود.

---

(١) الأنبياء ٢١: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) الصّافات ٣٧: ١٦٤ ـ ١٦٦.
(٣) التحريم ٦٦: ٦.
(٤) راجع: الميزان ١٩: ٣٨٨.
(٥) الأنبياء ٢١: ١٩ ـ ٢٠.

وعليه فكلّ ما حيك على غير هذا المنوال، وهم أو خيال ومن نسج الإسرائيليّات.

وقفة عند مسألة السحر

لابدّ من وقفة هنا عند مسألة السحر، ممّا كان اليهود يجرون خلفه ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم:

إنّه لايزال مشاهداً بين حين وآخر أنّ بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعدُ. لقد تسمّى بعضها بأسماء ولكن من غير أن يحدَّد كنهها ولا طرائقها.

هذا «التيليپاثي» ـ التخاطر من بعيد ـ ما هو؟ وكيف يتمّ؟ وكيف يملك إنسان أن يُلهم إنساناً على أبعاد وفواصل شاسعة، فينتقل منه إليه خاطرة أو فكرة.. من غير أن يشعر الآخر بهذا الإخطار الذهني الذي أتاه من بُعدٍ، وقد يكون من موجود روحاني خارج هذه الحياة، فيزعم أنّه من فكرته، وإن كان قد يستغرب خطور مثل هذه الخاطرة في ذهنه، ومن غير سابقة ولا مناسبة!!

وهو نوع إيحاء عرف باسم الإلهام بفارق: أنّ المُلْهَم لاينكشف له مصدر الإلهام في حين أنّ الوحي الرسالي مشهود لدى الموحى إليه، ذات الوحي والذي أوحَى إليه، شهود قطع ويقين.[1]

وهذا «التنويم المغناطيسي» ما هو؟ وكيف يتمّ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادةٌ على إرادةٍ، وأن يتّصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يلقى إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقّى عن الآخر، كأنّما يقرأ في كتاب مفتوح؟!

قال سيّد قطب: إنّ كلّ ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو: أن أعطاها أسماء! ولكنّه لم يقل قطُّ: ماهي؟ ولم يقل قطُّ: كيف تتمّ؟

وثمّة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم، إمّا لأنّه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإمّا لأنّه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه، هذه الأحلام التنبّؤيّة: كيف يرى الرائي رؤياً عن مستقبل مجهول، ثمّ إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟! وهذه الأحاسيس الخفيّة

---

(١) حسبما شرحناه في مباحثنا عن أقسام الوحي. (التمهيد ج ١).

التي ليس لها اسم بعدُ، كيف يُحَسُّ أنّ أمراً مّا سيحدث بعد قليل أو أنّ شخصاً مّا قادم بعد قليل، ثمّ يحدث ما تُوُقّع على نحو من الأنحاء؟!

إنّه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى الروحيّة في الكائن البشري، لمجرّد أنّ العلم لم يهتد بعدُ إلى وسيلة يجرّب بها هذه القوى؟!

نعم، ليس معنى هذا هو التسليم بكلّ خرافة، والجري وراء كلّ أسطورة. إنّما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً: لاينفي على الإطلاق ولايثبت على الإطلاق، حتّى يتمكّن العلم بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلّم بأنّ في الأمر شيئاً فوق طاقته، فيعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه.

قال سيّد قطب: السحر من قبيل هذه الأمور. وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأُمور. وقد تكون صورة من صوره: القدرة على الإيحاء والتأثير، إمّا في الحواسّ والأفكار، وإمّا في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرّد تخييل لاحقيقة له: ﴿فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثّرات وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسبّبات، لاتقع إلّا بإذن الله، حسبما أسلفناه.

قال: أمّا من هما هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإنّ قصّتهما كانت متعارفة بين اليهود، حيث لم يكذّبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها، وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى تفصيل أكثر، لأنّ هذا التفصيل ليس هو المقصود.

وليس من المستحسن لنا الجري خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصّة هاروت و ماروت، إذ ليست هنالك رواية واحدة محقّقة يوثق بها.

ولقد مضى في تاريخ البشريّة من آيات و ابتلاءات مايناسب حالتها وإدراكها في كلّ طور من أطوارها فإذا جاء الاختبار في صورة ملكين، أو في صورة رجلين طيّبين كالملائكة. فليس هذا

غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتّى الصور وشتّى الابتلاءات الخارقة، التي مرّت بها البشريّة، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعّة الشعلة الإلّهيّة المنيرة في غياهب الليل البهيم!

والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات، تُغني عن السعي وراء المتشابه فيها بالقياس إلينا، بعد ذلك الزمن المديد وحسبنا أن نعلم منها ضلال بني إسرائيل في جريهم وراء الأساطير، ونبذهم كتاب الله المستيقن، وأن نعرف أنّ السحر من عمل الشيطان، وأنّه من ثَمَّ كفرٌ يُدَانُ به الإنسان، ويفقد به في الآخرة كلّ نصيب ورصيد.[١]

وقد أسبقنا الكلام عن السحر وعن أقسامه وما جاءت به الآثار ولهجت به الأخبار في القديم وفي الجديد، وذكرنا ما يناسبها من نقد وتمحيص، في كتابنا «التمهيد»[٢] فلا نعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

[٢٨٨٣/٢] أخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى قتادة في قوله تعالى: ﴿اشْتَرَاهُ﴾ قال: أي استحبّه[٣] أي آثر السحر والفساد على صالح الأعمال.

[٢٨٨٤/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بالإسناد إلى السدّي في قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَاشَرَوْا﴾ قال: يعني اليهود، باعوا أنفسهم[٤] إزاء ما استلموه من ثمن بخس.

[٢٨٨٥/٢] وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قال: من نصيب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أميّة بن أبي الصلت يقول:

يدعون بالويل فيها لاخلاق لهم　　　إلّا سرابيل من قطر وأغلال[٥]

---

(١) في ظلال القرآن ١: ١٣٠ ـ ١٣٢.　(٢) الجزء السابع من التمهيد: ٢٢٣ ـ ٢٥٠.

(٣) ابن أبي الحاتم ١: ١٩٥ / ١٠٢٤.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ١٩٥ / ١٠٣٠؛ الطبري ١: ٦٥٣ / ١٤٢٨؛ البخاري ٥: ١٤٧ مع عدم ذكر الراوي.

(٥) الدرّ ١: ٢٥١.

[٢٨٨٦/٢] وأخرج ابن جرير عن وكيع، قال سفيان، سمعنا في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أنّه ما له في الآخرة من نصيب.(١)

[٢٨٨٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قال: من نصيب. وكذا عن مجاهد والسدّي.(٢)

[٢٨٨٨/٢] وأخرج عن ابن عبّاس في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قال: قوام.(٣)

[٢٨٨٩/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرزّاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قال: ليس له في الآخرة حجّة.(٤)

[٢٨٩٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بنفس الطريق عنه قال: ليس له في الآخرة جهة (أي وجهة) عند الله.(٥)

[٢٨٩١/٢] وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قال: ليس له دين.(٦)

[٢٨٩٢/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلّم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً كان آخر عهده من الله».(٧)

[٢٨٩٣/٢] وأخرج البزّار عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من تَطَيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً فصدّقه بما يقول

---

(١) الطبري ١: ٦٥٢ / ١٤٢٤؛ التبيان ١: ٣٨١.

(٢) الدرّ ١: ٢٥١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٥ / ١٠٢٦.

(٣) الدرّ ١: ٢٥١؛ الطبري ١: ٦٥٢ ـ ٦٥٣ / ١٤٢٧؛ أبوالفتوح ٢: ٨٨؛ الثعلبي ١: ٢٥١.

(٤) الطبري ١: ٦٥٢ / ١٤٢٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٣ / ٩٩. بلفظ: «أي ليس له في الآخرة جنّة عند الله». والظاهر أنّه تصحيف؛ ابن كثير ١: ١٤٨، بلفظ: «ليس له في الآخرة من جهة».(٥) ابن أبي حاتم ١: ١٩٥ / ١٠٢٧.

(٦) الدرّ ١: ٢٥١؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٣ / ١٠٠؛ الطبري ١: ٦٥٢ / ١٤٢٦؛ الثعلبي ١: ٢٥١، بلفظ: «ما له في الآخرة من خلاق من دين ولا وجه عند الله»؛ أبوالفتوح ٢: ٨٨. بلفظ: «ما له من دين ولا وجه عند الله»؛ التبيان: ١ / ٣٨١؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٥ / ١٠٢٨.

(٧) الدرّ ١: ٢٥٠؛ المصنّف لعبدالرزّاق ١٠: ١٨٤ / ١٨٧٥٣؛ كنزالعمّال ٦: ٧٤٣ / ١٧٦٥٣.

فقد كفر بما أُنزل على محمّد».(١)

[٢٨٩٤/٢] وأخرج البزّار والحاكم وصحّحه عن عبدالله بن مسعود قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمّد ﷺ.(٢)

[٢٨٩٥/٢] وروي عن الإمام أمير المؤمنين ؏، أنّه قال: «قال رسول الله ﷺ: ساحر المسلمين يُقتَل، وساحر الكفار لا يُقتَل، قيل: يا رسول الله، ولم ذاك؟ قال: لأنّ الشرك والسحر مقرونان، والذي فيه من الشرك أعظم من السحر. قال أمير المؤمنين ؏: ولذلك لم يقتل رسول الله ﷺ ابن أعصم اليهوديّ الذي سحره. قال أمير المؤمنين ؏: فإذا شهد رجلان عدلان على رجل من المسلمين أنّه سحر قتل، والسحر كفر، وقد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ إلى قوله ﴿فَلا تَكفر﴾ فأخبر جلّ ذكره، أنّ السحر كفر، فمن سحر فقد كفر، فقتل ساحر المسلمين لأنّه كفر، وساحر المشركين لا يقتل لأنّه كافر بعد بما جاء عن رسول الله ﷺ».(٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أي أنّهم لو صدقوا في إيمانهم واستقاموا على الطريقة، فلم يتعرّجوا إلى منعطفات الطريق، لكان أصلح لهم مثوبةً عند الله، أي أحسن عاقبة في مآل أمرهم العاجل منه والآجل. ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾(٤). ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ - كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٠؛ مسند البزّار ٩: ٥٢ / ٣٥٧٨؛ مجمع الزوائد ٥: ١١٧، باب السحر والكهانة، قال الهيثمي: رواه البزّار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٠؛ مسند البزّار ٥: ٢٥٦ و ٣١٥ / ١٨٧٣ و ١٩٣١؛ الحاكم ١: ٨، بلفظ: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أتى عرّافاً وكاهناً فصدّقه فيما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمّد ﷺ، هذا حديث صحيح على شرطهما جميعا»؛ الكامل ٧: ١٣٣ و فيه: «من أتى عرّافاً أو كاهناً أو ساحراً فصدّقه...»؛ كنز العمّال ٦: ٧٤٩ / ١٧٦٧٨؛ ابن كثير ١: ١٤٨، وقال: «هذا إسناد صحيح وله شواهد أُخر».

(٣) مستدرك الوسائل ١٣: ١٠٧؛ دعائم الإسلام ٢: ٤٨٢ / ١٧٢٥، كتاب الردّة والبدعة، فصل ٢، ذكر الحكم في أهل البدعة والزنادقة.

(٤) الجنّ ٧٢: ١٦.

(٥) سورة محمّد ٤٧: ٢ و ٥.

نعم هيهات من هؤلاء العُمْه العُمْي أن يرعووا ويرجعوا إلى الرشد والصواب؟!

[٢٨٩٦/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: كلّ شيء في القرآن «لو» فإنّه لايكون أبداً.(١)

[٢٨٩٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا﴾ قال: آمنوا بما أنزل الله، واتّقوا ما حرّم الله.(٢)

[٢٨٩٨/٢] وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يقول: لثواب من عند الله.(٣)

[٢٨٩٩/٢] وعن السدّي: أمّا المثوبة فهو الثواب.(٤)

[٢٩٠٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال لليهود: ﴿وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ يعني صدّقوا بمحمّد ﷺ ﴿وَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يقول لكان ثوابُهم عند الله ﴿خَيْرٌ﴾ من السحر والكفر ﴿لَوْ﴾ يعني إن ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ونظيرها في المائدة (٦٠): ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ يعني ثواباً.(٥)

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذه الآية تكشف عن جانب خبيث من دسائس اليهود وكيدهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وتحذّر المسلمين عن الانخداع بألاعيبهم وحيلهم وما تكنّه نفوسهم من الحقد والشرّ للجماعة المسلمة، فيبيّتون لهم من الكيد والضرّ، لولا وعي المسلمين وحذرهم في كلّ حين.

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٢؛ الطبري ١: ٥٠٢ـ ٥٠٣ / ١٠٥٦، سورة البقرة الآية ٧١ بلفظ: عن ابن عبّاس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: كادوا لايفعلون، ولم يكن الذي أرادوا، لأنّهم أرادوا أن لايذبحوها، وكلّ شيء في القرآن «كاد» أو «كادوا» أو «لو» فإنّه لايكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: ابن أبي حاتم ١: ١٩٦ / ١٠٣٤.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ١٩٥ـ ١٩٦ / ١٠٣١ـ ١٠٣٢.

(٣) الطبري ١: ٦٥٦ / ١٤٣١؛ التبيان ١: ٣٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٦ / ١٠٣٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٣ـ ٢٨٤ / ١٠١، عن قتادة.

(٤) الطبري ١: ٦٥٦ / ١٤٣٠.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٢٨.

فمن دسائسهم اللئيمة تلك تصرّفاتهم الغاشمة لخداع المسلمين، ليرافقوهم في الاستهانة بموضع الرسول ﷺ وفي ستار خادع.

يتّجه الخطاب نحو الّذين آمنوا يناديهم بالصفة التي تميّزهم عن أولئك المراوغين، والتي تربطهم بربّهم ونبيّهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية:

فيدعوهم إلى ترك قولةٍ قد تستغلها اليهود اللؤماء للاستهانة بموضع الرسول والاستهزاء بموقفه الكريم. ينهاهم أن يقولوا «راعنا» ـ من الرعاية لحال المخاطبين ـ ليرفق بهم في الكلام ويتريّث كي يسهل عليهم فهمه.

غير أنّ هذه اللفظة كان يستغلها اليهود فرصة لئيمة. فكانوا ينطقون بها مع شيء من تغيير اللهج بها لتصبح كلمة فحش في العبريّة، فيسخرون من النبيّ ﷺ في غوغاء عارم.

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.[١]

واللّيّ: الفتل. وأصله اللَوْي، عن «لوى يلوى ليًّا ولَوْياً الشيء، بمعنى: فتله وثنّاه والمراد ـ هنا ـ العطف باللسان لتحريف اللهج بالكلام.

[٢٩٠١/٢] قال ابن عبّاس: كان المسلمون يقولون للنبيّ ﷺ: راعنا، على جهة الطلب، والرغبة ـ من المراعاة ـ أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبّاً، فاغتنموها، وقالوا: كنّا نسبّه سرّاً فالآن نسبّه جهراً. فكانوا يلهجون بها ويتضاحكون فيما بينهم، فنُهي المسلمون عن التلهّج بها وإبدالها بما يرادفها في المعنى، تحذيراً من تواجد الفرصة لليهود فيستغلوها مسبّة عارمة.[٢]

قال الحسين بن عليّ المغربيّ[٣]: بحثتُ عن ذلك فوجدتهم يقولون: راعَ، على وزان قال ـ فعلاً

(١) النساء ٤: ٤٦.
(٢) راجع: القرطبي ٢: ٥٧.
(٣) هو الوزير الموفّق أبوالقاسم المغربيّ من شيوخ النجاشي. كان أديباً شاعراً فاضلاً مترسّلاً كثير الفنون، حافظاً وكبيراً من العلماء، عالماً بالحساب والجبر والهندسة. قال ابن أبي الحديد: وكان غالياً في تعصّبه لقحطان مع تشيّعه!

←

ماضياً ـ بمعنى الشرّ والفساد.[١]

قال الحجّة البلاغي: تتبّعت العهد القديم العبرانيّ ـ وكان رحمه الله يعرف العبريّة ـ فوجدت أنّ لفظة «راع» ـ بفتحة مشالة إلى الألف «راعا» ـ تقريباً، وتسمّى عندهم «قامص».[٢] تكون بمعنى الشرّ والقبيح. وبمعنى الشرّير واحد الأشرار، وكما في ترجمة الأناجيل الأربعة.

قال: و «نا» ضمير المتكلّم مع الغير، وفي العبرانيّة تبدل ألفها واواً أو تمال إلى الواو. فيكون «راعنا» بهذا اللهج بمعنى «شرّيرنا» ونحو ذلك.[٣]

ونظيره ما ذكره صاحب المنار قال: ومن تحريف اللسان وليّه في خطابهم للنبيّ ﷺ قولهم في التحيّة: «السام عليك» ـ وهو بمعنى الموت والهلاك ـ يوهمون بذلك أي بفتل اللسان وجمجمته أنّهم يقولون: «السلام عليك». وقد ثبت ذلك في الصحيح، وأنّه ﷺ بعد علمه بذلك كان يجيبهم بقوله: «وعليكم» أي كلّ أحد يموت.[٤]

قال الطبرسيّ: كان اليهود يُلحدون بهذه اللفظة إلى الرعونة، يريدون به النقيصة والوقيعة، فلمّا عوتبوا، قالوا: نقول كما يقول المسلمون، فنهى الله عن ذلك وأمر المسلمين أن ينطقوا بلفظة أخرى ترادفها.

[٢٩٠٢/٢] قال قتادة: إنّها كلمة كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء.

[٢٩٠٣/٢] وقال عطا: هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهليّة فنهوا عنها في الإسلام.

[٢٩٠٤/٢] وقال السدّي: كان ذلك كلام يهودي بعينه ـ هو رفاعة بن زيد ـ يريد به الرعونة. قال

← توفّي في النصف من رمضان سنة ٤١٨ هـ بميافارقين وكان أوصى بدفن جثمانه في جوار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فانتقل إليه. كما أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

كنت في سوء الغواية والجهل ... مقيماً فحان منّي قدوم
تبت من كلّ مأثم فعسى ... يُمحى بهذا الحديث ذاك القديم

(قاموس الرجال، التستري ٣: ٤٩٦ ـ ٤٩٨ / ٢٢١٠).

(١) التبيان ١: ٣٨٩.

(٢) يقال: قمص الفرس وغيره إذا نفر واضطرب. وفلان قموص الحنجرة: كذوبٌ مفترٍ في حديثه.

(٣) تفسير آلاء الرحمان ١: ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) تفسير المنار ٥: ١٤٢.

أبو جعفر: هذه الكلمة سبّ بالعبرانيّة.[١]

* * *

وبعد فقد نُهي المسلمون أن يستعملوا لفظة قد يستغلّها أعداء الإسلام، وليستبدلوا بها من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقّها وبهذه الصفة نهاهم عن التعبير بكلمة «راعنا» من الرعاية والالتفات، وأن يقولوا بدلاً منها مايرادفها في اللغة، من نحو قولهم: «انظرنا» أي ارفق بنا في الخطاب. وأمرهم بالسمع والطاعة، وحذّرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم.

نعم، كان سفهاء اليهود يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ، وهم يوجّهونه للنبيّ ﷺ حتّى يؤدّي معنى آخر مشتقّاً من الرعونه وماشابه ذلك يحتالون بذلك على سبّه عن هذا الطريق الملتوى، الذي لايسلكه إلّا صغار السفهاء! ومن ثمّ جاء النهي للمؤمنين عن لفظ يتّخذه اليهود ذريعة، وأُمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى، حيث لايملك السفهاء تحريفه وإمالته، وليفوت على اليهود غرضهم السفيه الحقير.

وإليك من أحاديث السلف بهذا الشأن:

* * *

[٢٩٠٥/٢] أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: وذلك أنّها سبّة بلغة اليهود. فقال تعالى: ﴿قُولُوا انظُرْنَا﴾ يريد اسمعنا، فقال المؤمنون بعدها: من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه، فانتهت اليهود بعد ذلك![٢]

[٢٩٠٦/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن قتادة في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: قولاً كانت اليهود تقوله استهزاء فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم.[٣]

[٢٩٠٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج: راعنا قول الساخر، فنهاهم أن يسخروا من قول محمّد ﷺ.[٤]

---

(١) مجمع البيان ١: ١٧٨.
(٢) الدرّ ١: ٢٥٢؛ الدلائل: ٤٤ / ٦؛ القرطبي ٢: ٥٧.
(٣) الدرّ ١: ٢٥٣؛ الطبري ١: ٦٥٧ / ١٤٣٧؛ أبوالفتوح ٢: ٩١ ـ ٩٢.
(٤) الطبري ١: ٦٥٨ / ١٤٤٤؛ ابن كثير ١: ١٥٣ ـ ١٥٤.

[٢٩٠٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وذلك أنّ المؤمنين قالوا للنبيّ ﷺ راعنا سمعك، كقولهم في الجاهليّة بعضهم لبعض. وراعنا في كلام اليهود الشتم، فلمّا سمعت ذلك اليهود من المشركين أعجبهم فقالوا: مثل ذلك للنبيّ ﷺ فقال رجل من الأنصار ـ وهو سعد بن عبادة الأنصاري ـ لليهود: لئن قالها رجل منكم للنبيّ ﷺ لأضربنّ عنقه، فوعظ الله ـ عزّ وجلّ ـ المؤمنين فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبيّ ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ و لكن ﴿وَ قُولُوا انظُرْنَا﴾ قولوا اسمع منّا ثمّ قال: ﴿وَ اسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ يعني اليهود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيعاً.(١)

[٢٩٠٩/٢] وأخرج ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي أرعنا سمعك.(٢)

[٢٩١٠/٢] وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أدبر، ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فقالوا: أَرْعِنا سمعَك، فأعظم الله رسوله أن يقال له ذلك، وأمرهم أن يقولوا: انظرنا ليعزّزوا رسوله ويوقّروه.(٣)

* * *

[٢٩١١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنّه قرأ: راعناً، وقال: الراعن من القول السخريّ منه.(٤)

[٢٩١٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: راعنا، القول الذي قاله القوم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾(٥) قال: قالوا: هذا الراعن، والراعن: الخطّاء. قال: فقال الله للمؤمنين: لا تقولوا خطّاء كما قال القوم، وقولوا انظرنا واسمعوا. قال: كانوا ينظرون إلى النبيّ ﷺ ويكلّمونه ويسمع منهم، ويسألونه ويجيبهم.(٦)

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٢٨ـ١٢٩.
(٢) الدرّ ١: ٢٥٣؛ الطبري ١: ٦٥٧ / ١٤٣٤؛ ابن كثير ١: ١٥٣.
(٣) الدرّ ١: ٢٥٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٧ـ١٩٨ / ١٠٤٢ و ١٠٤٥؛ ابن كثير ١: ١٥٤.
(٤) الدرّ ١: ٢٥٣؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٧ / ١٠٤١؛ الثعلبي ١: ٢٥٢.
(٥) النساء ٤: ٤٦.
(٦) الطبري ١: ٦٥٨ / ١٤٤١.

[٢٩١٣/٢] وأخرج عن ابن جريج، عن عطاء في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: لا تقولوا خلافاً.(١)

[٢٩١٤/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: خلافاً.(٢)

[٢٩١٥/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: وأما قوله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا﴾ أي لا تقولوا: تخليطاً وقولوا: أفهمنا.(٣)

[٢٩١٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدّي قال: كان رجلان من اليهود مالك بن الصيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي ﷺ قالا له وهما يكلّمانه: راعنا سمعك واسمع غير مسمع، فظنّ المسلمون أنّ هذا شيء كان أهل الكتاب يعظّمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي ﷺ ذلك، فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...﴾ الآية.(٤)

[٢٩١٧/٢] وروي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: قال: «إنّ رسول الله ﷺ لمّا قدم المدينة كثر حوله المهاجرون والأنصار، وكثرت عليه المسائل، وكانوا يخاطبونه بالخطاب الشريف العظيم الذي يليق به، وذلك أنّ الله تعالى كان قال لهم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(٥). وكان رسول الله ﷺ بهم رحيماً، وعليهم عطوفاً، وفي إزالة الآثام عنهم مجتهداً، حتّى أنّه كان ينظر إلى كلّ من يخاطبه، فيعمل على أن يكون صوته ﷺ مرتفعاً على صوته ليزيل عنه ما توعّد الله به من إحباط أعماله، حتّى أنّ رجلاً أعرابيّاً ناداه يوماً وهو خلف حائط بصوت له جهوريّ: يا محمّد! فأجابه بأرفع من صوته، يريد أن لا يأثم الأعرابي بارتفاع صوته! فقال له الأعرابي: أخبرني عن

---

(١) الطبري ١: ٦٥٦ / ١٤٣٢؛ التبيان ١: ٣٨٨.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٣؛ الطبري ١: ٦٥٦ ـ ٦٥٧ / ١٤٣٣ ولابن جرير هنا كلام يأتي؛ ابن كثير ١: ١٥٣؛ الثعلبي ١: ٢٥٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٧ / ١٠٤٠؛ أبوالفتوح ٢: ٩٥؛ التبيان ١: ٣٨٨، عن عطاء ومجاهد.

(٣) القمّي ١: ٥٨.

(٤) الدرّ ١: ٢٥٣؛ الطبري ١: ٦٥٩ / ١٤٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٨ / ١٠٤٩؛ ابن كثير ١: ١٥٤؛ أبوالفتوح ٢: ٩٤.

(٥) الحجرات ٤٩: ٢.

التوبة إلى متى تقبل؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أخا العرب إنّ بابها مفتوح لابن آدم لا يُسَدُّ حتّى تطلع الشمس من مغربها، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وهو طلوع الشمس من مغربها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾[1].

ثمّ قال الإمام موسى بن جعفر ﷺ: وكانت هذه اللفظة: «راعنا» من ألفاظ المسلمين الّذين يخاطبون بها رسول الله ﷺ يقولون: راعنا، أي إرع أحوالنا، واسمع منّا كما نسمع منك. وكان في لغة اليهود. معناها: اسمع، لاسمعت. فلمّا سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها رسول الله ﷺ يقولون: راعنا ويخاطبون بها، قالوا: إنّ كنّا نشتم محمّداً إلى الآن سرّاً، فتعالوا الآن نشتمه جهراً! وكانوا يخاطبونه ويقولون: راعنا، ويريدون شتمه. ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، أراكم تريدون سبّ رسول الله ﷺ وتُوهمونا أنّكم تَجْرون في مخاطبته مجرانا، والله لا سمعتها من أحد منكم إلّا ضربت عنقه، ولو لا أنّي أكره أقدم عليكم قبل التقدّم والاستيذان له لضربت عنق من قد سمعته منكم يقول هذا. فأنزل الله: يا محمّد ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2]. وأنزل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ يعني فإنّها لفظة يتوصّل بها أعداؤكم من اليهود إلى شتم رسول الله ﷺ وشتمكم. ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، أي قولوا بهذه اللفظة، لا بلفظة راعنا، فإنّه ليس فيها ما في قولكم: راعنا، ولا يمكنهم أن يتوصلوا بها إلى الشتم كما يمكنهم بقولهم راعنا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ إذا قال لكم رسول الله ﷺ قولا وأطيعوا. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ يعني اليهود الشاتمين لرسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع في الدنيا إن عادوا بشتمهم، وفي الآخرة بالخلود في النار.»[3]

* * *

(١) الأنعام: ٦: ١٥٨.
(٢) النساء: ٤: ٤٦.
(٣) تفسير الإمام ﷺ: ٤٧٧ ـ ٤٧٩ / ٣٠٥؛ البرهان ١: ٢٩٩ ـ ٣٠٠ / ١؛ البحار ٩: ٣٣١ ـ ٣٣٢ / ١٨، باب ٢.

قال أبو جعفر الطبري: والصواب من القول في نهي الله المؤمنين أن يقولوا «راعنا» إنّها كلمة كرهها الله أن يخاطب بها النبيّ نظير ما روي عنه أنّهﷺ نهى أن يقال للعنب: الكرم، بل يقال: الحبلة ونهى أن يقال: عبدي، بل يقال: فتاي وما أشبه ذلك من لفظتين بمعنى واحد، إحداهما مستحسنة والأخرى مستكرهة، فينبغي اختيار المستحسن على المستكره.

وهكذا لفظة «راعنا» تحتمل معنى: احفظنا وارقبنا ومعنى: أرعنا سمعك. من قولهم: أرعيت سمعي إرعاء، وراعيته سمعي مراعاة، بمعنى: فرّغته لسماع كلامه، كما قال الأعشى:

يُرعى إلى قول سادات الرجال إذا   أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

يعني بقوله يُرعي: يُصغي بسمعه إليه، مُفرَّغةً لذلك.

وكان الله قد أمر المؤمنين بتوقير النبيّ وتعظيمه، حتّى نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض وحذّرهم عن حبط أعمالهم على ذلك فتقدّم إليهم بالزجر لهم عن أن يقولوا من القول ما فيه جفاء، وأمرهم أن يختاروا لخطابه من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقّها فكان من ذلك قولهم: راعنا، لما فيه من احتمال معنى: ارعنا نرعاك؛ إذ كانت المفاعلة من الطرفين، كما يقول القائل: عاطِنا وحادِثنا وجالِسنا، بمعنى: افعل بنا نفعل بك. والاحتمال الآخر: معنى: أرعنا سمعك حتّى نفهمك، وتفهم عنّا فنهى الله أصحاب محمدﷺ أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم ليعقلوا عنه، وهذا تبجيل منهم له وتعظيم، فلا يسألوه على وجه الجفاء والتجهّم منهم له[1] ولا بالغظاظة والغلظة كما تفعله اليهود في خطابهم مع الرسولﷺ بقولهم: اسمع غير مسمع وراعنا ـ ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين.

قال: وأمّا الذي حكي عن مجاهد في قوله: راعنا، أنّه بمعنى: خلافاً[2]، فممّا لا يُعقل في كلام العرب، لأنّ «راعيت» في كلام العرب على أحد وجهين: فاعلت من الرعية وهي الرقبة والكلاءة. والآخر، بمعنى إفراغ السمع بمعنى: أرعيته سمعي وأمّا راعيتُ بمعنى خالفتُ، فلا وجه له مَفهوم في كلام العرب. إلّا أن يكون قرأ ذلك بالتنوين «راعناً» على معنى الرعونة والجهل والخطا، كما ذكره

---

(١) يقال: تجهّم له أي قابله بوجه عبوس كريه.
(٢) تقدّم الحديث عنه.

عبدالرحمان بن زيد. غير أنّه مخالف لقراءة القرّاء المعروفين.

وأمّا ما حكي عن عطيّة والرواة عنه: أنّ «راعنا» كلمة يهوديّة بمعنى السبّ والسخريّة، فاستعملها المسلمون أخذاً منهم اغتراراً بهم!!! فإنّ ذلك غير جائز في صفة المؤمنين أن يأخذوا من كلام أهل الشرك والضلال كلاماً لايعرفونه ولايدرون معناه، فيستعملونه بينهم وفي خطاب نبيّهم، نعم يجوز أن يكون ذلك ممّا روي عن قتادة: أنّها كانت كلمة صحيحة مفهومة من كلام العرب، سوى أنّها وافقت بعض الشيء مع كلام اليهود بالعبريّة ما يؤدّي معنى الفحش والمسبّة فيكون معناها بالعبريّة خلاف معناها بالعربيّة، فنهى الله المؤمنين عن قيلها للنبيّ ﷺ لئلا يجترىء من كان يريد السوء بهذا القيل.

قال أبو جعفر: وهذا تأويل لم يأت الخبر بأنّه كذلك من الوجه الذي تقوم به الحجّة. فالذي هو أُولى بتأويل الآية ما وصفناه، وكان هو الظاهر المفهوم من الآية.

قال: وقد حكي عن الحسن البصري أنّه قرأ «راعناً» بالتنوين، من الرعونة وهي الحمق والجهل لكنّها قراءة تخالف قراءة سائر المسلمين، ولا هي جائزة، لشذوذها وخروجها عن قراءة المتقدّمين والمتأخّرين وخلاف ما قامت به الحجّة من المسلمين.(١)

قوله تعالى: ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

هذه الآية الكريمة تكشف للمسلمين عمّا تكنّه لهم صدور اليهود حولهم، وكذا المشركون، من الشرّ والعداء والبغضاء، وعمّا تَنْغَلُ(٢) به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب أن اختص الله هذه الأمّة من الفضل والرحمة والبركة فليحذروا أعداءهم، وليستمسكوا بما حسدتهم الأعداء عليه من الإيمان والالتفاف حول محور التوحيد: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فليشكروا الله عليه وليستديموا على الحفاظ عليه.

---

(١) الطبري ١: ٦٥٦ ـ ٦٥٧.

(٢) يقال: نَغِلت نيّتُه إذا ساءت. ونَغِلَ قلبُه عليه إذا ضغن وحقد عليه.

﴿وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ﴾: هو أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: حيث أنعم على هذه الأمّة بأفضل النعم وهي النبوّة الخاتمة لرسالات الله الباقية مع بقاء الدهر والشاملة لكافّة الخلائق على مدى الأعصار والأدوار ﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ كما في سورة الفتح ٤٨: ٢٨ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (كما في سورتي التوبة ٩: ٣٣ والصفّ ٦١: ٩). كرّرت الآية ثلاث مرّات!!

[٢٩١٨/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ منهم قيس بن عمرو، وعازار بن ينحوم، وذلك أنّ الأنصار دعوا حلفاءهم من اليهود إلى الإسلام، فقالوا للمسلمين، ماتدعونا إلى خير ممّا نحن عليه، وددنا أنّكم على هدى وأنّه كما تقولون!! فكذّبهم الله ـ سبحانه ـ فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ يعني دينه الإسلام ﴿مَن يَشَاء﴾ نظيرها في هل أتى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾[1] يعني في دينه الإسلام فاختصّ المؤمنين ﴿وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فاختصّهم لدينه.[2]

[٢٩١٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ﴾ قال: القرآن والسلام.[3]

[٢٩٢٠/٢] وهكذا روي عن الإمام أميرالمؤمنين ﷺ وابن عبّاس ومجاهد وغيرهم: أنّها النبوّة خصّ الله بها محمّداً ﷺ أو الإسلام والقرآن والجميع واحد.[4]

---

(١) الإنسان ٧٦: ٣١.
(٢) تفسير مقاتل ١: ١٢٩.
(٣) الدرّ ١: ٢٥٤؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٩ / ١٠٥١.
(٤) مجمع البيان ١: ٣٣٧؛ التبيان ١: ٣٩١؛ القرطبي ٢: ٦١.

قال تعالى:

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

هذا ردّ على شبهة ألقتها اليهود، حينما واجهوا تغييراتٍ في أحكام وشرائع، كانت في شرائع سابقة، فنسختها شريعة الإسلام ومن جملة ما شمله النسخ، شريعة الاتّجاه إلى بيت المقدس في عبادة الصلاة، فتحوّلت إلى الكعبة المشرّفة. الأمر الذي أثار عجاجهم وسلبهم موضع الاعتبار بقبلتهم بالذات. زعموا أنّ الشرع السابق إن كان حقّاً، فيجب الثبات عليه أبداً ولو كان الشرع اللاحق حقّاً، فكيف العكوف على غيره سابقاً؟!

والجواب: أنّ كلا الأمرين حقّ، غير أنّ السابق كان حقّاً في ظرفه، واللاحق أيضاً حقّ في ظرفه. وهذا نظير تَبَدُّل وصَفاتِ الطبيب مع تغيير حالات المريض، فالوصفة السابقة لاتفيده في حالة أخرى لاحقة، وإن كانت حقّاً في ظرفها الخاصّ فلاتنافي أن يكون كلاهما حقّاً، كلٌّ في ظرفه و في ظلّ شرائطه الخاصّة.

وسواء أكانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة ـ كما يدلّ عليه السياق ـ أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض التشريعات والتكاليف، التي كانت تتابع نموّ الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطوّرة أم كانت خاصّة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في شريعة التوراة سواء أكانت المناسبة إحدى هذه أو جميعها، فإنّ اليهود اتّخذتها ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة وقد ردّ عليها القرآن في بيان حاسم بشأن النسخ والتعديل، والقضاء على تلك الشبهات التي أثارتها اليهود...

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشريّة، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها والله خالقهم وهو أعرف بصالحهم.

فإذا نَسَخ آية ـ شريعةً. إذ كُلّ شِرْعَةٍ آيةٌ ـ أو أنساها ـ ذهبت عن الأذهان لتقادم عهدها ـ فإنّه تعالى ـ لمقام حكمته ولطفه بعباده ـ يأتي بأفضل منها إذا ما لوحظا معاً بالنسبة إلى شرائط حاضرة،

فإنّ القديم لايصلح علاجاً لمشاكل حاضرة، وإنّما ينفعها شرع جديد. وهو خير لها.

أو هي مثلها، إذا ما لوحظ كلٌّ في ظرفه. فالقديم للقديم والجديد للجديد.. فهذا الجديد مثل القديم، في كونه علاجاً لمشاكل حاضرتها.

وهذا كلّه يدلّ على حكمة بالغة لاحظها الشارع الحكيم لأنّه القادر على كلّ شيء والمالك لكلّ شيء من أرض وسماء وما بينهما أجمع وأن ليس هناك لكافّة الخلائق، وليّ يتولّى شؤونهم في الحياة، ولا نصير ينصرهم عند الموبقات.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ﴾.

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأنّ الله هو وليّهم وناصرهم، وليس من دونه وليّ ولانصير فلا يتولّوا غيره ولا يأملوا النصر إلّا من عنده. فإنّ في ذلك الفوز والنجاح والسعادة في الحياة.

* * *

والفرق بين النسخ والإنساء: أنّ النسخ فيما لو كان المنسوخ معهوداً بعدُ، وأمّا الإنساء فنسخٌ لشرعٍ تقادم عَهْدُه وذَهَبَ عن الأذهان، فخلفه شرع جديد، وفق شرائط حاضرة، كان أصلح وأتمّ.

ولكن جاء في أحاديث السلف ما ظاهره المنافاة.

[٢/٢٩٢١] أخرج ابن أبي حاتم عن طريق محمّد بن الزبير الحرّاني عن الحجّاج الجزري عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: كان ممّا ينزل على النبيّ ﷺ الوحيُ بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.(١)

ورواه ابن عساكر في ترجمة محمّدبن الزبير(٢). وهكذا ابن عديّ فيما ترجم له في الضعفاء، وقال: منكر الحديث.(٣)

قلت: لاشكّ أنّه حديث منكر لايرويه إلّا مُنْكَرُ الحديث.

[٢/٢٩٢٢] وأنكر منه ما أخرجه الطبراني عن سالم عن أبيه عبدالله بن عمر قال: قرأ رجلان من

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢٠٠/ ١٠٥٨؛ الدرّ ١: ٢٥٤. (٢) ابن عساكر ٥٣: ٣٩؛ ابن كثير ١: ١٥٥.

(٣) الكامل في الضعفاء ٦: ٢٣٨ ـ ٢٣٩ / ٩٤ ـ ١٧١٥.

الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكانا يقرآن بهما. فقاما يقرآن ذات ليلة يصلّيان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إنّهما ممّا نُسخ أو أُنسي، فالهوا عنه!»[1]

وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد باب القراءات وعقّبه بقوله: وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك[2] وكذا أخرجه ابن كثير وقال: سليمان بن أرقم ضعيف.[3]

[٢٩٢٣/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو ذرّ الهروي في فضائله عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أنّ رجلاً كانت معه سورة، فقام من اللّيل، فقام بها فلم يقدر عليها، وقام آخر بها يقرأ بها فلم يقدر عليها، وقام آخر فلم يقدر عليها، فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ فاجتمعوا عنده فأخبروه، فقال: إنّها نُسخت البارحة.[4]

[٢٩٢٤/٢] وأخرج أبو داوود في ناسخه والبيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أبي أمامة: أنّ رهطاً من الأنصار من أصحاب النبيّ ﷺ أخبروه أنّ رجلاً قام من جوف الليل يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها، فلم يقدر منها على شيء إلّا بسم الله الرحمان الرحيم، ووقع ذلك لناس من أصحابه، فأصبحوا فسألوا رسول الله ﷺ عن السورة، فسكت ساعة لم يرجع إليهم شيئاً. ثمّ قال: نُسِخَت البارحة، فنُسِخَت من صدورهم، ومن كلّ شيء كانت فيه.[5]

[٢٩٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: إنّ نبيّكم ﷺ أُقرِئ قرآناً ثمّ أنسيه، فلم يكن شيئاً، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرأونه![6]

---

(١) الكبير ١٢: ٢٢٣ / ١٣١٤١ (ترجمة سالم)؛ الأوسط ٥: ٤٨ / ٤٦٣٧.

(٢) مجمع الزوائد ٧: ١٥٤.

(٣) ابن كثير ١: ١٥٤.

(٤) الدرّ ١: ٢٥٦؛ مسند الشاميين ٤: ١٦١ / ٣٠٠١، بتفصيل؛ نواسخ القرآن، ابن الجوزي: ٣٤؛ القرطبي ١: ٦٣؛ البغوي ١: ١٥٣ / ٧٣، بمعناه؛ أبوالفتوح ٢: ١٠٣؛ الثعلبي ١: ٢٥٤؛ قال: رواه أبو أمامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيدبن المسيّب.

(٥) الدرّ ١: ٢٥٦؛ الدلائل ٧: ١٥٧، باب ماجاء في تأليف القرآن؛ نواسخ القرآن، ابن الجوزي: ٣٣؛ الوسيط ١: ١٨٩.

(٦) الدرّ ١: ٢٥٦؛ الطبري ١: ٦٦٥ / ١٤٤٨؛ التبيان ١: ٣٩٦؛ مجمع البيان ١: ٣٤٠، إلى قوله: «فلم يكن شيئاً...».

[٢٩٢٦/٢] وأخرج أبو داوود وابن جرير عن أبي العالية قال: يقولون: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ كان الله أنزل أُموراً من القرآن ثمّ رفعها.(١)

[٢٩٢٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن المنذر عن الضحّاك قال: في قراءة ابن مسعود: «ما ننسك من آية أو ننسخها»(٢). وهكذا في قراءة أبيّ بن كعب.

[٢٩٢٨/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: كان الله ـ عزّ وجلّ ـ يُنسي نبيّه ﷺ ما يشاء وينسخ ما يشاء.(٣)

[٢٩٢٩/٢] وأخرج عبد بن حميد و أبو داوود في ناسخه وابن جرير عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبيّ الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة، ثمّ ترفع فيُنْسيها اللهُ نبيَّه، فقال الله يقصُّ على نبيّه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.(٤)

قلت: لا شكّ أنّها تلفيقات معزوّة إلى السلف على غير أساس.

* * *

[٢٩٣٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ يقول: ما نبدّل من آية أو نتركها لانبدّلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.(٥)

[٢٩٣١/٢] وأخرج آدم بن أبي أياس و أبوداوود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٦؛ الطبري ١: ٦٦٧ / ١٤٥٦، عن الربيع بلفظ: «(نُنْسِها): نرفعها، وكان الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل أموراً من القرآن ثمّ رفعها».

(٢) الدرّ ١: ٢٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٩ / ١٠٥٤؛ ابن كثير ١: ١٥٤؛ مجمع البيان ١: ٣٤١؛ الطبري ١: ٦٦٦، بعد رقم ١٤٥١.

(٣) ابن كثير ١: ١٥٥؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٥ / ١٠٤، وفيه بعض التشويش في العبارة.

(٤) الدرّ ١: ٢٥٥؛ الطبري ١: ٦٦٦ و ٦٧١ / ١٤٥٢ و ١٤٦٨، بلفظ: «كان ينسخ الآية بالآية بعدها و يقرأ نبيّ الله ﷺ الآية أو أكثر من ذلك ثمّ تُنسى وتُرفع»؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٢ / ١٠٧٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٥ / ١٠٤ و ١٠٥؛ ابن كثير ١: ١٥٥.

(٥) الدرّ ١: ٢٥٥؛ الطبري ١: ٦٦٥ و ٦٦٧ ـ ٦٦٨ و ٦٧١ / ١٤٥٠ و ١٤٥٧ و ١٤٦٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠١ / ١٠٦٥ و ١٠٦٧؛ الأسماء والصفات: ٣٥٨، باب قول الله، لله الأمر من قبل ومن بعد؛ الثعلبي ١: ٢٥٥، في تفسير قوله ﴿نُنْسِهَا﴾ قال: «أي نتركها ولانبدّلها»؛ ابن كثير ١: ١٥٥.

في الأسماء والصفات عن مجاهد عن أصحاب ابن مسعود في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قال: نُثبّت خطّها ونُبدّل حكمها، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: نؤخّرها عندنا.[(١)]

قلت: هذا من نسخ الحكم دون التلاوة. وهو مرفوض عندنا. حسبما شرحناه في التمهيد.

[٢/٢٩٣٢] وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا يُعمل بها، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نُرجئها عندنا، نأت بها أو بنظيرتها.[(٢)]

[٢/٢٩٣٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: خطبنا عمر فقال: يقول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نؤخّرها.[(٣)] وهكذا قال عطاء.[(٤)]

[٢/٢٩٣٤] وذكر الطوسي عن أبي عبيدة قال: معنى «ننسأها» أي نُمضيها فلا ننسخها.[(٥)]

[٢/٢٩٣٥] وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «نُنسها» قال: أي نمحو من آية.[(٦)]

[٢/٢٩٣٦] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: «ننسها» قال: نَمحُها.[(٧)]

[٢/٢٩٣٧] وأخرج البخاري والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس قال: قال عمر: أقرأُنا أُبيّ، وأقضانا عليّ، وإنّا لَنَدَعُ شيئاً من قراءة أبيّ، وذلك أنّ أُبيًّا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.[(٨)]

يعني: أنّا لنترك شيئاً من قراءة أبيّ، تركاً عن إنساء، أي كانت تُقرَأ على حياة الرسول ﷺ

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٥؛ الطبري ١: ٦٦٦ بعد رقم ١٤٥١، بلفظ: «قالوا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نثبت خطّها ونبدّل حكمها»؛ ابن أبي حاتم ١: ١٩٩ ـ ٢٠٠ / ١٠٥٥ و ١٠٦٢، إلى قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ الأسماء والصفات: ٣٥٨؛ ابن كثير ١: ١٥٤ و ١٥٥، وعن أبي العالية أيضاً.

(٢) ابن كثير ١: ١٥٥.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠١ / ١٠٦٣، وكذا عن أبي العالية.

(٤) الطبري ١: ٦٦٨ / ١٤٦١؛ الثعلبي ١: ٢٥٦، وفيه: قرأ عمر بن الخطّاب وعُبَيد بن عُمَير وعطاء وابن كثير وأبو عمرو والنخعي: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فلا نؤخّرها ولا نبدّلها ولا ننسخها، وكذا عن مجاهد. الطبري ١: ٦٦٨؛ ابن كثير ١: ١٥٥.

(٥) التبيان ١: ٣٩٧؛ مجمع البيان ١: ٣٣٨؛ الثعلبي ١: ٢٥٦، بلفظ: «ننسها مجازه: نُمضيها لذكر ما فيه».

(٦) ابن أبي حاتم ١: ١٩٩ / ١٠٥٣.

(٧) الطبري ١: ٦٦٨ / ١٤٦٠.

(٨) الدرّ ١: ٢٥٤ ـ ٢٥٥؛ البخاري ٥: ١٤٩، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ النسائي ٦: ٢٨٩ / ١٠٩٩٥، كتاب التفسير؛ الدلائل ٧: ١٥٥، باب ما جاء في تأليف القرآن و...؛ ابن عساكر ٧: ٣٢٥، ترجمة أبيّ بن كعب، رقم ٥٥٨؛ كنزالعمّال ٢: ٥٩٢ / ٤٨٠٧.

فاليوم نسيناها، وقد أنسانا الله لها.

[٢٩٣٨/٢] وروي عن الإمام أبي جعفر الجواد ﷺ قال: «قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي نرفع حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بأن نرفع رسمها ونُزيل عن القلوب حفظها، وعن قلبك يا محمّد، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ. إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾[1] أن ينسيك فرفع ذكره عن قلبك.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ يعني بخير لكم. فهذه الثانية أعظم لثوابكم وأجلّ لصلاحكم من الآية الأُولى المنسوخة. ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في الصلاح لكم أي إنّا لاننسخ ولا نبدّل إلّا وغرضُنا في ذلك مصالحكم.

ثمّ قال: يا محمّد ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإنّه قدير يقدر على النسخ وغيره، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو العالم بتدبيرها ومصالحها وهو يدبّركم بعلمه ﴿وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي صلاحكم إذ كان العالم بالمصالح هو الله ـ عزّ وجلّ ـ دون غيره ﴿وَ لَا نَصِيرٍ﴾، و مالكم من ناصر ينصركم من مكروه إن أراد الله إنزاله بكم أو عقاب إن أراد إحلاله بكم.

وقال الإمام أبو جعفر الباقر ﷺ: وربما قدّر عليه النسخ والتنزيل لمصالحكم ومنافعكم لتؤمنوا بها ويتوفّر عليكم الثواب بالتصديق بها، فهو يفعل من ذلك ما فيه صلاحكم والخيرة لكم.

ثمّ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمّد ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو يملكهما بقدرته ويصلحهما بحسب مشيئته، لا مقدّم لما أخّر ولا مؤخّر لما قدّم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَ مَا لَكُم﴾ يا معشر اليهود والمكذّبين بمحمّد ﷺ والجاحدين لنسخ الشرائع ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي مصالحكم إن لم يَلِ لكم ربّكم المصالح ﴿وَ لَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم من دون الله فيدفع عنكم عذابه».[2]

كلام عن النسخ في القرآن

للنسخ مصطلحان قديم و حادث، فقد تعارف السلف على التعبير بالنسخ عن أيّ تغيير في حكم سابق، تخصيص أو تقييد أو الرفع رأساً.

---

(١) الأعلى ٨٧: ٦ ـ ٧.

(٢) البرهان ١: ٣٠٢ ـ ٣٠٣ / ١؛ تفسير الإمام: ٤٩١ ـ ٤٩٢ / ٣١١؛ البحار ٤: ١٠٤ / ١٨، وفيه: إن لم يدلّكم ربّكم للمصالح.

[٢٩٣٩/٢] ومنه قول الإمام أميرالمؤمنين ﷺ وقد مرّ على قاضٍ بالكوفة، فسأله: هل تعرف الناسخ عن المنسوخ؟ فقال: لا. فقال له الإمام: «إذن هلكت وأهلكت. وأضاف: تأويل كلّ حرف من القرآن على وجوه».(١)

ولعلّ هذا القاضي هو أبو يحيى المعرّف، كما جاء في حديث سعيد بن أبي الحسن: أنّ أبا يحيى قال له: أنا هو وذكر القصّة.(٢)

حيث مراده ﷺ أنّ في القرآن عامّاً وخاصّاً وإطلاقاً وتقييداً وإجمالاً وتفصيلاً ونحو ذلك، ممّا يتغيّر به المعنى عند المقارنة. يدلّ على ذلك ذيل كلامه ﷺ: «تأويل كلّ حرف من القرآن على وجوه» أي ينصرف تفسير كلّ آية إلى وجوه من عموم و خصوص وإطلاق وتقييد وأيّ تغيير، عند ملاحظة النسب القائمة بين مختلف الآيات الأمر الذي يجب التفطّن له عند الاستنباط.

ومن الطبيعيّ وقوع مثل هذا النسخ في القرآن وفي الحديث لا محالة و من ثَمَّ لايجوز الأخذ بأيّ عموم أو إطلاق في القرآن أو في الحديث، إلّا بعد الفحص عن المخصِّص أو المقيِّد، واليأس عنه. هذا أمر معروف لاغبار عليه.

إنّما الكلام في النسخ المصطلح عند المتأخّرين، أي رفع الحكم السابق رأساً وبحذافيره. ليخلفه حكم جديد تماماً.

مثل هذا النسخ، إن لوحظ بالنسبة إلى شرائع سابقة ولا حقة، أو في شريعة بالذات، ليرتفع حكم ويخلفه حكم آخر تماماً.. فلعلّ وقوع مثل هذا النسخ أيضاً طبيعيّ. إذ من طبيعة الحركة الإصلاحيّة الآخذة في طريق التقدّم والاكتمال، أن يتوارد على تشريعاتها تغييرات ونَسْخٌ متتابع، حسب تدرّجها التصاعدي نحو قمّة الكمال.

وهل شملت ظاهرة النسخ ـ بهذا المعنى ـ القرآن الكريم، بأن تنسخ آيةٌ آيةً أخرى نزلت بعدها فرفعت حكمها تماماً؟! الأمر الذي لانكاد نصدّقه ولاكان له شاهد في كتاب الله. إنّ كتاب الله دستور خالد عامّ ولا معنى لأن توجد فيه آية منسوخة المفاد، لا فائدة في ثبتها سوى القراءة والترتيل.

وما ذكروه شاهداً لذلك، فأكثره الغالب من النسخ بمصطلحه القديم. أمّا النسخ بمصطلحه

---

(١) العيّاشي ١: ١٢ / ٩.

(٢) رسالة الناسخ والمنسوخ لابن حزم، بهامش تفسير الجلالين ٢: ١٥٠.

الحديث فلم يذكروا له شاهداً صالحاً للاعتماد وهي بضع آيات زعموا نسخها ممّا وقع موضع البحث والنقاش. ولنذكرها ونذكر دلائلهم على النسخ، لنضع اليد على مواضع الضعف منها.

* * *

ذكروا للنسخ في القرآن أنحاءً ثلاثة:

١ ـ نسخ الحكم والتلاوة معاً

بأن تسقط من القرآن آية كانت ذات حكم تشريعيّ، وكان المسلمون يتداولونها ويقرأونها ويتعاطون حكمها ثمّ نُسخت وبطل حكمها ومحيت عن صفحة الوجود.

هذا النوع من النسخ مرفوض عندنا البتّة، ويتحاشاه الكتاب العزيز الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[١]

وقد حاول بعض القدامى من أهل الحديث[٢]، وهكذا لفيف من المحدّثين غير المحقّقين[٣] إثبات هذا النوع من النسخ في القرآن، بحجّة مجيئه في حديث صحيح الإسناد إلى عائشة، أنّها قالت:

[٢٩٤٠/٢] كان فيما أُنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرّمن» .ثمّ نُسخن بخمس معلومات قالت: وتوفّي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يُقرأ من القرآن![٤]

قلت: هذا شيء عجيب، كيف يلتزم به من لا يرى التحريف في كتاب الله!؟ إذ يرجع إثبات مثل هذا النوع من النسخ، إلى القول بسقوط آيات من الذكر الحكيم، بعد وفاة سيّد المرسلين، وكانت تقرأ حتّى ما بعد وفاته ﷺ فأنسئت لا عن سبب معروف.

والغريب أنّ الشيخ الزرقاني حاول إثبات مثله بحجّة إجماع القائلين بالنسخ من المسلمين، وبدليل وقوعه سماعاً[٥]!

غير أنّ المحقّقين من العلماء أبطلوا مثل هذا النوع من النسخ رأساً، بدليل استلزامه التحريف

---

(١) فصّلت ٤١: ٤٢.

(٢) راجع: الإتقان ٣: ٦٣.

(٣) راجع: مناهل العرفان ٢: ٢١٤.

(٤) راجع: مسلم ٤: ١٦٧ و الترمذي ٣: ٤٥٦.

(٥) مناهل العرفان ٢: ٢١٤.

والتغيير في كتاب الله بعد وفاة الرسول ﷺ وحاولوا تأويل الحديث الوارد بذلك.

بينما الآخرون ضربوا به عرض الجدار، لأنّه خبر واحد يؤدّي إلى التلاعب بالقرآن الكريم.

قال الإمام الزركشي: وقد تكلّموا في قولها: «وهنّ ممّا يقرأن»، فإنّ ظاهره بقاء التلاوة حتّى ما بعد وفاة الرسول، وليس كذلك! فمنهم من أجاب بأنّ المراد: قارب الوفاة قال: والأظهر أنّ التلاوة نسخت أيضاً ولم يبلغ ذلك كلّ الناس إلّا بعد وفاته ﷺ فتوفّي وبعض الناس يقرأها!

قال: وحكى القاضي أبوبكر في «الانتصار» عن قوم إنكار هذا القسم، لأنّ الأخبار فيه آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لاحجّة فيها.[١]

وهكذا زعمت أنّ لفظة «متتابعات» كانت مثبتة في المصحف واُسقطت فيما اُسقطت منه.

[٢٩٤١/٢] أخرج البيهقي والدار قطني وصحّحه بالإسناد إلى ابن شهاب عن عروة عن عائشة، قالت: نزلت الآية[٢] ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ مُتَتَابِعات﴾. فسقطت «متتابعات»[٣].

وحمله ابن حزم والبيهقي على إرادة النسخ، أي نسخ الحكم والتلاوة معاً؛ وهو حمل غير وجيه. وظاهر كلامها ـ إن صحّ الحديث ـ إرادة الإسقاط على عهد الصحابة ولا سيّما عهد عثمان فيما اُسقط من المصحف، كما زعموا، وقد زيّفناه آنفاً.

[٢٩٤٢/٢] وجعل الواحدي من هذا النوع ـ أيضاً ـ ما روي عن أبي بكر، قال: كنّا نقرأ: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر».[٤]

قال الإمام السرخسي: لا يجوز هذا النوع من النسخ في القرآن عند المسلمين. وقال بعض الملحدين ممّن يتستّر بإظهار الإسلام ـ وهو قاصد إلى إفساده ـ: هذا جائز بعد وفاته ﷺ أيضاً، واستدلّ بما روي عن أبي بكر، كان يقرأ: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفربكم». وأنس كان يقول: قرأنا في القرآن: «بلّغوا عنّا قومنا إنّا لقينا ربّنا فرضي عنّا وأرضانا». وقال عمر: قرأنا آية الرجم في

---

(١) البرهان ٢: ٣٩ـ ٤٠.

(٢) البقرة ٢: ١٨٤.

(٣) أخرجه عبدالرزّاق في المصنّف ٤: ٢٤١ ـ ٢٤٢. والدار قطني من طريقه في السنن ٢: ١٩٢. قال: هذا إسناد صحيح. والبيهقي في الكبرى ٤: ٢٥٨. وابن حزم في المحلّى ٦: ٢٦١ م: ٧٦٨.

(٤) البرهان ٢: ٣٩.

كتاب الله ورعيناها. وقال أبيّ بن كعب: إنّ سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة أو أطول منها!!

قال: والشافعي، لايُظَنُّ به موافقة هؤلاء في هذا القول، ولكنّه استدلّ بما هو قريب من هذا في عدد الرضعات[١]؛ فإنّه صحّح مايُروى عن عائشة وأنّ ممّا أُنزل في القرآن «عشر رضعات معلومات يحرّمن» فنسخن بخمس رضعات معلومات، وكان ذلك ممّا يُتلى في القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قال: والدليل على بطلان هذا القول قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ومعلوم أنّه ليس المراد الحفظ لديه تعالى، فإنّه يتعالى من أن يوصف بالغفلة أو النسيان، فعرفنا أنّ المراد الحفظ لدينا... وقد ثبت أنّه لا ناسخ لهذه الشريعة بوحي ينزل بعد وفاة الرسول ﷺ.

ولو جوّزنا هذا في بعض ما أوحي إليه لوجب القول بتجويز ذلك في جميعه، فيؤدّي ذلك إلى القول بأن لايبقى شيء ممّا ثبت بالوحي بين الناس، في حال بقاء التكليف! وأيّ شيء أقبح من هذا؟! ومن فتح هذا الباب لم يأمن أن يكون بعض ما بأيدينا اليوم أو كلّه مخالف لشريعة رسول الله ﷺ بأن نسخ الله ذلك بعده، وألّف بين قلوب الناس، على أن ألهمهم ما هو خلاف شريعته! فلصيانة الدين إلى آخر الدهر، أخبر الله تعالى أنّه هو الحافظ لما أنزله على رسوله. وبه يتبيّن أنّه لا يجوز نسخ شيء منه بعد وفاته. وما يُنقل من أخبار الآحاد شاذّ لايكاد يصحّ شيء منها.

قال: وحديث عائشة لايكاد يصحّ، لأنّه (أي الراوي) قال في ذلك الحديث: وكانت الصحيفة تحت السرير، فاشتغلنا بدفن رسول الله ﷺ فدخل داجن البيت فأكله! ومعلوم أنّ بهذا لاينعدم حفظه من القلوب، ولايتعذّر عليهم إثباته في صحيفة أخرى! فعرفنا أنّه لاأصل لهذا الحديث.[٢]

قلت: في كلام هذا المحقّق كفاية في إبطال هذا الزعم، وأن لاحجّية في خبر واحد في هذا الشأن، ولاسيّما جانب مساسه بكرامة القرآن، واستلزام التلاعب بآيه الكريمة، بعد وفاته ﷺ. الأمر الذي تُبطله آية الحفظ وضمانه تعالى في حفظ كتابه من التحريف والزيادة والنقص، لأنّه كلامه المجيد، يجب أن يبقى معجزه خالدة ترافق الإسلام عبر الأبد.

قال الجزيري ــ ردًّا على الزعم المذكور ــ: إنّ المسلمين قد أجمعوا على أنّ القرآن هو ما تواتر

---

(١) وهكذا استدلّ أبو محمّدبن حزم بذلك في المحلّى ١٠: ١٥.

(٢) أصول السرخسي ٢: ٧٨ ــ ٨٠.

نقله. فكيف يمكن الحكم بكون هذا قرآناً!؟ فمن المشكل الواضح، ما يذكره المحدّثون من روايات الآحاد المشتملة على أنّ آية كذا كانت قرآنا ونُسخت! على أنّ مثل هذه الروايات قد مهّدت لأعداء الإسلام إدخال ما يوجب الشكّ في كتاب الله، من الروايات الفاسدة. فهذه وأمثالها ـ إشارة إلى حديث عائشة ـ من الروايات التي فيها الحكم على القرآن المتواتر بأخبار الآحاد. فضلاً عن كونه ضارّاً بالدين، فيه تناقض ظاهر.(١)

وقال الأستاذ السايس: ما رواه مالك وغيره عن عائشة أنّها قالت: كان فيما أنزل الله من القرآن عشر رضعات حديث لايصحّ الاستدلال به، لاتّفاق الجميع على أنّه لايجوز نسخ تلاوة شيء من القرآن بعد وفاته ﷺ وهذا هو الخطأ الصراح.(٢)

وقال تلميذة الأستاذ العريض: وهذا هو الصواب الذي نعتقده، وندين الله عليه، حتّى نقفل الباب على الطاعنين في كتاب الله تعالى، من الملاحدة والكافرين، الّذين وجدوا من هذا الباب نقرة يَلِجُون منها إلى الطعن في القرآن الكريم، وحتّى ننزّه كتاب الله تعالى عن شبهة الحذف والزيادة بأخبار الآحاد. فما لم يتواتر في شأن القرآن إثباتاً وحذفاً لااعتداد به، ومن هذا الباب نسخ القرآن بالسنة الآحاديّة، بل حتّى المتواترة عند بعضهم، ونرفض كلّ ما ورد من الروايات في هذا الباب، وماأكثرها، كما ورد في بعض الأقوال عن سورة الأحزاب وبراءة وغيرها.(٣)

٢ ـ نسخ التلاوة دون الحكم

بأن تسقط آية من القرآن الكريم، كانت تُقرأ، وكانت ذات حكم تشريعي، ثمّ نسيت ومُحيت عن صفحة الوجود، لكن بقي حكمها مستمرّاً غير منسوخ!

وهذا النوع من النسخ أيضاً عندنا مرفوض على غرار النوع الأوّل بلافرق، لأنّ القائل بذلك إنّما يتمسّك بأخبار آحاد زعمها صحيحة الإسناد، متغفلاً عن أنّ نسخ آية محكمة شيء، لايمكن إثباته بأخبار آحاد لاتفيد سوى الظنّ، وإنّ الظنّ لايُغني من الحقّ شيئاً.

هذا فضلاً عن منافاته لمصلحة نزول نفس الآية أو الآيات، إذ لو كانت المصلحة التي كانت

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ٣: ٢٥٧.
(٢) فتح المنّان: ٢١٦ ـ ٢١٧.
(٣) المصدر: ٢١٩.

تُقتضي نزولها هي اشتمالها على حكم تشريعيّ ثابت، فلماذا تُرفع الآية وحدها! في حين اقتضاء المصلحة بقاءها لتكون سنداً للحكم الشرعي الثابت!

ومن ثمّ فإنّ القول بذلك استدعى تشنيع أعداء الإسلام وتعبيرهم على المسلمين في كتابهم المجيد.

وأخيراً فإنّ الالتزام بذلك ـ حسب منطوق تلك الروايات ـ التزام صريح بتحريف القرآن الكريم، وحاشاه من كتاب إلّهي خالد، مضمون بالحفظ مع الخلود.

ولذلك فإنّ هذا القول باطل عندنا ـ معاشر الإماميّة ـ رأساً، لا مبرّر له إطلاقاً، فضلاً عن مساسه بقداسة القرآن المجيد.

قال سيّدنا الأستاذ ـ طاب ثراه ـ: أجمع المسلمون على أنّ النسخ لا يثبت بخبر الواحد، كما أنّ القرآن لا يثبت به. وذلك لأنّ الأمور المهمّة التي جرت العادة بشيوعها بين الناس وانتشار الخبر عنها، لا تثبت بخبر الواحد، فإنّ اختصاص نقلها ببعض دون بعض بنفسه دليل على كذب الراوي أو خطائه. وعلى هذا فكيف يثبت بخبر الواحد أنّ آية الرجم من القرآن وأنّها نُسخت؟! نعم جاء عمر بآية الرجم وادّعى أنّها من القرآن، لكن المسلمين لم يقبلوا منه. لأنّ نقلها كان منحصراً به، فلم يُثبتوها في المصاحف، لكنّ المتأخرين التزموا بأنّها كانت آية منسوخة التلاوة باقية الحكم.(١)

* * *

هذا ولكن جلّ علماء أهل السنّة بما فيهم من فقهاء كبار وأئمّة محققّين، التزموا بهذا القول المستند إلى لفيف من أخبار آحاد حسبوها صحيحة الإسناد، وهذا إيثار لكرامة القرآن على حساب روايات لاحجيّة فيها في هذا المجال، وإن فرضت صحيحة الإسناد في مصطلحهم، إذ صحّة السند إنّما تُجدي في فروع مسائل فقهيّة، لا إذا كانت تمسّ كرامة القرآن وتُمهّد السبيل لإدخال الشكوك على كتاب المسلمين.

هذا الإمام السرخسي ـ المحقّق الأصولي الفقيه ـ بينما شدّد النكير على القائل بالنسخ من النوع الأوّل، إذا هو يلتزم به في هذا النوع، في حين عدم فرق بينهما فيما ذكره من استدلال لبطلان الأوّل!

---

(١) البيان: ٣٠٤.

قال: وأمّا نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، فبيانه فيما قال علماؤنا: أنّ صوم كفّارة اليمين ثلاثة أيّام متتابعة، بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيّام متتابعات». وقد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة، ولكن لم يوجد فيها النقل المتواتر الذي يثبت بمثله القرآن، وابن مسعود لايُشَكُّ في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلّا أن نقول: كان ذلك ممّا يُتلى في القرآن ـ كما حفظه ابن مسعود ـ ثمّ انتسخت تلاوته في حياة رسول الله ﷺ بصرف القلوب عن حفظها إلّا قلب ابن مسعود، ليكون الحكم باقياً بنقله، فإنّ خبر الواحد موجب للعمل به، وقراءته لاتكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق.(١)

قلت: غير خفيّ وهن هذا الاستدلال وضعف هذا التأويل!

* * *

وفيما يلي عرض لها أسهبه ابن حزم الأندلسي بهذا الشأن وهو الإمام المحقّق صاحب مذهب واختيار، ومن ثمّ فإنّ ذلك منه غريب جدّاً.

قال: فأمّا قول من لايرى الرجم أصلاً فقول مرغوب عنه، لأنّه خلاف الثابت عن رسول الله ﷺ وقد كان نزل به قرآن، ولكنّه نُسخ لفظه وبقي حكمه. ثمّ يروي عن سفيان عن عاصم عن زرّ:

[٢٩٤٣/٢] قال: قال لي أبيّ بن كعب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: إمّا ثلاثاً وسبعين آية أو أربعاً وسبعين آية! قال: إن كانت لتقارن سورة البقرة، أو لهي أطول منها، وإن كان فيها لآية الرجم! قلت: أبا المنذر، وما آية الرجم؟ قال: «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم».

قال: هذا إسناد صحيح كالشمس لامغمز فيه.

ثمّ روى بطريق آخر عن منصور عن عاصم عن زرّ، وقال: فهذا سفيان الثوري ومنصور شهدا على عاصم، وما كذبا، فهما الثّقتان الإمامان البدران، وما كذب عاصم على زرّ، ولاكذب زرّ على أبيّ.

قال: ولكنّها نسخ لفظها وبقي حكمها، ولو لم ينسخ لفظها لأقرأها أبيُّ بن كعب زرّاً بلاشكّ،

---

(١) أُصول السرخسي ٢: ٨١.

ولكنّه أخبره بأنّها كانت تعدل سورة البقرة ولم يقل له: إنّها تعدل الآن، فصحّ نسخُ لفظها!

ثمّ يروي آية الرجم عن زيد وعمر بن الخطّاب ويقول: إسناد جيّد.

[٢/٢٩٤٤] ويروى عن عائشة، قالت: لقد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلمّا مات رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها!

قال: وهذا حديث صحيح. وليس هو على ماظنّوا، لأنّ آية الرجم إذ نَزَلت حُفظت وعُرفت وعمل بها رسول الله ﷺ إلّا أنّه لم يكتبها نُسّاخ القرآن في المصاحف، ولا أثبتوا لفظها في القرآن، وقد سأله (أي زيداً) عمرُبن الخطّاب ذلك فلم يُجبه! فصحّ نسخُ لفظها، وبقيت الصحيفة التي كُتبت فيها كما قالت عائشة، فأكلها الداجن ولا حاجة بأحد إليها.[١]

قلت: وإنّي لأستغرب هذا التمحّل الفاضح في كلام مثل هذا الرجل المعروف بالتحقيق ودقّة النظر والاختيار!

كيف يقول: لا حاجة إليها وهي سند حكم تشريعيّ ثابت! ثمّ كيف لايعلم بالآية أحد من كَتَبة الوحي ولم يكتبوها سوى أنّها كتبت في صحيفة وأودعت عند عائشة فحسب، وكيف أنّها تركتها تحت سريرها ليأكلها داجن البيت؟! كلّ ذلك لغريب يستبعده العقل السليم.

والذي غرّ هؤلاء: أنّها أحاديث جاءت في الصحاح الستّة وغيرها[٢]، ولابدّ لهم ـ وهم متعبّدون بما جاء فيها ـ أن يتقبّلوها على علّاتها مهما خالفت نهج النقد والتحقيق.

هذا وقد أكثر جلال الدين السيوطي[٣] من نقل هكذا رواياتٍ ساقطة، ومن قبله شيخه بدر الدين الزركشي ولكن مع شيء من الترديد[٤] وقد أخذها بعض الكاتبين المحدَثين أدلّة قاطعة من غير تحقيق. قال ـ متشدّقاً ـ: وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى، ثبت جوازهما، لأنّ الوقوع أعظم دليل على الجواز كما هو مقرّر. وإذن بطل ماذهب إليه المانعون له من ناحية الشرع، كأبي

(١) المحلّى ١١: ٢٣٤ـ ٢٣٦.

(٢) راجع: البخاري ٨: ٢٠٩ ـ ٢١٠ ومسلم ٥: ١١٦ و ٤: ١٦٧ والحاكم ٤: ٣٥٩. ومسند أحمد ١: ٢٣ و ٢: ٤٣ والترمذي ٤: ٣٩ و ٣: ٤٥٦.

(٣) راجع: الإتقان ٣: ٧٢ ـ ٧٥. و الدرّ ٤: ٣٦٦، ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ.

(٤) راجع: البرهان ٢: ٣٥ ـ ٣٧.

مسلم ومن لفّ لفّه، ويبطل كذلك ما ذهب إليه المانعون له من ناحية العقل، وهم فريق من المعتزلة شذّ عن الجماعة، فزعم أنّ هذين النوعين الأخيرين مستحيلان عقلاً.[١]

قلت: ما أشرف حكم العقل، لولا أنّ أمثال الزرقاني حصروه في أصحاب الاعتزال، وجعلوا من أنفسهم بمعزل عن نور العقل الحكيم!

وأمّا الأستاذ العريض فقد ذهب هنا مذهباً تحقيقيّاً وأسهب في الردّ على هذا القول الفاسد، دفاعاً عن كرامة القرآن. ونقل عن جماعة من معاصريه مواكبته على هذا الرأي السديد.[٢]

* * *

وبعد فإليك ما كتبناه بهذا الصدد، بشأن صيانة القرآن من التحريف، بحثاً وراء تفنيد مزعومتين: مزعومة نسخ التلاوة ومزعومة الإنساء: زعموا أنّ من آي القرآن ما نسخت تلاوتها ـ وإن كان بقي حكمها ـ كما أسلفنا، كما أنّ هناك من آي القرآن ما تُنُوسي، أنساها الله عن القلوب، كما هي مُحيت من صحائف القرآن؟!

وإليك ما كتبناه نصّاً (وفيه بعض التكرار لما سبق):

مزعومة نسخ التلاوة

هناك مزعومة لهج بها كثير من أصحاب الحديث وجماعة من أُصوليّ العامّة، حاولوا معالجة ما صحّ لديهم من روايات تنمّ عن ضياع كثير من آي القرآن، فحاولوا توجيهها بأسلوب مختلق، قالوا: إنّها من منسوخ التلاوة، ولو فرض الحكم باقياً مع الأبد. كما في آية «الرضعات العشر» وآية «رجم الشيخ والشيخة» وآية «لايملأ جوف ابن آدم إلّا التراب» وغيرهنّ كثير، حسبوها آيات قرآنيّة، كانت تُتلى على عهده ﷺ، لكنّها رُفعت فيما بعدُ ونُسيت عن الصدور، وإن بقي حكمُها واجبَ العمل أبداً. وبهذا الأُسلوب الغريب حاولوا توجيه ما عساه كان ثابتاً لديهم من صحاح الأحاديث[٣]. وأمّا علماؤنا المحقّقون فقد شطبوا على هكذا رواياتٍ تُخالف صريحَ القرآن، ولم

(١) راجع: مناهل العرفان ٢: ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) راجع: فتح المنّان: ٢٢٤ ـ ٢٣٠.

(٣) وللقاضي أبي بكر الباقلاني (توفّي سنة ٤٠٣) محاولة عريضة هنا بصدد الدفاع عن مواضع بعض السلف حيث نسب

←

يصحّ لديهم شيء من أسانيدها بتاتاً. ولأنّ كتاب الله العزيز الحميد أعزّ شأناً وأعظم جانباً من أن يحتمل التحريف!

هذا مضافاً إلى أنّ توجيه الغلط غلط آخر بل أفحش. الأمر الذي ارتكبه القوم مع الأسف!

هذا الإمام المحقّق الأُصولي محمّدبن أحمد السرخسي، بينما يُنكر أشدّ الإنكار مسألة وقوع النسخ بعد وفاة الرسول ﷺ ـ كما عرفت ـ تراه يعترف بمسألة نسخ التلاوة دون الحكم، ويؤوّلها إلى إمكان سبق النسخ على الوفاة مع خفائه على الصحابة الأوّلين!

قال: وأمّا نسخ التلاوة مع بقاء الحكم فبيانه ـ فيما قال علماؤنا ـ: إنّ صوم كفّارة اليمين ثلاثة أيّام متتابعة، بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيّام متتابعات». وقد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة. ولكن لم يوجد فيه النقل المتواتر الذي يثبت بمثله القرآن. وابن مسعود لايُشَكُّ في عدالته وإتقانه. فلا وجه لذلك إلّا أن نقول: كان ذلك ممّا يُتلى في القرآن كما حفظه ابن مسعود، ثمّ انتسخت تلاوتُه في حياة الرسول ﷺ بصرف الله القلوب عن حفظها إلّا قلب ابن مسعود ليكون الحكم باقياً بنقله، فإنّ خبر الواحد موجب للعمل به، وقراءته لاتكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق.[1]

أُنظر إلى هذا التمحّل الباهت والتأويل الغريب:

أوّلاً: كلّ ما ذكره بهذا الصدد لايعدو تخرّصاً بالغيب من دون استناد إلى شاهد أو دليل قاطع، ومن ثَمَّ فهي محاولة فاشلة تجاه أمر واقع ـ فيما حسبوا صحّته ـ الأمر الذي يُشبه علاج القضيّة بعد وقوعها علاجاً من غير جدوى.

ثانياً: إذا كانت القراءة مشهورة إلى عهد متأخّر، فهي كسائر القراءات المشهورة عن أصحابها تصبح حجّةً ـ في مصطلحهم ـ و لايجب ثبوتها بالتواتر عن الرسول ﷺ كما أسلفنا: أنّ القراءات المعروفة ليست متواترة لا عن عهد الرسالة ولا عن أربابها أيضاً. هذا مع كون القرآن بذاته متواتراً وفق قراءة المشهور.

← إليهم من القول بنقص الكتاب عمّا كان عليه في حياة الرسول ﷺ من قبيل آية الرجم وغيرها. فحاول إثبات أنّها من منسوخ التلاوة إن صحّت النسبة. وإلّا فهو محال باطل. راجع «نكت الانتصار» له: ٩٥ ـ ١٠٨.

(١) أُصول السرخسي ٢: ٨٠.

ومن ثمّ فكلام الإمام السرخسي بهذا الصدد يبدو متناقضاً.

ثالثاً: أسلفنا أنّ الزيادات في كلام السلف ولا سيّما مثل ابن مسعود، إنّما كانت زيادات تفسيريّة لا عن قصد أنّها من نصّ الوحي، وربّما اعتمدها بعضُ الفقهاء اعتباراً بفهم صحابيّ كبير، لا بنقله، كما وهمه هذا الإمام!

رابعاً: يقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1] ولانسخ فيما لايكون هناك ناسخ. وهكذا لا نسخ في غير الأحكام حسبما مرّت عليك من شرائط النسخ[2]. إذن فلنتساءل: ماذا يكون الناسخ هنا؟ وكيف ينسخ لفظ الآية ويبقى حكمها مع الأبد؟ وأيّ فائدة في نسخ اللفظ حينذاك وهو سند الحكم الذي يجب بقاؤه ما دام الحكم باقياً؟ وهذا عمدة الإشكال على هذه المزعومة وسيأتي مزيد توضيح لهذا الاعتراض.

* * *

وقال ابن حزم الأندلسي ـ بعد تسلّمه لصحّة ما زعمه آية الرجم وأنّها سقطت فيما سقطت من سورة الأحزاب التي كانت تعدل سورة البقرة أو أطول منها ـ: ولكنّها نسخ لفظُها وبقي حكمُها! قال: وقد توهّم قوم أنّ سقوط آية الرجم إنّما كان لغير هذا، و ظنّوا أنّها تلفت بغير نسخ. لما روي عن عائشة قالت: لقد نزلت آية الرجم والرضاعة فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلمّا مات رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها!

قال: وهذا حديث صحيح وليس على ما ظنّوا، لأنّ آية الرجم إذ نزلت حُفظت وعُرفت وعمل بها رسول الله ﷺ، إلّا أنّه لم يكتبها نُسّاخ القرآن في المصاحف ولاأثبتوا لفظها في القرآن، وقد سأله (أي زيداً) عمر بن الخطّاب ذلك فلم يجبه. فصحّ نسخ لفظها وبقيت الصحيفة التي كتبت فيها كما قالت عائشة فأكلها الداجن ولا حاجة بأحد اليها.

قال: فصحّ أنّ الآيات التي ذهبت، لو اُمر رسول الله ﷺ بتبليغها لبلّغها، ولو بلّغها لحفظت وما ضرّها موتُه، كما لم يضرّ موتُه كلَّ ما بلّغ من القرآن. وإن كان لم يبلّغ أو بلّغه فأنسيه هو والناس أو لم

(١) البقرة ٢: ١٠٦.

(٢) في الجزء الثاني من التمهيد: ٢٦٣ فما بعد.

ينسوه لكن لم يأمر أن يكتب في القرآن، فهو منسوخ بيقين، من عند الله تعالى، لا يحلّ أن يضاف إلى القرآن.[١]

هذه جلّ محاولات القوم في توجيه منسوخ التلاوة دون الحكم.

غير أنّ أثر الوهن باد عليها بوضوح:

أوّلاً: لا شكّ أنّ رجم المحصن حكم ثابت في الشريعة وأمر به رسول الله ﷺ ولم يزل عليه إجماع الفقهاء في القديم والحديث.

أمّا أنّ شريعة الرجم نزلت آيةً من القرآن، فهذا وهم وهمه ابن الخطّاب، ولم يوافقه على هذا الرأي أحد من الصحابة رغم إصراره عليه!

[٢٩٤٥/٢] يحدّثنا زيد بن ثابت، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنى الشيخ والشيخه فارجموهما البتة».

والمراد من الشيخ والشيخة هما الثيّب والثيّبة، كناية عن المتزوّج والمتزوّجة أي المُحْصَن. فهذا حديث سمعه زيد من رسول الله ﷺ ولم يقل: إنّه قرآن!

لكن ابن الخطّاب زعمه وحياً قرآنياً، يقول: لمّا نزلت أتيت رسول الله ﷺ فقلت: اكتبنيها! فلم يُجبه رسول الله. قال راوي الحديث: كأنّه كره ذلك.[٢]

قلت: لعلّ رسول الله ﷺ استغرب اقتراح عمر آنذاك الناشيء عن عدم تدبّره اللائق بشأن الكتاب، أو عدم إلمامه بمواضع الكتاب من السنّة، ومن ثمّ سكت تأنيباً له!

و أسوء منه ما فهمه ابن حزم من هذا الحادث، فحمل كراهته ﷺ على عدم رغبته في الثبت في المصحف. وإذاكان حكماً قرآنياً ثابتاً في الشريعة فلماذا لايثبت سنده في الكتاب؟ الأمر الذي تغافله ابن حزم، وحبّ الشيء يُعمي ويُصمّ!

ثانياً: لانسخ في غير الأحكام ـ كما سلف ـ فضلاً عن عدم فائدة متوخّاة من وراء هذا النسخ غير المعقول، إذ ماهي الحكمة في نسخ آية فيبقى حكمها ثابتاً بلا مستند مع الأبد! لولا أنّه اختلاق ألجأهم إليه ضيق الخناق.

---

(١) المحلّى ١١: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) المصدر: ٢٣٥.

لأنّ أصحاب تلك المزعومة استدلّوا لإمكان المسألة بجانب الوقوع[1] زاعمين صحّة تلكم الروايات ومن ثمّ حاولوا علاجها بهذا الأسلوب الغريب. وقد كانت قواعد الفنّ تقضي برفض أمثال تلكم الروايات التي تمسّ كرامة القرآن أوّلاً، وتنافي جانب ضرورة ثبوت القرآن في جميع آيه بالتواتر دون أخبار الآحاد ثانياً. وقد قيل في المثل: ثبّت العرش ثمّ انقش!

* * *

وقد تنبّه لضحالة هذه المزعومة الغريبة بعض كتّاب العصر، هو الأستاذ العريض ـ حسبما تقدّم ـ ناقماً وناقداً لها نقداً حكيماً. قال: وذهبت طائفة من العلماء إلى إنكار هذا النوع من النسخ وعدم وقوعه في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ لأنّه عيب لا يليق بالشارع الحكيم، لأنّه من التصرّفات التي لا تعقل لها فائدة، ولا حاجة إليها، وتنافي حكمة الحكيم.

قال: والحقّ يقال إنّ هذا النوع من النسخ وإن كان جائزاً عقلاً ولكنّه لم يقع في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ لأنّ هذه الروايات روايات آحاد، والقرآن الكريم لا يثبت بروايات الآحاد مهما كانت مكانة قائلها، ولابدّ فيه من التواتر، كما أجمع عليه العلماء قديماً وحديثاً. ولو أنّه صحّ ما قالوه لاشتهر بين الصحابة جميعاً، ولحفظه كثير منهم أو كتبوه في مصاحفهم. ولكن لم يرد شيء عن غير هؤلاء الرواة. فلا يمكن القطع بأنّ هذه الآيات التي ذكروها كانت مسطورة في عهد النبي ﷺ وفي صحف كتّاب الوحي ثمّ نسخت بعد ذلك ورفعت من المصحف ـ كما رواه بعض الصحابة ـ وبقي حكمها للعمل به. وأيضاً فإنّ الحكم لا يثبت إلّا من طريق النصّ، فزوال النصّ مقتضٍ لزوال الحكم، ولم يظهر لزوال النصّ وحده حكمة من عمل الحكيم لأنّ الحكم ما زال قائماً لم ينسخ. فأيّ فائدة في نسخ تلاوته؟

قال: ولعلّ ما قاله عمربن الخطّاب: «إنّا كنّا نقرأ في كتاب الله...» الكتب التي كان يحفظها هو وغيره، من باب المبالغة في تشبيه الأحكام التي قالها الرسول بالآيات القرآنية، لأنّ كلّاً من السنّة الصحيحة والقرآن الكريم واجب الطاعة. وقد كان من الصحابة من يكتب الحديث ليحفظه حتّى نهى الرسول ﷺ عن كتابة ما ليس بقرآن، إلّا ما كان في صحيفة عليّ بن أبي طالب؈، وهنا نستطيع أن نقول: بأنّ هذه الآية التي قالها عمر كانت أحكاماً حفظها عن الرسول بألفاظ

(١) راجع: مناهل العرفان ٢: ٢١٥ ـ ٢١٦.

الرسولﷺ، والتعبير بأنّها آية من كتاب الله مجاز، ولو كان ما قاله عمر من باب الحقيقة لا المجاز...[١].

وعبارته الأخيرة لاتخلو من طرافة بل وظرافة في التعبير أيضاً، لأنّه إيحاء إلى التباس التبس على عمر في هذا الحادث الجلل، حيث اشتبه عليه طلاوة كلام الرسولﷺ بحلاوة كلامه تعالى فظنّ من أحدهما الآخر، فبدلاً من أن يشبّه كلامهﷺ بكلام الله تعالى ويأخذه مجازاً على سبيل الاستعارة، أبدى اشتباهه في الأمر وظنّه حقيقة، وهو وهم فاحش لاسيّما وإصراره عليه حتّى آخر أيّام حياته!

* * *

وأخيراً فقد تنبّه ابن حزم أيضاً لخطئه في الدفاع الآنف، فحاول تلبيس الأمر بشكل آخر، قال: ولعلّ المراد بكلمة «آية» في قول عمر، هو الحكم الشرعي، باعتبار أنّهﷺ ﴿وَ مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢]. وليس مراده آية من نصّ الوحي القرآني. قال في كتابه «الأحكام» ما نصّه: قد قال قوم في آية الرجم، إنّها لم تكن قرآناً، وفي آية الرضعات كذلك، ونحن لا نأبى هذا، ولا نقطع أنّها كانت قرآناً متلوّاً في الصلوات. و لكنّا نقول: إنّها كانت وحياً أوحاه الله إلى نبيّه كما أوحي إليه من قرآن، فقرىء المتلوّ مكتوباً في المصاحف والصلوات، وقرىء سائر الوحي منقولاً محفوظاً معمولاً به كسائر كلامه الذي هو وحي فقط.[٣]

وقال في باب الرضاع من المحلّى: قالوا: قال الراوي: فمات عليه الصلاة والسلام وهنّ ممّا يقرأ من القرآن، قول منكر وجرم في القرآن، ولايحلّ أن يجوّز أحد سقوط شيء من القرآن بعد موت رسول اللهﷺ! فقلنا: ليس كما ظننتم، إنّما معنى ذلك: أنّه ممّا يقرأ مع القرآن وممّا يقرأ من القرآن الذي بطل أن يكتب في المصاحف[٤]. أي كان وحياً نظير القرآن غير أنّه لم يكن ممّا يكتب في المصحف.

إذن فقد رجع عن مسألة جواز نسخ التلاوة دون الحكم في القرآن، ولابدّ من الرجوع!

وإليك تصريحات أهل التحقيق من العلماء في إنكار هذا النوع من النسخ:

---

(١) فتح المنّان: ٢٢٤ـ ٢٢٦.
(٢) النجم ٥٣: ٤.
(٣) بنقل الأُستاذ العريض في فتح المنّان: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٤) المحلّى ١٠: ١٦ نقلاً بالمعنى. وتقدّم تفصيله.

قال ابن الخطيب: ومن أعجب العجاب ادّعاؤهم أنّ بعض الآيات قد نسخت تلاوتها وبقي حكمها، وهو قول لايقول به عاقل إطلاقاً! وذلك لأنّ نسخ أحكام بعض الآيات ـ مع بقاء تلاوتها ـ أمر معقول مقبول، حيث إنّ بعض الأحكام لم ينزل دفعةً واحدةً، بل نزل تدريجيّاً... .

أمّا ما يدّعونه من نسخ تلاوة بعض الآيات ـ مع بقاء حكمها ـ فأمر لايقبله إنسان يحترم نفسه، ويقدّر ما وهبه الله تعالى من نعمة العقل، إذ ما هي الحكمة في نسخ تلاوة آية مع بقاء حكمها؟! ما الحكمة في صدور قانون واجب التنفيذ، ورفع ألفاظ هذا القانون مع بقاء العمل بأحكامه؟!...[1].

وقال صدر الشريعة في كتابه «التوضيح»: منع بعض العلماء وجود المنسوخ تلاوة، لأنّ النسخ حكم والحكم بالنصّ، فلا انفكاك بينهما.

وفي كتاب «اللمع» في أُصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي: وقالت طائفة: لا يجوز نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، لأنّ الحكم تابع للتلاوة، فلايجوز أن يرفع الأصل ويبقى التابع.

وقال الشيخ محمّد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع الإسلامي»: لايجوز أن يَرِدَ النسخُ على التلاوة دون الحكم. وقد منعه بعض المعتزلة وأجازه الجمهور محتجّين بأخبار آحاد لايمكن أن تقوم برهاناً على حصوله. وأنا لا أفهم معنىً لآية أنزلها الله تعالى لتفيد حكماً ثمّ يرفعها مع بقاء حكمها! لأنّ القرآن يقصد منه إفادة الحكم والإعجاز بنظمه معاً. فما هي المصلحة في رفع آية منه مع بقاء حكمها! إنّ ذلك غير مفهوم، وقد أرى أنّه ليس هناك ما يدعو إلى القول به!

وقال الدكتور مصطفى زيد في كتابه «النسخ في القرآن الكريم»: ومن ثمّ يبقى «منسوخ التلاوة باقي الحكم» مجرّد فرض لم يتحقّق في واقعة واحدة، ولهذا نرفضه ونرى أنّه غير معقول ولا مقبول.

وقال الدكتور محمّد سعاد: لانستطيع الاقتناع بصحّة وجود المنسوخ تلاوة، الثابت حكماً، لأنّ صفة القرآنيّة لاتثبت لنصّ إلّا بدليل قطعيّ، والنسخ الوارد على القطعيّ لابدّ أن يكون قطعيّاً. فلابدّ لإثبات كون النصوص المذكورة قرآناً منسوخاً، من دليلين قطعيّين، أحدهما: دالّ على ثبوت القرآنيّة للنصّ، وثانيهما: دالّ على زوال هذه الصفة. وواحد من الدليلين لم يقم لواحد من تلك النصوص، فلا يتمّ كونه قرآناً منسوخاً. فلا يصحّ عندنا في موضع الخلاف إلّا القول بثبوت النسخ في الحكم دون التلاوة.

---

(١) الفرقان لمحمّد محمّد عبداللطيف المعروف بابن الخطيب: ١٥٦ـ١٥٧.

و في تفسير الآلوسي: والقول بأنّ ما ذكر إنّما يلزم منه نسخ التلاوة، فيجوز أن تكون التلاوة منسوخة مع بقاء الحكم ـ كآية الشيخ والشيخة ـ ليس بشيء لأنّ بقاء الحكم بعد نسخ لفظه يحتاج إلى دليل، وإلّا فالأفضل أنّ نسخ الدالّ يرفع حكمه.

ونقل العريض عن بعضهم: أنّ الحقّ أنّ هذا النوع من النسخ غير جائز، لأنّ الآثار التي اعتمدوا عليها لاتنهض دليلاً لهم، والآيتان (الرجم والرضاع) لاتسمحان بوجوده إلّا على تكلّف، ولأنّه يخالف المعقول والمنطق، ولأنّ مدلول النسخ وشروطه التي اشترطها العلماء فيه لاتتوفّر، ولأنّه يفتح ثغرة للطاعنين في كتاب الله تعالى من أعداء الإسلام الّذين يتربّصون به الدوائر وينتهزون الفرصة لهدمه وتشكيك الناس فيه. والعجيب أنّه قد وردت رواية عن عمر: ولولا أن يقال زاد عمر في المصحف لكتبتُها! فهذا الكلام يدلّ على أنّ لفظها موجود لم ينسخ، فكيف يقال إنّها ممّا نسخ لفظه وبقي حكمه! وهي موجودة ومسطّرة ومحفوظة على قولهم. ولو كانت آية من القرآن وتحقّق منها عمر لأثبتها من غير تردّد ولا وجل.

وبعد أن نقل الأستاذ العريض هذه الكلمات قال أخيراً: وأميل إلى هذا الرأي لأنّ الصواب في جانبه. فالمنسوخ تلاوة الثابت حكماً غير موجود في كتاب الله تعالى. فالحقّ عدم جوازه[١].

قلت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[٢] و ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾[٣]. والحمد لله ربّ العالمين.

مسألة الإنساء

ومزعومة أُخرى تشابه أختها في التعسّف والاختلاق، قالوا: من الآيات ما نُسيت من القلوب ولم يَعُدْ لها ذكرٌ في الصدور والأذهان.

وهذا نظير مسألة نسخ التلاوة التي مرّت آنفاً، حاولوا بذلك علاج ما رُويت لديهم من أحاديث ـ حسبوها صحاح الإسناد ـ تنمّ عن ضياع كثير من آيات القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ.

[٢٩٤٦/٢] فقد أخرج جلال الدين السيوطي بإسناده إلى عمر بن الخطّاب، قال لعبد الرحمان بن

---

(١) فتح المنّان: ٢٢٣ ـ ٢٣٠.

(٢) يوسف ١٢: ٥١.

(٣) الأعراف ٧: ١٤٩.

عوف: ألم تجد فيما أُنزل علينا: «أن جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة» فإنّا لانجدها؟ قال ابن عوف: أُسقطت فيما أُسقط من القرآن!

[٢٩٤٧/٢] وقال لأُبيّ بن كعب: أو ليس كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: «إنّ انتفاءكم من آبائكم كفر بكم»؟ فقال: بلى. ثمّ قال: أو ليس كنّا نقرأ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فيما فقدنا من كتاب الله؟ فقال أُبيّ: بلى!

[٢٩٤٨/٢] ومن ثمّ كان عبدالله بن عمر يقول: لا يقولنّ أحدكم قد أخذت القرآن كلّه، مايُدريه ما كلّه، قد ذهب منه قرآن كثير...[١].

[٢٩٤٩/٢] وقالت عائشة: كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي ﷺ مائتي آية فلمّا كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلّا ما هو الآن[٢].

وقالت ـ فيما زعمته قرآناً بشأن الرضعات ـ: فتوفّي رسول الله ﷺ وهنّ ممّا يقرأ من القرآن[٣] وأمثال ذلك كثير.

فقد حاول القوم توجيه ذلك كلّه بأنّها ممّا نُسيت وذَهَبَ حفظُها عن الصدور. ذكر ذلك جلال الدين السيوطي في ذيل قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾[٤].

والنسخ والإنساء تعبيران عن معنى واحد، غير أنّ الأوّل يعني رفع الشيء بعد ثبوته في الأعيان، والثاني ذهابه من الأذهان.

والآية الكريمة تعريض بأهل الكتاب، كانوا قد حاولوا التشكيك في معتقدات المسلمين: إنّ دين الله لا يتبدّل ولا يختلف فلا موضع لدين جديد.

فجاءت الآية ردّاً لهذه الشبهة: إنّ المصالح تختلف مادامت حياة الإنسان في تطوّر مستمرّ، فالشريعة القديمة إذا نسخت بشريعة جديدة، فإنّما هي لمصالح مقتضية، والكلّ حسب الشرائط الراهنة، علاجٌ نافع أو أتمّ.

وقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا...﴾ أي ذهبت معالمها عن صفحة الأذهان، بما تقادم عهدها وتمادّت مدّتها، ولم يعد لها ذكر في عالم الوجود.

---

(١) الدرّ ١: ١٠٦.
(٢) الإتقان ٢: ٤٠ـ٤١.
(٣) المحلّى ١٠: ١٤ـ١٦.
(٤) البقرة ٢: ١٠٦.

والنسخ والإنساء ظاهرتان دينيّتان، تخصّان عهد الوحي الممكن تبديل المنسوخ أو المنسي بمثله أو بأتمّ، أمّا و بعد انقطاع الوحي بوفاة الرسول ﷺ فلانسخ ولا إنساء البتّة، صرّح بذلك عامّة أهل الأُصول.

الأمر الذي يجعل من القول بضياع شيء من القرآن أو إسقاطه بعد انقضاء عهد الرسالة قـولاً بالتحريف الباطل لا محالة، ومن ثمّ نتحاشاه قطعيّاً بلا ترديد!

٣ـ نسخ الحكم دون التلاوة

بأن تبقى الآية ثابتة في المصحف يقرأها المسلمون عبر العصور، سوى أنّها من ناحية مفادها التشريعيّ منسوخة، لايعمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع لحكمها.

وهذا النوع من النسخ هو المعروف بين المفسّرين وهكذا الفقهاء ليدعوا الأخذ بهكذا آيـات حسبوها منسوخة الحكم.

الأمر الذي نستنكره جدّاً ـ كما استنكرنا النوعين الأوّلين ـ نظراً لاستلزامه اللغويّة في ثبت وإبقاء هكذا آيات قد بطلت رسالتها ولم يَعُدْ لوجودها أثرٌ ولا فائدة عائدة على المسلمين!!

هذا فضلاً عن استلزامه وجود اختلافٍ بيِّنٍ بَيْنَ آي الذكر الحكيم.. إذ لايكون نسخ إذا لم يكن تهافت بائن بين الناسخ والمنسوخ وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾.(١)

والنسخ، لايعرف إلّا عن طريق التهافت والاختلاف بين آيتين، لتكون اللاحقة نزولاً، ناسخة للسابقة. هكذا فرضوا وهكذا حسبوا!!

ولكن هل هناك بين آياتٍ زعموهنّ منسوخات، وآياتٍ حسبوهنّ ناسخات، تهافت وتباين؟ حاشا وكلّا!

مثلاً، حسبوا من آية الإمتاع إلى الحول للمتوفّى عنها زوجها، أنّها منسوخة، نسختها آيـات العدد والمواريث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.(٢)

---

(١) النساء ٤: ٨٢. (٢) البقرة ٢: ٢٤٠.

قالوا: كانت عدّة المتوفّى عنها زوجها ـ في الجاهليّة ـ سنة كاملة، وكان إذا مات الرجل ألقت المرأة بعرةً أو نحوها خلف ظهرها تعني أنّ البعل (تريد المتجدّد) أهون عليها من هذه فلا تكتحل ولا تتمشّط ولا تتطيّب ولا تتزوّج ولا تخرج من البيت إلى سنة وكان ورثة الميّت هم يكفلون شأنها ويجرون عليها الرزق من تركة زوجها طول السنة وكان ذلك هو إرثها من تركة زوجها المتوفّى، كما كان الحداد سنةً عدّتها[1].

قال السيد عبدالله شبّر: هذه الآية منسوخة بالإجماع[2].

وهناك روايات تنصّ على أنّها منسوخة، نسختها آية التربّص أربعة أشهر وعشراً، ونسختها آية المواريث، إن ثُمناً أو رُبعاً[3].

* * *

لكن سيّدنا الأستاذ الخوئي ـ طاب ثراه ـ رفض مثل هذا الاستنتاج العقيم، وضَعَّف رواياته، حيث لاسند لها معتبراً، كما لا عبرة بإجماع لايكشف عن نصّ قويم.

قال: والأظهر الأوفق بظاهر تعبير الآية وملابساتها، أنّها ندب إلى الإيصاء بشأن هذه المرأة، فلا يجفوها الورثة بزحزحتها عن مأواها الذي ألفته منذ حين، فليدعوها لتتمتّع بعيشها الراهن، ولاأقلّ إلى سنة، لتأخذ رشدها في ابتغاء عيشة ترضاها ومن ثمّ فإنّها إن عزمت على الخروج من طيبة نفسها، فالأمر لها وهي أعرف بشأنها.

وبذلك تعرف الفرق بين الاعتداد بأربعة أشهر وعشر ليال[4]، والإمتاع إلى الحول.[5]

فذاك كان حقّاً عليها مفروضاً وهذا حقٌّ لها ممنوح فلا منافاة كي يستدعي القول بالنسخ.[6]

قال سيّد قطب: هذه الآية تقرّر حقّ المتوفَّى عنها زوجها، في وصية منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، مدّة حول كامل، لاتخرج ولا تتزوّج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات

(١) راجع: الدرّ ١: ٦٩٣.

(٢) تفسيره الوجيز (ط مصر): ٧٦.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢: ٤٤٩ ـ ٤٥٢؛ ابن كثير ١: ٢٩٦ ذيل الآية؛ الوسائل ٢٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٩؛ وراجع: الطبري ٢: ٣٦٠ ـ ٣٦١ (ط بولاق). ذيل الآية: ٢٤٠ من سورة البقرة. وآية التربّص أربعة أشهر وعشراً في سورة البقرة ٢: ٢٣٤. وآية المواريث في سورة النساء ٤: ١٢.

(٤) والتي سبقت برقم ٢٣٤ من السورة.

(٥) هي الآية رقم ٢٤٠ من نفس السورة.

(٦) ذكر ذلك في حديث ضاف دار بيننا بمحضره الشريف.

المحيطة بها مايدعوها إلى البقاء وذلك مع حرّيتها في أن تخرج بعد أربعة أشهرٍ وعشر ليالٍ، كالذي قرّرته آية سابقة. فالعدّة فريضة عليها. والبقاء حولاً حقّ لها.

قال: وبعضهم يرى أنّ هذه الآية منسوخة بتلك.. ولا ضرورة لافتراض النسخ، لاختلاف الجهة كما رأيت. فهذه تقرّر حقّاً لها إن شاءت استعملته، وتلك تقرّر حقّاً عليها لا مفرّ منه.(١)

* * *

وهكذا أنكر بعض السلف أن تكون الآية منسوخة، نظراً لعدم تنافٍ بينها وبين آيات العِدَد والمواريث حيث الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً حقٌّ عليها مفروض لامفرّ لها منه. وأمّا الإمتاع إلى الحول فهو حقٌّ لها مسموح، ولها الإعفاء.

ومن ثمّ حملوا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ...﴾ على إرادة ما بعد انقضاء الأربعة أشهر وعشر، أي العدّة المفروض عليها فكان لها بعد ذلك أن تستوفي مدّتها إلى تمام الحول أو تعفيها لأنّ ذلك حقّ لها محضاً.

[٢ / ٢٩٥٠] أخرج أبو جعفر الطبري بالإسناد إلى مجاهد قال: التربّص أربعة أشهر وعشراً.. هذه للمعتدّة تعتدّ عند أهل زوجها، واجباً ذلك عليها وأمّا الإمتاع إلى تمام الحول: سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصيّة، إن شاءت سكنت في وصيّتها، وإن شاءت خرجت.. قال: والعدّة كما هي واجبة(٢) أي لامفرّ لها منها.

* * *

وقد تنظّر بعضهم فيما نقله أبو جعفر الطبري عن مجاهد، واحتمل أن يكون مجاهد أراد غير هذا المعنى، ممّا يتوافق مع المشهور. هكذا حسب ابن عطيّة قال: وألفاظ مجاهد التي حكاها الطبري لايلزم منها أنّ الآية محكمة، ولانصّ مجاهد ذلك، بل يمكن أنّه أراد: ثمّ نسخ ذلك بعدُ بالميراث.(٣)

وردّ عليه القرطبي قائلاً: ما ذكره الطبري عن مجاهد صحيح ثابت.

[٢ / ٢٩٥١] خرّج البخاري بالإسناد إلى شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كانت هذه العدّة

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٢١٢، مجلد ١: ٣٧٨.
(٢) الطبري (ط بولاق) ٢: ٣٦٢.
(٣) المحرّر الوجيز ١: ٣٢٦.

تُعتَدّ عند أهل زوجها واجبة. فأنزل الله آية الإمتاع إلى الحول، فجعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصيّةً، إن شاءت سكنت في وصيّتها وإن شاءت خرجت. قال: فالعدّة كما هي واجبة عليها.

زعم ذلك عن مجاهد.[١]

قال ابن حجر: قائل ذلك هو «شِبْل»، وفاعل «زَعَم» هو ابن أبي نجيح[٢].

غير أن القرطبي رجّح قول المشهور[٣] استناداً إلى رواية حسبها ظاهرة في ذلك ولأنّهم لايرون الوصيّة لوارثٍ، حسبما يأتي.

* * *

وكذلك تنظّر أبو مسلم محمّد بن بحر الأصفهاني، في أن تكون الآية منسوخة. وقال: إنّ معنى الآية: من يتوفّى منكم ويذر زوجاً وقد وصّى لها بالنفقة والسكنى حولاً، فهذا حقّ لها.

فإن خرجت قبل تمام الحول، بعد أن قضت عدّتها المضروب لها، فلا حرج. لأنّ إقامتها بهذه الوصيّة غير لازمة. قال: والسبب في ذلك أنّهم كانوا في الجاهليّة يوصون بالنفقة والسكنى حولاً كاملاً، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول فبيّن الله تعالى في هذه الآية أنّ ذلك غير واجب. قال: وعلى هذا التقدير فالنسخ زائل.

واستدلّ على مذهبه بوجوه:

أحدها: أنّ النسخ خلاف الأصل، فوجب المصير إلى عدمه مهما أمكن.

ثانيها: يجب أن يكون الناسخ متأخّراً نزولاً ـ وبعد فترة مضت على المنسوخ طبعاً ـ هذا وآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، جاء ثبتها في سورة البقرة برقم: ٢٣٤. في حين أنّ رقم ثبت آية الإمتاع إلى الحول: ٢٤٠.

قال: والأصل أنّ الثبت الحاضر متوافق مع ترتيب النزول وإلّا لتشوّش الثبت وعُدَّ من سوء الترتيب الأمر الذي يتنزّه عنه كلام الله الحكيم.

ويجب تنزيه كلامه تعالى عن كلّ شائبة وسوء نظم مهما استطعنا إلّا أن يدلّ دليل قاطع على

---

(١) البخاري ٦: ٣٦ ـ ٣٧ (تفسير سورة البقرة).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ٨: ١٤٥.

(٣) القرطبي ٣: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

خلافه ممّا نفقده هنا.

قال: فالأولى أن لايُحكم بكون آية الإمتاع منسوخة.

الوجه الثالث: قد ثبت في الأصول: أنّه إذا دار الأمر بين النسخ والتخصيص، كان التخصيص أولى[1] وهاهنا إن خصّصنا الآيتين كلّ آية بحالة تخصّها ـ كما فرضه مجاهد ـ كان أولى من التزام النسخ من غير دليل.

ورجّح الإمام الرازي قول أبي مسلم وجعله أظهر من قول المشهور، حيث الالتزام بالنسخ من غير ضرورة، التزام بما لايلزم مع أنّ القول بالنسخ يستدعي سوء الترتيب الذي يجب تنزيه القرآن عنه. قال: وهذا كلام واضح.[2]

* * *

وأورد صاحب المنار كلام أبي مسلم بطوله ـ حسب نقل الرازي ـ وعقّبه بقوله: فهذا تقرير قول أبي مسلم، وهو في غاية الصحّة ثمّ قال: أوردنا كلام الرازي بنصّه وإسهابه وإطنابه لما فيه من تفنيد قول الجمهور، بالحجج البيّنة التي يقتنع بها أولو الألباب.[3]

قال السيّد رشيد رضا: وهذا يتّفق مع التفسير المختار عند الأستاذ الإمام، وهو: أنّ الوصيّة للندب، لا للوجوب.[4]

* * *

وبعد فممّا يُبعّد قضيّة النسخ في الآية: أنّ ثبتها في سورة البقرة برقم: ٢٤٠، لدليلٌ على نزولها في عصر متأخّر، مايقرب من السَّنة الخامسة أو السادسة بعد الهجرة فلو كانت نزلت لتقرّر عادة جاهليّة سبقت الإسلام، لكان من شأنها النزول في إبّان التشريعات الإسلاميّة، أيّام كان المسلمون بعدُ لم يأنسوا بتشريعات حديثة، وقبل الهجرة بزمان. أو لا أقل في أُوليات سنيّ الهجرة.

هذا مع غضّ النظر عن غرابة ثبت المنسوخ بعد الناسخ، المستدعي تشويشاً في الثبت الراهن، وهو خلاف الأصل، فلا يُصار إليه إلّا بدليل.

---

(١) ذلك لأنّ التخصيص تفسير كاشف لجدّ المراد، أمّا النسخ فهو رفع الحكم نهائيّاً.

(٢) التفسير الكبير ٦: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) المنار ٢: ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٤) المصدر: ٤٥٠.

ولا دليل في المقام، نظراً لضعف ما ورد بذلك من روايات.

ومضافاً إلى أنّ المنسوخ يجب أن يكون إلزاماً، فيرتفع بالناسخ الذي هو إلزام آخر ينافيه.. لا إذا كان أمراً ندباً لا إلزام فيه، حيث صراحة الآية بذلك ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ...﴾ يعني: كان الأمر لها، إمّا تطالبه أو تعفيه كما قال العلّامة الطباطبائي: كان ذلك حقّاً لهنّ، والحقّ يجوز تركه. فكان لهنّ أن يطالبن به وأن يتركنه.[١]

وعليه فلاتنافي بين الآية وما حسبوه ناسخاً لها.

فالأظهر أنّ الآية لاتمسّ مسألة الاعتداد ولا الحداد، ولا هي ناظرة إلى عادة جاهليّة بائدة وإنّما هي شريعة إسلاميّة عريقة جاءت لتقرّر جانب السماح والإنصاف في سلوك الجماعة المسلمة، فليراعوا الحقوق المفروضة أو المندوب إليها برحب و سماح فإنّ المؤمن سهل القضاء وسهل الاقتضاء ـ كما في الحديث[٢] ـ ولا سيّما في مثل هذه المرأة المسكينة ـ والتي انهدم صرح شوكتها ـ فيراعوا جانبها برفق ولين ووئام.

ومن ثمّ فالأوفق بظاهر الآية أنّها نزلت بَعْدَ آية العِدَد، والتي كانت صارمة في التكليف الباتّ فجاءت هذه لترقّق وتلطّف جانب القضيّة ولتقرّر حقّاً لها إلى جنب ما كان عليها من حقّ مفروض.

فالصحيح ما ذهب إليه سيّدنا الأستاذ ـ طاب ثراه ـ من كون الآية ندباً إلى أمر مترجّح، تجاه آية العِدَد التي كانت صارمة وإلزاماً لا مفرّ منه.

* * *

كما أنّه ليس في ظاهر تعبير الآية أنّها تقرير لشريعة جاهليّة كانت سائدة فأقرّتها.

وهكذا ليس في روايات الباب مايشي بذلك، وأن كانت هناك آية قرّرت أمراً ثمّ جاء ناسخها وإنّما الروايات تحدّث عن شريعة إسلاميّة جاءت لتخفّف من شريعة جاهليّة كانت صعبة.

أمّا أنّ تلك الشرعة الباهظة كان قد أقرّها الإسلام يوماً ثمّ نسخها، فليس في رواياتنا ولا إشارة إليه:

[٢٩٥٢/٢] فقد روى محمّد بن يعقوب الكليني بالإسناد إلى أبي بصير عن الإمام أبي عبدالله

---

(١) الميزان ٢: ٢٥٩. هذا كلامه ﷺ ومع ذلك فرض الآية منسوخة! وهذا غريب ولعلّه متهافت مع فرض الندب! فتدبّر!

(٢) انظر: الفقيه ٣: ١٩٦ / ٣٧٣٧، عن النّبي ﷺ.

الصادق ﷺ سأله عن المرأة يتوفّى عنها زوجها، وتكون في عدّتها، أتخرج في حقّ؟ فقال ﷺ: «إنّ بعض نساء النبيّ ﷺ سألته، فقالت: إنّ فلانة توفّي عنها زوجها، فتخرج في حقّ ينوبها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: أفٍّ لكنّ، قد كُنْتُنَّ قَبْلَ أن أُبْعَثَ، أنّ المرأة منكنّ إذا توفّي عنها زوجها أخذت بعرة، فرمت بها خلف ظهرها وقالت: لا أمتشط ولا أكتحل ولا أختضب حولاً كاملاً. وإنّما أمرتكنّ بأربعة أشهر وعشرة أيّام، ثمّ لاتصبرن!! فقالت: يا رسول الله ﷺ فكيف تصنع إن عرض لها حقّ؟ قال: تخرج بعد الزوال وتعود عند المساء، فلاتبيت عن بيتها.

قال أبو بصير: قلت لأبي عبدالله ﷺ: أفتحجّ؟ قال: نعم».(١)

[٢٩٥٣/٢] وروى بالإسناد إلى محمّدبن مسلم قال: جاءت امرأة إلى أبي عبدالله ﷺ تستفتيه في المبيت في غير بيتها وقد مات زوجها؟ فقال: «إنّ أهل الجاهليّة كان إذا مات زوج المرأة أَحَدَّتْ عليه امرأته اثني عشر شهراً، فلمّا بعث الله محمّداً ﷺ رحم ضعفهنّ فجعل عدّتهنّ أربعة أشهر وعشراً، وأنتُنَّ لاتصبرن على هذا!!»(٢)

إلى غير ذلك من أحاديث أُثرت عن أئمّة أهل البيت ﷺ وليس فيها ولا إشارة إلى أنّ هناك كانت شريعة جاهليّة فأقرّها الإسلام يوماً ثمّ نسخها بعد. فتدبّر.(٣)

* * *

بقي الكلام عن مسألة الوصيّة: ما شأنها والحال هذه؟

وهل هذا ندب إلى الايصاء بشأنهنّ، أم توصية من الله ليرفق الورثة بحقهنّ؟

ظاهر تعبير الآية أنّه ندب إلى الايصاء، فعلى الأزواج إذا حضر أحدهم الموت أن يوصوا بشأن أزواجهنّ الإمتاع (السكنى والنفقة) حولاً، علاوة على ميراثهنّ بالأرباع أو الأثمان.

ونظير الآية في التعبير قوله تعالى ـ بشأن الوصيّة للوالدين والأقربين ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: إنّ معنى «كتب» هاهنا: الحثّ والترغيب، دون الفرض

---

(١) الكافي ٦: ١١٧ / ١٣. (٢) المصدر: / ١٠.

(٣) راجع: الكافي ٢: ١١٥ ـ ١١٨ في مجموعة روايات تبلغ أربعة عشر حديثاً.

(٤) البقرة ٢: ١٨٠.

والإيجاب. قال: وفي الآية دلالة على أنّ الوصيّة جائزة للوارث.[١] وسنتكلم عن الآية و عن القول بنسخها.

قال الشيخ ـ بشأن آية الإمتاع ـ: ذهب أبو حذيفة[٢] ـ ولعلّه روايةً عن مجاهد ـ إلى أنّ العدّة أربعة أشهر وعشراً. ومازاد إلى الحول يثبت بالوصيّة، وكذلك النفقة. فإن امتنع الورثة من ذلك كان لها أن تتصرّف في نفسها.

قال الشيخ: فأمّا حكم الوصيّة، فعندنا: أنّه باقٍ لم يُنسخ، وإن كان على وجه الاستحباب. قال: وقد بيّنّا فساد قولهم: لا وصيّة لوارث.

قال: فأمّا آية المواريث، فإنّها لاتنافي الوصيّة، فلا يجوز أن تكون ناسخة لها.[٣]

وهذا هو الذي ذهب إليه سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي ـ طاب ثراه ـ والتزم بعدم نسخ الآية، وأنّها ندب إلى الإيصاء بشأنهنّ. أو وصيّة من الله، إرفاقاً ورعاية لحالتهنّ وقد فقدن عيشتهنّ عن كثب.

أمّا إجماع الفقهاء على ترك الأخذ بظاهر الآية، فلعلّه لاشتهار القول بنسخها. فلا حجيّة فيه ـ والحال هذه ـ لأنّه يصبح مدركيّاً أو محتمل المدركيّة ـ على الأقلّ ـ الأمر الذي يذهب برواء الإجماع.

على أنّ مثل هذا الإجماع إنّما ينفع في نفي الإلزام لانفي الرجحان. إذ لا موجب له بعد صراحة الآية، وعدم وجود ما ينافيها، لا كتاباً ولا سنّة. فماذا يكون الموجب لترك الآية رأساً؟!

ملحوظة

الظاهر، أنّ الحكم الوارد في الآية خاصّة بمن لا ولد لها من زوجها المتوفّى، إذ لو كان لها ولد منه، كان لها التمتّع بالسكنى فيما يعود إلى ولدها من عقار. ولم يكن لسائر الورثة إخراجها حينذاك. ولم تكن حاجة إلى التوصية بشأنها وهي متمتّعة بحقّ ولدها من الإرث التليد.

---

(١) التبيان ٢: ١٠٧.

(٢) هو موسى بن مسعود النهدي البصري. توفّي سنة ٢٢٠. يروى عنه البخاري وغيره.

(٣) التبيان ٢: ٢٧٨.

نعم إذا لم يكن لها ولد وارث، فبما أنّها لا ترث من أعيان العقار، بل تُقَوَّم عليها وتأخذ القيمة، فلا حقَّ لها ذاتيّاً في السكنى، إلّا إذا رضي الورثة لها بالبقاء وأحسنوا إليها بالإنفاق.

* * *

ونظيرة هذه الآية في القول بنسخها آية الوصيّة للوالدين والأقربين.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1].

قال أبو عبدالله القرطبي: اختلف العلماء في هذه الآية، هل هي منسوخة أو محكمة؛

[٢٩٥٤/٢] فقيل: هي محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص: في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين. وفي القرابة غير الورثة. قاله الضحّاك وطاووس والحسن، واختاره الطبري.

[٢٩٥٥/٢] وقال ابن عبّاس والحسن أيضاً وقتادة: الآية عامّة، وتَقَرَّرَ الحكم بها بُرهةً من الدهر، ونسخ منها كلّ من كان يرث، بآية الفرائض.

وقد قيل: إنّ آية الفرائض لم تستقلّ بنسخها، بل بضميمة الحديث الوارد:

[٢٩٥٦/٢] عن رسول اللهﷺ قال: «لا وصيّة لوارث»؛ رواه أبو أمامة. أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[2]. فنسخ الآية إنّما كان بالسنّة الثابتة لا بآية المواريث، على الصحيح من أقوال العلماء.

قال القرطبي: ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين هذه الآية وآية المواريث، باستحقاق المال إمّا بالوصيّة أو بالميراث إذا لم يوص، أو ما بقي بعد الوصيّة لكن المانع من هذا الجمع والتوافق، هو هذا الحديث إلى جنب الإجماع.

قال: وهذا الخبر وإن بلغنا آحاداً، لكن قد انضمّ إليه إجماع المسلمين: أنّه لا تجوز وصيّةٌ لوارثٍ. فقد ظهر أنّ جواز الوصيّة للأقربين منسوخ بالسنّة و أنّها مستند المجمعين.[3]

[٢٩٥٧/٢] أخرج البخاري عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عبّاس قال: كان المال للولد،

---

(١) البقرة ٢: ١٨٠.

(٢) الترمذي ٤: ٤٣٣ ـ ٤٣٤ / ٢١٢٠ و ٢١٢١، باب ٥ (من الوصايا).

(٣) القرطبي ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

وكانت الوصيّة للوالدين. فنسخ اللهُ من ذلك ما أَحَبَّ، فجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين، وجَعَل للأبوين لكلّ واحدٍ منهما السُّدُسَ والثُّلُثَ، وجَعَل للمرأة الثُّمُنَ والرُّبُعَ، وللزوج الشَّطْرَ والرُّبُعَ.[١]

* * *

هذا وقد تكلّم جمع من أفاضل العلماء في تواتر حديث «لا وصيّة لوارث» بل في صحّة إسناده فضلاً عن إمكان نسخ القرآن به.

قال الإمام البيضاوي: وكان هذا الحكم في بدء الإسلام، فنسخ بآية المواريث وبقوله ﷺ: لا وصيّة لوارث. قال: وفيه نظر، لأنّ آية المواريث لاتعارضه بل تؤكّده، من حيث أنّها تدلّ على تقديم الوصيّة مطلقا. والحديث من الآحاد، وتلقّي الأمّة له بالقبول، لا يلحقه بالمتواتر[٢].

ومن ثمّ نقل الزمخشري عن بعضهم: أنّها لم تنسخ، والوارث يُجْمَعُ له بين الوصيّة والميراث بحكم الآيتين.[٣]

قال الإمام محمّد عبده: إنّه لا دليل على أنّ آية المواريث نزلت بعد آية الوصيّة هنا، وبأنّ السياق ينافي النسخ، حيث اشتماله على التوثيق والتأكيد البالغ بأمر الوصيّة وأنّها حقّ على المتّقين، وعقّبه بالوعيد لمن بدّله وغير ذلك من شواهد في نفس الآية تدلّ على أنّها شريعةُ تأسيسٍ لا شريعةٌ في عرضة الزوال.

قال: وبإمكان الجمع بين الآيتين ـ حسبما ذكره بعضهم ـ كما جوّز بعض السلف، الوصيّة للوارث نفسه إذا أحوج من سائر الورثة. فيا تُرى كيف يحتّم الحكيم الخبير اللطيف بعباده، التساوي بين الفقير والغني من الورثة، بحيث لايدع مجالاً للإيصاء بالتوفّر للمعوز منهم. ومن ثمّ قدّم الوصية على الميراث، وأن يجعل الوالدين والأقربين المعوزين أولى بالوصيّة لهم في آية أخرى ـ كما هنا ـ لعلمه سبحانه بما يكون من تفاوتٍ بينهم في الحاجة أحياناً. إذن فلاتعارض آية المواريث آية الوصيّة، حتّى تكون ناسخة لها.

وأمّا الحديث، فقد حاولوا إلحاقه بالمتواتر، بحجّة أنّ الأمّة تلقّته بالقبول.

ولعلّه مبالغة بشأن حديث لم يصل إلى درجة ثقة الشيخين به، فلم يروه أحد منهما مسنداً.

---

(١) البخاري ٦: ٥٥. تفسير سورة النساء.
(٢) تفسير البيضاوي ١: ٢١٥.
(٣) الكشّاف ١: ٢٢٤.

ورواية أصحاب السنن محصورة في عمرو بن خارجة و أبي أمامة، وفي إسناد الثاني إسماعيل بن عيّاش، تكلّموا فيه. قال: وإنّما حسّنه الترمذي، لأنّ إسماعيل يرويه عن الشاميّين وقد قوّى بعضهم روايته عنهم وحديث ابن عبّاس معلول، إذ هو من رواية عطاء الخراساني كما قيل. وما روي غير ذلك فلا نزاع في ضعفه.

قال: فعلم أنّه ليس لنا رواية للحديث صُحّحت إلّا رواية عمروبن خارجة والذي صحّحها هو الترمذي، وهو من المتساهلين في التصحيح وقد علمت أنّ البخاري ومسلم لم يرضياها، فهل يقال: إنّ حديثاً كهذا، تلقّته الأمّة بالقبول؟![1]

قلت: وعمروبن خارجة هذا كان حَليف أبي سفيان ورسوله إلى النبي ﷺ ولم يؤثر عنه حديث عن رسول الله ﷺ سوى هذا الحديث ـ وهو فذّ في نوعه ـ وقد تكلّموا في إسناده كثيراً.[2]

وحديثٌ هذا شأنُه كيف يُنْسَخُ به قرآنٌ، أو كيف يصلح مستنداً للمجمعين؟!

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وفي الآية دلالة على أنّ الوصيّة جائزة للوارث. ومن خصّها بغير الوارث ـ لكفر أو قتل ـ فقد قال قولاً بلا دليل، (بعد صراحة الآية و تأكيدها البالغ). ومن ادّعى نسخها، فهو مدّع لذلك (من غير أن يملك شاهداً يشهد له) فلا يسلم له نسخها. فإن ادّعوا الإجماع على نسخها، كان ذلك دعوىً باطلة، ونحن نخالف ذلك (بصراحة و صرامة). هذا وقد خالف في نسخها أناس، كطاووس وأبي مسلم، كما أنكر نسخها أبو جعفر الطبري بمثل ما قلنا، فمع هذا الخلاف كيف يُدّعى الإجماع على نسخها.

ومن ادّعى نسخها لقوله ﷺ: «لا وصيّة لوارث» فقد أبعد، لأنّه خبر واحد، وادّعاء أنّ الأمّة أجمعت على قبوله، دعوى عارية من برهان، وعلى فرض ثبوته فيحمل على إرادة الوصية بما زاد على الثلث.

وأمّا القول بأنّ ناسخها هي آية المواريث فقول بعيد عن الصواب، لأنّ الشيء إنّما يَنْسَخُ غيره، إذا لم يمكن الجمع بينهما، وكان بينهما تنافٍ، في حين لاتنافي ولاتضادّ بين فرض الميراث، والندب إلى الوصيّة لهم بالخصوص إذا علم منهم الاعوزاز. فلا موجب لحمل الآية على النسخ.

---

(١) المنار ٢: ١٣٥ـ١٣٨.

(٢) راجع: الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ٢: ٥٣٤ / ٥٨٢٢.

نعم، لو كان هناك إجماع على ترك الأخذ بظاهر الآية، فإنّما هو بالنظر إلى فرض الوصيّة، حيث لم يقل أحد بأنّها واجبة أمّا الندب إليها والترغيب إلى الإيصاء بشأن ذوي الحاجة من الأقربين ـ الوارثين منهم وغير الوارثين ـ فهذا لاينفيه الإجماع والآية لاتدلّ على أكثر من ذلك، فهي ثابتة الحكم ومحكمة المفاد أبداً[1].

قال العلّامة الطبرسيّ: والصحيح عند المحقّقين من أصحابنا أنّها غير منسوخة أصلاً، إذ لا منافاة بين آية الوصيّة وآية المواريث. وحديث «لاوصيّة لوارث» لم يصحّ عندنا. والإجماع ـ على الخلاف ـ لم يتحقّق.[2]

* * *

وممّا قيل بنسخه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً . وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[3].

قالوا: كانت المرأة إذا فجرت وقامت عليها الشهود حُبست في بيت وهُوجِرت إلّا من يأتيها بطعام وشراب، حتّى يتوفّاها الموت.

وكان الرجل إذا فجر أوذي بالتعيير والتعنيف حتّى يئوب ويتوب. قالوا: فنسختا بشريعة الحدود: الجلد والرجم.

وقد تظافر بذلك الأحاديثُ، وأجمع عليه المفسّرون وحسبوا من الفحشاء هنا أنّه الزنا. وشذّ أبو مسلم وزعم أنّها في الآية الأُولى هي المساحقة، وفي الثانية هي اللواطة.[4]

قال الطبرسي: وقول أبي مسلم مخالف للإجماع ولما عليه المفسّرون، فإنّهم أجمعوا على أنّ المراد بالفاحشة هنا هو الزنا.[5]

وقال الجصّاص: إنّ الأمّة لم تختلف في نسخ هذين الحكمين عن الزانيين.[6]

---

(١) راجع: التبيان ٢: ١٠٧ـ١٠٨.

(٢) مجمع البيان ١: ٢٦٧.

(٣) النساء ٤: ١٥ـ١٦.

(٤) ورجّحه الإمام عبده وارتآه. قال: فالحقّ أنّ ما ذهب إليه أبو مسلم هو الراجح في الآيتين. (المنار ٤: ٤٣٩)

(٥) مجمع البيان ٣: ٢٠.

(٦) أحكام القرآن ٢: ١٠٧.

غير أنّ لنا كلاماً في تفسير الفاحشة بالزنا خاصّة، بعد أن تكرّر ذكرها في القرآن، مراداً بها الكبائر الفاحشة العارمة، والتي هي خرق لحريم الجماعة وهتك لحرمتها في نظامها القائم على أساس السلامة وحسن الاعتماد.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[١].

الفاحشة هنا هو هتك حريم الجماعة والخروج على سننهم المعروفة.

وأمّا ظلم النفس فهي الآثام التي تحطّ من كرامة الذات وتغضّ من شرفه التليد. والإنسان الواعي يلزمه التدارك لما فرط منه في كلا الجانبين، فور تذكّره وقبل فوات الأوان.

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَ الْفَحْشَآءِ وَ أَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

السوء: الإثم الذي يعود وباله على مرتكبه بالذات. والفحشاء: هو الإثم العارم الهاتك لحريم النظام.

* * *

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣]. وقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنكَرِ﴾.[٤]

يا تُرى! ماذا تنهى عنها الصلاة؟ هل هو خصوص الزنا، أم هو كلّ إثم يعود وباله على سلامة النظام؟

وقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَآؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ. إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[٥].

نعم، إنّه كان خرقاً لحرمة أزواج الآباء، وهنّ بمنزلة الأمّهات الأمر الذي كان مقتاً (ممقوتاً للغاية) وساء سبيلاً. بئست الطريقة الجاهليّة العشواء.

---

(١) آل عمران ٣: ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) البقرة ٢: ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٣) النحل ١٦: ٩٠.
(٤) العنكبوت ٢٩: ٤٥.
(٥) النساء ٤: ٢٣.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَآءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[1] أي كبائر الإثم العارمة والتي تهزّ أركان النظام بصرامة.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾[2]. أي تشيع المنكرات.

وقال تعالى ـ مخاطباً لأزواج النبيّ ﷺ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾[3] أي بمنكر من قول أو فعل، بحيث لا يتناسب وحرمة شأن أمّهات المؤمنين!

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾.[4] و ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ...﴾.[5] و ﴿وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ﴾[6].

إلى غيرهنّ من آيات، أُريد بالفواحش، الكبائر الموبقة والتي تختلّ بشيوعها أواصر النظام وتنفصم عرى وحدتها وسلامتها دون تفشّي الفساد.

نعم، لا نتحاشا إطلاق الفاحشة على الزنا واللواطة أيضاً، باعتبارهما خروجاً على سنن الطبيعة وهتكاً لحريم النظام، المبتني قواعده على النكاح دون السفاح.

قال تعالى: ﴿وَ لَا تَقْرَبُوا الزِّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾[7].

نعم كان الزنا ـ أي العمل الجنسي خارج إطاره المشروع ـ فاحشةً ونقضاً لأسس وقار النظام إلى حيث الفوضى والانهيار.

ومن ثمّ فهو من أسوء السُّبُل لاتّخاذ كسر نائرة الشهوات.

وهكذا شنّع لوطٌ قومه بخروجهم على سنن الطبيعة وجريهم على خلاف المجرى المتعارف العامّ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[8]. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[9].

---

(١) الأعراف ٧: ٢٨.
(٢) النور ٢٤: ١٩.
(٣) الأحزاب ٣٣: ٣٠.
(٤) الأنعام ٦: ١٥١.
(٥) الأعراف ٧: ٣٣.
(٦) الشورى ٤٢: ٣٧.
(٧) الإسراء ١٧: ٣٢.
(٨) الأعراف ٧: ٨٠.
(٩) العنكبوت ٢٩: ٢٨.

إذن فإطلاق الفاحشة على الزنا، كان من باب إطلاق المفهوم العامّ على أحد مصاديقه، لا أنّه هو مفهومه بالذات.

فهنا ـ في آية جزاء الفحشاء من سورة النساء ـ لم يتعيّن إرادة الزنا ـ أو اللواطة ـ بالخصوص، بعد احتمال اللفظ لأيّ عمل سوء كان فاحشاً عارم السُّوء، ومنكراً يستقبحه العرف العامّ.

وبعد، فإذ كان اللفظ يحتمل المعنى الأعم للفحشاء، فمن المحتمل القريب، بل لعلّه الأظهر حسب سياق الآية مساقها في معرض غفران العثرات ممّن: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1]. فلعلّ الآية هادفة إلى الحفاظ على كرامة الأسرة المتعفّفة، فلا تتبرّج نساؤهم ولا تستهتر بنفسها عرضة رخيصة في متناول الأجانب، فإن شهد جماعة من أعضاء الأسرة، ذلك من إحدى نساءهم فليحولوا دون خروجها، وإمساكها في البيوت، لعلّها تفيء إلى رشدها، أو يُيسِّر الله لها إمكان الزواج بما يُطفئ أوارها ذلك المتوهّج.

وهكذا إذا وجدوا من فتيين[2]، يربطهما أواصر مريبة، فليراقبوهما ويذكّروهما ويؤنّبوهما على مشيتهما هذه المريبة، ليتوبا إلى رشدهما، وسوف يتوب الله عليهم ويصلح بالهم.[3]

ويشهد لصحّة هذا الاستنتاج، سوق الآية مساقها مع آيات التوبة وشمول المغفرة لمن تاب وأناب بعيداً عن قضيّة فرض الحدّ والأخذ بالشدّة على مرتكبي الآثام.

أنظر إلى نعومة التعبير هنا: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً. فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً. إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.[4]

أمّا إذا كان مجال فرض الحدّ والعقوبة على الجرائم فإنّ اللحن يختلف ويأخذ شدّته وصرامته من غير لين.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

---

(١) الآية رقم ١٧ من سورة النساء، تعقباً على آية الفحشاء.

(٢) شابّين أو شابّتين أو شابّاً وشابّة.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ سورة محمّد ٤٧: ٢.

(٤) النساء ٤: ١٥، ١٦، ١٧.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَـآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

﴿وَالسَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.(٢)

وأخيراً فلانتحاشا القول بأنّ الآيتين من سورة النساء نـزلتا ـ أوّلاً ـ بشأن مـطلق الفـحشاء الشامل بعمومه للزنا وغيره من كبائر الإثم الفاحشة.. لكن نزل بخصوص أمر الزنـا آيـة أخـرى، لغرض فرض الحدّ لمرتكبه، حيث جاء في سورة النور متأخّراً.

غير أنّ هذا لايعني نسخ عموم الحكم السابق، وإنّما هو تخصيص لبعض جوانبه، ومن ثمّ فإنّ عموم العامّ السابق، باقٍ على إحكامه من غير أن يعترضه نسخ.

على أنّ هذا العموم أيضاً لم ينثلم وبقي ثابتاً في شموله، حتّى مع إجراء الحـدّ عـلى الزانـي والزانية، فللملامة والتوبيخ اللاذع، بعدُ مجال، وكذا الحؤول دون استهتار المرأة ـ حتّى بعد إجراء الحدّ عليها ـ فرض مؤكّد. إذن فلا موضع للنسخ في الآيتين.

* * *

وهكذا سائر الآيات ممّا قيل بنسخها، وتعرّضنا لها بتفصيل وتفنيد مواضع النسخ فيها، فـيما عرضناه من قائمة المنسوخات، في كتابنا التمهيد.(٣)

وبعد فإذ قد عرفت أن لا نسخ في القرآن بتاتاً، نسخاً وَفْق مصطلح الخلف، فما ورد عليك من أحاديث السلف بعروض النسخ لجملة من الآيات، فاعرضها على منصّة التمحيص؛ إنّها إمّا مؤوّلة حسب مصطلحة القديم وإمّا هو حديث مفترى يجب ردّه على قائله والعهدة عليه!!

وهنا ملحوظة يجب التنبّه لها، وهي: أنّ أكثر تلكم الأحاديث، فيها إلمامة إلى حسبان التحريف في القرآن، إمّا سورة أو آية أو آيات(٤)، الأمر الذي نتحاشاه ويتحاشاه كلام الحكيم ومن ثمّ فـهي لاتعدو مزاعم حسبها أصحاب الأوهام لايمكننا المصادقة عليها بتاتاً.

والآن فإليك الأهمّ من تلك الأحاديث:

[٢٩٥٨/٢] أخرج ابن سعد وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود في ناسخه وابن الضريس وابن

---

(١) النور ٢٤: ٢.

(٢) المائدة ٥: ٣٨.

(٣) الجزء الثاني. وربما تتفاوتت نظرتنا في مختلف الطبعات. وكانت نظرتنا الحاسمة تتمثّل في الطبعات الأخيرة.

(٤) فنّدناها بتفصيل وتبيين في كتابنا «صيانة القرآن من التحريف» (الجزء الثامن من التمهيد).

جرير وابن المنذر وابن حِبّان والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: أنزل الله في الّذين قُتلوا ببئر معونة قرآناً قرأناه حتّى نُسخ بعدُ: «أن بلّغوا قومنا أنّا قد لقينا ربّنا فرضي عنا وأرضانا».[١]

[٢٩٥٩/٢] وأخرج مسلم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل عن أبي موسى الأشعري قال: كنّا نقرأ سورة نُشبّهها في الطول والشدّة ببراءة فأنسيتها، غير أنّي حفظت منها: «لوكان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوفه إلّا التراب». وكنّا نقرأ سورة نُشبّهها بإحدى المسبّحات، أوّلها: «سَبَّحَ لله ما في السماوات...» فأنسيناها، غير أنّي حفظت منها: «يا أيّها الّذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة».[٢]

[٢٩٦٠/٢] وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس عن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدّة ثمّ رفعت، وحفظت منها: «إنّ الله سيؤيّد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم».[٣]

[٢٩٦١/٢] وأخرج[٤] ابن الضريس: ليؤيّدنّ الله هذا الدين برجال ما لهم في الآخرة من خلاق، ولو أنّ لابن آدم واديين من مال لتمنّى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، إلّا من تاب، فيتوب الله عليه والله غفور رحيم.[٥]

[٢٩٦٢/٢] وأخرج أبو عبيد وأحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه فعلّمنا ما أوحي إليه، قال: فجئته ذات يوم فقال: إنّ الله يقول: «إنّا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو أنّ لابن آدم وادياً لأحبّ أن يكون إليه الثاني، ولو كان له الثاني لأحبّ أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٦؛ الطبقات ٢: ٥٤، (سريّة المنذر بن عمر)؛ مسند أحمد ٣: ٢١٥؛ البخاري ٣: ٢٠٨، كتاب الجهاد والسير؛ مسلم ٢: ١٣٦، كتاب الصلاة؛ الطبري ١: ٦٧٠ / ١٤٦٦؛ ابن حبّان ١٠: ٥٠٨ / ٤٦٥١، كتاب السير، باب ٦ (فضل الشهادة)؛ الدلائل ٣: ٣٤٨، باب ما وجد رسول الله ﷺ على من قُتل ببئر معونة.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ مسلم ٣: ١٠٠، كتاب الزكاة؛ الحلية ١: ٢٥٧، باب ٤٠؛ الدلائل ٧: ١٥٦، باب ما جاء في تأليف القرآن؛ الطبري ١: ٦٧٠، بعد رقم ١٤٦٦، باختصار، القرطبي ١٨: ٧٨ ـ ٧٩، سورة الصفّ؛ ابن كثير ٤: ٣٨٣.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٧؛ فضائل القرآن: ١٩٢ / ٩ ـ ٥١، باب ذكر ما رفع من القرآن بعد نزوله ولم يثبت في المصاحف.

(٤) في النسخة (ط: دار هجر): «ولفظ ابن الضريس...». (٥) الدرّ ١: ٢٥٧.

الله على من تاب».(١)

قلت: هذا لا يدلّ على أنّه كان قرآناً فلعلّه من سائر الوحي.

[٢٩٦٣/٢] وأخرج أبو عبيد وأحمد وأبو يعلى والطبراني عن زيد بن أرقم قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضّة لابتغى الثالث. ولا يملأ بطن ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب».(٢)

[٢٩٦٤/٢] وأخرج أبو عبيد وأحمد عن جابر بن عبدالله قال: كنّا نقرأ: لو أنّ لابن آدم ملء وادٍ مالاً لأحبّ إليه مثله، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب.(٣)

[٢٩٦٥/٢] وأخرج أبو عبيد والبخاري ومسلم عن ابن عبّاس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنّ لابن آدم ملء وادٍ مالاً لأحبّ أنّ له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب». قال ابن عبّاس: فلا أدري أمن القرآن هو أم لا.(٤)

قلت: لا شكّ أنّه حديث نبويّ ـ لو صحّ الإسناد ـ!

[٢٩٦٦/٢] وأخرج البزّار وابن الضريس عن بُرَيدة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في الصلاة: «لو أنّ لابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب».(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٧؛ فضائل القرآن: ١٩٢ / ٨ ـ ٥١؛ مسند أحمد ٥: ٢١٩؛ الأوسط ٣: ٥١ ـ ٥٢ / ٢٤٤٦؛ الشعب ٧: ٢٧١ / ١٠٢٧٧؛ مجمع الزوائد ٧: ١٤٠، كتاب التفسير، سورة البيّنة.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٧؛ مسند أحمد ٤: ٣٦٨؛ أبو يعلى ٥: ٢٣٦ / ٢٨٤٩، نقلاً عن أنس عن النبي ﷺ؛ الكبير ٥: ١٨٤ رقم ٥٠٣٢ (ترجمة حبيب بن يسار عن زيد بن أرقم)؛ مجمع الزوائد ١٠: ٢٤٣، كتاب الزهد، باب لا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني والبزّار بنحوه ورجالهم ثقات.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٧؛ فضائل القرآن: ٣٢٣، (ط دار ابن كثير)؛ مسند أحمد ٣: ٣٤٠ بلفظ: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: لو أنّ لابن آدم وادياً من مال لتمنّى واديين، ولو أنّ له واديين لتمنّى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب.

(٤) الدرّ ١: ٢٥٧؛ فضائل القرآن: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ١٠ ـ ٥١؛ البخاري ٧: ١٧٥، كتاب الرقاق؛ مسلم ٣: ١٠٠، كتاب الزكاة؛ أبو يعلى ٤: ٤٤٧ ـ ٤٤٨ / ٢٥٧٣.

(٥) الدرّ ١: ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ مسند البزّار ٦: ١٨١ / ٢٢٢٢، بلفظ: «العباس بن سهل قال: سمعت ابن الزبير يقول: قال رسول الله ﷺ: لو أنّ...»؛ كنز العمّال ٣: ٤٥٩ / ٧٤٣٢.

[٢٩٦٧/٢] وأخرج ابن الأنباري عن زِرّ قال: في قراءة أبيّ بن كعب: ابن آدم لو أعطي وادياً من مال لالتمس ثانياً، ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثاً، ولايملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب.(١)

[٢٩٦٨/٢] وأخرج عبدالرزّاق وأحمد وابن حِبّان عن عمربن الخطاب قال: إنّ الله بعث محمّداً بالحقّ وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أُنزل عليه آية الرجم، فرجم ورجمنا بعده، ثمّ قال: قد كنّا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم».(٢)

[٢٩٦٩/٢] وكذا أخرج الطيالسي وأبو عبيد والطبراني عن عمر قال: كنّا نقرأ فيما نقرأ: لاترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم، ثمّ قال لزيد بن ثابت: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم!(٣)

[٢٩٧٠/٢] وأخرج ابن عبد البرّ في التمهيد من طريق عديّ بن عديّ بن عمير بن قزوة عن أبيه عن جدّه عمير بن قزوة، أنّ عمربن الخطّاب قال لأبيّ: أو ليس كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: إنّ انتفاءكم من آبائكم كفرٌ بكم؟ فقال: بلى. ثمّ قال: أو ليس كنّا نقرأ: الولد للفراش وللعاهر الحجر، فيما فقدنا من كتاب الله؟ فقال أبيّ: بلى.(٤)

[٢٩٧١/٢] وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن الأنباري عن المسوَّر بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمان بن عوف: ألم تجد فيما أُنزل علينا: أن جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة؟ فإنّا لانجدها! قال: أُسقطت فيما أُسقط من القرآن!(٥)

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٨؛ القرطبي ٢٠: ١٣٩، سورة البيّنة.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٨؛ المصنّف ٥: ٤٤١ / ٩٧٥٨، بزيادة؛ مسند أحمد ١: ٤٧، وفيه بعد قوله: «كفر بكم»: أو إنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم؛ ابن حبّان ٢: ١٤٧ / ٤١٣، كتاب البرّ والإحسان، باب ٤.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٨؛ مسند الطيالسي: ١٢، إلى قوله: كفربكم؛ فضائل القرآن: ١٩٣ / ١٢ ـ ٥١؛ الكبير ٥: ١٢١ / ٤٨٠٧ في ترجمة عديّ بن عميرة الكندي عن زيدبن ثابت، بلفظ:... فقال عمر لزيد بن ثابت: أما تعلم أنّا كنّا نقرأ: لاترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم فقال زيد: بلى....؛ مجمع الزوائد ١: ٩٧.

(٤) الدرّ ١: ٢٥٨؛ التمهيد لابن عبد البرّ ٤: ٢٧٦؛ كنزالعمّال ٦: ٢٠٨ / ١٥٣٧٢.

(٥) الدرّ ١: ٢٥٨؛ فضائل القرآن: ١٩٣ / ١٣ ـ ٥١. ابن عساكر ٧: ٢٦٦ رقم ٥٣٦ (إبراهيم بن هشام) بلفظ: قال عمربن الخطّاب لعبدبن الرحمان بن عوف: ألم تجد فيما أنزل الله: جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة؟ قال: بلى، قال: فإنّا لانجدها! قال: أُسقطت فيما أُسقط من القرآن...

[٢٩٧٢/٢] وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف عن عبدالله بن عمر قال: لايقولنّ أحدكم قد أخذتُ القرآن كلّه؛ ما يدريه ما كلّه؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل: قد أخذت ما ظهر منه.(١)

[٢٩٧٣/٢] وأخرج ابن الضريس عن ابن عبّاس قال: كنّا نقرأ: لاترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم، وإنّ كفراً بكم أنْ ترغبوا عن آبائكم.(٢)

قلت: إسناد ذلك إلى ابن عبّاس غريب!

* * *

وهناك رواية رواها بعضهم مرفوعاً إلى الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام سئل عن الرجم في القرآن، فقال: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة، لأنّهما قضيا شهوتهما. وزاد: وعلى المحصن والمحصنة الرجم.

[٢٩٧٤/٢] روى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى عبدالله بن سنان، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: الرجم في القرآن، قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة، فإنّهما قضيا الشهوة».(٣)

وهكذا روى أبو جعفر الطوسي بنفس الإسناد عن الامام الصادق عليه السلام مثله.(٤)

وكذلك ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى سعدبن عبدالله، رفعه، عن الإمام الصادق عليه السلام مثله، مع تلك الزيادة.

[٢٩٧٥/٢] وبإسناد آخر عن إسماعيل بن خالد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام في القرآن رجم؟ قال: «نعم، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، فإنّهما قد قضيا الشهوة!»(٥)

* * *

(١) الدرّ ١: ٢٥٨؛ فضائل القرآن: ١٩٠ / ١ ـ ٥١.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٨؛ ابن كثير ١: ٣٩٤، عن أبي بكر، إلى قوله: «فإنّه كفر» وكذا في مجمع البيان ١: ٣٣٨، عن أبي بكر، إلى قوله: «فإنّه كفر».

(٣) الكافي ٧: ١٧٧ / ٢.

(٤) التهذيب ١٠: ٣ / ٧.

(٥) العلل: ٥٤٠ / ١٣ و ١٤، باب ٣٢٦، (ط نجف)؛ البحار ٧٦: ٣٧ / ١٢ و ١٣.

غير أنّ هذه الرواية ساقطة عندنا. واللفظ لايصلح أن يكون لفظ الإمام عليه السلام وهو العربيّ الصميم العارف بموضع القرآن من اللغة الفصحى الرقيقة، التي لاتُشبه شيئاً من لفظ الرواية المتفكّك الركيك، ولعلّه موضوع عليه.. ولاسيّما بعد ملاحظة الغمز في الإسناد.

أمّا الإسناد إلى عبدالله بن سنان، فهو مشترك بين ثلاثة، اثنان منهم مجهولان، فهلّا يكون هذا أحدهما؟!

ورواية الصدوق الأُولى مرفوعة أي مقطوعة الإسناد ـ في مصطلحهم ـ.

وأمّا روايته الأخرى فالإسناد إلى إسماعيل بن خالد ـ وهو مهمل في تراجم الرجال ـ سوى أنّ ابن حجر ذكره في ضعاف الرواة، واصفاً له ـ نقلاً عن الذهبي ـ بأنّه رجل كوفيّ من ولد يزيد بن هند القسري يروى عن أبي إسحاق الفزاري، مجهول[١]. قال ابن عقدة: هو شيخ. وقال ابن عديّ: وليس له كبير حديث.

قال ابن حجر: وذكره الكشّي في رجال الشيعة الرواة عن أبي جعفر الباقر وولده، قال: وعاش إلى أن أخذ عن موسى بن جعفر. وروى عنه حمّاد بن عيسى. وذكره ابن حِبّان في الثقات. وقال: يروي عن معمر.[٢]

روايات العرضة الأخيرة للقرآن

ويلحق بذلك أخبار العرضة الأخيرة للقرآن. والتي لاموضع لها عند المحقّقين. نعرض منها مايلي:

[٢٩٧٦/٢] أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن الأنباري والبيهقي في الدلائل عن عبيدة السلماني قال: القراءة التي عُرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العامّ الذي قُبض فيه هذه القراءة التي يقرأها الناس، التي جمع عثمانُ الناسَ عليها.[٣]

---

(١) ميزان الاعتدال ١: ٢٢٦ / ٨٦٧.

(٢) لسان الميزان ١: ٤٠٢ ـ ٤٠٣ / ١٢٦١. وراجع: الكامل لابن عديّ ١: ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ١٣٥ ـ ١٣٥.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٨؛ المصنّف ٧: ٢٠٤ / ٥، باب ٦٩، كتاب فضائل القرآن بلفظ: قال: القراءة التي عرضت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العامّ الّذي قبض فيه هي القراءة التي يقرأها الناس اليوم؛ الدلائل ٧: ١٥٥، باب ما جاء في تأليف القرآن و....

[٢٩٧٧/٢] وأخرج ابن الأنباري وابن أشتة في المصاحف عن ابن سيرين قال: كان جبريل يعارض النبيّ ﷺ كلّ سنة في شهر رمضان، فلمّا كان العامّ الذي قُبض فيه عارضه مرّتين، فيرون أن تكون قراءتنا هذه على العرضة الأخيرة.(١)

[٢٩٧٨/٢] وأخرج ابن الأنباري عن أبي ظبيان قال: قال لنا ابن عبّاس: أيّ القراءتين تعدّون أوّل؟ قلنا: قراءة عبدالله، وقراءتنا هي الأخيرة. فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان يعرض عليه جبريل القرآن كلّ سنة مرّة في شهر رمضان، وأنّه عرضه عليه في آخر سنة مرّتين، فشهد منه عبدالله ما نُسخ وما بُدّل.(٢)

[٢٩٧٩/٢] وأخرج عن مجاهد قال: قال لنا ابن عبّاس: أيّ القراءتين تعدّون أوّل؟ قلنا: قراءة عبدالله! قال: فإنّ رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل مرّة، وأنّه عرضه عليه في آخر سنة مرّتين، فقراءة عبدالله آخرهنّ.(٣)

[٢٩٨٠/٢] وأخرج عن ابن مسعود قال: كان جبريل يعارض النبيّ ﷺ بالقرآن في كلّ سنة مرّة، وأنّه عارضه بالقرآن في آخر سنة مرّتين، فأخذته من النبيّ ﷺ ذلك العام.(٤)

[٢٩٨١/٢] وأخرج أيضاً عنه قال: لو أعلم أحداً أحدث بالعرضة الأخيرة منّي لرحلت إليه!(٥).

[٢٩٨٢/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه عن سمرة قال: عُرض القرآن على رسول الله ﷺ ثلاث عرضات، فيقولون: إنّ قراءتنا هذه هي العرضة الأخيرة.(٦)

---

(١) الدرّ ١: ٢٥٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٥٩؛ أبويعلى ٤: ٤٣٥ / ٢٥٦٢؛ كنزالعمّال ٢: ٦٠٩ / ٤٨٧٧؛ الطبقات ٢: ٣٤١ ـ ٣٤٢؛ مسند أحمد ١: ٣٦٢ ـ ٣٦٣، بلفظ: عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال: أيّ القراءتين تعدّون أوّل؟ قالوا: قراءة عبدالله! قال: لا، بل هي الآخرة، كان يُعرض القرآن على رسول الله ﷺ في كلّ عام مرّة، فلمّا كان العامُ الذي قُبض فيه عُرض عليه مرّتين، فشهد عبدالله، فعلم ما نُسخ منه وما بُدّل.

(٣) الدرّ ١: ٢٥٩.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر.

(٦) الدرّ ١: ٢٥٩؛ الحاكم ٢: ٢٣٠، كتاب التفسير، وليس فيه كلمة «ثلاث». قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري بعضه وبعضه على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ مجمع الزوائد ٧: ١٥١ ـ ١٥٢، باب القراءات. قال الهيثمي: رواه البزّار ورجاله رجال الصحيح.

قال تعالى:

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَ مَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّىٰ
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

قلنا: إنّ الخطاب هنا يحمل رائحة التحذير والتذكير، فلا ينخدعوا بأضاليل اليهود أو يستسلموا لوساوسهم، ممّا يبلبل أفكارهم ويشوّش عليهم أذهانهم. ومنها الجري على منوالهم في اللجج والجدل مع الرسول وتوجيه أسئلة له لاتنفق. وما هي إلّا تعنّتات وتملّصات للفرار عن التكليف والعمل الجادّ. يدلّ على ذلك ما جاء في الآية من صريح التحذير والاستنكار. استنكار لتشبّه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنّتهم، وطلب الخوارق منه، واحدة تلو أخرى لاتنتهي على أيّ حال وإنّما حالة اللجاج والعناد تشتدّ وتتغلّظ كلّما تداوموا عليه واستمرّوا في اللجاج.

وهذا لاينتهي إلّا إلى حيث مهوى الضلال والكفر والجحود.

كما أنّه في النهاية أيضاً ينتهي إلى الاستسلام لقيادة اليهود:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

والحسد هو ذلك الانفعال النفسي الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود حقداً على المسلمين، ومازالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم ومكائدهم ولاتزال.

وهنا ـ في اللحظة التي تتجلّى فيها هذه الحقيقة، وتنكشف تلك النيّة السيّئة. هنا يدعو القرآن المؤمنين بالاصطبار والأخذ بشيمة الوقار فلا يقابلوا الشرّ بالشرّ، بل الصفح هي شيمة الكريم:

﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وكذلك فامضوا في طريقكم حيث اختار الله لكم واعبدوه وأخلصوا له العمل يكون لكم ذخراً.. ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يضيع عند الله شيء.

وإليك من روايات السلف بهذا الشأن:

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾

[٢٩٨٣/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: «قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمّد ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السماء نقرأه، أو فجّر لنا أنهاراً نتّبعك ونصدّقك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾. وكان حييّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدّ اليهود حسداً للعرب إذ خصّهم الله برسوله، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية».[1]

[٢٩٨٤/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: قال رجل يا رسول الله: لو كانت كفّاراتُنا ككفّارات بني إسرائيل؟! فقال رسول الله ﷺ: «ما أُعطيتم خيرٌ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفّارتها، فإن كفّرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يكفّرها كانت له خزياً في الآخرة، وقد أعطاكم الله خيراً من ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[2]، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفّارات لما بينهنّ، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...﴾ الآية».[3]

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٠؛ الطبري ١: ٦٧٦ و ٦٨٢ / ١٤٧٣ و ١٤٨١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٢ / ١٠٧٤، إلى قوله: ﴿سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ والباقي في: ٢٠٤ / ١٠٨١.

(٢) النساء ٤: ١١٠.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٠؛ الطبري ١: ٦٧٧ / ١٤٧٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٣ / ١٠٧٦؛ ابن كثير ١: ١٥٧، وفيه: قال رسول الله ﷺ: اللّهمّ لانبغيها ـ ثلاثاً ـ ما أعطاكم الله خير ممّا أعطى بني إسرائيل... والصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفّارة لما

←

[٢٩٨٥/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدّي قال: سألتِ العربُ محمّداً ﷺ أنْ يأتيهم بالله فيروه جهرةً، فنزلت هذه الآية.[١]

[٢٩٨٦/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: سألت قريش محمّداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً! فقال: «نعم، وهو كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم، فأبوا ورجعوا. فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أن يريهم الله جهرة».[٢]

[٢٩٨٧/٢] وأخرج مسلم في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ما تُركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».[٣]

[٢٩٨٨/٢] وروى الطوسي عن الحسن في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا...﴾ قال: عنى بذلك المشركين من العرب، لمّا سألوه فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[٤] وقالوا: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[٥].[٦]

[٢٩٨٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ يعني يقول تريدون أن تسألوا محمّداً أن يريكم ربّكم جهرة ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ كما قالت بنو إسرائيل لموسى أرنا الله جهرة ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ يعني من يشتر ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يعني اليهود ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني قد أخطأ قصد طريق الهدى كقوله ـ سبحانه ـ في القصص: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[٧]

← بينهنّ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها. ولا يهلك على الله إلّا هالك، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ...﴾ الآية.

(١) الدرّ ١: ٢٦١؛ الطبري ١: ٦٧٦ / ١٤٧٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٣ / ١٠٧٧، وزاد: «وروي عن قتادة نحو ذلك».

(٢) الدرّ ١: ٢٦١؛ الطبري ١: ٦٧٧ / ١٤٧٦، بطرق؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٣ / ١٠٧٥؛ القرطبي ٢: ٧٠، عن ابن عبّاس ومجاهد، بلفظ: «سألوا أن يجعل لهم الصّفا ذهباً»؛ ابن كثير ١: ١٥٧، وزاد: وعن السدّي وقتادة نحو هذا. التبيان ١: ٤٠٢؛ مجمع البيان ١: ٣٤٥.

(٣) مسلم ٤: ١٠٢، كتاب الحجّ، باب فرض الحج مرّة في العمر.

(٤) الإسراء ١٧: ٩٢.

(٥) الفرقان ٢٥: ٢١.

(٦) التبيان ١: ٤٠٢؛ مجمع البيان ١: ٣٤٤.

(٧) القصص ٢٨: ٢٢.

يعني قصد الطريق.(١)

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

[٢/٢٩٩٠] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يقول: يتبدّل الشدّة بالرخاء.(٢)

[٢/٢٩٩١] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال: عدل عن السبيل.(٣)

[٢/٢٩٩٢] وعن الفرّاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال: أي ذهب عن قصد الطريق وسَمته، أي طريق طاعة الله عزّوجلّ.(٤)

[٢/٢٩٩٣] وروي عن الحسن في قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال: معناه قصد الطريق.(٥)

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً﴾

[٢/٢٩٩٤] قال مقاتل بن سليمان: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وذلك أنّ نفراً من اليهود منهم فنحاص، وزيد بن قيس ـ بعد قتال أُحد ـ دعوا حذيفة، وعمّاراً إلى دينهم وقالوا لهما: إنّكما لن تصيبا خيراً للذي أصابهم يوم أُحد من البلاء. وقالوا لهما: ديننا أفضل من دينكم ونحن أهدى منكم سبيلاً. قال لهم عمّار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال عمّار: فإنّي عاهدت ربّي أن لا أكفر بمحمّد أبداً، ولا أتّبع ديناً غير دينه. فقالت اليهود: أمّا عمّار فقد ضلّ وصبأ عن الهدى بعد إذ بصّره الله. فكيف أنت يا حذيفة، ألا تبايعنا؟ قال حذيفة: الله ربّي ومحمّد نبيّي والقرآن إمامي أطيع ربّي، وأقتدي برسولي، وأعمل بكتاب الله ربّي، حتّى يأتيني اليقين على الإسلام والله السلام ومنه السلام.

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٣٠.

(٢) الدرّ ١: ٢٦١؛ الطبري ١: ٦٧٩ / ١٤٧٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٤ / ١٠٧٨ و ١٠٧٩.

(٣) الدرّ ١: ٢٦١؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٤ / ١٠٨٠.

(٤) القرطبي ٢: ٧٠.

(٥) التبيان ١: ٤٠٤.

فقالوا: وإلـه موسى، لقد أشربت قلوبكم حبّ محمّد.

فقال عمّار: ربّي أحمده، وربّي أكرم محمّداً، ومنه اشتق الجلالة، إنّ محمّداً أحمد هو محمّد. ثمّ أتيا النبيّ ﷺ فأخبراه، فقال: ما رددتما عليهما؟ فقالا: قلنا: الله ربّنا، ومحمّد رسولنا، والقرآن إمامنا، الله نطيع، وبمحمّد نقتدي، وبكتاب الله نعمل! فقال النبيّ ﷺ أصبتما أخا الخير، وأفلحتما فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ يحذر المؤمنين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ في التوراة أنّ محمّداً نبيّ ودينه الإسلام. ثمّ قال سبحانه: ﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا﴾ يقول اتركوهم واصفحوا. يقول وأعرضوا عن اليهود ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فأتى الله ـ عزّ وجلّ ـ بأمره في أهل قريظة: القتل والسبي وفي أهل النضير الجلاء والنفي من منازلهم وجنّاتهم التي بالمدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من القتل والجلاء ﴿قَدِيرٌ﴾.(١)

[٢٩٩٥/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ قال: من بعد ما تبيّن لهم أنّ محمّداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل نعته وأمره ونبوّته، ومن بعد ما تبيّن لهم أنّ الإسلام دين الله الذي جاء به محمد ﷺ ﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا﴾ قال: أمر الله نبيّه أن يعفو عنهم ويصفح ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فأنزل الله في براءة وأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢) الآية. فنسختها هذه الآية، وأمره الله فيها بقتال أهل الكتاب حتّى يسلموا أو يقرّوا بالجزية.(٣)

[٢٩٩٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا﴾ وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤) ونحو هذا في العفو عن المشركين قال: نُسخ ذلك كلّه بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٥) وقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) التوبة ٩: ٢٩.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٢؛ الطبري ١: ٦٨٤ / ١٤٨٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٦ / ١٠٨، مختصراً.

(٤) الأنعام ٦: ١٠٦.

(٥) التوبة ٩: ٢٩.

وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[١].[٢]

[٢٩٩٧/٢] وروي عن عطاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: يريد إجلاء النضير وقتل قريظة، وفتح خيبر وفَدَك.[٣]

[٢٩٩٨/٢] روى أبوالفتوح قال: جاء رجل إلى النبيّ وقال: يا رسول الله! ما بالُنا نكره الموت؟ قال ﷺ: قدّم مالك فإنّ قلب كلّ امرء عند ماله.[٤]

[٢٩٩٩/٢] وروي في قوله: ﴿وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: إنّ العبد إذا مات، قال الناس: ما خلّف، وقالت الملائكة ما قدّم.[٥]

[٣٠٠٠/٢] وأخرج الثعلبي عن أنس بن مالك قال: دخل عليّ بن أبي طالب عليه السلام المقابر فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أموالُكم قُسّمت، ودوركم سُكنت، وأزواجكم نُكحت! فهذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ فهتف هاتف: وعليكم السلام ما أكلنا رَبحْنا، وما قدّمنا وَجَدْنا، وما خَلّفنا خَسِرْنا.[٦]

---

(١) التوبة ٩: ٥.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٢؛ الطبري ١: ٦٨٥ / ١٤٨٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٦ / ١٠٨٩؛ القرطبي ٢: ٧١. قال في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿صَاغِرُونَ﴾؛ ابن كثير ١: ١٥٨. وكذا عن السدّيّ. وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدّيّ: أنّها منسوخة بآية السيف؛ أبوالفتوح ٢: ١٠٩، بأنّها منسوخة بآية: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عن ابن عبّاس برواية ابن أبي طلحة؛ الدلائل ٢: ٥٨٢، باب مبتدأ الإذعان بالقتال.

(٣) الوسيط ١: ١٩١.

(٤) أبو الفتوح ٢: ١١٢؛ الأمالي للسيّد المرتضى ١: ١٩٨.

(٥) القرطبي ٢: ٧٣؛ أبوالفتوح ٢: ١١٢ ـ ١١٣، عن النبيّ ﷺ؛ الثعلبي ١: ٢٥٩.

(٦) الثعلبي ١: ٢٥٩؛ ابن عساكر ٢٧: ٣٩٤ ـ ٣٩٥، الترجمة ٣٢٤٦ في رواية سعيد بن مسيّب.

قال تعالى:

وَ قَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُـرْهَانَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِـندَ رَبِّـهِ وَ لَا خَـوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ قَـالَتِ النَّـصَارَىٰ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

وهكذا يمضي السياق في تفنيد دعاوي أهل الكتاب: أنّهم لوحدهم على الهدى! في حين أنّ بعضهم ينفي البعض في وقاحة عارمة.

تزعم اليهود أنّهم على الحقّ، يتبوّؤون من الجنّة حيثما شاؤوا. وهكذا تزعم النصارى أنّ الجنّة اختصّت بهم. نعم، تلك أمانيّهم الخادعة. فإن زعموا أنّهم صادقون في ذلك فليأتوا ببرهان على دعواهم، ولكن أنّى لهم بذلك وهم لايملكون سوى دعاوٍ فارغة.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: أخلص ذاته كلّها لله ووجّه مشاعره كلّها إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في فعاله وصادق في نيّته ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عن هول المطّلع.

وقال كلٌّ من اليهود والنصارى: إنّ الفريق الآخر ليس على شيء: لابرهان له في دينه. وهذا الترامي والتقاذف من الفريقين، ينبؤك عن جهلهما الموقع، وكأنّهم ليسوا أهل دراسة وكتاب؟!

ومن ثمّ فإنّ قولتهم هذه تشبه قولة أمّة أمّيّة جاهلة لايعلمون شيئاً. نعم، سوف يحاكمهم الله على هذا التحارش والتجاهل الشنيع. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

* * *

[٣٠٠١/٢] أخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال: أمانيّ تمنّوا على الله بغير

الحقّ.[١]

[٣٠٠٢/٢] وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال: أمانيّ يتمنّونها على الله كاذبة.[٢]

[٣٠٠٣/٢] وأخرج عن السدّي في قوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قال: هاتوا حجّتكم.[٣]

[٣٠٠٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قال: هاتوا بيّنتكم على ذلك.[٤]

[٣٠٠٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ قَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ﴾ على ديننا ﴿هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ يقول تمنّوا على الله فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني حجّتكم من التوراة والإنجيل ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بما تقولون! فأكذبهم الله فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ لكن يدخلها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني أخلص دينه لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.[٥]

[٣٠٠٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ قَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنّة إلّا من كان يهوديّاً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصرانيّاً ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال: أمانيّ يتمنّونها على الله بغير حقّ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني حجّتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بما تقولون أنّها كما تقولون ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يقول: أخلص لله.[٦]

[٣٠٠٧/٢] وعن مجاهد في قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ قال: أخلص دينه. وكذا عن سعيد بن

---

(١) الطبري ١: ٦٨٨ / ١٤٩٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٧ / ١٠٩٥، وعن أبي العالية؛ ابن كثير ١: ١٥٩؛ التبيان ١: ٤١١؛ مجمع البيان ١: ٣٥٠.

(٢) الطبري ١: ٦٨٨ / ١٤٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٧ / ١٠٩٥، كذا عن أبي العالية، والربيع؛ التبيان ١: ٤١٠ ـ ٤١١؛ مجمع البيان ١: ٣٥٠.

(٣) الطبري ١: ٦٨٩ / ١٤٩٥، وعن مجاهد والربيع؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٧ / ١٠٩٦، وعن أبي العالية.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٢٠٧ / ١٠٩٧؛ الطبري ١: ٦٨٩ / ١٤٩٤.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٣١ ـ ١٣٢.

(٦) الدرّ ١: ٢٦٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٨ / ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٨ و ١٠٩٩، على الترتيب.

جبير.(١)

[٣٠٠٨/٢] وأخرج الثعلبي عن مقاتل قال: أخلص دينه وعمله لله(٢). وهكذا قال الحسن.(٣)

[٣٠٠٩/٢] وروي عن ابن عبّاس في قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ قال: أخلص عمله لله(٤). وكذا عن الربيع.(٥)

[٣٠١٠/٢] وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قال: مؤمن موحّد مصدّق لما جاء به محمّد ﷺ.(٦)

[٣٠١١/٢] وأخرج مسلم من حديث عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو ردّ».(٧)

[٣٠١٢/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: لمّا قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حُريملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل. فقال رجل من أهل نجران لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي كلّ يتلو في كتابه تصديق من كفر به.(٨)

[٣٠١٣/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ يعني ابن صوريا وأصحابه ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٣؛ ابن كثير ١: ١٥٩؛ التبيان ١: ٤١٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٨ / ١١٠٠.

(٢) الثعلبي ١: ٢٥٩.

(٣) التبيان ١: ٤١٣.

(٤) التبيان ١: ٤١٣؛ مجمع البيان ١: ٣٥٢، بلفظ: «معناه من أخلص نفسه لله».

(٥) الطبري ١: ٦٩٠ / ١٤٩٩.

(٦) الوسيط ١: ١٩٣.

(٧) مسلم ٥: ١٣٢ كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور؛ ابن كثير ١: ١٥٩.

(٨) الدرّ ١: ٢٦٣؛ الطبري ١: ٦٩٢ ـ ٦٩٣ / ١٥٠٠ و ١٥٠٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٨ و ٢٠٩ / ١١٠٣ و ١١٠٦؛ القرطبي ٢: ٧٦، رواه مختصراً؛ التبيان ١: ٤١٤؛ أبو الفتوح ٢: ١١٩؛ الوسيط ١: ١٩٣.

عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدين. فمالك يا محمّد؟ والنصارى اتّبعوا ديننا! ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدين فمالك يا محمّد؟ واليهود اتّبعوا ديننا! ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يقول وهم يقرأون التوراة والإنجيل يعني يهود المدينة ونصارى نجران ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني هكذا ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتوحيد ربّهم يعني مشركي العرب أنّ محمّداً وأصحابه ليسوا على شيء من الدّين.(١)

[٣٠١٤/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم العرب، قالوا: ليس محمّد ﷺ على شيء.(٢)

[٣٠١٥/٢] وأخرج عن ابن جُريج قال: قلت لعطاء: من هؤلاء الّذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى.(٣)

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٣٢.

(٢) الطبري ١: ٦٩٤ / ١٥٠٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٩ / ١١٠٧.

(٣) الطبري ١: ٦٩٤ / ١٥٠٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٠٩ / ١١٠٨؛ الثعلبي ١: ٢٦٠، وزاد: «مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ونحوهم. قالوا في نبيّهم إنّه ليس على شيء وأنّ الدّين ديننا».

قال تعالى:

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ مَاكَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

والآية ترذيل لأيّ محاولة كانت للتهريج بين المسلمين والتفرقة في صفوفهم التراصّة، وتبديد التفاهم حول محوريّة العقيدة الإسلاميّة العريقة.

فمن محاولاتهم الفاشلة ـ سواء أكانت من اليهود وسائر أهل الكتاب، أم من رؤساء الشرك والنفاق من العرب ـ كان من محاولاتهم بثّ روح النفرة عن الدين، والرغبة عن ركائز الفطرة والعقيدة الثابتة في نفوس المسلمين، ليحولوا دون حضورهم الكاظّ من المساجد للعبادة.. سعياً وراء خرابها: إخلائها عن المصلّين وإجلاء المتعبّدين منها.

ولكن هيهات، من حفر بئراً لأخيه، وقع فيه. أولئك هم يستحقّون الإبعاد والمطاردة والحرمان من الأمن، فلن يدخلوها إلّا خائفين ـ كالذي حدث عام الفتح، حيث نادى منادي رسول الله ﷺ: ألا ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش، وكانوا قبل ذلك هم يصدّون رسول الله ﷺ ومن معه ويمنعونهم زيارة بيت الله الحرام. وبذلك شملهم الخزي عاجلاً قبل خزي الآخرة الشديد العظيم.

[٣٠١٦/٢] أخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المشركون حين صدّوا رسول الله ﷺ عن البيت يوم الحديبيّة.[١]

[٣٠١٧/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلّوا فيه.[٢]

---

(١) الطبري ١: ٦٩٧/ ١٥١٣.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٤؛ الطبري ١: ٦٩٦/ ١٥١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٠/ ١١١٢؛ ابن كثير ١: ١٦١.

[٣٠١٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال: أولئك أعداء الله الروم، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بخت نصّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس!(١)

[٣٠١٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ مَنْ أَظْـلَمُ﴾ نزلت في انطياخوس بن ببليس الرومي ومن معه من أهل الروم يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾ يعني نصارى الروم ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ يعني بيت المقدس أن يصلّى فيه ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني التوحيد ﴿وَ سَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ وذلك أنّ الروم ظهروا على اليهود فقتلوهم وسبوهم وخرّبوا بيت المقدس وألقوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير. ثمّ كان على عهد الروم الثانية ططسربن سناباتوس ويقال اصطفانوس، فقتلهم وخرّب بيت المقدس فلم يعمر حتّى بناه المسلمون في زمان عمربن الخطّاب؟!(٢)

[٣٠٢٠/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَ مَنْ أَظْـلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ الآية. قال: هم الروم، كانوا ظاهروا بخت نصّر على بيت المقدس. وفي قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ قال: فليس في الأرض روميّ يدخله اليوم إلّا وهو خائف أن تضرب عنقه، وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤدّيها. وفي قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قال: أمّا خزيهم في الدنيا، فإنّه إذا قام المهديّ(!؟) وفتحت القسطنطينيّة (!؟) قتلهم. فذلك الخزي!(٣)

[٣٠٢١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ أخبر عن أهل الروم فقال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني الهوان إن لم تقتل مقاتلتهم وتُسب ذراريهم بأيدي المسلمين في ثلاث مدائن: قسطنطينيّة والروميّة ومدينة أخرى وهي عموريّة فهذا خزيهم في الدنيا ﴿وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من النار.(٤)

* * *

[٣٠٢٢/٢] وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ قال: هذا

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٥؛ الطبري ١: ٦٩٦ / ١٥١١؛ الثعلبي ١: ٢٦١.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٣٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٤؛ الطبري ١: ٦٩٧ / ١٥١٢ و ١٥١٥ و ١٥١٨؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٦ / ١٠٩ عن قتادة؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١١ / ١١١٦ و ١١١٨؛ القرطبي ٢: ٧٩، بلفظ: «الخزي لهم في الدنيا قيامُ المهديّ وفتحُ عمّوريّة و روميّة وقسطنطنيّة وغير ذلك من مُدُنهم»؛ الثعلبي ١: ٢٦١، عن قتادة والسدّي وزاد: من أجل أنّهم قتلوا يحيى بن زكريّا.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٣٣.

وعد من الله لنبيّه والمهاجرين، يقول لهم: أفتح لكم مكّة حتّى تدخلوها آمنين، وتكونوا أولى بها منهم.(١)

[٣٠٢٣/٢] وعن ابن زيد قال: نادى منادي رسول الله ﷺ: «لا يَحُجَّنّ بعد العام مشرك، ولا يطوفَنَّ بالبيت عُريان ومن كان له أجل فأجله إلى مدّته» قال: فجعل المشركون يقولون: اللهمّ إنّا مُنِعْنا أن ننزل!(٢)

[٣٠٢٤/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قال: يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.(٣)

[٣٠٢٥/٢] وروى العيّاشي عن محمّد بن يحيى في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ يعني لا يقبلون الإيمان لا يقبلونه إلّا والسيف على رؤوسهم.(٤)

[٣٠٢٦/٢] وروى عن زيد بن عليّ عن آبائه عن عليّ عليه السلام: إنّه أراد جميع الأرض لقول النبيّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».(٥)

[٣٠٢٧/٢] وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه عن بسر بن أرطاة قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهمّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة».(٦)

* * *

(١) الوسيط ١: ١٩٣.

(٢) الطبري ١: ٦٩٩ / ١٥١٦؛ القرطبي ٢: ٧٩؛ ابن كثير ١: ١٦١؛ التبيان ١: ٤١٩؛ مجمع البيان ١: ٣٥٦؛ البغوي ١: ١٥٧ / ٧٥، بلفظ: وأمر النبيّ ﷺ منادياً ينادي: ألا لا يحجّنّ بعد هذا العام مشرك، فهذا خوفهم: أبوالفتوح ٢: ١٢٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٥؛ الطبري ١: ٦٩٩ / ١٥١٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١١ / ١١١٩؛ عبدالرزّاق ١: ٢٨٦، ر ١٠٩؛ التبيان ١: ٤٢٠؛ مجمع البيان ١: ٣٥٦.

(٤) العيّاشي ١: ٧٥ / ٧٩؛ الصافي ١: ٢٦٩، عن العيّاشي؛ البحار ٩٧: ٢٦ / ٢٩، باب ٢.

(٥) نورالثقلين ١: ١١٧ / ٣١٧؛ مجمع البيان ١: ٣٥٥ / ٣٥٦؛ التبيان ١: ٤١٧ ـ ٤١٨؛ الصافي ١: ٢٦٨. وزاد: «أقول وهو عامّ لكلّ مسجد وكلّ مانع، وإن نزل خاصّاً»؛ كنزالدقائق ٢: ١٢٣؛ البحار ٨٠: ٣٤٠، باب ٨. قال المجلسي: اللفظ يقتضي العموم في كلٍّ من المسجد والمانع والذكر.

(٦) الدرّ ١: ٢٦٥؛ مسند أحمد ٤: ١٨١؛ التاريخ ١: ٣٠ / ٤٢؛ الحاكم ٣: ٥٩١، كتاب معرفة الصحابة؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٧٨، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني... ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني ثقات؛ ابن كثير ١: ١٦٢.

[١٣٠٢٨/٢] وروي عن الإمام العسكري عليه السلام قال: «قال الحسن بن عليّ عليه السلام: لمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله بمكّة وأظهر بها دعوته، ونشر بها كلمته، وعاب أديانهم في عبادتهم الأصنام، واجدوه وأساؤوا معاشرته وسعوا في خراب المساجد المبنية، كانت لقوم من خيار أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله بفناء الكعبة مساجد يُحيون فيها ما أماته المبطلون، فسعى هؤلاء المشركون في خرابها وإيذاء محمّد صلى الله عليه وآله وسائر أصحابه وألجأوه إلى الخروج من مكّة نحو المدينة.

فلمّا خرج التفت خلفه وقال: «الله يعلم أنّي أحبّكِ، ولولا أنّ أهلكِ أخرجوني عنكِ لما آثرت عليكِ بلداً ولا ابتغيت عنك بدلاً، وإنّي لمغتمّ على مفارقتكِ»، فأوحى الله إليه: يا محمّد إنّ العليّ الأعلى يقرأ عليك السلام ويقول: سأردّك إلى هذا البلد ظافراً غانماً سالماً قادراً قاهراً، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[١] يعني إلى مكّة غانماً ظافراً، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه، فاتّصل بأهل مكّة، فسخروا منه، فقال تعالى لرسوله: سوف أُظفرك بمكّة وأُجري عليهم حكمي وسوف أمنع من دخولها المشركين حتّى لا يدخلها أحد منهم إلّا خائفاً إن دخلها مستخفياً من أنّه إن عُثر عليه قُتل.

فلمّا حتم قضاء الله بفتح مكّة واستوسقت[٢] له، أمّر عليهم عتّاب بن أسيد[٣]. فلمّا اتّصل بهم خبره قالوا: إنّ محمّداً لايزال يستخفّ بنا حتّى ولّى علينا غلاماً حدث السن، ابن ثماني عشرة سنة، ونحن مشايخ ذوو الأسنان و خدّام بيت الله الحرام، وجيران حرمه الآمن، خير بقعة على وجه الأرض. وكتب رسول الله صلى الله عليه وآله لعتّاب بن أسيد عهداً على أهل مكّة وكتب في أوّله: بسم الله الرحمان الرحيم، من محمّد رسول الله إلى جيران بيت الله وسكّان حرم الله، أمّا بعد، وذكر العهد، وقرأه عتّاب على أهل مكّة.

---

(١) القصص ٢٨: ٨٥.

(٢) استوسق الأمر: انتظم وأمكن. «المعجم الوسيط ـ مادة وسق».

(٣) عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، القرشيّ الأموي، يكنّى أبا عبدالرحمان، وقيل: أبو محمّد. أسلم يوم فتح مكّة، واستعمله النبيّ عليها لمّا سار إلى حنين وبقي على مكة إلى أن توفّي رسول الله فأقرّه أبوبكر عليها، فاستمرّ فيها إلى أن مات يوم مات أبوبكر في ١٣ هـ. وقيل في ٢٣ هـ؛ الكامل في التاريخ ٢: ٢٦٢؛ الإصابة ٤: ٢١١ / ٥٣٨٣؛ أسد الغابة ٣: ٤٥١ (٣٥٣٢).

ثمّ قال الإمام ﷺ بعد ذلك: ثمّ بعث رسول الله ﷺ بعشر آيات من سورة براءة مع أبي بكر، وفيها ذكر نبذ العهود إلى الكافرين وتحريم قرب مكّة على المشركين، وأمّر أبابكر على الحجّ ليحجّ بمن ضمّه الموسم ويقرأ الآيات عليهم، فلمّا صدر عنه أبوبكر جاءه جبرائيل ﷺ، فقال: يا محمّد إنّ العليّ الأعلى يقرأ عليك السلام ويقول: لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك، فابعث عليّاً ليتناول الآيات، فيكون هو الذي ينبذ العهود ويقرأ الآيات... ولقي أبوبكر بعد ذلك رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، أنت أمّرت عليّاً أن يأخذ الآيات؟ فقال رسول الله ﷺ: لا ولكنّ العليّ العظيم أمرني ألّا ينوب عنّي إلّا من هو منّي... فسرّي[1] بذلك عن أبي بكر.

قال: فمضى عليّ ﷺ لأمر الله ونبذ العهود إلى أعداء الله وأيس المشركون من الدخول بعد عامهم ذلك إلى حرم الله، وكانوا عدداً كثيراً وجمّاً غفيراً غشّاه الله نوره وكساه فيهم هيبةً وجلالاً، لم يجسروا معها على إظهار خلاف ولا قصدٍ بسوء، قال: وذلك قوله: ﴿وَ مَنْ أَظْـلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وهي مساجد خيار المؤمنين بمكّة لمّا منعوهم من التعبّد فيها بأن ألجأوا رسول الله ﷺ إلى الخروج من مكّة ﴿وَ سَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ خراب تلك المساجد لئلّا تعمر بطاعة الله، قال الله تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أن يدخلوا بقاع تلك المساجد في الحرم إلّا خائفين من عذابه وحكمه النافذ عليهم إن يدخلوها كافرين بسيوفه وسياطه ﴿لَـهُمْ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، وهو طرده إيّاهم عن الحرم ومنعهم أن يعودوا إليه ﴿وَ لَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾».[2]

---

(١) سُرّي عنه: انكشف عنه الهمّ. «القاموس المحيط ـ مادة سرو».

(٢) تفسير الإمام: ٥٥٤ ـ ٥٦٠؛ البحار ٢١: ١٢١ ـ ١٢٢، و ٣٥: ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾

هذا ردّ على شبهة يهوديّة مزعومة: قالوا: إذا كان التوجّه إلى بيت المقدس توجّهاً إلى الله في العبادة، فليكن التوجّه إلى البيت الحرام توجّهاً إلى غيره تعالى؟!

لكن إذا كان التوجّه إلى نقطةٍ مّا في العبادة، لغرض توحيد الصفّ وتوحيد الاتجاه إلى الله في العبادة، هذا فحسب فلا يتعدّد الاتجاهات ولايختلف الصفوف حين العبادة والوقوف لديه تعالى، هذا هو الغرض الأصلي والهدف الأقصى.

وأمّا كون هذا الاتجاه إلى بيت المقدس أو أيّ نقطة أخرى، فلا يعدو اعـتبارياً مـحضاً، قـد يختلف حسب اختلاف الظروف والأحوال.

وإلّا فكلّ نقطةٍ اتّجه إليه المتعبّد في قيامه وركوعه وسجوده وصلاته ودعائه، فهو متّجه إلى الله سبحانه، إذ لايحويه مكان ولا يخلو منه مكان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ في الاتجاه إليه سعة الآفاق ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم في التوجّه والعبادة.

إذن فلم يكن الله قابعاً في زاوية بيت المقدس، ولا هو ارتحل إلى البيت الحرام؟!

[٣٠٢٩/٢] قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ...﴾ قال ابن عبّاس واختاره الجبّائي: إنّه ردّ على اليهود، لما أنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة. قال تعالى: ليس هو في جهة دون جهة كما يقول المشبّهة.(١)

[٣٠٣٠/٢] وهكذا روى الثعلبي عن أبي العالية قال: لمّا غُيِّرت القبلة إلى الكعبة، عَيَّرت اليهودُ المؤمنين في انحرافهم عن بيت المقدس. فأنزل الله تعالى هذه الآية جواباً إليهم.(٢)

[٣٠٣١/٢] وروي عن أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «جاء قوم من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: يا محمّد، هذه القبلة بيت المقدس، قد صلّيت إليها أربع عشرة سنة، ثمّ تركتها الآن! أفـحقّاً

(١) التبيان ١: ٤٢٤؛ مجمع البيان ١: ٣٥٨.

(٢) الثعلبي ١: ٢٦٣.

كان كُنتَ عليه؟ فقد تركته إلى باطل. فإنّما يخالف الحقَّ الباطلُ؟! أو باطلاً كان ذلك، فقد كنت عليه طول هذه المدّة! فما يؤمّننا أن تكون الآن على باطل؟! فقال رسول الله ﷺ: بل ذلك كان حقّاً وهذا حقٌّ، يقول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] إذا عرف صلاحكم يا أيّها العباد في استقبال المشرق، أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب، أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده، وقصده إلى مصالحكم.

ثمّ قال رسول الله ﷺ ـ مخاطباً لليهود ـ: قد تركتم العمل يوم السبت، ثمّ عملتم بعده سائر الأيّام، ثمّ تركتموه في السبت ثمّ عملتم بعده، أفتركتم الحقّ إلى باطل أو الباطل إلى حقّ؟ أو الباطل إلى باطل؟ أو الحقّ إلى حقّ؟ قولوا كيف شئتم، فهو قول محمّد وجوابه لكم.

قالوا: بل ترك العمل في السبت حقّ، والعمل بعده حقّ! فقال رسول الله ﷺ: فكذلك قبلة بيت المقدس في وقته حقّ، ثمّ قبلة الكعبة في وقته حقّ.

ثمّ قالوا: يا محمّد، أفبدا لربّك فيما كان أمرك به بزعمك من الصلاة إلى بيت المقدس، حين نقلك إلى الكعبة؟ فقال رسول الله ﷺ: ما بدا له عن ذلك، فإنّه العالم بالعواقب، والقادر على المصالح، لايستدرك على نفسه غلطاً، ولايستحدث رأياً يخالف المتقدم، جلّ عن ذلك، ولايقع أيضاً عليه مانع يمنعه عن مراده، وليس يبدو إلّا لمن كان هذا وصفه، وهو ـ عزّ وجلّ ـ متعالٍ عن هذه الصفات علوّاً كبيراً.

ثمّ قال لهم رسول الله ﷺ: أيّها اليهود، أخبروني عن الله، أليس يُمرض ثمّ يُصحّ؟ ويُصحّ ثمّ يُمرض؟ أبدا له في ذلك؟ أليس يُحيي ويُميت؟ أليس يأتي بالليل في أثر النهار ثمّ بالنهار في أثر الليل؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكذلك الله تعبّد نبيّه محمّداً، بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن تعبّده بالصلاة إلى بيت المقدس، وما بدا له في الأوّل.

ثمّ قال: أليس الله يأتي بالشتاء في أثر الصيف؟ والصيف في أثر الشتاء؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكذلك لم يبدُ له في القبلة. ثمّ قال: أليس قد ألزمكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة؟ وألزمكم في الصيف أن تحترزوا من الحرّ؟ فبدا له في الصيف حتّى أمركم

(١) البقرة ٢: ١٤٢.

بخلاف ما كان أمركم به في الشتاء؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: فكذلك تعبّدكم في وقتٍ لصلاح يعلمه بشيء، ثمّ بعده في وقتٍ آخر لصلاح آخر يعلمه بشيء آخر. فإذا أطعتم الله في الحالين استحققتم ثوابه. وأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي إذا توجّهتم بأمره، فثمّ الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله، أنتم كالمرضى، والله ربّ العالمين كالطبيب. فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب ويدبّره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه. ألا فسلّموا الله أمره تكونوا من الفائزين.

فقيل له (لأبي محمّد): يا ابن رسول الله، فلِمَ أمر بالقبلة الأُولى؟ فقال: لما قال الله عزوجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ إلّا لنعلم ذلك منه موجوداً، بعد أن علمناه سيوجد ذلك. إنّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبيّن متّبع محمّد من مخالفه، باتّباع القبلة التي كرهها، ومحمّد يأمر بها. ولمّا كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم مخالفتها والتوجّه إلى الكعبة، ليتبيّن من يوافق محمّداً فيما يكرهه، فهو مصدّقه وموافقه.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[١] إنّما كان التوجّه إلى بيت المقدس، في ذلك الوقت كبيرة، إلّا على من يهدي الله، فعرف أنّ الله يتعبّد بخلاف ما يريده المرء، ليبتلي طاعته في مخالفته هواه».[٢]

ملحوظة

هذه الآية وإن كانت في صياغتها الأُولى وسياقتها مع حادث تحويل القبلة، تستهدف الإجابة على مسائل قد يثيرها المتشكّكون، حسبما قدّمنا في آية النسخ والإنساء، وهنا، كما عرفت.

لكن لها واجهة أخرى هي أعمّ يمكن التطلّع منها إلى آفاق أوسع نطاقاً. وبشأن مسائل أخرى

(١) البقرة ٢: ١٤٣.

(٢) الوسائل ٣: ١٧٥؛ الاحتجاج ١: ٤٤؛ البحار ٤: ١٠٥ ـ ١٠٧، أبواب الصفات، الباب الثالث.

تعود إلى جواز الصلاة إلى أيّ الجهات، كما في الصلاة على الراحلة، يتّجه المصلّي حيثما توجّهت به راحلته، وكذا الصلاة في السفينة ونحوها من مراكب السفر.. وهكذا الصلاةُ مندوبةً إذا صلّاها ماشياً، أو إذا اشتبه القبلة في ظلام الليل، صلّى إلى أيّ الجهات الأربع، كلّ ذلك وردت الرخصة به في الشريعة الغرّاء[1]. والاستناد في الجميع هي هذه الآية الكريمة.

إذن فالآية ذات أبعاد وجوانب، جاءت لتحلّ مشكلة تحويل القبلة، من جانب ولتجيب على مسائل أخرى ـ تمسّ أمر الاستقبال في حالات وظروف خاصّة ـ من جوانب أخرى.

وليس هذا من استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وإنّما هو أخذ بمفهوم عامّ شامل.

وبعبارة أخرى: طُبّقت الآية على مورد النزول بمفهومها العامّ، والذي هو صالح للانطباق على موارد أخرى تناسبها، كما لايخفى على المتدبّر.

حادث تحويل القبلة إلى البيت العتيق

صلّى رسول الله ﷺ مدّة بقائه بمكّة وبعد الهجرة لمدة بضعة عشر شهراً، متوجّهاً إلى بيت المقدس، حتّى جاءه الأمر بالتحوّل نحو البيت العتيق.

قال الشيخ أبو عبدالله المفيد: أنّ ذلك كان في النصف من رجب سنة اثنتين من الهجرة.[2]

[٣٠٣٢/٢] وروى عن معاوية بن عمّار أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك، قال: متى صُرف رسول الله ﷺ إلى الكعبة؟ قال: «بعد رجوعه من بدر.[3]

كان يصلّي في المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثمّ تحول إلى الكعبة».[4]

[٣٠٣٣/٢] وعن أبي بصير عن أحدهما (الباقر والصادق عليهما السلام) في حديث قال: قلت له: إنّ الله أمر نبيّه ﷺ أن يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم، ألاترى أنّ الله تعالى يقول: ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ...﴾[5]. ثمّ قال: إنّ بني عبد الأشهل أتوهم

---

(١) وسنذكرها.

(٢) الوسائل ٤: ٣٠٢ / ١٦ عن كتاب مسارّ الشيعة للمفيد: ٣٥.

(٣) المصدر: ٢٩٧ / ١ باب ٢.

(٤) المصدر: ٢٩٨ / ٣.

(٥) البقرة ٢: ١٤٣.

ـ وهم في الصلاة وقد صلّوا ركعتين إلى بيت المقدس ـ فقيل لهم: إنّ نبيّكم صُرف إلى الكعبة.. فتحوّلت النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، وجعلوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة. فصلّوا صلاة واحدة إلى قبلتين، فلذلك سمّي مسجدهم مسجد القبلتين».(١)

[٣٠٣٤/٢] وروى أبوالفضل شاذان بن جبرئيل القمّي عن معاوية بن عمّار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: متى صُرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة؟ قال: «بعد رجوعه من بدر، وكان يصلّي في المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثمّ أُعيد إلى الكعبة».(٢)

[٣٠٣٥/٢] وروى أبو جعفر الطوسي بإسناده عن عليّ بن الحسن الطاطري، عن ابن أبي حمزة ـ يعني محمّداً ـ عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: متى صُرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة؟ قال: «بعد رجوعه من بدر».(٣)

[٣٠٣٦/٢] وروى أبوجعفر الكليني بإسناده عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم، فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ فقال: أمّا إذا كان بمكّة فلا، وأمّا إذا هاجر إلى المدينة فنعم، حتّى حُوّل إلى الكعبة».(٤)

[٣٠٣٧/٢] وروى بالإسناد إلى عيسى بن يونس ـ في حديث ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال ـ وقد أنكر عليه الطواف بالكعبة ـ: «وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه وقبلة للمصلّين إليه».(٥)

[٣٠٣٨/٢] وروى عبدالله بن جعفر في قرب الإسناد بإسناده عن أبي البختري، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استقبل بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثمّ صُرف إلى الكعبة وهو

---

(١) الوسائل ٤: ٢٩٧ ـ ٢٩٨ / ٢؛ التهذيب، للطوسي ٢: ٤٣ / ١٣٨ ـ ٦؛ البحار ١٩: ٢٠٠.

(٢) الوسائل ٤: ٢٩٨؛ البحار ٨١: ٧٦.

(٣) الوسائل ٤: ٢٩٧؛ التهذيب ٢: ٤٣ / ١٣٥ ـ ٣؛ البحار ١٩: ١٩٩ / ٢.

(٤) الوسائل ٤: ٢٩٨؛ الكافي ٣: ٢٨٦ / ١٢؛ البحار ١٩: ٢٠٠ / ٥.

(٥) الوسائل ٤: ٢٩٨؛ الكافي ٤: ١٩٧ / ١؛ العلل ٢: ٤٠٣ / ٤، باب ١٤٢؛ الأمالي للصدوق: ٧١٥، المجلس التسعون؛ التوحيد: ٢٥٣ / ٤، باب ٣٦ (الردّ على الثنوية والزنادقة)؛ الفقيه ٢: ٢٥٠ / ٢٣٢٥؛ البحار ٣: ٣٣ / ٧، باب ٣.

في العصر.[١]

ملحوظة

والآيات بشأن تحويل القبلة جاءت متفرّقة في سورة البقرة من غير ما نظم حسب تسلسل النزول. فربّ آية كانت متقدّمة في النزول وقد أثبتت متأخّرة ولعلّه لحكمة خفيت علينا، بعد علمنا أنّ النظم القائم كان على علم من رسول الله ﷺ وعلى أيّام حياته.. لا يد لغيره في ذلك البتة.

وإليك نظمها حسب ترتيبها الطبيعي:

فلعلّ أوّل آية نزلت بهذا الشأن هي الآية ١٤٤ من سورة البقرة ثمّ الآية ١٤٥ وبعدها الآية ١٤٩ و ١٥٠. ثمّ الآية ١٤٢ و ١٤٣. وكانت الآيتان ١٠٦ و ١٠٧ جواباً عن شبهة أثارتها اليهود. وآخر آية بهذا الشأن هي الآية ١١٥.. وإليك نسقها حسب التالي:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

٢ ـ ﴿وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

٣ ـ ﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

٤ ـ ﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٥].

---

(١) الوسائل ٤: ٣٠٣؛ قرب الإسناد: ١٤٨ / ٥٣٥؛ البحار ٨١: ٦٥ / ١٨، باب ١٠.

(٢) البقرة ٢: ١٤٤.

(٣) البقرة ٢: ١٤٥.

(٤) البقرة ٢: ١٤٩.

(٥) البقرة ٢: ١٥٠.

٥ ـ ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

٦ ـ ﴿وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَ إِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

٧ ـ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ﴾[3].

٨ ـ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

* * *

تلك مجموعة آيات نزلن بشأن حادث تحويل القبلة.

كانت الأُولى تمهيداً لأرضيّة حادث التحويل.. حيث يرتضيه المؤمنون، وإن كان يمقته المناوؤون، مقتاً عن عصبيّة جهلاء، وهم يعلمون أنّه الحقّ من ربّهم.

والثانية تيئيس عن إمكان التوافق مع المناوئين المعاندين.

والثالثة دستور صريح للاتّجاه نحو الكعبة المكرّمة.

والرابعة تأكيد بليغ لكافّة المسلمين فليتوجّهوا في صلاتهم نحو الكعبة ولايخشوا أحداً من الناس.

والخامسة تعريض بالمناوئين وتسفيه لمزاعم وهموها في عالم الخيال.

والسادسة تبيين لحكمة التثبيت أوّلاً ثمّ التحويل، وليكون اختباراً لموضع المسلمين ومدى إخلاصهم في الايمان والتسليم لله ولرسوله.

والسابعة جواب عن شبهة أثيرت حول النسخ في الشريعة عموماً وأنّه لحكمة بالغة.

والثامنة جواب عن خصوص الشبهة حول حادث تحويل القبلة بالذات.

---

(١) البقرة ٢: ١٤٢.
(٢) البقرة ٢: ١٤٣.
(٣) البقرة ٢: ١٠٦ـ١٠٧.
(٤) البقرة ٢: ١١٥.

وبعد، يا تُرى في هذه المجموعة من الآيات من النظم القائم، المنسجم المترابط بعضها مع البعض، كحلقات متواصلة ليس يفصلها شيء ولعلّها هكذا نزلن، وإن تفرّقن في الثبت، وعسى أن كانت هناك حكمة لاحظها التوقيف والتوظيف الأمر الذي لاينثلم به صلب البحث، بعد العلم بحقيقة الحال.

وبذلك يتبيّن أن لا نسخ هناك في شيء من الآيات، حيثما لاحظناها مجموعة متراصّة متلائمة الأشلاء.

نعم جاء في رواياتٍ عن السلف ما لا يعاضد هذا الاتّجاه، وقد فرضت أخيرة الآيات منسوخة بما سبقها من آيات.

[٣٠٣٩/٢] أخرج أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه والبيهقي في سننه عن ابن عبّاس قال: أوّل ما نُسخ لنا من القرآن ـ فيما ذكر لنا والله أعلم ـ شأن القبلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلّى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثمّ صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق ونسخها؛ فقال: ﴿وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾[١] الآية[٢].

[٣٠٤٠/٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: كان الناس يصلّون قِبَلَ بيت المقدس، فلمّا قدم النبي ﷺ المدينة على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره، وكان إذا صلّى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به، فنسختها قِبَلُ الكعبة.[٣]

[٣٠٤١/٢] وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن قتادة قال: هذه الآية منسوخة، نسخها قوله

---

(١) البقرة ٢: ١٤٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٢ / ١١٢٣؛ الحاكم ٢: ٢٦٧ ـ ٢٦٨، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ البيهقي ٢: ١٢، كتاب الصلاة، باب استبيان الخطاء بعد الاجتهاد؛ التبيان ٢: ١٥؛ مجمع البيان ١: ٤٢٣، بلفظ: قال ابن عبّاس: أوّل ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة؛ ابن كثير ١: ١٦٢.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[١] أي تِلْقاءَهُ.[٢]

[٣٠٤٢/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن ابن عبّاس قال: كان أوّل ما نُسخ من القرآن القبلة. وذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود؛ أمره الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله ﷺ يحبّ قبلة إبراهيم عليه السلام فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[٣] إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[٤] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[٥] فأنزل الله عزّ وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٦].

[٣٠٤٣/٢] وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: هي القبلة، ثمّ نسختها القبلةُ إلى المسجد الحرام.[٧]

القبلة هي جهة الكعبة وسمتها

هناك روايات متظافرة دلّت على أنّ القبلة في الصلاة هي جهة الكعبة وسمتها لمن نأى عنها. فالمصلّي شرقيّ الكعبة، كانت قبلته سمت الغرب، وبالعكس.

والمصلّي شماليّ الكعبة، فقبلته الجنوب بين المشرق والمغرب. وهكذا المصلّي جنوبيّاً، كانت قبلته جهة الشمال.

[٣٠٤٤/٢] روى الشيخ أبوجعفر الطوسي بالإسناد إلى الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال:

---

(١) البقرة ٢: ١٤٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٧؛ الترمذي ٤: ٢٧٤، بعد رقم ٤٠٣٤، كتاب التفسير، سورة البقرة.

(٣) البقرة ٢: ١٤٤. (٤) البقرة ٢: ١٥٠.

(٥) البقرة ٢: ١٤٢.

(٦) الطبري ١: ٧٠٠ / ١٥١٩؛ الوسيط ١: ١٩٤ باختصار، وفيه: «... فلمّا صرفه الله إليها عيّرت اليهود المؤمنين فأنزل الله...».

(٧) الطبري ١: ٧٠١ / ١٥٢١.

«جُعلت الكعبة قبلة لأهل المسجد. وجُعل المسجد قبلة أهل الحرم. والحرم قبلة الآفاق».[١]

[٣٠٤٥/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى أبي غرّة قال: قال لي أبو عبدالله ﷺ: «البيت قبلة المسجد. والمسجد قبلة مكّة. ومكّة قبلة الحرم. والحرم قبلة سائر البلاد».[٢]

[٣٠٤٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي والدار قطني. وكذا الترمذي وصحّحه. وابن ماجة عن عبدالله بن عمر وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «مابين المشرق والمغرب قبلة، إذا توجّهت قِبَلَ البيت»[٣]. يعني بهم أهل المدينة.

قال ابن كثير: ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة والشام والعراق، وذكر الحديث.[٤]

[٣٠٤٧/٢] وعن الحلبي سأل الإمام الصادق ﷺ: هل كان رسول الله ﷺ يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم. فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ قال: أمّا إذا كان بمكّة فلا، وأمّا إذا هاجر إلى المدينة فنعم. حتّى حُوّل إلى الكعبة».[٥]

[٣٠٤٨/٢] وروى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ أنّه قال: «لا صلاة إلّا إلى القبلة.. قلت: وأين حدّ القبلة؟ قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة كلّه».[٦]

[٣٠٤٩/٢] وقال ابن بابويه الصدوق: صلّى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاثة عشر سنة بمكّة وتسعة عشر شهراً بالمدينة. ثمّ عيّرته اليهود فقالوا: إنّه لقبلتنا. فاغتمّ رسول الله ﷺ لذلك فخرج في بعض الليالي يقلّب وجهه في آفاق السماء يترقّب ما يُزيل همّه فلمّا أصبح وصلّى الغداة، ثمّ لمّا صلّى من الظهر ركعتين، جاءه جبرائيل ﷺ وأخذ بيده وحوّل وجهه إلى الكعبة وتحوّل من كان خلفه بوجوههم نحوها حتّى تحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال. فكان أوّل الصلاة إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة. قال: وبلغ الخبر مسجداً آخر فتحوّلوا إلى الكعبة في صلاتهم، فسمّي مسجدهم مسجد القبلتين.[٧]

---

(١) التهذيب ٢: ٤٤ / ١٣٩؛ الوسائل ٤: ٣٠٣ / ١، باب ٣. (٢) العلل: ٣١٨ / ٢؛ الوسائل ٤: ٣٠٤ / ٤.

(٣) المصنّف ٢: ٢٥٦؛ البيهقي ٢: ٩؛ الدار قطني ١: ٢٧٠. الترمذي ١: ٢١٤؛ ابن ماجة ١: ٣٢٣؛ الحاكم ١: ٢٠٥؛ كنزالعمّال ٧: ٣٨٨؛ الدرّ ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨. (٤) ابن كثير ١: ١٦٤.

(٥) الوسائل ٤: ٢٩٨ / ٤. (٦) المصدر: ٣٠٠ / ٩.

(٧) المصدر: ٣٠١ / ١٢.

الكعبة من تخوم الأرض إلى عنان السماء

[٣٠٥٠/٢] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سأله رجل عمّن صلّى فوق أبي قُبيس، فهل يجزي ذلك والكعبة تحته؟ قال: «نعم، إنّها قبلة من موضعها إلى السماء».(١)

[٣٠٥١/٢] وقال ابن بابويه الصدوق: قال الصادق عليه السلام: «أساس البيت من الأرض السابعة السفلى، إلى السماء السابعة العليا».(٢)

الصلاة لأربع جهات عند اشتباه القبلة

[٣٠٥٢/٢] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى إسماعيل بن عبّاد عن خِداش بن إبراهيم عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام سأله عمّا إذا أطبقت السماء علينا أو أظلمت فلم نعرف السماء قال: «إذا كان ذلك فليصلّ لأربع وجوه»(٣). أي أيّ الوجوه من الأربع. نظراً للحديث التالي:

[٣٠٥٣/٢] روى بالإسناد إلى زرارة ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «يجزي المتحيّر أبداً أينما توجّه، إذا لم يعلم أين وجه القبلة».(٤)

[٣٠٥٤/٢] وروى أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني بالإسناد إلى محمّد بن أبي عُمَير عن بعض أصحابنا عن زرارة قال: سألت أباجعفر الباقر عليه السلام عن قبلة المتحيّر، فقال: «يصلّي حيث يشاء».(٥)

وقد فهم الفقهاء من ذلك الصلاة أربعاً إلى أربع جهات، خروجاً عن العلم الإجمالي المتنجّز.

غير أنّ شرط استقبال البيت ساقط عند التعذّر ويدعمه ظهور الرواية بذلك مضافاً إلى شمول الآية لمثل المقام، كما عرفت.

---

(١) التهذيب ٢: ٣٨٣/١٥٩٨؛ الوسائل ٤: ٣٣٩/١ باب ١٨.

(٢) الفقيه ٢: ١٦٠/٦٩٠؛ الوسائل ٤: ٣٣٩/٣. واللفظ في المصدر: إلى الأرض السابعة العليا.. ولعلّه تصحيف، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) التهذيب ٢: ٤٥/١٤٥؛ الوسائل ٤: ٣١١/٥ باب ٨.

(٤) الفقيه ١: ١٧٩/٨٤٥؛ الوسائل ٤: ٣١١/٢.

(٥) الكافي ٣: ٢٨٦/١٠؛ الوسائل ٤: ٣١١/٣.

إذا صلّى ظانّاً ثمّ تبيّن الخلاف

إذا صلّى مع ظنّ القبلة متحرياً، ثمّ تبيّن الخلاف بعد ما انقضى الوقت، فقد مضت صلاته ولا يقضي.. أمّا إذا كان الوقت باقياً فيعيد إذا كان مستدبراً للقبلة.

[٣٠٥٥/٢] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى عبدالرحمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا صلّيت وأنت على غير القبلة، واستبان لك أنّك صلّيت وأنت على غير القبلة، وأنت في وقت، فأعد. وإن فاتك الوقت فلا تُعد».(١)

[٣٠٥٦/٢] وأخرج الدار قطني وابن مردويه والبيهقي عن جابربن عبدالله قال: بعث رسول الله ﷺ سريّة كنتُ فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منّا: القبلة هاهنا قِبَلَ الشمال، فصلّوا وخطّوا خطّاً. وقال بعضنا: القبلة هاهنا قِبَلَ الجنوب، فصلّوا وخطّوا خطّاً. فلمّا أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلمّا قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ فسكت، فأنزل الله: ﴿وِلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ...﴾ الآية.(٢)

[٣٠٥٧/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن عامربن ربيعة، عن أبيه، قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في ليلة مظلمة في سفر، فلم ندر أين القبلة فصلّينا، فصلّى كلّ واحد منّا على حياله(٣). ثمّ أصبحنا فذكرنا للنبيّ ﷺ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.(٤)

[٣٠٥٨/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء: أنّ قوماً عميت عليهم القبلة، فصلّى كلّ إنسان منهم إلى ناحية، ثمّ أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فأنزل الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.(٥)

[٣٠٥٩/٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس، أنّ رسول الله ﷺ بعث سريّة فأصابتهم ضبابة

---

(١) التهذيب ٢: ٤٧ / ١٥١ و ١٤٢ / ٥٥٤؛ الوسائل ٤: ٣١٥ / ١ باب ١١.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ الدار قطني ١: ٢٧٨؛ البيهقي ٢: ١١ ـ ١٢، كتاب الصلاة، باب استيبان الخطاء بعد الاجتهاد؛ مجمع البيان ١: ٣٥٨؛ أسباب النزول، للواحدي: ٢٣.

(٣) أي تلقاء وجهه.

(٤) الطبري ١: ٧٠٣ / ١٥٢٨.

(٥) الدرّ ١: ٢٦٧؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٦٠١ / ٢١٠؛ الطبري ١: ٧٠٢.

فلم يهتدوا إلى القبلة فصلّوا لغير القبلة، ثمّ استبان لهم بعد ما طلعت الشمس أنّهم صلّوا لغير القبلة، فلمّا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدّثوه، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ...﴾ الآية.(١)

[٣٠٦٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ...﴾ وذلك أنّ ناساً من المؤمنين كانوا في سفر فحضرت الصلاة في يوم غيم فتحيّروا، فمنهم من صلّى قِبَلَ المشرق، ومنهم من صلّى قِبَلَ المغرب، وذلك قَبْلَ أن تُحوَّل القبلة إلى الكعبة، فلمّا طلعت الشمسُ عرفوا أنّهم قد صلّوا لغير القبلة. فقدموا المدينة فأخبروا النبيّ ﷺ بذلك فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ تحولّوا وجوهكم في الصلاة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فثمّ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ لتوسيعه عليهم في ترك القبلة حين جهلوها ﴿عَلِيمٌ﴾ بما نووا.(٢)

[٣٠٦١/٢] وأخرج أبو داوود الطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم والعقيلي والدار قطني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلّي فيه، فلمّا أن أصبحنا إذا نحن قد صلّينا على غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلّينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ...﴾ الآية. فقال: «مضت صلاتكم».(٣)

الصلاة على الراحلة

وردت الرخصة في الصلاة على الراحلة أو على ظهر السفينة أو أيّ مركب آخر أن يتّجه المصلّي في صلاته حيث اتّجهت به راحلته.

[٣٠٦٢/٢] روى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى الحلبي، أنّه سأل الإمام أبا عبدالله الصادق ؑ

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٧؛ الثعلبي ١: ٢٦٢، بمعناه؛ ابن كثير ١: ١٦٤؛ البغوي ١: ١٥٧ / ٧٦، بمعناه؛ أبو الفتوح ٢: ١٢٣ ـ ١٢٤، بتفاوت.

(٢) تفسير مقاتل ١: ١٣٣.

(٣) مسند الطيالسي: ١٥٦؛ منتخب مسند عبد بن حميد: ١٣٠ / ٣١٦؛ الترمذي ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤ / ٤٠٢٣؛ ابن ماجة ١: ٣٢٦ / ١٠٢٠؛ الطبري ١: ٧٠٢ ـ ٧٠٣ / ١٥٢٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١١ / ١١٢٠؛ الضعفاء للعقيلي ١: ٣١؛ الحلية ١: ١٧٩؛ البيهقي ٢: ١١؛ ابن كثير ١: ١٦٣.

عن الصلاة في السفينة؟ فقال: «يستقبل القبلة ويصفّ رجليه. فإذا دارت واستطاع أن يتوجّه إلى القبلة، وإلّا فليصلّ حيث توجّهت به. قال: وإن أمكنه القيام فليصلّ قائماً، وإلّا فليقعد ثمّ يصلّي».(١)

[٣٠٦٣/٢] وبإسناده إلى زرارة، أنّه سأل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الرجل يصلّي النوافل في السفينة؟ قال: «يصلّي نحو رأسها».(٢)

[٣٠٦٤/٢] وبإسناده عن يونس بن يعقوب: سأل الصادق عليه السلام عن الصلاة في السفينة وهي تأخذ شرقاً وغرباً فقال: «استقبل القبلة، ثمّ كبّر، ثمّ در مع السفينة حيث دارت بك».(٣)

صلاة المتطوّع على الراحلة أو ماشياً

[٣٠٦٥/٢] روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بالإسناد إلى معاوية بن عمّار عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا بأس بأن يصلّي الرجل صلاة الليل في السفر وهو يمشي، يتوجّه إلى القبلة ثمّ يمشي ويقرأ، فإذا أراد أن يركع حوّل وجهه إلى القبلة وركع وسجد ثمّ مشى».(٤)

[٣٠٦٦/٢] وبالإسناد إلى إبراهيم بن ميمون عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن صلّيت وأنت تمشي، كبّرت ثمّ مشيت فقرأت، فإذا أردت أن تركع أومأت، ثمّ أومأت بالسجود».(٥)

[٣٠٦٧/٢] وعن يعقوب بن شعيب عنه عليه السلام: «أُوم إيماءً، واجعل السجود أخفض من الركوع».(٦)

[٣٠٦٨/٢] وأخرج البخاري والبيهقي عن جابر بن عبدالله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة أنمار يصلّي على راحلته متوجّهاً قِبَلَ المشرق تطوّعاً.(٧)

[٣٠٦٩/٢] وروى ابن بابويه بالإسناد إلى محمّد بن أبي عمير عن حمّاد عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل يقرأ السجدة وهو على ظهر دابّته؟ قال: «يسجد حيث توجّهت به،

---

(١) الفقيه ١: ٢٩١ / ١٣٢٢؛ الوسائل ٤: ٣٢٠.

(٢) الفقيه ١: ٢٩٢ / ١٣٢٦.

(٣) المصدر / ١٣٢٨؛ الوسائل ٤: ٣٢١ / ٦.

(٤) التهذيب ٣: ٢٢٩ / ٥٨٥؛ الوسائل ٤: ٣٣٤ / ١.

(٥) التهذيب ٣: ٢٢٩ / ٥٨٧.

(٦) المصدر / ٥٨٨.

(٧) الدرّ ١: ٢٦٦؛ البخاري ٥: ٥٥، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق؛ البيهقي ٢: ٤، كتاب الصلاة، جماع أبواب استقبال القبلة؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٢: ٣٧٧ / ١، باب ٣٢٥.

فإنّ رسول الله ﷺ كان يصلّي على ناقته وهو مستقبل المدينة، يقول الله عزّوجلّ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾».(١)

[٣٠٧٠/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى حمّاد بن عثمان، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: سألته عن رجل يقرأ السجدة وهو على ظهر دابّته، قال: «يسجد حيث توجّهت، فإنّ رسول الله ﷺ كان يصلّي على ناقته النافلة وهو مستقبل المدينة، يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾».(٢)

[٣٠٧١/٢] وعن حريز، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وصلّى رسول الله ﷺ إيماءً على راحلته أينما توجّهت به، حين خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكّة، وجعل الكعبة خلف ظهره».(٣)

[٣٠٧٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والبيهقي عن جابر بن عبدالله: أنّ النبي ﷺ كان يصلّي على راحلته قِبَلَ المشرق، فإذا أراد أن يصلّي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلّى.(٤)

[٣٠٧٣/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داوود والبيهقي عن أنس: أنّ النبيّ ﷺ كان إذا سافر وأراد أن يتطوّع بالصلاة استقبل بناقته القبلة وكبّر، ثمّ صلّى حيث توجّهت الناقة.(٥)

[٣٠٧٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والنحّاس في ناسخه والطبراني والبيهقي في سننه عن عبدالله بن عمر قال: كان النبيّ ﷺ يصلّي على راحلته تطوّعاً أينما توجّهت به، ثمّ قرأ ابن عمر هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

---

(١) نورالثقلين ١: ١١٧ / ٣٢٠؛ العلل ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩ / ١، باب ٧٦؛ البرهان ١: ٣١٤ / ٤؛ الصافي ١: ٢٧٠، عن العلل والعيّاشي؛ كنزالدقائق ٢: ١٢٦؛ العيّاشي ١: ٧٥ ـ ٧٦ / ٨٢؛ البحار ٨١: ٧٠ / ٢٨ و ١٠٠ / ١٨ و ٨٤: ٤٠ ـ ٤١ / ٣٠، باب ١. قال المجلسي: هذا محمول على النافلة، ولاخلاف في جوازها على الراحلة.

(٢) البرهان ١: ٣١٥ / ٧؛ العيّاشي ١: ٧٥ ـ ٧٦ / ٨٢؛ الصافي ١: ٢٧٠.

(٣) البرهان ١: ٣١٤ ـ ٣١٥ / ٥؛ العيّاشي ١: ٧٥ / ٨٠؛ الصافي ١: ٢٧٠، عن العيّاشي؛ البحار ٨١: ٧٠ / ٢٩.

(٤) الدرّ ١: ٢٦٦؛ المصنّف ٢: ٣٧٧ / ٨، باب ٣٢٥؛ البخاري ٢: ٣٧؛ البيهقي ٢: ٦.

(٥) الدرّ ١: ٢٦٦؛ المصنّف ٢: ٣٧٧ / ٨، باب ٣٢٥؛ أبو داوود ١: ٢٧٤ / ١٢٢٥، باب ٢٧٧؛ البيهقي ٢: ٥؛ الدار قطني ١: ٣٩٥ / ١.

قال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية.(١)

[٣٠٧٥/٢] وروى الثعلبي عن ابن عمر في هذه الآية قال: نزلت في صلاة المسافر يصلّي حيثما توجّهت به راحلته تطوّعاً، وكان رسول الله ﷺ يُصلّي على راحلته جائياً من مكّة إلى المدينة.

وروى أيضاً في رواية عنه: كان رسول الله ﷺ يُصلّي على راحلته في السفر حيثما توجّهت به.(٢)

[٣٠٧٦/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: قال العالم عليه السلام: «فإنّها نزلت في صلاة النافلة فصلّها حيث توجّهتَ إذا كنت في سفر، وأمّا الفرائض، فقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يعني الفرائض لا تصلّيها إلّا إلى القبلة».(٣)

[٣٠٧٧/٢] وروى العيّاشي بالإسناد إلى زرارة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الصلاة في السفر في السفينة والمحمل سواء؟ قال: «النافلة كلّها سواء، تومىء إيماءً أينما توجّهت دابّتك وسفينتك. والفريضة تنزل لها من المحمل إلى الأرض إلّا من خوف، فإن خفت أومأت وأمّا السفينة فصلّ فيها قائماً وتوخّ القبلة بجهدك فإنّ نوحاً عليه السلام قد صلّى الفريضة فيها قائماً متوجّهاً إلى القبلة وهي مطبقة عليهم، قال: قلت: وما كان علمه بالقبلة فيتوجّهها وهي مطبقة عليهم؟ قال: كان جبرائيل عليه السلام يُقوّمه نحوها. قلت: فأتوجّه نحوها في كلّ تكبيرة؟ قال: أمّا في النافلة فلا، إنّما تكبّر في النافلة على غير القبلة أكثر. ثمّ قال: كلّ ذلك قبلة للمتنفّل، فإنّه تعالى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾».(٤)

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٦؛ المصنّف ٢: ٣٧٨ / ١٠، باب ٣٢٥، بلفظ: إنّ النبيّ ﷺ كان يصلّي فخلّى راحلته حيث توجّهت به، كان ابن عمر يفعل ذلك؛ مسلم ٢: ١٤٩؛ الترمذي ٤: ٢٧٤ / ٤٠٣٤؛ النسائي ١: ٣٠٥ / ٩٤٦ و٦: ٢٨٩ / ١٠٩٩٧؛ الطبري ١: ٧٠٢ / ١٥٢٥ و١٥٢٤؛ الأوسط ٧: ١٩٥ / ٧٢٥٤، باختصار؛ البيهقي ٢: ٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٢ / ١١٢١؛ القرطبي ٢: ٨٠.

(٢) الثعلبي ١: ٢٦٢.

(٣) البرهان ١: ٣١٤ / ١؛ القمي ١: ٥٨ ـ ٥٩، بدون قوله: «قال العالم عليه السلام»؛ الصافي ١: ٢٧٠، بدون قوله: «قال العالم عليه السلام»، والمراد بالعالم هنا: الإمام من آل البيت عليهم السلام.

(٤) البرهان ١: ٣١٥ / ٦؛ العيّاشي ١: ٧٥ / ٨١؛ البحار ٨٤: ٤٥ / ٣٦.

[٣٠٧٨/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدار قطني والحاكم وصحّحه عن عبدالله بن عمر قال: أُنزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أن تصلّي حيثما توجّهت بك راحلتك في التطوّع.(١)

الصلاة في جوف الكعبة

لاتحسن الصلاة في جوف الكعبة ولاسيّما الفريضة، حيث لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من صحابته والأئمة من عترته.. بل ورد النهي عنها نهي كراهة شديدة تأسّياً. أمّا النافلة فتجوز على كراهيّة، وليستقبل أيّ الجهات منها، كما في الحديث.

[٣٠٧٩/٢] روى الشيخ بالإسناد إلى معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لاتصلّ المكتوبة في جوف الكعبة، فإنّ النبيّ ﷺ لم يدخل الكعبة في حجّ ولاعمرة، ولكنّه دخلها عام الفتح وصلّى ركعتين بين العمودين».(٢)

[٣٠٨٠/٢] وقال الكليني: روي في حديث: «أنّه يصلّي لأربع جوانبها»(٣) أي لأيّ جانب من جوانبها الأربع.

[٣٠٨١/٢] وروى عبدالله بن جعفر عن محمّد بن عيسى عن ابن ميمون عن أبي عبدالله عن أبيه الباقر عليه السلام أنّه رأى أباه عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام يصلّي في الكعبة ركعتين.(٤)

وهكذا أفتى الشيخ المفيد وفق قوله عليه السلام: «لاتصلّ المكتوبة في جوف الكعبة، ولابأس أن تصلّي فيها النافلة».(٥)

الصلاة على ظهر الكعبة

[٣٠٨٢/٢] روى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الإمام

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٦؛ الطبري ١: ٢ / ٧٠٢ / ١٥٢٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٢ / ١١٢١؛ الحاكم ٢: ٢٦٦، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ الثعلبي ١: ٢٦٢؛ أبوالفتوح ٢: ١٢٤.

(٢) التهذيب ٥: ٢٧٩ / ٩٥٣؛ الوسائل ٤: ٣٣٧.

(٣) الكافي ٣: ٣٩١ / ١٨؛ الوسائل ٤: ٣٣٦، باب ١٧.

(٤) قرب الإسناد: ١٣؛ الوسائل ٤: ٣٣٨.

(٥) المقنعة للمفيد: ٧٠؛ الوسائل ٤: ٣٣٨ / ٩؛ باب ١٧.

أبي عبدالله الصادق عليه السلام في حديث المناهي، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الصلاة على ظهر الكعبة.(١)

[٣٠٨٣/٢] وروى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى عبدالسلام بن صالح عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام في الذي تدركه الصلاة وهو فوق الكعبة، قال: «إن قام لم يكن له قبلة، ولكن يستلقي على قفاه، ويفتح عينيه إلى السماء، ويعقد بقلبه القبلة التي في السماء البيت المعمور، ويقرأ. فإذا أراد أن يركع غمض عينيه، وإذا أراد أن يرفع رأسه من الركوع فتح عينيه. والسجود على نحو ذلك».(٢)

[٣٠٨٤/٢] وروى الشيخ بإسناده إلى محمّدبن عبدالله بن مروان، قال: رأيت يونس بمنى، يسأل الإمام أبا الحسن عليه السلام عن الرجل إذا حضرته صلاة الفريضة وهو في الكعبة، فلم يمكنه الخروج؟ فقال: «استلقى على قفاه وصلّى إيماءً». وذكر قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٣).(٤)

* * *

قلت: حديث الاستلقاء على القفا، محمول على العاجز عن القيام إذ لا وجه لسقوط القيام والركوع والسجود والاستقبال جميعاً؟!

قال المحقّق الحلّي: من صلّى في جوف الكعبة استقبل أيّ جدرانها شاء، على كراهيّة في الفريضة. ولو صلّى على سطحها أَبْرَزَ بين يديه منها ما يصلّي إليه. وقيل: يستلقي على ظهره ويصلّي جموميأ إلى البيت المعمور. والأوّل أصحّ.(٥)

قال صاحب الجواهر: وفاقاً للمشهور بين الأصحاب شهرة كادت تكون إجماعاً ضرورة عدم مدخليّة البناء في القبلة إذ لو اتّفق ارتفاع أرض الكعبة حتّى صار السطح الآن جوفها كان داخلاً في الفرض قطعاً.(٦)

---

(١) الفقيه ٤: ٥ / ١؛ الوسائل ٤: ٣٤٠ / ١، باب ١٩.

(٢) الكافي ٣: ٣٩٢ / ٢١؛ الوسائل ٤: ٣٤٠ / ٢، باب ١٩.

(٣) البقرة ٢: ١١٥.

(٤) التهذيب ٥: ٤٥٣ / ١٥٨٣؛ الوسائل ٤: ٣٣٨ / ٧ باب ١٧.

(٥) شرائع الإسلام، المحقّق ١: ٦٥، المقدّمة الثالثة في القبلة.

(٦) جواهر الكلام، ٧: ٣٥٣.

قبلة الدعاء والمسألة في غير الصلاة

[٣٠٨٥/٢] أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] عن مجاهد وسعيدبن جبير والحسن والضحّاك وغيرهم: أنّ أناساً سألوا رسول الله ﷺ وقالوا: إلى أين نتوجّه في الدعاء والمسألة؟ فقال ﷺ: «أينما تولّيتم فثمّ وجه الله». وتلا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].[٣]

[٣٠٨٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس ـ في الآية ـ قال: قبلة الله، أينما توجّهت شرقاً أو غرباً.[٤]

أين وجه الله؟

ماذا يكون المراد من وجه الله؟

المراد من وجهه تعالى: واجِهتُه حيثما تَوَجَّهْتَ إذ لا يحجزه مكان كما لا يخلو منه مكان. وكلّ ما في الوجود إنّما هو بمحضره تعالى، لا يغيب عنه شيء، ولا يحتجب منه شيء. فكلٌّ حضور لديه تعالى وبمشهده حيثما كانوا وحيثما ذهبوا.

وبتعبير أدقّ: العالَمُ كلُّه وبرمّته في قبضته تعالى، ﴿ألا إنّه بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[٥].

ومن ثمّ فأينما توجَّهت كنتَ واجَهْتَه تعالى على الحقيقة، بعد أن كنتَ حاضراً لديه في جميع أبعادك وجوانبك ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾[٦].

[٣٠٨٧/٢] روى ابن بابويه الصدوق بإسناده إلى سلمان الفارسي ـ في حديث طويل ـ قال: قدم وفد من النصارى، بعد وفاة رسول الله ﷺ يترأسهم جاثليق، وكانت لهم أسئلة، لم يجبهم عليها

---

(١) غافر ٤٠: ٦٠. (٢) البقرة ٢: ١١٥.

(٣) نقلاً بالمعنى عن الطبري ١: ٧٠٥. والثعلبي ١: ٢٦٣. والبغوي ١: ١٥٨. وأبي الفتوح ٢: ١٢٥. والقرطبي ٢: ٨٣.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٢١٢ / ١١٢٤؛ الدرّ ١: ٢٦٧؛ ابن كثير ١: ١٦٢.

(٥) فصّلت ٤١: ٥٤. (٦) النساء ٤: ١٢٦.

أحد، وأُرشدوا إلى الإمام أمير المؤمنين ﷺ فكان ممّا سألوه أن قالوا: أخبرنا عن وجه الربّ ـ تبارك وتعالى ـ؟

فأوعز الإمام إلى ابن عبّاس أن يأتيه بنار وحطب، فأضرمها، فلمّا اشتعلت، قال لهم الإمام: «أين وجه هذه النار؟ قالوا: هي وجهٌ من جميع حدودها! ـ وفي حديث آخر: لانقف لها على وجهٍ ـ فقال ﷺ: هذه النار مدبَّرة مصنوعة، لايعرف لها وجه بالذات ولا شكّ أنّ خالقها لايُشبهها وأنّ هذا مَثَلٌ. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ إذ لايخفى على ربّنا خافية أي الجميع حضور لديه على سواء»[1].

* * *

[٣٠٨٨/٢] وعن ابن عبّاس قال: الوجه عبارة عنه تعالى كما قال: ﴿وَ يَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ﴾[2] أي تبقى ذاتُه المقدّسة.

[٣٠٨٩/٢] وعن مجاهد قال: وجه الله، قبلة الله[3]. وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حيّان[4].

[٣٠٩٠/٢] وقال الحسن: فثَمَّ وجه الله أي جهة القبلة وهي الكعبة، أي جهة قبلته.[5]

[٣٠٩١/٢] وقال الرمّاني والجبّائي: فثمّ رضوان الله.[6]

[٣٠٩٢/٢] وعن الكلبي والقُتَيبي: الوجه صلة. والمراد: فثَمَّ الله. وهو كقوله تعالى: ﴿وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾[7]. وكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[8] أي يريدونه بالدعاء. وكقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[9] أي ذاته المقدّسة.[10]

---

(١) التوحيد: ١٨٢ / ١٦، باب ٢٨؛ الخصال: ٥٩٧؛ البحار ٣: ٣٢٨ـ ٣٢٩ و ١٠: ٣.

(٢) القرطبي ٢: ٨٣ـ ٨٤.

(٣) الطبري ١: ٧٠٥ / ١٥٣٣.

(٤) الثعلبي ١: ٢٦٣؛ البغوي ١: ١٥٨؛ مجمع البيان ١: ٣٥٩.

(٥) التبيان ١: ٤٢٤؛ أبوالفتوح ٢: ١٢٧.

(٦) التبيان ١: ٤٢٥؛ مجمع البيان ١: ٣٥٩.

(٧) الحديد ٥٧: ٤.

(٨) الكهف ١٨: ٢٨.

(٩) القصص ٢٨: ٨٨.

(١٠) الثعلبي ١: ٢٦٣؛ البغوي ١: ١٥٨؛ القرطبي ٢: ٨٤؛ أبوالفتوح ٢: ١٢٧؛ مجمع البيان ١: ٣٥٩.

قال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُـلٌّ لَّـهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُـن فَـيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَ قَـالَ الَّـذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ
قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

تلك نغمة أخرى تحاكي تصوّرات اليهود الخاطئة، ومن العرب من كان على شاكلتهم في العقيدة المنحرفة.

ولقد صدق القول بأنّ الكفر شرعة واحدة، كانت اليهود وسائر أهل الكتاب يزعمون التوحيد في عقيدتهم، وإذا هم مع المشركين يتعاضدون في عقيدة الشرك. فقد كانت مقولة النصارى في المسيح: إنّه ابن الله وكذا اليهود في عزير[١]. وبذلك ساندوا إخوانهم العرب المشركين حيث جعلوا لله البنات.[٢] ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣].

ولايزال هذا التكاتف اللئيم ضدّ تعاليم الإسلام قائماً على ساق، وإنّما هي حرب شعواء ضدّ العقيدة وضدّ الإيمان بالله العظيم.

وهنا يبادر القرآن بتنزيهه تعالى عن مثل هذا التصوّر، وتبيين حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً.

﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

هذه هي فكرة الإسلام التجريديّة الكاملة عن الله ـ سبحانه ـ وعن نوع العلاقة القائمة بين الخالق وخلقه، إنّها علاقة الفاعل مع عمله الذي أبدعه عن إرادته فحسب إرادة مطلقة حكيمة..

---

(١) التوبة ٩: ٣٠.

(٢) النحل ١٦: ٥٧.

(٣) الأنعام ٦: ١٠٠.

لا يشاركه أحد ولا يعجزه شيء ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ «سبحان من خَضَعت له الأشياء».[١]

فلا ضرورة تدعو أن يكون له ولد ـ أقرب شيء إلى والده ـ بعد أن خضعت له الرقاب جميعاً على سواء.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ أبدعها من غير سابقة وبدون وسيط من قوّة أو مادّة ﴿وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً﴾ أراد خلق شيء، فتكفي الإرادة لنشأته من غير وسيط ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ من غير فصل ولا تعليل. وهذا غاية في القدرة وتحكيم الإرادة.

وإذ ينتهي من عرض مقولة أهل الكتاب، يتبعها بمقولة أشياعهم من المشركين، والجميع في الجهل بموضع التوحيد والربوبيّة سواء.

﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا علم لهم ولا كتاب منير ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّـهُ﴾ مشافهةً ﴿أَوْ تَأْتِينَآ﴾ بالذات ﴿آيَةٌ﴾ نعرفها ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ وهم أشياخ اليهود على عهد نبيّ الله موسى عليه السلام قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قالوا مثل قول جهلة العرب. كما طلبوا الخوارق ونزول الآيات. فقد تشابهت قلوبهم، وتوحّدت طبيعتهم المتعنّتة، سواء أكانوا أهل كتاب أم عرباً أمّيين. فهؤلاء وأولئك سواء ومتشابهوا القلوب في التصوّر والعنت والضلال.

نعم، قد تمّت الحجّة ولاحت المحجّة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالذي يجد في قلبه راحة الإيمان واليقين، يجد في الآيات منشوده، الأوفى، ويجد فيها طمأنينة وارتياحاً، وسلامة في عقيدة وصدقاً في يقين.

وإليك من روايات الباب:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾

[٣٠٩٣/٢] روى عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت: قوله تعالى: ﴿وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً﴾. قال: «هذا حيث قالت قريش: إنّ لله ولداً، وأنّ الملائكة: إناث. فقال الله ردّاً عليهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾ أي عظيماً ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ ممّا قالوا ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً﴾ قال تعالى: ﴿وَ مَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً. إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّآ

---

(١) كما جاء في تسبيح الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام البحار ٩١: ٢٠٦.

آتي الرَّحْمَانِ عَبْداً . لَّقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾[1] واحداً واحداً».[2]

[٣٠٩٤/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه، من الله: إنّهم يجعلون له ولداً، ويشركون به وهو يرزقهم ويعافيهم».[3]

[٣٠٩٥/٢] وأخرج البخاري وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: كذّبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذّبني، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأمّا شتمه إيّاي فقوله: اتّخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».[4]

[٣٠٩٦/٢] وأخرج البخاري عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فيزعم أنّي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إيّاي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتّخذ صاحبةً أو ولداً».[5]

[٣٠٩٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن غالب بن عجرد قال: حدّثني رجل من أهل الشام قال: بلغني أنّ الله لمّا خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلّا أصابوا منها ثمرة، حتّى تكلّم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم:

---

(١) مريم ١٩: ٨٨ ـ ٩٣.

(٢) البحار ٣: ٢٥٤، عن تفسير القمي ٢: ٥٧.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٨؛ مسند أحمد ٤: ٣٩٥ و ٤٠١؛ البخاري ٧: ٩٦، كتاب الأدب، باب ٧١ و ٨: ١٦٥، كتاب التوحيد، باب ٣؛ مسلم ٨: ١٣٣ ـ ١٣٤، النسائي ٤: ٤٠٦ / ٧٧٠٨، باب ٢٩؛ الأسماء والصفات: ٦٨٤، باب ما جاء في الصبر، بلفظ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه، من الله ـ عزّوجلّ ـ يشرك به ويجعل له ولداً ثمّ هو يعافيهم ويرزقهم»؛ ابن كثير ١: ١٦٥.

(٤) الدرّ ١: ٢٦٨؛ البخاري ٦: ٩٥، كتاب التفسير؛ الأسماء والصفات: ٣٢٣ ـ ٣٢٤، باب رواية النبي ﷺ قول الله ـ عزّ وجلّ ـ في الوعد والوعيد؛ ابن حبّان ٣: ١٢٨ / ٨٤٨، كتاب الرقائق، باب ٨ (الأذكار).

(٥) الدرّ ١: ٢٦٨؛ البخاري ٥: ١٤٩، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ كنز العمّال ١٤: ٣٥٣ / ٣٨٩١٣؛ البغوي ١: ١٥٨ ـ ١٥٩ / ٧٨. ابن كثير ١: ١٦٥، وزاد: «انفرد به البخاري من هذا الوجه»؛ القرطبي ٢: ٨٥.

﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً﴾ فلمّا تكلّموا بها اقشعرّت الأرض وشاك الشجر.(١)

[٣٠٩٨/٢] وروى ابن بابويه بإسناده إلى سفيان بن عيينة، زعم أنّه سمع الصادق عليه السلام يقول: لم يخلق الله شجرة إلّا ولها ثمرة تؤكل، فلمّا قال الناس: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً﴾ ذهب نصف ثمرها. فلمّا اتخذوا مع الله إلهاً شاك الشجر.(٢)

* * *

[٣٠٩٩/٢] أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والمحاملي في أماليه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال: تنزيه الله نفسه عن السوء.(٣)

[٣١٠٠/٢] وأخرج ابن جرير والديلمي والخطيب في الكفاية من طرق أخرى موصولاً عن موسى بن طلحة بن عبيدالله عن أبيه عن جدّه طلحة بن عبيدالله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال: «هو تنزيه الله من كلّ سوء».(٤)

[٣١٠١/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى عبدالعظيم الحسني، عن عليّ بن أسباط، عن سليمان مولى طربال، عن هشام الجواليقي، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ما يُعنى به؟ قال: تنزيهه.(٥)

[٣١٠٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عبّاس، أنّ ابن الكوّاء سأل عليّاً عليه السلام عن قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فقال: «كلمة رضيها الله لنفسه».(٦)

[٣١٠٣/٢] وأخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصمّ قال: جاء رجل إلى ابن عبّاس فقال: لا إله

(١) الدرّ ١: ٢٦٨؛ المصنّف ٨: ٢٥٠ / ٧، باب ٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٣ / ١١٢٦؛ القرطبي ١١: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ ابن كثير ٣: ١٤٦.

(٢) العلل ٢: ٥٧٣ / ١، باب ٣٧٤.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٨١ / ٣٤٣؛ أمالي المحاملي: ٣٨٢.

(٤) الدرّ ١: ٢٦٩؛ الطبري ٧: ١١٩ ـ ١٢٠، بعد رقم ١٣٦٢٤، الكفاية في علم الرواية، للخطيب: ٢٦٢؛ الحاكم ١: ٥٠٢، كتاب الدعاء؛ كنز العمّال ١: ٤٧٤ / ٢٠٦١.

(٥) البرهان ١: ٣١٥ / ١؛ الكافي ١: ١١٨ / ١١، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها؛ التوحيد: ٣١٢ / ٣، باب ٤٥؛ البحار ٩٠: ١٧٧ / ٢، باب ٣؛ معاني الأخبار: ٩ / ٢، باب معنى سبحان الله.

(٦) الدرّ ١: ٢٦٩؛ الطبري ٧: ١١٩ / ١٣٦٢٣.

إلاّ الله نعرفها أنّه لا إلـه غيره، والحمد لله نعرفها أنّ النعم كلّها منه وهو المحمود عليها، والله أكـبر نعرفها أنّه لا شيء أكبر منه، فما سبحان الله؟ فقال ابن عبّاس: وما تنكر منها!؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه وأمر بها ملائكته، وفرغ إليها الأخيار من خلقه.(١)

[٣١٠٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه.(٢)

[٣١٠٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران، أنّه سئل عن ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فقال: اسم يعظّم الله به ويحاشى به عن السوء.(٣)

قوله تعالى: ﴿قَانِتُونَ﴾

[٣١٠٦/٢] أخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حـاتم والنحاس في ناسخه وابن حبّان والطبراني في الأوسط وأبو نصر السجزي في الإبانة وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة عن أبي سعيد الخُدري عن رسول الله ﷺ قال: «كلّ حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».(٤)

[٣١٠٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عبّاس في قوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون.(٥)

[٣١٠٨/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن عكرمة في قوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ قال: الطاعة.(٦)

[٣١٠٩/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن قتادة في قوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون وهكذا ذكر

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٩؛ كتاب الدعاء، للطبراني: ٤٩٩.

(٢) الدرّ ١: ٢٦٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٨١ / ٣٤٥؛ ابن كثير ١: ٢٣.

(٣) الدرّ ١: ٢٦٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٨١ / ٣٤٤.

(٤) الدرّ ١: ٢٦٩؛ مسند أحمد ٣: ٧٥؛ الطبري ٢: ٧٧١ / ٤٢٩٦ و ٣: ٣٦١ / ٥٥٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٣ / ١١٢٨؛ معاني القرآن للنحّاس ١: ٢٤١ ـ ٢٤٢ / ١٦٢؛ ابن حبّان ٢: ٧ / ٣٠٩، كتاب البرّ والإحسان، باب ٢؛ الأوسط ٥: ٢٣٤ / ٥١٨١؛ الحلية ٨: ٣٢٥، باب ٤٢٨، عبدالله بن وهب؛ مجمع الزوائد ٦: ٣٢٠، كتاب التفسير، سورة البقرة.

(٥) الدرّ ١: ٢٧٠؛ الطبري ١: ٧٠٨ / ١٥٣٩؛ التبيان ١: ٤٢٧؛ مجمع البيان ١: ٣٦١.

(٦) الطبري ١: ٧٠٨ / ١٥٣٨.

الثعلبي عن مجاهد وعطاء والسدّي.[١]

[٣١١٠/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن مجاهد في قوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظلّه.[٢]

[٣١١١/٢] وروى البغوي عن مجاهد في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: يسجد ظلالهم لله على كرهٍ منهم. قال الله تعالى: ﴿وَ ظِـلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ﴾[٣].[٤]

[٣١١٢/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: أي مطيع مقرّ بأنّ الله ربّه وخالقه.[٥]

[٣١١٣/٢] وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عبّاس: أنّ نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: مُقرّون! قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول عديّ بن زيد:

قـانتاً لله يـرجـو عـفوه يوم لا يكفر عبد ما ادّخر[٦]

[٣١١٤/٢] وقال عكرمة ومقاتل في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: مُقرّون له بالعبوديّة.[٧]

[٣١١٥/٢] وقال أبو مسلم: كلٌّ في ملكه وقهره، يتصرّف فيه كيف يشاء، لا يمتنع عليه.[٨]

[٣١١٦/٢] وقال الجبّائي: كلٌّ دائم على حالٍ واحدة هو قائم بالشهادة، بما فيه من آثار الصنعة، والدلالة على الربوبيّة.[٩]

[٣١١٧/٢] وذكر الثعلبي عن قول ابن كيسان في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: قائمون بالشهادة.[١٠]

---

(١) الطبري ١: ٧٠٨ / ١٥٣٤؛ الثعلبي ١: ٢٦٤؛ البغوي ١: ١٥٩؛ أبو الفتوح ٢: ١٢٩.

(٢) الطبري ١: ٧٠٨ / ١٥٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٣ / ١١٢٩. بلفظ: «مطيعون. يقول: طاعة الكافر في سجوده، سجود ظلّه وهو كاره»؛ ابن كثير ١: ١٦٥؛ التبيان ١: ٤٢٧؛ مجمع البيان ١: ٣٦١.

(٣) الرعد ١٣: ١٥.

(٤) البغوي ١: ١٥٩؛ الثعلبي ١: ٢٦٤، بتفاوت.

(٥) الدرّ ١: ٢٧٠؛ الطبري ١١: ٤٢ / ٢١٢٧٤، سورة الروم، الآية ٢٦.

(٦) الدرّ ١: ٢٧٠.

(٧) البغوي ١: ١٥٩؛ الثعلبي ١: ٢٦٤؛ أبو الفتوح ٢: ١٢٩؛ تفسير مقاتل ١: ١٣٣.

(٨) مجمع البيان ١: ٣٦١.

(٩) مجمع البيان ١: ٣٦١؛ التبيان ١: ٤٢٧، بغير نسبة، وقال: «وهو الأقوى».

(١٠) الثعلبي ١: ٢٦٤؛ البغوي ١: ١٥٩؛ أبو الفتوح ٢: ١٢٩.

[٣١١٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سالم عن سعيد في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يقول: الإخلاص.(١)

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾

[٣١١٩/٢] روى ثقة الإسلام الكليني بالإسناد إلى حمران بن أعين، سأل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾، فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلّها بعلمه، على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرض ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون. أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(٢)».(٣)

[٣١٢٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ يقول: ابتدع خلقهما ولم يشركه في خلقهما أحد. وكذا عن الربيع.(٤)

[٣١٢١/٢] وقال مجاهد في قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾: أي خالقُها على غير مثالٍ سَبَق.(٥)

[٣١٢٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن السدّي في الآية قال: ابتدعهما فخلقهما ولم يخلق قبلهما شيء فيتمثّل عليه. وكذا عن مجاهد.(٦)

[٣١٢٣/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ عظّم نفسه فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ ابتدعهما ولم يكونا شيئاً ﴿وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً﴾ في علمه أنّه كائن ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ لايُثْنَى(٧) قوله كفعل المخلوقين، وذلك أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قضى أن يكون عيسى في بطن أمّه من غير أب، فقال له: كن، فكان!(٨)

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٢١٤ / ١١٣٤؛ ابن كثير ١: ١٦٥. (٢) هود ١١: ٩.

(٣) الكافي ١: ٢٥٦؛ بصائر الدرجات: ١٣٣ / ١، باب ٩؛ العيّاشي ١: ٤٠٢؛ البحار ٢٦: ١٦٥ و ٥٤: ٨٥.

(٤) الدرّ ١: ٢٧٠؛ الطبري ١: ٧١٠ / ١٥٤٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٤ / ١١٣٥.

(٥) ابن كثير ١: ١٦٦.

(٦) الدرّ ١: ٢٧٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٤ / ١١٣٦؛ الطبري ١: ٧١٠ / ١٥٤٣.

(٧) لايُثْنَى قوله أي لايُرَدُّ كما يُرَدُّ فعل المخلوقين. (٨) تفسير مقاتل ١: ١٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[٣١٢٤/٢] قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «يقول لمّا أراد كونَه: كُنْ، فيكون. لا بصوت يقرع ولابنداء يسمع، وإنّما كلامه ـ سبحانه ـ فعل منه أنشأه ومثّله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلّهاً ثانياً».(١)

قال العلّامة المجلسي في الشرح: قوله: «يقول لمّا أراد» لعلّه بيان لمعنى الآية وأنّه ليس مراده تعالى التكلّم الحقيقي، بأن يكون له صوت يَقْرع الأسماع، ونداء يسمعه الآذان. بل ليس له إلّا تعلّق إرادته تعالى، وإنّما هذا الكلام الذي عبّر عن الإرادة به فعلُه تعالى وخلقُه للأشياء وتمثيلها وتصويرها. وليست الإرادة قديمة، وإلّا لكان إلّهاً ثانياً.

وهذا يدلّ على أنّ الإرادة صفة حادثة ـ كما ورد في سائر الأخبار.

قال: ويحتمل أن يكون «إنّما كلامه..» إشارة إلى الكلام الحقيقي وبياناً لكيفيّة صدوره وكونه حادثاً لا قديماً وهذا يدلّ على أنّ القِدَمَ ينافي الإمكان، وأنّ القول بقدم العالم شرك.(٢)

وفيه أيضاً: «يقول ولا يَلْفَظُ، ويريد ولا يُضْمر..».(٣)

[٣١٢٥/٢] وفي حديث الإهليلجة سأل المفضَّلُ بن عُمَر الإمامَ أبا عبدالله الصادق عليه السلام قال: فأخبرني عن إرادته تعالى؟ فقال: «إنّ الإرادة من العباد الضمير وما يبدو بعد ذلك من الفعل. وأمّا من الله ـ عزّ وجلّ ـ فالإرادة للفعل إحداثه، إنّما يقول له: كن، فيكون، بلا تعب ولا كيف».(٤)

[٣١٢٦/٢] وروى ابن بابويه الصدوق بالإسناد إلى صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن المخلوق؟ فقال: «الإرادة من المخلوق الضمير ومايبدو له بعد ذلك من الفعل. وأمّا من الله ـ عزّ وجلّ ـ فإرادته إحداثُه لاغير ذلك، لأنّه تعالى لايروّي ولايهمّ ولايتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق. قال: فإرادة الله هي الفعل لاغير ذلك، يقول له: كن، فيكون. بلا لفظ ولانطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر، ولاكيف لذلك، كما أنّه [تعالى] بلا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦؛ البحار ٤: ٢٥٤ ـ ٢٥٥ / ٨، نقلاً عن كتاب الاحتجاج ١: ٣٠٢؛ البحار ٥٤: ٣٠ / ٦، نقلاً عن النهج والاحتجاج.

(٢) البحار ٤: ٢٥٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦؛ البحار ٤: ٢٥٤ و ٧٤: ٣١٢ / ١٤، باب ١٤؛ الصافي ١: ٢٧٢؛ كنزالدقائق ٢: ١٣٠؛ نورالثقلين ١: ١١٩ / ٣٣٠.

(٤) البحار ٣: ١٩٦.

كيف».[١]

[٣١٢٧/٢] وبالإسناد إلى محمّدبن مسلم عن أبي عبدالله ﷺ قال: «المشيئة محدثة».[٢]

[٣١٢٨/٢] وعن عاصم بن حميد عنه ﷺ قال: قلت له: لم يزل الله مريداً؟ فقال: «إنّ المريد لايكون إلّا المراد معه. بل لم يزل عالماً قادراً ثمّ أراد».[٣]

وقفة عند مسألة الإرادة

قلت: في هذا الحديث (حديث عاصم عن الصادق ﷺ) نكتة ظريفة أشار إليها الإمام ﷺ حيث أجاب على سؤال عاصم: «لم يزل الله مريداً؟» بأن لا فصل بين الإرادة وتحقّق المراد خارجيّاً. فإذ كان تحقّق المراد أمراً حادثاً، فلازمه أن تكون الإرادة أيضاً حادثة، حيث تواجد المتلازمين حدوثاً وقِدَماً.

على أنّ التعبير في الآية «إذا أراد...» شاهد على حدوثها، لم تكن فكانت، فالإرادة صفة فعل فتكون حادثة لا محالة، في مقابلة صفات الذات الأزليّة «لم يزل عالماً قادراً، ثمّ أراد».. فما أجمله من بيان وأدقّه من برهان.

والإرادة والطلب متلازمان.. غير أنّ الإرادة فعل جانحي ـ وهو العزم على العمل ـ كما أنّ الطلب عمل جارحي ـ وهو السعي وراء تحقق المراد ـ. والإرادة هي الباعثة على الطلب.. يعزم ثمّ يسعى..

ومن ثَمَّ كان التأكيد في أحاديث أئمّة أهل البيت ﷺ على أنّ الإرادة هي المشيئة، وأنّها صفة فعل وهي حادثة، «ثمّ أراد».

قال الشيخ أبو عبدالله المفيد: إنّ إرادة الله تعالى لأفعاله هي نفسُ أفعاله، وإرادته لأفعال خلقه أمرُه بالأفعال. وبهذا جاءت الآثار عن أئمّة الهدى من آل محمّد ﷺ وهو مذهب سائر الإماميّة إلّا من شذّ منهم عن قرب (أي حديثاً) وفارق ماكان عليه الأسلاف. وإليه ذهب جمهور البغداديّين من

---

(١) التوحيد: ١٤٧ / ١٧، باب صفات الذات وصفات الفعل؛ عيون الأخبار ١: ٩٧ / ١١، باب ١١.

(٢) التوحيد ١٤٧ / ١٨.

(٣) المصدر: ١٤٦ / ١٥.

المعتزلة وأبوالقاسم البلخي خاصّة وجماعة من المرجئة.(١)

نعم شاع تفسير الإرادة بالعلم بالمصلحة الداعية، في عصر متأخّر عن الشيخ المفيد، ومن ثمّ اعتبروا الإرادة صفة ذاتيّة ولم يعتبروها من صفات الفعل. قال أبو الحسين البصري: الإرادة عبارة عن علمه تعالى بما في الفعل من المصلحة، الداعي إلى إيجاده في ظرفه.(٢)

وهكذا ذكر العلّامة الطباطبائي عنهم أنّهم قالوا: إنّ إرادته تعالى علمه بالنظام الأصلح أي علمه بكون الفعل خيراً، فهي وجه من وجوه علمه تعالى.(٣)

وهذا مايعود إلى ما ذكره الحكيم السبزواري: أنّ إرادته تعالى عين ذاته وعين علمه وعين الداعي [الباعث على إيجاد المراد].(٤)

ومن ثمّ قال العلّامة المجلسي ـ تعقيباً على حديث صفوان(٥) ـ: اعلم أنّ إرادة الله تعالى ـ كما ذهب إليه أكثر متكلّمي الإماميّة ـ هي العلم بالخير والنفع وما هو الأصلح، ولايثبتون له تعالى وراء العلم شيئاً.(٦)

واعترض عليه سيّدنا الطباطبائي ـ في الهامش ـ بأنّ الذي ذكروه إنّما هو في الإرادة الذاتيّة، التي هي عين الذات ـ إن صحّ تصويرهم لذلك ـ. وأمّا الإرادة التي جاءت في الأخبار (الأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام) فهي الإرادة التي هي من الصفات الفعليّة كالخلق والرزق. وهذه الإرادة هي نفس الفعل، كما ذكره شيخنا المفيد رحمه الله.

قلت: تقسيم الإرادة إلى ذاتيّة وفعليّة، تقسيم غريب عن اللغة ومتفاهم الأعراف والتي هي لغة القرآن التي خاطب بها الناس في متفاهمهم. هذا مع عدم إمكان تصوير الإرادة صفة ذاتيّة أزليّة سرمديّة، نظير صفة العلم والقدرة والحياة فيه تعالى. الأمر الذي أرمز إليه العلّامة الطباطبائي بقوله: «إن صحّ تصويرهم لذلك». وبذلك أبدى تشكيكه في إمكان تصويره ومن ثمّ نسب القول بـه إلى

(١) أوائل المقالات، للمفيد: ١٩.

(٢) راجع: تجريد الاعتقاد لنصيرالدين الطوسي بشرح العلامة الحلّي، بحث الإلٓهيات، المسألة الرابعة: ١٥٩ (ط: الهند). وشرح الباب الحادي عشر للفاضل المقداد، الصفة الرابعة: ٢٩ (ط: ١٣٩٥ هـ).

(٣) بداية الحكمة: ٢٩٢ الفصل الثامن.

(٤) أسرار الحكم ١: ٩٩.

(٥) رواه الصدوق في كتاب التوحيد: ١٤٧ / ١٧ وقد سبق.

(٦) البحار ٤: ١٣٧.

المشهور[١] ولم يجزم به.

كما أنّ الحكيم السبزواري أورد على هذا القول اعتراضات ومن غير إجابة شافية.[٢]

وعمدة الإشكال تفسيرهم للإرادة الذاتيّة بالعلم. وقد عرفت من كلام العلّامة الطباطبائي أنّ هذا التفسير يقضي بأن تكون الإرادة القديمة وجهاً من وجوه علمه القديم.. إذن فليس وراء علمه تعالى القديم شيء، فما هو منشأ انتزاع صفة أخرى باسم الإرادة؟! وما الذي دعاهم إلى هذا التمحّل وتكلّف التأويل؟!

فممّا استشكله الحكيم السبزواري: أنّ علمه تعالى يتعلّق بكلّ شيء حتّى الظلم والقبيح، في حين أنّه تعالى لايريد شرّاً بالعباد.[٣]

وأجاب بأنّ إرادة الشرّ تبعيّة وليست أصليّة. أي إنّه تعالى أراد خيراً لعباده، ولكنّهم لسوء تصرّفهم قلبوه شرّاً.. ومعلوم أنّه لايقع شيء في عالم الوجود إلّا عن إذنه تعالى.

وثانياً: هذا يخالف ما ورد في أحاديث أهل البيت ﷺ أنّها (أي الإرادة) صفة فعل وهو فعله تعالى.[٤]

وأجاب بأنّ للإرادة مراتب ثلاث: إرادة حقّة حقيقيّة، هذه عين ذاته تعالى. وفسّرت بالمحبّة الذاتيّة المتعلّقة بالذات أوّلاً، ثمّ منها تسرّبت إلى حبّ الآثار. وهي أفعاله تعالى. وقد قيل: «من أحبّ شيئاً أحبّ آثاره».[٥]

والمرتبة الثانية: إرادة حقّة ظلّيّة، وهي مقام التجلّي والظهور، والذي هو في كلّ شيء بحسبه.

والمرتبة الثالثة: إرادة هي من مقولة الإضافة، تلحظ في متعلّقها، نظير العلم الحادث بلحاظ حدوث معلومه.[٦]

وثالثاً: إنّه تعالى إنّما يوجد الأشياء حسب أوقاتها، فهي حادثة ولابدّ لها من مرجّح يخصّص إيجادها في وقت كذا وفي ظرف كذا.. والإرادة القديمة لاتصلح لهذا الترجيح، كما لاينفعه العلم

---

(١) حيث قوله: «قالوا: إرادته تعالى علمه بالنظام الأصلح...» حسبما عرفت.

(٢) راجع: أسرار الحكم ١: ١١٨ ـ ١٣٠.

(٣) المصدر: ١١٨.

(٤) المصدر: ١١٩.

(٥) المصدر: ١٠٠.

(٦) المصدر: ١٢٠.

الأزلي القديم. لانّ الصفة إذا كانت قديمة كانت نسبتها إلى الكائنات سواء.

وأجاب بأنّ حدوث الأشياء إنّما هو بسبب الدورة الفلكيّة، باعتبارها شرطاً في تحقّق الكائنات عن علّتها الأُولى والتي هي إرادته تعالى القديمة.. فالعلّة قديمة والشرط حادث، وهذا هو المرجّح لتحقّق الكائنات في ظروفها الخاصّة.(١)

ورابعاً: إنّ إرادته تعالى القديمة إذا كانت العلّة لحدوث الكائنات ومنها أفعال العباد الاختياريّة، لاستلزم ذلك سلب الاختيار وهو من معضل الإشكال.

وأجاب بأنّ إرادته تعالى تعلّقت بأن يفعل العباد أفعالهم عن اختيارهم، وإن كانوا في الاختيار غير مختارين.(٢)

وخامساً: إنّ الإرادة الذاتيّة ـ حسب تفسيرها بالعلم الذاتي ـ قد تعلّقت بجميع أفعال العباد، فإذ لم يكن يتخلّف المراد عن الإرادة، فلن يتخلّف معلوم عن العلم به أزلاً. وهذا يستلزم الجبر.

وأجاب بأنّ العلم إنّما تعلّق بالمعلوم على ما هو عليه، من كونه وقع عن اختيار فاعله أولا عن اختياره، ومن ثمّ فلا تأثير للعلم في المعلوم سوى الكشف عنه على النحو الّذي وقع.(٣)

وسادساً: إنّ الإرادة الأزليّة كالعلم الأزلي تعلّقت بكلّ شيء وبكلّ فعل، من حَسَنٍ أو قبيح. إذن فقد تعلّقت إرادته تعالى وهو رضاه بذلك. فيجب أن يرضى العباد بكلّ ما رضيه الله، ومنه الكفر والظلم والعصيان.. فالظالم العاصي ينبغي له أن يرضى بعمله، لأنّه واقع تحت إرادته تعالى ورضاه به أزلاً.

وأجاب بأنّه من باب الرضا بالقضاء، لا الرضا بالمقضيّ ـ كما ذكره الغزالي ـ فقد قضى الله الكفر للكافر، ولكنّه لم يرض منه عملاً صالحاً.(٤)

وسابعاً: وإذ كانت الكائنات لاتقع إلّا بإرادته تعالى وقضائه الذي لايُردُّ ولايُبدَّل، فما وجه تردّده تعالى في قبض روح عبده المؤمن. يكره الموت والله تعالى يكره مسائته!؟ كما في الحديث القدسيّ!

وأجاب عنه ـ نقلاً عن السيّد داماد ـ بأنّ التردّد إنّما هو بالنسبة إلى جانبين من الأمر، فمن

---

(١) المصدر.

(٢) المصدر: ١٢١.

(٣) المصدر: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) المصدر: ١٢٥ ـ ١٢٦.

جانبه الذاتي ـ الموافق لنظام الطبيعة ـ كان وفق قضاء الله وقدره. وأمّا من جوانب أُخر ومنها مسألة العبد للموت، فيمكن أن يُكره، فلاتنافي بين تلك الإرادة ذاتياً وهذه الكراهة الجانبيّة عَرَضاً.[(١)]

وذكر أخيراً: أنّه تعالى قد ينسب إلى نفسه ما لعبده من صفة أو عمل، فيجعل رضاه رضاه وسخطه سخطه فهو تعالى رضي بموت هذا العبد وفق قضائه المبرم، لكنّه جعل كراهة عبده كراهةً له فقد رضي تعالى رضاً ذاتياً، وكره لكراهة عبده المؤمن عرضياً.[(٢)]

إرادة تكوينيّة وإرادة تشريعيّة

اصطلح أهل الفنّ على تسمية إرادة الله المتعلّقة بتكوين شيء بالإرادة التكوينيّة، وتسمية طلبه لأمر بالإرادة التشريعيّة، وهذا يشكّل طرفاً من مباحث «الطلب والإرادة» في علم الأصول.

فمن الأوّل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[(٣)]. ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[(٤)] وهي إرادة لا مردّ لها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾[(٥)].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[(٦)] أي أراد بتشريعاته السهلة السمحة اليسر بكم في حياة سعيدة ميسّرة، لا الحياة الضنك التعيسة.

وهذه الإرادة التشريعيّة تعلّقت بفعل المكلّفين عن اختيارهم ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[(٧)]. أي أرشدناه إلى معالم السعادة في الحياة، فإمّا يترحّب بها ويعمل على هديها، ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٨)]. أو يرفضها وينبذها وراء ظهره ويتّبع خطوات الشيطان وبذلك يسلك سبيل الكفران، كفران النعم، ويكون مآله الضلال والخسران في نهاية المطاف. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[(٩)].

---

(١) المصدر: ١٢٨.
(٢) المصدر: ١٣٠.
(٣) يس ٣٦: ٨٢.
(٤) الأحزاب ٣٣: ١٧.
(٥) الرعد ١٣: ١١.
(٦) البقرة ٢: ١٨٥.
(٧) الإنسان ٧٦: ٣.
(٨) النحل ١٦: ١٢١.
(٩) البقرة ٢: ٢٥٧.

أمّا الإرادة التكوينيّة فلا يتخلّف عنها المراد، ما أراد الله كان ومالم يرد لم يكن: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

بل لا حاجة إلى قولة «كن» وإنّما هي تقدير. وبعبارة فنّيّة: إنّ نفس إرادته تعالى لتكوين شيء كافية في تحقّقه وجوداً. والأمر في قوله «كن» أمر تكويني أيضاً، حيث إرادته تعالى هو فعله، كما عرفت.

[٣١٢٩/٢] وفي حديث الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ قال: «﴿كُن﴾ منه صنع، ومايكون به [هو] المصنوع».[2]

* * *

والتفكيك بين الإرادتين شيء معروف في أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام، منها:

[٣١٣٠/٢] ما رواه الصدوق بإسناده عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام قال: «إنّ لله إرادتين ومشيئتين، إرادة حتم وإرادة عزم». ثمّ شرح عليه السلام الثانية بقوله: «ينهى وهو يشاء» أي يشاء أن يقع، وإن كان نهى عنه ـ في الظاهر ـ أن لايقع. فنهيه نهي تشريع، أمّا مشيئته فمشيئة تكوين. وقد مثّل له الإمام عليه السلام بنهي آدم عن الأكل من الشجرة، وقد كانت المصلحة تستدعي الأكل منها، حيث خلق آدم ليعيش على الأرض ليعمرها ويكون خليفة الله فيها. فقد تخلّفت إرادته تعالى التشريعيّة عن إرادته التكوينيّة.

ثمّ قال عليه السلام: «ويأمر وهو لايشاء». ومثّل بأمره تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام حيث تخلّف التشريع عن التكوين.[3]

قال أبو جعفر الصدوق رحمه الله: إنّ الله تعالى نهى آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة، وقد علم أنّهما يأكلان منها، لكنّه تعالى شاء أن لايحول بينهما وبين الأكل منها بالجبر والقهر، كما منعهما من الأكل منها بالنهي والزجر. فهذا معنى مشيئته تعالى فيهما. ولو شاء منعهما من الأكل قهراً ثمّ أكلا منها لكانت مشيئتهما قد غلبت مشيئةَ الله، تعالى الله عن ذلك.[4]

---

(١) النحل ١٦: ٤٠.

(٢) عيون الأخبار ١: ١٥٤، باب ١٢ (في كيفيّة الخلق الأوّل)؛ التوحيد: ٤٣٦، باب ٦٥؛ البحار ١٠: ٣١٤ / ١، باب ١٩.

(٣) التوحيد: ٦٤ / ١٨ في خبر طويل؛ البحار ٤: ١٣٩ / ٥؛ الكافي ١: ١٥١؛ مرآة العقول ٢: ١٦١.

(٤) التوحيد: ٦٥ ـ ٦٦.

وقال العلّامة المجلسي ﷺ: إنّه تعالى لمّا لم يصرفها عن إرادتهما ووكلهما إلى اختيارهما، نظراً لمصالح عظيمة، فكأنّه تعالى شاء ذلك.[١]

قلت: هذه المسألة تعود إلى مسألة الأمر بين الأمرين، وموضع إذنه تعالى في وقوع أفعال العباد الاختياريّة. فلا يقع شيء إلّا من بعد إذنه تعالى: ﴿وَ مَا تَشَآؤُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾[٢] أي لا يتحقّق فعل ما تشاؤونه، إلّا من بعد أن يأذن الله سواءٌ أكان خيراً أم شرّاً.[٣] ﴿وَ مَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٤]. أي لا يتحقّق الضرر الذي أريد، إلّا من بعد إذنه تعالى.

وهذه الإرادة ـ المعبّر عنها بالإذن في المصطلح القرآني ـ إرادة حادثة تابعة لإرادة العبد، تحقيقاً لمبدأ الاختيار في التكليف ـ كما نبّهنا في مجال سابق ـ حيث كان التكليف للاختبار، ولا اختبار إلّا مع الاختيار. فالله تعالى هو الذي يمهّد السبل لاختيار الهدى أو الضلال. ﴿وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٥]. ﴿وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَ قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٦].

ومن ثَمَّ كان تعالى يُسند كلّاً من الإضلال والهداية إلى نفسه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[٧]. والإضلال هنا بمعنى الخذلان[٨]، أي الإيكال إلى العبد وما يختار، بعد أن لم تنفعه الهداية وسلك سبيل الغواية عن عناد ولجاج..

فقد كان كلٌّ من الإضلال والهداية عن حكمة رشيدة وليس اعتباطاً وبلا هوادة.. ومن ثَمَّ جاء التعقيب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٩].

قوله تعالى: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[٢/٣١٣١] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس، قال: قال حُريملة

---

(١) البحار ٤: ١٣٩ ـ ١٤٠؛ مراة العقول ٢: ١٦١.
(٢) الإنسان ٧٦: ٣٠.
(٣) إذ لا مؤثّر في الوجود إلّا الله.
(٤) البقرة ٢: ١٠٢.
(٥) البلد ٩٠: ١٠.
(٦) الشمس ٩١: ٧ ـ ١٠.
(٧) النحل ١٦: ٩٣.
(٨) راجع: التمهيد ٣: ١٨١ وما بعد.
(٩) الإنسان ٧٦: ٣٠.

لرسول الله ﷺ: يا محمّد، إن كنت رسولاً من الله، كما تقول، فقل لله فليكلّمنا حتّى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم كفّار العرب. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا...﴾ أي هلّا يكلّمنا. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ يعني اليهود والنصارى وغيرهم. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم.[١]

[٣١٣٢/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ قال: النصارى تقوله، والّذين من قبلهم يهود.[٢]

[٣١٣٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قال: معتبراً لمن اعتبر.[٣]

[٣١٣٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿لَوْلَا﴾ يعنون هلّا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ يخبرنا بأنّك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ﴾ كما كانت الأنبياء تأتيهم الآيات تجيء إلى قومهم. يقول الله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يقول هكذا قالت بنو إسرائيل من قبل مشركي العرب، كما في سورة البقرة[٤] والنساء[٥]، قالوا لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وأتوا بالآيات وسمعوا الكلام فحرّفوه، فهل هؤلاء إلّا مثل أولئك؟! فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ثمّ قال: وإن كذّب مشركو العرب بمحمّد ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ أي فقد بيّنّا الآيات، فذلك قوله ـ سبحانه ـ في العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ﴾ يعني بيان أمر محمّد. آيات ﴿بَيِّنَات﴾[٦] يعني واضحات في التوراة أنّه أمّي لا يقرأ الكتاب ولا يخطّ بيمينه ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني مؤمني أهل التوراة.[٧]

---

(١) الدرّ ١: ٢٧١؛ الطبري ١: ٧١٥ / ١٥٤٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٥ / ١١٤٠ عن قتادة.

(٢) الدرّ ١: ٢٧١؛ الطبري ١: ٧١٤ ـ ٧١٥ و ٧١٧ / ١٥٤٤ و ١٥٥٠ واختاره الطبري بدليل أنّ ذلك في سياق خبر الله عنهم وعن افترائهم عليه وادّعائهم له ولداً؛ ابن أبي حاتم ١: ٢١٥ / ١١٤٢، و ٢١٦ / ١١١٤؛ الثعلبي ١: ٢٦٥، بلفظ: هم النصارى.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٢١٦ / ١١٤٦.

(٤) البقرة ٢: ٥٥.

(٥) النساء ٤: ١٥٣.

(٦) العنكبوت ٢٩: ٤٩.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٣٤.